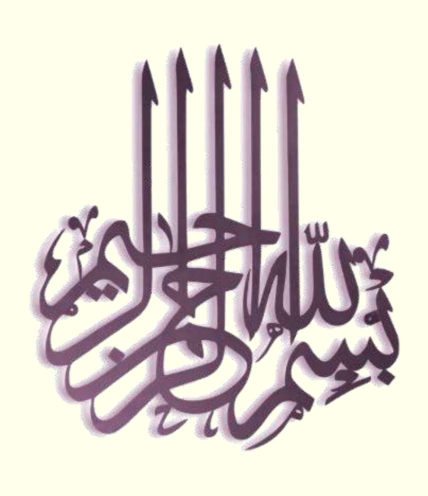


دِرَاسَةٌ تَتَنَاوَلُ تَعْرِيفَ القَصَصِ والأَحَادِيثِ والأَخْبَارِ
وبَيَانَ مَقَاصِدِهَا وحَقِيقَةَ الزَّمَنِ ودِلَالَاتِ أَلْفَاظِهِ فِيهَا

د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان





تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ
وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾

الزَّمَانُ وَالهِدَايَةُ وَالاعْتِبَارُ
فِي قَصَصِ القُرْآنِ
وَالأَحَادِيثِ وَالأَخْبَارِ



جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى : ١٤٤٥ هـ الموافق ٢٠٢٤م

رقم الإيداع : ٢٤١٣٥٢٢

الترقم الدولي : 978-977-997-817-8



@DarElollaa

Dar_Elollaa@hotmail.com

الأزهر : شارع محمد عبده خلف الجامع الأزهر .

01050144505 - 0225117747

المنصورة : عزبة عقل - بجوار جامعة الأزهر .

01007868983 -0502357979




الزمان والهداية والاعتبار
في قصص القرآن
والأحاديث والأخبار
دراسة تتناول تعريف القصص والأحاديث والأخبار
وبيان مقاصدها وحقيقة الزمن ودلالات ألفاظه فيها
د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان
دار اللؤلؤة
للنشر والتوزيع
المنصورة - مصر

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ١١١﴾ [يوسف:١١١].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة:

الحمدُ لله الذي جعلَ كلامه ذكرى لكلِّ مدكر، وجعلَ من مقاصدِ الذِّكر الحكيم، ما يهدي إلى صراطِه المستقيم، وقَصَّ في كتابه المبين، من قَصَصِ الغَابِرين، ومصارعِ الطُّغاة المتجبِّرين، وهلاكِ العتاة الظَّالمين، ما يكون على مرِّ الأيام والسنين، عبرةً لكلِّ معتبر، وهدايةً لكلِّ متَّعظٍ مُزْدَجِر، وما يُبَيِّنُ مآلَ كلِّ كذَّابٍ أَشِر، وعاقبةَ كلِّ مُسْتَكْبِرٍ بَطِر، توالتْ عليه الشَّدائد، وهو في يومٍ عَسِر، قد خَابَ فيه سَعْيُه، ولأخراه خَسِر، وقد نجا من سوءِ عاقبةٍ كلُّ تقيٍّ حَذر، قد خالفَ النَّفسَ والهوى، وهو من كلِّ معصية يفرُّ.

وقد شرعتُ في هذا الكتاب في برهة من زمان، قد بات الفجر فيه أسير ليل، والحليم في فتن تموج فيه حيران، وفي تبدُّلٍ لأحوال جُلِّ الأنام، وتقلُّبٍ لأيام، وانصرام لأعوام، وهرج واختلاف أمر، وتقارب للزمان، ودنو لأجلٍ، وضعف لبنيان، وفي كلِّ حين منه، تعصف بي رياحٌ، وتقرِّبني من كلِّ أمر خَطِر، كريشةٍ في مهبِّ ريحٍ مستمر، في غربةٍ تقاذفني في بحارٍ لا ضفافَ لها، ومُحْدَق بكلِّ شرٍّ مستطِر، من بغي وظلم وجهل منتشر، فأجوز بشق النفس كلَّ أمر عَسِر، قد أحاط بي من كل ناحية، وطوَّقني فما كدت منه أفر، فأحيد بعون كريمٍ عن ضنك هاوية، والحال ليس بمستقر، في دنيا ابتلاء وبغي مستعر، وظلالُ اللُّطف تحوطني في كلِّ نازلة، وتنجيني من مكر كلِّ شيطان أَشِر، قد بدا قويًّا فيما ظهر، مستعليًا على خلق، وقابضًا على صولجان، وغير فانٍ ولا محتَقر، فمهما غاب عدل واستتر، وبغى ظالم على ضعيف وانتصر، ومهما ظلام طال في ليلٍ وانتشر، وأرخى على الصابرين سدوله، وامتدَّ في زمن البغي رواقُه، فإنه من الأفول قريب ومحتَضر، وإن اليسر بلا ريب قريب منتظَر، فلا يغلب عسر يسرين، كما في أصدق الخبر، والبِشر وعدُ صدقٍ

لكلِّ صبور منتظِر، فما بعد ظلام ليل معتكر، إلَّا إشراقة فجر يوم مزدهر، وما عند الله عَزَّوَجَلَّ باق، والخير منه منهمر، وما عند العبد يفنى ويندثر.

فكم لِلَّهِ من لُطْفٍ خَفِيّ ... يَدِقُّ خَفَاهُ عن فَهْمِ ذَكِيّ
وكَمْ يُسْرٍ أتى من بعدِ عُسْرٍ ... وفَرَّجَ لَوْعَةَ الْقَلْبِ الشَّجِيّ
وكَمْ هَمٍّ تُسَاءُ بِهِ صَبَاحًا ... فَتَعْقُبُهُ الْمَسَرَّةُ بِالْعَشِيّ

وأصلِّي وأسلِّم على المبعوث رحمةً للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإنَّ أحسنَ الحديث كلامُ الله عَزَّوَجَلَّ، وخيرَ الهدي هديُ محمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وشرَّ الأمور مُحدثاتها، وكل مُحدثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالة.

إنَّ القرآن الكريم هو كلام الله عَزَّوَجَلَّ المنزل على خير خلقه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو الهادي إلى صراط مستقيم، وهو حبل الله عَزَّوَجَلَّ المتين، وإن القصص فيه هي أصدق القصص، وأنفعها للمكلف، وهي من أعظم أسباب الهداية، وقد وقع الإخبار فيها عن أحوال الأمم، والنبوَّات السَّالِفَة، بأسلوب مشوق، باعث على التأمل والتفكر فيما تتضمَّنه من حقائقَ وعِبَر؛ يقصد منها: الهداية والإرشاد إلى طريق الحقِّ، والاعتبار بالعواقب لكلِّ عملٍ يقدم عليه الإنسان في حياته الدنيا، فهو ينظر بعين البصيرة إلى عاقبة من عمل صالحًا فأثمر ذلك العمل استقامة وصلاحًا، وراحة واطمئنانًا، وحياة طيبة، وحسن جزاء في الآخرة، وإلى مآل من ضلَّ وانحرف، فبغى وظلم، فنزل به عقاب الله عَزَّوَجَلَّ، وهو في الآخرة من الخاسرين.

وقد كان هذا البحث الذي يتناول: **(قصص القرآن، والأحاديث، والأخبار)** من ضمن الموضوعات التي ذكرتها مجملة في الجزء الثاني، من كتاب: (تذكرة وبيان من علوم القرآن)، ثم رأيت إفرادها بالبحث في هذا المصنف مع زيادة إيضاح، وسميته: **(الزمان**

والهداية والاعتبار في قصص القرآن والأحاديث والأخبار)، لبيان تميز القصص، والأحاديث، والأخبار في القرآن الكريم، من حيث إن الكلام فيها هو كلام الله عَزَّوَجَلَّ، ومثل ذلك من حيث الإخبار: ما حدَّث به النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن المرائي والأمور الواقعة في المستقبل، أو عن غيبياتٍ لا تخضع للقانون الذي جعله الله عَزَّوَجَلَّ مطردًا في هذا الكون؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ خالق الزمان، وهو جَلَّوَعَلَا فوقه، وهو المتصرف فيه كيف شاء، فلا يحده زمن؛ ولأن هذا الغيب خارج عن حدود العقل، فلا يستقل بإدراكه، فيقتصر في ذلك على ما جاء في صحيح النقل، فمن الغيب ما هو خارج عن النظام الكوني المألوف والمطرد إلى غيب لا يعلم كنهه إلا الله عَزَّوَجَلَّ، فهو جَلَّوَعَلَا خالق الكون، وخالق الزمان والمكان.

وقد ذكر الأستاذ عباس العقاد رَحِمَهُٱللَّهُ: "أن عقيدة المسلم من جملة الغيبيات، وأنها شيء يعلمه الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يعلمه الإنسان، ولكنها لا تناقض العقل ولا تلغيه، فليست هي ضد العقل لو عرفها وانكشف له الغطاء عنها، ولكنها فوق عقل الإنسان؛ لأنه محدود، وعالم الغيب مطلق غير محدود.

ومن قال: إنه يرفض الإيمان بغير المحدود، فكأنما يقول: إنه يرفض الإيمان بما يستحق الإيمان؛ إذ لا إيمان على الهدى بمعبود ناقص دون مرتبة الكمال الذي لا تحصره الحدود. إلا أن الفارق عظيم بين ما هو ضد العقل، وما هو فوقه، وفوق ما يدرك بالعقول المحدودة.

فما هو ضد العقل يلغيه ويعطله، ويمنعه أن يفكر فيه وفي سواه، وما هو فوق العقل يطلق له المدى إلى غاية ذرعه، ثم يقف حيث ينبغي له الوقوف، وينبغي له الوقوف وهو

يفكر ويتدبر، إذا كان من العقل أن يفهم ما يدركه وما ليس يدركه إلا بالإيمان. وحيثما بلغ الإنسان هذا المبلغ فقد انتهى بالعقل والإيمان على وفاق" (١).

وعندنا أكثر من قاعدة في الحكم على الغيبيات، منها: أن (**عدم الوجدان لا يستلزم عدم الوجود؛ إذ الموجودات أعم من المشاهدات**)، و(**عدم العلم بشيء ليس علمًا بعدمه**)، أو (**ما يحكم العقل باستحالته غير ما يعجز عن دركه**)، والعقل إنما يقرأ النقل، وينظر في قيام الدلائل والشواهد على صدق القائل. وقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ المنزل لقوم يعقلون، وجعل العقل مناط التكليف -كما هو معروف ومقرر-، وجعل العلم والنظر، والتفكر في الخلق، طريقًا موصلًا إلى الحقائق، ودالًّا على الخالق جَلَّوَعَلَا؛ ولذلك لا يتصور وجود نص من مشرع حكيم يتناقض مع المسلمات والمبادئ العقلية، أو الحقائق العلمية. ونقول باستحالة وجود تعارض بين الآيات القرآنية، والحقائق العلمية، ومن قال بذلك فهو إما جاهل بالآية، أو جاهل بالحقيقة العلمية. وقد فصَّلتُ القول في ذلك في كتاب: (الإرشادات المنهجية إلى تفسير الآيات الكونية).

والإيمان بالغيب يدخل فيه: كل ما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ به، وكذا ما أخبر به رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مما صح عنه.

ومن ذلك: الإيمان بالملائكة، والجن، والعرش، والكرسي، والجنة والنار، ونعيم القبر وعذابه، والصراط والميزان.. إلى غير ذلك.

والإيمان بالغيب من أعظم الأركان التي تقوم عليها عقيدة المسلم؛ ولذلك جعله الله عَزَّوَجَلَّ أول صفات المتقين، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة:٢-٣].

(١) انظر: التفكير فريضة إسلامية، لعباس العقاد (ص:٨٥-٨٦).

وقد وردت أحاديث لا يلتفت فيها إلى الزمن بمقدار ما ينظر إلى القصد والفائدة منها، وفيها: الحثُّ على ما ينبغي فعله من الطاعات، والاحتراز عن ذنوب؛ لسوء مآل أصحابها، من نحو: مرائي المعراج، وكما في حديث: أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**رأيْتُ عمرو بنَ عامر بن لُحَيٍّ الخُزَاعِيَّ يَجُرُّ قُصْبَهُ في النَّار، وكان أوَّلَ من سَيَّبَ السَّوَائِبَ**» [١]، أي: وضع تحريم السَّوائب، وهي جمع سائبة، وهي المذكورة في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [المائدة:١٠٣].

قال المفسرون: إن عمرو بن لحي الخزاعي كان قد ملك مكة، وكان أول من غير دين إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فاتخذ الأصنام، ونصب الأوثان، وشرع البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام.

و«**قصبه**» بضم القاف وإسكان الصاد، يعني: أمعائه؛ لأنه كان أول من أدخل الشرك على العرب.

وعن سعيد بن المسيب رَحِمَهُ اللَّهُ قال: (**البحيرة**): التي يمنح درُّها للطواغيت.

و(**السائبة**): الإبل، كانوا يسيبونها لطواغيتهم.

و(**الوصيلة**): من الإبل، كانت الناقة تبتكر بأنثى، ثم تثنى بأنثى، فيسمونها: (الوصيلة)، يقولون: وصلت أنثيين ليس بينهما ذكر، فكانوا يجدعونها لطواغيتهم، أو: يذبحونها.

---

(١) صحيح البخاري [٤٦٢٣، ٤٦٢٤]، مسلم [٢٨٥٦].

و(**الحام**): الفحل من الإبل، كان يضربُ. الضرابَ المعدودة، فإذا بلغ ذلك قالوا: هذا حام، قد حمى ظهره، فترك، فسموه: (الحام) قال معمر قال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ: إذا ضرب عشرة [(١)].

قال الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ: "كان أهل الجاهلية إذا نتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر، بحروا أذنها، أي: شقوها وحرَّموا ركوبها، ولا تطرد عن ماء ولا مرعى، وإذا لقيها المعيي لم يركبها [(٢)]، واسمها: البحيرة.

وكان يقول الرجل: إذا قدمت من سفري أو برئت من مرضى فناقتي سائبة، وجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها.." [(٣)].

فإن قيل: السوائب هي المسيبة، فكيف يقال: سيب السوائب؟ قالوا في الجواب: معناه: سيب النوق التي تسمى: بالسوائب، فهو من قبيل قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ [يوسف:٣٦]، أي: أعصر عنبًا يؤول أمره إلى خمر؛ لأنه حال عصره لا يكون خمرًا، فالعلاقة هنا: اعتبار ما يؤول إليه.

وحديث: جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**يا أيها الناس: إنما الشمس والقمر آيتان من آيات الله، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد من الناس – وقال أبو بكر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **لموت بَشَرٍ– فإذا رأيتم شيئًا من ذلك فصلوا حتى تنجلي. ما من شيء توعدونه إلا قد رأيته في صلاتي هذه، لقد جيء بالنار، وذلكم حين رأيتموني تأخَّرتُ؛ مخافة أن يصيبني من لَفْحِهَا، وحتى رأيت فيها صاحبَ الْمِحْجَنِ يَجُرُّ قُصْبَهُ**

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٣١/١١)، تفسير عبد الرزاق (٣٠/٢)، تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (١٢٢١/٤)، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٥٥٥/٢).

(٢) الْمُعْيِيَ هو الذي ينقطع عن السَّيْر، أي: لا يركبها تحرجًا.

(٣) انظر: الكشاف (٦٨٤/١-٦٨٥).

في النار، كان يَسْرِقُ الْحَاجَّ بِمِحْجَنِهِ، فإن فُطِنَ له قال: إنما تَعَلَّقَ بِمِحْجَنِي، وإن غُفِلَ عنه ذهب به، وحتى رأيت فيها صاحبة الهرة التي ربطتها فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض [١]**، حتى ماتت جوعًا»** الحديث [٢].

ذلك: ما جاء عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**رأيتني دخلت الجنة، فإذا أنا بالرميصاء، امرأة أبي طلحة، وسمعت خشفة، فقلت: من هذا؟ فقال: هذا بلال، ورأيت قصرًا بفنائه جارية، فقلت: لمن هذا؟ فقال: لعمر، فأردت أن أدخله فأنظر إليه، فذكرت غيرتك**»، فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بأبي وأمي يا رسول الله أعليك أغار؟ [٣].

(١) «خشاش» -بفتح الخاء المعجمة-: حشرات وهوام الأرض. وقيل: صغار الطير. وحكى القاضي: فتح الخاء وكسرها وضمها والفتح هو المشهور. وقال الجوهري: هو الحية ونحوها مما في الأرض. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٦/٢٠٧)، وانظر: إكمال المعلم، للقاضي عياض (٣/٣٤٢-٣٤٤)، الصحاح، للجوهري، مادة: (خشش) (٣/١٠٠٤).

(٢) صحيح مسلم [٩٠٤]. وقوله: و«لفحها»: -بفتح فسكون-. و«مخافة» منصوب على العلة، أي: خشية إصابة لفحها إياي. وفي (النهاية): لفح النار -بالفاء والحاء-: وهجها وحرها. «صاحب المحجن»: -بكسر الميم وسكون الحاء المهملة وفتح جيم-: عصا في رأسه اعوجاج اعوجاج كالصولجان، والميم زائدة. وقيل: خشب طويل على رأسه حديدة معوجة. «يجر قصبه»: -بضم فسكون-، أي: يسحبه. «في النار»: و(الْقُصْبُ): الْمِعَى، وجمعه أقصاب. وقيل: الْقُصْبُ: اسم للأمعاء كلها. وقيل: أمعاء أسفل البطن. «وكان يسرق الحاج»: أي: متاعه. «بمحجنه، فإن فطن له» أي: علم به. «قال: إنما تعلق»، أي: الشيء المسروق «بمحجني، وإن غفل عنه»، أي: ذهل وجهل به ذهب به. انظر: مرقاة المفاتيح (٥/١٩٧١-١٩٧٢)، شرح النووي على صحيح مسلم (٦/٢٠٩)، النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (لفح) (٤/٢٦٠).

(٣) صحيح البخاري [٣٦٧٩]، مسلم [٢٤٥٧].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لبلالٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند صلاة الفجر: **«يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام؛ فإني سمعت دَفَّ نَعْلَيْكَ بين يَدَيَّ في الجنة»**، قال: ما عملت عملًا أرجى عندي: أني لم أتطهر طهورًا، في ساعة ليل أو نهار، إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي. قال أبو عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ: **«دَفَّ نَعْلَيْكَ»**، يعني: تحريك [١].

وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: أصبح رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فدعا بلالًا فقال: **«يا بلال بم سبقتني إلى الجنة؟ ما دخلت الجنة قط إلا سمعت خشخشتك أمامي، دخلت البارحة الجنة فسمعت خشخشتك أمامي، فأتيت على قصر مربع مشرف من ذهب، فقلت: لمن هذا القصر؟ فقالوا: لرجل من العرب، فقلت: أنا عربي، لمن هذا القصر؟ قالوا لرجل من قريش، فقلت: أنا قرشي، لمن هذا القصر؟ قالوا: لرجل من أمة محمد** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **فقلت: أنا محمد لمن هذا القصر؟ قالوا: لعمر بن الخطاب. فقال بلال** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **يا رسول الله ما أذنت قط إلا صليت ركعتين، وما أصابني حدث قط إلا توضأت عندها، ورأيت أن لله عليَّ ركعتين»** [٢].

ونحو ذلك من الأحاديث.

---

(١) صحيح البخاري [١١٤٩]، مسلم [٢٤٥٨]. وعند مسلم: «فإنِّي سمعت اللَّيلة خَشْفَ نعليك» الحديث.

(٢) أخرجه أحمد [٢٣٠٤٠]، والترمذي [٣٦٨٩]، واللفظ له، وقال: "حسن صحيح غريب. قال: ومعنى هذا الحديث: «أني دخلت البارحة الجنة» يعني: رأيت في المنام كأني دخلت الجنة، هكذا روي في بعض الحديث، ويروى عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: «رؤيا الأنبياء وحي»" اهـ. والحديث أخرجه أيضًا: ابن خزيمة [١٢٠٩]، وابن حبان [٧٠٨٦]، والحاكم [١١٧٩، ٥٢٤٥]، وقال: "صحيح على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي.

فما أخبر به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مألوفًا كان أو غير مألوف فإنه واقع لا محالة؛ فإنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا ينطق عن الهوى، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم:٤]، وإن كان لا يلتفت فيه في مواضع كثيرة إلى الزمن بمقدار ما ينظر إلى القصد والفائدة، وهو الاعتبار والهداية، وإن كان في النصوص اعتبار للزمن فلنكتة ظاهرة، لا تخفى على متأمل من أولي البصائر.

وذكرت في العنوان: ركيزتي القصد من القصص، والأحاديث، والأخبار في الكتاب والسنة، وهما: الهداية والاعتبار، مع بيان مصطلحات البحث والألفاظ المرادفة؛ لما بينها من صلة، ولجريانها في الزمن الماضي والحاضر والمستقبل، وتنوع التعبير فيها، وسموها عن محددات الزمان، والمكان، والأشخاص، والمسافات؛ إذ إن الآيات إنما تُعنى في أهم ما تعنى بالهداية والاعتبار، فهما المقصد الأساس الذي ينبغي أن يلتفت إليه، دون التفات في الغالب إلى الزمان والأشخاص والمسافات في الغالب.

وإن ذكر شيء من ذلك في غير الغالب من الاستعمال فإنما يأتي لحكمة ظاهرة، ونكتة بالغة.

وقد مهدت لذلك بذكر مصطلحات البحث، والألفاظ ذات الصلة والمقاصد والدلالات. ثم بسطت القول في بيان مفهوم الزمان في الاصطلاح واعتبار الشارع، ثم التجوز في الأفعال في قصص القرآن، ثم بيان دلالات ومقاصد القسم بالزمن في القرآن الكريم، ثم بيان مقاصد القصص والأخبار، وأنها من وحي الله عَزَّ وَجَلَّ، فهي فوق الزمان، وهي أعم من أن تكون مقيدة بمحددات الزمن المألوف في النظام الكوني.

ثم بيان الأزمنة الفاضلة، وقد ذكرت في خاتمة الكتاب بعض ألفاظ الزمان الأكثر تداولًا في الكتاب والسنة ودلالالتها في اللغة والتفسير والفقه.

وأسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يكون عملًا نافعًا ومثمرًا، وهاديًا لكل باحث عن الحق، طالب للهداية.

أسأل الله جلَّ في علاه حسن الخاتمة، وأن يكرمني ومن انتفع بهذا المصنف بأعالي الجنان.

ولا أُبَرِّىءُ نفسي من التَّقصير والخطأ والنقص في كلِّ ما طغى به القلم، مما زلَّت فيه القَدَم، معتذرًا بنحو ما قال الإمام الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وظُنَّ به خيرًا وسامح نسيجه ... بالاغضاء والحسنى وإن كان هلهلا

وسَلِّمْ لإحدى الحسنيين إصابة ... والأُخرى اجتهاد رام صوبًا فأمحلا

وإن كان خرق فادركه بفضلة ... من الحلم وليصلحه من جاد مقولا [(١)]

وبما قال آخر: "والمأمول من الأحباء المتحلين بحلي الإنصاف، المتخلين عن رذيلتي: البغي والاعتساف، إذا عثروا على شيء فيه زلت القدم، أو طغى به القلم، أن يصلحوه بما يقتضيه المحل؛ فإن الإنسان منشأ النسيان والزلل، متمنيًا من الناظرين أن ينظروا بعين الإنصاف؛ فإن الإنصاف خير الأوصاف" [(٢)].

وقد ذكرت في هذا المصنف:

١ - تعريف مصطلحات البحث، والألفاظ ذات الصلة، وبيان المقاصد والدلالات.

٢ - بسط القول في الزمان في الاصطلاح واعتبار الشارع، وبيان قيمة الزمن في الكتاب السنة.

٣ - بيان التجوز في الأفعال في قصص القرآن وكلام الله عَزَّوَجَلَّ.

٤ - بيان أهمية ودلالات القسم بالزمن.

٥ - بيان المقاصد والدلالات للقصص والأخبار.

---

(١) متن الشاطبية (ص:٧).

(٢) مغني الطلاب، لمحمود حسن المغنيسي شرح متن إيساغوجي، لأثير الدين الأبهري (ص:٤٨-٤٩).

٦ – بيان الأزمنة الفاضلة.

٧ – معاني ودلالات بعض الألفاظ الزمان في اللغة، والتفسير، والفقه، والحديث.

وقد أوليت عناية لما ورد من أحاديث وأقوال من حيث التخريج، والتوثيق، والتحرير.

أما تخريج الأحاديث فيأتي على النَّحو التَّالي: إذا كان الحديث في الصَّحيحين، فإني أقتصر عليهما في التَّخريج، وإن كان في أحدهما دون الآخر، فإني أخرجه منه وأكتفي. وأمَّا إذا لم يكن الحديث موجودًا في الصَّحيحين أو أحدهما فإنِّي أسعى جاهدًا إلى تخريجه من المسانيد والسنن، وقد اعتمدت الترتيب على حسب تاريخ الوفاة، وذكر رقم الحديث فقط بالنسبة لكتب الحديث المرقمة بين مقفيين [**]، وذكر الجزء والصفحة بالنسبة للأحاديث غير المرقمة بين قوسين (**)، وإذا كثرت الطرق أكتفي بذكر أصحها.

وإذا ذكر في غير موضع فإني أكتفي بالتوثيق باعتبار أول ورود له فيما عدا الصحيحين.

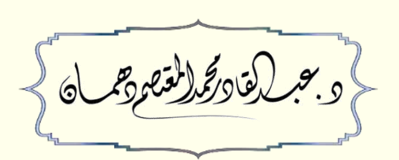
وفي حالة الزيادة على أول ورود فلنكتة لا تخفى على أولي البصائر.

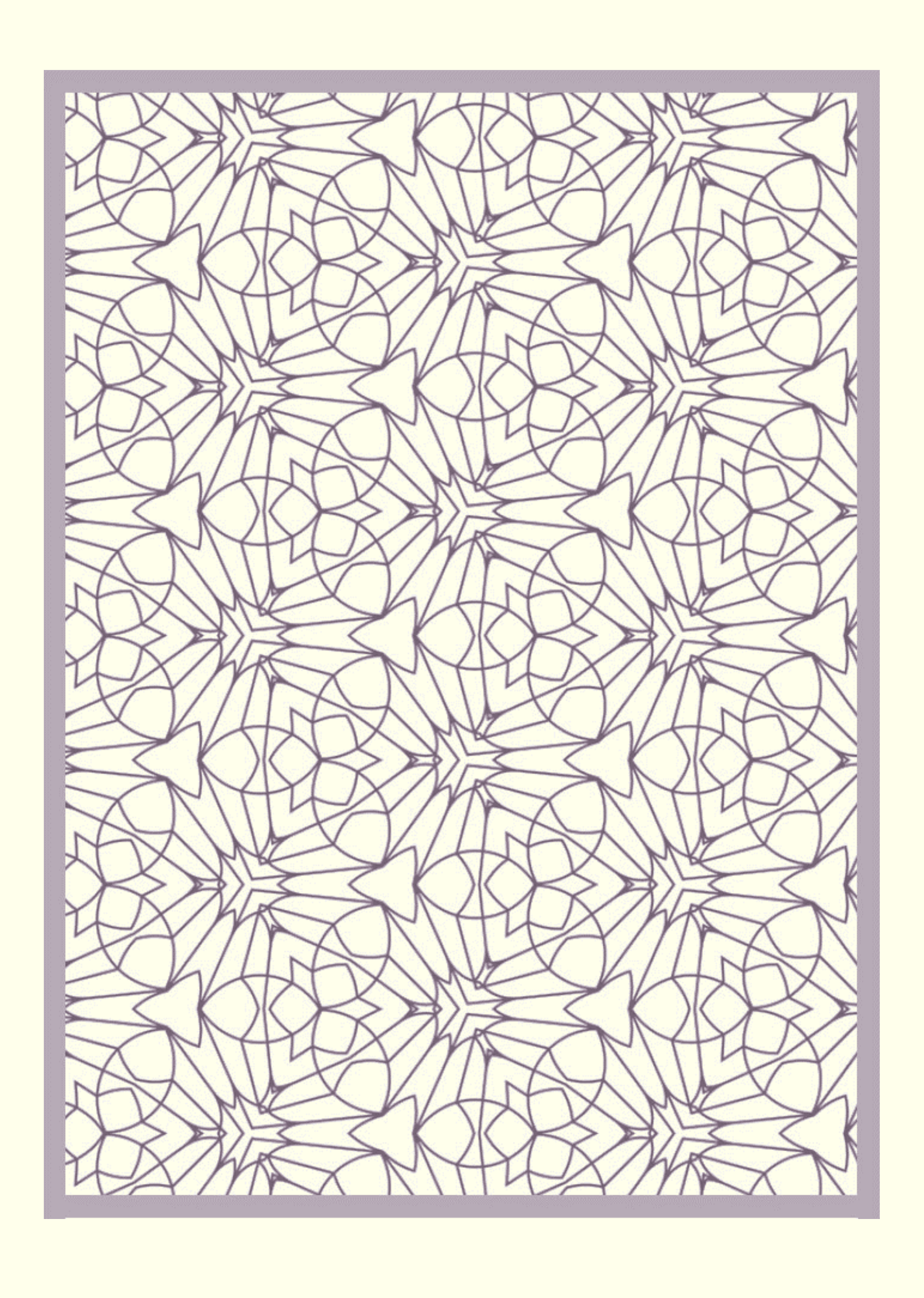
أمَّا الحكم على الحديث فإنني أذكرُ درجةَ الحديث إن لم يكن في الصَّحيحين. وإذا تكرَّر ذكر الحديث الشَّريف في مواطنَ لاحقة، فإنَّني أكتفي بالإشارة لتقدُّمه، وكذلك إذا تكرَّر ذكرُ الأثر أو القول فإنَّني أكتفي بالإشارة إلى تقدُّمه.

وقد التزمت توثيقَ الأشعار، والأمثال، والأقوال من مصادرها الأصلية، مع تحرير نسبة القول إلى صاحبه، وأن يختم الاقتباس بذكر المرجع الَّذي قد اقتبس منه في الحاشية. وذكر مادة كل لفظ عند الرجوع إلى المعاجم مع ذكر الجزء ورقم الصفحة.

والقوسان المقفيان [**] للإدراج والأرقام.

والقوسان الهلاليان (***) للجزء والصفحة، وللكلمات التي قد تحتاج إلى بيان.





المبحث الأول:
مصطلحات البحث والألفاظ ذات الصلة

أولًا: بيان معنى القصة في اللغة والاصطلاح:

١ - تحرير معنى القصة في اللغة وما يتصل بمادة اللفظ من المعاني:

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قَصَّ أثرَه، أي: تتبَّعه. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ٦٤﴾ [الكهف:٦٤]. وكذلك اقْتَصَّ أثرَه، وتَقَصَّصَ أثرَه.

و(القِصَّة): الأمرُ والحديث. وقد اقْتَصَصْتُ الحديث: رويته على وجهه. وقد قَصَّ عليه الخبرَ قَصَصًا. والاسمُ أيضًا: القَصَصُ -بالفتح-، وُضِعَ موضع المصدر حتَّى صار أغلبَ عليه.

و(القِصَصُ) -بكسر القاف-: جمع القصة التي تكتب.

و(القصاص): القَوَدُ. وقد أقَصَّ الأميرُ فلانًا من فلان: إذا اقْتَصَّ له منه فجرحه مثل جرحه، أو قتَلَه قَوَدًا. واسْتَقَصَّهُ: سأله أن يُقِصَّهُ منه.

وتَقاصَّ القومُ: إذا قاصَّ كلُّ واحدٍ منهم صاحبَه في حسابٍ أو غيره. ويقال: ضربه حتَّى أقَصَّهُ من الموت، أي: أدناه منه....." (١).

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (قصص) (٣/١٠٥١-١٠٥٢).

و(القَصَص): مصدر قولهم: قَصَّ فلانٌ الحديثَ، يقصُّه قَصًّا، وقَصَصًا. وأصله: اتِّباعُ الأثر، يقال: خرج فلانٌ قَصَصًا في أثر فلان، و(قَصًّا)، وذلك إذا اقتصَّ أثَره، ومنه قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ﴾ [القصص:١١]. وقيل للقاصِّ: يقصُّ لأتباعه خبرًا بعد خبر، وسَوقه الكلامَ سَوقًا. فمعنى القَصَص: الخبر الذي تَتَابَعُ فيه المعاني [(١)].

وقال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الْقَصُّ: تتبّع الأثر، يقال: قَصَصْتُ أثره، والْقَصَصُ: الأثر. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ٦٤﴾ [الكهف:٦٤]، ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ﴾ [القصص:١١]. ومنه قيل لما يبقى من الكلإ فيتتبّع أثره: قَصِيصٌ، وقَصَصْتُ ظُفْرَهُ، والْقَصَصُ: الأخبار المتتبّعة، قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّۚ﴾ [آل عمران:٦٢]، ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾ [يوسف:١١١]، ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ [القصص:٢٥]، ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف:٣]، ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍۖ﴾ [الأعراف:٧]، ﴿يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [النمل:٧٦]، ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ﴾ [الأعراف:١٧٦].

والقِصاصُ: تتبُّع الدَّم بالقود. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة:١٧٩]، ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌۚ﴾ [المائدة:٤٥]، ويقال: قَصَّ فلان فلانا، وضربه ضربا فَأَقَصَّهُ، أي: أدناه من الموت، والْقَصُّ: الجصُّ، و«**نهى رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **عن تَقْصِيصِ القبور**» [(٢)].

---

(١) انظر: التفسير البسيط، لأبي الحسن الواحدي (٥/٣٢٥).

(٢) المفردات في غريب القرآن، مادة: (قصص) (ص:٦٧١-٦٧٢). والحديث: في (صحيح مسلم) [٩٧٠]: عن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «نُهِيَ عن تَقْصِيصِ القبور». ويروى: «عن تجصيص القبور» يريد: تلبيسها بالجص. و(التقصيص) بالقاف وصادين مهملتين هو التَّجْصِيص. و(الْقَصَّة) بفتح القاف وتشديد الصاد هي: الجِصُّ، وفيه: كراهة تَجْصِيصِ القبر، والبناء عليه...انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٧/٢٧)، الاستذكار (١/٣٢٥).

قال جار الله الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ [يوسف:٣]: "الْقَصَصِ على وجهين:

أ. يكون مصدرًا بمعنى: الاقتصاص، تقول: قصَّ الحديث يقصه قصصًا، كقولك: شله يشله شللًا: إذا طرده.

ب. ويكون (فعلًا) بمعنى: (مفعول) كالنفض والحسب (١). ونحوه: النبأ والخبر في معنى: المنبأ به والمخبر به.

ويجوز أن يكون من تسمية المفعول بالمصدر، كالخَلْق والصيد (٢).

وإن أريد المصدر، فمعناه: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ أي: بإيحائنا إليك هذه السورة، على أن يكون ﴿أَحۡسَنَ﴾ منصوبًا نصب

---

(١) بمعنى: المنفوض، والحسب بمعنى: المحسوب، وكالخبط بمعنى: المخبوط، وكالرتق بمعنى: المرتوق.

(٢) أي: بمعنى: المخْلوق، والصيدُ في الأصلِ مصدر: صَادَ يَصِيدُ ويُصَاد، ويطلق على: الْمَصِيدِ. وتسمية المفعول بالمصدر كثير، ومنه تسمية المكتوب: كتابًا، وسمي المقروء قرآنًا كما سمي المكتوب كتابًا. ومن ذلك: ﴿فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةً﴾ [طه:٩٦] فالقبضة هي المرة من القبض، وإطلاقها على المقبوض من تسمية المفعول بالمصدر. ومن ذلك: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدًا ۝٦﴾ [النبأ:٦] فالمهد والمهاد: الشيء الممهد، سموا المفعول بالمصدر، كقوله في الدرهم: ضرب الأمير، أي: مضروبه، ومنه حديث: «يَا آدمُ ابْعَثْ بَعْثَ النَّار»، أي: المبعوث إليها من أهلها. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٨٠﴾، وقد تقدم في الجزء الأول: أن التنزيل في الأصل: مصدر، سمي به الكلام المنزل من عند الله عَزَّوَجَلَّ على رسوله محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وتسميته به من قبيل تسمية المفعول بالمصدر، ونظير ذلك: تسمية المقروء بالقرآن.. إلى غير ذلك.

المصدر، لإضافته إليه، ويكون المقصوص محذوفًا [١]؛ لأنَّ قوله: ﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ مغن عنه.

ويجوز أن ينتصب ﴿هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ بـ: ﴿نَقُصُّ﴾، كأنه قيل: نحن نقص عليك أحسن الاقتصاص هذا القرآن بإيحائنا إليك. والمراد بأحسن الاقتصاص: أنه اقتصَّ على أبدع طريقة، وأعجب أسلوب. ألا ترى أنَّ هذا الحديث مقتص في كتب الأولين، وفي كتب التواريخ، ولا ترى اقتصاصه في كتاب منها مقاربًا لاقتصاصه في القرآن.

وإن أريد بالقصص: المقصوص، فمعناه: نحن نقص عليك أحسن ما يقص من الأحاديث، وإنما كان أحسنه؛ لما يتضمن من العبر والنكت، والحكم والعجائب التي ليست في غيرها.

والظاهر أنه أحسن ما يقتص في بابه، كما يقال في الرجل: هو أعلم الناس وأفضلهم، يراد: في فنه.

فإن قلت: ممّ اشتقاق القصص؟ [٢] قلت: من قصَّ أثره: إذا اتبعه؛ لأنَّ الذي يقصُّ الحديث يتبع ما حفظ منه شيئًا فشيئًا، كما يقال: تلا القرآن، إذا قرأه؛ لأنه يتلو أي: يتبع ما حفظ منه آية بعد آية.. " [٣].

ويتحصل مما تقدم أن (القصص) على وجهين:

أحدهما: يكون مصدرًا بمعنى: الاقتصاص.

---

(١) قوله: (ويكون المقصوص محذوفًا)، أي: مفعول ﴿نَقُصُّ﴾ محذوف لدلالة ﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، التقدير: نقص الموحى أحسن القصص. حاشية الطيبي على الكشاف (٨/٢٤٠).

(٢) قوله: (مم اشتقاق القصص؟)، أي: من أي معنى اشتق (القصص)، وما المنقول منه؟ وإلا فقد بين اشتقاقه فيما سبق حيث قال: قصَّ الحديث يقصه قصصًا" حاشية الطيبي على الكشاف (٨/٢٤٢).

(٣) الكشاف (٤/٤٤٠-٤٤١).

وثانيهما: يكون (فعلًا) بمعنى: (مفعول).

واشتقاقه من (قصَّ أثره): إذا اتبعه؛ لأن الذي يقصُّ الحديث يتبع ما حفظ منه شيئًا فشيئًا، فالقصص أصله في اللغة من المتابعة، أي: من إتباع الخبر بعضه بعضًا.

فقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَحۡسَنَ﴾ مفعول مطلق إذا كان القصص مصدرًا غير مراد به المفعول، ومفعول به إذا كان القصص مصدرًا بمعنى: المفعول.

ففي انتصاب ﴿أَحۡسَنَ﴾ وجهان:

أحدهما: أن يكون منصوبًا على المفعول به، فإذا جَعَلْتَ ﴿ٱلۡقَصَصِ﴾ مصدرًا واقعًا موقع المفعول، كالخَلْق بمعنى: المخْلوق، أو جعَلْتَه فَعَلًا بمعنى: مفعول كالقَبَضِ والنَّقَص بمعنى: المنْقُوص والمقبوض، أي: نَقُصُّ عليك أَحْسَنَ الأشياءِ المقتصَّة.

والثاني: أن يكونَ منصوبًا على المصدرِ المبَيِّن، إذا جَعَلْتَ ﴿ٱلۡقَصَصِ﴾ مصدرًا غيرَ مرادٍ به المفعولُ، ويكون المقصوصُ على هذا محذوفًا، أي: نَقُصُّ عليك أحسنَ الاقتصاص.

فنصبه على المصدرية إما لإضافته إلى المصدر، أو لكونه في الأصل صفة مصدر، أي: قصصًا أحسن القصص.

وفيه مع بيان الواقع تعريض بما في اقتصاص أهل الكتاب من القبح والخلل بسبب التحريف والتبديل.

و﴿أَحۡسَنَ﴾ يجوز أن تكونَ أفْعَل تفضيلٍ على بابها، وأن تكونَ لمجرَّدِ الوصفِ بالحُسْن، وتكون من بابِ إضافة الصفةِ لموصوفِها، أي: القصص الحسن.

قوله: ﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ﴾ الباءُ سببيةٌ، وهي متعلقةٌ بـ: ﴿نَقُصُّ﴾ و(ما) مصدريةٌ، أي: بسبب إيحائنا.

قوله: ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ يجوز فيه وجهان:

أحدهما: وهو الظاهرُ أن ينتصبَ على المفعول به بـ: ﴿أَوْحَيْنَآ﴾.

والثاني: أن تكون المسألةُ من بابِ التنازع، أعني: بين ﴿نَقُصُّ﴾ وبين ﴿أَوْحَيْنَآ﴾، فإنَّ كلًّا منهما يطلبُ ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾، وتكونُ المسألةُ من إعمال الثاني، وهذا إنما يتأتى على جَعْلِنا ﴿أَحْسَنَ﴾ منصوبًا على المصدر، ولم نُقَدِّرْ لـ: ﴿نَقُصُّ﴾ مفعولًا محذوفًا. كذا في (الدر المصون) وغيره.

قال الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فإن حملناه على المصدر كان المعنى: نقص عليك أحسن الاقتصاص، وعلى هذا التقدير فالحسن يعود إلى حسن البيان، لا إلى القصة. والمراد من هذا الحسن: كون هذه الألفاظ فصيحة بالغة في الفصاحة إلى حدِّ الإعجاز، ألا ترى أن هذه القصة مذكورة في كتب التواريخ مع أن شيئًا منها لا يشابه هذه السورة في الفصاحة والبلاغة.

وإن حملناه على المفعول كان معنى كونه أحسن القصص؛ لما فيه من العبر والنكت، والحكم والعجائب التي ليست في غيرها -كما تقدم في كلام الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ-" [(١)].

٢ - تحرير معنى القصة في الاصطلاح:

يستفاد معنى القصة في الاصطلاح مما تقدم من بيان معنى القصة في اللغة وما يتصل بمادة اللفظ من المعاني، وهي ترجع إلى أن القصة هي المعاني المتتابعة والمترابطة التي لم تكن تعلم للمخاطب قبل ذكرها.

---

(١) مفاتيح الغيب (٤١٧/١٨)، وانظر: الدر المصون (٤٣٠/٦)، حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي (١٥١/٥)، حاشيتا القونوي وابن التمجيد على البيضاوي (٢٤٧/١٠).

ومن الأئمة من ذكر ما ينبئ عن معالم القصة، ومن ذلك: قول الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "القصص الخبر المشتمل على المعاني المتتابعة" (١). وقول القاضي ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "(قص الأثر): اتباعه وتطلبه في موضع خفائه" (٢).

وقال أبو إسحاق الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "القاصُّ: الذي يأتي بالقِصةِ على حقيقتها" (٣).

أقول: وبناء على ما تقدم فإن القصة في القرآن الكريم تعرف بأنها: **(عبارة عن حكاية حلقات متتابعة ومترابطة من المعاني، يكمل بعضها بعضًا حتى تتكامل تلك المعاني إلى قضية واحدة متحدَّث عنها على حقيقتها، لم تكن تعلم للمخاطب قبل ذكرها، قد قامت الدلائل والشواهد على صدقها، وهي تنبئ عن مقصد يستفاد من جملتها)**.

والقصص التي أخبر بها الله عَزَّوَجَلَّ في القرآن الكريم متنوعة، فمنها: القصص الدالة على حرص الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ على دعوة أقوامهم إلى الهداية، ومكابدتهم المشاق في سبيل الدعوة والتبليغ، وذكر إيمان من آمن معهم، وإعراض من أعرض.

وفي القرآن الكريم قصة مريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ، وذكر وصايا لقمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وذكر إيمان امرأة فرعون، وكفر امرأة نوح، وامرأة لوط.

وذكر أحوال الأمم الماضية، والنبوات السابقة، والحوادث الواقعة، وقد اشتمل القرآن على كثير من وقائع الماضي، وتاريخ الأمم، وذكر البلاد والديار والآثار، والذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، وصاحب الجنتين، وقصة ذي القرنين، وذكر

---

(١) مفاتيح الغيب (٨/٢٥٠).

(٢) المحرر الوجيز (٣/٥٢٩).

(٣) معاني القرآن وإعرابه (٣/٨٨)، وانظر: معاني القرآن، لأبي جعفر النحاس (٣/٣٩٦).

فرعون قارون وهامان، وأصحاب الكهف، وأصحاب الفيل، وأصحاب الأخدود، وذكر أبي لهب وامرأته، وذكر أهل الأعراف، وأحوال أهل الجنة والنار...إلى غير ذلك.

ثانيًا: بيان معنى الخبر في اللغة والاصطلاح:

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "(الخَبَرُ) بالتحريك: واحد الأَخبارِ. وأَخْبَرْتُهُ بكذا وخَبَّرْتُهُ، بمعنىً. و(الاستِخْبارُ): السؤال عن الخَبَر. يقال: خَبِرَ الموضعُ -بالكسر-، فهو خَبِرٌ. ويقال أيضًا: مِن أين خَبَرْتَ هذا الأمر؟ أي: من أينَ علمت. والاسم: (الخُبْرُ) -بالضم- وهو العلم بالشيء. و(الخبير): العالم. والخبير: الْأَكَّارُ، ومنه: المخابَرة، وهي المزارعة ببعض ما يَخرُج من الأرض.." [(١)].

وفي (العين): "الخَبَرُ: النَّبأُ، ويجْمَعُ على أخبار. والخبيرُ: العالِمُ بالأمر. والخُبْرُ: مَخْبَرَةُ الإنسان إذا خُبِرَ، أي: جُرِّبَ فبدت أخباره أي: أخلاقه. والخبرة: الاختبار، تقول: أنت أبطن به خِبْرةً، وأطوَلُ به عشرةً. والخابرُ: المخْتَبرُ المجرِّبُ، والخُبْرُ: علمك بالشيء، تقول: (ليس لي به خُبْرٌ)" [(٢)].

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾ [الزلزلة:٤]، أي: تخبر بما عمل عليها من حسن أو سيء [(٣)].

وقد روي عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قرأ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾ [الزلزلة:٤]، قال: «**أتدرون ما أخبارها؟**»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**فإن**

---

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (خبر) (٦٤١/٢). و(المخابرة): أن يُعْطي الْمَالِك الفلاح أرضًا يزرعها على بعض ما يخرج منها كالثلث أو الربع.

(٢) العين، مادة: (خبر) (٢٥٨/٤)، وانظر: تهذيب اللغة (١٥٧/٧).

(٣) معاني القرآن، للفراء (٢٨٣/٣)، وانظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٣٥١/٥).

أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها أن تقول: عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا»، قال: «**فهذه أخبارها**» (١).

قال جار الله الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فإن قلت: ما معنى تحديث الأرض والإيحاء لها؟ قلت: هو مجاز عن إحداث الله عَزَّوَجَلَّ فيها من الأحوال ما يقوم مقام التحديث باللسان، حتى ينظر من يقول مالها إلى تلك الأحوال، فيعلم لم زلزلت ولم لفظت الأموات؟ وأنَّ هذا ما كانت الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ ينذرونه، ويحذرون منه.

وقيل: ينطقها الله عَزَّوَجَلَّ على الحقيقة، وتخبر بما عمل عليها من خير وشر" (٢).

والشَّأن في المبتدأ أن يكون معلومًا؛ لأن الحكم على المجهول غير مُتَصور فضلًا عن أن يفيد، فإذا كنت لا تعرف المجهول فكيف تعرف الحكم عليه؟

فعندما تقول لشخص: محمد في الدار، وهو لا يعرف محمدًا، فإنه يقول: من محمد؟ فينبغي الاستفسار عنه، ثم الحكم عليه.

وفي قولنا: (محمد قائم) فإن هذه الجملة الخبرية يجب أن يتحقق فيها أمران:

أ. أن يكون المبتدأ (المحكوم) معلومًا.

ب. أن يكون الخبر (المحكوم به) مجهولًا.

فلو كان معلومًا لكانت الجملة غير مفيدة.

---

(١) أخرجه أحمد [٨٨٦٧]، والترمذي [٢٤٢٩]، وقال: "حسن صحيح غريب". كما أخرجه البزار [٨٥٤٩]، والنسائي في (الكبرى) [١١٦٢٩]، وابن حبان [٧٣٦٠]، والحاكم [٣٠١٢]، وقال: "صحيح على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي، وأخرجه أيضًا: البيهقي في (شعب الإيمان) [٦٩١٥]، والبغوي في (شرح السنة) [٤٣٠٨]، وقال: "هذا حديث حسن غريب". والحديث في إسناده: يحي بن أبي سليمان.

(٢) الكشاف (٤/ ٧٨٤).

فعندما تقول لشخص: أبوك فلان، أو السماء فوقنا، أو الأرض تحتنا، أو الكل أعظم من الجزء...فإن كلامك لا يفيد.

فالمحكوم به عندما يكون معلومًا فإن كلامك يكون غير مفيد.

فعند إخبارك بأمر من الأمور يجب أن يتحقق أمران:

أ. فائدة الخبر، يعني: إعلام المخاطب بحكم يجهله، فإن كان المخاطب عالما بالحكم فلم يبق إلا لازم الفائدة.

ب. لازم الفائدة بأن تعرفه أنك أيها المتكلم عالم بالحكم.

فعندما نفترض أن إنسانًا لا تريد أن تقول له اسم صديقك، فقال لك: اسم صديقك فلان، فهو لا يعرفك اسم صديقك، ففائدة الخبر هنا لم تتحقق؛ لأن المخاطب عالم بالحكم.

وإنما الغرض لازم الفائدة، وهي إعلام المخاطب أن المتكلم عالم بالحكم.

فعندما يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾ [النور:١] فهل يريد إعلام المخاطبين بالحكم؟ لا؛ لأن المخاطَبين لمجرد أن يعلموا أن هذه سورة فهم يعلمون أن القرآن الكريم لا بدَّ أن يكون وحيًا؛ فإنه من المعلوم بالدين بالضرورة بالنسبة للمسلمين جميعًا فضلًا عن الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ الذين يحضرون الوحي، ويشهدون وقائع التنزيل.

فإذا لم يصلح ذلك فهل يصلح لازم الفائدة، وهو إعلام المخاطبين أن المتكلم عالم بالحكم؟ بالتأكيد لا يصلح؛ لأن المخاطبين قاطعون بعلم الله عَزَّوَجَلَّ، فكيف يخبر بشيء أو يحكم به ولا يكون عالما به، فهم قاطعون بعلم الله عَزَّوَجَلَّ.

وقد قال العلامة أبو السعود رَحِمَهُٱللَّهُ: "إن سورة لا يصح أن تكون مبتدأ؛ لأن المبتدأ يجب أن يكون معلومًا، وسورة بالنسبة لهم أمر مجهول.

والأمر المجهول المفروض أنه الخبر، ولكنه هنا معلوم، فلا يصح إعلامهم بعلم الله عَزَّوَجَلَّ به فهم قاطعون بذلك" (١).

وقد أجاب العلماء عن هذا وقالوا: نحن مسلمون أن هذا التركيب الخبري لا ينفع فيه الفائدة، ولا لازم الفائدة، لكن الغرض ليس منحصرًا في هذا.

فأنت تتكلم عن الغرضين الأصليين، لكن هناك أغراض أخرى فرعية كثيرة، منها: المدح، والتحسر، والامتنان......الخ.

فعندما تقول امرأة عمران: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران:٣٦]. فهي لا تريد أن تفيد الله عَزَّوَجَلَّ أنَّ الَّتي وضعتها أنثى، كما أنَّها لا تريد أن تعلم الله عَزَّوَجَلَّ أنَّها عالمة بكون الموضوعة أنثى، وهذا أمر بديهيٌّ. وإنَّما غرضها من الخبر إنشاءُ (التَّحسر)، فهي كانت تريد المولود ذَكَرًا لكي تهبه (لبيت المقدس)، وقد كانوا لا يحرِّرون (لبيت المقدس) إلا الذُّكور، فخاطبت ربَّها عَزَّوَجَلَّ على سبيل التَّحسر على ما فاتها من رجائها، وخلاف ما قدَّرت؛ لأنَّها كانت ترجو أن تلد ذَكَرًا يصلح للخدمة.

فكذلك عندما يقول الله عَزَّوَجَلَّ: فيما أوحينا إليك سورة، أو مما يتلى عليكم سورة، فليس المقصود هنا: فائدة الخبر، ولا لازم الفائدة، وإنما المراد: مدح السورة، أو الامتنان عليهم بهذه السورة.

فأنت إذا أعطيت إنسانًا عطية ولم يشكر عطيتك أو قابلك بالجحود، فأنت تقول له: إني أعطيتك كذا وكذا، تمتن عليه بما فعلت، فأنت لا تقصد إخباره بفائدة الخبر ولا بلازم الفائدة، وإنما المقصود الامتنان، فالله عَزَّوَجَلَّ يمتن على النبي صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ والمؤمنين بأنه

(١) انظر: تفسير أبي السعود (٦/١٥٥).

أنزل السورة العظيمة البالغة من العظم كذا وكذا، فالمقام مقام مدح، وهو مصحح لكون السورة مبتدأ [١].

قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تعريف الخبر:

والخبر: الجزء المتم الفائدة   كالله بر والأيادي شاهده

وقد تعقب ابنُ عقيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ ابنَ مالك بأن التعريف يجب أن يكون جامعًا مانعًا، أي: جامعًا وشاملًا لكل أفراد المعرَّف، ومانعًا من أن يدخل أي فرد غريب وخارج عن أفراد المعرَّف في التعريف مبينًا أن التعريف بالأعم لا يكون مانعًا، كتعريف الإنسان بأنَّه: حيوان يمشي على رجلين، فإن عددًا كبيرًا من الحيوانات يمشي على رجلين.

وأما التعريف بالأخص فلا يكون جامعًا، كتعريف الإنسان بأنه حيوان يقرأ ويكتب، فإنه غير جامع لجميع أفراد المعرَّف، وهو الإنسان؛ إذ من الإنسان ما لا يقرأ ولا يكتب، ولم يشمله التعريف.

قال ابن عقيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "عرف المصنف الخبر بأنه: (الجزء المكمل للفائدة)، ويرد عليه: الفاعل، نحو: قام زيد؛ فإنه يصدق على زيد أنه الجزء المتم للفائدة.

وقيل في تعريفه: إنه الجزء المنتظم منه مع المبتدأ جملة. ولا يرد الفاعل على هذا التعريف؛ لأنه لا ينتظم منه مع المبتدأ جملة، بل ينتظم منه مع الفعل جملة.

وخلاصة هذا: أنه عرَّف الخبر بما يوجد فيه وفي غيره، والتعريف ينبغي أن يكون مختصًا بالمعرف دون غيره" انتهى [٢].

---

(١) انظر: أوجه الإعراب بالتفصيل في (تفسير سورة النور)، للعلامة الأستاذ الدكتور إبراهيم عبد الرحمن خليفة (ص:٢٣-٢٥)، من مطبوعات كلية أصول الدين، القاهرة، بتصرف عن الطبعة القديمة.

(٢) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (١/٢٠١-٢٠٢).

وإنما يرد هذا إن كان هو قصد ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولكن المرادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد تعقب ابنَ عقيل فقال: "ليس مراده بالجزء: جزء الكلام مطلقًا فيلزمه ما ذكرت، وإنما المراد: جزء الجملة الاسمية.

ويدل على ذلك أمران:

أحدهما: أن الباب موضوع لها.

والثاني: تمثيله بقوله:

***كالله بر والأيادي شاهده.

فلم يدخل تحت كلامه: الفعل والفاعل، ولا الحرف أيضًا؛ لأنه لا يكون أحد جزءي الجملة الاسمية.

فإن قلت: إخراج المبتدأ بقوله: (المتم الفائدة) غير واضح؛ لأن المبتدأ أيضا يتم الفائدة، فإن الفائدة بهما حصلت.

قلت: الخبر هو ثاني الجزءين، ولا إشكال في أن ثانيهما هو الذي به تتم الفائدة.

وأيضًا: فإن الخبر هو المستفاد من الجملة؛ ولذلك كان أصله: أن يكون نكرة، ولهذا قال أبو موسى رَحِمَهُ ٱللَّهُ [(١)]: المبتدأ معتمد البيان، والخبر معتمد الفائدة" [(٢)].

والفرق بين الخبر والعلم: أن "الخبر هو العلم بكنه المعلومات على حقائقها، ففيه معنى زائد على العلم" قاله العسكري رَحِمَهُ ٱللَّهُ [(٣)].

---

(١) انظر ذلك في: المقدمة الجزولية في النحو، لأبي موسى الجزولي المراكشي، المتوفى سنة [٦٠٧هـ] (ص:٣٨)، وانظر: شرح التسهيل، لابن مالك (٥١/٢)، وانظر الفرق بين البيان والفائدة في (معجم الفروق اللغوية)، لأبي هلال العسكري (ص:٦٢).

(٢) توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك، لأبي محمد المرادي (٤٧٤/١).

(٣) الفروق اللغوية (ص:٩٣).

وفي علم في (علم المعاني) من علوم البلاغة: الكلام إمَّا خبرٌ، أو طلبٌ، أو إنشاءٌ. وقد خص أصحاب هذا القول الطَّلب بما سمَّاه غيرهم (الإنشاء الطَّلبي)، والإنشاء لما عداه، كـ: (ألفاظ العقود)، نحو: (بعت) و(اشتريت).

فيدخل في (الإنشاء الطَّلبي): الأمرُ، والنَّهي، والاستفهامُ، والتَّمني، والنِّداء [١].

ويدخل في الإنشاء غير الطَّلبي: أفعال المدح والذَّم، وفعلا التَّعجب، والقَسَم [٢].

---

(١) وقد يقال: إنَّ النِّداء منه ما هو خبر لا إنشاء، وهو النِّداء بصفة نحو: (يا فاسق) و(يا فاضل)؛ لاحتمال التصديق والتكذيب في تلك الصِّفة.

(٢) أمَّا (الإنشاء غير الطَّلبي) فهو كالقَسَم، فإذا قلت: (والله لأفعلنَّ)، فهو إنشاءٌ، وليس فيه طلب، فكونك تقسم يعني أن يكون في نفسك القَسَمُ، فإنَّ صيغةَ القَسَم واضحة، لكن هل تُقْسِمُ حقيقةً أو لا؟ هل قَصْدُكَ في نفسك القَسَمُ أو لا؟ هذا شيءٌ لا نعرفه. والحاصلُ أنَّ الأحكام الشَّرعيَّة إنَّما تؤخذُ من الإنشاء، أو ما كان في معناه، وذلك أنَّ الجملةَ الخبريَّة إذا خرجت عن الغرضين الأصليين -(فائدة الخبر)، و(لازم الفائدة)- فقد تحوَّلتْ الجملةُ إلى الإنشاء. ومن ذلك قول الحارث بن وعْلَة من (البحر الكامل): (قومي هم قتلوا أميم أخي***فإذا رميت أصابني سهمي). والدِّلالة على هذا المعنى الإنشائيِّ هل يكون بالحقيقة أم بالمجاز؟ إنَّ الأغراض الَّتي تخرج إليها الجملة الخبريَّة هي معانٍ نفسيَّة لا نسبةَ لمدلولها في الخارج، فمن يقول مثلًا: (ما أجملَ السَّماء) يتعجَّب، فكلُّ ما في الخارج كون السَّماء جميلة أو غير جميلة، أمَّا كون التَّعجب قائمًا بنفسه، أو ليس كذلك -فقد يتظاهر بذلك أو يمثِّل علينا مثلًا- فهذه معانٍ نفسيَّة لا نسبةَ لمدلولها في الخارج، بخلاف قولنا: (محمَّد قائمٌ)، فإنَّ كان قائمًا بالفعل فهو صِدق، وإن كان ليس قائمًا فهو كذبٌ، فلهذا القول نسبةٌ في الخارج. أمَّا إذا كانت المسألة نفسيَّة، فلا اطِّلاع لنا على دخيلةِ الأنفس، فلا نسبةَ لمدلولها في الخارج. أمَّا عندما تقول للمخاطَب: (قم) فهل طلب القيام قائمٌ في نفسك، أو ليس قائمًا؟..لا نعرف، وكذلك خروج الخبر من الخبريَّة إلى إرادة (المدح) مثلًا، أو (الذَّمِّ) أو الامتنان، أو التَّحسر، أو التَّعجب، أو الرثاء...لا نسبة لمدلول ذلك في الخارج؛ لأنَّها معانٍ نفسيَّة. وإذا كانت قد صارت إنشائيَّة، فهل دلَّت على الإنشائيَّة على سبيل الحقيقة أم على سبيل المجاز أو الكناية؟ إنَّ الجملة الخبريَّة في أساس وضعها للإخبار الَّذي يحتمل التصديق والتكذيب، فإذا خرجت عمَّا يحتمل التصديق والتكذيب إلى ما لا يحتمل التصديق والتكذيب تكون بذلك قد خرجت عن الإخبار إلى الإنشاء، واستعملت في غير ما وضعت له على سبيل المجاز أو الكناية. أمَّا الإنشاء لفظًا فلا يتصوَّر إلا في الطَّلب.

قال العلامة السعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (المطوَّل): "وغير طلبٍ كأفعال المقاربة، وأفعالِ المدح والذَّم، وصيغِ العقود، والقَسَم، ولعلَّ ورُبَّ، و(كم) الخبريَّة، ونحو ذلك"(١).

قال في (السلم):

مـا احتَمَلَ الصِّدْقَ لذاته جَرَى   بـيـنـهُـمُ قـضِـيَّـةً وخَـبَـرًا (٢)

فالقضية هي القول الذي يحتمل التصديق والتكذيب لذاته، وقوله: (يحتمل التصديق والتكذيب) مخرج للإنشاء.

وقوله: (لذاته) يُدخل في التعريف: القضية المقطوع بصدقها؛ لأمر خارج عنها، كخبر الله عَزَّوَجَلَّ، والقضية المقطوع بكذبها، كأخبار مسيلمة، وكقولنا: الواحد نصف الثلاثة، فالقضية في (علم المنطق) مرادفة للخبر في (علم البلاغة).

وإنما قلنا: يحتمل التصديق والتكذيب؛ لأن كل قضية بذاتها لا تحتمل إلا أن تكون صادقة أو كاذبة بحسب مطابقتها للواقع أو عدم مطابقتها.

وإنما يسمى قضية؛ لأنه مشتق من القضاء، والقضاء هو الحكم فلاشتمالها على الحكم سميت قضية.

وعند المنطقيين مصطلح: (الموضوع والمحمول)، ويعبَّر عنه عند البلاغيين بـ: (المسند والمسند إليه)، وفي الفقه والأصول بـ: (المحكوم به والمحكوم عليه)، وعند النَّحويين: الموضوع هو المبتدأُ أو الفاعلُ أو نائبُ الفاعل وأسماء النواسخ، والمحمولُ هو الخبرُ أو الفعل التام، واسم الفعل، والمبتدأ الوصف المستغنى بمرفوعه عن الخبر، وأخبار النواسخ، والمصدر النائب عن الفعل. أما الخبر في (اصطلاح المحدثين) فسيأتي بيانه.

(١) المطوَّل في شرح تلخيص المفتاح (ص:٢٢٤).

(٢) السلم المنورق، لعبد الرحمن الأخضري (ص:٨)، المكتبة الهاشمية، إستنبول [٢٠١٤].

ثالثًا: بيان معنى الحديث في اللغة والاصطلاح:

١ – تعريف الحديث في اللغة:

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الحديث: نقيض القديم. يقال: أخذني ما قدم وما حدث لا يضم حدث في شيء من الكلام إلا في هذا الموضع، وذلك لمكان قدم، على الازدواج. والحديث: الخبرُ، يأتي على القليل والكثير، ويُجمَعُ على أحاديثَ على غير قياس. قال الفراء رَحِمَهُ ٱللَّهُ: نُرَى أنَّ واحدَ الأحاديث: أُحْدوثَةٌ، ثم جعلوه جمعًا للحديث. والحدوث: كون شيء لم يكن. وأحدثه الله فحدث. وحَدَثَ أمرٌ، أي: وقع. والحَدَثُ والحُدْثى والحادثةُ والحَدَثانُ، كلُّها بمعنىً. وأحدث الرجل، من الحدث. واستحدثت خبرًا، أي وجدت خبرًا جديدًا" (١).

وقال ابن خروف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن (أحدوثة) إنما يستعمل في المصائب والدواهي، لا في معنى الحديث الذي يتحدث به (٢).

وقال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾ [يوسف:٦] الأحاديث هنا: "الرؤيا؛ لأنَّ الرؤيا إمَّا حديث نفس، أو ملك، أو شيطان. وتأويلها: عبارتها وتفسيرها، وكان يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أعبر الناس للرؤيا، وأصحهم عبارة لها.

ويجوز أن يراد بتأويل الأحاديث: معاني كتب الله عَزَّوَجَلَّ، وسنن الأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ، وما غمض واشتبه على الناس من أغراضها ومقاصدها، يفسرها لهم ويشرحها ويدلهم على مودعات حكمها.

---

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (حدث) (١/٢٧٨).

(٢) انظر: شرح التصريح على التوضيح (٢/٥٦٤)، توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك (٣/١٤٢٥).

وسميت أحاديث؛ لأنه يحدث بها عن الله عَزَّوَجَلَّ ورسله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فيقال: قال الله عَزَّوَجَلَّ وقال الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كذا وكذا. ألا ترى إلى قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [الأعراف:١٨٥]، ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الزمر:٢٣]، وهو اسم جمع للحديث، وليس بجمع أحدوثة" [١].

وفي (البحر): ليس الأحاديث باسم جمع، بل هو جمع تكسير لـ: (حديث) على غير القياس كـ: (أباطيل)، واسم الجمع لم يأت على هذا الوزن. ونقل ذلك عن أبي حيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ غير واحد، وفي المسألة بحث [٢].

وقد ذكر الشهاب الخفاجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن مقصد الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ من اصطلاحه: أن يطلق اسم الجمع على الجمع الذي ليس بقياسيٍّ، كاسم المصدر للمصدر غير القياسي، لا على ما اصطلح عليه النحاة من أنه ما دلَّ على الجمعية، ولم يكن على شيء من أوزانها، وليس اسم جنس جمعيٍّ، فلا يرد عليه ما قاله أبو حيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ من تخطئته بأنَّ (أفاعيل) ليس من أبنية اسم الجمع، فالصواب أنه جمع حديث على غير القياس، وأنَّ كون الأحدوثة أمرًا مستغربًا يحدث به للتلهي والإضحاك هو الأكثر، وقد ذكر بعض أئمة اللغة أنه ورد بمعنى: الحديث...." [٣].

وإنما سميت هذه الكلمات والعبارات: أحاديث، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ [الطور:٣٤].

فالحديث في الأصل: ضد القديم، وقد استعمل في قليل الخبر وكثيره؛ لأنه يحدث شيئًا فشيئًا.

---

(١) الكشاف (٢/٤٤٤-٤٤٥).

(٢) انظر: البحر المحيط في التفسير (٧/٥٦٤)، الدر المصون (٨/٣٤٦-٣٤٧)، الكليات (ص:٣٧٠).

(٣) حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي (٦/٣٣٢).

وذكر الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن السبب في هذه التسمية:

أ. أن هذه الكلمات إنما تتركب من الحروف المتعاقبة المتوالية، فكل واحد من تلك الحروف يحدث عقيب صاحبه؛ فلهذا السبب سميت بالحديث.

ب. ويمكن أيضًا أن يكون السبب في هذه التسمية أن سماعها يحدث في القلوب: العلوم والمعاني -والله أعلم-"(١).

٢ - تعريف الحديث في الاصطلاح:

الحديث في اصطلاح جُمْهُور الْمُحدثين يُطلق على قول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وفعله، وتقريره.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "المراد بالحديث في عرف الشرع: ما يضاف إلى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ. وكأنه أريد به مقابلة القرآن؛ لأنه قديم"(٢).

وقال الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الحديث أعم من أن يكون قول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ والصحابي، والتابعي، وفعلهم وتقريرهم.

والحديث يرادفه: الخبر على الصحيح، وهو ما أضيف إلى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، أو إلى الصحابي، أو إلى من دونه، قولًا، أو فعلًا، أو تقريرًا، أو صفة.

وقيل: الحديث ما جاء عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، والخبر ما أضيف إلى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وإلى غيره؛ فيكون أعم من الحديث وأشمل.

ويعبر عن هذا: بعلم الحديث رواية. ويحد بأنه: علم يشتمل على نقل ذلك.

وموضوعه: ذات النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من حيث كونه نبيًا.

---

(١) مفاتيح الغيب (١/٣٥).

(٢) فتح الباري (١/١٩٣).

وغايته: الفوز بسعادة الدارين. وأما علم الحديث دراية، وهو المراد عند الإطلاق فهو علم يعرف به حال الراوي والمروي من حيث القبول والرد.

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الخبر عند علماء الفن مرادف للحديث، فيطلقان على المرفوع، وعلى الموقوف والمقطوع.

وقيل: الحديث ما جاء عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والخبر: ما جاء عن غيره، ومن ثم قيل لمن يشتغل بالسنة: محدث، وقيل لمن يشتغل بالتواريخ وما شاكلها: إخباري.

وقيل: بينهما عموم وخصوص مطلق، فكل حديث خبر ولا عكس.

وقيل: لا يطلق الحديث على غير المرفوع إلا بشرط التقييد.

وقد ذكر المصنف في النوع السابع: أن المحدثين يسمون المرفوع والموقوف بالأثر، وأن فقهاء خراسان يسمون الموقوف بالأثر والمرفوع بالخبر. ويقال: أثرت الحديث بمعنى: رويته، ويسمى المحدث أثريًّا نسبة للأثر (١).

أما الأثر فهو ما أضيف إلى الصحابي أو التابعي، وقد يراد به ما أضيف إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقيدًا فيقال: وفي الأثر عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والحديث القدسي: ما رواه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ربه جَلَّ وَعَلَا، ويسمى أيضًا: (الحديث الرباني) و(الحديث الإلهي)، وقد تقدم تعريفه في الجزء الأول.

---

(١) انظر: نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر (ص:٤١)، تدريب الراوي، للسيوطي (١/٢٩)، شرح نخبة الفكر في مصطلحات أهل الأثر، لعلي بن سلطان الهروي القاري (ص: ١٥٥)، اليواقيت والدرر في شرح نخبة ابن حجر (١/٢٣٠).

رابعًا: الكلام:

ومن الألفاظ ذات الصلة: الكلام، ويطلق على الكثير والقليل.

١ - تعريف الكلام لغة:

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الكَلامُ: اسم جنسٍ يقع على القليل والكثير. والكَلِمُ لا يكون أقلَّ من ثلاث كلمات، لأنَّه جمع كَلِمَةٍ، مثل نَبِقَةٍ ونَبِق" (١).

وقال ابن فارس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الكلام: هو ما يدل على نطق مفهم. تقول: كَلَّمْتُهُ أُكَلِّمُهُ تَكْلِيمًا، وهو كَلِيمِي: إذا كَلَّمَكَ أو كَلَّمْتَه. ثم يَتَّسِعُونَ فَيُسَمُّونَ اللَّفظة الواحدة الْمُفْهِمة: كَلِمَة، والقصَّةَ: كَلِمَة، والْقَصِيدَةَ بطُولها: كلمة. ويَجْمَعُونَ الْكَلمة: كَلِمَاتٍ وَكَلِمًا. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء:٤٦]" (٢).

فالكلام لا يكون كلامًا إلا بنطق، سواء أكان في اللغة أم في اصطلاح النحاة، وهو اسمُ مصدر من كَلَّمَ يُكَلِّمُ تَكْلِيمًا وَكَلَامًا، وهو اسم جِنْسٍ؛ لأنه يقع على القليل والكثير.

٢ - الكلام في الاصطلاح:

أ. الكلام في اصطلاح النحويين: (لفظٌ دَالٌّ على معْنىً مُفِيْد يَحْسُنُ السُّكُوْتُ عليه، مقصود لذاته).

---

(١) الصحاح، مادة: (كلم) (٥/٢٠٢٣).

(٢) معجم مقاييس اللغة، مادة: (كَلَمَ) (٥/١٣١).

قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

كـلامـنـا لـفـظ مـفـيـد كـاسـتـقـم | واسـم وفـعـل ثم حـرف الـكلم
واحـده كـلـمـة والـقـول عـم | وكـلـمـة بـهـا كـلام قد يؤم [١]

وقال ابن معطِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ من قبله:

اللَّـفـظُ إن يُـفِـدْ هـو الـكـلامُ | نحـوُ مَـضَى الـقـومُ وهم كرامُ [٢]

قال ابن عقيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (شرحه): "الكلام المصطلح عليه عند النحاة: (عبارة عن اللفظ المفيد فائدة يحسن السكوت عليها) فاللفظ جنس يشمل: الكلام، والكلمة، والكلم، ويشمل: المهمل كـ: (ديز) [٣]، والمستعمل كـ: (عمرو). ومفيد أخرج: المهمل. وفائدة يحسن السكوت عليها أخرج: الكلمة، وبعض الكلم، وهو ما تركب من ثلاث كلمات فأكثر، ولم يحسن السكوت عليه نحو: (إن قام زيد)، ولا يتركب الكلام إلا من اسمين، نحو: (زيد قائم)، أو من فعل واسم كـ: (قام زيد) وكقول المصنف: (استقم)؛ فإنه كلام مركب من فعل أمر وفاعل مستتر، والتقدير: استقم أنت، فاستغنى بالمثال عن أن يقول: فائدة يحسن السكوت عليها فكأنه قال الكلام: هو اللفظ المفيد فائدة كفائدة: (استقم).

---

(١) ألفية ابن مالك (ص:٩).

(٢) الدرة الألفية في علم العربية (ألفية ابن معطي)، ليحيى بن عبد المعطي الزواوي المغربي (ص:١٧).

(٣) قال ابن هشام في (شذور الذهب) (ص:٣٣): "والكلام قول مفيد مقصود" اهـ. وعبارة: (اللفظ المفيد فائدة يحسن السكوت عليها) تساوي تقريبًا: (القول المفيد)، إلا أن القول لا يطلق على المهمل -وإن لم يكن مقيدًا- بخلاف اللفظ فلا بد من تقييده. قال ابن هشام: والمراد بالقول: اللفظ الدال على معنىً كرجل وفرس بخلاف الخط مثلًا؛ فإنه وإن دل على معنىً لكنه ليس بلفظ، وبخلاف المهمل نحو: (ديز) مقلوب زيد؛ فإنه وإن كان لفظًا لكنه لا يدل على معنى، فلا يسمى شيء من ذلك ونحوه قولا". ونقول: التعريفان وإن كانا متساويين، فإن التعبير بالقول أولى، كما قال المصنف؛ فإنه تعريف بالجنس الأقرب، وهو أدق.

وإنما قال المصنف: (كلامنا)؛ ليعلم أن التعريف إنما هو للكلام في اصطلاح النحويين لا في اصطلاح اللغويين، وهو في اللغة اسم لكل ما يتكلم به، مفيدًا كان أو غير مفيد.

والكلم: اسم جنس، واحده: (كلمة)، وهي إما اسم، وإما فعل، وإما حرف؛ لأنها إن دلت على معنى في نفسها غير مقترنة بزمان فهي الاسم، وإن اقترنت بزمان فهي الفعل، وإن لم تدل على معنى في نفسها بل في غيرها فهي الحرف.

والكلم: ما تركب من ثلاث كلمات فأكثر، كقولك: (إن قام زيد).

والكلمة: هي اللفظ الموضوع لمعنى مفرد، فقولنا الموضوع لمعنى أخرج: المهمل كـ: (ديز)، وقولنا: مفرد أخرج: الكلام؛ فإنه موضوع لمعنى غير مفرد.

ثم ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن القول يعم الجميع، والمراد أنه يقع على الكلام أنه: قول، ويقع أيضًا على الكلم والكلمة أنه قول. وزعم بعضهم أن الأصل استعماله في المفرد.

ثم ذكر المصنف أن الكلمة قد يقصد بها الكلام كقولهم في (لا إله إلا الله): كلمة الإخلاص. وقد يجتمع الكلام والكلم في الصدق، وقد ينفرد أحدهما فمثال اجتماعهما: قد قام زيد؛ فإنه كلام؛ لإفادته معنى يحسن السكوت عليه، وكلم؛ لأنه مركب من ثلاث كلمات. ومثال انفراد الكلم: إن قام زيد، ومثال انفراد الكلام: زيد قائم" [(١)].

وقال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "(الْكَلام) حدُّه: (قَوْلٌ)، أي: لفظٌ دَالٌّ على معْنَىً (مُفِيْدٌ)، أي: مُفْهِم مَعْنَىً يَحْسُنُ السُّكُوْتُ عَلَيْه، (مَقْصُوْدٌ) أي: لذاته.

---

(١) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (١/١٣-١٦).

فخرج بالقول -والتَّعبيرُ به (١) أحسن من اللفظ؛ لإطلاقه (٢) على المهمل-: ما لا يدل من الألفاظ (٣)، أو يدل من غيره كالإشارة والكتابة (٤).

وبـ: المفيد: الكلمة، وبعض الكلم نحو: إن قام زيد، وبـ: المقصود: ما ينطق به النائم والساهي ونحوهما، فلا يسمى شيء من ذلك كلامًا، وكذا المقصود لغيره كجملة الشرط والجزاء والصلة.

و(الْكَلِمَة) حدُّها: (قَوْلٌ)، وتقدَّم تَفْسِيْرُهُ وما يخرج به.

(مُفْرَدٌ) هو ما لا يَدُلُّ جُزْؤُهُ على جُزْءِ معناه، كـ: زَيْد (٥)، وغلام زيد -عَلَمًا- بخلافه غير عَلَمٍ، والكلام والكَلِم (٦)؛.....

---

(١) أي: القول.

(٢) أي: اللفظ.

(٣) أي: فخرج بالقول ما لا يدل من الألفاظ على معنى كالمهمل.

(٤) لأن (اللفظ) صوت المشتمل على بعض الحروف الهجائية، بخلاف الإشارة، والكتابة، وعقد الأصابع، ونحو ذلك، فلا يسمى كلامًا عند النحاة. والنطق هو أساس دراسة النحو، فلا شأن للنحو بالكلام النفسي الذي يدور في خواطر الإنسان دون أن تنطقه الشفاه فعلًا، كما قال الأخطل: (إن الكلام لفي الفؤاد***وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلًا). فالنحو لا شأن له بكلام الفؤاد، وإنما يوجه همه لما نطقه اللسان فقط. انظر: شذور الذهب (ص:٣٥).

(٥) فلا تدل الزاي فيه على جزء زيد.

(٦) أي: وبخلافه الكلام والكلم. المفرد: يقع صفة اللفظ والمعنى، ولكن اللفظ المفرد هو اللفظ الذي لا يدل جزؤه على جزء معناه، والمعنى المفرد هو المعنى الذي لا يدل جزء لفظه على جزئه. والمشهور أن الإفراد صفة اللفظ بالذات عند النحاة، لكن كلام نجم الأئمة فاضل الأمة الشيخ الرضي الاسترآبادي رحمه الله تعالى ينادي بأن الإفراد صفة اللفظ عند المنطقيين، وصفة المعنى عند النحاة - والمفرد عند أهل الحساب في المركب. واعلم أن المفرد بالمعنى الذي ذكرنا أعني اللفظ الذي لا يدل جزؤه إلى آخره هو المفرد المقابل للمركب. وقد يطلق المفرد ويراد به ما يقابل المضاف فيقال: هذا مفرد، أي: ليس بمضاف. وقد يطلق ويراد به ما يقابل الجملة فيقال: هذا مفرد، أي: ليس بجملة - إلى غير ذلك. انظر: دستور العلماء

... فإن أجزاءَ كلٍّ مما ذكر يَدُلُّ على جزء معناه [١].

والحاصل أن الكلام في الاصطلاح: ما اجتمع فيه أربعة أمور:

الأول أن يكون لفظًا.

والثاني: أن يكون مركبًا:

ويُقصَدُ به ما تألَّف من كلمتين فأكثر، ويدخل فيه: اللفظ المفرد المركب تقديرًا، كأن يقول القائل: مَن ضرَبك؟ فتقول: (زَيدٌ)، تقديره: ضربني زيد، وكقولك: (استَقِمْ) -كما تقدم-.

والثالث: أن يكون مفيدًا.

والرابع: أنْ يكونَ الكلامُ مِن الألفاظِ التي وضعَتْها العَرَبُ للدَّلالةِ على معنًى من المعاني.

ب. الكلام عند أهل الكلام: ما يضاد السكوت سواء كان مركبا أو لا، مفيدا فائدة تامة أو لا.

(٢١١/٣)، وانظر: الكليات (ص:٨٢٩)، شرح الرضي على كافية ابن الحاجب (٢٢/١)، قطر الندى (ص:١١)، همع الهوامع (٣٢/١)، وينظر: إرشاد الفحول (٥٢/١)، البحر المحيط في أصول الفقه (٤٢٥/١). قال الأخضري: (مستعمل الألفاظ حيث يوجد***إما مركب وإما مفرد)، (فأول ما دل جزؤه على***جزء معناه بعكس ما تلا)، (وهو على قسمين أعني المفردا**كلي او جزئي حيث وجدا)، (فمفهم اشتراك الكلي***كأسد وعكسه الجزئي).

(١) انظر: تحقيقنا لإتمام الدراية (٥٣٣/١-٥٣٥).

ج. **الكلام عند أهل العروض**: ما تضمن كلمتين أو أكثر سواء حسن السكوت عليه أو لا، مع الدلالة على معنى صحيح [١].

د. القرآن الكريم كلام الله عَزَّوَجَلَّ:

إنَّ القرآن الكريم هو كلام الله عَزَّوَجَلَّ، الذي هو أشرف الكلام، فهو ينبوع كل حكمة، ومعدن كل فضيلة، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، لا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه.

والعلوم المتصلة به هي أشرف العلوم؛ لشرف موضوعها.

والقرآن الكريم هو كلام الله عَزَّوَجَلَّ:

يُعَرَّف كعَلَمٍ على كلام الله عَزَّوَجَلَّ المنزل على خاتم الأنبياء عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بواسطة جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وباعتباره ألفاظًا منطوقة بأنَّه: **(كلام الله** عَزَّوَجَلَّ، **المنزل على محمد** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **المكتوب في المصاحف، المنقول بالتواتر، المتعبد بتلاوته، المعجز ولو بسورة منه، من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس)**.

قال الشيخ الزرقاني رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأنت ترى أن هذا التعريف جمع بين الإعجاز، والتنزيل على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والكتابة في المصاحف، والنقل بالتواتر، والتعبد بالتلاوة. وهي الخصائص العظمى التي امتاز بها القرآن الكريم -وإن كان قد امتاز بكثير سواها- ولا يخفى عليك أن هذا التعريف كان يكفي فيه ذكر بعض تلك الأوصاف، ويكون جامعًا

---

(١) انظر: الكليات (ص:٧٥٨).

مانعًا، غير أن مقام التعريف مقام إيضاح وبيان، فيناسبه الإطناب؛ لغرض زيادة ذلك والبيان؛ لذلك استباحوا لأنفسهم أن يزيدوا فيه ويسهبوا" (١).

وقولنا: (كلام الله عَزَّوَجَلَّ**)**: هذه العبارة فيها إبعاد كل كلام لغير الله عَزَّوَجَلَّ -مهما كان عظيمًا- عن أن يسمَّى قرآنًا، وسواء في ذلك حديث النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ (٢) أو غيره من الإنس والجن والملائكة، فكل ذلك لا يسمى قرآنًا.

---

(١) انظر: الموسوعة القرآنية المتخصصة (ص:١٠١)، مقدمة كتاب: منة المنان (٢/هـ، ح)، وانظر ذلك مفصلًا في (منة المنان) (١/٤١-٧٥).

(٢) فيخرج بهذا القيد جميع أحاديثه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ لكونها ألفاظًا من قبله هو، غير منزَّلة عليه، وإن كانت معاني بعض تلك الأحاديث منزَّلة؛ فإنَّ العبرة هنا بالألفاظِ لا بالمعاني. كما يخرج بهذا القيد أيضًا الأحاديثُ القدسيَّة على القول بأنَّ ألفاظها ليست منزَّلةً من عند الله عَزَّوَجَلَّ، بل هي من عند محمَّد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وإنما المنزَّل معانيها فحسب. وهو ما اختاره الدكتور محمَّد عبد الله دراز في كتابه: (النَّبأ العظيم) (ص:٤٤-٤٥)، حيث قال: "أما الأحاديث النبوية فإنها بحسب ما حوته من المعاني تنقسم إلى قسمين: (قسم توفيقي) استنبطه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بفهمه في كلام الله عَزَّوَجَلَّ، أو بتأمله في حقائق الكون، وهذا القسم ليس كلام الله عَزَّوَجَلَّ قطعًا. و(قسم توقيفي) تلقى الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مضمونه من الوحي فبينه للناس بكلامه. وهذا القسم وإن كان ما فيه من العلوم منسوبًا إلى معلمه وملهمه سبحانه، لكنه -من حيث هو كلام- حري بأن ينسب إلى الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ لأن الكلام إنما ينسب إلى واضعه وقائله الذي ألفه على نحو خاص ولو كان ما فيه من المعنى قد تواردت عليه الخواطر وتلقاه الآخر عن الأول. فالحديث النبوي إذًا خارج بقسميه من القيد الأول في هذا التعريف. وكذلك الحديث القدسي إن قلنا: إنه منزل بمعناه فقط، وهذا هو أظهر القولين فيه عندنا؛ لأنه لو كان منزلًا بلفظه لكان له من الحرمة والقدسية في نظر الشرع ما للنظم القرآني؛ إذ لا وجه للتفرقة بين لفظين منزلين من عند الله عَزَّوَجَلَّ. فكان من لوازم ذلك: وجوب المحافظة على نصوصه، وعدم جواز روايته بالمعنى إجماعًا، وحرمة مس المحدث لصحيفته. ولا قائل بذلك كله. وأيضًا فإن القرآن لما كان مقصودًا منه مع العمل بمضمونه شيء آخر وهو التحدي بأسلوبه، والتعبد بتلاوته، احتيج لإنزال لفظه، والحديث القدسي لم ينزل للتحدي، ولا للتعبد، بل لمجرد العمل بما فيه، وهذه الفائدة تحصل بإنزال معناه".

وقد فصلت القول في (تعريف القرآن في اللغة والاصطلاح) في الجزء الأول من كتاب: (تذكرة وبيان من علوم القرآن).

خامسًا: فروق مميّزة بين الاصطلاحات:

١ - الفرق بين المثل والقصة:

يجتمع المثل مع القصة في التنبيه إلى الاعتبار من حيث قياس حال على حال.

ويفترقان من حيث إن الأمثال لا يشترط في صحتها أن تكون واقعة تاريخية ثابتة، وإنما يشترط فقط: إمكان وقوعها حتى يتسنى للذهن تصورها كما لو أنها وقعت فعلًا.

٢ - الفرق بين القصة والحديث:

قال العسكري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن القصص ما كان طويلًا من الأحاديث، متحدثًا به عن سلف، ومنه قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف:٣]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾ [هود:١٢٠].

ولا يقال: الله عَزَّوَجَلَّ قاص؛ لأن الوصف بذلك قد صار علمًا لمن يتخذ القصص صناعة.

وأصل القصص في العربية: إتباع الشيء الشيء ومنه قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ [القصص:١١].

وسمي الخبر الطويل: قصصًا؛ لأن بعضه يتبع بعضًا حتى يطول، وإذا استطال السامع الحديث قال: هذا قصص.

والحديث يكون عمن سلف وعمن حضر، ويكون طويلًا وقصيرًا.

ويجوز أن يقال: القصص هو الخبر عن الأمور التي يتلو بعضها بعضًا، والحديث يكون عن ذلك وعن غيره.

والقص: قطع يستطيل ويتبع بعضه بعضًا، مثل: قص الثوب بالمقص، وقص الجناح وما أشبه ذلك.

وهذه قصة الرجل يعني: الخبر عن مجموع أمره، وسميت قصة؛ لأنها يتبع بعضها بعضًا حتى تحتوي على جميع أمره"(١).

ولنا على قول أبي العسكري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أكثر من تعليق:

فمن ذلك: أن قوله: (متحدثًا به عن سلف) كان من المناسب الاستدلال بقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ [طه:٩٩].

ولكن هل يختص كلام الله عَزَّوَجَلَّ -قصة كان أم حديثًا أم خبرًا- بما سلف من الزمن أم أنه أعم من ذلك؟

والجواب: أن القصص في كلام الله عَزَّوَجَلَّ لا تختص بما سلف من الزمن، وكذا الخبر، -كما سيأتيك-.

والحاصل أن الخبر الفرد لا يقال عنه: قصة، ولكن يشترط في القصة تكون حلقات متصلة يتلو بعضها بعضًا، ويكمل بعضها بعضًا، والحديث يكون عن ذلك وعن غيره.

ويشترط في القصة أن يكون موضوعها واحدًا تظهر فيه معالم القصة.

وقيل: لا بدَّ تتكون القصة من أركان ثلاثة: بداية، ووسط، ونهاية.

كما يشترط أن الغاية من تلك الأخبار المتعاقبة في القصة واحدة، وهي -أعني: الغاية- بمثابة النتيجة والثمرة لتلك القصة.

ويراد من الحديث في القرآن الكريم ما يراد من القصة، من حيث ما يحدثه كل منهما في القلوب من العلوم والمعاني -على ما تقدم-، فيكشف خفاء المتحدث عنه، ويظهره على حقيقته، كما يشتركان في الغاية والقصد من الاعتبار والادكار، كما دلَّ على ذلك قوله جَلَّ وَعَلَا:

---

(١) الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري (ص:٤١-٤٢).

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَۚ﴾ [المؤمنون:٤٤]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ﴾ [سبأ:١٩].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٥ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٦ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾ [القمر:٩-١٧].

وفي الرويات ما يدل على ما تقدم، ومن ذلك: ما جاء عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف:١-٣] الآية.

قال: «نزل القرآن على رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتلاه عليهم زمانًا، فقالوا: يا رسول الله، لو قصصت علينا، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ علينا: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ الآية. فتلاه عليهم زمانًا، قالوا: يا رسول الله، لو حدثتنا فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر:٢٣] الآية. قال خلاد: وزاد فيه غيره: قالوا: يا رسول الله، لو ذكّرتنا، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد:١٦]» (١).

---

(١) أخرجه البزار [١١٥٣]، وابن جرير (٥٥٣/١٠)، والطحاوي في (شرح مشكل الآثار) [١١٥٧]، وابن أبي حاتم في (التفسير) [١١٣٢٣]، وأبو يعلى [٧٤٠]، وابن حبان [٦٢٠٩]، والحاكم [٣٣١٩]، وقال: "صحيح الإسناد" ووافقه الذهبي، كما أخرجه: الضياء [١٠٦٩]، وقال: "إسناده حسن"، وحسنه الحافظ ابن حجر في (المطالب العالية) [٣٦٣٤]. قال الهيثمي (٢١٩/١٠): "رواه أبو يعلى، والبزار نحوه، وفيه:=

وروى أبو عبيد القاسم بن سلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (فضائل القرآن)، وابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (التفسير)، وأبو نعيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الحلية): عن المسعودي، عن عون بن عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: ملَّ أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَلَّةً، فقالوا: يا رسول الله حدثنا! فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الزمر:٢٣]. ثم ملوا ملَّةً أخرى فقالوا: يا رسول الله حدثنا فوق الحديث، ودون القرآن، يعنون: القصَص، فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾ [يوسف:١-٣]، فأرادوا الحديث فدَّلهم على أحسن الحديث، وأرادوا القصصَ فدلهم على أحسن القصص [1].



=الحسين بن عمرو العنقزي، وثقه ابن حبان، وضعفه غيره، وبقية رجاله رجال الصحيح، وهو غير خلاد، هذا أقدم"، وانظر: الدر المنثور، للسيوطي (٤/٤٩٦).

(١) فضائل القرآن، للقاسم بن سلام (ص:٥٣)، تفسير الطبري (١٥/٥٥٢)، حلية الأولياء، لأبي نعيم (٤/٢٤٨)، وانظر: أسباب نزول القرآن، لأبي الحسن الواحدي (ص:٢٧٠)، جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر (٢/١٠٠٣). وفي إسناده: المسعودي، قيل: اختلط في آخر عمره، وقد ورد ما يوافق معناه.

المبحث الثاني:
الزمان في الاصطلاح واعتبار الشارع

أولًا: الزمان من مخلوقات الله عَزَّوَجَلَّ:

إن كل مخلوق في هذا الكون ممكن الوجود، وهو خاضع للقانون الذي أوجده الله عَزَّوَجَلَّ في هذا الكون، فهو يعيش زمنًا مكوَّنًا من (الماضي، والحاضر، والمستقبل).

وهذا هو من النظام الذي أوجده الله عَزَّوَجَلَّ في هذا الكون، وهو يجري على جميع الخلق إلا في صور قد يتخلف فيها فلا يعمل؛ ليعلم أن الزمن وعلاماته الدالة عليه من الشمس والقمر والأفلاك، وتقلب الليل والنهار، وانقضاء الأيام، وانصرام الأعمار، كل ذلك من خلق الله عَزَّوَجَلَّ، وهو يخضع لحكمه وتدبيره، والله عَزَّوَجَلَّ قادر على إيقاف عمله، متى شاء، وعلى أي أحد شاء، فالكل من الزمان والمكان وسائر المخلوقات مؤتمر بأمره، وخاضع لإرادته.

فما لم تتعلق قدرة الله عَزَّوَجَلَّ وإرادته وعلمه بوجود هذا المخلوق لم يوجد.

فكل إنسان هو موجود، وقد كان قبل الوجود معدومًا، وقد نفذت القدرة، وتعلقت الإرادة بوجود هذا المخلوق في اللحظة الفلانية فوجد، فصار هذا الوجود واجبًا بالغير.

وفي (صحيح البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ) من حديث: عمران بن حصين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**كان اللَّهُ ولم يَكُنْ شيءٌ غَيْرُهُ**» [١].

---

(١) صحيح البخاري [٣١٩١].

و«**كان اللَّهُ ولم يَكُنْ شيءٌ قَبْلَهُ**» (١).

فجاء في كتاب: (بدء الخلق) برواية: «**ولم يَكُنْ شيءٌ غَيْرُهُ**». وفي كتاب: (التوحيد): «**ولم يَكُنْ شيءٌ قَبْلَهُ**». قال شيخنا الأستاذ الدكتور إبراهيم عبد الرحمن خليفة رَحِمَهُ اللَّهُ: والإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ كان دقيقًا جدًّا في اختياره في كتاب التوحيد رواية: «**قَبْلَهُ**»؛ لأنه لو كان شيء قبله لكان الإله حادثًا، وليس قديمًا، وهو ما ينافي التوحيد.

وفي بدء الخلق: «**ولم يَكُنْ شيءٌ غَيْرُهُ**»، فوجود شيء غيره ينافي بدء الخلق، فالله عَزَّوَجَلَّ كان وحده الموجود، فلا يوجد أي خلق معه أبدًا؛ لأن الموجود إما خالق وإما مخلوق، فالخالق جَلَّوَعَلَا واجب الوجود لذاته، والمخلوق ممكن الوجود، وهو بعد الوجود واجب الوجود بالغير.

فالله عَزَّوَجَلَّ كان وحده، ولم يكن شيء غيره، وخلق الخلق لا من شيء، وعندما أراد أن يخلق ابتدأ الخلق. قال الله عَزَّوَجَلَّ مخبرًا عن بدئه للخلق: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَۚ﴾ [العنكبوت:٢٠].

وأخبر جَلَّوَعَلَا أنه هو (المبدئ) و(المعيد).

و(المبدئ) هو الموجد من عدم على غير مثال سبق، بتقدير، وتدبير، وإبداع.

ولم يرد الاسمان الجليلان في القرآن، ولا في السنة الصحيحة إلا بصيغة الفعل، كما في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [يونس:٤]، ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ﴾ [يونس:٣٤]، ﴿أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ [النمل:٦٤]، ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم:١١]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ﴾ [الروم:٢٧]، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ١٣﴾ [البروج:١٣].

---

(١) صحيح البخاري [٧٤١٨].

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**قال الله** عَزَّ وَجَلَّ: **كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني، كما بدأني، وليس أَوَّلُ الخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولدًا وأنا الأحد الصمد، لم ألد ولم أولد، ولم يكن لي كفئًا أحد**» (١).

أما حديث: «**أَنْتَ الأَوَّلُ فليسَ قَبْلَكَ شيءٌ**» (٢)، فمعناه: أن القبلية تنافي الأولية.

ولا يقال: (فليس غيرك شيء)؛ لعدم صلة ذلك بالأولية.

فإن قيل: إن صفة الخالقية على هذا كانت معطلة؟ فيجاب أن صفة الخلق هي صفة فعل، لا صفة ذات، مثل الرزق؛ ولذلك يقال: ثم خلق الله عَزَّ وَجَلَّ.

فهناك (أزل، ولا يزال) فالأزل عندما كان الله عَزَّ وَجَلَّ، وليس هناك شيء على الإطلاق، فأول ما يخلق فقد ذهب: الأزل، ووجد: ما لا يزال.

وقال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء**» الحديث. تضمن هذا الدعاء من أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ ما تضمنه قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾.

وقد اختلفت عبارات العلماء في ذلك، وأرشق عباراتهم في ذلك قول من قال: الأول بلا ابتداء، والآخر بلا انتهاء، والظاهر بلا اقتراب، والباطن بلا احتجاب. وقيل: الأول بالإبداء، والآخر بالإفناء، والظاهر بالآيات، والباطن عن الإدراكات. وقيل: الأول:

(١) صحيح البخاري [٣١٩٣، ٤٩٧٤].

(٢) صحيح مسلم [٢٧١٣].

القديم، والآخر: الباقي، والظاهر: الغالب، والباطن: الخفي اللطيف، الرفيق بالخلق. وهذا القول يناسب الحديث، وهو بمعناه.."[1].

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأما معنى الظاهر من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ فقيل هو من الظهور بمعنى: القهر والغلبة وكمال القدرة، ومنه: ظهر فلان على فلان. وقيل: الظاهر بالدلائل القطعية، والباطن المحتجب عن خلقه. وقيل: العالم بالخفيات. وأما تسميته جَلَّوَعَلَا بالآخر فقال الإمام أبو بكر بن الباقلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ معناه الباقي: بصفاته من العلم والقدرة وغيرهما التي كان عليها في الأزل، ويكون كذلك بعد موت الخلائق، وذهاب علومهم، وقدرهم، وحواسهم، وتفرق أجسامهم" [2].

وقد دلَّ عليه: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧]، قال إمام الحرمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأما قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ فلا وجه لحمل الوجه على صفة؛ إذ لا تختص بالبقاء بعد فناء الخلق صفة لله عَزَّوَجَلَّ، بل هو الباقي بصفاته الواجبة، فالأظهر حمل الوجه على الوجود.." [3].

ولأن الزمن من خلق الله عَزَّوَجَلَّ فإن الله جَلَّوَعَلَا فوقه، فلا يحيط به جَلَّوَعَلَا زمن، وهو جَلَّوَعَلَا مستغن عن الخلق، وما سواه فإنه فقير إليه، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣]، ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾ [فاطر:١٥-١٦].

فهو ﴿ٱلْأَوَّلُ﴾ قبل كل شيء بلا ابتداء، وهو جَلَّوَعَلَا موجد الأشياء ومحدثها. ﴿وَٱلْآخِرُ﴾ بعد فناء كل شيء بلا انتهاء.

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٧/٤٢).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٧/٣٦-٣٧).

(٣) الإرشاد الى قواطع الأدلة (ص:١٧٧).

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ﴾ قبل كل شيء بغير حدٍّ. ﴿وَٱلۡآخِرُ﴾ بعد كل شيء بغير نهاية. وإنما قيل ذلك كذلك، لأنه كان ولا شيء موجود سواه، وهو كائن بعد فناء الأشياء كلها، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ [القصص:٨٨] ... "(١).

وقال أبو إسحاق الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾: "تأويله هو ﴿ٱلۡأَوَّلُ﴾ قبل كل شيء. ﴿وَٱلۡآخِرُ﴾ بعد كل شيء، ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾: العالم بما ظهر. ﴿وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾: العالم بما بطن" (٢).

قال أبو بكر الوَرَّاق رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هُوَ ﴿ٱلۡأَوَّلُ﴾: بالأزلية ﴿وَٱلۡآخِرُ﴾: بالأبديَّة (٣).

وقيل: ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾: معناه بالأدلَّة ونظر العقول في صنعته، ﴿وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾: بلطفه وغوامض حكمته، وباهر صفاته التي لا تصل إلى معرفتها على ما هي عليه الأوهام (٤).

ولقد تخبط كثير من الفلاسفة في الحديث عن الزمن، فظهرت طوائف ومذاهب فكرية باطلة، وقد تأثر بضلالهم وانحرافهم كثير من الخلق -قديمًا وحديثًا- ومن ذلك قول الدهرية: إن الزمن ليس له بداية ولا نهاية، وظهرت طوائف تقول بتناسخ الأرواح.

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والقائلون بالتناسخ قوم ينكرون البعث على ما أثبتته الشريعة، ويزعمون أن الأرواح تنتقل إلى الأجسام على التأبيد" (٥)، وقال الشريف الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

---

(١) تفسير الطبري (٢٣/١٦٨).

(٢) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٥/١٢٢).

(٣) انظر: الكشف والبيان (٩/٢٢٨)، المحرر الوجيز (٥/٢٥٧)، البحر المحيط، لأبي حيان (١٠/١٠٠).

(٤) انظر: المحرر الوجيز (٥/٢٥٧).

(٥) المفردات في غريب القرآن، مادة: (نسخ) (ص:٨٠٢).

"التناسخ: عبارة عن تعلق الروح بالبدن بعد المفارقة من بدن آخر، من غير تخلل زمان بين التعلقين، للتعشق الذاتي بين الروح والجسد" (١).

والدهريَّة هي طائفة ظهرت قبل الإسلام، وسميت بهذا الاسم؛ لاعتقادها أن الزمان أو الدهر هو السبب الأول للوجود، وأنَّه غير مخلوق ولا نهائي، وتعتبر الدهريَّة أن المادَّة لا فناء لها.

وقد حكى الله عَزَّوَجَلَّ عن قول الدهرية من الكفار، ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد، حيث قال: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الجاثية:٢٤-٢٥].

قال القاضي البيضاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُۚ﴾، أي: إلا مرور الزمان، وهو في الأصل مدة بقاء العالم من دهره إذا غلبه"(٢).

وقال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الدهر في الأصل: اسم لمدة العالم من مبدأ وجوده إلى انقضائه، وعلى ذلك قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ [الإنسان:١]. ثم يعبر به عن كل مدة كثيرة، وهو خلاف الزمان؛ فإن الزمان يقع على المدة القليلة والكثيرة، ودهر فلان: مدة حياته، واستعير للعادة الباقية مدة الحياة، فقيل: ما دهري بكذا.. ويقال: دهر فلانًا نائبة دهرًا، أي: نزلت به حكاه الخليل رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فالدهر هاهنا مصدر" (٣)، وقولهم: (لا آتيكَ أَبَدَ الدَّهْر)، أي: لا آتيكَ أَبَدًا، وقولهم: (إلى دَهْرِ الدَّاهِرين): إلى الأبد، وقولهم: (ما دهري بكذا!)، أي: ما هَمِّي، ما غايَتِي.

---

(١) التعريفات (ص:٦٨).

(٢) تفسير البيضاوي (٥/١٠٨).

(٣) المفردات في غريب القرآن، مادة: (دهر) (ص:٣١٩)، وانظر: التوقيف على مهمات التعاريف (ص:١٦٨).

وقال العسكري رَحِمَهُ اللَّهُ في الفرق بين الدهر والمدة: إن الدهر جمع أوقات متوالية مختلفة كانت أو غير مختلفة، ولهذا يقال: الشتاء مدة، ولا يقال: دهر؛ لتساوي أوقاته في برد الهواء وغير ذلك من صفاته ويقال للسنين: دهر؛ لأن أوقاتها مختلفة في الحر والبرد وغير ذلك، وأيضًا من المدة ما يكون أطول من الدهر، ألا تراهم يقولون: هذه الدنيا دهور، ولا يقال الدنيا: مدد. والمدة والأجل متقاربان، فكما أن من الأجل ما يكون دهورًا فكذلك المدة" (١).

وقال الجوهري رَحِمَهُ اللَّهُ: "الدَهْرُ: الزمان. ويجمع على دهور. ويقال: الدهر: الأبد. وقولهم: دهرا داهر (٢)، كقولهم: أبدًا أبيد. وقولهم: دَهْرٌ دَهارِيرُ، أي: شديدٌ، كقولهم: لَيْلَةٌ لَيْلاء، ونهارٌ أَنْهَرُ، ويومٌ أَيْوَمُ، وساعةٌ سَوْعاءُ" (٣).

وقيل: يسمى الدهرُ مَنُونًا؛ لأنه يذهبَ بِمُنَّة الإنسان، أي: قُوَّته، ويقال: حَبْلٌ مَنِين، أي: ضعيف، وقد مَنَّه السيرُ يَمُنُّه مَنًّا: إذا أضعفه (٤).

وقيل: لأنه يقطع يقطع الأجل.

فالمنون يكون بمعنى: الدهر، ويكون بمعنى: المنية.

---

(١) الفروق اللغوية (ص:٢٧٠).

(٢) دهرٌ داهرٌ، أي: طويلٌ جدًّا، والدَّاهرُ: الشديد.

(٣) الصحاح، للجوهري، مادة: (دهر) (٢/٦٦١).

(٤) انظر: المخصص (٢/٧٢)، الفروق اللغوية (ص:١٩٧).

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والمنونُ: الدهرُ. والمنونُ: المنيَّةُ، لأنَّها تقطع المدد، وتنقص العدد. قال الفراء رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والمنونُ تذكر وتؤنث، فمن ذكره أراد بها الدهر، ومن أنث أراد بها المنية، وتكون واحدةً وجمعًا" (١).

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝٣٠﴾ [الطور:٣٠]، أراد: حوادث الدهر.

وقوله: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨﴾ [فصلت:٨].

قيل: أي: لا يُمَنَّ عليهم؛ لأن المنَّ يكدر الإحسان.

وقيل: غير مقطوع، من قولك، مننت الحبل: إذا قطعته، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ۝٣٣﴾ [الواقعة:٣٢-٣٣].

وقيل: غير منقوص، من قولهم: حبَلٌ مَنِينٌ: إذا كان ضَعِيفًا.

وقيل: غير محصور.

وقيل: غير محسوب.

قال أبو عبيدة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ليس فيه منٌّ، ويجوز: غير مقطوع" (٢).

والحاصل أن الدهر أخص من الزمان على ما قُرر من أن الدهر هو طول الزمان، وهو الذي ارتضاه العلامة السعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وذكر بعض الأجلة أن الدهر بالمعنى السابق منقول من المصدر، وأنه يقال: دهره دهرًا، أي: غلبه، وإسنادهم الإهلاك إلى الدهر إنكار منهم لملك الموت، وقبضه الأرواح بأمر الله عَزَّوَجَلَّ، وكانوا يسندون الحوادث مطلقًا إليه؛ لجهلهم أنها مقدرة من عند الله عَزَّوَجَلَّ،

---

(١) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (منن) (٢٢٠٧/٦-٢٢٠٨)، وانظر: تهذيب اللغة (٣٤٠/١٥)، الفروق اللغوية (ص:١٩٧).

(٢) مجاز القرآن، لأبي عبيدة (٣٠٣/٢).

وأشعارهم لذلك مملوءة من شكوى الدهر. وهؤلاء معترفون بوجود الله عَزَّوَجَلَّ، فهم غير الدهرية؛ فإنهم مع إسنادهم الحوادث إلى الدهر لا يقولون بوجوده ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤٣﴾ [الإسراء:٤٣]، والكل يقول باستقلال الدهر بالتأثير، ولا يبعد أن يكون الزمان عندهم: مقدار حركة الفلك، كما ذهب إليه معظم الفلاسفة، كذا في (روح المعاني) [(١)].

وقال الشهرستاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان أصناف معطلة العرب: "فصنف منهم أنكروا الخالق جَلَّوَعَلَا، والبعث والإعادة، وقالوا بالطبع المحيي، والدهر المفني. وهم الذين أخبر عنهم القرآن المجيد: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٢٤﴾، فاستدل عليهم بضرورات فكرية، وآيات فطرية، في آيات كثيرة تثبت الدلالة الضرورية على القدرة والكمال على الإبداء والإعادة [(٢)].

وقد أثبت علماء الفيزياء القول بنسبية الزمن، وأن الزمن الذي تعيشه المخلوقات على الأرض هو بالنسبة لها زمانًا ومكانًا، وأن الوقت يتأثر بكلٍّ من الجاذبية والسرعة.

فالزمن مرتبط بحركة الفلك، ودوران الكواكب حول شموسها، وقربها أو بعدها منها، ومتأثر بكلٍّ من الجاذبية والسرعة، فاليوم على الأرض غير اليوم الذي على المريخ -مثلًا-.

وقد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن نسبية الزمن، وأنه مخلوق مؤتمر بأمر خالقه جَلَّوَعَلَا، يعمله أو يوقفه، ويزيده أو ينقصه وفق مشيئته، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٤٧﴾ [الحج:٤٧]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ

(١) روح المعاني (١٣/١٥١).

(٢) الملل والنحل، للشهرستاني (٣/٧٩-٨٠) باختصار.

﴿٥﴾ [السجدة:٥]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ [المعارج:٤].

والقصص والأخبار في القرآن لا تسير على ذلك النسق المعهود من الزمن في النظام الكوني في الحياة الدنيا، حيث إن الزمن فيها ينقسم إلى ماض ومضارع وأمر، والله عَزَّوَجَلَّ هو خالق الزمان والمكان، وعالم بما كان وبما هو كائن، ولا يجري عليه ما نعرفه من وقت وزمن، ولا يُعْنى القرآن الكريم بذكر الزمن غالبًا، وإنما يُعْنى بمحل الفائدة من الهداية والإرشاد والاعتبار، وكثيرًا ما يتجاوز الإخبارُ الزمنَ؛ ولذلك وقع الإخبار في صور متنوعة -كما سيأتي بيانه-.

ثانيًا: توقف الزمن وعمله بأمر الله عَزَّوَجَلَّ وإرادته:

ولما كان الزمن من خلق الله عَزَّوَجَلَّ، مؤتمرًا بأمره، وخاضعًا لإرادته وحكمه، فإن الله عَزَّوَجَلَّ يتصرف فيه كما يشاء، فقد يعمل في حقِّ أشخاص، ولا يعمل في حقِّ آخرين بأعيانهم، فيتوقف الزمن في حقهم مع جريانه في غيرهم؛ لحكمة أرادها الله عَزَّوَجَلَّ، كما حكى الله عَزَّوَجَلَّ عن الرجل الذي أماته الله عَزَّوَجَلَّ مائة عام ثم بعثه فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة:٢٥٩].

قال الفخر الرازي رَحِمَهُٱللَّهُ: "أما قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ﴾ فالمعنى: ثم أحياه، ويوم القيامة يسمى: يوم البعث؛ لأنهم يبعثون من قبورهم، وأصله من (بعثت الناقة): إذا أقمتها من مكانها، وإنما قال: ﴿ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ﴾ ولم يقل: (ثم أحياه)؛ لأن قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ﴾ يدل

على أنه عاد كما كان أوَّلًا حيًّا عاقلًا فهمًا مستعدًا للنظر والاستدلال في المعارف الإلهية، ولو قال: (ثم أحياه) لم تحصل هذه الفوائد"(١).

فهذا قد توقف عمل الزمن في حقه، وعمل الزمن في حماره، فلما بعثه الله عَزَّوَجَلَّ ابتدأ عمل زمنه مرة أخرى من اليوم الذي مات فيه، وهذا من عجائب قدرة الله عَزَّوَجَلَّ وآياته.

وقال الله عَزَّوَجَلَّ عن أصحاب الكهف: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾ [الكهف:١١-١٢].

وقال: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ [الكهف:١٨-١٩].

وقال: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾ [الكهف:٢٥-٢٦].

وفي (الصحيحين): عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**غزا نبي من الأنبياء، فقال لقومه: لا يتبعني رجل ملك بضع امرأة، وهو يريد أن يبني بها؟ ولما يبن بها، ولا أحد بنى بيوتًا ولم يرفع سقوفها، ولا أحد اشترى غنمًا أو خَلِفَاتٍ وهو ينتظر وِلَادَهَا، فغزا فدنا من القرية صلاة العصر أو قريبًا من ذلك، فقال للشمس: إنك مأمورة وأنا مأمور اللهم احبسها علينا، فحبست حتى فتح الله عليه، فجمع الغنائم، فجاءت يعني: النار لتأكلها، فلم تطعمها فقال: إن فيكم غلولًا،**

(١) مفاتيح الغيب (٧/٣٠).

فليبايعني من كل قبيلة رجل، فلزقت يد رجل بيده، فقال: فيكم الغلول، فليبايعني قبيلتك، فلزقت يد رجلين أو ثلاثة بيده، فقال: فيكم الغلول، فجاءوا برأس مثل رأس بقرة من الذهب، فوضعوها، فجاءت النار، فأكلتها ثم أحل الله لنا الغنائم، رأى ضعفنا، وعجزنا فأحلها لنا» (١).

وعند أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الشمس لم تحبس على بشر إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس**» (٢).

فلا يقدر على حبس الزمن وإيقاف عمل الشمس، أو اختلاف مطلعها وغروبها وعملها في أماكن مخصوصة دون أخرى إلا الله عَزَّ وَجَلَّ.

وقد أخبر أن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الدجالَ يُمَكَّنُ في الأرض أربعينَ يومًا، يَوْمٌ من أيامِه كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم. وقد سألَ الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ الرسولَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن تلكَ الأيامِ الطويلةِ: أتكفي في الواحدِ منها صلاةُ يومٍ، فقال: «**لَا، اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ**» (٣).

وفي حديث الدجال كذلك إرشاد إلى ما ينبغي أن يفعله الناس في البلاد التي يطول فيها النهار أيامًا، ويطول فيها الليل أيامًا، فينبغي أن يقدروا لهذه الصلوات قدرها جريًا على الغالب من تلقب الليل والنهار في بقاع الأرض.

وفي القرآن الكريم يأتي ذكر الغالب، وغير الغالب جاء بيانه في السنة حيث يقدر له في الوقت قياسًا على الغالب.

---

(١) أخرجه البخاري [٣١٢٤]، واللفظ له، ومسلم [١٧٤٧].

(٢) أخرجه أحمد [٨٣١٥]، بسند صحيح.

(٣) صحيح مسلم [٢٩٣٧].

والحاصل أن النظام المطرد في هذا الكون إنما يجري بأمر الله عَزَّوَجَلَّ وإرداته، وهو مختلف عن الزمان في الدار الآخرة، كما أن هذا النظام يتغير مع الإيذان بانصرام أيام الحياة الدنيا، فيتقارب الزمان، كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لا تقوم الساعة حتى يقبض العلم، وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج** -وهو القتل- **حتى يكثر فيكم المال فيفيض**» (١).

وفي لفظ: «**يتقارب الزمان، وينقص العمل، ويلقى الشح، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج**» الحديث (٢).

وفي رواية: «**لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان، يكون بينهما مقتلة عظيمة، دعوتهما واحدة، وحتى يبعث دجالون كذابون، قريب من ثلاثين، كلهم يزعم أنه رسول الله، وحتى يقبض العلم وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج**» الحديث (٣).

واللفظ عند مسلم: «**يتقاربُ الزَّمَانُ، ويُقْبَضُ العلم، وتظهرُ الفتنُ، ويُلْقَى الشُّحُّ، ويكْثُرُ الْهَرْج**» (٤).

ومما يدل تغير النظام الكوني المطرد في آخر أيام الحياة: حديث الدجال الآنف الذكر، حيث إنه يُمَكَّنُ في الأرض أربعينَ يومًا، يَوْمٌ من أيامِه كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم.

---

(١) صحيح البخاري [١٠٣٦].

(٢) صحيح البخاري [٦٠٣٧، ٧٠٦١]،

(٣) صحيح البخاري [٧١٢١].

(٤) مسلم [١٥٧].

ومما يدل تغير النظام الكوني المطرد في آخر أيام الحياة: طلوع الشمس من المغرب -كما سيأتي-، كل ذلك يدل على شأن الزمان كشأن سائر المخلوقات من حيث الخضوع لأمر الله عَزَّوَجَلَّ وإرادته.

ثالثًا: القوانين المطردة في هذا الكون:

ومن القوانين المطردة في هذا الكون: طلوع الشمس من المغرب، وأفولها من المغرب، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة:٢٥٨]، فأخبر الحق جَلَّوَعَلَا أن إبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ انتقل مع ذلك الطاغية الذي سلك مسلك التلبيس والتمويه على الرعاع من الحجة الصحيحة إلى أخرى، أوضح منها -لا لخلل فى الحجة- ولكن لقصور في فهم الكافر، فليس هذا بانتقال من حجة إلى حجة؛ لأن الحجة الأولى كانت لازمة، ولكنه انتقل إلى حجة أخرى لا يتيسر لذلك الطاغية الخروج عنها؛ مبالغة في الإلزام، وقطعًا للشغب، فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق، فإن كنت إلهًا كما ادعيت ﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ﴾، أي: تحيَّر، ودهش، وغلب بالحجة، لما علم عجزه وانقطاعه، وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ أي: لا يلهمهم حجَّة ولا برهانًا. بل ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾ [الشورى:١٦].

ومن علامات الساعة الكبرى: طلوع الشمس من المغرب مخالفة ذلك النظام المعهود في الحياة الدنيا، ومؤذنة بنهاية العالم، كما جاء في الحديث: عن عبد الله بن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: حفظت من رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حديثًا لم أنسه بعد، سمعت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ

يقول: «**إن أول الآيات خروجًا: طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيهما ما كانت قبل صاحبتها، فالأخرى على إثرها قريبًا**» (١).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "طلوع الشمس من مغربها أول الآيات التي ليست مألوفة، وإن كان الدجال ونزول عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من السماء قبل ذلك، وكذلك خروج يأجوج ومأجوج، فكل ذلك أمور مألوفة؛ لأن أمر مشاهدته ومشاهدة أمثاله مألوف، فأما خروج الدابة على شكل غريب غير مألوف، ومخاطبتها الناس، ووسمها إياهم بالإيمان أو الكفر، فأمر خارج عن مجاري العادات، وذلك أول الآيات الأرضية، كما أن طلوع الشمس من مغربها على خلاف عادتها المألوفة أول الآيات السماوية" (٢).

قال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومذهب أهل السنَّة: حمل طلوع الشمس من مغربها وغيرها من الآيات على ظاهرها؛ إذ لا إحالة فيها، وهي أمور مُمكنة في نفسها، وقد تظاهرت الأخبار الصحيحة بها مع كثرتها وشُهرتها، فيجب التصديق بها، ولا يُلتفت لشيء من تأويلات المبتدعة لها" (٣).

وقال: "وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن أول الآيات خروجًا: طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى**» يعني -والله أعلم-: أول الآيات الكائنة في زمان ارتفاع التوبة، والطبع على كل قلب بما فيه؛ لأنَّ ما قبل طلوع الشمس من مغربها التوبة فيه مقبولة، وإيمان الكافر يصح فيه.." (٤).

---

(١) صحيح مسلم [٢٩٤١].

(٢) النهاية في الفتن والملاحم، لابن كثير (١/٢١٤).

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١/٣٧٣).

(٤) المصدر السابق (٧/٢٤٢).

وذكر ما يدل على ذلك من الحديث، ومن ذلك: ما جاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا رآها الناس آمن من عليها، فذاك حين:** ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام:١٥٨]» (١).

وعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن الله** عَزَّ وَجَلَّ **يبسط يده بالليل؛ ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار؛ ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها**» (٢)، أي: إن الله عَزَّ وَجَلَّ يقبل التوبة من العاصي في أي وقت كانت منه، ليلًا ونهارًا، ما لم يحضره الموت، أو تطلع الشمس من مغربها.

وفيه: تنبيه على سعة رحمة الله عَزَّ وَجَلَّ، وكثرة تجاوزه عن الذنوب، ولا يزال كذلك جَلَّ وَعَلَا.

ويتبين مما تقدَّم أن طلوع الشمس من المغرب هي أول الآيات التي ليست مألوفة، وأول الآيات الكائنة في زمان ارتفاع التوبة.

ومن حكمة اللَّه عَزَّ وَجَلَّ وفضله على عباده: أن صَرَّفَ اللَّيل والنَّهار والأيَّام، وقَلَّبَ الشُّهُور والفصول والأعوام؛ لما فِي ذلك من مصالحَ عظيمة، وحكمٍ بَالِغَة.

فمن منافع هذه الآيات الكونية: حسابُ الزمن، وضبط الأيام والشهور، والفصول والأعوام.

فعندما تشرق الشمس يبدأ النهار، وعندما تغرب يبدأ الليل، ويهل القمر؛ ليبدأ الشهر، ويضمحل؛ لينتهي الشهر، وبالنجوم تعرف الفصول ابتداء وانتهاء، وبها يهتدي المسافرون، ويزرع الزارعون، وكل ذلك من خلق الله عَزَّ وَجَلَّ وتدبيره.

---

(١) صحيح البخاري [٤٦٣٥، ٤٦٣٦، ٦٥٠٦، ٧١٢١]، مسلم [١٥٧].

(٢) صحيح مسلم [٢٧٥٩].

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦﴾ [النحل:١٦].

وقد نصب هذه الآيات الكونية؛ ليستدل بها على عظمة صنع الله عَزَّوَجَلَّ، وبديع خلقه، وحسن تدبيره، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٦٤﴾ [البقرة:١٦٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [آل عمران:١٩٠-١٩١].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٥ إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ٦﴾ [يونس:٥-٦].

قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾، أي: وقدَّر مسير القمر ﴿مَنَازِلَ﴾، فوحَّده، وقد ذكر الشمس والقمر، قالوا: وفي ذلك وجهان:

أحدهما: أن تكون (الهاء) في قوله: ﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾ للقمر خاصة؛ لأن بالأهلة يُعرف انقضاءُ الشهور والسنين، لا بالشمس.

والآخر: أن يكون اكتفي بذكر أحدهما عن الآخر، كما قال في موضع آخر: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ [التوبة:٦٢].

﴿لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ﴾، أي: دخول ما يدخل منها، أو انقضاءَ ما يستقبل منها.

﴿وَٱلۡحِسَابَۚ﴾، أي: وحساب أوقات السنين، وعدد أيامها، وحساب ساعات أيامها [١].

وقال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهذه المنازل هي مواقع النجوم" [٢].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا ١٢﴾ [الإسراء:١٢].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ٣٧﴾ [فصلت:٣٧].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٣ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٤ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٥﴾ [الجاثية:٣-٥].

وقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ الأهلة مواقيت للناس والحج، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ﴾ [البقرة:١٨٩].

وجعَل رُؤيةَ الهلالِ إيذانًا ببداية كلِّ شَهر، وترتب على ذلك العلم بدخول وقت فرائض جليلة، ومشاعر فاضلة، أو انتهاء وقتها.

قال الإمام الشَّافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا

(١) انظر: تفسير الطبري (١٥/٢٣-٢٤).

(٢) الكشاف (٤/١٦).

أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ﴾ [البقرة:١٨٥] "فافترض عليهم الصومَ، ثم بيَّن أنه شهر، والشهر عندهم ما بين الهلالين، وقد يكون ثلاثين، وتسعًا وعشرين"(١).

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أو قال: قال أبو القاسم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غُبِّيَ عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين**» (٢).

وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكر رمضان فقال: «**لا تصوموا حتى تروا الهلال، ولا تفطروا حتى تروه، فإن غم عليكم فاقدروا له**» (٣).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا تَقَدَّمُوا رمضانَ بصوْمِ يوْمٍ ولا يومين إلَّا رجلٌ كان يصُومُ صَوْمًا، فَلْيَصُمْهُ**» (٤).

وفي الحديث رد على الذين يرون تقديم الصوم على الرؤية؛ لأن (رمضان) اسم لما بين الهلالين. فإذا صام قبله بيوم فقد تقدم عليه.

---

(١) الرسالة، للإمام الشافعي (ص: ٢٦).

(٢) أخرجه البخاري [١٩٠٩]، واللفظ له، ومسلم [١٠٨١]، واللفظ عند مسلم: «فإن غُمِّيَ عليكم فأكملوا العدد». وقوله: «غبي» من الغباوة، وهي عدم الفطنة. يقال: غبي علي: إذا لم تعرفه، وهي هنا استعارة لخفاء الهلال. وقال ابن الأثير: "وروي: «غبي» بضم الغين المعجمة وتشديد الموحدة المكسورة لما لم يسم فاعله. قال: غبي: بالفتح والتخفيف، وغبي بالضم والتشديد، من الغباء شبه الغبرة في السماء" النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (غبا) (٣/٣٤٢). وقال القاضي عياض: "«غبي» بالفتح والتخفيف رواية أبي ذر، وبالضم والتشديد رواية القابسي. وكذا قيده الأصيلي، والأول أبين، ومعناه: خفي عليكم" مشارق الأنوار على صحاح الآثار (٢/١٢٨). وسيأتي بيان معنى: (العدة) مفصلًا.

(٣) أخرجه البخاري [١٩٠٦]، ومسلم [١٠٨٠].

(٤) أخرجه البخاري [١٩١٤]، ومسلم [١٠٨٢]، واللفظ له.

وفيه تبيين لمعنى الحديث الآخر، الذي في «**صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته**»(١)، وبيان أن اللام للتأقيت، لا للتعليل. ولو كانت للتعليل لم يلزم تقديم الصوم على الرؤية أيضًا، كما تقول: (أكرم زيدًا لدخوله). فلا يقتضي تقديم الإكرام على الدخول. ونظائره كثيرة. وحمله على التأقيت لا بد فيه من احتمال تجوز، وخروج عن الحقيقة؛ لأن وقت الرؤية –وهو الليل– لا يكون محلًّا للصوم، كذا في (إحكام الأحكام)(٢).

وقال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أخبر الله عَزَّوَجَلَّ أنه علق معرفة السنين والحساب على تقدير القمر منازل.

وقيل: بل على جعل الشمس ضياء والقمر نورًا؛ لأن حساب السنة، والشهر يعرف بالقمر، واليوم والأسبوع يعرف بالشمس، وبهما يتم الحساب.

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ﴾ [يونس:٥]: لما كان الشهر الهلالي لا يحتاج إلى عد لتوفيته بما بين الهلالين، لم يقل: لتعلموا عدد الشهور؛ فإن الشهر لا يحتاج إلى عده إلا إذا غم آخره، فيكمل عدده بالاتفاق، إلا في شهر شعبان إذا غم آخره بالنسبة إلى صوم رمضان خاصة، فإن فيه اختلافًا مشهورًا.

وأما السنة فلا بد من عددها؛ إذ ليس لها حد ظاهر في السماء، فيحتاج إلى عددها بالشهور، ولا سيما مع تطاول السنين وتعددها.

وجعل الله عَزَّوَجَلَّ السنة اثني عشر شهرًا، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣٦]، وذلك بعدد البروج التي تكمل بدور الشمس فيها السنة الشمسية، فإذا دار القمر فيها كلها كملت دورته السنوية، وإنما جعل الله عَزَّوَجَلَّ الاعتبار بدور القمر؛ لأن ظهوره في السماء لا يحتاج إلى حساب ولا كتاب، بل هو أمر

---

(١) تقدم.

(٢) إحكام الإحكام شرح عمدة الأحكام، لابن دقيق العيد (٢/٧).

ظاهر يشاهد بالبصر، بخلاف سير الشمس؛ فإنه تحتاج معرفته إلى حساب وكتاب، فلم يحوجنا إلى ذلك، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، لا نَكْتُبُ ولا نَحْسُب، الشَّهْرُ هكذا وهكذا وهكذا**»، وأشار بأصابعه العشر، وخَنَسَ إبهامه في الثالثة (١).

---

(١) صحيح البخاري [١٩٠٨، ١٩١٣]، مسلم [١٠٨٠]. قوله: «إنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ»، أي: لا تحتاج في فهمها وتعرف أوامرها ونواهيها إلى التغلغل في العلوم الكونية والرياضيات وما إلى ذلك. وأما قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الشهر هكذا وهكذا»، يعني: مرة تسعة وعشرين، ومرة ثلاثين. وعندما يقول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنا أمة أمية» فهو يصف واقعًا، ولا يشرع لتأييد الجهل بالكتابة والحساب؛ لأن القرآن الكريم قد بدأ بفريضة القراءة، فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ [العلق:١]؛ ولأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي وصف واقع الأمة في ذلك الوقت هو الذي غير هذا الواقع، بتحويل البدو الأميين إلى قراء وعلماء وفقهاء، وذلك امتثالًا لأمر ربه عَزَّ وَجَلَّ في القرآن الكريم، الذي علمنا أن من وظائف جعل الله عَزَّ وَجَلَّ القمر منازل: أن نتعلم عدد السنين والحساب. فوصف الواقع -كما نقول الآن مثلًا: (نحن مجتمعات متخلفة) -، فلا يعني شرعنة هذا الواقع، ولا تأييده، فضلًا عن تأبيده، بأي حال من الأحوال. ويقال أيضًا: إن حكم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذا الحديث على الأمة الإسلامية بالأمية تبعًا لنبيها الأمي: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف:١٥٧]، فألحق الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأمة بنبيها من حيث إنه وصفها بأنها أمة أمية لا تكتب ولا تحسب، وإن كانت في واقعها في كثير من عصورها ليست أمية. وفي (النبأ العظيم): "فترى مثلا في قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ في القران أنه لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا. وفي (سفر التكوين) من التوراة أنه عاش تسعمائة وخمسين سنة. وترى في قصة أصحاب الكهف عند أهل الكتاب أنهم لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنة شمسية، وفي القران أنهم لبثوا في كهفهم ﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ۝٢٥﴾ [الكهف:٢٥]، وهذه السنون التسع هي فرق ما بين عدد السنين الشمسية والقمرية. قاله الزجاج. يعني: بتكميل الكسر. فانظر إلى هذا الحساب الدقيق في أمة أمية لا تكتب ولا تحسب" النبأ العظيم، للأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز (ص:٦٦)، وانظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٢٧٩/٣). وقوله: «وخنس إبهامه» أي: قبضها.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غم عليكم فأكملوا العدة**»[١] إنما علق الله عَزَّوَجَلَّ على الشمس أحكام اليوم من الصلاة والصيام، حيث كان ذلك أيضًا مشاهدًا بالبصر لا يحتاج إلى حساب ولا كتاب، فالصلاة تتعلق بطلوع الفجر، وطلوع الشمس، وزوالها وغروبها، ومصير ظل الشيء مثله. وغروب الشفق، والصيام يتوقت بمدة النهار من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلْحِسَابَۚ﴾ [يونس:٥]، يعني بالحساب: حساب ما يحتاج إليه الناس من مصالح دينهم ودنياهم، كصيامهم، وفطرهم، وحجهم، وزكاتهم ونذورهم، وكفاراتهم، وعدد نسائهم، ومدد إيلائهم، ومدد إجاراتهم.

وحلول آجال ديونهم، وغير ذلك مما يتوقت بالشهور والسنين.

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّۗ﴾ [البقرة:١٨٩]، فأخبر أن الأهلة مواقيت للناس عمومًا، وخص الحج من بين ما يوقت به؛ للاهتمام به، وجعل الله عَزَّوَجَلَّ في كل يوم وليلة لعباده المؤمنين وظائف موظفة عليهم من وظائف طاعته، فمنها: ما هو مفترض كالصلوات الخمس. ومنها: ما يندبون إليه من غير افتراض، كنوافل الصلاة، والذكر، وغير ذلك.

وجعل في شهور الأهلة وظائف موظفة أيضًا على عباده، كالصيام، والزكاة، والحج، ومنه فرض مفروض عليهم، كصيام رمضان، وحجة الإسلام، ومنه ما هو مندوب، كصيام شعبان، وشوال، والأشهر الحرم.

---

(١) صحيح البخاري [١٩٠٩]، مسلم [١٠٨١]، وقد تقدم. وسيأتي بيان معنى: (العدة) مفصلًا.

وجعل الله عَزَّوَجَلَّ لبعض الشهور فضلًا على بعض، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُۚ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْۚ﴾ [التوبة:٣٦]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌۚ﴾ [البقرة:١٩٧]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة:١٨٥].

كما جعل بعض الأيام والليالي أفضل من بعض، وجعل ليلة القدر خيرًا من ألف شهر.

وأقسم بالعشر، وهو عشر ذي الحجة على الصحيح.

وما من هذه المواسم الفاضلة موسم إلا ولله عَزَّوَجَلَّ فيه وظيفة من وظائف طاعاته، يتقرب بها إليه، ولله عَزَّوَجَلَّ فيه لطيفة من لطائف نفحاته، يصيب بها من يعود بفضله ورحمته عليه، فالسعيد من اغتنم مواسم الشهور والأيام والساعات، وتقرب فيها إلى مولاه بما فيها من وظائف الطاعات، فعسى أن تصيبه نفحة من تلك النفحات، فيسعد بها سعادة يأمن بعدها من النار، وما فيه من اللفحات..." (١).

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۝٤٥ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ۝٤٦﴾ [الفرقان:٤٥-٤٦].

واختلفوا في هذا الظل، فالأكثرون على أنه الظل من وقت طلوع الصبح إلى وقت طلوع الشمس.

والقول الثاني: أنه من وقت غروب الشمس إلى وقت طلوعها.

والظل هو ظل الأرض يقبل عند غروب الشمس، ويدبر عند طلوعها.

وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ أي: دائمًا.

---

(١) لطائف المعارف، لابن رجب (ص:٣٨-٤٠).

وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۝٤٥﴾ أي: ثم جعلنا الشمس دليلًا على الظل؛ فإن الظل يعرف بالشمس، والنور يعرف بالظلمة، والليل بالنهار، وكذلك كل الأشياء تعرف بأضدادها [١].

قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومعنى مد الظل: أن جعله يمتد وينبسط فينتفع به الناس. ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ أي: لاصقًا بأصل كل مظل من جبل وبناء وشجرة، غير منبسط فلم ينتفع به أحد. سمى انبساط الظل وامتداده: تحركًا منه، وعدم ذلك: سكونًا [٢]. ومعنى كون الشمس دليلًا: أنَّ الناس يستدلون بالشمس وبأحوالها في مسيرها على أحوال الظل، من كونه ثابتًا في مكان، زائلًا ومتسعًا ومتقلصًا، فيبنون حاجتهم إلى الظل واستغناءهم عنه على حسب ذلك. وقبضه إليه: أنه ينسخه بضح الشمس [٣]. ﴿يَسِيرًا ۝٤٦﴾ أي: على مهل. وفي هذا القبض اليسير شيئًا بعد شيء من المنافع ما لا يعد ولا يحصر، ولو قبض دفعة واحدة لتعطلت أكثر مرافق الناس بالظل والشمس جميعًا" [٤].

والآيات الكونية تدل على عظمة الخالق جَلَّوَعَلَا، وبديع صنعه -كما تقدم- وهي مسخرة لمصالح العباد، وهذا التسخير يستوجب من العباد الشكر. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۝٣٣﴾ [إبراهيم:٣٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ

---

(١) انظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٤/٢٢).

(٢) "ومقابل السكون الحركة، فيكون إطلاق مد ظل وبسطه على الحركة من باب تسمية الشيء باسم ملابسه أو سببه" حاشية الطيبي على الكشاف (١١/٢٤٥).

(٣) و(الضح) -بالكسر-: ضوء الشمس إذا استمكن من الأرض، وهو كالقمراء للقمر. هكذا هو أصل الحديث. ومعناه. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (ضحح) (٣/ ٧٥)، العين (٣/١٣)، تهذيب اللغة (٣/٢٥٧).

(٤) الكشاف (٣/٢٨٣).

﴿١٢﴾ [النحل:١٢]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان:٦١-٦٢].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص:٧١-٧٣].

وهذا النظام الكوني له أمد معلوم، قدره خالق الكون جَلَّوَعَلَا، حتى إذا بلغ ذلك الأجل توقف جريان الزمن فيه، بتوقف عمل علاماته الدالة عليه:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد:٢].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء:١٠٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر:١٣].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر:٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ [القيامة:٥-١٣].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ۝٩ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ۝١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ۝١١ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ۝١٢ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ۝١٣﴾ [المرسلات:٨-١٣].

قال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿طُمِسَتۡ ۝٨﴾ "معناه: أُذْهِبَتْ وغُطِيَتْ" (١).

قال الفراء رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ذهب ضوءها"(٢)، أي: "كما يُطمَسُ الأثرُ حتى يذهبَ"(٣).

وقال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "محيت ومحقت، وقيل: ذهب بنورها ومحق ذواتها٤، موافقٌ لقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱنتَثَرَتۡ ۝٢﴾ [الانفطار:٢]، و﴿ٱنكَدَرَتۡ ۝٢﴾ [التكوير:٢]. ويجوز أن يمحق نورها ثم تنتثر ممحوقة النور. ﴿فُرِجَتۡ ۝٩﴾ [المرسلات:٩]: فتحت فكانت أبوابًا" (٥).

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ۝٩﴾ [المرسلات:٩]، أي: شقِّقت وصدِّعت، فهذا كله يدل على نهاية ذلك النظام الكوني الذي كان معهودًا قبل ذلك اليوم.

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ۝٤ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ۝٥ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ۝٧ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ۝١١ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ۝١٢ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ۝١٣ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ۝١٤﴾ [التكوير:١-١٤].

---

(١) معاني القرآن وإعرابه (٥/٢٦٦).

(٢) معاني القرآن، للفراء (٣/٢٢٢).

(٣) غريب القرآن، لابن قتيبة (١/٥٠٥).

(٤) قوله: (ومُحق ذواتها)، قال الراغب: "(المحق): النقصان، ومنه: المحاق لآخر الشهر إذا انمحق الهلال، يقال: (محقه) إذا نقصه وأذهب بركته، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾ [البقرة:٢٧٦]، وقال: ﴿وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝١٤١﴾ [آل عمران:١٤١]" المفردات، مادة: (محق) (ص:٧٦١)، حاشية الطيبي (١٦/٢٢٣).

(٥) الكشاف (٤/٦٧٨).

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ٤ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ٥﴾ [الانفطار: ١-٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ٢ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ٣ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ٤ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ٥﴾ [الانشقاق: ١-٥].

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «**الشمس والقمر مُكَوَّرَانِ يوم القيامة**» (١).

قيل: يذهبُ نورُهما، وقيل: يُلَفَّان كما يُلَفُّ الثوب.

ومعنى التكوير في الشيء البسيط: لف بعضه، على بعض كالثوب، ونحوه، وهكذا قال أهل التفسير في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ١﴾ [التكوير: ١].

قال أبو عبيدة رَحِمَهُٱللَّهُ: "كُوِّرَتْ مثل تكوير العمامة، تلفُّ فتمحى" (٢).

وقال الفراء رَحِمَهُٱللَّهُ: "قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ١﴾: ذهب ضوؤها" (٣).

وقال أبو إسحاق الزجاج رَحِمَهُٱللَّهُ: "معنى: ﴿كُوِّرَتۡ ١﴾: جمع ضوؤها، ولُفَّتْ كما تلف العمامة، يقال: كرتُ العِمَامَةَ: كرتُ العِمَامَةَ على رأسِي أكوِّرُها، وكوَّرْتُها أكوِّرها: إذا لَفَفْتَها. ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ٢﴾ [التكوير: ٢]، ﴿ٱنكَدَرَتۡ ٢﴾: تهافتت وتناثرت. ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ٣﴾ [التكوير: ٣]: صارتْ سرابًا" (٤).

---

(١) صحيح البخاري [٣٢٠٠].

(٢) مجاز القرآن، لأبي عبيدة (٢/٢٨٧)، وانظر: أعلام الحديث، لأبي سليمان الخطابي (٢/١٤٧٥).

(٣) معاني القرآن (٣/٢٣٩)، وانظر: تهذيب اللغة (١٠/١٨٩).

(٤) معاني القرآن وإعرابه (٥/٢٨٩).

ومرور الزمن في الحياة الدنيا ينقل الإنسان من قوة إلى ضعف، ويؤذن بانصرام العمر، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم:٥٤]، وتلك سنة الله عَزَّوَجَلَّ في عباده.

فينبغي على طالب العلم والهداية أن يحذر الاغترار بالدنيا بما فيها، ويبتعد عن الأسباب المؤدية للانهماك فيها، أو الزيادة على الحاجة؛ فإنها عرض زائل، وحال حائل، وما فيها من النعيم أو من السرور محفوف بالأحزان والتنكيد، فما من فرح في الدنيا إلا ويتلوه ترح وحزن.

فهذا نعيم الدنيا الذي يُرى ويُحَسُّ، ولكنَّه لا يدوم، فهو في وشك الزوال، ومظنة الترحال، وما عند الله عَزَّوَجَلَّ أعظمُ وأبقى. ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [النساء:٧٧].

قال الشاعر:

أشـــد الغم عنـدي في سرور   تيقن عنه صاحبه انتقالا (١)

يعني: أن السرور الذي تيقن صاحبه الانتقال عنه هو أشدُّ الغمِّ؛ لأنه يراعي وقت زواله، ولا يطيب له ذلك السرور، وهذا من أبلغ الكلام وأوعظه.

وإنما يُعْنى العاقل بسرور لا ينقطع، فيعمل في الدنيا صالحًا؛ ليحيا حياة طيبة، ثم يوفى الأجر والثواب في الآخرة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل:٩٧].

وقد خلق الله عَزَّوَجَلَّ العباد ضعفاء، وكتب عليهم الموت والفناء، فمنهم من اهتدى إلى الحق قبل الفوت، فاغتنم المهلة قبل الرَّحيل والموت، فكان في أخراه من السُّعداء،

(١) ديوان المتنبي (ص:١٤٠).

ومنهم من سَلَك طريق الغواية، فسقط في أودية الضَّلال، وتشعُّبات الظُّنون والأوهام، وغفل عن حقيقة ضعفه وحاجته، وعن عاقبته ومآله، فانحرف عن الصراط، فكان من أهل الشقاء. وإن جريانُ الزمان في حياة الإنسان، يسرع بهم إلى الموت، وتلك هي سنة الله عَزَّوَجَلَّ في عباده. والإنسان مهما كان حاله فهو منقلب إلى ضعف وشيبة، وذائق الموت، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ [آل عمران:١٨٥].

ومن كمال نعيم في الجنة: توقف عمل الزمن، كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، قال: «**من يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ لا يَبْأَسُ، لا تَبْلَى ثِيَابُهُ ولا يَفْنَى شَبَابُهُ**» (١).

وعن أبي سعيد الخدري، وأبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**يُنَادِي مُنَادٍ: إنَّ لكم أن تَصِحُّوا فلا تَسْقَمُوا أبدًا، وإنَّ لكم أن تَحْيَوْا فلا تَمُوتُوا أبدًا، وإنَّ لكم أن تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وإنَّ لكم أن تَنْعَمُوا فلا تَبْأَسُوا أبدًا، فذلك قوله** عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٤٣﴾ [الأعراف:٤٣]» (٢).

وينبغي أن يعلم أنه لا يقاس شيء من أحوال الآخرة على الدنيا. ولكن ذكر لمحات عن الجنة وصفتها يدلل على ذلك النعيم المرجو، وما أعدَّه الله عَزَّوَجَلَّ لعباده الصالحين، وأنه لا يقاس على نعيم الدنيا، فيبلغ المنعمون في الجنة غاية النعيم الذي لا ينقطع، وكمال السعادة. فلا يصلح القياس على نعيم الدنيا لا من حيث تركيب البدن، حيث يختلف عن الدنيا بما يتلاءم مع المنعم به، ولا من حيث ذات النَّعيم. وهذا معنى قول الله عَزَّوَجَلَّ في الحديث القدسي: «**أعددت لعبادي الصالحين، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت،**

(١) صحيح مسلم [٢٨٣٦].

(٢) صحيح مسلم [٢٨٣٧].

ولا خطر على قلب بشر ذخرًا بَلْهَ، ما أُطْلِعْتُمْ عليه، ثم قرأ: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧﴾ [السجدة:١٧] (١).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥﴾ [البقرة:٢٥]. قال عكرمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ﴾ قال: يشبه ثمر الدنيا، غير أن ثمر الجنة أطيب (٢).

وعن سفيان الثوري، عن الأعمش، عن أبي ظبيان، عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «**لا يشبه شيء مما في الجنة ما في الدنيا إلا في الأسماء**»، وفي رواية: «**ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء**»، رواه ابن جرير، من رواية الثوري، وابن أبي حاتم من حديث: أبي معاوية كلاهما عن الأعمش، عن أبي ظبيان عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا (٣).

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ﴾ قال: يعرفون أسماءه كما كانوا في الدنيا: التفاح بالتفاح، والرمان بالرمان، قالوا في الجنة: هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا، وأتوا به متشابها، يعرفونه وليس هو مثله في الطعم (٤).

---

(١) صحيح البخاري [٤٧٨٠]، مسلم [٢٨٢٤]. «بله ما أطلعتم عليه» أي: دعوا ما أطلعتم عليه من نعيم الجنة وعرفتموه من لذاتها؛ فإنه سهل يسير في جانب ما ادَّخرته لكم.

(٢) تفسير الطبري (١/٣٩١)، تفسير ابن كثير (١/٢٠٥).

(٣) أخرجه هناد في (الزهد) [٣]، وابن جرير في (التفسير) (١/٣٩١-٣٩٢)، وابن أبي حاتم في (التفسير) (١/٦٦)، وأبو نعيم في (صفة الجنة) [١٢٤]، والبيهقي في (البعث) [٣٣٢]، وابن عساكر في (معجمه) [١١٩٤]. والضياء في (المختارة) [٦، ٨]، قال المنذري (٤/ ٣١٦): "رواه البيهقي موقوفًا بإسناد جيد".
قال في (الدر): "أخرجه مسدد، وهناد في (الزهد)، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في (البعث): عن ابن عباس" الدر المنثور (١/٩٦).

(٤) تفسير الطبري (١/٣٩٢)، تفسير ابن كثير (١/٢٠٥).

فحقيقة النعيم في الآخرة غير معلومة، فثمار الجنة وإن شابهت في الشكل ثمار الدنيا، ولكنها في الحقيقة مباينة لها.

كما أن الزمان في الجنة والنار ليس كالزمان في الحياة الدنيا.

أما قوله جَلَّوَعَلَا عن الجنة: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝﴾ [مريم:٦٢]، فقد قيل: "ليس ثَمَّ بكرةٌ ولا عَشِيٌّ، ولكنهم خوطِبوا بما يَعقِلونَ في الدنيا. فالمعنى: لهم رزقهم في مقدار ما بين الغداة والعشيّ.

وقد جاء في التفسير أيضًا أن معناه: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا﴾ كل سَاعة. وإذا قيل في مقدار الغداة والعَشِيّ فالذي يقسم في ذلك الوقت يكون مقدار ما يريدون في كل ساعة إلى أن يأتي الوقت الذي يتلوه -كذا قال أبو إسحاق الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ-" (١).

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝﴾ [مريم:٦٢]، أي: في مثل وقت البكرات ووقت العشيات، لا أن هناك ليلًا أو نهارًا، ولكنهم في أوقات تتعاقب، يعرفون مضيها بأضواء وأنوار" (٢).

والزمان الذي أوجده الله عَزَّوَجَلَّ في الحياة الدنيا على وفق النظام المطرد فيه، له حكم كثيرة -كما تقرر في غير موضع- فمن ذلك: معرفة الحساب الذي تستقيم به حياة الناس في عباداتهم ومعاملاتهم، وليعلم من ذلك ابتداء وقت كل حدث أو عمل أو عبادة، وانتهاء ذلك الوقت، فتتميز بذلك الأوقات، وتعلم البدايات والنهايات.

وأما في الآخرة فلا تكليف وإنما يلهم أهل الجنة التسبيح إلهامًا.

---

(١) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٣/٣٣٧).

(٢) تفسير ابن كثير (٥/ ٢٤٧).

والقرآن إنما يعنى بالمقاصد الشريفة والغايات النبيلة، ونحن بالنسبة للغيبيات إنما نقرأ النقل بالعقل لكن ضمن ضوابط فهم النصوص من حيث عدم الخروج عن حدود اللغة أو التفسير فما دامت المقاصد متحققة فكفى.

أما الخوض فيما وراء ذلك فلا يثمر؛ لأنا لم نحط علمًا بمقومات السعادة في الآخرة، فما هو مطويٌّ أعظم في حقيقته مما لوَّحتْ به النُّصوص من الوصف، والنصوص تقرب ذلك، وفي الوقت نفسه تذكر أنه فوق كل تصور.

والمؤمن في حياته -على قصرها، وسرعة انقضائها- متقلب ما بين سرورٍ وهمٍّ وأحزان، وسعة وفقر وحرمان، وخيانة من قريب وخذلان، ووصل وصَدٍّ ونكران، وجحود وإيذاء وهِجْرَان، ولكنه يركن في كلِّ ما يعتريه من النوازل إلى ركن ركين، فيجد السكينة والأمان، ولا يخذل على مرِّ الزَّمان، فهو في تقلب أحواله مطمئن بذكر ربه عَزَّوَجَلَّ، واثق بوعده، من فرج ونصر وإكرام.

وإذا ما حان الأجل، وأزف الرَّحيل عن دنيا المظالم والأحزان، استبشر بلقاء ربه وعدله، ورحمته وفضله، فاليوم عنده هو يوم الانعتاق وإطلاق السراح، وطي ما مضى وراح، والتحرر من قفص الحياة، إلى فضاء رحب، لا يبقى فيه أسير الجسد، حيث ينقلب إلى خير جوار، وإلى ساحة عدل إحسان، حيث لا ظلم، ولا بغي، ولا طغيان.

وقال الله عَزَّوَجَلَّ في بيان حال كثيرٍ من النَّاس الذين يقدِّمونَ الحياةَ الدُّنيا على الآخرة، ويؤثرونَ متاعها العاجل على ما فيه نفعهم وصلاحهم في معاشهم ومعادهم: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿١٦﴾ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى:١٦-١٧]، أي: ثواب الله عَزَّوَجَلَّ في الدار الآخرة خير من الدنيا وأبقى؛ فإن الدنيا دنية فانية، والآخرة شريفة باقية، فكيف يؤثر عاقل ما يفنى على ما يبقى، ويهتم بما يزول عنه قريبًا، ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلد؟!

رابعًا: النهي عن سبِّ الزمن:

وقد جاء النَّهي عن سَبِّ الدَّهر. والتَّحريمُ يتناولُ من سبَّ الدهر، وكذلك الألفاظ المرادفة للدهر، كالزمن، واليوم، والوقت.

والمراد من اليوم والوقت: الزمان الذي عُيِّن للشيء، فهما أخص من الزمان.

وقد جاء في (صحيح الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ)، (باب: لا تسبوا الدهر): عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**قال الله** عَزَّوَجَلَّ: **يَسُبُّ بنو آدم الدَّهْرَ، وأنا الدهر، بيدي الليل والنهار**»[1].

وعند (مسلم) رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**يُؤْذِينِي ابن آدم يقول: يا خَيْبَةَ الدَّهْرِ فلا يَقُولَنَّ أحدكُمْ: يا خَيْبَةَ الدَّهْرِ؛ فَإِنِّي أنا الدَّهْرُ، أُقَلِّبُ لَيْلَهُ ونَهَارَهُ، فإذا شِئْتُ قَبَضْتُهُمَا**»[2].

قوله: «**يُؤْذِينِي ابن آدم**» "فمعناه: يعاملني معاملة توجب الأذى في حَقِّكُمْ. «**وأنا الدهر**»، قال العلماء: وهو مجاز. وسببه: أن العرب كان شأنها أن تسب الدهر عند النوازل والحوادث والمصائب النازلة بها من موت أو هرم أو تلف مال أو غير ذلك، فيقولون: (يا خيبة الدهر) ونحو هذا من ألفاظ سب الدهر، فقال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لا تسبوا الدهر**»؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ هو الدهر، أي: لا تسبوا فاعل النوازل؛ فإنكم إذا سببتم فاعلها وقع السب على الله جَلَّوَعَلَا؛ لأنه هو فاعلها ومنزلها، وأما الدهر الذي هو الزمان فلا فعل له، بل هو مخلوق من جملة خلق الله عَزَّوَجَلَّ، ومعنى: «**فإن الله هو الدهر**»، أي: فاعل النوازل والحوادث، وخالق الكائنات -والله أعلم-"[3].

---

(١) صحيح البخاري [٦١٨١].

(٢) صحيح مسلم [٢٢٤٦].

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (٣/١٥). ونحوه: قول ابن بطال في (شرحه لصحيح البخاري) (٣٣٧/٩)، وانظر: فتح الباري، لابن حجر (٥٦٥/١٠).

وقال الإمام الشَّافِعِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إنَّما تأويله –والله أعلم– أن العرب كان من شأنها أن تَسُبَّ الدَّهْرَ وَتَذُمَّهُ عند المصائب التي تَنْزِلُ بهم: من مَوْتٍ، أو هَدْمٍ، أو تلف مال أو غير ذلك، وتسب الليل والنهار – وهما: الْفِتْنَتَان والْجَدِيدَان، ويقولون: أصابتهم قوارع الدَّهْرِ، وأبَادَهُمُ الدَّهْرُ، وأتى عليهم؛ فيجعلون الليل والنهار اللذين يفعلان ذلك، فَيَذُمُّونَ الدَّهْرَ فِنَّهُ الذي يُفْنِينَا ويفعلُ بنا، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تسبوا الدهر**» الحديث. على أنه الذي يفعل بكم هذه الأشياء؛ فإنكم إن سببتم فاعل هذه الأشياء، فإنما تسبون الله عَزَّ وَجَلَّ، فإن الله جَلَّ وَعَلَا فاعل هذه الأشياء" (١).

وذكر ابن القيم عليه رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن سب الدهر فيه ثلاث مفاسد:

"**أحداها**: سَبُّهُ من ليس بأهلٍ أن يُسَبَّ؛ فإنَّ الدَّهْرَ خَلْقٌ مُسَخَّرٌ من خَلْقِ الله، مُنْقَادٌ لأمره، مُذَلَّلٌ لتسخيره، فَسَابُّهُ أولى بالذَّمِّ والسَّبِّ منه.

الثانية: أن سبه متضمن للشرك، فإنه سبه لظنه أنه يضر وينفع...

الثالثة: أن السَّبَّ منهم إنما يقع على من فعل هذه الأفعال التي لو اتَّبَعَ الحق فيها أهواءهم لفسدت السماوات والأرض، وإذا وقعت أهواؤهم حمدوا الدهر وأثنوا عليه. وفي حقيقة الأمر، فَرَبُّ الدهر جَلَّ وَعَلَا هو المعطي المانع، الخافض الرافع، المعز المذل، والدهر ليس له من الأمر شيء، فَمَسَبَّتُهُمْ لِلدَّهْرِ مَسَبَّةٌ لله عَزَّ وَجَلَّ" (٢).

---

(١) السنن الكبرى، للبيهقي [٦٤٩١]، معرفة السنن والآثار [٧٢٩٠]، وانظر: الاستذكار، لابن عبد البر (٥٥٣/٨)، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (١٥٥/١٨)، تفسير البغوي (١٨٨/٤)، السراج المنير، للخطيب الشربيني (٦٠٠/٣)، غريب الحديث، لأبي عبيد القاسم بن سلام (١٤٦/٢)، النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (دهر) (١٤٤/٢).

(٢) انظر ذلك مفصلًا في (زاد المعاد) (٣٢٣/٢-٣٢٤).

وقال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله: «**أنا الدهر**»، معناه: أنا صاحب الدهر، ومدبر الأمور التي تنسبونها إلى الدهر، فإذا سب ابن آدم الدهر من أجل أنه فاعل هذه الأمور، عاد سبه إلي؛ لأني فاعلها، وإنما الدهر زمان ووقت جعلت ظرفًا لمواقع الأمور. وكان من عادة أهل الجاهلية إذا أصابهم شدة من الزمان أو مكروه من الأمر أضافوه إلى الدهر وسبوه فقالوا: بؤسًا للدهر، وتبًّا للدهر، ونحو ذلك من القول؛ إذ كانوا لا يثبتون لله عَزَّوَجَلَّ ربوبية، ولا يعرفون للدهر خالقًا، وقد حكى الله عَزَّوَجَلَّ ذلك من قولهم حين قالوا: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤]؛ ولذلك سموا: الدهرية، وكانوا يرون الدهر أزليًّا قديمًا لا أول له، فأعلم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أن الدهر محدث يقلبه بين ليل ونهار، لا فعل له في شيء من خير أو شر، لكنه ظرف للحوادث، ومحل لوقوعها وأن الأمور كلها بيد الله عَزَّوَجَلَّ، ومن قبله يكون حدوثها، وهو محدثها ومنشئها جَلَّوَعَلَا، لا شريك له" (١).

خامسًا: القرآن لا يعنى غالبًا بتحديد الزمن:

إن القرآن الكريم لا يعنى غالبًا بذكر أشخاص ولا أماكن ولا تحديد أزمنة، ولا ذكر مسافات؛ لأن ذلك لا علاقة له بالحدث، وإنما يعنى بموضع العبرة. فعندما يذكر فرعون -مثلًا- وهو لقب لملوك مصر في تلك الحقبة من الزمن لا يذكر من هو على وجه التحديد.

وإذا نصَّ القرآن الكريم في القليلِ النَّادر على ذلك فإنما يكون لقصد عظيم.

وقد ذكر القرآن الكريم حكام مصر القدامى بلقب: (فرعون)، إلا في سورة يوسف فقد ذكر فيها حاكم مصر بلقب (ملك) في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ

(١) أعلام الحديث (شرح صحيح البخاري) (١٩٠٤/٣).

سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ [يوسف:٤٣]، وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾ [يوسف:٥٠]، وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ [يوسف:٥٤].

وقد ذكر المؤرخون أن ملك مصر في عهد يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان من ملوك العرب المعروفين بالرعاة (الهكسوس). قال الإمام محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والتعريف في ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ للعهد، أي: ملك مصر. وسماه القرآن هنا: ملكا ولم يسمه فرعون؛ لأن هذا الملك لم يكن من الفراعنة ملوك مصر القبط، وإنما كان ملكا لمصر أيام حكمها (الهكسوس)، وهم العمالقة، وهم من الكنعانيين، أو من العرب، ويعبر عنهم مؤرخو الإغريق بملوك الرعاة، أي: البدو. وقد ملكوا بمصر من عام [١٩٠٠] إلى عام [١٥٢٥] قبل ميلاد المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ" [(١)]. فالتعبير في سورة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالملك من دقائق إعجاز القرآن.

وسيأتيك مزيد بيان في الحديث عن التنويه بالإعجاز في قصص القرآن الكريم.

سادسًا: الزَّمان في الحياة الدنيا لا يثبت على حال:

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اعلم أنَّ الزَّمان لا يثبت على حال، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٤٠]، فتارة فقر، وتارة غنى، وتارة عز، وتارة ذل، وتارة يفرح الموالي، وتارة يشمت الأعادي. فالسعيد من لازم أصلًا واحدًا على كل حال، وهو تقوى الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإنه إن استغنى، زانته، وإن افتقر، فتحت له أبواب الصبر، وإن عوفي، تمت النعمة عليه، وإن ابتلي، جملته. ولا يضره إن نزل به الزمان أو صعد، أو أعراه، أو أشبعه، أو أجاعه؛ لأن جميع تلك الأشياء تزول وتتغير، والتقوى أصل السلامة،

(١) التحرير والتنوير (١٢/٢٨٠)، وانظر: تفسير المنار (١٢/٢٦١).

حارس لا ينام، يأخذ باليد عند العثرة، ويواقف على الحدود. والمنكر من غرته لذة حصلت مع عدم التقوى، فإنها ستحول، وتخليه خاسرًا.

ولازم التقوى في كل حال، فإنك لا ترى في الضيق إلا السعة، وفي المرض إلا العافية، هذا نقدها العاجل، والآجل معلوم" (١).

وللتقوى ثمرات عظيمة في حياة الإنسان، فهي تثمر صلاحًا، واستقامة، واستقرارًا، وسلامة من آفات كثيرة؛ فإن تقوى الله عَزَّوَجَلَّ، ومراقبته في السر والعلن، وتحقيق العبودية له، وإخلاص العبادة له من أهم الأسباب التي تحصِّنُ المسلم من الشرور والآفات، وهي سبب لتفريج الكروب عند النوازل والخطوب.

فمن اتَّقى الله عَزَّوَجَلَّ تولَّى الله جَلَّوَعَلَا حفظه، ولم يكله إلى غيره، ووفقه للخير، وجعل له فرجًا ومخرجًا، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ﴾ [الطلاق:٢-٣]. وقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ۝٤﴾ [الطلاق:٤]، وقال: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف:٩٦]. فالتقوى من أعظم أسباب التمكين والعزة في الدين والدنيا، والبركة في الرزق والوقت والعمل، وتنزل الرحمات، وعموم الفضل والبركات، ولا سيما عند الشدائد والملمات، كما قال جَلَّوَعَلَا في آية أخرى: ﴿۞ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ۝١٥٦﴾ [الأعراف:١٥٦].

ومن اتقى الله عَزَّوَجَلَّ كان الله معه وفي عونه، ولن يخذله، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ۝١٢٨﴾ [النحل:١٢٨]. فمن اتقى الله تولَّى حفظه، ولم يكله إلى

---

(١) صيد الخاطر (ص:١٣٧).

غيره، قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ﴾ [آل عمران:١٢٠]، وقال النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لعبد الله بن عباس رَضِيَاللَّهُعَنْهُمَا: «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تُجَاهَكَ**» (١). فمن حفظ الله عَزَّوَجَلَّ حفظه الله، ووجده أمامه أينما توجه، ومن كان الله عَزَّوَجَلَّ حافظه وأمامه فممن يخاف، وممن يحذر؟

فالتقوى ترفع عنهم الخوف والحزن يوم القيامة، فلا يمسهم السوء، ولهم البشرى في الدنيا، كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن ذلك بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٦٤﴾ [يونس:٦٢-٦٤]. يقول تعالى ذكره: ألا إن أولياء الله عَزَّوَجَلَّ لا خوف عليهم في الآخرة من عقاب الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الله رضي عنهم، فآمنهم من عقابه، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من الدنيا. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٩٦﴾ [الأعراف:١٩٦]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٦٤﴾ [يونس:٦٢-٦٤]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝١٩﴾ [الجاثية:١٩]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [مريم:٩٧].

ومن يتقي الله عَزَّوَجَلَّ يجعل له نورًا يفرق به بين الحق والباطل، وينور قلبه، ويشرح صدره، ويوفقه للحق، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢٩﴾ [الأنفال:٢٩]. قال

---

(١) أخرجه أحمد [٢٦٦٩]، والترمذي [٢٥١٦]، وقال: "حسن صحيح". وأخرجه أيضًا: أبو يعلى [٢٥٥٦]، والحاكم [٦٣٠٣]، وقال: "هذا حديث كبير عال من حديث: عبد الملك بن عمير، عن ابن عباس رَضِيَاللَّهُعَنْهُمَا"، وأخرجه أيضًا: الضياء [١٣].

ابن جزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ أي: تفرقة بين الحق والباطل، وذلك دليل على أن التقوى تنوّر القلب، وتشرح الصدر، وتزيد في العلم والمعرفة" (١). وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٨٢﴾ [البقرة:٢٨٢].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ مرشدًا أهل الكتاب الذين آمنوا بالتّوراة والإنجيل إلى تقوى الله عَزَّوَجَلَّ، والإيمان برسوله الخاتم، محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٨﴾ [الحديد:٢٨]، فالمعنى: يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى عَلَيۡهِمَا ٱلسَّلَامُ آمنوا بمحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ. ﴿يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ﴾ أي: نصيبين. ﴿مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾، لإيمانكم بمحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وإيمانكم بمن قبله، فيكون لهم ذلك النور الذي يسعى بين أيديكم يوم القيامة، أو يكون لكم الهدى والرشاد، ويؤيد الأول: أنه مذكور في هذه السورة، ويؤيد الثاني: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام:١٢٢].

والتقوى من أسباب التذكر والتبصر، وطرد وساوس الشيطان، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١﴾ [الأعراف:٢٠١].

وقال مبينًا حسن عاقبة التقوى في الدنيا والآخرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾ [الأنفال:٢٩].

وقال: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ١٣٢﴾ [طه:١٣٢]، وقال: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ١٢٨﴾ [الأعراف:١٢٨].

---

(١) تفسير ابن جزي (١/٣٢٥).

وقال جَلَّ وَعَلَا عن حسن عاقبة التقوى في الآخرة: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾ [آل عمران: ١٩٨]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ [الرعد: ٣٥]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾ [مريم:٦٣]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص:٨٣]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾ [الزمر:٢٠]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الزمر:٧٣-٧٤]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾﴾ [الطلاق:٥]. فهي سبب في النجاة والفلاح، وتكفير السيئات، ورفعة الدرجات، والفوز بالنعيم في الجنات. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور:٥٢].

والجنة بما فيها من النعيم إنما أعدت للمتقين، كما أخبر المولى جَلَّ وَعَلَا: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران:١٣٣]، كما أن النار أعدت للكافرين، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة:٢٤]، وقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [آل عمران:١٣١].

والتقوى هي خير ضمان لصلاح الأولاد وبرِّهم، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٩﴾ [النساء:٩].

وقد جاء ذكر (ثمرات التقوى) مفصلًا في كتاب: (الإرشاد إلى أسباب النجاة).

سابعًا: قيمة الزمن في الكتاب السنة:

إن الوقت هو أنفس ما يملكه الإنسان في حياته، فهو الذي يحوي ما قدَّم كل عبد في زمن التكليف من عمل ينفعه في مآله؛ ولذلك فإن ضياعه إتلاف لأعظم الثروات التي يملكها الإنسان.

وإن من أنفع ما يشغل به العبد وقته: الإكثار من نوافل الطاعات، والاشتغال بما ينفع المكلَّف في دنياه وآخرته من العلم والعمل.

والعاقل هو الذي يغتنم فرصة الصحة، وفرصة الفراغ، وقد جاء في الحديث: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فيهما كَثِيرٌ من النَّاس: الصِّحَّةُ والفراغ**» (١).

قال العلماء، معناه أن الإنسان لا يتفرَّغ للطاعة إلا إذا كان مكفيًا صحيح البدن، فقد يكون مستغنيًا ولا يكون صحيحًا، وقد يكون صحيحًا ولا يكون مستغنيًا، فلا يكون متفرِّغًا للعلم والعمل لشغله بالكسب، فمن حصل له الأمران وكسل عن الطاعة، فهو المغبون، أي: الخاسر في التجارة، مأخوذ من الغبن في البيع.

---

(١) صحيح البخاري [٦٤١٢].

فكثير من العباد مقصرون في شكر هاتين النعمتين، ولا يقومون بواجبهما، ومن لا يقوم بحق ما وجب عليه فهو مغبون.

قال الإمام فخر الدين الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "النعمة عبارة عن المنفعة المفعولة على جهة الإحسان إلى الغير" (١).

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الغَبْنُ -بالتسكين- في البيع، والغَبَنُ -بالتحريك- في الرأي. يقال: غبنته في البيع -بالفتح-، أي: خدعته، وقد غُبِنَ فهو مَغْبونٌ. وغَبِنَ رأيه -بالكسر-: إذا نقصه فهو غَبينٌ، أي: ضعيف الرأي" (٢).

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضرب مثلًا للمكلف بالتاجر الذي له رأس مال، وهو يبيع ويشتري ويطلب من تجارته سلامة رأس المال والربح، فطريقه في ذلك: أن يتحرى فيمن يعامله، ويلزم الصدق، والحِذْقَ (٣)؛ لئلَّا يغبن. فنعمتا: (الفراغ، والصحة) رأس مال المكلف، فينبغي له أن يعامل الله عَزَّوَجَلَّ بالإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمجاهدة مع النفس وأعداء الدين؛ لئلَّا يغبن، وحتى يربح في الدنيا والآخرة. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [الصف:١٠-١١] الآيات (٤)، وعليه أن يجتنب: مطاوعة النفس، ومعاملة الشيطان؛ لئلَّا يغبن، فيضيع رأس ماله مع الربح.

---

(١) مفاتيح الغيب (١/٢٢٠).

(٢) الصحاح، للجوهري، مادة: (غبن) (٦/٢١٧٢)، وانظر: العين (٤/٤٢٥).

(٣) يقال: (حَذَقَ) الصبي القرآن والعمل به إذا مهر، وبابه ضرب، و(حِذْقًا) و(حِذَاقًا) بكسر أولهما، و(حَذَاقَةً) أيضًا بالفتح. و(حَذِقَ) بالكسر (حِذْقًا) لغة فيه. انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (حذق) (٤/١٤٥٦). وفي (العين): "(الحِذْقُ) و(الحَذاقةُ): مَهارةٌ في كُلِّ شيءٍ. و(الحِذْقْ) مصدر: حَذَقَ وحَذِقَ معًا في عمله فهو حاذق" العين، مادة: (حذق) (٣/٤٢).

(٤) من (١٠) إلى (١٣).

فالكثير في الحديث في مقابلة القليل في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سبأ:١٣].." [(١)]، وفي مقابلة القليل في قوله جَلَّوَعَلَا حكاية عن قِيل داود عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْۗ﴾ [ص:٢٤].

وقد وصف الله عَزَّوَجَلَّ إبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ بأنه أمة في قوله ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٢٠ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ١٢١ وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةًۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٢٢ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ﴾ [النحل:١٢٠-١٢٣].

فلا ينبغي لطالب الحق والهداية أن يستوحش من قلَّة السالكين.

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ لا للملوك ولا للتجار المترفين، ﴿حَنِيفًا﴾ لا يميل يمينًا ولا شمالًا، كفعل العلماء المفتونين، خلافًا لمن كثر سوادهم، وزعم أنه من المسلمين.

وفي الحديث: عدم الاغترار بكثرة أهل الباطل الذين يقضون أوقاتهم في الشهوات والملذات؛ فإن من أسباب الضَّلال والانحراف: موافقة ما عليه العامة من غير نظر ولا تبصر.

قال بعض أهل العلم: اتبع طرق الهدى ولا يضرك قلة السالكين، وإياك وطرق الضلالة، ولا تغتر بكثرة الهالكين [(٢)].

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (١٠/٣٢٧١-٣٢٧٢)، وانظر: فتح الباري، لابن حجر (١١/٢٣٠).

(٢) هذا القول عزاه الإمام النووي وغيره إلى الفضيل بن عياض. انظر: الأذكار، للإمام النووي (ص:١٦٠)، (ص:٢٦٨)، المجموع شرح المهذب (٨/٢٧٥)، التبيان في آداب حملة القرآن (ص:١١٦)، الاعتصام، للشاطبي (ص:١١٢)، الحوادث والبدع، لأبي شامة (ص:٢٢).

وقد ذمَّ الله عَزَّوَجَلَّ موافقة الأكثرين في ضلالهم في غير موضع، ومن ذلك قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأنعام:١١٦].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف:١٠٣].

وقد ورد ذمُّ الكثرة التي ضلَّت وأضلَّت آيات كثيرة، وفيها دلالة على مدح القلة التي خالفتهم، ومن ذلك: الآيات التالية:

﴿ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ٨٣﴾ [البقرة:٨٣].

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ﴾ [البقرة:٢٤٦].

﴿فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ﴾ [البقرة:٢٤٩].

﴿لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ٤٦﴾ [النساء:٤٦].

﴿وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ﴾ [النساء:٦٦].

﴿فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٥٥﴾ [النساء:١٥٥].

﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ٤٩﴾ [المائدة:٤٩].

﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ﴾ [المائدة:١٠٠].

﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ﴾ [الأنعام:١١٩].

﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ٩٢﴾ [يونس:٩٢].

﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ٤٠﴾ [هود:٤٠].

﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ﴾ [هود:١١٦].

﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ٨﴾ [الروم:٨].

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [ص:٢٤].

إلى غير ذلك.

وفي الحديث: «**ما أنتم في الناس إلَّا كَالشَّعَرَةِ السَّوْدَاء في جِلْد ثَوْرٍ أَبْيَض، أو كَشَعَرَة بَيْضَاءَ في جِلْدِ ثَوْرٍ أَسْوَد**» (١).

وعن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك**» (٢).

فلا يستدل على الحق بكثرة أهله، ولا تدل قلة السالكين لأمر من الأمور أن يكون غير حق، بل الواقع بخلاف ذلك؛ فإن أهل الحق هم الأقلون عددًا، الأعظمون –عند الله عَزَّ وَجَلَّ– قدرًا وأجرًا، بل الواجب أن يستدل على الحق والباطل، بالطرق الموصلة إليه

كما أن العدد القليل من أهل العزائم يفعل ما لا يفعل الكثير من ذوي المآثم.

وقد فصَّلتُ القول في (خطورة الاغترار بكثرة أهل الباطل) في كتاب: (عقبات في طريق الهداية).

قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: "وشكر العباد لله عَزَّ وَجَلَّ: اعترافهم بنعمه، وثناؤهم عليه، وتمام ذلك: مواظبتهم على طاعته" (٣).

---

(١) صحيح البخاري [٣٣٤٨].

(٢) صحيح مسلم [١٩٢٠]، ونحوه في (صحيح البخاري) [٧٣١١]، باب قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق» يقاتلون وهم أهل العلم: عن المغيرة بن شعبة، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «لا يزال طائفة من أمتي ظاهرين، حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون»، وفي (مسلم) [١٠٣٧] عن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس».

(٣) إكمال المعْلم، للقاضي عياض (٨/٣٥٥).

وقال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفي قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فيهما كَثِيرٌ من النَّاس**» الحديث: تنبيه أمته على مقدار عظيم نعمة الله عَزَّ وَجَلَّ على عباده فى الصحة والكفاية؛ لأن المرء لا يكون فارغًا حتى يكون مكيفًا مؤنة العيش فى الدنيا، فمن أنعم الله عَزَّ وَجَلَّ عليه بهما فليحذر أن يغبنهما.

ومما يستعان به على دفع الغبن: أن يعلم العبد أن الله عَزَّ وَجَلَّ خلق الخلق من غير ضرورة إليهم، وبدأهم بالنعم الجليلة من غير استحقاق منهم لها، فمنَّ عليهم بصحة الأجسام، وسلامة العقول، وتضمن أرزاقهم، وضاعف لهم الحسنات، ولم يضاعف عليهم السيئات، وأمرهم أن يعبدوه، ويعتبروا بما ابتدأهم به من النعم الظاهرة والباطنة، ويشكروه عليها بأحرفٍ يسيرة، وجعل مدة طاعتهم فى الدنيا منقضية بانقضاء أعمارهم، وجعل جزاءهم على ذلك خلودًا دائمًا في جنات لا انقضاء لها، مع ما ذخر لمن أطاعه مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فمن أنعم النظر فى هذا كان حريًّا ألا يذهب عنه وقت من صحته وفراغه إلا وينفقه في طاعة ربه جَلَّ وَعَلَا، ويشكره على عظيم مواهبه، والاعتراف بالتقصير عن بلوغ كنه تأدية ذلك، فمن لم يكن هكذا، وغفل وسها عن التزام ما ذكرنا، ومرت أيامه عنه فى سهو ولهو وعجز عن القيام بما لزمه لربه عَزَّ وَجَلَّ فقد غبن أيامه، وسوف يندم حيث لا ينفعه الندم" (١).

وقد قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللَّهُمَّ لا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الآخره**» (٢).

---

(١) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٠/١٤٦-١٤٧).

(٢) صحيح البخاري [٢٩٦١، ٣٧٩٥، ٣٧٩٦، ٣٧٩٧، ٤٠٩٨، ٦٤١٣، ٦٤١٤]، مسلم [١٨٠٤، ١٨٠٥].

قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "نبَّه بذلك أمته على تصغير شأن الدنيا وتقليلها، وكدر لذاتها وسرعة فنائها، وما كان هكذا فلا معنى للشغل به عن العيش الدائم الذي لا كدر في لذاته، بل فيه ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين" (١).

ومن هدي القرآن الكريم: إرشاد العباد إلى الانتفاع بالوقت، والبعد عن الشواغل والملهيات، ومن ذلك قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝١٠﴾ [المنافقون:٩-١٠]. فمن يلهه ماله وولده عن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٩﴾ أي: هم المغبونون، الذين خسروا حظوظهم من كرامة الله عَزَّوَجَلَّ ورحمته. فمن اشتغل بالقيام على ماله وولده وشغله ذلك عن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ كما شغل المنافقين فهو خاسر مغبون. وذكر الله عَزَّوَجَلَّ هنا المراد به عموم العبادات. وقيل: يعني: عن الصلاة المكتوبة، والعموم أولى. ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٩﴾ في تجارتهم حيث باعوا الباقي بالفاني.

وقد قالوا: ويل لمن غلبت آحاده عشراته؛ لأن الحسنة بعشر أمثالها وأزيد، والسيئة واحدة.

وقال الله عَزَّوَجَلَّ في وصف المؤمنين الذين سلكوا طريق النجاة: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ۝٣٦ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ۝٣٧ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ﴾ [النور:٣٦-٣٨].

---

(١) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٤٧/١٠).

وقال جَلَّ وَعَلَا في وصف الذين ينتفعون في استثمار أوقاتهم في التأمل والذِّكر: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران:١٩١].

وقال جَلَّ وَعَلَا مرشدًا العباد إلى ما فيه صلاح حالهم ومآلهم: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٦].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ﴾ [الحديد:٢١].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الجمعة:٩].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين:٢٦].

وسيأتي بيان ألفاظ: المسارعة، والمسابقة، والمنافسة، والمبادرة، والسعي؛ لما فيها من إرشاد إلى اغتنام الوقت، والانتفاع من الزمن.

فمن الواجب على من كل من أراد السلامة والصلاح والنجاة: أن يحرص على الانتفاع من وقته؛ فإن ما يذهب منه فإنه لن يعود، وإن من أعظم سبل الخير الأعمال الباقية، فمن ترك أثرًا طيبًا، فإنه يكتبُ له الأجر، ويجري عليه عملُه ما بقي ذلك الأثر، كما جاء في الحديث: عن جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«من سَنَّ في الإسلام سُنَّةً حَسَنَةً، فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده، من غير أن**

يَنْقُصَ من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن يَنْقُصَ من أوزارهم شيء» (١).

وفي المقابل جاء في الحديث: عن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا، إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمها؛ لأنه أول من سنَّ القتل»** (٢).

وقد قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل:٢٥].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ۝١٢﴾ [يس:١٢]، أي: نسجِّل عليهم أعمالَهم التي عملوها في الدنيا، ونسجِّل لهم آثارَهم التي تركوها بعد موتهم، سواء أكانت صالحةً أم غيرَ صالحة.

فمن الواجب على كل مسلم: أن يحرص على تنظيم وقته، وعلى الإخلاص في القول والعمل، وأن يغتنم أوقات الفراغ، وأن يشتغل بالعمل الذي ينفعه، وينفع غيره من أفراد أسرته وأرحامه وأصدقائه ومجتمعه، وأن يحرص على الصحبة الصالحة، وعلى حضور مجالس العلماء، وعلى مطالعة سير الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ والسلف الصالح رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

ومن تأمل أحوال العباد وجد أن الكثير منهم تضيع أوقاتهم من غير فائدة، بل إن منهم من يبحث عن مجالس اللهو ويطلبها، وهذا من الغبن العظيم، وإنما يدرك الغافل حقيقة ذلك إذا حضره الموت، كما أنه يندم يوم القيامة على فاته من وقت قضاه في غفلة ولهو وعصيان، ومن غير عمل نافع له في مآله، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ

(١) صحيح مسلم [١٠١٧].

(٢) صحيح البخاري [٣٣٣٥، ٧٣٢١]، مسلم [١٦٧٧].

أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾ [المنافقون:١٠-١١].

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الدنيا منزل من منازل السائرين إلى الله عَزَّوَجَلَّ، والبدن مركب، فمن ذهل عن تدبير المنزل والمركب لم يتم سفره، وما لم ينتظم أمر المعاش في الدنيا لا يتم أمر التبتل والانقطاع إلى الله عَزَّوَجَلَّ الذي هو السلوك " (١).

وإن الناظر في أحوال المسلمين اليوم يتملكه الحزن الشديد لما يرى من تضييع الأوقات في سفاسف الأمور ومُحَقَّرَاتِها.

فتأمل حال المواطن في البلاد العربية كم يقضي من الوقت وهو عاكف على مشاهدة مواقع الإنترنت ووسائل التواصل والإعلام؟! وكم تترك تلك المواقع وتلك الوسائل من أثرٍ على الناس من حيث توجيه الأخبار على حسب المصالح، وتشويه الحقائق وتزييفها، والتشكيك في الثوابت، والترويج للفساد الأخلاقي؟

قال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا زمـانُ الصَّبْرِ مَنْ لك بالَّتِي ... كَقَبْضٍ على جَمْرٍ فتنجو من الْبَلَا
ولو أنَّ عـينًا سَـاعَـدتْ لتَوَكَّفَتْ ... سـحـائِبُهَا بالـدَّمْع ديْمًا وهُـطَّلا
ولكنَّها عن قسْوة القلب قَحْطُها ... فيا ضيْعَةَ الأعْمَارِ تَمْشِى سَبَهْلَلا (٢)

قال ذلك وهو يصف الحال في زمانه، فكيف به لو كان في زماننا؟

(١) جواهر القرآن، لأبي حامد الغزالي (ص:٣٢).

(٢) متن الشاطبية (حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع) (ص:٧) [٨١-٨٣].

وقوله (ولو أنَّ عينًا سَـاعَـدتْ..) أي: ولو ساعدت عين صاحبها لكثر بكاؤها دائمًا على التقصير في الطَّاعة، وقلَّة البضاعة، ومعنى: (توكفت): قطرت وتصببت وسالت، فيا ضيعة الأعمار تمر وتذهب ضائعة من غير فائدة!

وقد جاء في ترجمة الإمام أبي محمد الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه كان لا يتكلم إلَّا بما تدعو الضرورة إليه، ولا يجلس للإقراء إلَّا على طهارة، وفي هيئة حسنة، وخضوع واستكانة، ويمنع جلساءه من الخوض إلَّا في العلم والقرآن. وكان يعتل العلة الشديدة ولا يشتكي، ولا يتأوَّه؛ وإذا سُئل عن حاله قال: العافية؛ لا يزيد على ذلك [(١)].

وفي وصية الإمام الموفق ابن قدامة طيب الله روحه ما لفظه: "فاغتنم رحمك الله حياتك النفيسة، واحتفظ بأوقاتك العزيزة، واعلم أن مدة حياتك محدودة، وأنفاسك معدودة، فكل نفس ينقص به جزء منك، والعمر كله قصير، والباقي منه هو اليسير، وكل جزء منه جوهرة نفيسة لا عدل لها [(٢)].

وقد كان السَّلف الصَّالح، ومن سار على نهجهم من الخلف، أحرص الناس على كسب الزمن، فكانوا يتنافسون في الطاعات، ويتسابقون في فعل الخيرات والقربات.

ومطالعة سير السَّلف الصَّالح ومن تبعهم بإحسان تبعث في النفس الهمة للسير على نهجهم، واقتفاء أثرهم في اغتنام ما أمكن من الأوقات، وفي ذكر سيرهم خير عظيم، وهداية وإرشاد.

---

(١) انظر: مرآة الجنان وعبرة اليقظان (٣/٣٥٣-٣٥٤)، شذرات الذهب (٦/٤٩٤-٤٩٥)، إنباه الرواة على أنباه النحاة (٤/١٦١)، وفيات الأعيان (٤/٧١-٧٢)، السفر الخامس من كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (٢/٥٤٨-٥٥٠)، نكث الهميان في نكت العميان (ص:٢١٣-٢١٤)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (٢/٢٣-٢٥).

(٢) غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب (٢/٤٤٧).

وإن الوقت أغلى وأثمن شيء يملكه الإنسان في حياته الدنيا، وأسهل شيء في الضياع، فهو ينقضي بسرعة، مهما كان حال الإنسان فيه، سواء كان زمنه زمن يسر ومسرَّة وسعة، أم كان زمن فقر وهمٍّ وضيق، كما قيل:

والوقْتَ أنْفَسُ ما عُنِيْتَ بِحْفظِهِ وأراهُ أَسْهَلَ ما عليكَ يضِيْع

فالزمن وعاء العمل سواء كان العمل صالحًا ومثمرًا للخير، أم كان غير صالح، ومورثًا للشر، فهو ينقضي سريعًا ثم يجازى كلٌّ على عمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

واغتنام الوقت في صالح العمل هو دأب الفطناء، وأرباب القلوب، وأصحاب البصائر، فهم على دراية وتبصُّرٍ لآثار ذلك في صلاح الحال والمآل، كما أنهم يعلمون أن الغفلة عن اغتنام الوقت في صالح العمل، والتفريط في طلب الهادية، وسلوك طريق الضلال والغواية مفضٍ إلى التَّحسر والندم في وقت لا ينفع فيه الندم، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّـٰخِرِينَ ۝٥٦ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٥٧ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٨﴾ [الزمر:٥٦-٥٨].

فالفرصة في الدنيا سانحة، ووسائل الهدى حاضرة، وباب التوبة مفتوح لكل مقصِّر أو غافل.

ولكن المقصر أو الغافل إذا دهمه الموت فإنه يتحسر على التَّفريط في الطاعة، وفقد الهداية، ثم يتمنى الرجعة إلى الدنيا؛ لتدارك ما فات، فيأتيه الجواب: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝٥٩﴾ [الزمر:٥٩]، أي: إنه لا فائدة من ذلك، فقد جاءتك آياتي في الدنيا على لسان رسولي الذي أرسلته إليك، وفي كتابي الذي يتلوه عليك، ويذكِّرك بما فيه من وعدٍ ووعيد، وتبشير وإنذار، فكذَّبت بها، واستكبرت عن قبولها، وكنت ممن يعمل عمل الكافرين، ويستنُّ بسنتهم، ويتَّبع مناهجهم.

وإنَّ الله جَلَّوَعَلَا يعلم طبيعتهم، ويعلم إصرارهم على باطلهم، ويعلم أن رجفة الموقف المفزع، ووقوفهم على النار هو الذي أنطق ألسنتهم بهذه الأماني، وهذه الوعود، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝٢٨﴾ [الأنعام:٢٨]، ويقول جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٧﴾ [الأنعام:٢٧].

والإنسان لا يعلم متى أجله، فقد يقترب حسابه وهو في غفلة يلهو ويلعب، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٩﴾ [مريم:٣٩]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء:١- ٣]، أي: دنا حساب الناس على أعمالهم التي عملوها في دنياهم، وعلى النعم التي أنعمها عليهم ربهم في أجسامهم وعقولهم ومطاعمهم ومشاربهم، ماذا عملوا فيها؟ هل أطاعوه فيها فانتهوا إلى أمره ونهيه؟ أو عصوه فخالفوا أمره فيها، وهم في هذه الحياة في غفلة عمَّا يفعل الله عَزَّوَجَلَّ بهم يوم القيامة، ومن ثم تركوا الفكر والاستعداد لهذا اليوم، والتأهب له.

والإنسان سيقف يوم القيامة موقفًا يسأل فيه عمره، وعن علمه، وعن ماله، وعن جسمه، كما جاء في الحديث: أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيم فعل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه**» (١).

وأرشد النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ طالب الهداية والتوفيق والنجاة إلى اغتنام ما ينفعه من الوقت قبل تعذُّر ذلك عليه فقال عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**اغتنم خمسًا قبل خمس: حياتك قبل**

(١) أخرجه الترمذي [٢٤١٧]، وقال: "حسن صحيح". كما أخرجه أبو يعلى [٧٤٣٤]، وأبو نعيم في (الحلية) (٢٣٢/١٠) عن أبي برزة الأسلمي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

موتك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك» (١)، أي: افعل خمسةَ أشياء قبل حصول خمسة أشياء: «**حياتك قبل موتك**»، يعني: اغتنم من حياتك ما تلقى نفعه بعد موتك؛ فإن من مات انقطع عمله، والحياة الدنيا هي ميدان العمل، فاعمل لنفسك خيرًا ينفعك قبل انقضاء أجلك، وحتى لا تكون من الذين قال الله عَزَّوَجَلَّ فيهم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠]، فيَفُوت أَمَلُكَ، ويَحِق ندمك.

وقوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**وصحتك قبل سقمك**» أي: اغتنم العمل حال الصحة، فقد يمنع مانع، كمرض فتقدم المعاد بغير زاد. والصحة نعمة من الله عَزَّوَجَلَّ، وهي غنيمة رابحة لمن استعملها في طاعة الله جَلَّوَعَلَا ومرضاته. «**وفراغك قبل شغلك**» أي: اغتنم فراغك بما ينفعك قبل انشغالك بما يلهيك.

فينبغي على العبد المؤمن أن يقضي فراغه في طاعة ربِّه جَلَّوَعَلَا، وفي سائر أعمال الخير التي تقربه من الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يكون من الذين يقضون أوقاتهم في الشهوات والملذات

---

(١) الحديث مروي عن ابن عباس، وعن عمرو بن ميمون مرسلًا. حديث ابن عباس: أخرجه الحاكم [٧٨٤٦] وقال: "صحيح على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي، كما أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) [٩٧٦٧] وقال البيهقي: "هكذا وجدته في كتاب: (قصر الأمل)، وكذلك رواه غيره عن ابن أبي الدنيا، وهو غلط، وإنما المعروف بهذا الإسناد ما أخبرنا...فذكر حديث: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس..» الحديث. قال البيهقي: وأما المتن الأول، يعني: حديث: (اغتنم خمسًا) فعبد الله بن المبارك إنما رواه في كتاب عن جعفر بن برقان، عن زياد بن الجراح، عن عمرو بن ميمون الأودي مرسلًا. حديث عمرو بن ميمون المرسل: أخرجه ابن المبارك في (الزهد) [٢]، وابن أبي شيبة [٣٤٣١٩]، والنسائي في (الكبرى) [١١٨٣٢]، وأبو نعيم في (الحلية) (١٤٨/٤)، والقضاعي [٧٢٩]. والبيهقي في (الآداب) [٨٠٩]، قال الحافظ في (الفتح) (٢٣٥/١١): "أخرجه ابن المبارك في (الزهد) بسند صحيح من مرسل عمرو بن ميمون". وقال العراقي: "إسناده حسن". وعزاه العجلوني (١٦٧/١) لأحمد في (الزهد) والبيهقي عن عمرو بن ميمون مرسلًا.

وسائر الملهيات؛ فإن هؤلاء قد خسروا وقتهم، وضيعوه فيما لا ينفعهم في دينهم ودنياهم، بل إنهم مع ضياعهم لأوقاتهم الثمينة ارتكبوا آثامًا عظيمة، وسيئات تعود عليهم بالندامة والحسرات. وقد قال رسولنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ**»(١).

وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وشبابك قبل هرمك**» أي: اغتنم الطاعة حال قدرتك قبل هجوم عجز الكبر عليك، فتندم على ما فرطت في جنب الله عَزَّوَجَلَّ. فعلى المؤمن أن يُقبل على الله جَلَّوَعَلَا في شبابه وقوته، فيطيع ربه جَلَّوَعَلَا فيما أمر، ويبتعد عما نهى عنه وزجر، وذلك في سلوكه ومعاملاته، وسائر أحواله، مقتديًا بهدي سيد المرسلين صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقد خص النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرحلة الشباب؛ لأنها زمن القوة والنشاط، ولأن الشباب عماد المجتمع، فالشاب يقوم بما لا يقوم به الصغير في السنِّ، ولا الكبير الهرم من عمل وإنتاج، ورعاية لنفسه وللآخرين من حوله، وربما يتعذر عليه العمل والتدارك لما فاته بسبب المرض، والكبر والعجز، ووقوع البلاء.

وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وغناك قبل فقرك**» "أي: اغتنم التصدق بفضول مالك قبل أن تنزل بك جائحة(٢) تفقرك، فتصير فقيرًا في الدنيا والآخرة(٣)، فهذه الخمسة لا يعرف قدرها إلا بعد زوالها" (٤).

---

(١) صحيح البخاري [٦٤١٢]، وقد تقدم.

(٢) (الجائحة): المصيبة تحل بالرجل في ماله فتجتاحه كله. و(في اصطلاح الفقهاء): ما أذهب الثمرَ أو بعضَه من آفة سماوية. ويقال: سنة جائحة: جدبة، جمع: جوائح.

(٣) وقد تقدم أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قد جعلَ المالَ من أعظم أنواع الابتلاء؛ وذلك لما يحقق من المصالح، فهو وسيلة وليس غاية.

(٤) انظر: فيض القدير (٢/١٦).

وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: أخذ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمنكبي، فقال: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**»، وكان ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، يقول: «**إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك**» (١).

والفراغ هو أعظم سبب من أسباب البطالة، والضياع، والانحراف؛ فإن الفراغ يجعل الإنسان كالريشة في مهبِّ الريح، تتجاذبُه الأهواء والشهوات، وتتقاذفه أمواج الشبهات، فيميل عن الحق، ويقع في شراكِ المضلين.

ومن آثار البطالة: ضعف الاقتصاد، وانتشار الجهل والتخلف في شتى الميادين، حيث يقل الجادون في العمل، ويكثر أهل البطالة الذين لا ينتجون، ويستهلكون ويستنزفون الثروات، ويفسدون في الأرض.

ومن وسائل الوقاية من الفراغ الذي تنشأ عنه البطالة وما يترتب عليها من المخاطر على النفس والغير: السعي في طلب الرزق، واغتنام الوقت في العمل الصالح، وطلب العلم النافع.

وقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ بطلب الرزق والاكتساب، ونهى عن العجز والتكاسل وتعطيل الأسباب، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك:١٥]، أي: هو الذي سخر لكم الأرض وذللها لكم، فجعلها قارَّة ساكنة، لا تميد ولا تضطرب بما جعل فيها من الجبال، وأوجد فيها من العيون؛ لسقيكم وسقي أنعامكم وزروعكم وثماركم، وسلك فيها السبل، فسافروا حيث شئتم من أقطارها، وترددوا

---

(١) أخرجه البخاري [٦٤١٦].

فى أرجائها، لأنواع المكاسب والتجارات، وكلوا مما أوجده لكم فيها بفضله من واسع الأرزاق.

وفي الحديث: «**والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله، فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلا، فيسأله أعطاه أو منعه**» (١).

إنَّ الإسلام لا يعرف المؤمن إلَّا كادحًا عاملًا مؤديًا دوره في الحياة، آخذًا منها، معطيًا لها، مستجيبًا لما أراده الله عَزَّوَجَلَّ من بني آدم حين جعلهم خلفاء في الأرض. يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود:٦١].. فلم يقل: إنه عَمَّرَ الأرض لكم، ولكنه خلق هذا الكون، وأودع فيه الثروات والخيرات والإمكانات، وحثَّهم على عمارة الأرض، واكتشافِ ما فيها من الخيرات، بإصلاحها وإحيائها، وإشاعة الحياة والنَّماء فيها، وذلك لا يكون إلَّا بالتقدم العلمي، والعمل الدؤوب، والتعاون بأن يقوم كل فرد بما يمكنه من جهد (٢). فلا يجوز أن يعمل البعض، ويظل آخرون كَلًّا عليهم، فيأخذون ولا يعطون، ويستهلكون ولا ينتجون، فليس هذا من العدل.

فالمتعطِّل عن الكسب والكدح (٣) في الحياة عالة على غيره، ولو اقتدى به المسلمون لفسدت الأرض، وأمسوا عبيدًا لغيرهم من الأقوياء العاملين.

وينبغي أن تكون الريادة لهذه الأمة في مجالات العمل والتقدم العلمي؛ فإن تقليد الآخرين هو عين التقهقر والانحطاط.

ولكن عمارة الأرض لا تعني: الركون إلى الدنيا، والغفلة عن الآخرة، ولكن المسلم يقف موقف الموازنة بين المتطلبات الدنيوية -وما تقتضيه من الوفاءِ بالحقوق تجاه نفسه

---

(١) صحيح البخاري [١٤٧٠، ١٤٧١، ١٤٨٠، ٢٠٧٤، ٢٣٧٤]، مسلم [١٠٤٢].

(٢) (الجهد) -بفتح الجيم وضمها-: الطاقة.

(٣) (الكَدْح): العمل والسعي والكد والكسب.

وتجاه الآخرينَ- وبين العمل للآخرة، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص:٧٧].

ومن هنا نجد أن الإسلام دعا إلى استثمار الوقت فيما يعود بالنفع والفائدة على الفرد والمجتمع، وربط الإنسان بغاياتٍ ومقاصدَ سامية، وهو يحقق توازنًا بين الروحية والمادية، وهو وسط بينهما، بين الدين والدنيا، بين القيم والحاجات، بين الغريزة والعقل.

والإنسان كما أراده الله عَزَّوَجَلَّ ليس الذي ينقطع عن العالم، وينسحب من الحياة، ويتفرغ للعبادة، ويتعطل فلا يعمل، ويتقشف فلا يتمتع، ويتبتل فلا يتزوج، ويتعبد فلا يفتر..

إن العمل هو روح الحياة يعالج الاكتئاب والأمراض النفسية التي تنشأ عن الفراغ، كما أنه من وسائل الحفاظ على الصحة والنشاط من خلال الحركة.

قال الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ونحن نستعيذ بالله عَزَّوَجَلَّ من أن نُغْبَنَ بفضل نعمته علينا، ونجهل نفع إحسانه إلينا. وقد قيل في منثور الحكم: من الفراغ تكون الصَّبْوَةُ [١].

وقال بعض البلغاء: من أمضى يومه في غير حق قضاه، أو فرض أداه، أو مجد أَثَّلَهُ [٢]، أو حمد حَصَّلَهُ، أو خير أَسَّسَهُ، أو علم اقتبسه، فقد عَقَّ يومه، وظلم نفسه.

وقال بعض الشعراء:

لقد أهاج الفراغ عليك شغلا ... وأسباب البلاء من الفراغ [٣]

(١) أي: الميل إلى الهوى والجهل، وهو من (صبا يصبو صُبُوا وصبوة)، أي: مال.

(٢) المؤثل: الأصيل الشريف. والتأثيل: التأصيل، يقال: مجد مُؤَثَّلٌ وأثيل. و(أثل يَأْثِلُ أُثُولًا، وتَأَثَّل): تَأَصَّل. ومنه: مجد مُؤَثَّلٌ، قال امرؤ القيس: (ولكنما أسعى لمجد مؤثل***وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي). وقيل: المجد المؤثل: هو القديم.

(٣) أدب الدنيا والدين، للماوردي (ص:٥٥)، وانظر: فيض القدير (٦/٢٨٨).

والحاصل أن وسائل الوقاية من آفات الفراغ والبطالة: شغل الوقت بما ينفع العبد من العلم والعمل، والسعي في طلب الرزق -كما تقدم-، وتعلم حِرْفةٍ، وإتقانُ مهنةٍ يتكسَّبُ منها.

يقول الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان خطر البطالة: "من تعطَّل وتبطَّل انسلخ من الإنسانية، بل من الحيوانية، وصار من جنس الموتى، وذلك أنه إنما خص الإنسان بالقوى الثلاث؛ ليسعى في فضيلتها، فإن فضيلة القوة الشهوية تطالبه بالمكاسب التي تنميه، وفضيلة القوة الغضبية تطالبه بالمجاهدات التي تحميه، وفضيلة القوة الفكرية تطالبه بالعلوم التي تهديه، فحقه أن يتأمل قوته، ويسبر قدر ما يطيقه، فيسعى بحسبه لما يفيده السعادة، ويتحقق أن اضطرابه سبب وصوله من الذل إلى العز، ومن الفقر إلى الغنى، ومن الضعة إلى الرفعة، ومن الخمول إلى النباهة. وأن من تعود الكسل ومال إلى الراحة فَقَدَ الراحة، فحب الهوينا يكسب النَّصَب. وقد قيل: إن أردت ألا تتعب فاتعب لئلَّا تتعب، وقيل: إياك والكسل والضجر، فإنك إن كسلت لم تؤد حقًّا، وإن ضجرت لم تصبر على الحق" (١).

والمسلمُ مسؤولٌ عن علمه في فقه حرفته ومهنته، فكلٌّ من الحَدادِ والنَّجار والفلَّاحِ والتَّاجرِ وغيرهم من أصحاب الحِرف مطالبٌ بتعلُّمِ الأحكام الشرعية المتعلقة بمهنته، من بيعٍ أو شراءٍ أو استصناعٍ أو وكالةٍ أو إجارةٍ أو مُزارعة..الخ؛ ليكون عمُلُه صالحًا، ومالُه حلالًا. والطبيبُ مطالب بإتقان مهنته، ويلزمه كذلك تعلم فقهها وآدابها الشرعية، من بدء الكشف عن المرضى، وصولًا إلى العلاج والدواء، وموقف الشرع من المسائل الطبية كالإجهاض، أو زرع الأعضاء إلى غير ذلك، وكذلك المهندس والمحامي والإعلامي وغيرهم

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة (ص:٢٦٩-٢٧٠)، وانظر: فيض القدير (٢١٥/١).

يلزمهم الفقه في المهنة؛ ليكونوا لسان حق وعدل، ويد أمانة على حقوق الوطن والناس. وفي الحديث: «**من تَطَبَّبَ ولم يعلم منه طِبٌّ فهو ضامن**» (١).

ومن أسباب الوقاية من الفراغ: نشر الوعي بين أفراد المجتمع، ولا سيما الشباب، والتبصر بآثار البطالة الهدامة على الفرد والمجتمع.

ومن وسائل الوقاية من البطالة: أن يبادرَ في أيام شبابه، وأوقاتَ عمره إلى التحصيل، ولا يغترَّ بخدع التسويف والتأميل؛ فإن كل ساعة تمضي من عمره لا بدل لها ولا عوض عنها.

ويقطع ما يقدر عليه من العلائق الشاغلة، والعوائق المانعة عن تمام الطلب، وبذل الاجتهاد، وقوة الجدِّ في التحصيل؛ فإنها كقواطع الطريق (٢).

وينبغي على من أراد السلامة والعافية والنجاة: أن يبادر إلى الأعمال الصالحة قبل تعذرها والاشتغال عنها بما يحدث من الفتن الشاغلة، وقد قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حاثًّا أُمَّتَه على المبادرة والمسارعة إلى الخيرات قبل فوات الأوان: «**بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، أو يمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا**» (٣).

---

(١) أخرجه ابن ماجه [٣٤٦٦]، وأبو داود [٤٥٨٦]، والنسائي [٤٨٣٠]، والدارقطني [٣٤٣٨]، والحاكم [٧٤٨٤]، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي، كما أخرجه: البيهقي في (السنن الكبرى [١٦٥٣٠].

(٢) تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة (ص:٨٧).

(٣) صحيح مسلم [١١٨].

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "معنى الحديث: الحث على المبادرة إلى الأعمال الصالحة قبل تعذرها والاشتغال عنها بما يحدث من الفتن الشاغلة المتكاثرة المتراكمة، كتراكم ظلام الليل المظلم لا المقمر..." (١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**بادروا بالأعمال ستًّا: طلوع الشمس من مغربها، أو الدخان، أو الدجال، أو الدابة، أو خاصة أحدكم أو أمر العامة**» (٢).

قال أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (المفهم): "قوله: قوله: «**خاصة أحدكم**» يعني: الموانع التي تخصه مما يمنع العمل، كالمرض، والكِبَر، والفقر المنسي، والغنى المطغي، والعيال والأولاد، والهموم والأنكاد، والفتن والمحن.. إلى غير ذلك مما لا يتمكن الإنسان مع شيء منه من عمل صالح، ولا يسلم له، وهذا المعنى هو الذي فصله في حديث آخر، حيث قال: وفي الحديث: «**اغتنم خمسًا قبل خمس: حياتك قبل موتك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك**» (٣). قوله: «**أمر العامة**»: يعني: الاشتغال بهم فيما لا يتوجه على الإنسان فرضه؛ فإنهم يفسدون من يقصد إصلاحهم، ويهلكون من يريد حياتهم، لا سيما في مثل هذه الأزمان التي قد مرجت فيها عهودهم، وخانت أماناتهم، وغلبت عليهم الجهالات والأهواء، وأعانهم الظلمة والسفهاء" (٤).

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/١٣٣).

(٢) صحيح مسلم [٢٩٤٧].

(٣) تقدم.

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٧/٣٠٨-٣٠٩).

فإذا كانت الفتن واقعة لا محالة فإن الاستعداد لها يكون بالعلم والعمل، والعلم يبصر المسلم بصور الفتن وأنواعها، فلا يسقط فيها، بل يبادر إلى الأعمال الصالحة، ويسأل الله عَزَّوَجَلَّ السلامة والعافية.

والمراد من هذا أن هذه الأشياء كلها تعوق عن الأعمال، فبعضها يشغل عنه، إما في خاصة الإنسان، كفقره وغناه ومرضه وهرمه وموته، وبعضها عام، كقيام الساعة، وخروج الدجال، وكذلك الفتن المزعجة كما جاء في حديث: «**بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم**» (١).

عن الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ قال: "إياك والتسويف؛ فإنك بِيَوْمِكِ ولسْتَ بِغَدِكَ.." (٢).

وأوصى بعض الحكماء ابنه، فقال له: يا بني! إياك والتسويف لما تهم به من فعل الخير؛ فإن وقته إذا زال لم يعد إليك، واحذر طول الأمل؛ فإنه هلاك الأمم (٣).

ولقد فرَّط الكثير من الناس في اغتنام أوقاتهم؛ لغفلتهم عن قيمة الوقت، وعن العاقبة، وبسبب التكاسل، والتسويف، والبيئة الفاسدة، والتربية السيئة، ورفقاء السوء، والقدوة السيئة، وبسبب الجهل، والإعلام المضلل، والفراغ والبطالة، وسوء التبليغ، والمفاهيم الخاطئة، والافتتان ببعض علوم الفلسفة المضلة، وحب الدنيا والتنازع على حطامها، إلى غير ذلك من العقبات التي تحول دون الهداية، والتي قد تصل بالإنسان إلى الضياع والانحراف، وقد أفردتها بالبحث في كتاب مستقل بعنوان: (عقبات في طريق الهداية).

---

(١) جامع العلوم والحكم (٢/٣٨٨).

(٢) الزهد والرقائق، لابن المبارك [٨] (١/٤)، الزهد، لهناد [٥٠٢] (١/٢٨٩)، قصر الأمل، لابن أبي الدنيا [٢١٩] (١/١٤٤).

(٣) المجالسة وجواهر العلم (٥/١٦٦)، قصر الأمل، لابن أبي الدنيا [٢١٨] (١/١٤٤).

وقد بينت آفات البطالة والتسويف وما يدعو إلى التقاعس عن فعل الخير والإصلاح في كلٍّ من كتاب: (عقبات في طريق الهداية)، وكتاب: (الإفساد في الأرض -صوره وأسبابه وسبل الوقاية منه في ضوء الكتاب والسنة-)، وكتاب: (نهج الأبرار في اجتناب ما توعد عليه بالنار)، وكتاب: (الإرشاد إلى أسباب النجاة) في موضع متفرقة.

ومن أسباب الوقاية من آفات الفراغ: تنظيم الوقت ما بين علم نافع، وعمل صالح، والاهتمام بالقراءة الهادفة، والرياضة المفيدة.

ومما يعين على تنظيم الوقت: أداء الصلوات في أوقاتها، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوۡقُوتًا ١٠٣﴾ [النساء:١٠٣].

ومن أسباب الوقاية من آفات الفراغ والشرود: تقوية الوازع الديني بحضور المحاضرات والندوات التربوية الهادفة، ومطالعة سير الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ والتابعين لهم بإحسان، وملازمة العلماء الربانيين.

وإن من أعظم الأسباب التي تقي العبد من الشرود عن نهج الصالحين: تحقق التقوى في المكلف بالتزام أمر الله عَزَّوَجَلَّ، واجتناب نهيه، وملازمة ذكره، وقراءة كتابه، والبحث عن حال مطعمه، وأداء حقوق الخلق، والتنوع في العبادات، والإكثار من النوافل.

والاشتغال بالعبادات الظاهرة والباطنة، والإكثار من النوافل، والذكر، والاستغفار، والدعاء، واللجوء إلى الله عَزَّوَجَلَّ، والاستعانة به، كل ذلك مما يقي السالك آفات الشرود، وينمي فيه شعور المراقبة.

والعبادات والتكاليف الشرعية لها مقاصد سامية، وهي تحقق في العبد معنى: التكليف، وهو الإذعان لشرعة الله عَزَّوَجَلَّ، ذلك الإذعان الذي يخرج المكلَّف إلى حدِّ الإنسانية، وإلى مقام العبودية، فالصَّلاة ليست مجرَّد حركاتٍ يؤديها الإنسان دون أن يكون لها الأثر النَّاجع في المكلَّف، فقد بيَّن الحقُّ عَزَّوَجَلَّ أنها تنمي في العبد شعور المراقبة

لله عَزَّوَجَلَّ، فتنهاه عن الفحشاء والمنكر والبغي، فتزكو نفس العبد، وتعلو همته، ويبتعد عما يسخط الله عَزَّوَجَلَّ من قول أو فعل؛ لأن الانتهاء لا يكون إلا من ذاكر لله عَزَّوَجَلَّ، مراقبٍ له في أفعاله وأقواله وأحواله. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥].

"فالصلاة تطهر الروح، وتزكي النفس؛ لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتربي في المصلي ملكة مراقبة الله جَلَّوَعَلَا، وخشيته لدى الإساءة، وحبه والرجاء فيه عند الإحسان، وتذكره دائمًا بكماله المطلق، فتوجه همته دائمًا إلى طلب الكمال" (١).

و"النفوس في حاجة إلى مذكِّر يرقى بها إلى العالم الروحي، ويخلعها من عالم الحس، ويوجهها إلى مراقبة من برأها وفطرها حتى تطهر من تلك الأرجاس والأدران، وتترفع عن البغي والعدوان، وتميل إلى العدل والإحسان، ذلك المذكر هى الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتنفي الجزع والهلع عند المصايب، وتعلِّم البخيل الكرم والجود" (٢).

والصلاة من أسباب الاستقامة في القول والعمل، وهي تعين على تنظيم الوقت، وترتيب العمل، فالصلوات الخمس لها أوقات محددة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ۝١٠٣﴾ [النساء:١٠٣]، أي: مُوَقَّتًا وَقَّتَهُ عليهم. قاله الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣).

وصيام رمضان كذلك في شهر محدد معلوم، ويوم الصوم يبدأ بوقت محدد، وينتهي بوقت محدد، وكذلك الحج له وقت محدد، والزكاة لها وقت محدد...إلى غير ذلك من العبادات التي تعود المكلف على تنظيم الوقت، وترتيب الأوقات.

---

(١) انظر: تفسير المنار (٦/٢١٤).

(٢) انظر: تفسير المراغي (٢/٢٠١).

(٣) صحيح البخاري (١/١١٠).

والصيام كذلك يعزز شعور المراقبة لله عَزَّوَجَلَّ، فهو جُنَّة ووجاء. وقل مثل ذلك في سائر العبادات والتكاليف؛ فإن لها مقاصد سامية ترتقي بالمكلف، وتصلح أحواله.

والنوافل تمنع السالكين من الشرود عن نهج الصالحين، وتصون اللسان عن كل قول ذميم؛ لأنها تُوْرِث المراقبة لله عَزَّوَجَلَّ، وتُقَرِّب من الله جَلَّوَعَلَا، كما جاء في الحديث: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إن الله قال: من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته**»(١)، يعني: إساءته بفعل ما يكره. قال ابن رجب رَحِمَهُٱللَّهُ: "المراد بهذا الكلام أن من اجتهد بالتقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ بالفرائض، ثم بالنوافل قربه إليه، ورقاه من درجة الإيمان إلى درجة الإحسان، فيصير يعبد الله عَزَّوَجَلَّ على الحضور والمراقبة كأنه يراه، فيمتلئ قلبه بمعرفة الله عَزَّوَجَلَّ ومحبته وعظمته وخوفه ومهابته وإجلاله والأنس به والشوق إليه، حتى يصير هذا الذي في قلبه من المعرفة مشاهدًا له بعين البصيرة"(٢). وذلك من أعظم أسباب الأمن والهداية.

ومن أسباب الوقاية من آفات الفراغ والشرود: الإكثار من ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، ومن الدعاء والاستغفار؛ فإن كثرة ذكر الله عَزَّوَجَلَّ من أعظم أسباب الحفظ من المعصية؛ لأن الذِّكرَ يُذَكِّرُ العبدَ بالله جَلَّوَعَلَا وصفاته، وعظمته، فيكون حاضرًا مع الله عَزَّوَجَلَّ، ومستحضرًا

---

(١) صحيح البخاري [٦٥٠٢]، قوله: «ما ترددت»: كناية عن اللطف والشفقة وعدم الإسراع بقبض روحه. و«مساءته»: إساءته بفعل ما يكره.

(٢) جامع العلوم والحكم، لابن رجب (ص:٣٤٥- ٣٤٦).

لما يعتقده عن الله، فيحجزه ذلك عن المعصية. وبذكر الله عَزَّوَجَلَّ تطمئن القلوب، كما الله جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرعد:٢٨].

وبالدعاء يكون العبدُ قريبًا من الله عَزَّوَجَلَّ، كما الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ١٨٦﴾ [البقرة:١٨٦]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر:٦٠]. وقل مثل ذلك في الاستغفار؛ فإنه يمد العبد بالقوة، ويفتح له أبواب الخير، كما قال الله جَلَّوَعَلَا على لسان هود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ [هود:٥٢].

وللاستغفار ثمرات كثيرة، وقد فصلت القول في ذكر تلك الثمرات في كتاب: (الإرشاد إلى أسباب النجاة).

ومن أسباب الوقاية من آفات الفراغ والشرود: الإكثار من قراءة القرآن، وتدبر آياته، ومجالسة الصالحين وأرباب العزائم والهمم، ومنافستهم في الأعمال الصالحة؛ فإن صحبتهم تبعث في النفس الهمَّة، وتولِّد الحرارة والشوق؛ لتقليدهم والتشبه بهم في أخلاقهم وسلوكهم، وهي من أسباب النجاة والرفعة، كما أن صحبة أهل الباطل تؤثِّر في الصَّدِّ عن الحقِّ، وتورد صاحبها المهالك.

والحاصل أن الزمن له قيمة عظيمة، وهو أثمن ما يملك الإنسان؛ ولذلك عُني الشارع ببيان قيمة الزمن، وعدَّه من النعم الجليلة التي منَّ الله عَزَّوَجَلَّ بها على العبد في مدة حياته، ليرجع إلى ربِّه جَلَّوَعَلَا، ويتدارك التقصير، ويتزود من دنياه لآخرته، وليعمل على نفع نفسه، ونفع غيره من المخلوقات.

وقد أقسم الله عَزَّوَجَلَّ بالزمن؛ لبيان أهميته، واختص بعض الأزمنة بالفضل -كما سيأتيك-؛ لينمي العبد علمه في هذه الأوقات الفاضلة، ويتدارك ما كان منه من غفلة أو تقصير.

ثامنًا: التوبة واجبة على الفور:

التوبة من جميع المعاصي واجبة على الفور، ولا يجوز تأخيرها، سواء كانت المعصية صغيرة أو كبيرة بالاتفاق؛ لما في تأخيرها من الإصرار المحرم، ولأن العاصي لا يضمن أجلًا، فقد يعاجله الموت قبل التوبة، فإن أخرها عصى بالتأخير فيحتاج إلى توبتين، أو إلى توبة عامة مما علم ومما لم يعلم، كما حرَّر ذلك كلٌّ من الإمام عز الدين بن عبد السلام، وابن القيم رَحِمَهُمَاٱللَّهُ.

قال الإمام عز الدين بن عبد السلام رَحِمَهُٱللَّهُ: "والتوبة واجبة على الفور، فمن أخرَّها زمانًا صار عاصيًا بتأخيرها، وكذلك يتكرر عصيانه بتكرر الأزمنة المتسعة لها، فيحتاج إلى توبة من تأخيرها، وهذا جار في تأخير كل ما يجب تقديمه من الطاعات"(١). وقال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ: "إن المبادرة إلى التوبة من الذنب فرض على الفور، ولا يجوز تأخيرها، فمتى أخرها عصى بالتأخير، فإذا تاب من الذنب بقي عليه توبة أخرى، وهي توبته من تأخير التوبة، وقل أن تخطر هذه ببال التائب، بل عنده أنه إذا تاب من الذنب لم يبق عليه شيء آخر، وقد بقي عليه التوبة من تأخير التوبة، ولا ينجي من هذا إلا توبة عامة، مما يعلم من ذنوبه ومما لا يعلم، فإن ما لا يعلمه العبد من ذنوبه أكثر مما يعلمه، ولا ينفعه

---

(١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام (١/٢٢١).

في عدم المؤاخذة بها جهله إذا كان متمكنا من العلم، فإنه عاص بترك العلم والعمل، فالمعصية في حقه أشد" (١).

وقال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اعلم أن وجوب التوبة ظاهر بالأخبار والآيات، وهو واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته، وشرح الله عَزَّوَجَلَّ بنور الإيمان صدره"، وقال: "التوبة على الفور، أما وجوبها على الفور فلا يستراب فيه؛ إذ معرفة كون المعاصي مهلكات من نفس الإيمان، وهو واجب على الفور، والعلم بضرر الذنوب إنما أريد؛ ليكون باعثًا على تركها، فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الإيمان، وهو المراد بقوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**» (٢)؛ وذلك لكون الزنا مبعدًا عن الله عَزَّوَجَلَّ، موجبًا للمقت، كسائر المعاصي؛ لأنها للإيمان كالمأكولات المضرة للأبدان، فكما أنها تغير مزاج الإنسان، ولا تزال تجتمع حتى تفسده، فيموت دفعة، كذلك تعمل سموم الذنوب بروح الإيمان عملًا تحق الكلمة عليه بأنه من الهالكين.." (٣).

وقال الشريف الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "التوبة واجبة على الفور عند عامة العلماء؛ أما الوجوب؛ فلقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور:٣١]. وأما الفورية؛ فلما في تأخيرها من الإصرار المحرم، والإنابة قريبة من التوبة لغةً وشرعًا" (٤).

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "التوبة من أصول الإسلام المهمة، وقواعد الدين، وأول منازل السالكين، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور:٣١]. فالتوبة من

(١) مدارج السالكين (٢٨٣/١).
(٢) صحيح البخاري [٢٤٧٥، ٥٥٧٨، ٦٧٧٢، ٦٧٨٢، ٦٨١٠]، مسلم [٥٧].
(٣) انظر: إحياء علوم الدين (٤/٤-٧).
(٤) التعريفات (ص:٧٠).

المعصية واجبة على الفور بالاتفاق" (١). و"أصلها: الندم، وهو ركنها الأعظم. واتفقوا على أن التوبة من جميع المعاصي واجبة، وأنها واجبة على الفور لا يجوز تأخيرها سواء، كانت المعصية صغيرة أو كبيرة" (٢).

وقال الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "التوبة واجبة في نفسها على الفور، ومن أخرها تكرر عصيانه بتكرر الأزمنة، كما صرح به الشيخ عز الدين بن عبد السلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ" (٣).

وقال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "التوبة فرض لازم على كل من علم من نفسه مخالفة لله عَزَّوَجَلَّ، صغرت أو كبرت، وهي من جملة أمهات الفرائض اللازمة. ووجوبها عند أهل السنة شرعًا لا عقلًا، خلافًا للمعتزلة، وليس بواجب قبولها على الله عَزَّوَجَلَّ عقلًا، وإنما علمنا ذلك بالشرع والإجماع، خلافًا للمعتزلة فى حتمهم ذلك على الله عَزَّوَجَلَّ عقلًا، على أصلهم الفاسد فى التحسين والتقبيح، وإيجاب العقل ما يوجب من ذلك.

والتوبة نعمة أنعم الله عَزَّوَجَلَّ بها على هذه الأمة دون غيرها من الأمم، قاله سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وكانت توبة بنى إسرائيل قتل أنفسهم، كما نص الله عَزَّوَجَلَّ عليه" (٤).

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "التوبة من مهمات الإسلام، وقواعده المتأكدة، ووجوبها عند أهل السنة بالشرع، وعند المعتزلة بالعقل. ولا يجب على الله عَزَّوَجَلَّ قبولها إذا وجدت بشروطها عقلًا عند أهل السنة، لكنه جَلَّوَعَلَا يقبلها كرمًا وفضلًا. وعرفنا قبولها بالشرع والإجماع، خلافًا لهم" (٥).

---

(١) انظر: روضة الطالبين وعمدة المفتين (١١/٢٤٩-٢٥٠).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٧/٥٩)، وانظر: حاشية البجيرمي على الخطيب (٢/٢٣٦).

(٣) روح المعاني (٦/٣٥٣).

(٤) إكمال المعلم (٨/٢٤٢).

(٥) شرح النووي على صحيح مسلم (١٧/٥٩).

وإذا تقرَّر أن التوبة واجبة على الفور فإن تسويف التوبة وتأخيرها يعد مذمومًا، ويترتب عليه آثار خطيرة، وقد لا يدرك العبد التوبة؛ إذ إنه لا يضمن أجلًا -كما تقدم-. قال سهل بن عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الإصرار: التسويف، أي: يقول: أتوب غدًا، وهذا دعوى النفس، كيف يتوب غدًا وغدًا لا يملكه؟! [(١)].

وقد بين الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ علاج تسويف التوبة، حيث قال: "وأما تسويف التوبة فيعالجه بالفكر في أن أكثر صياح أهل النار من التسويف؛ لأن المسوف يبني الأمر على ما ليس إليه، وهو البقاء، فلعله لا يبقى، وإن بقي فلا يقدر على الترك غدًا، كما لا يقدر عليه اليوم، فليت شعري هل عجز في الحال إلا لغلبة الشهوة؟! والشهوة ليست تفارقه غدًا، بل تتضاعف؛ إذ تتأكد بالاعتياد، فليست الشهوة التي أكدها الإنسان بالعادة كالتي لم يؤكدها، وعن هذا هلك المسوفون؛ لأنهم يظنون الفرق بين المتماثلين، ولا يظنون أن الأيام متشابهة في أن ترك الشهوات فيها أبدًا شاق، وما مثال المسوف إلا كمثل من احتاج إلى قلع شجرة، فرآها قوية لا تنقلع إلا بمشقة شديدة، فقال: أؤخرها سنة ثم أعود إليها، وهو يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها، وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه، فلا حماقة في الدنيا أعظم من حماقته؛ إذ عجز مع قوته عن مقاومة ضعيف، فأخذ ينتظر الغلبة عليه إذا ضعف هو في نفسه، وقوي الضعيف" [(٢)].

---

(١) انظر: الفتوحات الربانية، لابن علان (٢٧٣/٧)، وانظر: الرسالة القشيرية (٢١١/١).

(٢) إحياء علوم الدين (٥٨/٤).

تاسعًا: بيان زمن التوبة:

والتوبة تكون من العبد في زمن الإمكان، فلا تصح بعد فوات الأوان:

وفوات الأوان خاص وعام، فالخاص: حضور الموت، والعام: طلوع الشمس من مغربها.

وإن وقت التوبة ممتد طوال العمر، يبدأ من بداية التكليف، وينتهي عند رفعه وحضور الموت، أو عند طلوع الشمس من المغرب -كما سيأتي-.

قال الله عَزَّوَجَلَّ مبينًا وقت التوبة النافعة: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧﴾ [النساء:١٧].

وأخبر المولى جَلَّوَعَلَا عن الوقت الذي لا تنفع فيه التوبة في قوله: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٨﴾ [النساء:١٨].

وقال: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾ [الأنعام:١٥٨].

والعبد بحاجة في كل يوم إلى أن يجدد التوبة؛ لأنه لا يدري متى يأتيه الأجل.

فمن أنفع الأسباب التي تقي الإنسان الذي ينشد النجاة والعافية من سوء العاقبة: أن يجدد التوبة في كل وقت مما عسى أن يكون قد اجترح من الذنوب والهفوات؛ فإن «**كلَّ ابنِ آدم خطَّاء، وخير الخطائين: التوابون**» (١)، وأن يعقد العزم على ترك المعاصي،

---

(١) حديث: «كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين: التوابون» أخرجه ابن أبي شيبة [٣٤٢١٦]، وأحمد [١٣٠٤٩]، وعبد بن حميد [١١٩٧]، والدارمي [٢٧٢٧]، وابن ماجه [٤٢٥١]، والترمذي [٢٤٩٩]، وقال:=

وأن يمسي على نية صالحة، وأن يصبح على نية صالحة، وأن يقف المرء في كلِّ يومٍ مع نفسه وقفة محاسبة، ولا سيما عندما يريدُ النومَ، يستحضر ما مضى منه من قول أو فعل، فيتدراك ما قصر، ويعزم بنية صادقة على الوفاء لمن كان له عليه حق، ويستغفر ويسامح، وينقي قلبه من أدران الحقد والحسد، والصفات الذميمة، مجددًا توبةً بينه وبين الله عَزَّوَجَلَّ، فينامُ على تلك التوبة، ويعزم أن لا يعاودَ الذَّنبَ إذا استيقظ، ويفعلُ هذا كلَّ ليلة، فإذا ماتَ من ليلته مات على توبة، وإن استيقظَ استقبلَ يومَه بنيةٍ صالحة. وليس للعبد أنفع من هذه النومة، ولا سيما إذا أكثرَ من ذكرِ الله عَزَّوَجَلَّ، واستعملَ السنن الواردة قبل النوم، فمن أراد الله عَزَّوَجَلَّ به خيرًا وفَّقه لذلك.

وفي المأثور عن قتادة رَحِمَهُٱللَّهُ قال: "أيعجز أحدكم أن يكون مثل أبي ضَيْغَمٍ أو ضَمْضَمٍ -شك ابن عبيد-، كان إذا أصبح قال: اللهم إني قد تَصَدَّقْتُ بعرضي على عبادك" (١).

="غريب"، كما أخرجه: البزار [٧٢٣٦]، وأبو يعلى [٢٩٢٢]، والروياني [١٣٦٦]، والحاكم [٧٦١٧]، وقال: "صحيح الإسناد" قال الذهبي: "علي بن مسعدة لين" وأخرجه أيضًا: البيهقي في (شعب الإيمان) [٦٧٢٥]. والحديث: قيل: سنده قوي، وقال: ابن الغرس وابن القطان: صحيح. وقيل: ضعيف. انظر: كشف الخفاء (١٤١/٢)، قال ابن القطان في (الوهم والإيهام) (٤١٤/٤): "هو عندي صحيح؛ قال: وعلي بن مسعدة صالح الحديث، قاله: ابن معين، وغرابته هي أن علي ابن مسعدة، ينفرد به عن قتادة -انتهى-". وقد تعقبه الذهبي بقوله: "بل ضعيف، وعلي بن مسعدة فيه نظر" الرد على ابن القطان في كتابه بيان الوهم والإيهام (ص:٥٨-٥٩).

(١) أخرجه أبو داود [٤٨٨٦] بسند صحيح مقطوع إلى قتادة، وقد روي مرفوعًا بسند ضعيف. انظر: نتائج الأفكار، لابن حجر (٤١٦/٢-٤١٧)، الإصابة في تمييز الصحابة (١٩١/٧-١٩٢)، المغني عن حمل الأسفار (ص:١٠٤٧).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الذنب بمنزلة شرب السم، والتوبة ترياقه ودواؤه، والطاعة هي الصحة والعافية" (١).

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، والتَّوْبَةُ مَعْرُوضَةٌ بَعْدُ**» (٢).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأما قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**والتَّوبَة معروضةٌ بَعْدُ**» فظاهر، وقد أجمع العلماء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ على قبول التوبة ما لم يغرغر، كما جاء في الحديث" (٣): عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنَّ الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**» (٤).

وقال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله: «**والتَّوبَة معروضةٌ بَعْدُ**» هذا منه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إرشادٌ لمن وقَعَ في كبيرة، أو كبائرَ، إلى الطريقِ التي بها يتخلَّصُ، وهي: التوبةُ. ومعنى كونها معروضةً، أي: عرَضَهَا الله عَزَّ وَجَلَّ على العباد، حيثُ أمرهم بها، وأوجَبَهَا عليهم، وأخبَرَ عن نفسه أنَّه جَلَّ وَعَلَا يقبلُهَا؛ كلُّ ذلك فَضلٌ من الله عَزَّ وَجَلَّ، ولُطفٌ بالعبد؛ لِمَا عَلِمَ الله جَلَّ وَعَلَا مِن ضَعفِهِ عن مقاومةِ الحواملِ على المخالفاتِ، التي هي: النفسُ والهوَى، والشيطانُ الإنسيُّ والجِنِّيُّ، فلمَّا عَلِمَ الله عَزَّ وَجَلَّ أنَّه يقع في المخالفات، رحمه بِأَن أرشَدَهُ إلى التوبة، فعرَضَهَا عليه وأوجبها، وأخبَرَ بِقَبُولها. وأيضًا: فإنَّه يجبُ على النُصَحاءِ

(١) مدارج السالكين (٣٠٤/١).

(٢) صحيح البخاري [٦٨١٠]، مسلم [٥٧].

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (٤٥/٢).

(٤) أخرجه ابن الجعد في (مسنده) [٣٤٠٤]، وأحمد [٦١٦٠]، وعبد بن حميد [٨٤٧]، وابن ماجه [٤٢٥٣]، والترمذي [٣٥٣٧]، وحسنه، كما أخرجه: أبو يعلى [٥٦٠٩]، وابن حبان [٦٢٨]، والطبراني [١٤١٠٧]، والحاكم [٧٦٥٩]، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي، وأخرجه أيضًا: أبو نعيم في (الحلية) (١٩٠/٥)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٦٦٦١]، والضياء [٢٤٠].

أن يعرضوها على أهل المعاصي ويُعرِّفوهم بها، ويوجبوها عليهم، وبعقوبةِ الله عَزَّوَجَلَّ لِمَن تركها، وذلك كلُّه لطفٌ مُتَّصِلٌ إلى طلوعِ الشمس مِن مغربها، أو إلى أن يُغَرغِرَ العبدُ.

و(بَعدُ): ظرفٌ مبنيٌّ على الضمّ؛ لقطعِهِ عن الإضافة لفظًا، وإرادةِ المضافِ ضِمنًا، ويقابلها (قَبلُ)، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم:٤]" (١).

وحديث: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**» الحديث (٢). قال الإمام النووي رَحِمَهُٱللَّهُ: "هذا الحديث مما اختلف العلماء في معناه، فالقول الصحيح الذي قاله المحققون أن معناه: لا يفعل هذه المعاصي وهو كامل الإيمان، وهذا من الألفاظ التي تطلق على نفي الشيء، ويراد نفي كماله، كما يقال: لا علم إلا ما نفع، ولا مال إلا الإبل، ولا عيش إلا عيش الآخرة. وإنما تأولناه على ما ذكرناه لحديث: أبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وغيره: «**من قال: لا إله إلا الله دخل الجنة وإن زنى وإن سرق**» (٣)، وحديث: عبادة بن الصامت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الصحيح المشهور أنهم بايعوه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على أن لا يسرقوا، ولا يزنوا، ولا يعصوا.. إلى آخره. ثم قال: لهم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن فعل شيئًا من ذلك فعوقب في الدنيا فهو كفارته، ومن فعل ولم يعاقب فهو إلى الله تعالى إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه**» (٤)، فهذان الحديثان مع نظائرهما في (الصحيح) مع قوله الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]، مع إجماع

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١/٢٤٨).

(٢) أخرجه البخاري [٢٤٧٥، ٥٥٧٨، ٦٧٧٢]، ومسلم [٥٧].

(٣) صحيح البخاري [٥٨٢٧]، مسلم [٩٤]. وفي لفظ: «من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة»، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق» وهو في (الصحيحين).

(٤) حديث عبادة أخرجه البخاري [١٨، ٣٨٩٢، ٤٨٩٤، ٦٧٨٤، ٦٨٠١، ٧٢١٣، ٧٤٦٨]، ومسلم [١٧٠٩]. و«وفى»: ثبت على العهد.

أهل الحق على أن الزاني والسارق والقاتل وغيرهم من أصحاب الكبائر غير الشرك لا يكفرون بذلك، بل هم مؤمنون ناقصوا الإيمان إن تابوا سقطت عقوبتهم، وإن ماتوا مصرِّين على الكبائر كانوا في المشيئة، فإن شاء الله عَزَّوَجَلَّ عفا عنهم وأدخلهم الجنة أوَّلًا، وإن شاء عذبهم ثم أدخلهم الجنة" [١].

ونحوه: قول ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (التمهيد) أنه يريد من قوله: «**وهو مؤمن**»: "مستكمل الإيمان، ولم يرد به نفي جميع الإيمان عن فاعل ذلك، بدليل الإجماع على توريث الزاني والسارق وشارب الخمر إذا صلوا للقبلة، وانتحلوا دعوة الإسلام من قرابتهم المؤمنين الذين آمنوا بتلك الأحوال. وفي إجماعهم على ذلك مع إجماعهم على أن الكافر لا يرث المسلم أوضح الدلائل على صحة قولنا: إن مرتكب الذنوب ناقص الإيمان بفعله ذلك، وليس بكافر كما زعمت الخوارج في تكفيرهم المذنبين. وقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ في ارتكاب الكبائر حدودًا جعلها كفارة وتطهيرًا" [٢].

وقال الإمام ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأولى الأقوال بالصواب في تفسير قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾ [النساء:١٧]: قولُ من قال: تأويله: ثم يتوبون قبل مماتهم، في الحال التي يفهمون فيها أمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ونهيَه، وقبل أن يُغلبوا على أنفسهم وعقولهم، وقبل حال اشتغالهم بكرب الحَشْرجة وغمّ الغرغرة، فلا يعرفوا أمر الله ونهيه، ولا يعقلوا التوبة؛ لأن التوبة لا تكون توبة إلا ممن ندمٍ على ما سلف منه، وعزمٍ منه على ترك المعاودة، وهو يعقل الندم، ويختار ترك المعاودة: فأما إذا كان بكرب الموت مشغولا وبغمِّ الحشرجة مغمورًا، فلا إخالُه إلا عن الندم على

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/٤١-٤٢)، وانظر: فتح الباري (١٢/٦٠)، عمدة القاري (١٣/٢٧)، طرح التثريب (٧/٢٦٠).

(٢) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٩/ ٢٤٣-٢٤٤).

ذنوبه مغلوبًا. ولذلك قال من قال: إن التوبة مقبولة، ما لم يغرغر العبد بنفسه [(١)]، فإن كان المرء في تلك الحال يعقل عقلَ الصحيح، ويفهم فهم العاقل الأريب، فأحدث إنابة من ذنوبه، ورجعةً من شروده عن رَبه جَلَّوَعَلَا إلى طاعته، كان إن شاء الله عَزَّوَجَلَّ ممن دخل في وعد الله عَزَّوَجَلَّ، الذي وعد التائبين إليه من إجرامهم ﴿مِن قَرِيبٍ﴾ بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾ و"سماه: قريبًا؛ لأن أمد الحياة قريب؛ لقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ﴾ [النساء:٧٧]. أو قبل أن يشرب في قلوبهم حبَّه، فيطبع عليها، فيتعذر عليهم الرجوع.

و﴿مِن﴾ للتبعيض، أي: ﴿يَتُوبُونَ﴾ في أي جزء من الزمان القريب الذي هو ما قبل أن ينزل بهم سلطان الموت، أو يزين السوء. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾ وعد بالوفاء بما وعد به، وكتب على نفسه بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ فهو يعلم بإخلاصهم في التوبة. ﴿حَكِيمًا ١٧﴾ والحكيم لا يعاقب التائب"[(٢)].

وعد الله عَزَّوَجَلَّ المخلصين في التوبة والإنابة إليه بأنه سيتوب عليهم، ويتجاوز عن سيئاتهم، ويغفر لهم ما قد سلف من ذنوبهم، فقال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾ [النساء:١٧]، وقال في آية أخرى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى:٢٥].

فهؤلاء ﴿يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ﴾، ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾ يتوب الله عَزَّوَجَلَّ عليهم، دون من لم يتب حتى غُلب على عقله، وغمرته حشرجة ميتته، فقال وهو لا يفقه ما يقول: ﴿إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾ [النساء:١٨]، خداعًا لربه جَلَّوَعَلَا، ونفاقًا في دينه. فليست التوبة للذين يعملون السيئات من أهل الإصرار على معاصي الله عَزَّوَجَلَّ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ

---

(١) تقدم حديث: «إنَّ الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر».

(٢) تفسير البيضاوي (٢/٦٥).

ﭐلۡمَوۡتُ﴾، يقول: إذا حشرج أحدهم بنفسه، وعاين ملائكة ربه جَلَّوَعَلَا قد أقبلوا إليه لقبض روحه، ﴿قَالَ﴾ وقد غُلب على نفسه، وحيل بينه وبين فهمه، بشغله بكرب حشرجته وغرغرته: ﴿إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾، يقول: فليس لهذا عند الله عَزَّوَجَلَّ توبة؛ لأنه قال ما قال في غير حال توبة" (١).

فبين أنَّ وقت الاحتضار هو الوقت الذي لا تقبل فيه التوبة، فبقي ما وراء ذلك في حكم القريب.. (٢). فلا يقبل من كافر إيمان، ولا من عاص توبة، إذا تيقن الموت، وذلك حين تساق روحه (٣).

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ﴾ [النساء:١٨] عطف على الذين ﴿يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، وهذا يحتمل وجهين:

أحدهما: أن المراد بهم الذين قرب موتهم، فبين بهذا أن الإيمان لا يقبل من الكافر عند حضور الموت.

والثاني: أن يكون المراد أنَّ الكفار إذا ماتوا على الكفر لا تقبل توبتهم.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ١٨﴾ الإشارة بـ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إلى الفريقين.

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وحضور الموت: معاينة مَلَكِ الموت. بيَّنَ الله عَزَّوَجَلَّ أن التوبة تفوت إذا أُخِّرت إلى ذلك؛ ولذلك لم ينفع إيمان من آمن عند رؤية العذاب"(٤).

قال القاضي أبو محمد ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: واختلف المتأولون في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿مِن قَرِيبٍ﴾ فقال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا والسدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: معنى ذلك: قبل المرض والموت.

---

(١) تفسير الطبري (٨/٩٦-٩٩).

(٢) انظر: الكشاف (١/٤٨٩)، تفسير أبي السعود (٢/١٥٦)،

(٣) انظر: معالم التنزيل (٢/١٨٥)، المفاتيح في شرح المصابيح (٣/١٨٧-١٨٨).

(٤) تفسير الراغب الأصفهاني (٢/١١٤٨-١١٤٩).

وقال أبو مِجْلَز، ومحمد بن قيس، والضحاك، وعكرمة، وابن زيد رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ وغيرهم: معنى ذلك: قبل المعاينة للملائكة والسَّوْق، و[قبل] أن يُغْلَبَ الْمَرْءُ على نَفْسِه.

وروى أبو قلابة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن الله عَزَّوَجَلَّ لما خلق آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فرآه إبليس أجوف، ثم جرى له ما جرى ولعن وأنظر، قال: وعزتك لا برحت من قلبه ما دام فيه الروح، فقال الله عَزَّوَجَلَّ: وعزتي لا أحجب عنه التوبة ما دام فيه الروح.

قال القاضي أبو محمد: فابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ذكر أحسن أوقات التوبة، والجمهور حددوا آخر وقتها.

وقال إبراهيم النخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كان يقال: التوبة مبسوطة لأحدكم ما لم يؤخذ بكظمه.

وروى بشير بن كعب والحسن رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن الله** عَزَّوَجَلَّ **يقبل توبة العبد ما لم يغرغر ويغلب على عقله**»[١].

قال القاضي أبو محمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لأن الرجاء فيه باق، ويصح منه الندم والعزم على ترك الفعل في المستأنف، فإذا غلب تعذرت التوبة؛ لعدم الندم والعزم على الترك، وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿مِن قَرِيبٍ﴾ إنما معناه: ﴿مِن قَرِيبٍ﴾ إلى وقت الذنب، ومدة الحياة كلها قريب، والمبادر في الصحة أفضل، وألحق لأمله من العمل الصالح، والبعد كل البعد الموت[٢].

ومنه قول مالك بن الريب: [الطويل]:

---

(١) تقدم حديث: «إنَّ الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر».

(٢) فالعمر كله قريب، والدنيا كلها قريب، فمن تاب قبل الموت فقد تاب من قريب، ومن مات ولم يتب فقد بعد كل البعد.. كذا قال غير واحد من المفسرين. انظر: لطائف المعارف، لابن رجب (ص:٣٣٥).

*** وأين مكان البعد إلَّا مكانيا (١).

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾﴾ أي: بمن يتوب وييسره هو للتوبة، ﴿حَكِيمًا ﴿١٧﴾﴾ فيما ينفذه من ذلك، وفي تأخير من يؤخر حتى يهلك.

ثم نفى بقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ﴾ الآية: أن يدخل في حكم التائبين من حضره موته وصار في حيز اليأس، وحضور الموت هو غاية قربه، كما كان فرعون حين صار في غمرة الماء والغرق، فلم ينفعه ما أظهر من الإيمان، وبهذا قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وابن زيد رَحِمَهُٱللَّهُ، وجماعة المفسرين.." (٢).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦۖ﴾ [غافر:٨٤-٨٥]، أي: فلم يفدهم إيمانهم وتصديقهم عند معاينة عقاب الله عَزَّوَجَلَّ، وحين نزل بهم العذاب؛ لأنهم صدقوا حين لا ينفع التصديق مصدقًا، وقد مضى حكم الله عَزَّوَجَلَّ فيهم، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ عن فرعون: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةًۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس:٩٠-٩٢].

---

(١) هذا عجز بيت لمالك بن الريب المازني. وصدره: (يقولون لا تبعد وهم يدفنونني***). ديوان مالك بن الريب [٣٨]، (ص:٩٣)، مستل من (مجلة معهد المخطوطات العربية). وانظر: شرح شواهد المغني، للسيوطي (٦٣٠/٢)، الحماسة البصرية (٢٨٠/١)، التذكرة الحمدونية (١٢٩/٨)، جمهرة أشعار العرب (ص:٦١٢).

(٢) المحرر الوجيز (٢٤/٢-٢٥)، وانظر: تفسير القرطبي (٩٢/٥-٩٣).

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ۝٩٠﴾ [آل عمران:٩٠]، أي: إيمانهم عند إشرافهم على الهلاك؛ لأنهم لا يتوبون إلا عند حُضور الموت.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقد دلت هذه الأحاديث على أن من تاب إلى الله عَزَّوَجَلَّ وهو يرجو الحياة، فإن توبته مقبولة منه؛ ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١٧﴾ [النساء:١٧]، فأما متى وقع الإياس من الحياة، وعاين الملك، وحشرجت الروح في الحلق، وضاق بها الصدر، وبلغت الحلقوم، وغرغرت النفس صاعدة في الغلاصم -فلا توبة متقبلة حينئذ"(١).

فلا تقبل عند حضور الموت من العاصين توبة، وليس للكفار رجوع إلى الدنيا، وقد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن تحسرهم على التفريط وفوات التوبة، فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٠٠﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝٥٤ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٥٥ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۝٥٦ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٥٧ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٨﴾ [الزمر:٥٤-٥٨].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ مخبرًا عن حال المجرمين الذين كانوا يستعجلون العذاب: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٠ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ۝٥١﴾ [يونس:٥٠-٥١]، فقد كانوا يطلبون في الدنيا: تعجيل

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/٢٣٨).

العذاب؛ استهزاء، وإمعانًا في العناد؛ إذ إن العذاب الذي يستعجلونه أمر مكروه، لا يلائم الاستعجال، ومحذور لا يطلب إلا على سبيل العناد، ولكنه إذا حلَّ بهم، وعاينوه، آمنوا، وندموا، وتحسروا، في وقت لا ينفع فيه الإيمان، ولا الندم، ولا تقبل فيه التوبة.

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ٣٨ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٣٩﴾ [مريم:٣٨-٣٩]، أي: ما أسمعهم وأبصرهم يوم القيامة حين لا ينفعهم السمع والبصر، فأخبر جَلَّ وَعَلَا أنهم سمعوا حين لم ينفعهم السمع، وأبصروا حين لم ينفعهم البصر.

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٣١﴾ [الأنعام:٣١].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ٤ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٥﴾ [الأعراف:٤-٥]، أي: فما كان قولهم عند مجيء العذاب إلا أن اعترفوا بذنوبهم، وأنهم حقيقون بهذا. قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفي هذه الآية الدلالةُ الواضحة على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قوله: «**ما هلك قوم حتى يُعْذِرُوا من أنفسهم**» (١).

(١) تفسير الطبري (٣٠٤/١٢). والحديث: أخرجه ابن المبارك في (الزهد) [١٢٨]، وابن الجعد في (مسنده) [١٢٨]، وأحمد [١٨٢٨٩] بإسناد حسن، وأبو داود [٤٣٤٧]، والشهاب القضاعي [٨٨٦]. وقوله: «حتى يعذروا». قيل إنه من (أعذر فلان): إذا كثر ذنبه، فكأنه سلب عذره بكثرة اقتراف الذنوب، أو من (أعذر غيره) إذا جعله معذورًا، فكأنهم أعذروا من يعاقبهم بكثرة ذنوبهم، أو من (أعذر) أي: صار ذا عذر. والمعنى: حتى يذنبوا فيعذرون أنفسهم بتأويلات زائغة، وأعذار فاسدة من قبل أنفسهم، ويحسبون أنهم يحسنون صنعًا. قال العلامة الطيبي: والوجه الثالث أنسب بباب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كأن الناهي ينكر عليه ذنبه، وهو يتبرأ من الذنب، ويعذر لنفسه ولإقدامه عليه. شرح الطيبي على مشكاة=

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝١١ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ۝١٢ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ۝١٣ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝١٤ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ۝١٥﴾ [الأنبياء:١١-١٥]. قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ﴾، أي: فما زالوا يرددون تلك الكلمة، وهي قولهم: ﴿يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝١٤﴾.

﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا﴾ أي: حتى أخذتهم السيوف وحصدتهم كما يحصد الزرع بالمنجل، فصاروا ﴿خَٰمِدِينَ ۝١٥﴾، أي: ميتين، فخمدت حركاتهم وأصواتهم، فلم يك ينفعهم ذلك مع مجيء وعيد الله عَزَّوَجَلَّ، ومعاينتهم العذاب.

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣﴾ [ص:٣]، أي: كم أهلك الله عَزَّوَجَلَّ من أمم كانوا ينادون عند معاينة العذاب، ولكن ذلك الوقت ليس وقت توبة، فلا ينفع فيه النداء، فلا ملجأ لهم فيه، ولا مفر، ولا مناص من وقوع أمر الله عَزَّوَجَلَّ بهم، كما حكم الله عَزَّوَجَلَّ بعدم توبة أهل الأرض إذا عاينوا الشمس طالعة من مغربها، فقال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ﴾ [الأنعام:١٥٨].

=المصابيح (٣٢٦٧/١٠). وقال ابن الملك: "هو من (أعذر الرجل): إذا صار ذا ذنب كثير، أي: حتى تكثر ذنوبهم وعيوبهم، فيستوجبوا العقوبة، ويقيموا لمن عاقبهم العذر في ذلك.." مرقاة المفاتيح (٣٢١٩/٨)، وانظر: فيض القدير (٣٠٤/٥).

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٩٧﴾ [الأنبياء:٩٧].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ١٢﴾ [السجدة:١٢]، أي: يقولون ذلك حين لا ينفعهم ولا يجدي عنهم شيئًا، ولو كان هذا في الحياة الدنيا قبل معاينة العذاب، لكان نافعًا لهم ومنقذًا من عذاب الله عَزَّوَجَلَّ.

وتبشر الملائكة في وقت الاحتضار، المجرمين والفجار، بغضب الجبار، وبعذاب النار، كما جاء في تفسير قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجۡرًا مَّحۡجُورًا ٢٢﴾ [الفرقان:٢٢]، أي: هم لا يرون الملائكة في يوم خير لهم، بل يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ لهم. قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وذلك يصدق على وقت الاحتضار حين تبشرهم الملائكة بالنار، وغضب الجبار، فتقول الملائكة للكافر عند خروج روحه: اخرجي أيتها النفس الخبيثة في الجسد الخبيث، اخرجي إلى سموم وحميم، وظل من يحموم. فتأبى الخروج وتتفرق في البدن، فيضربونه، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ [الأنفال:٥٠]. وقال: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ﴾، أي: بالضرب، ﴿أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ ٩٣﴾ [الأنعام:٩٣]؛ ولهذا قال في هذه الآية الكريمة: ﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾، وهذا بخلاف حال المؤمنين في وقت احتضارهم، فإنهم يبشرون بالخيرات، وحصول المسرات. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي

ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ٣١ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ٣٢﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢]" (١).

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح، قالوا: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَة، كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة، وأبشري بروح، وريحان، ورب غير غضبان**»، قال: «**فلا يزال يقال ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء، فيستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقولون: مرحبًا بالنفس الطيبة، كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة، وأبشري بروح، وريحان، ورب غير غضبان**»، قال: «**فلا يزال يقال لها حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله** عَزَّوَجَلَّ، **وإذا كان الرجل السوء، قالوا: اخرجي أيتها النفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة، وأبشري بحميم وغساق، وآخر من شكله أزواج، فلا تزال تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء، فيستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: لا مرحبا بالنفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة، فإنه لا يفتح لك أبواب السماء، فترسل من السماء، ثم تصير إلى القبر**» (٢).

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/١٠١-١٠٢).

(٢) أخرجه أحمد [٨٧٦٩]، وابن ماجه [٤٢٦٢]، وفي (الزوائد) (٤/٢٥٠): "إسناده صحيح رجاله ثقات"، كما أخرجه: البزار [٨٢١٩]، والنسائي في (الكبرى) [١١٣٧٨]. وقد روى ما يقرب منه: الطيالسي [٧٨٩] بسنده، قال: حدثنا أبو عوانة، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن زاذان، عن البراء بن عازب، قال أبو داود: وحدثناه: عمرو بن ثابت، سمعه من المنهال بن عمرو، عن زاذان، عن البراء بن عازب، وحديث: أبي عوانة، أتمهما قال البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: خرجنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جنازة رجل من الأنصار...الحديث. وقد أخرجه أيضًا: الروياني [٣٩٢]، والحاكم [١٠٧].

"وقال آخرون: بل المراد جَلَّوَعَلَا: ﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾ [الفرقان:٢٢]، يعني: يوم القيامة. قاله مجاهد، والضحاك رَحِمَهُمَاٱللَّهُ، وغيرهما.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ: ولا منافاة بين هذا وبين ما تقدم؛ فإن الملائكة في هذين اليومين يوم الممات ويوم المعاد تتجلى للمؤمنين وللكافرين، فتبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان، وتخبر الكافرين بالخيبة والخسران، فلا بشرى يومئذ للمجرمين" (١).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرًاۗ﴾ [الأنعام:١٥٨].

وقد جاء في الحديث: عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها، تاب الله عليه**» (٢).

قال القاضي عياض رَحِمَهُٱللَّهُ: "هذا حد للتوبة جعله الله عَزَّوَجَلَّ، ولها باب يسد عند هذه الآية، كما جاء في الحديث (٣)، وقد جاء في (التفسير) أنه معنى قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا﴾ [الأنعام:١٥٨]" (٤).

وعن أبي موسى رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «**إن الله** عَزَّوَجَلَّ **يبسط يده بالليل؛ ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار؛ ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها**» (٥).

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/١٠٢).

(٢) صحيح مسلم [٢٧٠٣].

(٣) انظر: ما جاء في باب: (بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان) من شرحه لـ: (صحيح مسلم).

(٤) إكمال المعلم بفوائد مسلم (٨/١٩٨).

(٥) صحيح مسلم [٢٧٥٩]، وقد تقدم.

وعن أبي حازم، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت في إيمانها خيرا: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض**» (١).

وعن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**بادروا بالأعمال سِتًّا: طلوع الشمس من مغربها، أو الدخان، أو الدجال، أو الدابة، أو خاصة أحدكم أو أمر العامة**» (٢).

وعن حذيفة بن أسيد الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: اطلع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علينا ونحن نتذاكر، فقال: «**ما تذاكرون؟**»، قالوا: نذكر الساعة، قال: «**إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات**» -فذكر-: «**الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن، تطرد الناس إلى محشرهم**» (٣).

وفي (الصحيحين): عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا رآها الناس آمن من عليها، فذاك حين**: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام:١٥٨]» (٤).

وقد دلت الأحاديث أن المراد ببعض آيات الله عَزَّ وَجَلَّ: طلوع الشمس من مغربها، وأن الناس إذا رأوها آمنوا، فلم ينفعهم إيمانهم، ويُغلق حينئذ بابُ التوبة.

---

(١) صحيح مسلم [١٥٨].

(٢) صحيح مسلم [٢٩٤٧].

(٣) صحيح مسلم [٢٩٠١].

(٤) صحيح البخاري [٤٦٣٥، ٤٦٣٦، ٦٥٠٦، ٧١٢١]، مسلم [١٥٧].

وقيل: إنها إحدى ثلاث: إما طلوع الشمس من مغربها، وإما خروج الدابة، وإما خروج يأجوج ومأجوج.

قال القاضي أبو محمد بن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهذا فيه نظر؛ لأن الأحاديث ترده، وتخصص الشمس" (١)، يعني: باعتبار أنها أول الآيات المؤذنة برفع التوبة، والدالة على قيام الساعة، وتغير نظام العالم، كما جاء في الحديث: عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: حفظت من رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حديثًا لم أَنْسَهُ بَعْدُ، سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إن أول الآيات خروجًا: طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضُحًى، وأيهما ما كانت قبل صاحبتها، فالأخرى على إِثْرِهَا قريبًا**» (٢).

والآيات إما أمارات دالة على قرب الساعة، فأولها: بعث نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو أمارات متوالية دالة على وقوعها، والكلام هنا فيها؛ فإن الكفار يؤمنون في زمن عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أي: أول الآيات التي ليست مألوفة، وإن كان الدجال، ونزول عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ويأجوج قبلها؛ لأنها أمور مألوفة؛ إذ هم مثلهم بشر، مشاهدتهم وأمثالهم معروفة مألوفة، فأما خروج الدابة على شكل غير مألوف، ومخاطبتها الناس، ووسمها إياهم بالإيمان والكفر، فأمر خارج عن مجاري العادات، وذلك أول الآيات الأرضية، كما أن طلوع الشمس من مغربها أول الآيات السماوية؛ فإنها تطلع على خلاف عادتها المألوفة" (٣).

---

(١) المحرر الوجيز (٢/٣٦٧).

(٢) صحيح مسلم [٢٩٤١].

(٣) البداية والنهاية، لابن كثير (١٩/٢٥٤).

وقال العلامة الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فإن قيل: طلوع الشمس ليس بأول الآيات: لأن الدخان، والدجال قبله؟

أجيب: بأن الآيات إما أمارات دالة على قرب قيام الساعة، وإما أمارات دالة على وجود قيام الساعة وحصولها.

ومن الأول: الدخان، وخروج الدجال، ونحوهما.

ومن الثاني: ما نحن فيه من طلوع الشمس من مغربها، والرجفة، وبس الجبال، وخروج النار وطردها الناس إلى المحشر. وإنما سمي أوَّلًا؛ لأنه مبدأ القسم الثاني، ويؤيده حديث: أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بعده: «**لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها**» حيث جعل طلوع الشمس من مغربها غاية لعدم قيام الساعة. قال: وذلك أن الكفار يسلمون في زمان عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حتى تكون الدعوة واحدة، ولو كان طلوع الشمس من مغربها قبل خروج الدجال ونزول عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، لم ينفع الكفار إيمانهم أيام عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ولو لم ينفعهم لما صار الدين واحدًا" (١).

وقال أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله: «**إن أول الآيات خروجًا: طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى**» يعني -والله أعلم-: أول الآيات الكائنة في زمان ارتفاع التوبة والطبع على كل قلب بما فيه؛ لأنَّ ما قبل طلوع الشمس من مغربها التوبة فيه مقبولة، وإيمان الكافر يصح فيه

قال: وإنما كان طلوع الشمس مخصوصًا بذلك؛ لأنَّه أول تغيير هذا العالم العلوي الذي لم يشاهد فيه تغيير منذ خلقه الله عَزَّوَجَلَّ، وإلى ذلك الوقت، وأما ما قبله من الآيات فقد شوهد ما يقرب من نوعه، فإذا كان ذلك وطبع على كل قلب بما فيه من كفر أو

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٣٤٤٩/١١).

إيمان، أخرج الله عَزَّوَجَلَّ الدابة معرفة لما في بواطن الناس من إيمان أو كفر، فتكلمهم بذلك. أي: تعرف المؤمن من الكافر بالكلام، وتسم وجوه الفريقين بالنفح، فينتقش وصفه في جبهته مؤمن أو كافر، حتى يتعارف الناس بذلك، فيقول المؤمن للكافر: بكم سلعتك يا كافر؟ ويقول الكافر: بكذا يا مؤمن، ثم يبقى الناس على ذلك ما شاء الله، ثم يرسل الله عَزَّوَجَلَّ ريحًا باردة من قبل الشام، فلا يبقى أحد على وجه الأرض في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته.." (١).

قيل: وحكمة جعل طلوعها من مغربها آية مقاربة لقيام الساعة: الإيماء إلى قرب طلوع جميع الأرواح من الأبدان. ذكره الْحَرَالِّي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقد قال في تفسير قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة:٢٥٨]، أي: إن الله عَزَّوَجَلَّ بما له من صفات العظمة، والجلال باستجماع صفات الكمال. ﴿يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ﴾، أي: وهو الذي أوجدها ﴿مِنَ ٱلْمَشْرِقِ﴾، أي: في كل يوم من قبل أن توجد أنت بدهور. ﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ ولو يومًا واحدًا. قال الْحَرَالِّي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إظهارًا لمرجع العالم بكليته إلى واحد، وأن قيوم الإنسان في الإحياء والإماتة هو قيوم الآفاق في طلوع الشمس وغروبها، وفي لحنه إشعار بأن الله عَزَّوَجَلَّ، لا بدَّ وأن يأتي بالشمس من المغرب؛ ليكون في ذلك إظهار تصريفه لها حيث شاء، حتى يطلعها من حيث غربت، كما يطلع الروح من حيث قبضت؛ ليكون طلوع الشمس من مغربها آية مقاربة قيام الساعة وطلوع الأرواح من أبدانها" (٢).

ولا ينبغي للعبد المذنب أن يؤخر التوبة؛ فإنه لا يأمن صحة ولا أجلًا، فإذا أخرها فإن كان يؤمل حياة فإن توبته مقبولة -وإن كان قريبًا من الموت- عند جمهور الفقهاء.

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٧/٢٤٢-٢٤٣).

(٢) تراث أبي الحسن الْحَرَالِّي المراكشي في التفسير (ص:٤٤٨-٤٤٩)، وانظر: فيض القدير (٢/٤٤٢)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٤/٥١-٥٢).

وإن كان في حالة يأس من الحياة، قد قطع الأمل عند حضور الموت، وظهور دلائله فقد اختلف في حاله:

وفي المسألة خلاف فقد قيل: إن توبة اليائس مقبولة دون إيمانه، وهو المختار عند الحنفية؛ لأن الرجاء باق ويصح معه الندم، والعزم على الترك (١).

وأيضًا: التوبة تجديد عهد مع الرب جَلَّوَعَلَا، والإيمان إنشاء عهد لم يكن وفرق بين الأمرين. وفي (البزازية): أن الصحيح أنها تقبل بخلاف إيمان اليائس، وإذا قبلت الشفاعة في القيامة وهي حالة يائس، فهذا أولى (٢).

وقالوا: المختار قبول توبة اليائس دون إيمانه؛ لإطلاق قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى:٢٥]، بخلاف الكافر؛ لعدم الإيمان بالغيب؛ لأنه قد شاهد ملائكة العذاب، فيكون الإيمان منه قهريًا بسبب المعاينة (٣).

قال في (جامع الفتاوى): وذكر في بعض كتب الكلام أن توبة اليائس هل تعتبر؟ اختلف فيه، والأصح أنها تعتبر، حتى إن من تاب عن شيء لا يقدر عليه، كالمجبوب يتوب عن الزنا؛ فإنه يعتبر، فليتأمل فيها" (٤).

---

(١) المحرر الوجيز (٢/٢٥)، وقد تقدم قول القاضي ابن عطية، وانظر: روح المعاني (٢/٤٤٩)، تفسير القرطبي (٥/٩٢)، وانظر: البحر الرائق شرح كنز الدقائق (٨/٢٠٥)، لسان الحكام في معرفة الأحكام (ص:٤١٤).

(٢) روح المعاني (٢/٤٤٩). قال الشهاب الخفاجي: "لكن هذه الآية صريحة في خلافه" حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي (٣/١١٦). إلا أن ذلك باعتبار ما قيل في تفسير قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [النساء:١٨]، فقد قيل: ما لم يعاين الملك، أو أيس من الحياة -كما تقرر-.

(٣) حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح (١/٥٦٠).

(٤) غمز عيون البصائر في شرح الأشباه والنظائر (١/٩٥-٩٦).

وقال الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا تقبل؛ فإن الآية دالة على أن من حضره الموت، وشاهد أهواله فإن توبته غير مقبولة، واستدل على ذلك من وجوه.

إلا أنه قال عقب ذلك: قال المحققون: قرب الموت لا يمنع من قبول التوبة، بل المانع من قبول التوبة مشاهدة الأحوال التي عندها يحصل العلم بالله عَزَّوَجَلَّ على سبيل الاضطرار، واستدل على ذلك من وجوه (١).

وقد ذهب الحنفية في المختار -كما تقدم- والحنابلة في المذهب، وبعض المالكية إلى أن المؤمن العاصي تقبل توبته -ولو في حال الغرغرة-، بخلاف إيمان اليائس؛ فإنه لا يقبل لقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى:٢٥].

وقال الحنابلة في قول آخر: تقبل توبته ما دام مكلفًا.

قال في (الفروع): ولنا خلاف هل تقبل التوبة ما لم يعاين الملك أو ما دام مكلفًا أو ما لم يغرغر، أي تبلغ روحه حلقومه؟ قال في (تصحيح الفروع): والأقوال الثلاثة متقاربة، والصواب: تقبل ما دام عقله ثابتًا (٢).

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجل إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله، أي الصدقة أعظم أجرًا؟ قال: «**أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر، وَتَأْمُلُ الغنى، ولا تُمْهِلُ حتى إذا بلغت الحلقوم، قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان**» (٣).

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب (١٠/٨-٩).

(٢) مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى (٤/٤٤٣)، الفروع ومعه تصحيح الفروع (٧/٤٢٩)، دقائق أولي النهى (٢/٤٥٣-٤٥٤)، منار السبيل في شرح الدليل (٢/٣٥).

(٣) صحيح البخاري [١٤١٩]، مسلم [١٠٣٢].

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومعنى: «**بلغت الحلقوم**»: بلغت الروح، والمراد: قاربت بلوغ الحلقوم؛ إذ لو بلغته حقيقة لم تصح وصيته، ولا صدقته ولا شيء من تصرفاته باتفاق الفقهاء" (١).

وقال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فمن تاب قبل أن يغرغر قبلت توبته؛ لأن الروح تفارق القلب عند الغرغرة، فلا يبقى له نية ولا قصد (٢).

قال: وأفضل أوقات التوبة: أن يبادر الإنسان بالتوبة في صحته قبل نزول المرض به؛ حتى يتمكن حينئذ من العمل الصالح؛ ولذلك قرن الله عَزَّوَجَلَّ التوبة بالعمل الصالح في مواضع كثيرة من القرآن الكريم.

وأيضًا فالتوبة في الصِّحة ورجاء الحياة تشبه الصدقة بالمال في الصحة، ورجاء البقاء.

والتوبة في المرض عند حضور إمارات الموت يشبه الصدقة بالمال عند الموت، فكأن من لا يتوب إلا في مرضه قد استفرغ صحته وقوته في شهوات نفسه وهواه، ولذة دنياه، فإذا أيس من الدنيا والحياة فيها تاب حينئذ، وترك ما كان عليه، فأين توبة هذا من توبة من يتوب من قريب، وهو صحيح قوي قادر على عمل المعاصي فيتركها؛ خوفًا من الله عَزَّوَجَلَّ، ورجاء لثوابه، وإيثارًا لطاعته على معصيته؟!" (٣).

قال في (التصحيح): "والقول الثاني: تقبل التوبة ما لم يعاين الملك، وهو قول الحسن ومجاهد رَحِمَهُمَاٱللَّهُ وغيرهما" (٤).

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١٢٣/٧).

(٢) كذا في (التصحيح).

(٣) لطائف المعارف، لابن رجب (٣٣٥/١-٣٣٦)، وانظر: كتاب الفروع ومعه تصحيح الفروع (٤٢٩/٧)، الآداب الشرعية والمنح المرعية (١١١/١)، غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب (٥٨٦/٢).

(٤) تصحيح الفروع (٤٢٩/٧).

وعن صفوان بن عسال رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إن الله** عَزَّوَجَلَّ **جعل بالمغرب بابًا عرضه مسيرة سبعين عامًا للتوبة، لا يغلق ما لم تطلع عليه الشمس من قبله وذلك قول الله** عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام:١٥٨]» (١).

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُٱللَّهُ: "المعنى أن باب التوبة مفتوح على الناس، وهم في فسحة وسعة منها، ما لم تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت انسد عليهم، فلم يقبل منهم إيمان ولا توبة؛ لأنهم إذا عاينوا ذلك، واضطروا إلى الإيمان والتوبة، فلا ينفعهم ذلك، كما لا ينفع المحتضر. ولعله لما رأي أن سد الباب إنما هو من قبل المغرب، جعل فتح الباب أيضًا من ذلك الجانب. وقوله: «**مسيرة سبعين عامًا**» مبالغة في التوسعة، أو تقدير لعرض الباب بمقدار ما يسده من جرم الشمس الطالع من الغرب" (٢).

وقال القاضي عياض رَحِمَهُٱللَّهُ: "هذا حد للتوبة جعله الله عَزَّوَجَلَّ، ولها باب يسد عند هذه الآية، كما جاء في الحديث (٣)، وقد جاء في (التفسير) أنه معنى قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا﴾ [الأنعام:١٥٨]" (٤).

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في (مصنفه) [٧٩٣]، والحميدي في (مسنده) [٩٠٥]، وسعيد بن منصور في (التفسير) [٩٤٠]، وأحمد [١٨٠٩٣]، والترمذي [٣٥٣٦]، وقال: "حسن صحيح"، كما أخرجه: ابن خزيمة [١٩٣]، وابن الأعرابي [١٤٠٧]، وابن حبان [١٣٢١]، والطبراني في (الكبير) [٧٣٥٢]، و(الأوسط) [٣٤٤٦]، والدارقطني [٧٦١]، وأبو نعيم في (الحلية) (٢٨٥/٦)، والبيهقي في (الكبرى) [١٣٤١]، والضياء في (المختارة) [٢٤] بإسناده حسن.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (١٨٥٠/٦).

(٣) انظر: ما جاء في باب: (بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان) من شرحه لـ: (صحيح مسلم).

(٤) إكمال المعلم بفوائد مسلم (١٩٨/٨).

و"ليس معنى هذا الدعوة إلى التسويف بالتوبة، بل هو إخبار عن الواقع في شأن العباد، وأن باب التوبة مفتوح حتى تظهر هذه العلامة التي لا ندري متى تظهر" (١).

فباب التوبة مفتوح لكل استيقظ ضميره، وراجع نفسه، فاستلها من تيه الضلال، بعد الزيغ والشرود، فعمل صالحًا، وندم على ما فات، وعقد مع الله عَزَّوَجَلَّ عهدًا أن لا يحيد عن صراطه المستقيم، وهذا إن كان لا يزال في فسحة الحياة قبل يأتي يوم: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًاۗ﴾ [الأنعام:١٥٨].

فمتى آيس من الحياة، وعاين ملك الموت، وحشرجت الروح في الحلق، فقد فات أوان التوبة...

وقد فصلت القول في (التوبة) في كتاب: (الإرشاد إلى أسباب النجاة).

عاشرًا: ألفاظ المسارعة والمسابقة والمنافسة والمبادرة والسعي:

وقد وردت هذه الألفاظ في الكتاب والسنة في مقام الحثِّ على اغتنام الوقت، والانتفاع من الزمن:

١ – المسارعة:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [آل عمران:١٣٣].

وأما المسارعة فهي من السُرْعَةُ، وهي نقيضُ البطءِ. تقول منه: سَرُعَ سِرَعًا، مثال: صغُر صِغَرًا فهو سريع.

(١) مكفرات الذنوب وموجبات الجنة (ص:٢٣).

والمسارَعَةُ إلى الشيء: المبادرة إليه. وتسرع إلى الشرِّ. سَرْعانَ ذَا خُروجًا، مُثلَّثة السّينِ، أي سَرُعَ ذا خروجًا، نقلت فتحة العين إلى النون؛ لأنه معدول من سَرُعَ فبني عليه. ولسرعان ما صنعت كذا! أي: ما أَسْرَعَ! (١).

٢ – المسابقة:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة:١٤٨].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [التوبة:١٠٠].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون:٦١].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ﴾ [يس:٦٦].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الواقعة:١٠-١١].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الحديد:٢١].

وقد اختلف في التشبيه بالعرض في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، هل هو على حقيقته، أم أنه من قبيل المجاز؟

فقيل: هو على سبيل الحقيقة. والمعنى: لو بسطت السماوات كل واحدة بجانب الأخرى وكذلك الأرض، لكان ما ذكر مماثلًا لعرض الجنة، وأما طولها فلا يعلمه إلا الله عَزَّوَجَلَّ.

وقيل: هو من قبيل المجاز، فيكون كناية عن عظم سعتها.

---

(١) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (سرع) (١٢٢٨/٣-١٢٢٩)، المخصص (٢٦٣/١)، (٢٩٢/٤).

قالوا: وفي العرض وجهان:

الأول: أنه على حقيقته، وتخصيصه بالذكر؛ تنبيهًا على اتساع طولها؛ فإن العرض في العادة أدنى من الطول.

والثاني: أنه مجاز عن السعة والبسطة:

ولم يرد العرض الذي هو خلاف الطول. والعرب تقول: بلاد عريضة، ويقال: هذه دعوى عريضة، أي: واسعة عظيمة. والأصل فيه: أن ما اتَّسعَ عرضه لم يضق، وما ضاق عرضه دقَّ، فجعل العرض كناية عن السَّعة [١].

قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "المراد: وصفها بالسعة والبسطة، فشبهت بأوسع ما علمه الناس من خلقه جَلَّ وَعَلَا وأبسطه" [٢].

قال الشهاب الخفاجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "العرض أقصر الامتدادين، وفي ذكره دون ذكر الطول؛ مبالغة، وزاد في المبالغة بحذف أداة التشبيه، وتقدير المضاف، فليس المقصود تحديد عرضها، حتى يمتنع كونها في السماء، بل الكلام كناية عن غاية السعة بما هو في تصور السامعين، والعرب كثيرًا ما تصف الشيء بالعرض إذا أرادوا وصفه بالسعة.." [٣].

والمسابقة كناية عن المنافسة.

والمسابقة هي المسارعة إلى الشيء. يقال: سابق إلى الشيء مسابقةً وسباقًا، أي: أسرع إليه.

---

(١) انظر: غريب القرآن، لابن قتيبة (ص:١١١-١١٢)، بحر العلوم (٢٤٦/١)، مفاتيح الغيب (٣٦٦/٩)، المحرر الوجيز (٥٠٩/١)، التفسير البسيط (٥٩٢/٥-٥٩٣).

(٢) الكشاف (٤١٥/١).

(٣) حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي (٦٢/٣)، روح المعاني (٢٧١/٢).

وفي الحديث: عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا أنها كانت مع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في سفر قالت: فسابقته فسبقته على رجلي، فلما حملت اللحم سابقته فسبقني، فقال: «**هذه بتلك السبقة**» (١).

وسابق بين الخيل، أي: أجراها؛ ليرى أيهم يسبق والسابق، والسبق الاسم.

وقوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي**» (٢)، أي: غلبت آثار رحمتي على آثار غضبي. قال العلامة التُّورِبِشْتِي رَحِمَهُٱللَّهُ: "المراد من هذا الكلام: بيان سعة الرحمة، وشمولها على الخلق، حتى كأنها السابق والغالب، وهو جار مجرى الاستعارة على مجاز كلام العرب في المبالغة، يقال: غلب فلان المنع، وغلب على فلان العطاء، أي: أن الشيء الموصوف بالغلبة: أكثر أفعاله، وأظهر خصاله، وإنما أولنا الحديث على هذا؛ لأن غضب الله عَزَّوَجَلَّ ورحمته صفتان من صفاته راجعتان إلى إرادته الثواب والعقاب، وصفاته لا توصف إحداهما بالسبق والغلبة على الأخرى" (٣)، فهو إشارة إلى مزيد العناية بعبيده، والإنعام عليهم بغايات الفضل، ونهاية الرفق والمسامحة، وإلى أن مقام الفضل أوسع من مقام العدل (٤).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُٱللَّهُ: "والمراد من الغضب لازمه، وهو إرادة إيصال العذاب إلى من يقع عليه الغضب؛ لأن السبق والغلبة باعتبار التعلق، أي: تعلق الرحمة غالب

---

(١) أخرجه الحميدي [٢٦٣]، وابن أبي شيبة [٣٣٥٨٨]، وأحمد [٢٦٢٧٧]، وابن ماجه [١٩٧٩]، وأبو داود [٢٥٧٨]، واللفظ له، والنسائي في (الكبرى) [٨٨٩٤]، وابن ماجه، وصححه ابن حبان [٤٦٩١]، كما أخرجه الطبراني [١٢٤]، وأبو نعيم في (الحلية) (١٤٠/٤)، والبيهقي في (الكبرى) [١٩٧٥٨]. قال العراقي: "رواه أبو داود، والنسائي في (الكبرى)، وابن ماجه، من حديث: عائشة بسند صحيح".

(٢) صحيح البخاري [٧٥٥٣]، مسلم [٢٧٥١].

(٣) الميسر في شرح مصابيح السنة (٥٤٨/٢)، وانظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٦٨/١٧).

(٤) انظر: فيض القدير (٤٨١/٤).

سابق على تعلق الغضب؛ لأن الرحمة مقتضى ذاته المقدسة، وأما الغضب فإنه متوقف على سابقة عمل من العبد الحادث" (١).

وقال الدماميني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الغضب: إرادة العقاب، والرحمة: إرادة الثواب، والصفاتُ لا توصف بالغلبة، ولا يسبق بعضُها بعضًا، لكن جاء هذا على الاستعارة. ولا يمتنع أن تجعل الرحمة والغضب من صفات الفعل لا الذات، فالرحمة: هي الثواب والإحسان، والغضب: هو الانتقام والعقاب، فتكون الغلبة على بابها؛ أي: إن رحمتي أكثرُ من غضبي، فتأمله" (٢).

وفي (الْمُعْلم): "قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: غضبُ الله عَزَّوَجَلَّ ورضاه يرجعان إلى إرادته لاثابة المطيع ومنفعة العبد، أو عقاب العاصي، فالأول منهما يسمى: رحمة. والثاني يسمى: غضبًا، وإرادة الله عَزَّوَجَلَّ قديمة أزليَّة بها يريد سائر المرادات، فتستحيل فيها الغلبة والسبق، وإنما المراد هاهنا: متعلق الإرادة من النفع والضر، فكان رفقه بالخلق، ونعمه عندهم أغلب من نقمه وسابقة لها، فإلى هذا يرجع معنى الحديث" (٣).

وقوله في ماء الرجل والمرأة: «**فَمِنْ أَيِّهِمَا عَلَا، أو سَبَقَ، يكونُ منه الشَّبَهُ**» (٤).

قال العلماء: يجوز أن يكون المراد بالعلو هنا: السبق. ويجوز أن يكون المراد: الكثرة والقوة بحسب كثرة الشهوة" (٥).

---

(١) فتح الباري (٦/٢٩٢).

(٢) مصابيح الجامع، لبدر الدين الدماميني (٧/٣٨-٩٨).

(٣) المعْلم بفوائد مسلم، لأبي عبد الله المازري المالكي (٣/٣٣٣-٣٣٤)، وانظر: إكمال المعلم (٨/ ٢٥٢).

(٤) صحيح مسلم [٣١١].

(٥) شرح النووي على صحيح مسلم (٣/٢٢٣).

وفي (المفهم): "ويحتمل: أن يقال: إن (من) زائدة على قول بعض الكوفيين: إنها تزاد في الواجب بتقدير: أيهما. ويحتمل أن يكون (أو) شكًّا من أحد الرواة. ويحتمل أن يكون تنويعًا؛ أي: أيَّ نوعٍ كان منهما، كان منه الشبه.

وسبق أي: بادر بالخروج. ويحتمل أن يكون بمعنى: غلب، من قولهم: سابقني فلان فسبقته؛ أي: غلبته، ومنه قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠﴾ [الواقعة:٦٠]، أي: مغلوبين، فيكون معناه: يكثر". وينظر في هذا التفصيل الذي ذكره الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (المفهم) (١).

و(استبقوا إلى كذا)، أي: سابق بعضهم بعضًا.

و(تسابقوا): استبقوا وتخاطروا وتناضلوا

و(السابق): المتقدم في الخير، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١﴾ [الواقعة:١٠-١١].

وقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ العباد بالمسارعة إلى فعل الخيرات، واتقاء المحظورات؛ لنيل القربات، وإدراك جنته التي عرضها الأرض والسماوات، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٣٣﴾ [آل عمران:١٣٣]، فقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ﴾ أي: بادروا وأقبلوا. ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: إلى ما يستحق به العبد المغفرة، كالإسلام، والطاعة، والتوبة، والإخلاص. وقد بين الله عَزَّوَجَلَّ صفات أولئك الذين يستحقون هذه المغفرة، وهذا الإكرام عقب هذه الآية، حيث قال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١/٥٧٠-٥٧٢)، وانظر: مشارق الأنوار، للقاضي عياض، مادة: (سبق) (٢/٢٠٦)، وانظر: الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي (ص:٢٦٩).

يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [آل عمران:١٣٤-١٣٦]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون:٥٧-٦١]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾ [الحديد:٢١]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَاۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر:٣٢]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [الواقعة:١٠-١٢]، والسابقون هم المبادرون إلى فعل الخيرات كما أمروا.

٣ – المنافسة:

وصلتها بالزمن كصلة المبادرة والمسارعة والتسابق من إنها قد وردت في مقام الحثِّ على اغتنام الوقت، والانتفاع من الزمن، وقد وردت كذلك في السنة في مقام الذم، والتنازع على حطام الدنيا.

ومن دأب الصالحين وأصحاب الهمم أنهم يغتنمون الأوقات، ويتنافسون بكثرة الأعمال الصالحة؛ لعلو همتهم، وطهارة نفوسهم، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات:٦١].

وأصل التنافس: التغالب في الشيء النفيس، أي: المرغوب كأن كل واحد من الشخصين يريد أن يستأثر به، وأصله من النفس؛ لعزتها [١].

وشيء نفيس، أي: يُتَنافَسُ فيه ويُرْغَبُ. وهذا أَنْفَسُ مالي، أي: أحبُّهُ وأكرمُهُ عندي. وأنْفَسَني فلانٌ في كذا، أي: رغَّبني فيه. ونَفُسَ الشيء -بالضم- نَفاسَةً، أي: صار نفيسًا مرغوبًا فيه. ونافست في الشيء منافسة ونِفاسًا -بالكسر-: إذا رغبت فيه على وجه المباراة في الكرم، وتنافسوا فيه، أي: رغِبوا [٢].

قال الواحدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "نَفِسْت عليه الشيء أنفسه نفاسهَ: إذا ضننت به ولم تحب أن يصير إليه نفست الشيء أنفسه نفاسة، والتنافس تفاعل منه كأن واحد من الشخصين يريد أن يستأثر به" [٣].

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والتنافس: أن يَنفِس الرجل على الرجل بالشيء يكون له، ويتمنى أن يكون له دونه، وهو مأخوذ من الشيء النفيس، وهو الذي تحرص عليه نفوس الناس، وتطلبه وتشتهيه.." [٤].

وقال الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن مبالغته جَلَّ وَعَلَا في الترغيب فيه تدل على علوِّ شأنه. وفيه إشارة إلى أن التنافس يجب أن يكون في مثل ذلك النعيم العظيم الدائم، لا في النعيم الذي هو مكدر سريع الفناء" [٥].

---

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/٩٥).

(٢) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (نفس) (٣/٩٨٥).

(٣) انظر: التفسير البسيط، للواحدي (٢٣/٣٤١)، تفسير أبي السعود (٩/١٢٨)، روح المعاني (١٥/٢٨٣).

(٤) تفسير الطبري (٢٤/٢٩٩).

(٥) مفاتيح الغيب (٣١/٩٣).

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "المنافسة: مجاهدة النفس للتشبه بالأفاضل، واللحوق بهم من غير إدخال ضرر على غيره. قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦﴾ [المطففين:٢٦]، وهذا كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد:٢١]" (١).

وفسرت المنافسة بالمبادرة إلى كمال تشاهده من غيرك فتنافسه فيه حتى تلحقه، أو تجاوزه فتكون أنفس منه، أو مثله، وهو من شرف النفس، وعلوِّ الهمة، والفرق بينه وبين الحسد ظاهر (٢).

وقد قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة:١٤٨]، [المائدة:٤٨].

و"الاستباق: التسابق، وهو هنا مجاز في المنافسة؛ لأن الفاعل للخير لا يمنع غيره من أن يفعل مثل فعله أو أكثر، فشابه التسابق. ولتضمين فعل (استبقوا) معنى: خذوا، أو ابتدروا، عدي الفعل إلى الخيرات بنفسه وحقه أن يعدى بإلى، كقوله: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد:٢١]" (٣).

والمنافسة في الخير محمودة، وهي تقابل الحسد المذموم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وبين المنافسة والغبطة جمع وفرق، وبينهما وبين الحسد أيضًا جمع وفرق. فالمنافسة تتضمن مسابقة واجتهادًا وحرصًا. والحسد: يدل على مهانة الحاسد وعجزه، وإلا فنافس من حسدته. فذلك أنفع لك من حسده، والغبطة تتضمن نوع تعجب وفرح للمغبوط، واستحسان لحاله" (٤).

---

(١) المفردات في غريب القرآن (ص:٨١٨).

(٢) انظر: حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي (٣٣٧/٨)، حاشيتا القونوي وابن التمجيد على البيضاوي (١٥٦/٢٠).

(٣) التحرير والتنوير (٢٢٤/٦-٢٢٥).

(٤) مدارج السالكين (٤٨/٣).

ونحوه قول الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الذي ينال الإنسانَ بسبب خير يصل إلى غيره على سبيل التمني أن يكون له مثله فهو غبطة، وإذا كان مع ذلك سعي منه أن يبلغ هو مثل ذلك من الخير أو ما هو فوقه فمنافسة، وكلاهما محمودان" (١).

والغبطة والمنافسة في الخير كلاهما محمود. قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اعلم أنه لا حسد إلا على نعمة، فإذا أنعم الله عَزَّوَجَلَّ على أخيك بنعمة فلك فيها حالتان:

إحداهما: أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها، وهذه الحالة تسمى: حسدًا، فالحسد حدُّه: كراهة النِّعمة وحُبُّ زوالها عن المنعم عليه.

الحالة الثانية: أن لا تحبَّ زوالها، ولا تكره وجودها ودوامها، ولكن تشتهي لنفسك مثلها، وهذه تسمى: غبطة، وقد تختص باسم المنافسة، وقد تسمى المنافسة: حسدًا، والحسد: منافسة، ويوضع أحد اللفظين موضع الآخر، ولا حجر في الأسامي بعد فهم المعاني" (٢).

قال أبو بكر بن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فيستحب الغبط في الخير؛ وهو المراد بقوله: صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا حسد إلا في اثنتين**» (٣).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "حكم الحسد بحسب حقيقته، وأما الحسد المذكور في الحديث فهو الغبطة، وأطلق الحسد عليها مجازًا، وهي أن يتمنى أن يكون له مثل ما لغيره من غير أن يزول عنه، والحرص على هذا يسمى: منافسة، فإن كان في الطاعة فهو

---

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة (ص:٢٤٥).

(٢) إحياء علوم الدين (٣/١٨٩).

(٣) أحكام القرآن (١/٥٢٦).

محمود، ومنه: ﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين:٢٦]، وإن كان في المعصية فهو مذموم. ومنه: «**ولا تنافسوا**» (١)، وإن كان في الجائزات فهو مباح" (٢).

وقد قُيِّدَ التباري والتنافس بكونه في صالح الأعمال وفي العلوم النافعة التي يخلص فيها المكلف النية والعمل؛ لأنه كما يكون التنافس في أعمال البرِّ والطاعات، وهو التنافس المحمود، كذلك يكون في الرَّغبة في الدنيا وأسبابها وحظوظها، وهو التَّنافس المذموم.

والمسابقة إلى الأعمال المحصلة للدرجات العالية مطلوبة، وهي تشمل العلم إذا كان خالصًا لله عَزَّوَجَلَّ، والاجتهاد في الطاعات، وأعمال البر والخير، وهذه المنافسة ترتقي بالإنسان في العلم والعمل، كما ترتقي بالأمم في مجالات العلوم، والصناعات، والتقدم الحضاري.

وقال الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أما المنافسة فليست بحرام، وهي مشتقة من النفاسة، والذي يدل على أنها ليست بحرام وجوه:

أولها: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦﴾ [المطففين:٢٦].

وثانيها: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد:٢١]. وإنما المسابقة عند خوف الفوت، وهو كالعبدين يتسابقان إلى خدمة مولاهما؛ إذ يجزع كل واحد أن يسبقه صاحبه، فيحظى عند مولاه بمنزلة لا يحظى هو بها.

---

(١) جاء في الحديث: «وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها» صحيح البخاري [١٣٤٤، ٣٥٩٦، ٤٠٨٥، ٦٤٢٦، ٦٥٩٠]، مسلم [٢٢٩٦]. وفي رواية: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تنافسوا..» الحديث. صحيح مسلم [٢٥٦٣].

(٢) فتح الباري، لابن حجر (١/١٦٧).

وثالثها: قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا حسد إلا في اثنتين، رجل آتاه الله مالًا فأنفقه في سبيل الله، ورجل آتاه الله علمًا فهو يعمل به، ويعلمه الناس**». وهذا الحديث يدل على أن لفظ: (الحسد) قد يطلق على المنافسة.

ثم نقول: المنافسة قد تكون واجبة، ومندوبة، ومباحة، أما الواجبة فكما إذا كانت تلك النعمة نعمة دينية واجبة، كالإيمان، والصلاة، والزكاة، فههنا يجب عليه أن يحب له مثل ذلك؛ لأنه إن لم يحب ذلك كان راضيًا بالمعصية، وذلك حرام.

وأما إن كانت تلك النعمة من الفضائل المندوبة، كالإنفاق في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، والتشمير لتعليم الناس كانت المنافسة فيها مندوبة.

وأما إن كانت تلك النعمة من المباحات كانت المنافسة فيها من المباحات، وبالجملة فالمذموم أن يحب زوالها عن الغير، فأما أن يحب حصولها له وزوال النقصان عنه فهذا غير مذموم، لكن هاهنا دقيقة وهي أن زوال النقصان عنه بالنسبة إلى الغير له طريقان:

أحدهما: أن يحصل له مثل ما حصل للغير.

والثاني: أن يزول عن الغير ما لم يحصل له، فإذا حصل اليأس عن أحد الطريقين فيكاد القلب لا ينفك عن شهوة الطريق الآخر، فههنا إن وجد قلبه بحيث لو قدر على إزالة تلك الفضيلة عن تلك الشخص لأزالها، فهو صاحب الحسد المذموم، وإن كان يجد قلبه بحيث تردعه التقوى عن إزالة تلك النعمة عن الغير فالمرجو من الله عَزَّوَجَلَّ أن يعفو عن ذلك، وقد فصَّل القولَ في ذلك الإمامُ الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الإحياء)[1].

---

(١) وقد أوجز كلامه الفخر الرازي في (التفسير). انظر: مفاتيح الغيب (٣/٦٤٦-٦٤٧)، وانظر: إحياء علوم الدين (٣/١٨٩-١٩٢)، وانظر: عقبات في طريق الهداية، د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان، العقبة الثامنة والعشرون: عقبة الحسـد.

وإنَّ من صور الفساد: التنازع على حطام الدنيا، وما فيها من ملك ومتاع؛ فإن التكالب على الدنيا: سعي إلى غايات دنيونة مهما كانت الوسائل الموصلة إليها دنية، وهو من أسباب التقاتل، وشيوع الفساد، وضياع الحقوق؛ ولذلك حذَّر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه وأمته من التنافس المذموم، وبيَّن عاقبته ومآله، كما في الحديث: عن عقبة بن عامر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج يومًا، فصلى على أهل أحد صلاته على الميت، ثم انصرف إلى المنبر، فقال: «**إني فرط لكم، وأنا شهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض -أو مفاتيح الأرض- وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها**» (١).

وحين أقبل أبو عبيدة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بمال من البحرين، فسمعت الأنصار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ بقدوم أبي عبيدة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فوافت صلاة الصبح مع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما صلى بهم الفجر انصرف، فتعرضوا له، فتبسم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين رآهم، وقال: «**أبشروا وأملوا ما يسركم، فو الله لا الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم**» (٢).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**إذا فتحت عليكم فارس والروم، أي قوم أنتم؟**»، قال عبد الرحمن بن عوف: نقول كما أمرنا الله عَزَّ وَجَلَّ، قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أو غير ذلك، تتنافسون، ثم**

(١) صحيح البخاري [١٣٤٤، ٣٥٩٦، ٤٠٨٥، ٦٤٢٦، ٦٥٩٠]، مسلم [٢٢٩٦].
(٢) صحيح البخاري [٣١٥٨، ٤٠١٥، ٦٤٢٥].

تتحاسدون، ثم تتدابرون، ثم تتباغضون، أو نحو ذلك، ثم تنطلقون في مساكين المهاجرين، فتجعلون بعضهم على رقاب بعض» (١).

وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "«**فتنافسوها**» -بفتح المثناة فيها-، والأصل: فتتنافسوا، فحذفت إحدى التائين.

والتنافس من المنافسة وهي الرغبة في الشيء، ومحبة الانفراد به، والمغالبة عليه، وأصلها من الشيء النفيس في نوعه. يقال: نَافَسْتُ في الشيء مُنَافَسَةً ونَفَاسَةً ونِفَاسًا، ونَفُسَ الشيء -بالضم- نَفَاسَةً صار مرغوبًا فيه، ونَفِسْتُ به -بالكسر-: بخلت، ونَفِسْتُ عليه: لم أره أهلًا لذلك. قوله «**فتهلككم**» أي: لأن المال مرغوب فيه، فترتاح النفس لطلبه، فتمنع منه فتقع العداوة المقتضية للمقاتلة المفضية إلى الهلاك" (٢).

إن الناس كلما انفتحت عليهم الدنيا، وصاروا ينظرون إليها، فإنهم يخسرون من الآخرة بِقَدْرِ ما ربحوا من الدنيا؛ ولذلك قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ**»، يعني: ما أخاف عليكم الفقر، فالدنيا ستفتح. «**وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ**» (٣). وصدق الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالذي أهلكَ الناس اليوم: التنافسُ في الدنيا، وكونهم كأنهم إنما خلقوا لها لا أنها خلقت لهم، فاشتغلوا بما خلق لهم عما خلقوا له.

---

(١) صحيح مسلم [٢٩٦٢].

(٢) فتح الباري، لابن حجر (١١/٢٤٥).

(٣) صحيح البخاري [٤٠١٥، ٦٤٢٥]، مسلم [٢٩٦١].

وقد جاء في الحديث: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا، فَسَلَّطَهُ على هلكته في الحقِّ، ورجل آتاه الله حكمة، فهو يقضي بها ويعلمها**» (١).

وفي رواية: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل، وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالًا، فهو ينفقه آناء الليل، وآناء النهار**» (٢).

قال أبو عُبيد القاسم بن سلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قال الأصمعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يقال في أمثالهم: (لن يزال الناس بخير ما تباينوا، فإذا تساووا هلكوا).

قال أبو عبيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأحسب قولهم: (إذا تساووا هلكوا) لن الغالب على الناس الشر، وإنما يكون الخير في النادر من الرجال؛ لعزته، فإذا كان التساوي فإنما هو في السوء" (٣).

وقال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان: «**لا يزال الناس بخير ما تفاضلوا، فإذا تساووا هلكوا**». معناه: أنهم إنما يتساوون إذا رضوا بالنقص، وتركوا التنافس في طلب الفضائل ودرك المعالي، وقد يكون ذلك خاصًّا في ترك طلب العلم بالجهل، وذلك أن الناس لا يتساوون في العلم؛ لأن درج العلم يتفاوت.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ۝٧٦﴾ [يوسف:٧٦]، وإنما يتساوون إذا كانوا جهالًا.

---

(١) صحيح البخاري [٧٣، ١٤٠٩، ٧١٤١]، مسلم [٨١٦].

(٢) صحيح البخاري [٧٥٢٩]، مسلم [٨١٥].

(٣) الأمثال، لأبي عُبيد (ص:١٣٢).

وفيه وجه آخر: وهو أن يكون أراد بالتساوي التحزب والتفرق, وألا يجتمعوا على إمام، ولا ينقادوا لرئيس، لكن كل واحد منهم يدعي الحق لنفسه، وينفرد برأيه، فإذا فعلوا ذلك هلكوا" (١).

وقد قال بعض أهل العلم: اصحب من ينهضك حاله إلى الكمال، ويدلك على الله عَزَّوَجَلَّ مقاله، واحذر من صحبة من يرضى عن نفسه، ويتبع هواه؛ لأن الصاحب ساحب، والمرء على دين خليله.

قال ابن عطاء الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أصل كل معصية وغفلة وشهوة: الرضا عن النفس، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة: عدم الرضا منك عنها. ولأَن تصحب جاهلًا لا يرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب عالما يرضى عن نفسه، فأي علم لعالمٍ يرضى عن نفسه؟ وأي جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه؟ اهـ"(٢)؛ لأن الجاهل الذي لا يرضى عن حاله لا يبقى جاهلًا، بل يبحث وينقب ويجتهد إلى أن يتحرر من الجهل. والعالم الذي يرضى عن نفسه لا يبقى عالما.

وقال: "الرضا عن النفس أصل جميع الصفات المذمومة، وعدم الرضا عنها أصل الصفات المحمودة، وقد اتفق على هذا جميع العارفين، وأرباب القلوب؛ وذلك لأن الرضا عن النفس يوجب تغطية عيوبها ومساويها، ويصيِّرُ قبيحها حسنًا، كما قيل:

وعَينُ الرضا عن كُلِّ عيبٍ كليلةٌ *** (٣)

---

(١) غريب الحديث، لأبي سليمان الخطابي (٣/٢١٢)، وانظر: شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٠/١٣)، فتح الباري، لابن حجر (١٣/١٦)، التوضيح لشرح الجامع الصحيح (٣٢/٣٠١)، تهذيب اللغة (١٣/٨٤)، النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/٤٢٧).

(٢) انظر: تفسير الثعالبي (٥/٣٢٩)، شرح ابن عباد على الحكم (ص:١٧٣)، البحر المديد (١/٥١٢).

(٣) البيت ينسب لعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر. انظر: ديوان عبد الله بن معاوية (ص:٩٠)، الحيوان (٣/٢٣٦)، عيون الأخبار (٣/١٦)، العقد الفريد (٢/١٩٤)، الأمثال المولدة (ص:٤٠٤)، الحماسة=

وعدم الرضا عن النفس على عكس هذا؛ لأنَّ العبد إذ ذاك يتهم نفسه، ويتطلب عيوبها، ولا يغتر بما يظهر من الطاعة والانقياد، كما قيل في الشطر الأخير:

***كما أنَّ عينَ السُّخط تبدي المساويا (١)

فمن رضي عن نفسه استحسن حالها، وسكن إليها، ومن استحسن حال نفسه، وسكن إليها استولت عليه الغفلة، وبالغفلة ينصرف قلبه عن التفقد والمراعاة لخواطره، فتثور حينئذ دواعي الشهوة على العبد، وليس عنده من المراقبة والتذكير ما يدفعها ويقهرها، فتصير الشهوة غالبة له بسبب ذلك. ومن غلبته شهوته وقع في المعاصي لا محالة. وأصل ذلك رضاه عن نفسه، ومن لم يرض عن نفسه لم يستحسن حالها، ولم يسكن إليها" (٢). وقد فصَّلتُ القول في ذلك في كتاب: (عقبات في طريق الهداية).

٤ – المبادرة:

وهي من الألفاظ المرادفة للمسارعة –كما تقرَّر ذلك في غير موضع–.

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "بدرت إلى الشيء أبدر بُدورًا: أسرعْت إليه، وكذلك بادَرْتُ إليه. وتَبادَرَ القومُ: تسارعوا. وابْتَدَروا السلاحَ: تسارعوا إلى أَخْذه..." (٣).

وقد تقدم ذكر الأحاديث التي تحث على المبادرة إلى العمل الصالح قبل تعذره.

=المغربية (٢/١٢٤٠-١٢٤١)، الحماسة البصرية (٢/٥٥)، الأغاني (١٢/٢١٤، ٢٣٣). ونسب في (التمثيل والمحاضرة) (ص:٣١٠) إلى المتنبي.

(١) والشطر الأول منه: "وعين الرضا عن كل عيب كليلة" كما تقدم.

(٢) شرح ابن عباد على الحكم (ص:١٧٣-١٧٤).

(٣) الصحاح، للجوهري، مادة: (بدر) (٢/٥٨٦-٥٨٧).

٥ – السعي:

"السَّعْي: عَدْوٌ ليس بشديد، وكلُّ عملٍ من خيرٍ أو شَرٍّ فهو السَّعْيُ. يقولون: السّعيُ العملُ، أي: الكسب. والمسْعاة في الكَرَم والجود. والسَّاعي: الذي يُوَلَّى قَبْضَ الصَّدَقات. والجمع: سعاةٌ" (١). وسَعى الرجل يَسْعى سَعْيًا، أي: عدا، وكذلك إذا عمل وكسب. وكل من وَلِيَ شيئًا على قوم فهو ساعٍ عليهم.

وسعى إلى المسجد، وهو يسعى إلى الغاية، وتساعوا إليها، وساعيته: سعيت معه.

ومن المجاز: هو يسعى على عياله: يكسب لهم ويقوم بمصالحهم (٢).

قال ابن قتيبة رَحِمَهُ اللَّهُ: "السَّعي: الإسراع في المشي، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ [القصص:٢٠]، أي: يسرع في مشيه، وهو العدو أيضًا.

والسعي: المشي، قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ [الصافات:١٠٢]، يعني: المشي، ويقال: المعاونة له على أمره.

وقال: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة:٩] أي: امشوا. وقرأ بعض السلف: (فامضوا إلى ذكر الله).

وقال: ﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ [البقرة:٢٦٠]، أي: مشيًا، كذلك قال بعض المفسرين.

والسَّعي: العمل، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ١٩﴾ [الإسراء:١٩].

وقال: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ [الإسراء:١٩] أي: عمل لها عملها.

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْاْ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ﴾ [الحج:٥١]، أي: جدُّوا في ذلك.

---

(١) العين، مادة: (سعى) (٢/٢٠٢).

(٢) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (سعى) (٢٣٧٧/٦).أساس البلاغة (٤٥٦/١).

وقال: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾ [الليل:٤]، أي: عملكم لشتَّى، أي: مختلف. وأصل هذا كله: المشي والإسراع فيه" [(١)].

والسَّعْيُ: الْقَصْد، وبذلك فُسِّر قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة:٩]، وليس من السَّعْيِ الذي هو العدو

وقرأ ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (فامضوا إلى ذكر الله) [(٢)]. قال الفراء رَحِمَهُ اللَّهُ: "والمضي والسعي والذهاب في معنى واحد؛ لأنك تقول للرجل: هو يسعى في الأرض يبتغي من فضل الله عَزَّ وَجَلَّ، وليس هذا باشتداد" [(٣)].

وقال الزجاج رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ معناه: فاقصدوا إلى ذكر الله، وليس معناه العدو.

وقرأ ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (فامضوا إلى ذكر الله)، وقال: لو كانت فاسعوا لسعيت حتى يسقط ردائي.

وكذلك قرأ أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (فامضوا) .

وقد رويت عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولكن اتباع المصحف أولى، ولو كانت عند عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (فامضوا) لا غير، لغيَّرها في المصحف.

---

(١) تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة (ص: ٢٧٤- ٢٧٥).

(٢) قالوا: وهذا تفسير للسعي، وهو بخلاف السعي في قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذا نودي للصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون» -كما سيأتي-.

(٣) معاني القرآن، للفراء (٣/١٥٦).

والدليل على أن معنى السعي: التصرف في كل عمل: قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝﴾ [النجم:٣٩-٤٠]، فلا اختلاف في أن معناه: وأن ليس للإنسان إلا ما عمل" [١].

وقد قيل: لعل من قرأ: (فامضوا) أراد التفسير، ومن سمعه ظنَّ أنه قرآن [٢].

وقال أبو عبيدة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ معناه: أجيبوا، وليس من العدو" [٣].

قال الأزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقد يكون السعي بمعنى: العدو في كلام العرب، ومنه قول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون، ولكن ائتوها تَمْشُون، وعليكم السكينة، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا**» [٤] فالسعي في هذا الحديث العدو" [٥].

والسعي -كما تقدم-: التصرف في كل عمل السعي، فهو لفظ عام يتناول السعي في الخير، والسعي في الشر:

أ. وقد جاء لفظ: السعي على العموم في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝﴾ [طه:١٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ۝﴾ [النجم:٣٩-٤١].

---

(١) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (١٧١/٥-١٧٢).

(٢) تفسير الراغب الأصفهاني (١١٣٦/٣).

(٣) مجاز القرآن، لأبي عبيدة (٢٥٨/٢).

(٤) صحيح البخاري [٩٠٨]، مسلم [٦٠٢].

(٥) تهذيب اللغة (٥٨/٣).

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾﴾ [النازعات:٣٤-٣٥].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾﴾ [الليل:٤].

ب. مجيء لفظ: (السعي) مقيدًا بالإفساد والشر:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [البقرة:١١٤].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ﴾ [البقرة:٢٠٥].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٤].

ج. مجيء لفظ: (السعي) مقيدًا بالخير والصلاح:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء:١٩].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَـٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنبياء:٩٤].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإنسان:٢٢].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾﴾ [الغاشية:٨-٩].

المبحث الثالث:
التجوز في الأفعال في قصص القرآن وكلام الله عَزَّوَجَلَّ

أولًا: وقوع الماضي موقع المستقبل في كلام الله عَزَّوَجَلَّ:

خصَّ كثير من الباحثين تعريف القصة في القرآن بما يقع في الزمن الماضي.

ولا يستقيم هذا في كلام الله عَزَّوَجَلَّ؛ قصة كان أم خبرًا أم حديثًا؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ هو خالق الزمان والمكان، والعالم بما كان وبما هو كائن، فيخبر في كتابه عما وقع للأمم السالفة من الهلاك وخراب الديار جزاء كفرهم بنعم الله عَزَّوَجَلَّ، وإعراضهم عن آياته.

وفي القرآن الكريم يقع الماضي موقع المستقبل في مواضع كثيرة، ومن الآيات ما يذكر فيها أكثر من خبر مع اتصال تلك الأخبار، وورودها في سياق واحد، ودلالتها على معنى مشترك. ومن ذلك: ذكر أحوال أهل الجنة النار والأعراف متعاقبة، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُواْ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ

تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍۚ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأعراف:٤٣-٥١].

فلا ريب أن الآيات السابقة تضمنت أكثر من خبر، وهي أخبار متصلة –كما هو بين–.

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُمۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَۚ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سبأ:٣١-٣٣].

ففي الآيات: ذكر عدم إيمان أولئك، ثم الإرداف ببيان سبب ذلك الكفر من خلال ذلك الحوار، ثم ذكر العاقبة.

ومن ذلك: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة:١١٦-١١٨].

ومن الإخبار الذي وقع فيه الماضي موقع المستقبل: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ الآية [إبراهيم:٢١].

قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وإنما جيء به بلفظ الماضي؛ لأنَّ ما أخبر به جَلَّوَعَلَا لصدقه كأنه قد كان ووجد" (١).

ومن ذلك: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَـٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَـٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ⑧﴾ [الطلاق:٨]، فالمراد: حساب الآخرة وعذابها ما يذوقون فيها من الوبال ويلقون من الخسر. قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وجيء به على لفظ الماضي، كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف:٤٤]، ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف:٥٠]، ونحو ذلك؛ لأنَّ المنتظر من وعد الله عَزَّوَجَلَّ ووعيده مُلْقًّى في الحقيقة، وما هو كائن فَكَأَنْ قد" (٢).

---

(١) الكشاف (٥٤٨/٢).

(٢) الكشاف (٥٦٠/٤). وفي نسخة: (فكأن قد كان)، قال العلامة الطيبي: "وفي بعض النسخ: (فكأن قد) بلا (كان). قال: بلغ الوليد بن عبد الملك أن سليمان بن عبد الملك تمنى موته لما له من بعده العهدة، فكتب الوليد إليه يعاتبه على ما بلغه، وكتب في آخر الكتاب: (تمنى رجال أن أموت وإن أمت*** فتلك سبيل لست فيها بأوحد)، (وقد علموا لو ينفع العلم عندهم***لئن مت ما الداعي علي بمخلد)، (فقل للذي يبغي خلاف الذي مضى***فهيئ لأخرى مثلها فكأن قد)" حاشية الطيبي على الكشاف (٤٨٣/١٥)، مع اختلاف في نسبة هذه الأبيات. انظر: عيون الأخبار، لابن قتيبة الدينوري (١٣١/٣)، الاختيارين، للأخفش الصغير (ص:١٦١-١٦٢)، الجليس الصالح، للنهرواني (ص:٦٧٣)، البصائر والذخائر، لأبي حيان التوحيدي (٦٤/٨)، حياة الحيوان الكبرى، للدميري (٤٦/١)، زهر الأكم في الأمثال والحكم، لليوسي (١٧٥/١-١٧٦).

قال أبو عبد الله القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فعبر عن المستقبل بلفظ الماضي؛ لأنه لتحقيق أمره وظهور برهانه كأنه قد وقع، وإخبار الله عَزَّوَجَلَّ في الماضي والمستقبل سواء؛ لأنه آت لا محالة" (١).

ومن ذلك: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ﴾ [الأعراف:٤٣].

فقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَنَزَعْنَا﴾ جاء بلفظ الماضي وهو مستقبل؛ لتحقق وقوعه في المستقبل، حتى عبر عنه بما يعبر به عن الواقع.

قال الخطيب القزويني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (تلخيص المفتاح): "(ومنه) أي: من خلاف مقتضى الظاهر: (التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي؛ تنبيهًا على تحقق وقوعه، نحو: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر:٦٨]. ومثله: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝٦﴾ [الذاريات:٦]، ونحوه: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ [هود:١٠٣]" (٢).

---

(١) تفسير القرطبي (٦/٣٧٥)، (١٠/٦٥).

(٢) انظر: تلخيص المفتاح (ص:٩٩)، طبعة دار الفكر العربي، القاهرة، الإيضاح (٢/٩٦-٩٧)، مختصر المعاني (ص:٨١).

ثانيًا: أوجه التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي وعكسه:

يعبر عن المستقبل بلفظ الماضي وعكسه، ويتحصل من ذلك الأوجه التالية:

١ - التعبير عن المستقبل بالماضي مرادًا به المضي على التحقيق أو المستقبل على القول المرجوح.

٢ - التعبير عن المستقبل بالماضي مرادًا به المستقبل.

٣ - التعبير عن المستقبل باسم الفاعل واسم المفعول.

٤ - التعبير عن الماضي بلفظ المضارع.

٥ - وقد يعبر عن الحاضر بالمستقبل مرادًا به: الحاضر؛ تنزيلًا لما سيقع منزلة ما وقع -كما سيأتي-.

قال الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي: "ويغلب ذلك فيما إذا كان مدلول الفعل من الأمور الهائلة المهددة المتوعد بها، فيعدل فيه إلى لفظ الماضي تقريرًا وتحقيقًا؛ لوقوعه كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل:٨٧]" (١).

قال الشيخ ضياء الدين ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فإنه إنما قال: ﴿فَفَزِعَ﴾ بلفظ الماضي بعد قوله: ﴿يُنفَخُ﴾ وهو للمستقبل؛ للإشعار بتحقيق الفزع وثبوته، وأنه كائن لا محالة، واقع على أهل السماوات والأرض؛ لأن الفعل الماضي يدل على وجود الفعل، وكونه مقطوعًا به.

ومن ذلك: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ﴾ [الزمر:٦٨].

وقوله: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم:٢١].

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٣/٣٧٢).

قال الشيخ ضياء الدين ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ فـ: ﴿وَبَرَزُواْ﴾ بمعنى: يبرزون يوم القيامة، وإنما جيء بلفظ الماضي؛ لأن ما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ به؛ لصدقه وصحته كأنه قد كان ووجد" (١).

ومن ذلك: قوله ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ [الكهف:٤٧]، أي: نحشرهم.

وقوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا﴾ [الأعراف:٤٨].

ثم تارة يجعل المتوقع فيه كالواقع فيؤتى بصيغة الماضي مرادًا به المضي؛ تنزيلًا للمتوقع منزلة ما وقع، فلا يكون تعبيرًا عن المستقبل بلفظ الماضي، بل جعل المستقبل ماضيًا؛ مبالغة. ومنه: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل:١]، ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف:٤٤] ونحوه" (٢).

قال الشيخ ضياء الدين ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾: ﴿أَتَىٰٓ﴾ هاهنا بمعنى: (يأتي)، وإنما حسن فيه لفظ الماضي؛ لصدق إتيان الأمر ودخوله في جملة ما لا بد من حدوثه ووقوعه، فصار (يأتي) بمنزلة: قد أتى ومضى.

وكذلك قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ [الكهف:٤٧]؛ فإنه إنما قال: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ ماضيًا بعد: ﴿نُسَيِّرُ﴾، ﴿وَتَرَى﴾ وهما مستقبلان؛ للدلالة على

(١) انظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (١٦/٢)، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور (ص:١٠٤).

(٢) البرهان في علوم القرآن (٣٧٢/٣).

أن حشرهم قبل التسيير والبروز؛ ليعانوا تلك الأحوال، كافة، قال: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ قبل ذلك" [١].

وقد يعبر عن المستقبل بالماضي مرادًا به المستقبل فهو مجاز لفظي، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ﴾ [النمل:٨٧]، فإنه لا يمكن أن يراد به المضي لمنافاة ﴿يُنفَخُ﴾ الذي هو مستقبل في الواقع.

وفائدة التعبير عنه بالماضي: الإشارة إلى استحضار التحقق، وأن من شأنه؛ لتحققه: أن يعبر عن بالماضي وإن لم يرد معناه.

والفرق بينهما: أن الأول مجاز، والثاني لا مجاز فيه إلا من جهة اللفظ فقط"[٢].

وقد أبان القول في ذلك ووضحه الشيخ بهاء الدين السبكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث قال: "واعلم أن ما ورد من ذلك على قسمين:

١ - تارة يجعل المتوقع فيه كالواقع، فيؤتى بالأمر المستقبل بصيغة الفعل الماضي مرادًا به المضي؛ تنزيلًا للمتوقع منزلة ما وقع فلا يكون تعبيرًا عن المستقبل بلفظ الماضي، بل يكون فيه جعل المستقبل ماضيًا، ومنه قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل:١]، ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف:٤٤] ونحوه.

فإما أن يريد بـ: ﴿أَتَىٰٓ﴾: أتت مقدماته، فيكون التجوز حصل فى الفعل باعتبار الحدث لا باعتبار الزمان، وإما أن يريد بالادعاء أن الإتيان المستقبل وقع في الماضي، وهو أبلغ من الأول.

---

(١) انظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (١٦/٢)، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور (ص:١٠٤-١٠٥).

(٢) البرهان في علوم القرآن (٣٧٢/٣-٣٧٣).

٢ – وتارة يعبر عن المستقبل بالماضي مرادًا به المستقبل فهو مجاز لفظي.

وحصل التجوز فى هيئة الفعل من غير أن تكون أردت وقوعه في الماضي، وذلك احتمال مرجوح في نحو: ﴿وَنَادَىٰٓ﴾ وإن كان مشهورًا؛ فإن المعنى على الأول أمكن وأنصع.

ويتعين للقسم الثاني نحو: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ﴾ [النمل:٨٧] لا يمكن أن يراد به المضى لمنافاة ﴿يُنفَخُ﴾ الذي هو مستقبل فى الواقع فى الإرادة، ويحتمل أن يراد أنهم لمبادرتهم النفخ بالصعق كأن صعقهم ماض عن زمن النفخ على سبيل المبالغة، ونظير الآية الكريمة قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ﴾ [الشورى:٤٤] وفي مثل هذا النوع يكون فائدة التعبير بالماضي: الإشارة إلى استحضار التحقق، وأنه من شأنه لتحققه أن تعبر عنه بالماضي، وإن لم ترد معناه، والقسم الأول مجاز، وهذا القسم ليس فيه مجاز إلا من جهة اللفظ فقط.

ثالثًا: التعبير عن المستقبل باسم الفاعل واسم المفعول:

وقال الشيخ ضياء الدين بن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومما ينخرط في هذا السلك: الإخبار باسم المفعول عن الفعل المضارع، فمن ذلك قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ١٠٣﴾ [هود:١٠٣]؛ فإنه إنما آثر اسم المفعول هاهنا على الفعل المضارع؛ لما فيه من الدلالة على ثبات معنى الجمع لليوم؛ فإنه لا بد من أن يكون ميعادًا مضروبًا يجمع الناس، وأنه موصوف بهذه الصفة، وإن شئت فوازن بينه وبين قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ [التغابن:٩]، فإنك تعثر على صحة ما قلت" (١).

---

(١) انظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (٢/١٦)، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور (ص:١٠٥).

وأصل هذا كله مأخوذ من (الكشاف). وقد أشار إلى ذلك الأستاذ الدكتور محمد أبو موسى في (البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ).

وقال الشيخ بهاء الدين السبكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومثل التعبير عن المستقبل بغير لفظه: اسم الفاعل واسم المفعول باعتبار المستقبل، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَاقِعٌ ۝٦﴾ [الذاريات:٦]، وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ۝١٠٣﴾ [هود:١٠٣]؛ فإن اسم الفاعل ليس حقيقة للاستقبال فهو من خلاف المقتضى (قلت): وهذا ليس مثل ما سبق فإن فيه التعبير عن المستقبل بما يدل على الحال لا بما هو للمضى، فيحمل كلام المصنف على أنه مثله فى التعبير عن المستقبل بغيره لا بالمضي؛ فإن اسم الفاعل حقيقة فى الحال اتفاقًا، مجاز فى المضي على الصحيح، والقسمان السابقان في الفعل يأتيان فى اسم الفاعل، قد يقصد به الاستقبال، وقد يقصد به وقوع الفعل في الحال أو في الماضي" (١).

رابعًا: التعبير عن الماضي بلفظ المضارع:

فهذا بيان من تقدم من التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي، وقد يكون عكس هذا فيعبر عن المعنى الماضي بلفظ المضارع؛ إحضارًا للصورة العجيبة، وإشارة لتجدده شيئًا فشيئًا، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [فاطر:٩]، أي: فأثارت، وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ [البقرة:١٠٢]، كذا في (مواهب الفتاح) (٢).

---

(١) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح (١/٢٨٧-٢٨٨).

(٢) مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح (١/٢٩٨).

قال الشيخ ضياء الدين ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اعلم أن الفعل المضارع إذا أتي به في حال الإخبار عن وجود الفعل كان ذلك أبلغ من الإخبار بالفعل الماضي؛ وذلك لأن الفعل المضارع يوضح الحال التي يقع فيها، ويستحضر تلك الصورة حتى كأن السامع يشاهدها، وليس كذلك الفعل الماضي، فمما جاء: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩﴾ [فاطر:٩]، فإنه إنما قيل: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ مضارعًا، وما قبله وبعده ماض، لذلك المعنى الذي أشرنا إليه، وهو حكاية الحال التي يقع فيها إثارة الريح السحاب، واستحضار تلك الصورة البديعة، الدالة على القدرة الباهرة، وهكذا يفعلون بكل فعل فيه نوع تمييز وخصوصية، بحال تستغرب، أو تهم المخاطب، أو غير ذلك". وقد فصل ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (المثل السائر) ما أجمله من القول في (الجامع الكبير) [(١)].

١ - ثم إن التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي وعكسه يحتمل أن يكون من المجاز المرسل والعلاقة: ما بينهما من التضاد؛ لأن الضد أقرب خطورًا بالبال عند ذكر ضده، فبينهما شبه المجاورة؛ لتقارنهما غالبًا في الخيال.

لكن هذا الاحتمال لا يفيد المبالغة المقصودة، وهي الإشعار بتحقق الوقوع، وأن هذا المستقبل كالماضي؛ لأن المجاز المرسل لما كانت الدلالة فيه انتقالية لم يكن فيه أبلغية، وإنما هو كدعوى الشيء ببينة على ما سيأتي.

٢ - ويحتمل أن يكون من مجاز التشبيه، ووجه الشبه: تحقق الوقوع فى كل منهما، بالنسبة للتعبير عن المعنى الاستقبالي بالماضي.

---

(١) انظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (١٢/٢)، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور (ص:١٠٢).

وأما وجه الشبه فى عكسه فهو كون كل نصب العين مشاهدًا، وهو في الماضي أظهر؛ لبروزه إلى الوجود، وهذا الاحتمال يفيد المبالغة السابقة.

فقول الخطيب القزويني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي؛ تنبيهًا على تحقق وقوعه...) يشير إلى أن التعبير عن المستقبل بالماضي على وجه الاستعارة بسبب تشبيه المستقبل بالماضي في تحقق الوقوع، وهذا وإن كان من وظيفة البيان، لكن من حيث إن الداعي إليه التنبيه المذكور من وظيفة علم المعاني، ولا يخفى أن الاستعارة في الفعل بتبعية استعارة المصدر، كما هو مشهور إن قلت: إن مصدر الماضي والمستقبل واحد، فكون الاستعارة تبعية يؤدي إلى تشبيه الشيء بنفسه قلنا: يختلف المصدر بالتقيد بالماضي والاستقبال، لكن لا يخفى أن هذا استعارة في المشتق باعتبار الهيئة، ولم يذكره القوم في مباحث الاستعارة -كما ذكر الشيخ السيالكوتي رَحِمَهُ ٱللَّهُ- لكن قواعدهم لا تأباه -كما ذكر الشيخ الدسوقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (حاشيته على مختصر المعاني)" [(١)].

خامسًا: التعبير عن الحاضر بالمستقبل:

التعبير عن الحاضر بالمستقبل مرادًا به: الحاضر؛ تنزيلًا لما سيقع منزلة ما وقع، كما في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر:٣٠]، "أي: إنك وإياهم، وإن كنتم أحياء فأنتم في عداد الموتى؛ لأن ما هو كائن فكأن قد كان" قاله الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ [(٢)].

ونحوه: قول ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (شرح التسهيل): "المعنى على قراءة الجماعة: وإنك وإياهم وإن كنتم أحياء فأنتم في عداد الموتى؛ لأن ما هو كائن فكأن قد كان،

---

(١) حاشية الدسوقي على مختصر المعاني (١/٧٤٥-٧٤٦)، مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح (١/٢٩٨-٢٩٩)، وانظر: حاشية السيالكوتي على كتاب المطول (ص:٢٣٨).

(٢) الكشاف (٤/١٢٧).

وهذا شبيه بـ: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النحل:١]" (١)، أي: تنزيلًا لمتحقق الوقوع منزلة ما وقع؛ مبالغة وتأكيدًا. وقوله: (وهذا شبيه)، أي: يشبهه من حيث التعبير عن المستقبل بغير لفظه، والفرق بينهما: أن أحدهما للحاضر، والآخر للماضي.

و"عن قتادة: نعى إلى نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نفسه، ونعى إليكم أنفسكم. وقرئ: مائت ومائتون. والفرق بين الميت والمائت: أن الميت صفة لازمة، كالسيد.

وأما المائت، فصفة حادثة. تقول: زيد مائت غدًا، كما تقول: سائد غدًا، أي: سيموت وسيسود.

وإذا قلت: زيد ميت، فكما تقول: حي في نقيضه، فيما يرجع إلى اللزوم والثبوت" اهـ.

فتبين أن ﴿مَيِّتٌ﴾: صفة مشبهة، وهي تدل على الثبوت، ففيها: إشعار بأن حياتهم عين الموت، وأن الموت طوق في العنق لازم.

و(مائت): اسم فاعل، وهو يدل على الحدوث، فلا يفيد هنا مع القرينة أكثر من أنهم سيحدث لهم الموت، كما أفاده العلامة الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢).

قال ابن المنير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فاستعمال (ميت) مجاز؛ إذ الخطاب مع الأحياء، واستعمال (مائت) حقيقة؛ إذ لا يعطي اسم الفاعل وجود الفعل حال الخطاب. ونظيره قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾ [الزمر:٤٢]، يعني: توفي الموت. ﴿وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ﴾ [الزمر:٤٢]، أي: يتوفاها حين المنام؛ تشبيهًا للنوم بالموت، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ﴾ [الأنعام:٦٠]. ﴿فَيُمۡسِكُ﴾ [الزمر:٤٢]: الأنفس التي قضى عليها الموت

(١) شرح تسهيل الفوائد (١٠٣/٣).

(٢) انظر: روح المعاني (٢٥٢/١٢).

الحقيقي، أي: لا يردها في وقتها حية. ﴿وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾ [الزمر:٤٢] أي: النائمة إلى الأجل الذي سماه، أي: قدره لموتها الحقيقي. هذا أوضح ما قيل في تفسير الآية.." [(١)].

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن اسم الفاعل حقيقة عند بقاء ما اشتق منه اسم الفاعل، والمختار أن استعماله فيما مضى مجاز، وأما استعماله في المستقبل عند الأصوليين فمجازٌ بلا خلاف" [(٢)].

والحاصل أن التقسيم الآنف الذكر يحرر المسألة في الحكم على القصة في القرآن الكريم واختلاف القول فيها عن القصة في غير كلام الله عَزَّوَجَلَّ.

كما أن التقسيم الآنف الذكر يبرز نكتة الاستعمال في كل موضع.

سادسًا: اعتبار مجيء التجوز بالأفعال مقيدًا بالشرط، أو غير مقيد:

وقد أورد تلك الأفعال بهذا الاعتبار الإمام عز الدين بن عبد السلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ وقد آثرت ذكر الأقسام التي أوردها؛ لاستقلالها وتميزها من حيث اعتبار كونها مقيدة بالشرط أو غير مقيدة، فقد فصَّل في كتابه: (الإشارة إلى الإيجاز)، القول في التجوز في الأفعال، مع ملاحظة مجيء تلك الأفعال مقيدة بالشرط، وما يجيء في غيره. وقد نقل ذلك التقسيم عنه ابنُ النقيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (مقدمة تفسيره).

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأما الأفعال فالتجوز فيها أنواع:

أحدها: التجوز بالماضي عن المستقبل؛ تشبيهًا له في التحقق، وذلك في الشرط وجوابه، وفي غيرهما.

---

(١) الكشاف مع حاشية ابن المنير (١٢٧/٤).

(٢) حاشية الطيبي على الكشاف (٣٨١/١٣)، حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي (٣٣٧/٧)، حاشيتا القونوي وابن التمجيد على البيضاوي (٥٢٣/١٦).

وأكثر ما يكون هذا في الشروط وأجوبتها، وقد يجيء في غيرها.

١ – مثاله في غير الشرط: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:١١٦]، وقوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَعْرَافِ﴾ [الأعراف:٤٨]، وقوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف:٤٤]، وقوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف:٥٠].. وأمثاله في القرآن كثير.

٢ – وأما مثاله في الشرط: فقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة:٢٣]، معناه: وإن تكونوا في ريب. وكقوله: ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [التوبة:٣]، معناه: وإن تتوبوا فهو خير لكم.

وكقوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ [يونس:٩٤]، معناه: فإن تك في شك. وكذلك قوله: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس:٨٤]، معناه: إن تكونوا مؤمنين بالله عَزَّوَجَلَّ فعليه توكلوا.

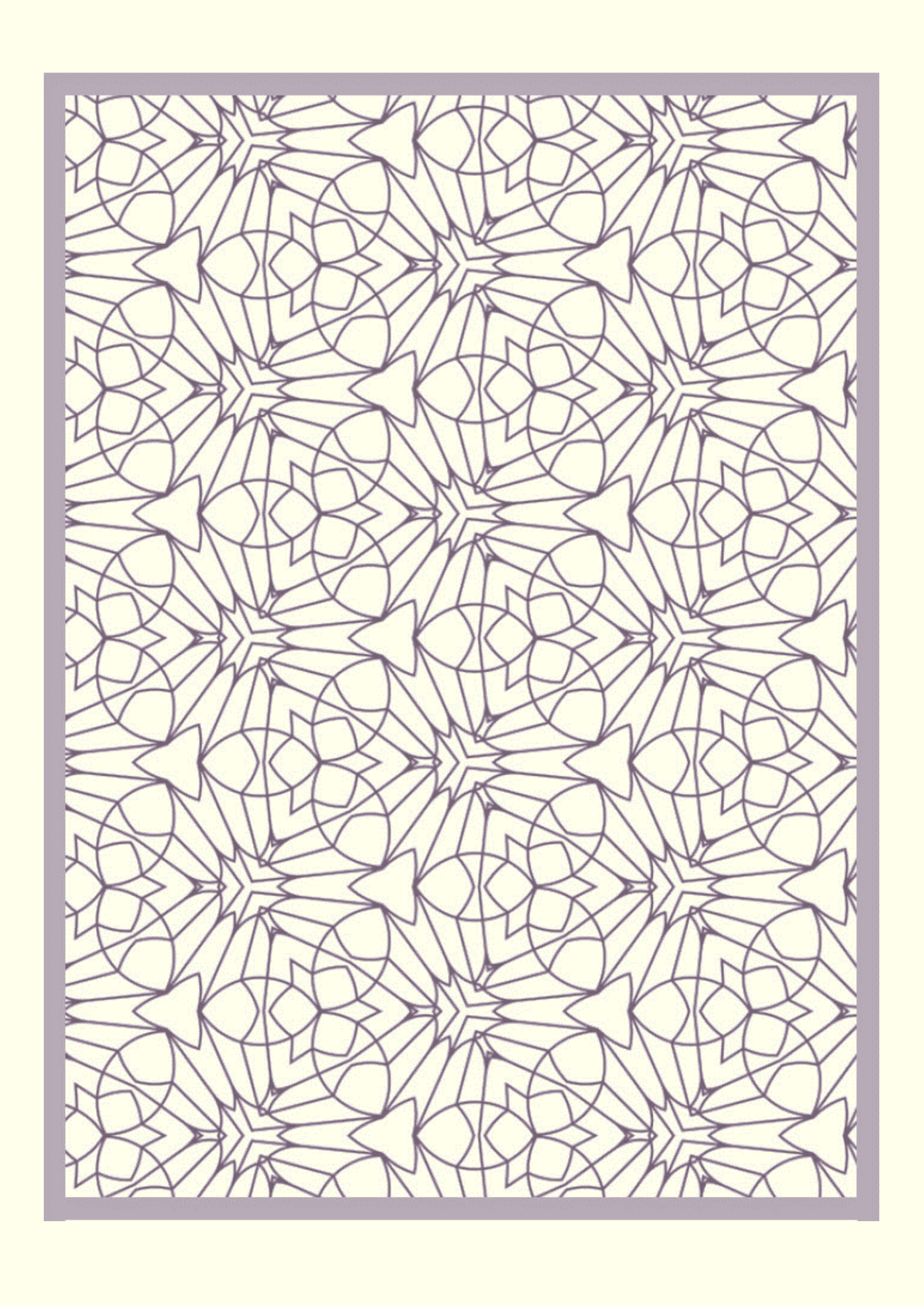
٣ – وأما في جواب الشرط: فكقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الحج:٤١]، وكقوله: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء:٨]، معناه: وإن تعودوا الى قتال محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ نعد إلى نصره؛ لأن الشرط لا يكون إلا بمستقبل، والمرتب على المستقبل مستقبل لا محالة، وهذا من مجاز التشبيه، شبه المستقبل في تحققه وثبوته بالماضي الذي دخل في الوجود بحيث لا يمكن رفعه.

الثاني: التعبير بالمستقبل عن الماضي: كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ [البقرة:١٠٢]، أي: واتبعوا ما تلته الشياطين، وكقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ٨٧﴾ [البقرة:٨٧]، معناه: وفريقًا قتلتم. ويجوز أن يكون القول في هاتين الآيتين حكاية حال ماضية. مثله في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [إبراهيم:١٠]، وفي قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾ [هود:١٠٩]، وكذلك قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ٤٦﴾ [الواقعة:٤٦]، وقوله: ﴿وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ [القلم:٤٣]، وكذلك قوله: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الأحزاب:٣٧]، معناه: وإذ قلت، أو تكون حكاية حال ماضية، وكذلك قوله: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات:١٠٢]، معناه: أني رأيت، أو تكون حكاية حال ماضية، وكقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ [البقرة:١٨٩]، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ [البقرة:٢٢٢]..ونحو هذه الآيات.

والتعبير بالمستقبل عن الماضي في القرآن كثير.

[الثالث:] التعبير بالمضارع عن الحال المستمرة: قال: وهو مجاز أيضًا؛ لأنه وضع للحال والاستقبال، فكان استعماله في الأزمان الثلاثة استعمالًا له في غير ما وضع له، وهذا كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [آل عمران:١٥٦]، وكقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ٢٧﴾ [إبراهيم:٢٧].." (١).

(١) الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز (ص:٢٦-٢٧).



المبحث الرابع:
القسم بالزمن

أولًا: دلالات القسم بالزمن:

أقسَم الله عَزَّوَجَلَّ بالزمن؛ لبيان أهمية الزمن، وعظيم خلق الله عَزَّوَجَلَّ، وخضوع الخلق من الزمان وغيره، للقدرة الله عَزَّوَجَلَّ وإرادته.

وقد فصَّلتُ القولَ في بيان القسم في المبحث الثامن من الجزء الأول من كتاب: (تذكرة وبيان من علوم القرآن)، تحت عنوان: (الأقْسَام في القرآن الكريم بين تحقيق الخبر وتوجيه النظر).

وإن الله جَلَّوَعَلَا يُقْسِم بأمور على أمور، وإنما يُقسم بذاته المقدسة الموصوفة بصفاته وآياته المستلزمة لذاته وصفاته. وإقسامه ببعض المخلوقات دليل على أنه من عظيم آياته.

و(المقْسَمُ عليه) يُرَاد بالقَسَم: توكيده وتحقيقه، فلا بدَّ أن يكون مما يحسن فيه ذلك، كالأمور الغائبة والخفيَّة إذا أُقْسِمَ على ثبوتها.

فأما الأمور الظاهرة المشهورة كالشمس، والقمر، والليل، والنهار، والسماء، والأرض، فهذه يُقْسَم بها، ولا يُقْسَم عليها.

وما أقْسَمَ عليه الرب جَلَّوَعَلَا فهو من آياته، فكل من الشمس والقمر والسماء والأرض ونفس الإنسان من أعظم مخلوقات الله ذاتًا ومعنى، وهي دالة على بديع حكمته وخلقه، وقويِّ قدرته.

وفي (تفسير الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ): "اعلم أن هذه الأشياء التي أقسم الله عَزَّوَجَلَّ بها لا بد وأن يكون فيها إما فائدة دينية، مثل: كونها دلائل باهرة على التوحيد، أو فائدة دنيوية توجب بَعْثًا على الشكر، أو مجموعهما" (١).

والقسم يراد منه شرف المقسم به، كما قال ابن النقيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "القسم، وهو أن يُقسم في كلامه بشيء لم يُرد به تأكيد كلامه ولا تصديقه، وإنما يريد به بيان شرف المقسم به وعلو قدره عنده، ومنه: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ٢٣﴾ [الذاريات:٢٣]، وقوله: ﴿وَٱلطُّورِ ١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ٢﴾ [الطور:١-٢]، وقوله: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ١﴾ [النجم:١]، وقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧﴾ [الشمس:٥-٧]، وقوله: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ٧٢﴾ [الحجر:٧٢]. أقسم بهذه الأشياء كلها؛ لعظم خلقها، ولشرفها عنده. وأقسم بحياة نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ليعرف الناس عظمته عنده، ومكانته لديه"(٢).

وفي القسم: إشعار بأن المقسم به أمر عظيم؛ إذ لا يقسم العظيم إلا بأمر عظيم، ففي القسم: بيان لشرف المقسم به، وعلو قدره، حتى يعرف الناس مكانته ورفعة منزلته.

فمما يدل على عظيم أهمية الزمن في القرآن الكريم: قسَمُ الله عَزَّوَجَلَّ به، في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلْعَصْرِ ١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ٣﴾ [العصر:١-٣]، ومن ذلك: القسم بجزء من أجزاء الزمن، كالقسم بالليل والنهار، والصبح، والعمر، ويوم القيامة، والشفق، والفجر، والليالي العشر، والضحى.

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلْعَصْرِ ١﴾ قسم من الله عَزَّوَجَلَّ، وجوابه: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ٢﴾ [العصر:٢].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٤٨/٣١).

(٢) مقدمة تفسير ابن النقيب (ص:٢٣٨).

وقد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ أن الإنسان لفي خسر، وأكد ذلك بمؤكدات، أعظمها: أنه جَلَّوَعَلَا هو المخبر، وهذا من أوكد المؤكدات، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ۝٨٧﴾ [النساء:٨٧]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ۝١٢٢﴾ [النساء:١٢٢]؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ إذا تكلم بشيء فهو حقٌّ وصدق، فكيف إذا كان هذا الأمر مؤكدًا بالقسم؟

ثم جاء بمؤكد آخر، وهو دخول: ﴿إِنَّ﴾، وهي تفيد التوكيد.

وقال: ﴿لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾، ولم يقل: (في خسر)، فاللام هنا أيضًا مؤكدة.

وأكَّد ذلك أيضًا بدخول اللام في قوله: ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ يريد: الجنس، وأكد ذلك العموم بالاستثناء الذي يفيد نفي طائفة عن ذلك العموم، وهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾.

ومن معاني العصر: الدهر، وقد أقسم الله عَزَّوَجَلَّ بالدهر؛ لأنه الشاهد على ما أقسم عليه. ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾ والدهر أعظم شاهد على ذلك خسارة الإنسان إلا من استثناهم، ولا شك أن الدهر والزمن والتاريخ أكبر شاهد على ما أصاب الإنسان غير المؤمن، ومن المعاني كذلك صلاة العصر، وفي ذلك إشارة على أن الوقت الممتد من الفجر العصر هو وقت كاف ليعرف الإنسان حقيقة عمله.

فكل إنسان في خسر قليل أو كثير إلا من اتصف بأربع صفات، فمن نقص من ذلك أصابه من الخسر بمقدار ما نقص. وفي يوم الحساب يلوم الإنسان نفسه على ما خسر، حيث كان من الممكن أن يستزيد من الشيء، ولم يفعل.

وقد استعمل القرآن الكريم الخسار للزيادة في الخسارة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ۝٨٢﴾ [الإسراء:٨٢]، وقال: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ۝٣٩﴾ [فاطر:٣٩]، ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن

لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا ٢١﴾ [نوح:٢١]. والخسران هو أكبر الخسارة وأعظمها، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١﴾ [الحج:١١]، ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١٥﴾ [الزمر:١٥]. وبين الخسر والخسار في اللغة زيادة الألف، وفي الخسران زيادة ألف ونون، وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى.

وذكر بعد ذلك المنجيات من الخسران، وهي أربعة:

١ - رسوخ الإيمان.

٢ - العمل الصالح:

وهو ثمرة رسوخ الإيمان في القلب، ودليل صدق الدعوى؛ ولذلك ورد الإيمان في القرآن الكريم مقترنًا بالعمل الصالح في مواضع كثيرة تدلُّ على التلازم بينهما، فلا يصح أحدهما دون الآخر.

٣ - لا يكفي أن يكون العبد صالحًا في نفسه دون أن يكون مصلحًا، آمرًا بالمعروف، وناهيًا عن المنكر؛ ولذلك قال: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ﴾. وهذا يدل على مكانة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتحذير من الفساد ومحاربته، والصلاح والإصلاح طريق العزة، وعنوان الفلاح، وسبيل إلى النجاة في الآخرة، والحياة الطيبة في الدنيا، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ١١٦ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ١١٧﴾ [هود:١١٦-١١٧]. ويقول جَلَّوَعَلَا: ﴿مَنۡ عَمِلَ

صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل:٩٧].

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا مكانة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وخطر إغفال هذا الواجب: "إنَّ الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله عَزَّوَجَلَّ له النبيين أجمعين، ولو طوي بساطه وأهمل علمه وعمله؛ لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد" (١).

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران:١٠٤]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾ [آل عمران:١١٠]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [آل عمران:١١٣-١١٥]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة:٧٨-٧٩]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ﴾ [التوبة:٧١]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [التوبة:١١٢]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ

(١) انظر: إحياء علوم الدين، للإمام الغزالي (٢/٣٠٦).

بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [الحج:٤١]. وقال لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ﴾ [لقمان:١٧].

وقد أخرج الحاكم: عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾، قال: «**علموا أنفسكم وأهليكم الخير**» (١)، وقد دلَّ على أن العبدَ يبدأ بإصلاح نفسه، ثم الأقرب فالأقرب.

قال القشيري رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾: "أي: فقِّهوهم، وأدِّبوهم، وادعوهم إلى طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ، وامنعوهم عن استحقاق العقوبة بإرشادهم وتعليمهم. ودلت الآية: على وجوب الأمر بالمعروف في الدين للأقرب فالأقرب.

وقيل: أظهروا من أنفسكم العبادات؛ ليتعلَّموا منكم، ويعتادوا كعادتكم. ويقال: دلُّوهم على السُّنَّة والجماعة. ويقال: علِّموهم الأخلاق الحسان. ويقال: مروهم بقبول النصيحة" (٢).

وفي معنى هذه الآية قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين، وفرقوا بينهم في المضاجع**» (٣).

---

(١) أخرجه الحاكم في (المستدرك) وقال: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي. قال الحافظ في (الفتح) (٦٥٩/٨): "رواته ثقات". وأخرجه كذلك البيهقي في (شعب الإيمان) [٨٣٣١].

(٢) لطائف الإشارات (٦٠٧/٣).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة [٣٤٨٢]، وأحمد [٦٦٨٩]، وأبو داود [٤٩٥]، والخرائطي في (مكارم الأخلاق) [٤٥٧]، والدارقطني [٨٨٧]، والحاكم [٧٠٨]، وأبو نعيم في (الحلية) (٢٦/١٠)، والبيهقي في (السنن الكبرى) [٣٢٣٣]، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. قال الإمام النووي في (رياض الصالحين) (ص:١٢٦): "رواه أبو داود بإسناد حسن".

قال الفقهاء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: وهكذا في الصوم؛ ليكون ذلك تمرينًا لهم على العبادة؛ لكي يبلغوا وهم مستمرون على العبادة والطاعة، ومجانبة المعصية وترك المنكر (١).

والصيام يعزز شعور المراقبة فهو جُنَّة ووجاء. وقل مثل ذلك في سائر العبادات والتكاليف؛ فإن لها مقاصد سامية ترتقي بالمكلف، وتصلح أحواله.

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فواجبٌ على كلِّ مسلم أن يعلِّمَ أهله ما بهم الحاجة إليه من أمر دينهم، وينهاهم عما لا يحلُّ لهم" (٢).

فكل من الأمر بالمعروف وفعله واجب، لا يسقط أحدهما بترك الآخر، فيجب على كل مسلم أن يقوم بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، حتى وإن لم يكن عاملًا بكل يأمر به أو ينهى عنه؛ لأن الإنسان معرض للخطأ وللزلل.

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتحذير من الفساد ومحاربته، والصلاح والإصلاح طريق العزة، وعنوان الفلاح، وسبيل إلى النجاة في الآخرة، والحياة الطيبة في الدنيا، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود:١١٦-١١٧]، "يقول: لم يكن من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض، إلا يسيرًا، فإنهم كانوا ينهون عن الفساد في الأرض، فنجاهم الله عَزَّوَجَلَّ من عذابه، حين أخذ من كان مقيمًا على الكفر بالله عذابُه، وهم اتباع الأنبياء والرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ" (٣).

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٨/١٨٩).

(٢) الاستذكار (٣/٧٢).

(٣) تفسير الطبري (١٥/٥٢٧).

ومن سُنَّة الله عَزَّوَجَلَّ في الأمم أنَّه لا يهلكُ القرى بظلمٍ وأهلها مصلحون، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود:١١٧]، يعني: مصلحون في أعمالهم، وأحكامهم، وسياساتهم، وهذا هو الأساس الأعظم لعلم الاجتماع في حياة الأمم وموتها وعزتها وذلها. ولكنه يهلكها وأهلها مفسدون في الأرض كما ثبت في آيات كثيرة.

فكان لزامًا على المصلحين من أولي الألباب والبصائر: التَّبصيرُ والتَّنويرُ، والتَّحذير من إفساد المفسدين، وكشف شبهات المبطلين، وشَرِّهم المستطير، وخطرهم الكبير. ونحن معشر المسلمين إذا لم يُؤَسَّسْ نهوضنا على قواعدِ ديننا وقرآننا فلا خيرَ لنا فيه، ونحن قوم أعزنا الله عَزَّوَجَلَّ بالإسلام، فمهما نبتغي العزة بغير ما أعزنا الله عَزَّوَجَلَّ به أصابنا الذل والصغار، وصرنا أتباعًا وذيولًا للأمم الأخرى.

ومنذ أكرم الله عَزَّوَجَلَّ هذه الأمة ببعثة نبيه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وأفواج الدعاة المصلحين يتعاقبون فيها، علماء ربانيون، ودعاة مصلحون، داعين إلى الحق، ومرشدين للخلق، حاكمين بالقسط، آمرين بالمعروف، وناهين عن المنكر، وصابرين على ما أصابهم في سبيل الدعوة وإظهار الحق.

والناس إن خلو من العلماء الربانيين تخطَّفتهم شياطين الإنس والجن، وتقاذفتهم الضلالات والفتن.

وفي الحديث: «**إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب**» (١).

---

(١) أخرجه أحمد [٢٩]، وابن حميد [١]، وأبو داود [٤٣٣٨]، والترمذي [٢١٦٨]، والبزار [٦٥]، وابن حبان [٣٠٤]، والبيهقي [٢٠١٨٩]، والحميدي [٣]. قال الإمام النووي: "إسناده صحيح". رياض الصالحين (ص:٩٧)، الأذكار (ص:٣٣١).

وفي رواية: «**إذا رأوا المنكر**»(١).

وفي رواية: «**ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي، ثم يقدرون على أن يغيروا، ثم لا يغيروا، إلا يوشك أن يعمهم الله منه بعقاب**»(٢).

وعن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم**»(٣). قال القاضي أبو بكر ابن العربي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وهذا الفقه عظيم، وهو أن الذنوب منها: ما يُعَجِّل الله عَزَّ وَجَلَّ عقوبته، ومنها: ما يمهل بها إلى الآخرة، والسكوت عن المنكر تتعجل عقوبته في الدنيا بنقص الأموال والأنفس والثمرات، وركوب الذل من الظلمة للخلق..." (٤).

وقد جاء في الحديث: عن زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخل عليها فزعًا يقول: «**لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شَرٍّ قد اقترب، فتح اليوم من رَدْمِ يأجوج ومأجوج مِثْلُ هذه**»، وحَلَّقَ بإصبعه الإبهام والتي تليها، قالت زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فقلت يا رسول الله: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم إذا كثر الخَبَثُ**»(٥).

٤ - **التواصي بالصبر**: قال الله عَزَّ وَجَلَّ في بيان رابع المنجيات من الخسران: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾.

---

(١) أخرجه أحمد [١، ١٦، ٥٣]، وابن ماجه [٤٠٠٥]، والنسائي في (الكبرى) [١١٠٩٢]، وأبو يعلى [١٢٨]، وابن حبان [٣٠٥]، والضياء [٥٨].

(٢) أخرجه أبو داود [٤٣٣٨]، والبيهقي [٢٠١٩١].

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة [٢١٦٩]، وأحمد [٢٩]، والترمذي [٢١٦٩]، وقال: " هذا حديث حسن".

(٤) عارضة الأحوذي (٩/١٥).

(٥) صحيح البخاري [٣٣٤٦، ٣٥٩٨، ٧٠٥٩، ٧١٣٥]، مسلم [٢٨٨٠].

وقال في آية أخرى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾ [البلد:١٧-١٨].

والمراد من الصبر هنا: مطلق الصبر الذي يشمل الصبر على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، والصبر عن معصيته، والصبر عند النوائب والمصائب التي تصيب الإنسان بقضاء الله عَزَّوَجَلَّ وقدره، فلا يتحقق الإيمان إلا بالصبر.

ومن سنة الله عَزَّوَجَلَّ: أن أصحاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سيلقون من الشدة والإيذاء ألوانًا كثيرة، وهذه سنة الله عَزَّوَجَلَّ مع خيرة خلقه من الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ ومن سار على نهجهم من أهل الصلاح والإصلاح، فقد أوذوا في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ فصبروا على ما كذبوا به، وعلى ما أصابهم من الإيذاء حتى أتاهم النصر من الله عَزَّوَجَلَّ، وقد ذكر الله عَزَّوَجَلَّ قصصهم؛ ليكونوا قدوة لكل مؤمن يريد النجاة، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام:٣٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [آل عمران:١٤٦-١٤٨].

وفي الحديث: عن خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: شكونا إلى رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً له في ظِلِّ الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: يا رسول الله، ألا تدعو الله، فقعد وهو محمر وجهه، فقال: «**لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد، ما دون عظامه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه، فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى**

يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، ما يخاف إلا الله عَزَّوَجَلَّ، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون» [(١)].

فالفتنة والابتلاء هما الميزان الذي يميز الصادق عن الكاذب. والمؤمن مكلَّف بتحقيق شرعة الإسلام في نفسه، والنظام الإسلامي في مجتمعه على أن يتحمَّل في سبيل ذلك الكثير من الشدائد؛ حتى يتحقق فيه معنى التكليف المتفرع عن عبوديته لله عَزَّوَجَلَّ. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣﴾ [العنكبوت:١-٣].

ولذلك قالوا: من لم يصبه البلاء والإيذاء في سبيل الدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ وهداية العباد وإرشادهم إلى طريق الهداية فليتهم نفسه؛ فإن سنة الله عَزَّوَجَلَّ في الخلق البلاء؛ لتمحيص الصادق عن الكاذب.

وأشد الناس بلاء الأنبياء عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم الأَمْثَلُ فالأَمْثَلُ، وقد صبر الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والمصلحون في زمن مضى على ما أصابهم من البلاء، وأخلصوا لله عَزَّوَجَلَّ في العبادة والدعاء، ففرج الله عَزَّوَجَلَّ عنهم ما أصابهم، فكانوا على العهد، صابرين على ما أصابهم، وشاكرين لله عَزَّوَجَلَّ في كل حال، والرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ هم خيرة عباده الذين هداهم الله عَزَّوَجَلَّ، فكانوا قدوة لكل من اقتفى أثرهم، وسار على هديهم، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام:٩٠]. وقد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن صبرهم وإخلاصهم في الدعاء، فقال عن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ٧٦ وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٧٧﴾ [الأنبياء: ٧٦-٧٧]. وقال عن أيوب، وإسماعيل، وإدريس، وذي الكفل، وزكريا عَلَيْهِمُ السَّلَامُ:

(١) صحيح البخاري [٣٦١٢، ٣٨٥٢، ٦٩٤٣].

﴿* وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِي رَحْمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء:٨٣-٩٠]. فهؤلاء الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وصفهم الله عَزَّوَجَلَّ بالصبر، ووصفهم كذلك بالصلاح، وهو يشمل: صلاح القلب، بمعرفة الله عَزَّوَجَلَّ ومحبته، والإنابة إليه كل وقت، وصلاح اللسان، بأن يكون رطبًا من ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، وصلاح الجوارح، باشتغالها بطاعة الله جَلَّوَعَلَا، وكفها عن المعاصي. فبصبرهم وصلاحهم، أدخلهم الله في رحمته، وجعلهم مع إخوانهم من المرسلين، وأثابهم الثواب العاجل والآجل، ونوه بذكرهم في العالمين، وجعل لهم لسان صدق في الآخرين، فكفى بذلك شرفًا وفضلًا.

وقال الله عَزَّوَجَلَّ عن أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضًا: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص:٤١-٤٤]، "يذكر الله عَزَّوَجَلَّ عن أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، ما كان أصابه من البلاء، في ماله، وولده، وجسده، وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحرث شيء كثير، وأولاد كثيرة، ومنازل مرضية. فابتلي في ذلك كله، وذهب عن آخره، ثم ابتلي في جسده، يقال: بالجذام في سائر بدنه، ولم يبق منه سليم سوى قلبه ولسانه، يذكر بهما الله عَزَّوَجَلَّ، حتى عافه الجليس، وأُفْرِدَ في ناحية من البلد، ولم يبق من الناس أحد

يَحْنُو عليه سوى زوجته، كانت تقوم بأمره. ويقال: إنها احتاجت فصارت تخدم الناس من أجله، وقد كان نبي الله عَزَّوَجَلَّ أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ غاية في الصبر، وبه يضرب المثل في ذلك" (١).

وفي الحديث: عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال: «**الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، فيبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وإن كان في دينه رِقَّةٌ ابْتُلِيَ على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة**» (٢).

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: دخلت على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يُوعَكُ، فَوَضَعْتُ يَدِي عليه فَوَجَدْتُ حَرَّهُ بين يَدَيَّ فوقَ اللِّحَاف، فقلتُ: يا رسول اللَّهِ ما أَشَدَّهَا عليكَ قال: «**إنَّا كذلكَ يُضَعَّفُ لنا الْبَلَاءُ، وَيُضَعَّفُ لنا الْأَجْرُ**»، قلتُ: يا رسولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قال: «**الْأَنْبِيَاءُ**»، قلتُ: يا رسول اللَّه ثُمَّ مَنْ؟ قال: «**ثُمَّ الصَّالِحُونَ، إِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيُبْتَلَى بِالْفَقْرِ، حَتَّى ما يَجِدُ أَحَدُهُمْ إِلَّا الْعَبَاءَةَ يَحُوبُهَا، وإِنْ كان أَحَدُهُمْ لَيَفْرَحُ بِالْبَلَاءِ، كَمَا يَفْرَحُ أَحَدُكُمْ بِالرَّخَاءِ**» (٣).

---

(١) تفسير ابن كثير (٥/٣٥٩).

(٢) أخرجه الطيالسي [٢١٢]، وأحمد [١٤٨١]، وعبد بن حميد [١٤٦]، والدارمي [٢٢٥]، وابن ماجه [٤٠٢٣]، والترمذي [٢٣٩٨]، وقال: "حسن صحيح". كما أخرجه: البزار [١١٥٤]، والنسائي في (الكبرى) [٧٤٣٩]، وأبو يعلى [٨٣٠]، والطحاوي في (شرح مشكل الآثار) [٢٢٠٢]، والشاشي [٦٧]، وابن حبان [٢٩٠٠]، والحاكم [١٢١]، وأبو نعيم في (الحلية) (١/٣٦٨)، والبيهقي في (الكبرى) [٦٥٣٤]، وفي (شعب الإيمان) [٩٣١٨]، والبغوي في (شرح السنة) [١٤٣٤]، والضياء [١٠٥٦]، وقال: "إسناده صحيح".

(٣) أخرجه ابن سعد (٢/٢٠٨)، ابن ماجه [٤٠٢٤]، واللفظ له، قال في (الزوائد) (٤/١٨٨): "هذا إسناد صحيح رجاله ثقات، وله شاهد من حديث: مصعب بن سعد عن أبيه، رواه الترمذي، وقال: حسن=

وفي (الصحيحين): عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: دخلت على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَسِسْتُهُ بِيَدِي فقلتُ: يا رسول الله، إنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا؟ فقال رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَجَلْ، إِنِّي أُوعَكُ كما يُوعَكُ رجلانِ منكم**»، فقلتُ: ذلك أنَّ لك أَجْرَيْن؟ فقال رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَجَلْ**»، ثُمَّ قال رسولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما من مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى، مَرَضٌ فما سِوَاهُ، إلَّا حَطَّ اللَّهُ له سَيِّئَاتِه، كما تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا**»[(١)].

وعن أبي عبيدة بن حذيفة، عن عمته فاطمة أنها قالت: أتينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَعُودُهُ في نساءٍ، فإذا سِقَاءٌ مُعَلَّقٌ نَحْوَهُ يَقْطُرُ مَاؤُهُ عَلَيْهِ من شِدَّةِ مَا يَجِدُ من حَرِّ الْحُمَّى، قلنا: يا رسول الله، لو دعوت الله فشفاك، فقال: رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن من أشد الناس: بلاء الأنبياء، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»[(٢)].

وقد ذكروا في تفسير العصر أقوالًا، منها: أنه الدهر، ووجه قسمه بالدهر، أنه يحصل فيه السرَّاء والضَّراء، والصِّحة والسقم، والغنى والفقر، ونحو ذلك، ولأن العمر لا يقاوم بشيء، فلو ضيعت ألف سنة فيما لا يعني، ثم ثبتت السعادة في اللمحة الأخيرة، بقيت في الجنَّة أبد الآباد، فكان أشرف الأشياء في حياتك في تلك اللمحة، ولأن الدهر والزمان من جملة أصول النعم؛ فلذلك أقسم به، ونبه على أن الليل والنهار فرصة يضيعها

=صحيح". وأخرجه أيضًا: أبو يعلى [١٠٤٥]، والحاكم [١١٩]، وقال: "صحيح على شرط مسلم"، قال الذهبي: "على شرط مسلم، وله شواهد كثيرة"، كما أخرجه: أبو نعيم في الحلية (١/٣٧٠).

(١) صحيح البخاري [٥٦٤٨، ٥٦٦٠، ٥٦٦٧]، مسلم [٢٥٧١].

(٢) أخرجه أحمد [٢٧٠٧٩]، واللفظ له، والنسائي في (الكبرى) [٧٤٥٤]، والحاكم [٨٢٣١]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٩٣١٩]. قال الهيثمي (٢/٢٩٢): "رواه أحمد، والطبراني في (الكبير) بنحوه، وقال فيه: «إنا معاشر الأنبياء يضاعف علينا البلاء»، وإسناد أحمد حسن".

المكلف، وإليه الإشارة بقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان:٦٢] (١).

وقد قيل: أقسم الله عَزَّ وَجَلَّ بالدَّهر؛ لأن فيه عبرة للناظرين من جهة مرور الليل والنَّهار على تقدير الأدوار؛ فإن في ذلك دلالة بينة على الصَّانع جَلَّ وَعَلَا وعلى توحيده" (٢).

وقيل: المراد به عصر النبوة، وكأنه عنى به وقت حياته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كأنه أشرف الأعصار؛ لتشريف النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقيل: هو زمان حياته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما بعده إلى يوم القيامة ومقداره فيما مضى من الزمان مقدار وقت العصر من النهار ويؤذن بذلك ما رواه البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ: عن سالم بن عبد الله عن أبيه أنه سمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إنما بقاؤكم فيمن سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس**» (٣).

وشرفه لكونه زمان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمته التي هي خير أمة أخرجت للناس، كذا في (روح المعاني) (٤).

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب (٣٢/٢٧٧)، حاشية الصاوي على تفسير الجلالين (٤/٣٣١).

(٢) انظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد، لأبي الحسن الواحدي (٤/٥٥١)، التفسير البسيط (٢٤/٢٩٥-٢٩٦)، فتح القدير، للشوكاني (٥/٦٠١).

(٣) صحيح البخاري [٥٥٧، ٣٤٥٩، ٥٠٢١، ٧٤٦٧، ٧٥٣٣].

(٤) روح المعاني (١٥/٤٥٨).

قال الزجاج جَلَّوَعَلَا: "قال بعضهم: معناه: ورَبِّ العصر، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الذاريات:٢٣]" (١). قال أبو جعفر النحاس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ويدخل فيه كلُّ ما يسمى بالعصر؛ لأنه لم يقع اختصاص تقوم به حجة" (٢).

وقال مقاتل: "أقسم الله عَزَّوَجَلَّ بصلاة العصر" (٣)، وهي الصلاة الوسطى.

والحاصل أن العصر يطلق على الدهر، ويقال لليل: عصر، وللنهار: عصر، ويقال لليل: عصر، وللنهار: عصر، ومنه قول حميد بن ثور:

ولـن يَلْبَثَ العَـصْرَانِ يـومٌ وليلة إذا طَـلَبَا أن يُـدْرِكَـا مـا تَمَنَّيَا (٤)

قال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فيشبه أن يكون إنما قيل لهاتين الصلاتين العصران؛ لأنهما تقعان في طرفي العصرين، وهما: الليل والنهار" (٥).

وقال ابن السِّكِّيت رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في باب ما جاء مثنى: الليل والنهار يقال لهما: العصران. قال: ويقال: العصران: الغداة والعشي. وأنشد:

وأَمْطُـلُـهُ الـعَـصْرين حتى يـمـلـني ويرضى بنصف الدين والأنفُ راغم (٦)

---

(١) معاني القرآن وإعرابه (٥/٣٦٠).

(٢) إعراب القرآن، لأبي جعفر النحاس (٥/١٧٩).

(٣) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان (٤/٨٢٩)، الوسيط (٤/٥٥١)، البسيط (٢٤/٢٩٦).

(٤) ديوان حميد بن ثور الهلالي (ص:٨). وانظر: إصلاح المنطق، لابن السكيت (ص:٢٧٧)، الكامل في اللغة والأدب، للمبرد (١/١٧٦)، معاني القرآن وإعرابه (٥/٣٥٩)، الحجة للقراء السبعة، لأبي علي الفارسي (٦/٤٤٠). و(يوم وليلة) بالرفع على البدلية -كما أثبتناه-. ويروى: (يوما وليلة) بالنصب -كما في الديوان، طبعة دار الكتب المصرية [١٣٧١هـ].

(٥) معالم السنن، لأبي سليمان الخطابي (١/١٣٤).

(٦) إصلاح المنطق (ص:٢٧٧)، تهذيب اللغة (٢/١١)، الصحاح، للجوهري، مادة: (عصر) (٢/٧٤٨-٧٤٩)، الحيوان (٣/١٢١).

ومنه سمِّيت صلاة العَصْرِ. قيل: وهما: الإبرادان، وعليه وعلى ما قبله يكون القسم بواحد من الأمرين غير معين.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "العصر: الزمان الذي يقع فيه حركات بني آدم، من خير وشر.

وقال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ، عن زيد بن أسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هو العشي، والمشهور الأول" (١).

وبناء على ما تقدم فإن المولى جَلَّ وَعَلَا قد أقْسَم بالزمن؛ لبيان أهمية الزمن، وعظيم خلق الله عَزَّ وَجَلَّ، وخضوع الخلق من الزمان وغيره، للقدرة الله عَزَّ وَجَلَّ وإرادته.

وإن القصد من القسم هو أهم موضوعات الأقسام؛ لأنه يحقق أمرين هما غاية هذا المبحث، وهذان الأمران هما:

١ – تأكيد الخبر وتحقيقه.

٢ – توجيه النظر.

فالقسم من وسائل الإقناع؛ لأن الإقناع يكون بتوكيد الخبر، وطريقه القسم.

ولا ريب أن تأكيد الخبر بالقسم أو بغيره من المؤكدات مما يلفت النظر إلى أهمية الأمر المؤكد؛ والتوكيد هو أحد الأساليب اللغوية التي تُستخدم من أجل تأكيدِ وتثبيت معنىً أو أمرٍ مُعين عند القارئ أو السَّامع، والمقصد من ذلك: دفع التردد، وإزالة الشك، وتقرير الأمر. وللتأكيد طرق كثيرة، والقسم من أقوى هذه الطرق.

وبيان ذلك أن يقال: إن المخاطب لا يخلو من حالات ثلاث:

الأولى: أن يكون خالي الذِّهْن من الحكم، وفي هذه الحال يُلْقَى إليه الخبر خاليًا من أدوات التوكيد.

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٤٨٠).

الثانية: أن يكون مُترَدِّدًا في ثبوت الحكم طالبًا أن يصل إلى اليقين في معرفته، وفي هذه الحال يَحْسُنُ توكيده له بمؤكد؛ ليزيل تردده.

الثالثة: أن يكون مُنْكرًا للحكم، وفى هذه الحال يجب أن يُؤَكَّد بمؤَكَّدٍ أو أكثر على حسب إنكاره قوّة وضعفًا.

"فأما المؤمن فإن توكيد الكلام بالقَسَم يزيده طمأنينة واستيقانًا، وينزل الكلام من نفسه المنزل الأسنى.

وأما المرتاب فإن القسم يزيل ريبته، ويطرح الشك الذي في نفسه، فلا يبقى عنده تردد في ثبوت الخبر أو عدمه.

وأما الجاحد فإن القسم زيادة في تحقيق البينة، وإقامة الحجة عليه، فلا حجة بعد أن يقول: إن ما سمعته كان خبرًا من جملة ما نسمعه من الأخبار التي تطرق مسامعنا على الدوام، ولم يؤكد لي هذا الخبر أو ذاك بيمين أو قسم أحترمه وأعظمه، فورود القسم دفع لهذه الحجة الداحضة" (١).

وقد افتتح القرآن الكريم كثيرًا من السور القرآنية بالقسم، وأورد أقسامًا في ثنايا عدد غير قليل منها. وأسلوب القسم في اللغة العربية من المؤكدات المشهورة التي تمكن الشيء في النفس وتقويه، فلا ريب أن أهم مقاصد القسم: توجيه النظر إلى الأمر المقسم به، وتأكيد إهميته؛ إذ إن الله عَزَّوَجَلَّ لا يقسم إلا بعظيم من خلقه، دال ببديع صنعه على عظمة الخالق جَلَّوَعَلَا. ففي القسم: بيان لشرف المقسم به، وعلو قدره، حتى يعرف الناس مكانته، وبديع خلقه، ورفعة منزلته.

---

(١) التبيان في أيمان القرآن، لابن القيم (١٣/١).

وقد نزل القرآن الكريم للناس كافة، ووقف الناس منه مواقف متباينة، فمنهم: الشاك، ومنهم: المنكر، ومنهم: الخصم الألد، فجاء القسم في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ؛ لإزالة الشكوك، وإحباط الشبهات، وإقامة الحجة، وتوكيد الأخبار؛ لتطمئن نفس المخاطب إلى الخبر، ولا سيما في الأمور العظيمة التي أقسم عليها، فيقرر الحكم في أكمل صورة.

"والقسم نوع من أنواع التوكيد عند العرب، بل هو أجلُّها وأعظمها؛ لأنه غاية ما يبذله المتكلم من الجَهد؛ لتقوية كلامه وتثبيته في نفس سامعه" [١].

فإن قيل: ما معنى القسم من الله عَزَّوَجَلَّ، فإنه إن كان لأجل المؤمن فالمؤمن مصدق بمجرد الإخبار من غير قسم، وإن كان لأجل الكافر فلا يفيده؟

أجيب: بأن القرآن نزل بلغة العرب، ومن عادتها: القسم إذا أرادات أن تؤكد أمرًا.

وأجاب أبو القاسم القشيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأن الله عَزَّوَجَلَّ ذكر القسم؛ لكمال الحجة وتأكيدها، وذلك أن الحكم يفصل باثنين: إما بالشهادة، وإما بالقسم، فذكر الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه النوعين؛ حتى لا يبقى لهم حجة فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران:١٨]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ [يونس:٥٣]. وعن بعض الأعراب أنه لما سمع قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ [الذاريات:٢٢-٢٣]، صرخ وقال: من ذا الذي أغضب الجليل؛ حتى ألجأه إلى اليمين؟! [٢].

فأما المؤمن -كما تقدم- فإن توكيد الكلام بالقَسَم يزيده طمأنينة واستيقانًا، وينزل الكلام من نفسه المنزل الأسنى.

---

(١) المصدر السابق (١/١١).

(٢) الإتقان (٢/١٠٤٨)، معترك الأقران (١/٤٥٠)، البرهان، للزركشي (٣/١٢٢)، مفتاح السعادة، طاش كبرى زاده (٢/٥٤٠)، سبل الهدى والرشاد (٣/٢٣)، كشاف اصطلاحات الفنون (٢/١٣١٦).

وأما المرتاب فإن القسم يزيل ريبته، ويطرح الشك الذي في نفسه، فلا يبقى عنده تردد في ثبوت الخبر أو عدمه.

وأما الجاحد فإن القسم زيادة في تحقيق البينة، وإقامة الحجة عليه، فلا حجة بعد أن يقول: إن ما سمعته كان خبرًا من جملة ما نسمعه من الأخبار التي تطرق مسامعنا على الدوام، ولم يؤكد لي هذا الخبر أو ذاك بيمين أو قسم أحترمه وأعظمه، فورود القسم دفع لهذه الحجة الداحضة.

والمقسم به في الذكر الحكيم إما أن يكون بالفاعل الحقيقي، كالقسم بذات الله عَزَّوَجَلَّ، وإما بالفعل، وإما بالمفعول -كما جاء ذلك مبينًا في كتاب: (تذكرة وبيان من علوم القرآن)-.

وقسم الخالق جَلَّوَعَلَا بالمخلوق؛ للدلالة على عظيم قدرة الخالق جَلَّوَعَلَا، وبديع صنعه، فيستدل ببديع الصنع على عظمة الصانع، وفيه دلالة على أن المخلوق طوع إرادة الخالق جَلَّوَعَلَا.

ثانيًا: قسم الله عَزَّوَجَلَّ **بالخلق مع نهي العباد عن القسم بغير الله** عَزَّوَجَلَّ:

فإن قيل: كيف أقسم الله عَزَّوَجَلَّ بالخلق وقد ورد النهي عن القسم بغيره؟

أجيب عنه بأوجه:

أحدها: أنه على حذف مضاف، أي: ورب التين، ورب الشمس، وكذا الباقي.

قال قطرب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: جائز أن يكون معناها: ورب الشمس وضحاها، ورب التين والزيتون، كما قال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١﴾ [البروج: ١].

الثاني: أن العرب كانت تعظم هذه الأشياء، وتقسم بها، فنزل القرآن على ما يعرفون.

الثالث: أن الأقسام إنما تكون بما يعظمه المقسم أو يجله وهو فوقه، والله عَزَّوَجَلَّ ليس شيء فوقه، فأقسم تارة بنفسه، وتارة بمصنوعاته؛ لأنها تدل على بارئ وصانع.

وقال ابن أبي الإصبع في (أسرار الفواتح) (١): القسم بالمصنوعات يستلزم القسم بالصانع؛ لأن ذكر المفعول يستلزم ذكر الفاعل؛ إذ يستحيل وجود مفعول بغير فاعل.

ولله عَزَّوَجَلَّ أن يحلف بما شاء، أما حلف العباد بغير الله عَزَّوَجَلَّ فهو ضرب من الشرك، ففي الحديث: «**من حلف بغير الله** عَزَّوَجَلَّ **فقد كفر أو أشرك**» (٢).

وفي (الصحيحين): «**ألا إنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أن تَحْلِفُوا بآبائكم، فمن كان حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بالله، وإلَّا فَلْيَصْمُتْ**» (٣).

وأخرج ابن أبي حاتم: عن الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يقسم بما شاء من خلقه، وليس لأحد أن يقسم إلا بالله (٤).

---

(١) يعني: (الخواطر السوانح في أسرار الفواتح)، أي: في فواتح السور، لابن أبي الأصبع، المتوفى سنة [٦٥٤هـ].

(٢) أخرجه الطيالسي [١٨٩٦]، وأحمد [٦٠٧٢]، وأبو داود [٣٢٥١]، والترمذي [١٥٣٥]، وقال: "حسن"، كما أخرجه أبو عوانة [٥٩٦٧]، وابن حبان [٤٣٥٨]، والحاكم [٤٥، ١٦٩، ٧٨١٤]، وقال: "صحيح على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي، كما أخرجه البيهقي [١٩٦١٤]، والضياء [٢٠٥].

(٣) صحيح البخاري [٢٦٧٩، ٦١٠٨، ٦٦٤٦، ٧٤٠١]، مسلم [١٦٤٦].

(٤) في (تفسير ابن أبي حاتم) (٣١٨٨/١٠): "عن الحسن في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ [يس:١-٢] قال: يقسم الله عَزَّوَجَلَّ بما يشاء". قال ابن كثير: "الخالق يقس بما شاء من خلقه، والمخلوق لا ينبغي أن يقسم إلا بالخالق" تفسير ابن كثير (٢٦١/٦). وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي [٣٨٧٧، ٣٨٧٧] عن سعيد بن جبير قال: سألت ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا عن قوله: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١﴾ [القيامة:١]، قال: يقسم ربك بما شاء من خلقه" تفسير الطبري (٤٨/٢٤)، الدر المنثور (١٣٥/١٤).

وقال العلماء: أقسم الله عَزَّوَجَلَّ بالنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ [الحجر:٧٢]؛ لتعرف الناس عظمته عند الله، ومكانته لديه (١).

وقال أبو القاسم القشيري رَحِمَهُٱللَّهُ: القسم بالشيء لا يخرج عن وجهين؛ إما لفضيلة، أو لمنفعة، فالفضيلة، كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾ [التين:٢-٣]، والمنفعة نحو: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١﴾ [التين:١] (٢).

وقال الزجاج رَحِمَهُٱللَّهُ: "فإن قال القائل: فما مجاز القسم في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ في قوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١﴾ [الليل:١]، ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١﴾ [البروج:١]، ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١﴾، وما أشبه هذه الأشياء التي ذكرها الله جَلَّوَعَلَا في كتابه؟

---

(١) قال القاضي أبو بكر بن العربي: "قال المفسرون بأجمعهم: أقسم الله عَزَّوَجَلَّ هنا بحياة محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ تشريفًا له، أن قومه من قريش في سكرتهم يعمهون، وفي حيرتهم يترددون". أحكام القرآن (١٠٥/٣)، وانظر: تفسير القرطبي (٣٩/١٠). وقال في موضع آخر: "أقسم الله عَزَّوَجَلَّ بمحمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقال: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾. وأقسم بحياته فقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٢﴾ [الحجر:٧٢]. وأقسم بخيله وصهيلها وغبارها وقدح حوافرها النار من الحجر فقال: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١﴾ [العاديات:١] الآيات الخمس. والمقسم عليه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾ [العاديات:٦]، ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ [العاديات:٨] وهو المال. وقد تبين فيما تقدم حال المال في الخير والشر، والنفع والضر، والفائدة والخيبة" أحكام القرآن (٤٤١/٤)، وانظر: تفسير القرطبي (١٥٤/٢٠).

(٢) الإتقان (٣٥٢/٢). ونص ما قاله القشيري: "أقسم بالتين؛ لما به من عظيم المنَّة على الخلق حيث لم يجعل فيه النَّوى، وخلَّصه من شائب التنغيص، وجعله على مقدار اللقمة؛ لتكمل به اللذَّة. وجعل في (الزَّيْتُون) من المنافع مثل: الاستصباح والتأدُّم والاصطباغ به. ﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾ الجبل الذي كلم الله عَزَّوَجَلَّ موسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ عليه. ولموضع قدم الأحباب حرمة. ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾ يعني: مكة؛ ولهذا البلد شرف كبير، فهي بلد الحبيب، وفيها البيت، ولبيت الحبيب وبلد الحبيب قدر ومنزلة" لطائف الإشارات (٧٤٥/٣).

ففيها أوجه كلها قد ذكرها البصريون، فقالوا: جائز أن يكون الله عَزَّوَجَلَّ أقسم بها؛ لأن فيها كلها دليلًا عليه، وآيات بينات، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ الآية [البقرة:١٦٤].

وقال: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ﴾ [الجاثية:٤].

فكان القسم بهذا يدل على عظمة الله عَزَّوَجَلَّ.

وقال قطرب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: جائز أن يكون معناها: ورب الشمس وضحاها، ورب التين والزيتون، كما قال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ١﴾ [البروج:١].

وقال: ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ٦﴾ [الشمس:٦].

وقال: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ [الذاريات:٢٣].

وقالوا أيضًا: جائز أن يكون وخلق السموات والأرض، وخلق التين والزيتون.

وقالوا: يجوز أن يكون لما كان معنى القسم معنى التحقيق، وأن هذه الأشياء التي أقسم الله عَزَّوَجَلَّ بها حق كلها، وكذلك ما أقسم عليه حق، فالمعنى كما أن التين والزيتون حق، لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم.

وأجود هذه الأقوال ما بدأنا به في أولها" (١).

والحاصل أن الله عَزَّوَجَلَّ يقسم بما شاء على ما شاء، وهو العالم بخصائص مخلوقاته، فلا يقسم إلا بعظيم من خلقه، فيقسم جَلَّوَعَلَا بالملائكة، كما قيل في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ١﴾ [المرسلات:١]، ويقسم بخلق من خلقه -جمادًا كان أو نباتًا، ولم يقسم بحياة إنسان إلا بحياة نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ ليعرف الناس عظمته عنده، ومكانته لديه. ولا يقسم بذاته فحسب، وإنما بفعله ومفعولاته -كما تقدم-.

(١) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٣/١٢٦-١٢٧).

والحاصل أن الزمان هو من مخلوقات الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه جَلَّوَعَلَا خالق كل شيء، فهو جَلَّوَعَلَا يقسم بعظيم من مخلوقاته؛ للدلالة على عظمة الخالق جَلَّوَعَلَا، وللدلالة على أهمية الزمن بالنسبة للإنسان حيث إنه الوعاء الذي يحوي عمر الإنسان، ومنه مدة التكليف، فالزمان محدود بالنسبة للإنسان في الحياة الدنيا، ينقضي بانقضاء حياته حيث لا ينفعه عمل إذا حضره الموت، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ [النساء:١٨]، فهو في فسحة من الأجل يختبر فيها ويمتحن، ويسجل عليه عمله في مدة التكليف، ولذلك

فالفرصة في الدنيا سانحة، ووسائل الهدى حاضرة، وباب التوبة مفتوح لكل مقصِّر أو غافل.

ولكن المقصر أو الغافل إذا دهمه الموت فإنه يتحسر على التَّفريط في الطاعة، وفقد الهداية، ثم يتمنى الرجعة إلى الدنيا؛ لتدارك ما فات، فيأتيه الجواب: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزمر:٥٩]، أي: إنه لا فائدة من ذلك، فقد جاءتك آياتي في الدنيا على لسان رسولي الذي أرسلته إليك، وفي كتابي الذي يتلوه عليك، ويذكِّرك بما فيه من وعدٍ ووعيد، وتبشير وإنذار فكذَّبت بها واستكبرت عن قبولها، وكنت ممن يعمل عمل الكافرين ويستنُّ بسنتهم، ويتَّبع مناهجهم.

وإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يعلم طبيعتهم، ويعلم إصرارهم على باطلهم، ويعلم أن رجفة الموقف المفزع، ووقوفهم على النار هو الذي أنطق ألسنتهم بهذه الأماني، وهذه الوعود، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام:٢٨]، ويقول جَلَّوَعَلَا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَـٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠]،

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام:٢٧].

والإنسان لا يعلم متى أجله، فقد يقترب حسابه وهو في غفلة يرتع ويلعب، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [مريم:٣٩]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء:١-٣]، أي: دنا حساب الناس على أعمالهم التي عملوها فى دنياهم، وعلى النعم التي أنعمها عليهم ربهم في أجسامهم وعقولهم ومطاعمهم ومشاربهم، ماذا عملوا فيها؟ هل أطاعوه فيها فانتهوا إلى أمره ونهيه؟ أو عصوه فخالفوا أمره فيها، وهم في هذه الحياة في غفلة عمَّا يفعل الله عَزَّوَجَلَّ بهم يوم القيامة، ومن ثم تركوا الفكر والاستعداد لهذا اليوم، والتأهب له، جهلًا منهم بما هم لاقوه حينئذ من عظيم البلاء، وشديد الأهوال.

ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنبياء:٩٧]. وهو تفجع المفجوء الذي تتكشف له الحقيقة المروعة بغتة فيذهل، ويشخص بصره فلا يطرف، ويدعو بالويل والهلاك، ويعترف ويندم، ولكن بعد فوات الأوان.

ويقول الله عَزَّوَجَلَّ في بيان عاقبة الغفلة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾ [يونس:٧-٨]. فهذا نصٌّ في أنَّ النَّار مأوى الغافلين عن هذه الآيات، أي: عن آياته الكونية في الآفاق، وهي حُجج الله عَزَّوَجَلَّ، وأدلته الدَّالة على وجوده وتوحيده ووحيه وشرعه، غافلون عنها، لا ينظرون فيها، ولا يفكرون فيما تدل؛ لانهماكهم في الدنيا حيث أقبلوا عليها، وأعطوها قلوبهم، وأخضعوا لها جوارحهم.

والزمان في الحياة الدنيا يفنى وينقضي، وكل من على الأرض من المخلوقات فإنه سيفنى، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧].

وأما الزمان في الدار الآخرة فإنه باق، والحياة دائمة لا تنقطع، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت:٦٤]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء:٥٧]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ۝١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء:١٦٨-١٦٩]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝٦٤ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٥]، ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٩﴾ [التغابن:٩]، ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۝٢٣﴾ [الجن: ٢٣]...إلى غير ذلك من الآيات.

وفي الحديث: عن أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**يُؤْتَى بالموت كهيئة كبشٍ أَمْلَحَ، فينادي مناد: يا أهل الجنة، فَيَشْرَئِبُّونَ وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، ثم ينادي: يا أهل النار، فيشرئبون وينظرون، فيقول: وهل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، فيذبح ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت**»، ثم قرأ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾ [مريم:٣٩]، وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٩﴾ [مريم:٣٩] (١).

(١) صحيح البخاري [٤٧٣٠]، مسلم [٢٨٤٩].

ثالثًا: مواضع ودلالات القسم بالزمن في القرآن الكريم:

١ – القسم بالعصر:

وقد تقدم.

٢ – القسَمُ بالعُمر:

إن من القسم ما يكون صريحًا، ومنه ما هو غير صريح:

فالقسم الصريح: ما يعلم بمجرد لفظه كون الناطق به مقسمًا، كأحلف بالله، وأنا حالف بالله، ولعَمْر الله، وايمن الله (١).

فقولك: (لعمر الله لأنصرن المظلوم)، فـ: (اللام) للابتداء، و(عمر الله) مبتدأ ومضاف إليه، والخبر محذوف وجوبًا، تقديره: قسمي.

ومن ذلك قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٢﴾ [الحجر:٧٢]، أي: لعمرك يميني، أو قسمي.

وغير الصريح: ما ليس كذلك، نحو: علم الله، وعاهدت، وواثقت، وعليَّ عهد الله، وفي ذمَّتي ميثاق.

---

(١) قال الجوهري: "و(ايمن الله): اسم وضع للقسم، هكذا بضم الميم والنون، وهو جمع: يمين، وألفه ألف وصل عند أكثر النحويين، ولم يجئ في الأسماء ألف الوصل مفتوحة غيرها، وربما حذفوا منه النون فقالوا: (أَيْمُ الله) بفتح الهمزة وكسرها. وربما أبقوا الميم وحدها فقالوا: (مُ اللَّهِ)، و(مِ اللَّهِ) -بضم الميم وكسرها-. وربما قالوا: (مُنُ اللَّهِ) بضم الميم والنون، و(مَنَ اللَّهِ) بفتحهما، و(مِنِ اللَّهِ) بكسرهما. ويقولون: (يمين) الله لا أفعل". الصحاح، للجوهري، مادة: (يمن) (٦/٢٢٢١).

فقولك: عهد الله يستعمل في القسم وفي غير القسم، تقول في القسم: عهد الله لأفعلن، وفي غيره: عهد الله يجب الوفاء به؛ فلذلك يجوز ذكر الخبر، تقول: علي عهد الله(١).

ويجب حذف الخبر بعد القسم الصريح، نحو: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحجر:٧٢]، أي: لعمرك يميني، أو قسمي -كما تقدم-.

قال العلماء: أقسم الله عَزَّوَجَلَّ بمدة حياة النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ [الحجر:٧٢]؛ لبيان مكانته ورفعة منزلته عند الله عَزَّوَجَلَّ.

قال الزجاج رَحِمَهُٱللَّهُ: "هذه الآية آية عظيمة في تفضيل النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، -أعني: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لَعَمْرُكَ﴾- جاء في التفسير أنه قسم بحياة محمد صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كذلك أكثر التفسير، وقد جاء في بعض التفسير: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ كلمة من كلام العَرَبِ، ولسْت أحِبُّ هذا التفسير؛ لأن قوله: كلمة من كلام العرب لا فائدة فيه؛ لأن القرآن كله عربي مبين، وَكَلِمُهُ من كلام العرب، فلا بد من أن يقال ما مَعْنَاهَا.

وقال سيبويه والخليل رَحِمَهُمَاٱللَّهُ(٢): وجَميعُ أهل اللغة: العَمْرُ والعُمْرُ بمعنًى واحدٍ. فإذا استعمل في القسم فتح أوله لا غير، لا تقول العربُ إلا لعَمْرُكَ، وإنما آثروا الفتح في القسم؛ لأن الفتح أخف عليهم، وهم يكثرون القَسَمَ بِلَعَمْرِي، ولعَمْرُكَ، فلما كثر استعمالهم إياهُ لزموا الأخَفَّ عليهم.

وقال النحويون: ارتفع ﴿لَعَمْرُكَ﴾ بالابتداء والخبر محذوف، والمعنى: لعَمْرك قَسَمِي، ولعَمْرُكَ ما أقسِمَ به. وحذف الخبَرِ؛ لأنَّ في الكلام دليلًا عليه.

---

(١) انظر: شرح قطر الندى وبل الصدى، لابن هشام (١/١٢٦).

(٢) انظر: الكتاب، لسيبويه (١/٢١٠).

والمعنى: أقسم إنهم لفي سكرتهم ﴿يَعْمَهُونَ ۝٧٢﴾ [الحجر:٧٢]، ومعنى: ﴿يَعْمَهُونَ ۝٧٢﴾: يتحيَّرون.

وباب القسم قد يحذْف معه الفعل، تقول: واللَّه لأفعَلَنَّ، وتاللَّه لأفعَلَنَّ، والمعنى: أحلف باللَّه، وأحلف واللَّه، فيحذف أحلف لعلم المخاطب بأنك حالف، وكذلك يحذف خبر الابتداء -كما ذكرنا-" (١).

قال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اتفق أهل التفسير في هذا أنه قسم من الله جَلَّ وَعَلَا بمدة حياة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" (٢).

وكذا حكى إجماع المفسرين على هذا المعنى أبو بكر بن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث قال: "قال المفسرون بأجمعهم: أقسم الله عَزَّ وَجَلَّ هنا بحياة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ تشريفًا له، أن قومه من قريش في سكرتهم يعمهون، وفي حيرتهم يترددون" (٣).

وقال: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٢﴾ [الحجر:٧٢] أراد به: الحياة والعيش، يقال: عُمْرٌ وَعَمْرٌ -بضم العين وفتحها- لغتان، وقالوا: إن أصلها الضم، ولكنها فتحت في القسم خاصة؛ لكثرة الاستعمال؛ والاستعمال إنما هو في غير القسم، فأما القسم فهو بعض الاستعمال؛ فلذلك صارا لغتين. فتدبروا هذا" (٤). قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿لَعَمْرُكَ﴾: «**لعيشك**» (٥).

---

(١) معاني القرآن وإعرابه (٣/١٨٣-١٨٤).

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (١/٨٦).

(٣) أحكام القرآن (٣/١٠٥)، وانظر: تفسير القرطبي (١٠/٣٩).

(٤) أحكام القرآن، لابن العربي (٣/١٠٥).

(٥) انظر: صحيح البخاري (٦/٨٠)، (٨/١٣٥)، التوضيح لشرح الجامع الصحيح، لابن الملقن (٢٢/٥٠٨).

وقال ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (القانون): "فأما الرب جَلَّ وَعَلَا فله أن يعظِّم ما شاء من مخلوقاته، ومن تعظيمها عنده أن يقسم بها، ألا ترى أنه أقسم بحياة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ إكرامًا له وتشريفًا فقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٢﴾" [(١)].

وأخرج ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، في قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٢﴾ قال: ما حلف الله عَزَّ وَجَلَّ بحياة أحد إلا بحياة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: وحياتك يا محمد وعمرك وبقائك في الدنيا ﴿إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٢﴾ [(٢)]. وسيأتي بيان معنى: العُمر مفصلًا في (ألفاظ الزمن).

٣ – القسم بيوم القيامة:

أ. دلالة القسم بيوم القيامة:

أقسم الله عَزَّ وَجَلَّ بيوم القيامة؛ للتنبيه على عظيم هوله، وأنه يوم الفصل والعدل، وإفاضة فضله، وأنه يوم ينبغي أن يتهيأ له العباد بصالح بالأعمال الصالحة، فهو لا ينفع فيه مال ولا بنون ولا نسب إلا من أتى الله عَزَّ وَجَلَّ بقلب سليم، فقدم بين يديه عملًا وترك أثرًا طيبًا باقيًا.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ۝١٠١ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝١٠٣﴾ [المؤمنون:١٠١-١٠٣].

---

(١) قانون التَّأويل، لأبي بكر بن العربي (ص:٤٩١).

(٢) تفسير الطبري (١٧/١١٨).

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾ [يس:١٢].

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**» (١).

ب. مواضع القسم بيوم القيامة في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ:

*القسم بيوم القيامة في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۝١﴾ [القيامة:١].

وقد أدخلت (لا) النافية على فعل القسم في بعض المواضع، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ [القيامة:١-٢].

وقد قيل: إن (لا) في الموضعين نافية لمحذوف يناسب المقام، والتقدير مثلًا: لا صحة لما تزعمون أنه لا حساب ولا عقاب، ثم استأنف فقال: أقسم بيوم القيامة، وبالنفس اللوامة، أنكم ستبعثون.

وقيل: (لا) لنفي القسم كأنه قال: لا أقسم عليك بذلك اليوم وتلك النفس، ولكني أسألك غير مقسِم، أتحسب أنَّا لا نجمع عظامك إذا تفرقت بالموت؟ إن الأمر من الظهور بحيث لا يحتاج إلى قسم.

وقيل: (لا) زائدة، وجواب القسم في الآية المذكورة محذوف دل عليه قوله بعد: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ [القيامة:٣] ...الخ، والتقدير: لتبعثن ولتحاسبن (٢).

(١) صحيح مسلم [١٦٣١].

(٢) قال الزمخشري: "وجواب القسم ما دل عليه قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣﴾ [القيامة:٣]، وهو: (لتبعثن)" الكشاف (٤/٦٥٩). وقيل: الجواب: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾. وقيل: هو ﴿بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ﴾ [القيامة:٤]، وقيل: المعنى على نَفْي القسم، والمعنى: إني لا أقسم على شيء، ولكن أسألُك:=

والتحقيق أن القسم المسبوق بالنفي هو عبارة من عبارات القسم وليست (لا) نافية -كما ادعى البعض-؛ لظهور الأمر واستغنائه عن التحقيق؛ إذ إنه مردود بتعين المقسم به بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝﴾ [الواقعة:٧٥-٧٦]. فقد صرح بالقسم هنا، وليس بعد بيان الله عَزَّوَجَلَّ بيان. وتوكيد الأمر عن طريق النفي مألوف في لغة العرب، فإنك إذا قلت لصاحبك: (لا أوصيك بفلان)، فإنما تريد تأكيد الوصية، وتبالغ في الاهتمام به، فتبلغ بالنفي ما لا تبلغه من غيره، فإن نفي القسم استعمل في القسم في موضعه من طريق آكد وأبلغ.

*ومن القسم بيوم القيامة قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝﴾ [البروج:٢] بعد قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝﴾ [البروج:١]، فاليوم الموعود هو يوم القيامة الذي وعد الله عَزَّوَجَلَّ عباده؛ لفصل القضاء بينهم فيه.

وقوله جَلَّوَعَلَا في الآية التالية: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝﴾ [البروج:٣]. قال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الشاهد: يوم الجمعة، ﴿وَمَشْهُودٍ ۝﴾: يوم عرفة.

وقيل: ﴿وَشَاهِدٍ﴾ يعني به: النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. و﴿وَمَشْهُودٍ ۝﴾ يوم القيامة، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ۝﴾ [هود:١٠٣]" (١).

وقيل: المراد بالشاهد: من يشهد فيه من الخلائق كلهم، وبالمشهود: ما في ذلك اليوم من عجائبه، وتنكرهما؛ للإبهام في الوصف، أي: وشاهد ومشهود لا يكتنه وصفهما، أو للمبالغة. قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقد اضطربت أقاويل المفسرين فيهما" (٢).

=أيحسبُ الإنسان. وهذه الأقوالُ شاذة منكرة لا تصح. انظر: البحر المحيط في التفسير (١٠/٣٤٤)، الدر المصون (١٠/٥٦٥)، مفاتيح الغيب (٣٠/٧٢١).

(١) معاني القرآن وإعرابه (٥/٣٠٧).

(٢) انظر: الكشاف (٤/٧٢٩)، تفسير أبي السعود (٩/ ١٣٥).

وقال ابن جزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يحتمل الشاهد والمشهود أن يكون من الشهادة على الأمر، أو يكون من معنى الحضور، وحذف المعمول وتقديره: مشهود عليه أو مشهود به أو مشهود فيه.

وقد اضطرب الناس في تفسير الشاهد والمشهود اضطرابًا عظيمًا، ويتلخص من أقوالهم في الشاهد ستة عشر قولًا، يقابلها في المشهود اثنان وثلاثون قولًا..." (١).

وقد روى الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«اليوم الموعود: يوم القيامة، واليوم المشهود: يوم عرفة، والشاهد: يوم الجمعة، وما طلعت الشمس ولا غربت على يوم أفضل منه، فيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو الله بخير إلا استجاب الله له، ولا يستعيذ من شيء إلا أعاذه الله منه»** (٢).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهكذا روى هذا الحديث ابن خزيمة، من طرق عن موسى بن عبيدة الربذي–وهو ضعيف الحديث–وقد روي موقوفًا على أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وهو أشبه" (٣).

---

(١) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل (٢/٤٦٧).

(٢) أخرجه الترمذي [٣٣٣٩]، وقال: "هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث: موسى بن عبيدة، وموسى بن عبيدة يضعف في الحديث، ضعفه يحيى بن سعيد وغيره من قبل حفظه. وقد روى شعبة، وسفيان الثوري، وغير واحد من الأئمة عن موسى بن عبيدة. حدثنا علي بن حجر قال: حدثنا قران بن تمام الأسدي، عن موسى بن عبيدة، بهذا الإسناد نحوه. وموسى بن عبيدة الربذي يكنى: أبا عبد العزيز، وقد تكلم فيه يحيى بن سعيد القطان وغيره من قبل حفظه".

(٣) تفسير ابن كثير (٨/٣٦٤).

والموقوف رواه أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال في هذه الآية: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾ [البروج:٣]، قال: «**الشاهد: يوم الجمعة، والمشهود: يوم عرفة، والموعود: يوم القيامة**» (١).

وفي (المرقاة): "تقديم اليوم المشهود في حديث: «**اليوم المشهود: يوم عرفة، والشاهد: يوم الجمعة**» الآنف الذكر. مع أن في القرآن: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾ [البروج:٣]، إشارة إلى أعظمية يوم عرفة وأفضليته، أو إلى أكثرية جمعيته فتشابه القيامة بالجمعية والهيئة الإحرامية، فكأنها قيامة صغرى، وهم معروضون على ربهم كالعرضة الكبرى" (٢).

قال الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يعني: أنه جَلَّ وَعَلَا عظم شأنه في سورة البروج، حيث أقسم به، وأوقعه واسطة العقد لقلادة اليومين العظيمين، ونكره لضرب من التفخيم، وأسند إليه الشهادة على سبيل المجاز؛ لأنه مشهود فيه، نحو: نهاره صائم، وليله قائم، يعني: وشاهد في ذلك اليوم الشريف الخلائق؛ لتحصيل السعادة الكبرى" (٣).

قال القاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والأظهر أنه يشهد لمن حضره من المصلين، والذاكرين، والداعين، وسيأتي أنه مشهود تشهده الملائكة فهو شاهد ومشهود، كما قيل في حقه تعالى: هو الحامد وهو المحمود" (٤).

والحاصل أن القسم بيوم القيامة للتنبيه على عظيم هوله، وأنه يوم الفصل والعدل، وإفاضة فضله.

---

(١) أخرجه أحمد [٧٩٧٣].

(٢) مرقاة المفاتيح (٣/١٠١٧-١٠١٨).

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٤/١٢٦٧).

(٤) مرقاة المفاتيح (٣/١٠١٨).

٤ – القسم بالصبح:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ۝٣٤﴾ [المدثر:٣٤].

﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨﴾ [التكوير:١٨].

وسيأتي تفسير كلٍّ من: (الصبح)، و(الإسفار)، و(تنفس الصبح) في بيان ألفاظ الزمن.

٥ – القسم بالفجر:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣﴾ [الفجر:١-٣].

قال الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قسم أقسم الله عَزَّوَجَلَّ به، وهو انفجار الصبح من أفق المشرق.

وفي قسم الله عَزَّوَجَلَّ بالفجر أربعة أقاويل: **أحدها:** أنه عنى به النهار، وعبر عنه بالفجر؛ لأنه أوله. **الثاني:** أن الفجر الصبح الذي يبدأ به النهار من كل يوم. **الثالث:** أنه عنى به صلاة الصبح. **الرابع:** أنه أراد به فجر يوم النحر خاصة" (١).

وقال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الفجر: انفجار الصبح من الليل، وجواب القسم: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾ [الفجر:١٤]" (٢).

وقال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أقسم بالفجر كما أقسم بالصبح في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ۝٣٤﴾ [المدثر:٣٤]، ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨﴾ [التكوير:١٨]. وقيل: بصلاة الفجر" (٣).

وسيأتي بيان معنى: (الفجر) مفصلًا في (ألفاظ الزمن).

---

(١) النكت والعيون (٦/٢٦٤-٢٦٥).

(٢) معاني القرآن وإعرابه (٥/٣٢١).

(٣) الكشاف (٤/٧٤٦).

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلۡفَجۡرِ ١﴾ [الفجر:١] (الواو) حرف قسم وجر، و(الفجر) مجرور بواو القسم، والجار والمجرور متعلقان بأقسم.

وجواب القسم في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلۡفَجۡرِ ١﴾ قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ١٤﴾ [الفجر:١٤] (١). قاله الزجاج (٢) -كما تقدم- وابن الأنباري، والعكبري(٣)، والفيروزآبادي (٤)، والكرماني (٥)، وأبي عمرو الداني رَحِمَهُمَاٱللَّهُ (٦)، وينسب للخليل بن أحمد الفراهيدي رَحِمَهُٱللَّهُ (٧).

وعند الحاكم: عن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: «﴿وَٱلۡفَجۡرِ ١﴾ قال: قَسَمُ ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ١٤﴾ (٨) »، والمعنى: أن هذا جواب القسم (٩).

وفي (تفسير الرازي رَحِمَهُٱللَّهُ): "واعلم أن في جواب القسم وجهين:

الأول: أن جواب القسم هو قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ١٤﴾ وما بين الموضعين معترض بينهما.

---

(١) فالجملة لا محل لها؛ لأنها تعليل لما قبلها، و(إن) واسمها، و(اللام المزحلقة) و(بالمرصاد) متعلقان بمحذوف خبر (إن).

(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه (٥/٣٢١).

(٣) انظر: التبيان في إعراب القرآن (٢/١٢٨٥).

(٤) انظر: بصائر ذوي التمييز (١/١١٦)، البحر المحيط في التفسير (١٠/٤٧١)، الدر المصون (١٠/٧٧٧)، الجواهر الحسان (٥/٥٨٦)، تفسير القرطبي (٢٠/٤٣).

(٥) انظر: غرائب التفسير وعجائب التأويل، لمحمود بن حمزة الكرماني (٢/١٣٣٨).

(٦) انظر: المكتفى في الوقف والابتدا (ص:٢٣٤).

(٧) انظر: الجمل في النحو، المنسوب للخليل بن أحمد الفراهيدي (ص:٢٠٩)

(٨) أخرجه الحاكم في (مستدركه) [٣٩٣٠]، وقال: "صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي، وأخرجه البيهقي في (الأسماء والصفات) [٩١٤].

(٩) انظر: التفسير البسيط، لأبي الحسن الواحدي (٢٣/٥٠٧).

الثاني: قال صاحب (الكشاف) رَحِمَهُ اللَّهُ: والمقسم عليه محذوف، وهو (لَيُعَذَّبَنَّ)، يدل عليه: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ [الفجر:٦] إلى قوله: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣﴾ [الفجر:١٣] (١).

وهذا أولى من الوجه الأول؛ لأنه لما لم يتعين المقسم عليه ذهب الوهم إلى كل مذهب، فكان أدخل في التخويف، فلما جاء بعده بيان عذاب الكافرين دل على أن المقسم عليه أولًا هو ذلك" (٢).

وقدره أبو حيان رَحِمَهُ اللَّهُ بما دَلَّتْ عليه خاتمةُ السورة قبلَه. قال: "والذي يظهر أن الجواب محذوف يدل عليه ما قبله من آخر (سورة الغاشية)، وهو قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾ [الغاشية:٢٥-٢٦]. وتقديره: لإيابهم إلينا، وحسابهم علينا" (٣).

والوجه في القول الأول: كونه محتملًا، ودلالة ما جاء عن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عليه؛ ولأن عدم التقدير أولى من التقدير، لكن قد يقال هذا عند عدم وجود نكتة على القول بحذف الجواب، وما ذكره جار الله الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ يتقوى لبلاغته؛ من حيث كونه أدخل في التخويف -كما تقدم-.

ويترجح قول الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ على قول أبي حيان رَحِمَهُ اللَّهُ من حيث عموم التقدير المستنبط من آيات السورة نفسها، والذي يقويه التناسب بين خاتمة السابقة والآيات في مطلع السورة اللاحقة.

---

(١) الكشاف (٤/٧٤٧).

(٢) تفسير الرازي (٣١/١٥٢).

(٣) البحر المحيط في التفسير (١٠/٤٧١)، وانظر: الدر المصون (١٠/٧٧٧).

والقول بالمناسبة بناء على ذلك قول حسن يبرز روعة التناسق بين سور القرآن الكريم.

وقد ضعَّف ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يكون جواب القسم قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر:١٤]، قال: "وهذا ضعيف لوجهين:

أحدهما: طول الكلام، والفصل بين القسم وجوابه بجمل كثيرة.

والثاني: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ ذكر لتقرير عقوبة الله عَزَّوَجَلَّ الأمم المذكورة، وهي: عاد، وثمود، وفرعون، فذكر عقوبتهم، ثم قال مقررًا ومحذرًا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ فلا ترى تعلقه بذلك دون القسم.

وأحسن من هذا أن يقال: إن الفجر في الليالي العشر زمن يتضمن أفعالًا معظمة من المناسك، وأمكنة معظمة، وهي محلها، وذلك من شعائر الله عَزَّوَجَلَّ المتضمنة خضوع العبد لربه جَلَّ وَعَلَا؛ فإن الحج والنسك عبودية محضة لله عَزَّوَجَلَّ، وذل وخضوع لعظمته، وذلك ضد ما وصف به عادًا، وثمود، وفرعون، من العتو، والتكبر، والتجبر؛ فإن النسك يتضمن غاية الخضوع لله عَزَّوَجَلَّ وهؤلاء الأمم عتوا وتكبروا عن أمر ربهم.

قال: فالزمان المتضمن لمثل هذه الأعمال أهل أن يقسم الرب عَزَّوَجَلَّ به ﴿وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾﴾ إن أريد به جنس الفجر، فإنه يتضمن وقت صلاة الصبح التي هي أول الصلوات، فافتتح القسم بما يتضمن أول الصلوات، وختمه بقوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾﴾ المتضمن لآخر الصلوات، وإن أريد بالفجر فجر مخصوص فهو فجر يوم النحر وليلته التي هي ليلة عرفة، فتلك الليلة من أفضل ليالي العام.

قال: وعلى هذا فقد تضمن القسم المناسك والصلوات، وهما المختصان بعبادة الله عَزَّوَجَلَّ، والخضوع له، والتواضع لعظمته، بخلاف حال المشركين المتكبرين الذين لا يعبدون الله عَزَّوَجَلَّ وحده، بل يشركون به ويستكبرون عن عبادته ،كحال من ذكر في هذه السورة.

وذكر جَلَّوَعَلَا من جملة هذه الأقسام: ﴿وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ٣﴾، إذ هذه الشعائر المعظمة منها: شفع، ومنها: وتر في الأمكنة والأزمنة والأعمال فالصفا والمروة شفع، والبيت وتر، والجمرات وتر، ومنى ومزدلفة شفع، وعرفة وتر. وأما الأعمال فالطواف وتر، وركعتاه شفع، والطواف بين الصفا والمروة وتر، ورمي الجمار وتر، كل ذلك سبع سبع، وهو الأصل؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ وتر يحب الوتر، والصلاة منها: شفع، ومنها: وتر..الخ.

إلى أن قال: فلما تضمن هذا القسم ما جاء به إبراهيم ومحمد عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ كان في ذلك ما دل على المقسم عليه؛ ولهذا اعتبر القسم بقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ٥﴾ [الفجر: ٥]؛ فإن عظمة هذا المقسم به يعرف بالنبوة، وذلك يحتاج إلى حجر يحجر صاحبه عن الغفلة، واتباع الهوى ويحمله على اتباع الرسل عَلَيۡهِمُٱلسَّلَامُ؛ لئلا يصيبه ما أصاب من كذب الرسل عَلَيۡهِمُٱلسَّلَامُ، كعاد وفرعون وثمود..إلى آخر ما ذكره" [1].

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص:٢٧-٣٣).

حاصل ما قيل في الجواب، والتعقيب على أورده ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وحاصل ما قيل في الجواب:

١ – قيل إن الجواب مذكور، وهو قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ١٤﴾ قاله غير واحد.

٢ – قيل جواب القسم محذوف؛ لدلالة المعنى عليه، أي: ليجازي كل واحد بما عمل، بدليل ما فعل بالقرون الخالية.

وقدَّره الزمخشريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ليُعذبنَّ)، قال: يدل عليه قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ [الفجر:٦] إلى قوله: ﴿فَصَبَّ﴾ [الفجر:١٣].

وقدره أبو حيَّان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بما دلت عليه خاتمة السورة قبله، أي: لإيابهم إلينا، وحسابهم علينا.

٣ – قال مقاتل: ﴿هَلۡ﴾ [الفجر:٥] هنا: في موضع: (إنَّ) تقديره: إنَّ في ذلك قسمًا لذي حجر، فـ: ﴿هَلۡ﴾ على هذا في موضع جواب القسم. انتهى [١]. وفي (البحر): "قول مقاتل لم يصدر عن تأمل، لأن المقسم عليه على تقدير أن يكون التركيب: (إن في ذلك قسمًا لذي حجر) لم يذكر، فيبقى قسم بلا مقسم عليه؛ لأن الذي قدره من (أن في ذلك قسمًا لذي حجر) لا يصح أن يكون مقسمًا عليه" [٢].

وقال الشيخ شهاب الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهذا قول باطل؛ لأنه لا يصلح أن يكون مقسمًا عليه تقدير تسليم أنَّ التركيب هكذا، وإنما ذكرناه؛ للتنبيه على سقوطه" [٣].

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٢٠/٤٣).

(٢) البحر المحيط في التفسير (١٠/٤٧١).

(٣) الدر المصون (١٠/٧٧٧).

أما كون الجواب محذوفًا ومقدَّرًا فلا يرد عليه اعتراض ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ من التقابل بين ما تضمن القسم من المناسك والصلوات، وهما المختصان بعبادة الله عَزَّوَجَلَّ، والخضوع له، والتواضع لعظمته، وبين حال المشركين المتكبرين المشابه لحال من ذكر في هذه السورة، وهو لا ينهض؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ يقسم بالشيء وما يقابله، فيقع القسم بالليل والنهار، وبالفجر والليالي، ونحو ذلك؛ لأن الشيء يذكر بذكر ضده.

وهل في الكلام دلالة على ذلك الكلام المقدر؟

ذكر الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ -مثلًا- أن في الكلام دلالة على ذلك الكلام المقدَّر؛ إذ إن قوله: إن الجواب: (لَيُعَذَّبَنَّ)، وهو مستفاد من قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ [الفجر:٦] إلى قوله: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾ [الفجر:١٣]، فالدلالة على الجواب بينة، ثم إن قدر بأن يجازى كلٌّ على ما عمل، فيعذب من يعذب، ويثاب من يثاب، فيه دلالة كذلك من ذلك حال الكفار ويفهم مما يقابه حال ما أطاع واتقى، كما يتقوى بذكر التناسب الآنف الذكر، وقد تقدم أن القول بالمناسبة بين سور القرآن الكريم قول حسن يبرز روعة التناسق.

ولا يرد الاعتراض إلا إذا كانت النكتة غير ظاهرة على القول بأن الجواب محذوف ومقدر، وقد ذكرنا من قبل النكتة في ذلك التقدير، وبأنه إذا لم يذكر المقسم عليه ذهب الوهم إلى كل مذهب، فكان أدخل في التخويف، فلما جاء بعده بيان عذاب الكافرين دل على أن المقسم عليه أولًا هو ذلك.

كما لا ينهض تضعيفه للقول الأول، وقد تقدم ذكر الوجه فيه؛ إذ إن تأخر الجواب في الآيات لا يضر، وهو كثير في كلام العرب، ولا سيما مع ترابط المعنى، ووجود نكتة مسوغة من نحو: التشويق إلى الجواب.. إلى غير ذلك مما تقدم بيانه.

ومحصل الكلام إن قلنا: إن جواب القسم مذكور فلذلك وجه قد بيناه، وإن قلنا: إنه محذوف مقدر، فله وجه قد بيناه، ويبقى النظر في ترجيح أحد القولين على الآخر -كما تقدم-.

٦ - القسم بالليالي العشر:

وأما قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ [الفجر:٢]. فقيل هو قسم ثانٍ معطوف على الأول؛ أي: أقسم بليال عشر من أول شهر ذي الحجة، وهذا ما عليه جمهور المفسرين، وتنكيرها للتعظيم؛ لأنها مخصوصة بفضائل ليست لغيرها.

قال: وفيه أربعة أقاويل:

أحدها: هي عشر ذي الحجة.

الثاني: هي عشر من أول المحرم، حكاه الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الثالث: هي العشر الأواخر من شهر رمضان.

الرابع: هي عشر موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ التي أتمها الله عَزَّوَجَلَّ له [(١)].

وهي عشر ذي الحجة في قول جمهور المفسرين [(٢)]، وتنكيرها للتعظيم [(٣)].

---

(١) انظر: النكت والعيون (٦/٢٦٥)، تفسير الطبري (٢٤/٣٩٦)، أحكام القرآن، لابن العربي (٤/٣٨٦).

(٢) انظر: تفسير القرآن من الجامع لابن وهب (ص:٤٩)، تفسير عبد الرزاق (٣/٤٢٢)، معاني القرآن وإعرابه (٥/٣٢١)، تفسير الطبري (٢٤/٣٩٦)، تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (١٠/٣٤٢٣)، التفسير البسيط (٢٣/٤٨٥)، الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٤/٤٧٨-٤٧٩)، الدر المنثور (٨/٥٠٠-٥٠٢)، التسهيل لعلوم التنزيل (٢/٤٧٨)، روح المعاني (١٥/٣٣٤).

(٣) انظر: الكشاف (٤/٧٤٦)، تفسير البيضاوي (٥/٣٠٩).

وفي الحديث: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١﴾ [الفجر:١] قال: «**فجر النهار**»، ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ [الفجر:٢]، قال: «**عشر الأضحى**» (١).

وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن العشر: عشر الأضحى، والوتر: يوم عرفة، والشفع: يوم النحر**» (٢).

وروى الفراء رَحِمَهُ اللَّهُ: عن الأسود بن يزيد رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١﴾ قال: هو فجركم هذا. ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ قال: عشر الأضحى (٣).

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأما الليالي العشر فهي عشر ذي الحجة، هذا الصحيح الذي عليه جمهور المفسرين من السلف وغيرهم، وهو الصحيح عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا روي عنه من غير وجه" (٤).

---

(١) أخرجه الحاكم [٣٩٢٧]، وقال: "صحيح الإسناد" ووافقه الذهبي، كما أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) [٣٤٧٢].

(٢) أخرجه أحمد [١٤٥١١]، النسائي في (الكبرى) [١١٦٠٨]، والبزار كما في (كشف الأستار) [٢٢٨٦]، قال الهيثمي (١٣٧/٧): "رواه البزار، وأحمد، ورجالهما رجال الصحيح غير عياش بن عقبة وهو ثقة"، وأخرجه أيضًا: الحاكم [٧٥١٧]، وقال: " صحيح على شرط"، ووافقه الذهبي، كما أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) [٣٤٦٨]. وقد أعل البعض الحديث بعنعنة أبي الزبير، حيث لم يصرح بسماعه من جابر. قال ابن كثير في (التفسير) (٣٩١/٨): "هذا إسناد رجاله لا بأس بهم، وعندي أن المتن في رفعه نكارة -والله أعلم-".

(٣) معاني القرآن، للفراء (٢٥٩/٣).

(٤) لطائف المعارف (٢٦٨/١).

وفي السنة بيان فضيلة عشر ذي الحجة، وعشر رمضان كما هو معلوم؛ فإن جعل الفجر خاصًّا بيوم النحر، كان عشر ذي الحجة أقرب للسياق (١)، وسيأتي بيان فضل عشر ذي الحجة، والعشر الأواخر من شهر رمضان في (الأزمنة الفاضلة).

*** *** *** *** ***

٧ – القسم بالشفع والوتر:

وأما قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣﴾ [الفجر:٣] فهذا قسم ثالث، حكى الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معناه تسعة أقاويل (٢):

فقيل: إن المراد من قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلشَّفْعِ﴾: الصلاة؛ فإن فيها: شفعًا، ووترًا.

وقيل: المراد: صلاة المغرب شفعها ركعتان، ووترها الثالثة.

وقيل: الشفع: يوم بالنحر، ﴿وَٱلْوَتْرِ ۝٣﴾: يوم عرفة.

وقيل: الشفع: يوما منى، ﴿وَٱلْوَتْرِ ۝٣﴾ ثالثهما.

وقيل: الشفع عشر ذي الحجة ﴿وَٱلْوَتْرِ ۝٣﴾: أيام التشريق.

وقيل: الشفع: جميع الخلق: كالأرض، والسماء، والحيوان، والنبات؛ للازدواج فيه للازدواج فيه، كما روي عن مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات:٤٩]: الكفر والإيمان، والشقاء والسعادة، والهدى والضلالة، والليل والنهار، والسماء والأرض، والجن والإنس، والبر والبحر، والشمس والقمر، وبكرة وعشية،

(١) انظر: تتمة أضواء البيان (٥٢١/٨).

(٢) انظر: النكت والعيون (٢٦٥/٦-٢٦٦).

ونحو هذا كله، والوتر: الله عَزَّوَجَلَّ[١]؛ لأنه لا مثيل له، فهو بمعنى: الواحد الأحد. فأقسم الله عَزَّوَجَلَّ بذاته وخلقه.

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهو الذي ذكره البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (صحيحه)[٢]؛ فإنه يعتمد قول مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لأنه أصح التفسير، قال الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا جاءك التفسير عن مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ فحسبك به، واختاره الشيخ مجد الدين ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ "[٣].

وقيل: الخلق كله شفع ووتر. فجميع الموجودات من الذوات والمعاني؛ لأنها لا تخلو من شفع ووتر.

وقيل: الشفع آدم وحواء عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ؛ لأنه كان وترًا فشفع بها فصار شفعًا بعد وتر.

وقيل: العدد لأن جميعه شفع ووتر.

فهذه أقوال تسعة.

أما الترجيح بين هذه الأقوال فقد تقدم أن الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد رجَّح قول مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ الآنف الذكر.

وفي (العين): "الشَّفع: ما كان من العدد أزواجًا. تقول: كان وترًا فشفعته بالآخَر حتى صار شفعًا، وفي القرآن: ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣﴾، الشفع: يوم النَّحر، ﴿وَٱلْوَتْرِ ۝٣﴾: يوم عَرَفة.

ويقال: الشفع الحصا، يعني: كثرة الخلق، والوتر الله عَزَّوَجَلَّ" [٤].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٣٩٨/٢٤)، تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (٨٣٤٢٤/١٠)، تفسير ابن كثير (٣٩٢/٨)، الدر المنثور (٦٢٣/٧).

(٢) انظر: صحيح البخاري (١٣١/٤).

(٣) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي (٥٤٩/٢).

(٤) العين، مادة: (شفع) (٢٦٠/١)، وانظر:معاني القرآن وإعرابه (٣٢١/٥).

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذكره أقسم بالشفع والوتر، ولم يخصص نوعًا من الشفع، ولا من الوتر دون نوع بخبر ولا عقل، وكل شفع ووتر فهو مما أقسم به مما قال أهل التأويل: إنه داخل في قسمه هذا؛ لعموم قسَمه بذلك" [١].

وقال محمد الطاهربن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "تنكير: ليال، وتعريف الشفع والوتر مشير إلى أن الليالي العشر ليال معينة، وهي عشر ليال في كل عام، وتعريف الشفع والوتر يؤذن بأنهما معروفان، وبأنهما الشفع والوتر من الليالي العشر.

وفي تفسير الشفع والوتر أقوال ثمانية عشر [٢]، وبعضها متداخل، استقصاها القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأكثرها لا يحسن حمل الآية عليه؛ إذ ليست فيها مناسبة للعطف على ليال عشر" [٣].

وهو الأقرب إلى الصواب؛ لدلالة السياق والروايات عليه، كما جاء مبينًا في المعنى المراد من الليالي العشر -الآنف الذكر-.

*** *** *** *** ***

٨ - القسم بالليل إذا يسر:

قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ٤﴾ [الفجر:٤] قَسَمٌ رابع، وقد حكى الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معناه ثلاثة أوجه:

أحدها: هي ليلة القدر؛ لسراية الرحمة فيها، واختصاصها بزيادة الثواب فيها.

الثاني: هي ليلة المزدلفة خاصة؛ لاختصاصها باجتماع الناس فيها لطاعة الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) تفسير الطبري (٢٤/٤٠٠).

(٢) وقد تقدم أنها تسعة أقوال.

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/٣١٤-٣١٥).

الثالث: أنه أراد عموم الليل كله.

وفي قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِذَا يَسْرِ ۝٤﴾ ثلاثة أوجه:

أحدها: إذا أظلم.

الثاني: إذا سار؛ لأن الليل يسير بمسير الشمس والفلك، فينتقل من أفق إلى أفق. ومنه قولهم: جاء الليل وذهب النهار.

الثالث: إذا سار فيه أهله؛ لأن السرى سير الليل [(١)].

وقال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤﴾ أي: والليل إذا سار فذهب، يقال منه: سرى فلان ليلًا يَسْرِي: إذا سار. وقال بعضهم: عُنِيَ بقوله: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤﴾: ليلة جَمْع، وهي ليلة المزدلفة" [(٢)].

وقد قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو رَحِمَهُمُ اللَّهُ: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَسْرِى﴾ بالياء في الوصل، وأثبتها ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في الوقف؛ لأن الياء لام الفعل من سرى يسري، مثل: قضى يقضي، فوقف على الأصل.

ومن أثبت الياء في الوصل وحذف في الوقف تبع المصحف في الوقف، والأصل في الوصل، وحذفها أهل الشام والكوفة، والكسرة تنوب عن الياء [(٣)].

قال الفراء رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقد قرأ القراء: ﴿يَسْرِى﴾ بإثبات الياء، و﴿يَسْرِ ۝٤﴾ بحذفها، وحذفها أحب إلي لمشاكلتها رؤوس الآيات، ولأن العرب قد تحذف الياء، وتكتفي بكسر ما قبلها منها" [(٤)].

---

(١) انظر: النكت والعيون (٦/٢٦٦-٢٦٧).

(٢) تفسير الطبري (٢٤/٤٠١).

(٣) حجة القراءات، لأبي زرعة بن زنجلة (١/٧٦١).

(٤) معاني القرآن، للفراء (٣/٢٦٠).

وقال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فأما ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ۝٤﴾ فحذفت الياء؛ لأنها رَأسُ آية، ورُؤُوس الآي الحذف جائز فيها كما يجوز في آخر الأبيات.

و﴿إِذَا يَسۡرِ ۝٤﴾: إذا مَضىَ. وقد قرئت: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِى﴾ بإثبات الياء.

واتباع المصحف وحذف الياء أَحَبُّ إليَّ؛ لأن القراءة بذلك أكثر.

ورُووس الآي فَوَاصِلُ تحذف معها اليَاءَات، وتدل عليه الكسرات" (١).

قال الثعالبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "العرب تزيد وتحذف؛ حفظًا للتوازن، وإيثارًا له، أما الزيادة فكما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠﴾ [الأحزاب:١٠]، وكما قال: ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ۝٦٧﴾ [الأحزاب:٦٧].

وأمَّا الحذف فكما قال جلَّ اسمه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ۝٤﴾ [الفجر:٤]، وقال: ﴿ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ۝٩﴾ [الرعد:٩]، وقال: ﴿يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ۝٣٢﴾ [غافر:٣٢]، و﴿يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ۝١٥﴾ [غافر:١٥]" (٢).

وقال جار الله الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وبعد ما أقسم بالليالي المخصوصة أقسم بالليل على العموم ﴿إِذَا يَسۡرِ ۝٤﴾: إذا يمضى، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ۝٣٣﴾ [المدثر:٣٣]، ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧﴾ [التكوير:١٧]" (٣).

وسيأتي بيان معنى: (السُّرَى) -مفصلًا- في ألفاظ الزمن.

---

(١) معاني القرآن وإعرابه (٢/١٢٥)، (٥/٣٢١).

(٢) فقه اللغة وسر العربية (ص:٢٣١).

(٣) الكشاف (٤/٧٤٦).

وجه الحكمة من القسم بهذه الأزمان:

وقد ذكر الإمام محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجه الحكمة من القسم بهذه الأزمان، حيث قال: "القسم بهذه الأزمان من حيث إن بعضها دلائل بديع صنع الله عَزَّوَجَلَّ، وسعة قدرته فيما أوجد من نظام يظاهر بعضه بعضًا، من ذلك: وقت الفجر الجامع بين انتهاء ظلمة الليل وابتداء نور النهار، ووقت الليل الذي تمحضت فيه الظلمة. وهي مع ذلك أوقات لأفعال من البر وعبادة الله عَزَّوَجَلَّ وحده، مثل: الليالي العشر، والليالي الشفع، والليالي الوتر.

والمقصود من هذا القسم: تحقيق المقسم عليه؛ لأن القسم في الكلام من طرق تأكيد الخبر إذ القسم إشهاد المقسم ربه جَلَّوَعَلَا على ما تضمنه كلامه.

وقسم الله عَزَّوَجَلَّ متمحض لقصد التأكيد" [(١)].

*** *** *** *** ***

٩ – تفسير قوله جَلَّوَعَلَا: **﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ۝٥﴾** [الفجر:٥]:

قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ۝٥﴾ [الفجر:٥]، أي: لذي عقل ولبٍّ، ومعنى الاستفهام في الآية: التفخيم والتعظيم للأمور المقسم بها [(٢)].

وقد حكى الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لِّذِي حِجۡرٍ ۝٥﴾ خمسة أقاويل:

أحدها: لذي عقل. **الثاني**: لذي حلم. **الثالث**: لذي دين. **الرابع**: لذي ستر. **الخامس**: لذي علم.

---

(١) التحرير والتنوير (٣١٢/٣٠).

(٢) انظر: مجاز القرآن، لأبي عبيدة (٧٣/٢)، إصلاح المنطق (ص:٢٠)، الصحاح، للجوهري، مادة: (حجر) (٦٢٣/٢)، معاني القرآن وإعرابه (٣٢١/٥).

والحجر: المنع، ومنه اشتق اسم الحجر؛ لامتناعه بصلابته؛ ولذلك سميت الحجرة؛ لامتناع ما فيها بها، ومنه سمي حجر المولَّى عليه لما فيه من منعه عن التصرف، فجاز أن يحمل معناه على كل واحد من هذه التأويلات؛ لما يضمنه من المنع.

وقال مقاتل (هل) ها هنا في موضع إنَّ، وتقدير الكلام: إن في ذلك القسم كفاية لذي اللب، يعني: ذا عقل [١].

وقيل: "هو قسم عظيم يؤكد بمثله المقسم عليه" قاله الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ [٢]. قال الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أي: في ذكر مثله أيضًا تعظيم، لأنه نحو قولك: مثلك يجود، والمعنى: قسم عظيم مُكف ومقنع في القسم" [٣]. قال في (التفسير الكبير): "المراد منه: التأكيد كمن ذكر حجة باهرة، ثم قال: هل فيما ذكرته حجة؟ والمعنى: أن من كان ذا لب علم أن ما أقسم الله عَزَّوَجَلَّ به من هذه الأشياء فيه عجائب ودلائل على التوحيد والربوبية، فهو حقيق بأن يقسم به؛ لدلالته على خالقه جَلَّوَعَلَا" [٤].

قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الحجر: العقل؛ لأنه يحجر عن التهافت فيما لا ينبغي، كما سمى عقلًا ونهية؛ لأنه يعقل وينهى. وحصاة: من الإحصاء، وهو الضبط" [٥].

وقال الفراء رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يقال: (إنه لذو حجر): إذا كان قاهرًا لنفسه ضابطًا لها، كأنه أخذ من قولك: حجرت على الرجل" [٦].

---

(١) انظر: النكت والعيون (٦/٢٦٧)، تفسير مقاتل (٤/٦٨٧).

(٢) الكشاف (٤/٧٤٧)

(٣) حاشية الطيبي على الكشاف (١٦/٤٢١).

(٤) التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) (٣١/١٥١).

(٥) الكشاف (٤/٧٤٧).

(٦) معاني القرآن، للفراء (٣/٢٦٠).

وعلى هذا سمي العقل حجرًا؛ لأنه يمنع من القبيح، من الحجر، وهو المنع من الشيء بالتضييق فيه.

وقال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يقول تعالى ذكره: هل فيما أقسمت به من هذه الأمور مقنع لذي حجر، وإنما عُنِيَ بذلك: إن في هذا القسم مكتفى لمن عقل عن ربه جَلَّ وَعَلَا، مما هو أغلظ منه في الإقسام. فأما معنى قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لِّذِى حِجۡرٍ ۝٥﴾ [الفجر:٥]: فإنه لِذِي حِجًي وذِي عقل؛ يقال للرجل إذا كان مالكا نفسه قاهرًا لها ضابطا: إنه لذو حِجْر، ومنه قولهم: حَجَر الحاكم على فلان" (١).

*** *** *** *** ***

١٠ – القَسَم بالشفق:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦﴾ [الانشقاق:١٦].

وسيأتي ذكر المعنى مفصلًا في بيان معنى: (الشفق) من ألفاظ الزمن.

*** *** *** *** ***

١١ – القَسَم بالضحى:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾ [الشمس:١].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١﴾ [الضحى:١].

وقد تقدم القول في المقسم به في القرآن الكريم.

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾ قال الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هذان قسمان: قَسَمٌ بالشمس، وقَسَم بضحاها.

---

(١) تفسير الطبري (٢٤/٤٠٢).

وفي ضحاها أربعة أوجه: **أحدها**: هو إشراقها. **الثاني**: هو انبساطها. **الثالث**: حرها. **الرابع**: هذا النهار. **ويحتمل خامسًا**: أنه ما ظهر بها من كل مخلوق، فيكون القسم بها وبالمخلوقات كلها" [(١)].

وقال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أقسم ربنا تعالى ذكره بالشمس وضحاها؛ ومعنى الكلام: أقسم بالشمس، وبضحى الشمس.

واختلف أهل التأويل في معنى قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَضُحَىٰهَا ۝١﴾ فقال بعضهم: معنى ذلك: والشمس والنهار، وكان يقول: الضحى: هو النهار كله.

وقال آخرون: معنى ذلك: وضوئها.

قال: والصواب من القول في ذلك أن يقال: أقسم جلَّ ثناؤه بالشمس ونهارها؛ لأن ضوء الشمس الظاهرة هو النهار" [(٢)].

وقد قيل: إنما أقسم الله عَزَّوَجَلَّ بالشمس وضحاها؛ لكثرة ما تعلق بها من المصالح؛ فإن أهل العالم كانوا كالأموات في الليل، فلما ظهر أثر الصبح في المشرق صار ذلك كالصور الذي ينفخ قوة الحياة، فصارت الأموات أحياء، ولا تزال تلك الحياة في الازدياد والقوة والتكامل، ويكون غاية كمالها وقت الضحوة، فهذه الحالة تشبه أحوال القيامة، ووقت الضحى يشبه استقرار أهل الجنة فيها [(٣)].

وسيأتي ذكر معنى: (الضحى) مفصلًا في ألفاظ الزمن.

*** *** *** *** ***

---

(١) انظر: تفسير الماوردي (النكت والعيون) (٦/٢٨١).

(٢) تفسير الطبري (٢٤/٤٥١).

(٣) مفاتيح الغيب (٣١/١٧٤).

١٢ – القسم بالليل والنهار:

أ. القسم بالليل:

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ۝٣٣﴾ [المدثر:٣٣].

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧﴾ [التكوير:١٧].

﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧﴾ [الانشقاق:١٧].

﴿وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ۝٢﴾ [الفجر:٢].

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ۝٤﴾ [الفجر:٤].

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤﴾ [الشمس:٤].

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١﴾ [الليل:١].

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ [الضحى:٢].

*** *** *** *** ***

قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ۝٣٣﴾ [المدثر:٣٣]،

قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم، وابن عامر، والكسائي رَحِمَهُمُٱللَّهُ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا دَبَرَ ۝٣٣﴾ بفتح الدال [(١)].

وقال الفراء والزجاج رَحِمَهُمَاٱللَّهُ هما لغتان: دبر النهارُ، وأدبر. ودبر الصيف وأدبرَ، وكذلك قَبِلَ وأقْبَل.

---

(١) انظر: معاني القراءات للأزهري (١٠٣/٣)، الحجة للقراء السبعة (٣٣٨/٦-٣٣٩)، السبعة في القراءات (ص:٦٥٩)، تهذيب اللغة (٧٩/١٤).

قال الفراء رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهما لغتان: دبر النهار، وأدبر ودبر الصيف وأدبر، وكذلك قبل وأقبل، فإذا قالوا: أقبل الراكب أو أدبر، لم يقولوا إلا بالألف. قال: وإنهما عندي في المعنى لواحد لا أبعد أن يأتي في الرجال ما أتى في الأزمنة.

وقيل: معنى قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡا دَبَرَ ٣٣﴾: جاء بعد النهار كما تقول خَلَفَ، يقال: خلفني فلان ودَبَرني أي: جاء بعدي، ومن قرأ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ٣٣﴾ فمعناه: ولَّى ليذهب [(١)].

وقال الأخفش رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "دَبَرَ في معنى: أَدْبَرَ، يقولون: (قَبَّحَ اللهُ ما قَبَلَ مِنْهُ وما دَبَر)" [(٢)].

وقال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وكلاهما جَيِّدٌ في العربية. قال: وقد قرئت أيضًا بإثبات الألف فيهما" [(٣)].

وقال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والصواب من القول في ذلك عندي أنهما لغتان بمعنى، وذلك أنه محكيٌّ عن العرب: (قَبَّحَ اللَّهُ ما قَبَلَ منه وما دَبَرَ). وأخرى أن أهل التفسير لم يميزوا في تفسيرهم بين القراءتين، وذلك دليل على أنهم فعلوا ذلك كذلك؛ لأنهما بمعنى واحد" [(٤)].

والحاصل أن قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ٣٣﴾ فيه وجهان: **أحدهما**: إذ ولَّى. **والثاني**: إذ أقبل عند إدبار النهار.

---

(١) انظر: تهذيب اللغة (١٤/٧٩)، معاني القرآن، للفراء (٣/٢٠٤).

(٢) معاني القرآن، للأخفش (٢/٥٥٥).

(٣) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٥/٢٤٨).

(٤) تفسير الطبري (٢٤/٣٢- ٣٣).

واختلف في (أدبر) و(دبر) على قولين: **أحدهما**: أنهما لغتان ومعناهما واحد، قاله الأخفش وغيره. **الثاني**: أن معناهما مختلفان، وفيه وجهان:

أحدهما: أنه دبر: إذا خلفته خلفك، دبرني، أي: جاء خلفي، ودبر الليل، أي: جاء بعد النهار، قال قطرب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فعلى هذا معنى إذا دبر: إذا أقبل بعد مضي النهار. وأدبر: إذا ولى أمامك، قاله أبو عبيدة وابن قتيبة رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ.

الثاني: أنه دبر: إذا جاء بعد غيره وعلى دبر، وأدبر: إذا ولى مدبرًا، قاله ابن بحر رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١).

*** *** *** *** ***

وأما قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧﴾ [التكوير:١٧] فإن فيه ثلاثة تأويلات: **أحدها**: أظلم، **والثاني**: إذا ولى، **والثالث**: إذا أقبل.

قال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يقال عَسْعَسَ الليل: إذا أَقْبَلَ، وعَسْعَسَ: إذا أَدْبَرَ، والمِعْنَيَانِ يرجعان إلى شيءٍ وَاحدٍ، وهو ابتداء الظلام في أوله، وإدباره في آخره" (٢). فهو من الأضداد. قال أبو عبيدة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧﴾ قال بعضهم: إذا أقبلت ظلماؤه، وقال بعضهم: إذا ولَّى ألا تراه قال: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨﴾ [التكوير:١٨].." (٣).

وقال قطرب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قالوا: عَسْعَسَ الليلُ عَسْعَسَةً. وقال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧﴾ أي: أَظْلَمَ. وقال بعضهم: عَسْعَسَ: وَلَّى، وهذا من الأضداد" (٤).

(١) انظر: النكت والعيون (٦/١٤٦)، مجاز القرآن، لأبي عبيدة (٢/٢٧٥-٢٧٦)، الكشاف (٤/٦٥٣)، مفاتيح الغيب (٣٠/٧١٣)، غريب القرآن، لابن قتيبة (ص:٤٩٧)، التحرير والتنوير (٢٩/٣٢٢-٣٢٣).

(٢) معاني القرآن وإعرابه (٥/٢٩٢).

(٣) مجاز القرآن، لأبي عبيدة (٢/٢٨٧).

(٤) الأزمنة وتلبية الجاهلية (١/٥١).

*** *** *** *** ***

وأما قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧﴾ [الانشقاق:١٧]. فسيأتي في بيان معنى: (الشفق والوسق) في ألفاظ الزمن.

*** *** *** *** ***

وأما قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ٢﴾ [الفجر:٢]. فقد تقدم بيانه.

*** *** *** *** ***

*وأما قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ٤ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ٥﴾ [الفجر:٤-٥] فقد تقدم بيانه.

*** *** *** *** ***

ومن القسم بالليل: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ٤﴾ [الشمس:٤].

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١﴾ [الليل:١].

قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ٤﴾ من الغشاوة، أي: والليل إذا يغشي الشمس، حتى تغيب فَتُظْلِمُ الآفَاقُ [١]. قال مقاتل: يعني: تغشى ظلمته ضوء النهار [٢].

وضمير المفعول للشمس، وضمير الفاعل لليل على الأصح. قال الواحدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الضمير في ﴿يَغۡشَىٰهَا ٤﴾ للشمس بلا خلاف، كذلك في ﴿جَلَّىٰهَا ٣﴾ يجب أن يكون للشمس، فيكون الضمير في الفواصل من أول السورة إلى هنا للشمس" [٣].

(١) انظر: تفسير الطبري (٤٥٣/٢٤)، معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٣٣٥/٥)، الكشاف (٧٥٨/٤)، التسهيل (٤٨٦/٢).

(٢) تفسير مقاتل (٧١١/٤)،

(٣) التفسير البسيط، للواحدي (٥٣/٢٤)، مفاتيح الغيب (١٧٥/٣١)، حاشية الطيبي على الكشاف (٤٥٥/١٦-٤٥٦)،.

وحكى الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤﴾ وجهان:

أحدهما: أظلمها، يعني: الشمس.

الثاني: يستر الشَّمس (١). ذكره الواحدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢).

وقال جار الله الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "المغشى: إما الشمس من قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤﴾ [الشمس:٤]، وإما النهار من قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾ [الأعراف:٥٤]، وإما كل شيء يواريه بظلامه من قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾ [الفلق:٣]" (٣).

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ [الليل:١-٢]، قال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هذا قسم جوابه: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾ [الليل:٤]، أي: إن سَعْيَ المؤمن والكافر لمخْتَلِف، وبينهما بُعْدٌ" (٤).

وقال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يقول تعالى ذكره مقسمًا بالليل إذا غشّى النهار بظلمته، فأذهب ضوءه، وجاءت ظُلمته: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١﴾ النهار، ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ وهذا أيضا قسم، أقسم بالنهار إذا هو أضاء فأنار، وظهر للأبصار. ما كانت ظلمة الليل قد حالت بينها وبين رؤيته وإتيانه إياها عِيانًا، وكان قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ يذهب فيما أقسم الله عَزَّوَجَلَّ به من الأشياء أنه إنما أقسم به؛ لعِظَم شأنه عنده. كما حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ قال: آيتان عظيمتان يكوِّرهما الله عَزَّوَجَلَّ على الخلائق" (٥).

---

(١) تفسير الماوردي (النكت والعيون) (٦/٢٨٢).

(٢) انظر: الوجيز، للواحدي (ص:١٢٠٦).

(٣) الكشاف (٤/٧٦١).

(٤) معاني القرآن وإعرابه (٥/٣٣٥).

(٥) تفسير الطبري (٢٤/٤٦٥).

وفي الآيات ملمح آخر، حيث إننا نلحظ في آيات (سورة الليل) أن الله عَزَّوَجَلَّ قد عرض قضية كونية لا يختلف فيها أحد، وهي قضية الليل والنهار، ثم أعقب ذلك بما يمكن أن يكون مثار اختلاف، وهي قضية الرجل والمرأة، حيث قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾ [الليل:١-٤]، فالرجل والمرأة موضوعان لجنس واحد هو الإنسان، لهما مهمات مشتركة من حيث كونهما جنسًا واحد، ولهما مهمات مختلفة من حيث كونهما نوعين مختلفين؛ ولذلك قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾، أي: متخلف ومتنوع. فعندما يأتي الحقُّ جَلَّوَعَلَا بقضية كونية ليست محل اختلاف، وهي من المسلمات، ثم يأتي عقب ذلك على ذكر قضية الذكر والأنثى، فكأنه يقول: كما أن لليل مهمة تختلف عن مهمة النهار، كذلك فإن للرجل مهمة تختلف عن مهمة المرأة، وكل واحدة منهما تكمل الأخرى، فلا يتمنى الرجل أن يكون في مكان المرأة، ولا المرأة أن تكون في مكان الرجل، ولا أن يتشبه أحدهما بالآخر بما يخرجه عن خصائصه وطباعه؛ ولذلك قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**لعن رسول الله** صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ **المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال**»[1]، أي: بما يخرج عن النوعية التي فُطِرَ كلٌّ واحدٍ منهما عليها؛ لأن في الخروج عن فطرة الخلق: شيوع الفساد، واضطراب الأحوال.

قال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ: "يقسم بالليل في جميع أحواله؛ إذ هو من آياته الدالة عليه، فأقسم به وقت غشيانه، وأتى بصيغة المضارع؛ لأنه يغشى شيئًا بعد شيء، وأما النهار فإنه إذا طلعت الشمس ظهر وتجلى وهلة واحدة؛ ولهذا قال في سورة: (الشمس وضحاها): ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤﴾ [الشمس:٣-٤]، وأقسم به وقت سريانه

(١) صحيح البخاري [٥٨٨٥].

كما تقدم، وأقسم به وقت إدباره، وأقسم به إذا عسعس، فقيل معناه: أدبر، فيكون مطابقًا لقوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ۝٣٣ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ۝٣٤﴾ [المدثر:٣٣-٣٤]، وقيل معناه: أقبل، فيكون كقوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ [الليل:١-٢]، فيكون قد أقسم بإقبال الليل والنهار، وعلى الأول يكون القسم واقعًا على انصرام الليل، ومجيء النهار عقيبه، وكلاهما من آيات ربوبيته

ثم أقسم بخلق الذكر والأنثى، وذلك يتضمن الأقسام بالحيوان كله على اختلاف أصنافه -ذكره وأنثاه-، وقابل بين الذكر والأنثى كما قابل بين الليل والنهار وكل ذلك من آيات ربوبيته؛ فإن إخراج الليل والنهار بواسطة الأجرام العلوية كإخراج الذكر والأنثى بواسطة الأجرام السفلية، فأخرج من الأرض ذكور الحيوان وإناثه على اختلاف أنواعها كما أخرج من السماء الليل والنهار بواسطة الشمس فيها.

وأقسم سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بزمان السعي، وهو الليل والنهار، وبالساعي وهو الذكر والأنثى على اختلاف السعي، كما اختلف الليل والنهار والذكر والأنثى، وسعيه وزمانه مختلف، وذلك دليل على اختلاف جزائه وثوابه وأنه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لا يسوي بين من اختلف سعيه في الجزاء كما لم يسو بين الليل والنهار والذكر والأنثى.." [١].

(١) التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم (ص:٥٥-٥٦) طبعة دار المعرفة، وطبعة دار الفوائد: (التبيان في أيمان القرآن) (١/٨٦-٨٨).

ب. القسم بالنهار:

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾ [الشمس:٣].

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ [الليل:٢].

أصل الجَلْو: "الكشف الظاهر، يقال: السماء جَلْوَاء، أي: مصحية، ورجل أَجْلَى: انكشف بعض رأسه عن الشعر، والتَّجَلِّي قد يكون بالذات نحو: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ [الليل:٢]، وقد يكون بالأمر والفعل، نحو: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الأعراف:١٤٣]" [١].

قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾ قال الفراء رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "جَلَّى الظلمة، فجاز الكناية عن الظلمة ولم تُذْكر؛ لأنَّ معناها معروف، ألا ترى أنك تقول: أصبَحت باردةً [٢]، وأمست باردة، وهبت شَمالًا، فكنى عن مؤنثات لم يجر لهن ذكر؛ لأن معروف" [٣].

وقال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقيل: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾: إذا بين الشمس؛ لأنها تبين إذا انبسط النهار" [٤].

وقال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "﴿إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾ عند انتفاخ النهار وانبساطه؛ لأن الشمس تنجلي في ذلك الوقت تمام الانجلاء. وقيل: الضمير للظلمة، أو للدنيا، أو للأرض، وإن لم يجر لها ذكر، كقولهم: أصبحت باردة؛ يريدون: الغداة، وأرسلت: يريدون: السماء. ﴿إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤﴾ فتغيب وتظلم الآفاق" [٥].

---

(١) المفردات، مادة: (جلو) (ص:٢٠٠).

(٢) تريد: أصبحت غداتنا باردة.

(٣) معاني القرآن، للفراء (٣/٢٦٦).

(٤) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٥/٣٣٢).

(٥) الكشاف (٤/٧٥٨).

وقال في "قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾ [الشمس:٣]، ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ [الليل:٢]، أي: ظهر وتبين والنهار من طلوع الشمس، واليوم من طلوع الفجر. و﴿تَجَلَّىٰ ۝٢﴾: ظهر بزوال ظلمة الليل، أو تبين وتكشف بطلوع الشمس.." [(١)].

وحكى الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾ وجهان:

أحدهما: أضاءها، يعني: الشمس؛ لأن ضوءها بالنهار يجلي ظلمة الليل.

والثاني: أظهرها؛ لأن ظهور الشمس بالنهار.

قال: **ويحتمل وجهًا ثالثًا**: أن النهار جلَّى ما في الأرض من حيوانها حتى ظهر؛ لاستتاره ليلًا، وانتشاره نهارًا" [(٢)].

وقد أورد ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ من المأثور: ما جاء عن ابن زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾ [الشمس:١-٢] قوله: هذا قسم، والقمر يتلو الشمس نصف الشهر الأوَّل، وتتلوه النصف الآخر، فأما النصف الأوَّل فهو يتلوها، وتكون أمامه، وهو وراءها، فإذا كان النصف الآخر كان هو أمامها يقدمها، وتليه هي. وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾ يقول: والنهار إذا جَلاهَا، قال: إذا أضاء.

وروى عن قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾ قال: إذا أضاء.

وروى عنه كذلك أنه قال: إذا غشيها النهار.

ثم قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وكان بعض أهل العربية يتأوَّل ذلك بمعنى: والنهار إذا جلا الظلمة، ويجعل الهاء والألف من جلاها كناية عن الظلمة، ويقول: إنما جاز الكناية عنها، ولم يجز لها ذكر قبل، لأن معناها معروف...الخ.

---

(١) الكشاف (٤/٧٦١).

(٢) انظر: النكت والعيون (٦/٢٨٢).

قال: والصواب عندنا في ذلك: ما قاله أهل العلم الذين حكينا قولهم؛ لأنهم أعلم بذلك، وإن كان للذي قاله من ذكرنا قوله من أهل العربية وَجْهٌ" (١).

وفي الآيات إشارة إلى تعظيم قدر النعمة، ولفت للأنظار إلى آيات الله عَزَّوَجَلَّ الكبرى في الكون؛ ليتفكروا في بديع خلقه، وواسع مَنِّه وكرمه، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣].

وجاء في (التفسير الكبير): "ومن تأمَّل قليلًا في عظمة الشمس، ثم شاهد بعين عقله فيها أثر المصنوعية والمخلوقية من المقدار المتناهي، والتركب من الأجزاء انتقل منه إلى عظمة خالقها جَلَّوَعَلَا، فسبحانه ما أعظم شأنه.

وسائر السماوات قدرها بحسب مشيئته، فقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾ [الشمس:٥] كالتنبيه على هذه الدقيقة الدالة على حدوث الشمس، وسائر السماويات" (٢).

و"قيد القسم بالنهار بقيد وقت التجلية إدماجا للمنة في القسم.

وابتدئ القسم بالشمس وأضوائها الثلاثة الأصلية والمنعكسة؛ لأن الشمس أعظم النيرات التي يصل نور شديد منها للأرض، ولما في حالها وحال أضوائها من الإيماء إلى أنها مثل لظهور الإيمان بعد الكفر، وبث التقوى بعد الفجور؛ فإن الكفر والمعاصي تمثل بالظلمة والإيمان والطاعات تمثل بالضياء قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ﴾ [المائدة:١٦].

وأعقب القسم بالنهار بالقسم بالليل؛ لأن الليل مقابل وقت النهار فهو وقت الإظلام.

---

(١) تفسير الطبري (٢٤/٤٥٢-٤٥٣).

(٢) التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) (٣١/١٧٥-١٧٦).

والغشي: التغطية، وليس الليل بمغط للشمس على الحقيقة، ولكنه مسبب عن غشي نصف الكرة الأرضية لقرص الشمس ابتداء من وقت الغروب، وهو زمن لذلك الغشي. فإسناد الغشي إلى الليل مجاز عقلي من إسناد الفعل إلى زمنه أو إلى مسببه (بفتح الباء)".. قاله الإمام ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ" (١).

وقد تقدم ذكر من قيل من بيان وجه الحكمة من القسم بالليل والنهار.

١٣ - مسألة: تكرار الواو في القسم:

إذا تكررت الواو في القسم، فإن الأولى فقط هي للقسم على الصحيح، وما بعدها للعطف.

قال صاحب (الكتاب) رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والواو الأولى في نحو: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣﴾ [الليل:١-٣] للقسم، وما بعدها للعطف، كما تقول: بالله فالله، وبحياتك ثم حياتك لأفعلن (٢). وجواب القسم قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٣٦٧-٣٦٨).

(٢) انظر: الكتاب، لسيبويه (٣/٥٠١). ونص ما جاء في (الكتاب): "قال الخليل في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣﴾: الواوان الأخريان ليستا بمنزلة الأولى، ولكنهما الواوان اللتان تضمان الأسماء إلى الأسماء في قولك: مررت بزيد وعمرو، والأولى بمنزلة الباء والتاء. ألا ترى أنك تقول: والله لأفعلن ووالله لأفعلن، فتدخل واو العطف عليها كما تدخلها على الباء والتاء. قلت للخليل: فلم لا تكون الأخريان بمنزلة الأولى؟ فقال: إنما أقسم بهذه الأشياء على شيء واحد، ولو كان انقضى قسمه بالأول على شيء لجاز أن يستعمل كلاما آخر فيكون، كقولك: بالله لأفعلن، بالله لأخرجن اليوم، ولا يقوى أن تقول: وحقك وحق زيد لأفعلن، والواو الآخرة واو قسم، لا يجوز إلا مستكرها؛ لأنه لا يجوز هذا في محلوف عليه إلا أن تضم الآخر إلى الأول وتحلف بهما على المحلوف عليه".

﴿٤﴾ [الليل:٤] ولو كانت الواوات جمع هنا للقسم لاحتاج كل واحد إلى جواب؛ لأنها أقسام منفصلة لم يشارك أحدها الآخر.." (١).

وفي (شرح الرضي على الكافية): "وإذا تكررت الواو بعد واو القسم، نحو قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢﴾ [الليل:١-٢]، فمذهب سيبويه والخليل رَحِمَهُمَاٱللَّهُ، أن المتكررة واو العطف. وقال بعضهم: هي واو القسم، والأول أقوى؛ وذلك لأنها لو كانت واو القسم لكانت بدلًا من الباء، ولم تفد العطف وربط المقسم به الثاني وما بعده بالأول، بل يكون التقدير: أقسم بالليل، أقسم بالنهار: أقسم بما خلق، فهذه ثلاثة أيمان كل واحد منها مستقل، وكل قسم لا بدَّ له من جواب، فتطلب ثلاثة أجوبة، فإن قلنا حذف جوابان استغناء بما بقي بعد الحذف، فالحذف خلاف الأصل، وإن جعلنا هذا الواحد جوابًا للمجموع، مع أن كل واحد منها؛ لاستقلاله، يطلب جوابًا مستقلًّا، فهو أيضًا خلاف الأصل، فلم يبق إلا أن نقول: القسم شيء واحد، والمقسم به ثلاثة، والقسم هو الطالب للجواب، لا المقسم به، فيكفيه جواب واحد، فكأنه قال: أقسم بالليل والنهار وما خلق: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ٤﴾ [الليل:٤]، أي: أقسم بهذه الثلاثة: أن الأمر كذا، وأيضًا، فإنك تقول مصرحًا بالعطف: بالله فالله لأفعلن، وبحياتك ثم حياتك لأفعلن، ولا تقول: أقسم بالله، أقسم بالنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لأفعلن، والحمل على ما ثبت في كلامهم أولى...الخ" (٢).

وقال المبرد رَحِمَهُٱللَّهُ: "قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣﴾ [الليل:١-٣] الواو الأولى واو قسم وما بعدها من الواوات للعطف لا

---

(١) شرح المفصل، لابن يعيش (٥/٢٦٣-٢٦٤).

(٢) شرح الرضي على كافية ابن الحاجب (٤/٣٠٦-٣٠٧)، وانظر: الكتاب، لسيبويه (٣/٥٠١).

للقسم، ولو كانت للقسم لكان بعض هذا الكلام منقطعًا من بعض، وكان الأول إلى آخر القسم على غير محلوف عليه، فكان التقدير: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١﴾، ثم ترك هذا وابتدأ: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾، ولكنه بمنزلة قولك: والله ثم الله لأفعلن، وإنما مثلت لك بـ: (ثم)؛ لأنها ليست من حروف القسم" [١].

ومن التطبيقات على هذه المسألة في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢﴾ [الطور:١-٢]، فالواو الأولى للقسم، وما بعدها للعطف.

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ۝١ فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ۝٣ فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا ۝٤ فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٥ عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ ۝٧﴾ [المرسلات:١-٧]، فالواو الأولى للقسم، وما بعدها للعطف؛ ولذلك جاءت الفاء [٢].

١٤ – العطف يقتضي التغاير في الذوات، والاشتراك في الحكم:

تقرر أن الصحيح عند تكرار الواو في القسم أن الواو الأولى فقط، وما بعدها للعطف، والعطف وإن كان يقتضي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه في الذوات، ولكن الواو العاطفة تقتضي مشاركة المعطوف للمعطوف عليه بالحكم؛ ولذلك قالوا: (العطف يقتضي التغاير في الذوات، والاشتراك في الحكم)، ومعناه: أن حكم المعطوف هو نفسه حكم المعطوف عليه، كما لو قلت: (أعط زيدًا وعمرًا) فهذا تشريك بين زيد وعمرو في الإعطاء، والمغايرة في الذوات.

---

(١) المقتضب، للمبرد (٢/٣٣٥-٣٣٧).

(٢) انظر: التبيان في إعراب القرآن، للعكبري (٢/١١٨٣)، (٢/١٢٦٢).

فالأصل في باب العطف: أن لا يعطف الشيء على نفسه، وإنما يعطف على غيره، وعلة ذلك: أن حروف العطف بمنزلة تكرار العامل، وتكرار العامل يلزم معه تكرير المعمول.

فلا يجوز عطف الشيء على نفسه، فإذا كان العطف يقتضي التغاير، فعطف الشيء على نفسه لا يجوز؛ لأن الشيء لا يغاير نفسه.

ومحل هذه القاعدة: حصول التساوي من كل وجه، وأما لو حصل التغاير ولو بشيء ما فإنه مسوغ للعطف ولو كانا ذاتًا واحدة، ومع وجود نكتة كان ذلك من البلاغة التي تقوي الكلام وتزيده حسنًا.

وقد أجاز بعضهم عطف الشيء على مرادفه إذا اختلف اللفظان لغرض بلاغي، أو لقصد التفسير والتوضيح. قيل: منه قول الشاعر:

*** وألفى قولها كذبًا ومينًا (١)

والمين هو الكذب.

قيل: الغرض البلاغي هنا هو تقوية معنى المعطوف عليه وتأكيده.

وقيل: هو من قبيل التطويل والحشو؛ إذ مقام هذا الكلام ليس مقتضيا للتأكيد، فأحدهما زائد بلا فائدة، وليس المزيد متعينًا؛ لأن المعنى يصح بكل منهما، فزيادة أحدهما تطويل.

---

(١) هو من الوافر وصدره: (وقددت الأديم لراهشيه***) وقائله عدي بن زيد العبادي من قصيدة طويلة أولها: (أبدلت المنازل أم عنينا***بقادم عهدهن فقد بلينا) والشاهد فيه: التطويل، وهو أن يكون اللفظ زائدًا على أصل المراد لا لفائدة، واللفظ الزائد غير متعين إذ جمعه بين الكذب والمين في البيت لا فائدة فيه؛ لأنهما بمعنى واحد" معاهد التنصيص (١/٣١٠-٣١٥).

وقيل: المين أخص من الكذب، قال ابن الشجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هو أكثر من الكذب. يقال: كذب ومان، وكاذب مائن" (١).

قال ابن هشام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وزعم بعضهم أن الرواية: كذبًا مبينًا، فلا عطف، ولا تأكيد" (٢). وبسط المسألة في مظانها.

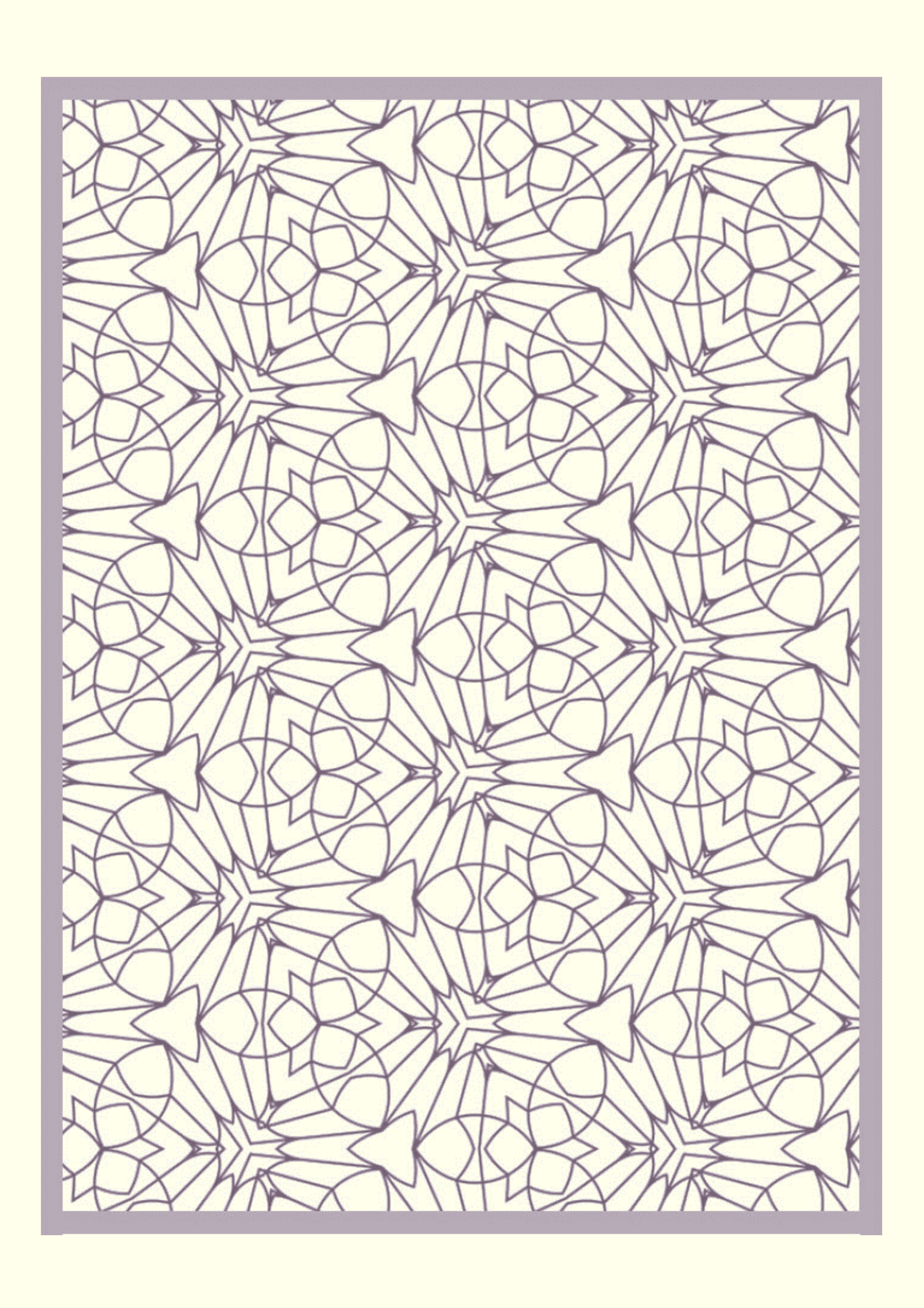
لكن إذا كان القصد البلاغي ظاهرًا؛ لفائدة بينة، فلا خلاف في جواز عطف الشيء على مرادفه.

ومن ذلك: قوله جَلَّ وَعَلَا: نحو: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف:٨٦]، ونحو: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة:١٥٧]، ونحو: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ١٠٧﴾ [طه:١٠٧]. وبسط المعنى والقصد في مظانه من كتب التفسير، وما يعنينا هنا في باب القسم أن العطف يقتضي التشريك في الحكم، فيكون المعطوف على القسم في حكم المقسم به.



(١) مختارات شعراء العرب، لابن الشجري (٣٩/٢)، وانظر: حاشية ياسين على التصريح (٤٩/٢).

(٢) انظر: مغني اللبيب (ص: ٤٦٧)، مغني اللبيب، بتحقيق: د. عبداللطيف الخطيب (٣٦٦/٤-٣٦٧).



المبحث الخامس:
مقاصد ودلالات القصص
في كلام الله عَزَّوَجَلَّ وكلام النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وهاك بيان المقاصد والدلالات للقصص والأخبار في كلام الله عَزَّوَجَلَّ وكلام النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

١ – ربانية المصدر والغاية:

والقصص والأخبار ربانيَّة المصدر بمعنى: أنها منسوبة إلى الرب جَلَّ وَعَلَا، فمصدرها رباني. و(رباني) مصدر صناعي منسوب إلى الرب، زيدت فيه الألف والنون، على غير قياس.

قال سيبويه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "زادوا أَلِفًا ونونًا في (الرَّبَّاني)، إذا أرادوا تخصيصًا بعلم الرَّبِّ، دون غيره من العلوم، وهذا كما قالوا: (شَعْراني)، و(لِحْياني)، و (رَقَباني): إذا خُصَّ بكثرة الشَّعْر، وطول اللِّحْيَة، وغِلظ الرَّقَبَة. فإذا نسبوا إلى الشَّعْر، قالوا: (شَعْرِي)، وإلى الرَّقَبَة: (رَقَبِي)، وإلى اللِّحْيَة: (لِحْيِي).

وقال ابنُ الأعرابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الرباني: العالم الْمُعَلِّم، الذي يَغْذُوا الناسَ بصِغار العلوم قبل كبارها.

وقال المبرد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الربّانِيُّون: أرباب العلم، وأحدهما: رَبّاني، وهو: الذي يَرُبُّ العِلم، ويَرُبُّ الناسَ؛ أي: يعلمهم ويصلحهم، ويقوم بأمورهم.

والأَلِف والنُّونُ: للمبالغة؛ كما قالوا: (رَيّان)، و(عطشان)، و(شبعان)، ثم ضمَّت إليه ياءُ النسبة، فقيل: (لِحياني)، و(رقَباني).

فعلى قول سيبويه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الرَّبّاني: منسوب إلى الرَّبِّ؛ على معنى التخصيص بعلم الرَّبِّ، أي: يَعْلَم الشريعة، وصفات الرب جَلَّ وَعَلَا. وعلى قول ابن الأعرابي، والمبرد: الرّبّانِي: من الرَّبِّ، الذي هو بمعنى: التربية [(١)].

وقال أبو عبيدة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لم يعرفوا ربانيين [(٢)]، وأحسب الكلمة ليست بعربية إنما هي عبرانية أو سريانية. وذلك أن أبا عبيدة رَحِمَهُ ٱللَّهُ زعم أن العرب لا تعرف: (الربانيين)، وإنما عرفها الفقهاء وأهل العلم" [(٣)].

والحاصل أن أصل الرباني يرجع إلى قولين:

أحدها: أنه الذي يربُّ أمور الناس بتدبيره.

والثاني: منسوب إلى الرَّبِّ؛ لأن النسب إلى الشيء إنما يكون لمزيد اختصاص المنسوب بالمنسوب إليه، فقيل لصاحب العلم الذي أمر به الرب: ربَّاني.

قال جار الله الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفيه: أن من علم ودرس العلم ولم يعمل به فليس من الله عَزَّوَجَلَّ في شيء، وأن السبب بينه وبين ربه جَلَّ وَعَلَا منقطع، حيث لم يثبت النسبة إليه إلا للمتمسكين بطاعته" [(٤)].

---

(١) انظر: التفسير البسيط (٣٨١/٥-٣٨٣)، الكتاب، لسيبويه (٣٨٠/٣)، وانظر: المقتضب، للمبرد (١٤٤/٣).

(٢) مجاز القرآن (٩٧/١).

(٣) تهذيب اللغة (١٣٠/١٥).

(٤) الكشاف (٣٧٨/١).

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله: (وفيه أن من علم) يعني: أدمج فيه هذا المعنى وأشير إليه؛ لأن المعنى الذي سيقت له الآيات هو ما يقال: لا يصح ولا يستقيم للبشر أن يمنح الكتاب، ويرزق الحكم والنبوة، ثم يقول للناس: اعبدوني من دون الله عَزَّوَجَلَّ، ولكن الواجب عليه أن يقول: كونوا عباد الله عَزَّوَجَلَّ وحده، فعدل عنه إلى قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾، ليستقيم ترتب الحكم على تلك الصفة؛ لأن الرَّباني، أي: المتمسك بالدين والطاعة المعتصم بحبل الله عَزَّوَجَلَّ المتين، لا يكون إلا عالما عاملًا معلمًا، فالمعنى المدمج: إيجاب طلب العلم على كل أحد من عباد الله عَزَّوَجَلَّ، ثم العمل به، ثم إرشاد الناس إلى الطريق المستقيم" [1].

وقال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (التفسير): "وقيل: كونوا متخصصين بالله عَزَّوَجَلَّ تخصصًا تُنسبون إليه، وتوصفون بعامة أوصافه، نحو: الجواد، والودود، والرحيم.

وقيل: كونوا من المتخصصين بالله عَزَّوَجَلَّ الذين وُصِفوا بقوله: «**فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به**» الحديث [2].

وقيل: كونوا متخصصين بالله عَزَّوَجَلَّ غير ملتفتين إلى الوسائط، كأبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لما قال حين موت النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، واضطربت أسرار عامة الناس: «**من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإنَّ الله حَيٌّ لا يَمُوتُ**» [3]، وقد قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ الآية [آل عمران:١٤٤]" [4].

---

(١) حاشية الطيبي على الكشاف (١٥٨/٤).

(٢) صحيح البخاري [٦٥٠٢].

(٣) صحيح البخاري [١٢٤١، ٣٦٦٨، ٤٤٥٤].

(٤) تفسير الراغب الأصفهاني (٦٧٢/٢-٦٧٣).

وقال بعضهم في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [آل عمران: ٧٩]: معناه: كونوا حكماء علماء. وقيل: حكماء أتقياء. وقيل: كونوا فقهاء علماء. وقيل: علماء حلماء. وقيل: فقهاء معلِّمون.

والرَّبانيون المعرفون بالعلم والتَّقوى هم عماد النَّاس في الفقه والعلم وأمور الدِّين والدُّنيا؛ ولذلك قال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهم فوق الأحبار؛ لأنَّ الأحبارَ هم العلماء. و(الرَّبانيُّ): الجامعُ إلى العلم والفقه: البصرَ [١] بالسياسة والتدبير، والقيام بأمور الرعية، وما يصلحهم في دُنياهم ودينهم [٢].

وقيل: سموا بذلك؛ لعلمهم بالربِّ جَلَّوَعَلَا [٣].

وقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في تفسير قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران:٧٩]: حلماء فقهاء، ويقال: الرَّبانيُّ الذي يُرَبِّي النَّاس بِصِغَار العلم قبل كِبَاره [٤]، أي: بالتدريج، وقيل غير ذلك.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والمراد بصغار العلم: ما وضح من مسائله، وبكباره ما دقَّ منها. وقيل: يعلمهم جزئياته قبل كلياته، أو فروعه قبل أصوله، أو مقدماته قبل مقاصده.

وقال ابن الأعرابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا يقال للعالم: رباني حتى يكون عالما معلمًا عاملًا" [٥].

---

(١) في المطبوع من (البحر) (٣/٢٣٢): "النظر".

(٢) انظر: تفسير الطبري (٦/٥٤٤).

(٣) فتح الباري، لابن حجر (١/١٢١).

(٤) انظر: صحيح البخاري (١/٢٤)، شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١/١٥١).

(٥) فتح الباري، لابن حجر (١/١٦٢).

فالعالم الرَّباني قائم على أمور الناس، مصلح لأحوالهم، ومرشد لهم إلى ما فيه صلاحهم.

والعالم المتصف بهذه الصفة ينعكس ذلك على عمله وسلوكه وأخلاقه.

قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الرباني: منسوب إلى (الرب) بزيادة الألف والنون؛ للمبالغة وهو العالم الراسخ في العلم والدين الذي أمر به الله عَزَّوَجَلَّ، والذي يطلب بعلمه وجه الله عَزَّوَجَلَّ. قال بعضهم: الشارع الرباني العالم العامل المعلم" (١).

وقيل: هو من الرب بمعنى: التربية، كانوا يربون المتعلمين بصغار العلوم قبل كبارها -كما تقدم-.

والقصص والأحاديث في القرآن الكريم وصحيح السنة مصدرها رباني، وهي ربانية الغاية والوجهة؛ لاتصال الغاية بما يرضي الرب جَلَّوَعَلَا، من حيث ما تحققه تلك القصص في المكلفين من صلة بالله عَزَّوَجَلَّ، فهي تورث الهداية والاعتبار، وتعزِّز الصِّلة بالله عَزَّوَجَلَّ، وتؤثر في سلوك المكلف، وفي استقامة سيره إلى مولاه جَلَّوَعَلَا، حيث تكون غاية كدحه في الحياة: ما يرضي الله عَزَّوَجَلَّ، فيسير وفق ما شرع من عبادات ومعاملات وأخلاق، فيستقيم حاله، ويثمر عمله، مدركًا الغاية من الوجود في الحياة الدنيا، ومؤمنًا بالبعث والانتقال إلى الآخرة.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ۝٦﴾ [الانشقاق:٦].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝١٨ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۝١٩﴾ [الإسراء:١٨-١٩].

---

(١) الفائق في غريب الحديث والأثر (٢/٢٩)، وانظر: الكشاف (١/٣٧٨).

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ۝٢٠﴾ [الشورى:٢٠].

وللربانية ثمرات عظيمة، فهي من أسباب التبصر بحقيقة الحياة الدنيا، ومعرفة الغاية الوجود، والاهتداء إلى الفطرة التي فطر الله عَزَّوَجَلَّ الإنسان عليها، والسلامة من الضلال والانحراف والتخبط، والتحرر من عبودية غير الله عَزَّوَجَلَّ، ومن الهوى والشهوات، ونزغات الشياطين، ومن الخضوع والاستسلام لمطالب النفس المادية، ورغباتها الشخصية، دون تشوف إلى المعاني السامية التي تضفيها صفة الربانية، من المحبة والإيثار، والتطلع إلى حسن الثواب في الآخرة، فهذه صفة العالم الرباني، العامل بما علم.

والمنهج الرباني يتميز بأنه ليس من صنع بشر تحكمه الأهواء والأعراف، والأزمان والبلدان، والبيئة المحيطة، وطبيعة النشأة، وليس نتيجة لإرادة حزب أو فئة، فهو لا يخضع لوجهة جهة من الناس تتفاوت آرائهم من زمن لآخر، ومن بلد لآخر، ومن اعتبار لآخر، بل هو منهج الله عَزَّوَجَلَّ الذي شرعه لعباده، وهو أعلم بما فيه صلاح حالهم في حياتهم الدنيا وفي مآلهم، ولا تبديل لكلماته.

ولا ريب أن ذلك المنهج الرباني ينعكس على سلوك الإنسان وسلوكه، فالأخلاق الإسلامية قد حدد المنهج الرباني أصولها التي تُكَوِّنُ معالمَ الشخصية الإسلامية التي لا تزال ترتقي في مدراج الكمال، ومعالي الأخلاق والآداب إذا سارت على ذلك النهج الرباني.

٢ – إثبات الوحدانية لله عَزَّوَجَلَّ، والتحرر من العبودية لغيره:

إن من أعظم مقاصد القصص والأخبار في الكتاب والسنة: تحرير الإنسان من العبودية لغير الله عَزَّوَجَلَّ، وإثبات الوحدانية لله جَلَّ وَعَلَا، قال الله عَزَّوَجَلَّ مبينًا المقصد الأعظم

من بعثة الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٣٦﴾ [النحل:٣٦]، وقد دلت الآية على أن تجريد العبادة لله عَزَّوَجَلَّ وحده هو المقصد المشترك والأعظم الذي دعا إليه جميع الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وأن النظر والاعتبار سبيل إلى الهداية.

وقد قال كل رسول لقوله: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٥٩]، فقد تكررت هذه الآية في سياق القصص في القرآن الكريم؛ لبيان القاسم الأهم والمشترك من بعثة الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وإن من أصول العقيدة، وأعظم أسباب النجاة: تحقيق التوحيد الخاص لله عَزَّوَجَلَّ، واعتقاد أنَّ كُلَّ ما يصيب الإنسان من فتنة وبلاء إنما هو بقضاء الله عَزَّوَجَلَّ وقَدَرِه.

فلا بُدَّ من تجريد التوحيد لله عَزَّوَجَلَّ، والترحل بالفكر في الأسباب إلى المسبب العزيز الحكيم، والعلم بأن كل شيء لا يضر ولا ينفع إلا بإذن الله عَزَّوَجَلَّ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس:١٠٧]، وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعبد الله بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك**»(١)، فإذا جرَّدَ العبدُ التوحيدَ فقد خرج من قلبه خوفُ ما سواه، وكان عدوُّه أهونَ عليه من أن يخافه مع الله عَزَّوَجَلَّ، بل يفرد الله عَزَّوَجَلَّ بالمخافة، ويرى أن إعماله فكره في أمر عدوه، وخوفه منه، واشتغاله به من نقص توحيده، وإلا فلو جرَّدَ

(١) أخرجه أحمد [٢٦٦٩]، والترمذي [٢٥١٦]، وقال: "حسن صحيح". وأخرجه أيضًا: أبو يعلى [٢٥٥٦]، والحاكم [٦٣٠٣]، وقال: "هذا حديث كبير عال من حديث: عبد الملك بن عمير، عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا"، وأخرجه أيضًا: الضياء [١٣].

توحيدَه لكان له فيه شغل شاغل، والله عَزَّوَجَلَّ يتولَّى حفظه، والدفع عنه؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ يدافع عن الذين آمنوا.

فالتوحيد حصن الله عَزَّوَجَلَّ الأعظم الذي من دخله كان من الآمنين، قال بعض السلف: من خاف الله عَزَّوَجَلَّ خافه كل شيء، ومن لم يخف الله عَزَّوَجَلَّ أخافه الله عَزَّوَجَلَّ من كل شيء.

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ هو أعظم الفساد في الأرض، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، ومخالفة أمره. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١]، قال عطية [(١)] في الآية: ولا تعصوا في الأرض فيمسك الله عَزَّوَجَلَّ المطر، ويهلك الحرث بمعاصيكم. وقال غير واحد من السَّلف: إذا قحط المطر فالدواب تلعن عصاة بني آدم فتقول: اللهم العنهم فبسببهم أجدبت الأرض، وقحط المطر. وبالجملة فالشرك والدعوة إلى غير الله عَزَّوَجَلَّ وإقامة معبود غيره، أو مطاع متبع غير الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو أعظم الفساد في الأرض، ولا صلاح لها ولأهلها إلا أن يكون الله عَزَّوَجَلَّ وحده هو المعبود، والدعوة له لا لغيره، والطاعة والاتباع لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن أمر بمعصيته فلا سمع ولا طاعة، فإن الله عَزَّوَجَلَّ أصلح الأرض برسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودينه، وبالأمر بالتوحيد، ونهى عن فسادها بالشرك به، ومخالفة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومن تدبَّر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه: توحيد الله عَزَّوَجَلَّ، وعبادته، وطاعة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وكل شَرٍّ في العالم وفتنة وبلاء وقَحْط وتسليط عدو

---

(١) انظر: الكشف والبيان، للثعلبي (٤/٢٤٠)، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، للواحدي (٢/٣٧٧)، تفسير البغوي (٢/١٩٩)، الخازن (٢/٢١١).

وغير ذلك؛ فسببه: مخالفة الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، والدعوة إلى غير الله عَزَّوَجَلَّ. ومن تدبر هذا حق التدبر وجد هذا الأمر كذلك في خاصة نفسه وفي غيره عمومًا وخصوصًا -ولا حول ولا قوة إلا بالله-" [(١)].

وقال ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ في موضع آخر: "والشرك أعظم الفساد، كما أن التوحيد أعظم الصلاح، فأصل الصلاح: التوحيد والإيمان، وأصل الفساد: الشرك والكفر" [(٢)].

والإيمان: قول وعمل ونية، فلا بدَّ من الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ، ولا بدَّ من العمل بما أمر، ومن البعد عما نهى، ومن النية والاحتساب والاستقامة والثبات.

قال ابن رجب رَحِمَهُٱللَّهُ: "والمشهور عن السلف وأهل الحديث أن الإيمان: قول وعمل ونية، وأن الأعمال كلها داخلة في مسمى: (الإيمان)" [(٣)].

وأعظم أسباب النَّجاة والأمن والسعادة: تحقيق التوحيد الخاص لله عَزَّوَجَلَّ، الذي هو حَقُّ الله عَزَّوَجَلَّ على العبيد، والبعد عن البدع والضَّلالات، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام:٨٢].

والمراد بالظلم ها هنا: الشرك؛ لما جاء في (الصحيح): أن الآية لما نزلت شقَّ لى أصحاب رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وقالوا: أَيُّنَا لا يَظْلِمُ نفسَه؟ فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ليس هو كما تَظُنُّونَ، إِنَّمَا هو كما قال لُقْمَانُ لابنه:** ﴿يَـٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان:١٣]» [(٤)].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/٢٤-٢٥)، وانظر: بدائع الفوائد، لابن القيم (٣/١٤).

(٢) مجموع الفتاوى (١٨/١٦٢).

(٣) جامع العلوم والحكم (١/١٠٤)، وانظر: الكواكب الدراري، لشمس الدين الكرماني (١/٧٦)، الكشف والبيان، للثعلبي (٣/٢١٣)، تفسير سفيان الثوري (ص:١٥)، الأحكام الشرعية الكبرى، لابن الخراط (١/٩٥)، الحاوي الكبير، لأبي الحسن الماوردي (١٥/٣١٤).

(٤) صحيح البخاري [٣٢، ٤٦٢٩، ٦٩٣٧].

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه قال: قيل يا رسول الله: من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك؛ لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة: من قال: لا إله إلا الله، خالصًا من قلبه، أو نفسه**» (١).

وقد عبد ناس الشجر والحجر، وعبد آخرون الشمس والقمر...إلى غير ذلك.

فإذا خلا القلب من الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ، اشتغل بالإيمان بسواه من العبودية للمخلوق أو الهوى؛ فإنَّ الهوى إلهٌ يعبدُ من دون الله عَزَّوَجَلَّ، وما ترك الطريق المستقيم من تركه إلَّا لأنه قد اتبع هواه، فالعقل البشري لا يمكن أن يخلو من الشَّيء وضدِّه، فإذا خلا من الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ اشتغل تلقائيًّا بالإيمان بسواه، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۝٤٣﴾ [الفرقان:٤٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية:٢٣]. ويقول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**تعس عبد الدينار، والدرهم، والقطيفة، والخميصة**» (٢).

والقرآن يشير إلى هذا المعنى في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس:٣٢]، أي: أنَّه لا فراغ، ولا يمكن أن يرتفع النقيضان. إما إيمان بالله عَزَّوَجَلَّ أو إيمان بسواه. وقد قال النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا**» (٣).

ويقول ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ في (النونية):

هربوا من الرِّق الذي خلقوا له ... فبلو برقِّ النَّفس والشَّيطان

لا ترض ما اختاروه هم لنفوسهم ... فقد ارتضوا بالذل والحرمان

(١) أخرجه البخاري [٩٩، ٦٣٦٠، ٣٤٢٨، ٣٤٢٩، ٤٦٢٩، ٤٧٧٦، ٦٩١٨، ٦٩٣٧]، مسلم [١٢٤].

(٢) صحيح البخاري [٢٨٨٦، ٢٨٨٧].

(٣) صحيح مسلم [٥٥٦].

لو ساوت الدنيا جنـــاح بعوضة   لم يسق منها الرب ذا الكفران [(١)]

إنَّ الإنسان إن لم يكن مستجيبًا لله عَزَّوَجَلَّ ولرسوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فهو متبعٌ للهوى، وليس هناك منزلة بين المنزلتين، ولا طريقٌ بين الطريقين. فإمَّا أن تتبعَ الحقَّ، أو تتبعَ الهوى، فقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ الخطأ واتباع الهوى قرينين، وجعل الصواب ومخالفة الهوى قرينين.

وأحد الأمرين يرفع صاحبه، والآخر يهوي به -كما قال الله عَزَّوَجَلَّ:- ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الأعراف:١٧٦].

إنَّ اتباع الهوى يتناقض مع سلوك طريق الحق والعدل؛ فإن أساس العدل: اتباع الحق، وهو سببٌ لمحبة الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإنه جَلَّوَعَلَا يحبُّ المقسطين. وفي المقابل فإنَّ اتباع الهوى سببٌ للضلال عن سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، والضلالُ سببٌ في العذاب الشديد يوم القيامة. يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ۝٢٦﴾ [ص:٢٦]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ﴾ [النساء:١٣٥].

٣ - إثبات الوحي والرسالة وقيام الدلائل والشواهد على صدق الأخبار:

إن القصص والأخبار فيها دلالة بينة على إثبات الوحي والرسالة، ويستدل على ذلك بأن النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، ولم يتعلم من أحد من البشر، وكان في أمية، وذلك من أعظم دلائل نبوته صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ لأنه أتى بالعلوم الجمة، من الإخبار عن المغيبات، وقصص الغابرين، وغير ذلك، من غير قراءة ولا كتابة، وقد دلت الآثار، وقامت الدلائل والشواهد على صدق تلك الأخبار.

---

(١) متن القصيدة النونية (ص:٣٠٨).

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝٤٨ بَلْ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَۚ﴾ [العنكبوت:٤٨-٤٩]، أي: ما كنت قرأت الكتُب، ولا كُنْتَ كاتبًا، وكذلك أنزلنا إليك الكتاب، والحال أنك أمي ما كنت تتلو من قبله من كتاب، ولا تخطه بيمينك، بل ذلك الإنزال معجزة خارقة للعادات، وهي كونها في نفسها آيات بينات؛ لبلاغتها وفصاحتها، وكونه اختص بأن حوفظ عليه في صدور العلماء دون سائر الكتب. وكذلك صفة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عندهم في التوراة والإنجيل، كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن ذلك بقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف:١٥٧].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجمعة:٢]، وقد تقدم بيان قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ**».

وفي (صحيح الإمام البخاري رَحِمَهُٱللَّهُ): عن عطاء بن يسار، قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قلت: أخبرني عن صفة رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في التوراة؟ قال: «**أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥﴾ [الأحزاب:٤٥]، **وحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ، أنت عبدي ورسولي، سَمَّيْتُكَ: المتَوَكِّلَ، ليس بِفَظٍّ ولا غلِيظٍ، ولا سَخَّابٍ في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يُقِيمَ به المِلَّةَ العَوْجَاءَ، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح بها أَعْيُنًا عُمْيًا، وآذَانًا صُمًّا، وقُلُوبًا غُلْفًا**» (١).

---

(١) صحيح البخاري [٢١٢٥، ٤٨٣٨].

وقال جَلَّ وَعَلَا في بيان ما يفيد تحقيق النبوة، وإقامة الحجة عليهم لما يأتيهم به مما أخفوا منه: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران:٤٤].

قال أبو إسحاق الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أي: الأخبار التي قصصناها عليك في زكريا ويحيى ومريم وعيسى عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ من أنباء الغيب، أي: من أخبار ما غاب عنك، وفي هذا دليل على تثبيت نبوَّة النَبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه أنبأ بما لا يعلم إلا من كتاب أو وحي، وقد أجمعوا أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان أميًّا، فإنباؤه إياهم بالأخبار التي في كتبهم على حقيقتها من غير قراءة الكتب دليل على أنه نبي، وأن اللَّه عَزَّ وَجَلَّ أوحى إليه بها" [(١)].

وقال جار الله الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فإن قلت: لم نفيت المشاهدة وانتفاؤها معلوم بغير شبهة؟ وترك نفي استماع الأنباء من حفاظها وهو موهوم؟ قلت: كان معلومًا عندهم علمًا يقينًا أنه ليس من أهل السماع والقراءة، وكانوا منكرين للوحي، فلم يبق إلا المشاهدة، وهي في غاية الاستبعاد والاستحالة، فنفيت على سبيل التهكم بالمنكرين للوحي، مع علمهم بأنه لا سماع له ولا قراءة. ونحوه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ [القصص:٤٤]، ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ [القصص:٤٦]، ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ﴾ [يوسف:١٠٢].." [(٢)].

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وخلاصة الجواب: أن المراد من نفي المشاهدة: إثبات الحجة والاحتجاج على أهل الكتاب بطريق التقسيم الحاصر، ولا شك أن عدم السماع والقراءة محقق عند اليهود، وقد علموا ذلك علمًا يقينيًا لا شك فيه، وإنما كانوا ينكرون الوحي فأريد إثبات المطلوب بطريق برهاني، فقيل: طريق العلم فيما أنبئكم به، إما السماع

---

(١) معاني القرآن وإعرابه (١/٤١٠).

(٢) الكشاف (١/٣٦٢).

والقراءة، وإما الوحي والإلهام، وإما الحضور والمشاهدة، فالأولان منفيان عندكم، بقي الثالث، فنفى تهكمًا بهم، وإنما خص هذه دون الأولى؛ للتهكم؛ لأنه لو نفى الأولى لم يكن من التهكم في شيء؛ لمجال الوهم فيه دونه" (١).

ونحوه قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾ [البقرة: ١٣٣]، فهو من باب التقسيم الحاصر (٢).

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يوسف:١٠٢]. وفي ذلك أيضًا احتجاج على صحة نبوة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإخباره بالغيوب؛ فإن قوله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ [يوسف:١٠٢] الخطاب فيه للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لتأكيد حجته.

قال أبو إسحاق الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هذا خطاب للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المعنى: الذي قصصنا عليك من أمر يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وإخوته من الأخبار التي كانت غائبة عنك. فأنزلت عليه؛ دلالة على إثبات نبوته، وإنذارًا وتيسيرًا بتفصيل قصص الأمم السالفة" (٣).

وقال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "المعنى: أن هذا النبأ غيب لم يحصل لك إلا من جهة الوحي؛ لأنك لم تحضر بني يعقوب حين أجمعوا أمرهم، وهو إلقاؤهم أخاهم في البئر، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ [يوسف:١٥]، وهذا تهكم بقريش وبمن كذبه؛ لأنه لم يخف على أحد من المكذبين أنه لم يكن من حملة هذا الحديث وأشباهه، ولا لقي فيها أحدًا، ولا سمع منه، ولم يكن من علم قومه، فإذا أخبر به، وقص هذا القصص العجيب الذي أعجز حملته ورواته، لم تقع شبهة في أنه ليس منه، وأنه من جهة

---

(١) حاشية الطيبي على الكشاف (١٠٦/٤-١٠٧).

(٢) انظر: حاشية الطيبي على الكشاف (١٠٦/٣)، الكشاف (٥٠٧/٢).

(٣) معاني القرآن وإعرابه (١٣٠/٣).

الوحي، فإذا أنكروه تهكم بهم. وقيل لهم: قد علمتم يا مكابرة أنه لم يكن مشاهدًا لمن مضى من القرون الخالية" [(١)].

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله: (وهذا تهكم بقريش)، يعني: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ [يوسف:١٠٢] الآية، وذلك أنه صلوات الله عليه أخبرهم بهذه القصة العجيبة التي عجزت عنها رواته من غير أن يخرم منها حرفًا، فصدقوه في ذلك، مع استمرارهم على إنكار الوحي، فخوطب به صلوات الله عليه معرضًا بهم على سبيل التهكم، استركاكًا لعقولهم، وإليه الإشارة بقوله: (يا مكابرة)، يعني: أيها المكابرون، إنه لم يخف عليكم أنه لم يكن من حملة هذا الحديث، ولا لقي فيها أحدًا، ولا سمع منه، ولم يكن من علم قومه، ولم يكن مشاهدًا لذلك أيضًا، فلم يبق إلا الوحي، فإذا أنكرتم الوحي لزم أنكم لم تصدقوه فيما صدقتموه، وإليه الإشارة بقوله: (فإذا أنكروه)، أي: الوحي، (تهكم بهم)؛ لأنه لزمهم نفي ما أثبتوه؛ فإن التهكم ينتزع من نفس التضاد.

وأحسن منه قول القاضي البيضاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر من نبأ يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، والخطاب للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو مبتدأ، وقوله: ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ خبران له، ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ﴾ الآية: كالدليل عليهم، والمعنى: أن هذا النبأ غيب لم تعرفه إلا بالوحي؛ لأنك لم تحضر إخوة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين عزموا على ما هموا به من أن يجعلوه في غيابة الجب، وهم يمكرون به، وبأبيه؛ ليرسله معهم، ومن المعلوم الذي لا يخفى على مكذبيك أنك ما لقيت أحدًا سمع ذلك، فتعلمه منه، وإنما

---

(١) الكشاف (٢/٥٠٧).

حذف هذا الشق؛ استغناء بذكره في غير هذه القصة، كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَاۖ﴾ [هود:٤٩]" (١).

ويقال في قصص القرآن الكريم ما قيل في عموم آياته، من حيث بلاغة الألفاظ، ودقة المعاني، وقد قامت الدلائل والشواهد على صدق الأخبار في القرآن الكريم، وصحيح السنة، ومطابقتها للواقع، فالسنة من وحي الله عَزَّوَجَلَّ إلى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الذي لا ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾ [النجم:٤-٥].

والقرآن الكريم محكم التنزيل، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كما قال المولى جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾ [فصلت:٤١-٤٢].

فما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ به من القصص وغيرها في كتابه المنزل فهي حق لا مرية في ذلك، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّۚ﴾ [آل عمران:٦٢].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ۝٨٧﴾ [النساء:٨٧].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ۝١٢٢﴾ [النساء:١٢٢].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ [يوسف:٣].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَۚ﴾ [آل عمران:٤٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَاۚ﴾ [الأعراف:١٠١].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَاۖ﴾ [هود:٤٩].

---

(١) حاشية الطيبي على الكشاف (٨/٤٤٣)، تفسير البيضاوي (٣/١٧٧-١٧٨).

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا ٩٩﴾ [طه:٩٩].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١١١﴾ [يوسف:١١١].

فما كان هذا القرآن حديثًا مختلقًا، ولكنه تصديق للكتب السماوية التي قبله، وفيه تفصيل لكل ما يحتاج إليه المكلفون، من حيث إنه مصدر التشريع الأول، والقانون الذي يستند إليه في التشريع، من أمور الدين من الحلال والحرام، والحجاج، والاعتبار؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ لم يفرط في الكتاب من شيء من الأحكام، والحدود، والقصص، والمواعظ والأمثال، وغير ذلك.

وقيل: ﴿وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ من واقعة يوسف عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ مع أبيه وإخوته. قال الواحدي رَحِمَهُٱللَّهُ(١): وعلى التفسيرين فهو ليس على عمومه؛ لأن المراد به الأصول والقوانين وما يؤول إليها.

﴿وَهُدٗى﴾ في الدنيا. ﴿وَرَحۡمَةٗ﴾ في الآخرة. ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١١١﴾؛ لأنهم هم المنتفعون بذلك.

ويستدل بالآثار على صحيح القصص والأخبار.

و(علم الآثار) من العلوم الهامة التي أغفلها المسلمون في عصرنا الحاضر، حتى تفوق غيرهم عليهم في هذا المجال، مع أن الاستدلال بالآثار على صحيح ما جاء من الأخبار مما يوثق المسموع منها بالدليل الحسي المشاهد.

---

(١) انظر: التفسير البسيط، لأبي الحسن الواحدي (١٢/٢٧٥- ٢٧٦)، غرائب القرآن (٤/١٣٣-١٣٤).

والاستقراء في التواريخ، والكتب المدونة، والمخطوطات، والآثار كل ذلك مما يوثق الأخبار، ويقوي الإيمان، ويزيد اليقين.

وما شاع في العصور المتأخرة من هدم الآثار بدعوى التقديس فهو من الجهل والتخلف؛ إذ إن رفع شوائب الشرك إنما يكون بالفكر والتوعية والتبصير، ومحاربة الجهل والتخلف، وليس بهدم الآثار التي هي من العلامات والأدلة على صدق الأخبار، وهي أيضًا من البواعث على التأمل والاعتبار لكل ذي بصيرة، وليس في الأمم المتحضرة من يهدم الآثار التي تدل على التاريخ والهوية.

٤ - إثبات البعث والجزاء:

ومن مقاصد القصص في القرآن والسنة إثبات البعث والجزاء في الآخرة؛ ليتحقق الإيمان باليوم الآخر الذي هو أحد أركان الإيمان، ومبانيه العظام، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٣٦﴾ [النساء:١٣٦].

وفي الحديث: قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، ورسله، وكتبه، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره**» رواه الشيخان.

وفي لفظ عندهما: «**الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ولقائه، ورسله، وتؤمن بالبعث الآخر**».

وروى الترمذي رَحِمَهُٱللَّهُ وغيره حديث: «**لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره، حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه**»(١).

(١) أخرجه الترمذي عن جابر [٢١٤٤]، وقال: "هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث: عبد الله بن ميمون، وعبد الله بن ميمون منكر الحديث. كما أخرجه ابن جرير: عن جابر". ولكن الحديث قد ورد مفرقًا في أحاديث.

وعن رِبْعِيِّ بن حِرَاشٍ عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله بعثني بالحق، ويؤمن بالموت، وبالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر**»(١).

ومن قصص القرآن الكريم التي وردت في سياق إثبات البعث والجزاء: قوله جَلَّ وَعَلَا في قصة بقرة بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً﴾ [البقرة:٦٧]، إلى قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة:٧٣].

وقال الله عَزَّ وَجَلَّ في قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ﴾ [البقرة:٢٤٣].

وقال جَلَّ وَعَلَا مخبرًا عن استدلال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ على إثبات المعاد، وإقامة الحجة على منكريه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ

---

(١) أخرجه الطيالسي [١٠٨]، وأحمد [٧٥٨]، وعبد بن حميد [٧٥]، وابن ماجه [٨١]، والترمذي [٢١٤٥]، وقال: "حدثنا محمود بن غيلان قال: حدثنا النضر بن شميل، عن شعبة، نحوه، إلا أنه قال: ربعي، عن رجل، عن علي. حديث أبي داود، عن شعبة عندي أصح من حديث النضر، وهكذا روى غير واحد، عن منصور، عن ربعي، عن علي، حدثنا الجارود، قال: سمعت وكيعًا، يقول: بلغنا أن ربعيا لم يكذب في الإسلام كذبة" اهـ. وأخرجه أيضًا: ابن أبي عاصم في (السنة) [١٣٠]، والبزار [٩٠٤]، وأبو يعلى [٥٨٣]، وابن حبان [١٧٨]، والحاكم [٩٠] وصححه، ووافقه الذهبي. كما أخرجه: تمام [١٤٤٢]، والبيهقي في (القضاء والقدر) [١٨٩]، والضياء [٤٤٠].

كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة:٢٥٨-٢٥٩].

وقال جَلَّوَعَلَا في قصة أصحاب الكهف: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ﴾ [الكهف:١٩].

٥ - تثبيت فؤاد النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وأمته:

إن من أهم مقاصد القصص والأخبار: تثبيت فؤاد النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وتسليته، وحمله على الصبر على مشاق الدعوة، كما صبر أولو العزم من الرسل عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ.

وتثبيت قلوب المؤمنين على سلوك طريق الدعوة، وتحمل المشاق، والصبر على الابتلاء، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود:١٢٠].

ومن المواساة المتجددة: ما ذكره الله عَزَّوَجَلَّ في القرآن من قصص الأنبياء عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ، حيث صبروا على مشاق الدعوة والتبليغ، وما كانوا يلقونه من الإيذاء.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥]، أي: على تكذيب قومهم لهم. والمراد بأولى العزم: ما ذكر في كل من سورتي: الأحزاب، والشورى.

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب:٧].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ﴾ [الأنعام:٣٤]، ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾ [آل عمران:١٨٤].

ولتثبيت قلب الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ صور متعددة ذكرتها مفصلة في الجزء الأول من كتاب: (تذكرة وبيان من علوم القرآن).

٦ – الاقتداء بأئمة الهدى والاعتبار بحال أهل الضلال ومآلهم:

إنَّ للقدوة أثرًا في تحديد وجهة الإنسان في فكره وسلوكه؛ ولذلك فإن القدوة الحسنة تهدي إلى الحقِّ، وإلى البرِّ والتقوى، والصَّلاح والإصلاح، كما أنَّ للقدوة السَّيئة من الأثرِ في الشَّرِّ والإفسادِ والضَّلال والإضلال ما لا يخفى على أولي البصائر.

ويوصف الإمام بأنه أُسوة وقدوة للمأمومين، فإذا كان إمامًا في الخير والصلاح أثَّر في أتباعه، فأثمر الاقتداءُ والتأسي: قيمًا وأخلاقًا واستقامة، وإذا كان إمامًا في الشَّر أثَّر فيهم، فأورث انحرافًا وضلالًا عن الحقِّ.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ٧٣﴾ [الأنبياء:٧٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ٢٤﴾ [السجدة:٢٤].

وفي المقابل: قال الله عَزَّوَجَلَّ في بيان حال أهل الضلال ومآلهم: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ٤١ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ٤٢﴾ [القصص:٤١-٤٢]. فهم يقودون أتباعهم إلى النار، ويضلونهم عن سواء السبيل.

ولذلك فإن من أهم مقاصد القصص والأخبار في الكتاب والسنة الاقتداء بأئمة الهدى. وخير أسوة للنَّاس في الخير والاستقامة هم الرسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ، كما بيَّن الحق جَلَّوَعَلَا

في الآيات التالية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام:٩٠]. فهؤلاء هم القدوة النافعة التي تهدي إلى سواء السبيل، إلى صراط العزيز الحميد.

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة:٤]، أي: قد كان لكم أيها المؤمنون أُسوة حسنة في إبراهيم خليل الرحمن عَلَيْهِ السَّلَامُ، تقتدون به، والذين معه من أنبياء الله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأٓخِرَۚ﴾ [الممتحنة:٦].

وخير الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ هو النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وخير سيرة هي سيرته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وخير الهدي هديه، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب:٢١]؛ ولذلك فإن أعظم مقصد من مقاصد القصص والأحاديث والأخبار والسير: تحقيق الاقتداء بسنَّة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أخلاقه، وآدابه، ونوافله وتطوعاته، وأكله وشربه، ولباسه، وحسن معاشرته للناس، وغير ذلك من آدابه الكاملة، وأخلاقه الطاهرة، والاعتناء بمعرفة سيرته وأيامه، إلى غير ذلك.

وقد قيدت الأسوة في الآيات السابقة بكونها حسنة؛ احترازًا عن القدوة السيئة التي هي من أهم أسباب الضلال، ومعوقات الهداية، ومن أسباب التطرف في الفكر والسلوك.

وقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنعام:٣٤]. قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "أي: من خبرهم كيف نصروا وأيدوا على من كذبهم من قومهم، فلك فيهم أسوة، وبهم قدوة" (١).

(١) تفسير ابن كثير (٣/٢٥٢).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٨٩-٩٠].

وقد ضلَّ كثيرون بسبب اقتفائهم لآثار فلاسفة قد حادوا عن الحق، فكثرت أقوالهم، وتباينت مناهجهم، وتأثر أتباعهم، فعاشوا في تخبط وضلال، وأعرضوا عن منهج الله عَزَّوَجَلَّ، وصراطه المستقيم، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام:١٥٣].

وقد جاء في القرآن الكريم بيان عاقبة أهل ومن تبعهم وسار على نهجهم: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل:٢٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت:١٢-١٣].

والأمة بأمسِّ الحاجة إلى القدوة الحسنة. وأعظم قدوة للناس رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -كما تقدم-، ثم وُرَّاثُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الصَّحابة والتَّابعين والسَّلف الصالح، ومن سار على هديهم، واقتفى أثرهم، ودعا إلى هذا الدين، وهو على بصيرة وبينة من العلماء الصالحين، والقادة المخلصين..فهم بناة الأجيال الحقيقيون، والهداة إلى سواء السبيل.

وقد جاء في قصص القرآن الكريم بيان عاقبة المكذبين ممن ضلَّ وأعرض عن الهداية، ومن ذلك: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأنعام:٦].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَۚ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ٥٤﴾ [الأنفال:٥٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ١٣ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ١٤﴾ [يونس:١٣-١٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ٩٠ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ٩١ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةًۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ٩٢﴾ [يونس:٩٠-٩٢].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ٣٨ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ٣٩ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ٤١ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةًۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ٤٢﴾ [القصص:٣٨-٤٢].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٤٣﴾ [القصص:٤٣].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ٢١﴾ [غافر:٢١].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْۚ﴾ [السجدة:٢٦].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ۝١٣٦ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِٱلَّيْلِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٣٨﴾ [الصافات:١٣٦-١٣٨].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٥ فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ۝٥٦﴾ [الزخرف:٥٥-٥٦].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢٧﴾ [الأحقاف:٢٧].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾ [الفجر:٦-١٤].

والآيات في ذلك كثيرة، وقد بينت أن سبب هلاكهم هو تكذيبهم للرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وإعراضهم عن الهداية، ومن أعظم أسباب الهلاك: الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، والظُّلم والطُّغيان، والتَّقليد الأعمى.. إلى غير ذلك.

وقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ بالنظر في الأدلة، والاعتبار بحال الأمم الغابرة، فقال: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ۝٢﴾ [الحشر:٢].

قالوا: والاعتبار ردُّ الشيء إلى نظيره بأن يحكم عليه بحكمه؛ ولذا سمي الأصل الذي تردُّ إليه النظائر عبرة، وهذا يشمل: الاتعاظ، والقياس العقلي والشرعي، وسوق الآية للاتعاظ، فتدل عليه عبارة وعلى القياس إشارة فلا ينافي كونه دليلًا على حجية

القياس" (١)؛ لأنَّ الاتِّعاظ يكون ثابتًا بطريق المنطوق مع أنَّ سياق الكلام له، والقياس بطريق المنطوق من غير أن يكون سياق الكلام له. سلمنا أنَّ الاعتبار هو الاتِّعاظ لكن يثبت القياس دلالة، و(العبرة لعموم اللَّفظ لا لخصوص السَّبب).

قال ابن عابدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فسِّر الاعتبار بالتَّأمل، وإن كان المراد منه -والله أعلم-: ردَّ أنفسنا إلى أنفسهم في استحقاق العقوبات عند مباشرة تلك الأسباب؛ لأنَّ هذا الرَّد إنما يتحقَّق بالتَّأمل في أحوالهم، ولما كان التَّأمل هو المؤدي إلى هذا الردِّ جعل التَّأمل نفسه إقامة للسَّبب مقام المسبَّب" (٢).

وتمام الكلام على ذلك في الكتب الأصولية.

ومن الآيات الدالة على الاعتبار وعلى بيان جريان سُنَّة الله عَزَّوَجَلَّ في المستقبل لكلِّ من عصى وفعل سوءًا كما كانت جارية في الماضي: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [فاطر:٤٣-٤٤]، وسيأتي ذكر آيات كثيرة دالَّة على الاعتبار في بيان (معرفة سنن الله عَزَّوَجَلَّ في هذا الكون).

---

(١) انظر: التوضيح في حل عوامض التنقيح (١١٦/٢)، تيسير التحرير (١٠٨/٤)، التقرير والتحبير (٢٤٤/٣)، شرح التلويح على التوضيح، للسعد التفتازاني (١٠٨/٢)، حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي (١٧٥/٨).

(٢) انظر: حاشية نسمات الأسحار على شرح إفاضة الأنوار على متن أصول المنار (ص:١٤٦-١٤٧).

فتبين مما سبق أن من مقاصد القصص والأخبار: الاعتبار والاتعاظ بما حاق بالأمم السابقة من الظالمين ومن المكذبين الضالين، وأن العاقبة للمتقين، مهما طال ليل الظلم وأرخى سدوله، وامتدَّ رواقه.

٧ – بيان أن ما جاء به الرسل عَلَيهِمُ السَّلَامُ يخرج من مشكاة واحدة:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة:٩١].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران:٣-٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ [النساء:٤٧].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ۝١٦٣ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ۝١٦٤ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ﴾ [النساء:١٦٣-١٦٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ [المائدة:٤٦].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [المائدة:٤٨].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٢٣﴾ [النحل:١٢٣].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ﴾ [الحج:٧٨].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِۗ﴾ [فاطر:٣١].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشورى:١٣].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٩].

وقال عيسى عَلَيهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْۚ﴾ [آل عمران:٥٠].

وقال لقومه: ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُۖ﴾ [الصف:٦].

٨ – معرفة سنن الله عَزَّوَجَلَّ في هذا الكون:

ومن مقاصد القصص والأخبار في الكتاب والسنة: معرفة سنن الله عَزَّوَجَلَّ في هذا الكون، ومن هذه السنن: نصر المؤمنين الصادقين ولو بعد حين، ونهاية الظالمين مهما امتد أمد الظلم، وطال ليله، فلا بدَّ للحقِّ في النهاية أن يعلو وينتصر، وللباطل من أن يضمحل ويندثر.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الرعد:١٧].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ٨١﴾ [الإسراء:٨١].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ﴾ [الأنبياء:١٨].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٢٤﴾ [الشورى:٢٤].

وقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ بالاعتبار بقصص السابقين، وما مضى فيهم من أمر الله عَزَّوَجَلَّ فقال: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٢﴾ [الحشر:٢]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ [يوسف:١١١]، وقد تقدم بيان الأمر بالاعتبار وآيات كثيرة دالة عليه.

وقد وعد الله عَزَّوَجَلَّ المؤمنين بالنصر والتمكين، وبين في غير آية أن العاقبة للمتقين فقال: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٣ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٤﴾ [يونس:١٣-١٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ١٠٢ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يونس:١٠٢-١٠٣].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ١٣٧﴾ [الأعراف:١٣٧].

وبشر الله عَزَّوَجَلَّ المؤمنين بحسن العاقبة أيضًا في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾ [الروم:٤٧].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة:٢١٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [إبراهيم:١٣-١٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [يوسف:١١٠].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء:٨٨].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء:١٠٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص:٥-٦].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات:١٧١-١٧٣].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الزمر:٧٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر:٥١].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِىٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة:٢١].. إلى غير ذلك من الآيات.

وقال في فرعون وقومه مما بغى وظلم: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف:١٣٧].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء:١٦-١٧].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَـٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَـٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الحج:٤٢-٤٥].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج:٤٨].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَدَمَّرْنَـٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَـٰهُمْ وَجَعَلْنَـٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَـٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾ [الفرقان:٣٦-٤٠].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الشعراء:١٧٢-١٧٣].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ﴾ [النمل:٥١-٥٢].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات:١٣٦-١٣٨].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةًۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ [فصلت:١٥-١٨].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾﴾ [محمد:١٠].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًاۖ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾﴾ [الحاقة:٥-١٠]....

إلى غير ذلك من الآيات، وقد تقدم ذكر كثير منها.

فمن سلك طريق المتقين فقد وعده الله عَزَّوَجَلَّ بالحياة الطيبة وحسن العاقبة، ومن بغى وتكبر وسلك سبيل فرعون وهامان وقارون وقوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الأيكة وقوم تبع وغيرهم مما أعرض وظلم وتكبر فإن سنة الله عَزَّوَجَلَّ جارية فيهم كما جرت فيمن قبلهم، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾﴾ [محمد:١٠].

وأصحاب البصائر يعتبرون بأحوال السابقين، ويهتدون بآيات الله عَزَّوَجَلَّ، وينظرون في سننه الماضية في هذا الكون، والتي لا تبديل لها، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران:١٣٧].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [الإسراء:٧٧].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۝٦٢﴾ [الأحزاب:٦٢].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ۝٤٣﴾ [فاطر:٤٣].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۝٢٣﴾ [الفتح:٢٣].

وفي النهاية سيجازى كل على ما كسب إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، وقد أفلح من اعتبر فسلك طريق النجاة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١٣٤﴾ [البقرة:١٣٤].

والسنن الإلهية في هذا الكون تتسم بالاطراد، فلا تتخلف مع وجود مسبباتها، ومع انتفاء ما يمنعها، ويتحقق ذلك على وفق ما قرر في الشرع.

وقد جاء في الحديث: «**ما منع قوم الزكاة إلا ابتلاهم الله بالسنين**» (١)، أي: بالجدب والقحط.

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال: أقبل علينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**يا معشر المهاجرين، خمس إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون، والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان، إلا أخذوا بالسنين، وشدة المئونة، وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم، إلا منعوا القطر من السماء، ولولا**

(١) أخرجه الطبراني في (الأوسط) [٤٥٧٧]. قال الهيثمي (٣/٦٦): "رواه الطبراني في (الأوسط)، ورجاله ثقات". وأخرجه أيضًا: تمام في (الفوائد) [٩٤٠].

البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله، وعهد رسوله، إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيروا مما أنزل الله، إلا جعل الله بأسهم بينهم» (١).

وفي رواية: عن عبد الله بن بريدة، عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ما نقض قوم العهد قط، إلا كان القتل بينهم، ولا ظهرت الفاحشة في قوم قط، إلا سلط الله عليهم الموت، ولا منع قوم الزكاة، إلا حبس الله عنهم القطر»** (٢).

فمن سنن الله عَزَّ وَجَلَّ أن البلاء يقع بسبب المجاهرة بالمعاصي، وبسبب الظلم وسفك الدماء، ونقض العهود والمواثيق.

وما أصاب الأمة ما أصابها من البلاء إلا بسبب المجاهرة المعاصي، والإقرار بها، وترك الإنكار، فلما كثرت المظالم، ولم يُنكر على الظالم، وانتشرت الرشوة، وشاع شراء الذمم، وفسد القضاء، وأهدرت الحقوق، وبغى الناس بعضهم على بعض، أصاب الأمة ما أصابها من البلاء والفقر والتخلف. قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس:٢٣].

---

(١) أخرجه ابن ماجه واللفظ له [٤٠١٩]، والبزار [٦١٧٥]، والحاكم [٨٦٢٣]، وقال: "صحيح الإسناد". وأخرجه أيضًا: أبو نعيم (٣٣٣/٨)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٣٠٤٢]، وابن عساكر (٢٦٠/٣٥). قال الهيثمي (٣١٧/٥): "رواه البزار ورجاله ثقات".

(٢) أخرجه البزار [٤٤٦٣]، والحاكم [٢٥٧٧]، واللفظ له، وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي في (السنن) [٦٣٩٧]، وفي (شعب الإيمان) [٣٠٤٠]. قال الهيثمي (٢٦٩/٧): "رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح غير رجاء بن محمد وهو ثقة".

وقد جاء في الحديث: «**إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب**» (١).

وفي رواية: «**إذا رأوا المنكر**» (٢).

وفي رواية: «**ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي، ثم يقدرون على أن يغيروا، ثم لا يغيروا، إلا يوشك أن يعمهم الله منه بعقاب**» (٣).

وإنَّ الله جَلَّوَعَلَا يمهل الظالم ولا يهمله، كما جاء في الحديث: عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله لَيُمْلِي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلِتْه**»، قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود:١٠٢] (٤).

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله لَيُمْلِي**» أي: ليمهل، و(الإملاء): الإمهال والتأخير، وإطالة العمر، «**للظالم**»؛ زيادة في استدراجه؛ ليطول عمره، ويكثر ظلمه، فيزداد عقابه: ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران:١٧٨]. ووقوع العفو عن بعض أفراد الظلمة يكون مع تعويض المظلوم فهو نصر أيضًا، وفيه: تحذير شديد من الظلم، وأن مراتعه وخيمة، ومصائبه عظيمة (٥).

---

(١) أخرجه أحمد [٢٩]، وابن حميد [١]، وأبو داود [٤٣٣٨]، والترمذي [٢١٦٨]، والبزار [٦٥]، وابن حبان [٣٠٤]، والبيهقي [٢٠١٨٩]، والحميدي [٣]. قال الإمام النووي: "إسناده صحيح". رياض الصالحين (ص:٩٧)، الأذكار (ص:٣٣١).

(٢) أخرجه أحمد [١، ١٦، ٥٣]، وابن ماجه [٤٠٠٥]، والنسائي في (الكبرى) [١١٠٩٢]، وأبو يعلى [١٢٨]، وابن حبان [٣٠٥]، والضياء [٥٨].

(٣) أخرجه أبو داود [٤٣٣٨]، والبيهقي [٢٠١٩١].

(٤) صحيح البخاري [٤٦٨٦]، مسلم [٢٥٨٣].

(٥) انظر: فيض القدير (١٤١/١)، (٢٦٤/٢).

فمن سنن الله عَزَّوَجَلَّ: استدراج الظالم، وابتلاء المظلوم، "فمن الاستدراج: أن يملى للإنسان في ظلمه، فلا يعاقب سريعًا؛ حتى تتكدس عليه المظالم، فإذا أخذه الله عَزَّوَجَلَّ لم يفلته، أخذه أخذ عزيز مقتدر.

ومن سنن الله عَزَّوَجَلَّ: أن المكر السيء يحيق بأهله، وأن الجزاء من جنس العمل، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ۝٤٣﴾ [فاطر:٤٣]، أي: لا يحيط وبال المكر السيء إلا بمن مكره ودبره، كما قيل: من حفر حفرة لأخيه وقع فيها.

قال بعض السلف: ثلاث من كُنَّ فيه كُنَّ عليه: المكر والبغي والنكث. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ﴾ [يونس:٢٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ﴾ [الفتح:١٠].

وقال مكحول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أربع من كن فيه كن له، وثلاث من كن فيه كن عليه، فالأربع اللاتي له: فالشكر، والإيمان، والدعاء، والاستغفار، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ﴾ [النساء:١٤٧]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ۝٣٣﴾ [الأنفال:٣٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ﴾ [الفرقان:٧٧].

وأما الثلاث اللاتي عليه: فالمكر والبغي والنكث، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ﴾ [الفتح:١٠]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾ [فاطر:٤٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ﴾ [يونس:٢٣]"(١).

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٤٢٦/٥-٤٢٧)، حلية الأولياء (١٨١/٥)، تاريخ دمشق (٢٢٥/٦٠-٢٢٦).

وقليل من عباد الله عَزَّوَجَلَّ شكور لنعمه الوافرة، يقابل ذلك الإحسان والفضل بالاجتهاد فيما يرضي ربه جَلَّوَعَلَا، ويصبر على ما أصابه من البلاء، شاكرا لله عَزَّوَجَلَّ في السراء والضراء، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾ [سبأ:١٣]، وقال عن نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾ [الإسراء:٣].

وإن من سنن الله عَزَّوَجَلَّ الكونيَّة التي لا تتبدل ولا تتغير: أنَّ العصيان يجلبُ الانتقام، وأنَّ الطَّاعة تجلبُ الرَّحمةَ والرِّضوان، وأنَّ من أكبر أسبابِ زوال النعمةِ: كفرانها، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم:٧]، ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۝٩﴾ [الطلاق:٨-٩]، وقال: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٢١١﴾ [البقرة:٢١١]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال:٥٣].

وقال في بيان عاقبة من كفر نعمه: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ۝٢٨ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَاۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ۝٢٩﴾ [إبراهيم:٢٨-٢٩].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ في بيان عاقبة الإعراض عن طاعته وكفران نعمه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ۝١١٢﴾ [النحل:١١٢]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍۖ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝١٥ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن

سِدۡرٖ قَلِيلٖ ١٦ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ١٧﴾ [سبأ:١٥-١٧]. وقد جاء بيان ذلك مفصلًا في كتاب: (الإرشاد إلى أسباب النجاة).

٩ – القرآن الكريم إنما يعنى بالمهمات:

يتناول القرآن الكريم قصص الأنبياء والمرسلين عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ وغيرهم، ولا يُعْنى غالبًا بتحديد زمان ولا مكان، ولا ذكر أشخاص، ولا تسجيل مجرد للحوادث والأشخاص، وإنما الغرض من ذلك الهداية والعظة والعبرة، وتقرير قواعد هذه الهداية في النفوس ... الخ. فمثلًا: أين كان نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ؟ وأين كان داود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ؟ لا يقول؛ لأنَّه ليس المكان الذي يشكِّلُ الحدث، وليس الزَّمانُ هو الذي يشكِّلُ الحدث، وليس اسم الشَّخص يشكِّلُ الحدث؛ ولذلك لا يصرِّح حتى بذكر اسم الشَّخص، فيقول: (فرعون) مثلًا، وهو لقبٌ لكلِّ ملوك (مصر) القدماء، و(تُبَّع) لكلِّ ملوك (اليمن) –مثلًا–، فالقرآن لا يُعني إلَّا بالمهمَّات، فتحديد المكان فضلًا عن المسافة الدَّقيقة لا دخل له في تشكيل الحدث.

فعندما أتصوَّر –مثلًا– أنَّ محمَّدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ سينادي الكفَّار كما يقول الله عَزَّ وَجَلَّ له: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١﴾ [الكافرون:١]، صحيح أن محمَّدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ جسم محسوس، والكفَّار أجسام محسوسة، ولكن ما قيمة أن يقال: إنَّ محمَّدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وهو ينادي كان بينه وبين الكفَّار الَّذين يناديهم مسافة كذا؟ فما قيمة هذا حتى يُعنى به القرآن؟ فلمَّا كان ملاحظة المكان الحسيِّ شيءٌ يسقط من قصد القرآن؛ لأنَّه لا صلة له بتشكيل الأحداث، والقرآن إنما يعنى بموطن العبرة والحكمة، وكذلك في النِّداءات الَّتي بين المخلوق والمخلوق لا يلاحظ المسافة الحسيَّة.

والأصلُ في أكثر الألفاظ الموضوعة لمعانٍ أنَّها جاءت موضوعة أصلًا لمحسٍّ مشاهد، وأنَّها لا تصرف إلى ما ليس حسيًّا مشاهدًا إلَّا بنوعٍ من الإطلاق بعد التَّقييد؛ لأنَّ الأصل

أنَّ الواضع عندما يضعُ اللفظ إنما يضعه؛ ليكونَ وسيلةَ تفاهمٍ بينه وبين مخاطَبه، ولا بُدَّ من اللَّفظ؛ لأنَّ الإشارة وحدها لا تكفي فقد يكون الشَّخص بعيدًا لا يرى الإشارة ..

القرآن لا يُعنى إلَّا بالمهمَّات أصلًا، والمكان والمسافة ليس من المهمَّات؛ ولذلك نجد القرآن الكريم عندما يسوقُ القصص لا يأتي بالمكانِ المحدَّد بالضَّبط.

والاعتبار والهداية هما ركيزتا القصد من القصص، والأحاديث، والأخبار في الكتاب والسنة -كما تقرَّر في غير موضع-، فهما المقصد الأساس الذي ينبغي أن يلتفت إليه، دون التفات في الغالب إلى الزمان والأشخاص والمسافات، وإن كان في النصوص اعتبار للزمن فلنكتة ظاهرة، لا تخفى على متأمل من أولي البصائر.

١٠ - إبراز كثير مما أخفاه أهل الكتاب:

وفي ذلك إشارة إلى التبديل والتغيير والتحريف الذي وقع في الكتب السابقة؛ لأنها كانت محليَّة ومرحليَّة، وعندما يتطور الواقع فتنسخ شريعة، يأتي رسولٌ جديد بشريعة جديدة، كما قال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠].

ولكن أمَا وقد بلغت الإنسانية سنَّ الرشد، وشاء الله عَزَّوَجَلَّ ختم رسالات السماء جاءت الشريعة المحمدية لتقف عند الثوابت والأطر والقواعد والكليات، وتترك التجديد والتطوير ومواكبة العصور للفقه الإسلامي الذي هو علم الفروع، فكان اهتمام العلماء بعلم المقاصد التي تعطي آفاقًا واسعة لفهم النَّص بما يفي بمقتضيات عصر تجدد.

وجاء به الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يخرج من مشكاة واحدة -كما تقدم-، فالأصول واحدة؛ ولذلك كانت الرسالة الخاتمة لرد الناس إلى تلك الأصول بعد أن عبثت بها يد التحريف،

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:٦٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة:١٥-١٦].

فقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [المائدة:١٥]، أي: من نحو بعثة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وبشارة عيسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ به، وكثيرًا من تلك الأحكام التي بدلت، أو حذفت؛ ولذلك تميز القرآن الكريم بالحفظ من التبديل أو التغيير إلى قيام الساعة، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر:٩]؛ لأنه آخر الكتب السماوية، والنبي محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هو خاتم النبيين، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:٤٠].

وقد كان الناس الحال قبل بعثة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في فترة انقطاع من الرسل عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ حيث إن الرسالات السابقة وبسبب ما حدث فيها من التبديل والاختلاف لم يعد لها أي أثر في الواقع، فكثرث النسخ عن تلك الكتب واختلفت وتناقضت، بل إن العهد الجديد لم يعد فيه أي تكليف.

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ عن تلك الفترة من الانقطاع: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة:١٩]، والمراد من الفترة: انقطاع ما بين الرسولين -كما سيأتي في ألفاظ الزمن-؛ "لأن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بعث بعد انقطاع الرسل عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ؛ لأن الرسل عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ كانت إلى وقت رفع الله عيسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ تَتْرى، أي: متواترة، يجيءُ بعضها في إثر بعض.

وقد جاء في القرآن الكريم ذكر بعض ما أخفاه أهل الكتاب، ومن ذلك قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة:٤٥].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف:١٥٧].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ﴾ [الفتح:٢٩].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ﴾ [الصف:٦].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ في وصف حالهم من إخفاء الحق وكتمانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة:١٤٦].

١١ – تنبيه الإنسان من الغفلة:

إنَّ أخطرَ شيءٍ في حياةِ الإنسانِ هو الغفلةُ، والغفلةُ عن ماذا؟ الغفلةُ عن أعظمِ شيءٍ في الوجود، ألا وهو الصِّلة بالله عَزَّوَجَلَّ، وطاعته والتقرُّب إليه، فالغفلةُ عن الله عَزَّوَجَلَّ مُهلكةٌ للإنسان، فكم من غافلٍ عن مولاه لم يستفق إلا وهو صريعٌ بين الأموات، فما ينفعُه وقتَها النَّدمُ، ولا تنفعُهُ الحَسَرات!

إن الغفلة تورد صاحبها المهالك، فإذا دهم الغافلَ الموتُ فإنه يتحسر على التَّفريط في الطاعة، ثم يتمنى الرجعة إلى الدنيا؛ لتدارك ما فاته، فيأتيه الجواب: ﴿كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝﴾ [المؤمنون: ١٠٠].

وقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ في هذا الكون آيات جليلة دالة على عظمته ووحدانيته غفل عنها كثير من الناس، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ۝﴾ [يونس:٩٢]، فكم من آية بينة في نفسها يغفل الناس عنها؟! كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ۝﴾ [يوسف:١٠٥]. وحقيقة المرور: الاجتياز، ويستعار للتغافل وعدم الاكتراث للشيء، كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥۚ﴾ [يونس:١٢]، أي: نسي دعاءنا، وأعرض عن شكرنا؛ لأن المار بالشيء لا يقف عنده، ولا يسائله، أي: لا يستعلم عنه.

وقال الله عَزَّوَجَلَّ حكاية عن المشركين حين رأوا معجزة انشقاق القمر: ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝﴾ [القمر:٢].

ثم أعقب ذلك ببيان سبب الغفلة، وأنه متابعة أهواءَهم الباطلة، وما زيَّن لهم الشيطان من دفع الحق بعد ظهوره فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْۚ﴾ [القمر:٣].

وقصص القرآن الكريم توجه الأنظار إلى التأمل والاعتبار من خلال النظر إلى آثار الأمم الغابرة، وما حلَّ بهم من عقاب الله عَزَّوَجَلَّ بسبب الإعراض والغفلة عن آيات الله عَزَّوَجَلَّ، كما جاء في قصة غرق فرعون وجنوده في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةًۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ۝﴾ [يونس:٩٠-٩٢].

فقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ۝٩٢﴾، أي: لا يتفكرون، ولا يتعظون بها.

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قال بعضهم: ﴿نُنَجِّيكَ﴾، أي: نرفعك على نجوة من الارض فَنُظْهِرُكَ؛ لأنه قال: ﴿بِبَدَنِكَ﴾، ولم يقل: بروحك" (١).

والمراد: اليوم نجعلك على نَجْوةٍ من الأرض ببدنك، ينظر إليك هالكًا من كذَّب بهلاكك.

قال أبو إسحاق الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وإنما كان ذلك آية؛ لأنه كان يدعي أنه إله وكان يعبده قومه، فبين الله عَزَّوَجَلَّ أمره وأنه عبد.

وفيه من الآية أنه غرق القوم وأخرج هو من بينهم، فكان في ذلك آية" (٢).

وقال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس:٩٢]، أي: لمن بعدك من الناس عبرة يعتبرون بك،، فينزجرون عن معصية الله عَزَّوَجَلَّ، والكفر به، والسعي في أرضه بالفساد" (٣).

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ۝٩٢﴾ [يونس:٩٢]، يعني: عن حججنا وأدلتنا على أن العبادة والألوهة خالصة لله عَزَّوَجَلَّ وحده.

وأخبر الله عَزَّوَجَلَّ في آيات أخرى عن غفلة فرعون وجنوده عن الآيات البينات التي جاءهم بها موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٦ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٣٧ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا

---

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (نجا) (٢٥٠١/٦).

(٢) معاني القرآن وإعرابه (٣٢/٣).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٩٤/١٥-١٩٨).

عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [القصص:٣٦-٤٢].

١٢ - الإرشاد إلى آداب المناظرة والحوار، وإقامة الحجة على المخالف:

إن قصص القرآن فيها إرشاد إلى آداب المناظرة والحوار، ودروس في الأخلاق والسلوك.

ومن ذلك ما قصه الله عَزَّوَجَلَّ من قوله جَلَّوَعَلَا لموسى وهارون عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ مرشدًا لهما، ومعلِّمًا للعباد أرفع أسلوب في الدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ من خلال الحوار: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه:٤٣-٤٤].

ومن ذلك ما قصه الله عَزَّوَجَلَّ من قصص الأنبياء عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ وحوارهم مع أقوامهم، وإقامة الحجة عليهم في دحض ما يعبدون من دون الله عَزَّوَجَلَّ، والآيات في ذلك كثيرة، وهاك ذكر أنموذج من حوار إبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ مع قومه:

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ [مريم:٤١-٤٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾

قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء:٦٩-٨٢].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الصافات:٨٣-٨٧].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء:٥١-٦٧].

وفي القرآن الكريم تعليم لكل باحث عن الحق لنصب الأدلة والبراهين، وإبانة الحق دون شائبة، وإلزام الخصم، ومن ذلك: ما حكاه الله عَزَّوَجَلَّ عن اليهود والنصارى من قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ﴾ [المائدة:١٨].

قال الإمام محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وعطف: ﴿وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ على ﴿أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ﴾ أنهم قصدوا أنهم أبناء محبوبون؛ إذ قد يكون الابن مغضوبًا عليه.

وقد علَّم الله عَزَّوَجَلَّ رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أن يبطل قولهم بنقضين:

أولهما: من الشريعة، وهو قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ﴾ يعني: أنَّهم قائلون بأن نصيبًا من العذاب ينالهم بذنوبهم، فلو كانوا أبناء الله عَزَّوَجَلَّ وأحباءه لما عذبهم بذنوبهم، وشأن المحب أن لا يعذب حبيبه، وشأن الأب أن لا يعذب أبناءه. روي أن الشبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ سأل أبا بكر بن مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أين تجد في القرآن أن المحب لا يعذب حبيبه؟ فلم يهتد ابن مجاهد، فقال له الشبلي في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ﴾ (١).

وليس المقصود من هذا: أن يرد عليهم بوقوع العذاب عليهم في نفس الأمر، من تقدير العذاب لهم في الآخرة على كفرهم؛ لأن ذلك لا يعترفون به فلا يصلح للرد به؛ إذ يصير الرد مصادرة (٢)، بل المقصود: الرد عليهم بحصول عذاب يعتقدون حصوله في

---

(١) قال الحافظ ابن كثير: وهذا الذي قاله حسن، وله شاهد من السنة. وله شاهد في (المسند) للإمام أحمد: عن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: مرَّ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في نفر من أصحابه، وصبي في الطريق، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ، فأقبلت تسعى وتقول: ابني ابني، وسعت فأخذته، فقال القوم: يا رسول الله، ما كانت هذه لتلقي ابنها في النار. قال: فخفضهم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فقال: «لا، والله ما يلقي حبيبه في النار» تفسير ابن كثير (٦٩/٣). والحديث أخرجه أحمد [١٢٠١٨، ١٣٤٦٧]، والبزار [٦٥٧٩]، قال الهيثمي (٢١٣/١٠): "رواه أحمد، والبزار، ورجالهما رجال الصحيح"، وأخرجه أيضًا: أبو يعلى= =[٣٧٤٧]، والحاكم [١٩٤]، وقال: "صحيح على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي. كما أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) [٦٧٣١]، وقد فصلتُ القول في ذلك في كتاب: (المحبة صورها وأحكامها).

(٢) يعني: مصادرة على المطلوب. هي عبارة عن أقوال، أو مبادئ، أو قضايا يفترض الباحث صحتها في أوَّل بحثه، وهي قضايا ليست يقينية بنفسها، كما لا يمكن أن يُبَرْهن عليها، ولكن يصادر عليها، أي: يطالب=

عقائد دينهم، سواء كان عذاب الآخرة أم عذاب الدنيا. فأما اليهود فكتبهم طافحة بذكر العذاب في الدنيا والآخرة(١)، كما في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةًۚ﴾ [البقرة: ٨٠]. وأما النصارى فلم أر في الأناجيل ذكرًا لعذاب الآخرة إلَّا أنهم قائلون في عقائدهم بأن بني آدم كلهم استحقوا العذاب الأخروي بخطيئة أبيهم آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فجاء عيسى ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مخلِّصًا وشافعًا، وعرض نفسه للصلب؛ ليكفر عن البشر خطيئتهم الموروثة، وهذا يلزمهم الاعتراف بأن العذاب كان مكتوبًا على الجميع لولا كفارة عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فحصل الرد عليهم باعتقادهم به بله اعتقادنا.

ثم أخذت النتيجة من البرهان بقوله: ﴿بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ﴾، أي: ينالكم ما ينال سائر البشر. وفي هذا تعريض أيضًا بأن المسيح بشر؛ لأنه ناله ما ينال البشر من الأعراض والخوف، وزعموا أنه ناله الصلب والقتل" (٢).

ومن ذلك: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾ [المائدة: ٧٥]، فهو كناية عن قضاء الحاجة؛ لأن الذي يأكل الطعام يحتاج إلى قضاء الحاجة، فهو محتاج من ناحيتين، ومن كان هكذا حاله لا يصلح أن يكون ربًّا، وهو ما ينفي بأبلغ عبارة الألوهيَّة عن الرَّسول المحتاج إلى الطعام وإلى دفعه، وفيه دلالة على البون الشَّاسع بين (مقام الألوهيَّة) و(مقام النُّبوَّة).

=بالتسليم بها؛ لأن من الممكن أن نستنتج منها نتائج لا حصر لها دون الوقوع في إحاله، فصحَّتُها إذن لتبيِّن من نتائجها، أما مصطلح: (المصادرة على المطلوب) عند المناطقة والأصوليين، فالمراد به أن تجعل النتيجة جزء القياس أو تلزم النتيجة من جزء القياس نحو: الإنسان بشر، وكل بشر ضحاك فينتج أن: الإنسان ضحاك.

(١) وقد ذكرت جملة من هذه النصوص في كتاب: (المحبة صورها وأحكامها).

(٢) التحرير والتنوير (٦/١٥٥-١٥٦).

وفي الآية: اختصار بليغ؛ إذ يصح أن يراد المعنى المجازي، كما يصح أن يراد المعنى الحقيقي معه؛ إذ إن دلالة كل منهما واحدة، وهي العجز والافتقار؛ والآية تدل على ذلك عليهما معًا؛ إذ إن أحدهما مسبب عن الآخر، ولا ينفك عنه، وفيها: عدم التصريح بما يستقبح ذكره، والإشارة إليه بما هو مسبب عنه.

قال ابن قتيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ هذا من الاختصار والكناية، وإنما نَبَّه بأكل الطعام على عاقبته، وعلى ما يصير إليه، وهو الحدَث؛ لأن مَن أَكَلَ الطعام فلا بدَّ له من أن يُحدث. ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٧٥﴾ [المائدة:٧٥]، وهذا من ألطف ما يكون من الكناية" (١).

أما من قال: ليس في هذا كناية فقد اعترض على هذا بالاستدلال بصريح الآية، وهو يدل على المعنى، وهو أنهما يعيشان بالغذاء، كما يعيش سائر الآدميين، فكيف يكون إلهًا من لا يقيمه إلا أكل الطعام؟!

وقد فصلتُ القول في ذلك مع تحرير القول فيه في كتاب (مجاري الكناية).

١٣ – القصة تكشف خفاء تلك الواقعة ذات الحلقات المتتابعة:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ﴾ [هود:٤٩].

---

(١) غريب القرآن، لابن قتيبة (ص:١٤٥)، وانظر: الوسيط، للواحدي (٢/٢١٣)، تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٢/٥٦)، المحرر الوجيز (٤/٧٥)، غرائب التفسير، للكرماني (١/٣٣٦)، تفسير البغوي (٣/٨٣).

١٤ – صحة النقل:

تكفل الله عَزَّوَجَلَّ بحفظ هذا الدين، وحفظ كتابه المبين، فقال: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر:٩]، وقد كان القرآن ولا يزال محفوظًا في الصدور، وقد نقل نقلًا متواترًا، ولم يتبدل أو يتغير منه شيء على مرِّ السنين؛ لأنه الكتاب الخاتم، فأنى لأيدي العبيد أن تغير أو تبدل ما تكفل الله عَزَّوَجَلَّ بحفظه؟! ولم يحفظ كتاب في الصدور كما حفظ القرآن على مرِّ التاريخ.

وقد تبدلت الكتب من قبله؛ لأنها كانت محليَّة ومرحليَّة؛ -كما تقرَّر في غير موضع-.

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفًا كَثِيرًا ۝٨٢﴾ [النساء:٨٢].

وفي قصص البشر قد تكون القصة صادقة، وقد تكون كاذبة، والأصل أن تكون القصة صادقة؛ لما يحتف بها من القرائن والآثار، ولأن المؤمن لا يكذب، ولا ينقل القصص والأخبار عن الكذابين، فإذا ذكر قصة لا تصح بيَّن ما يعتريها من الضعف أو الوضع؛ لأجل التحذير منها.

وقد دعا القرآن الكريم إلى التثبت في النقل، وإلى نصب الأدلة والبراهين على صحة الخبر، وصدق المخبر، من نحو: النظر في الدلائل والقرائن، ومن ذلك: مشاهدة الآثار التي خلَّفها أهلها في الأرض، والتي تعبر بلسان حالها عن تلك الأمم، وما كانوا عليه من قوة، وما نزل بهم من عقاب حتى أصبحت بيوتهم خاوية، وتركوا الملك والقصور والأموال. ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ﴾ [يوسف:١٠٩]، ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٥١ فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ﴾ [النمل: ٥١-٥٢]..إلى غير ذلك من الآيات التي تقدم ذكرها.

وينبغي على طالب العلم أن لا يتعجل بالنقل أو التحديث دون تثبت، وأن لا يروي عن الضعفاء والمتهمين. قال ﷺ: «**كفى بالمرء كذبًا أن يُحَدِّثَ بكلِّ ما سَمِعَ**» [١]. وقال ﷺ: «**إن كذبًا علي ليس ككذب على أحد، من كذب عليَّ متعمدًا، فليتبوأ مقعده من النار**» [٢].

وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بحسب المرء من الكذب أن يحدث بكل ما سمع[٣].

وقال ﷺ: «**سيكون في آخر أمتي أناس يُحَدِّثُونَكُمْ ما لم تسمعوا أنتم، ولا آباؤكم، فإياكم وإياهم**» [٤].

وعن سفيان بن حسين، قال: سألني إياس بن معاوية رَحِمَهُ اللَّهُ، فقال: إني أراك قد كلفت بعلم القرآن، فاقرأ علي سورة، وفسر حتى أنظر فيما علمت، قال: ففعلت، فقال لي: احفظ علي ما أقول لك: إياك وَالشَّنَاعَةَ في الحديث، فإنه قلما حملها أحد إلا ذَلَّ في نفسه، وَكُذِّبَ في حديثه[٥].

والشناعة: القبح. ومعنى كلامه: أنه حذره أن يحدث بالأحاديث المنكرة التي يشنع على صاحبها، وينكر وَيَقْبُحُ حال صاحبها، فيكذب، أو يستراب في رواياته، فتسقط منزلته، ويذل في نفسه -والله أعلم- [٦].

---

(١) صحيح مسلم (١/١٠) [٤].

(٢) صحيح البخاري [١٢٩١]، مسلم [٤].

(٣) ونحوه عن عبد الله. صحيح مسلم [٥].

(٤) صحيح مسلم [٦].

(٥) مقدمة صحيح مسلم (١/١١).

(٦) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١/ ٧٦).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يكون في آخر الزمان دجالون كذابون، يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم، ولا آباؤكم، فإياكم وإياهم، لا يضلونكم، ولا يفتنونكم**» (١).

قال ابن سيرين رَحِمَهُ اللَّهُ: إن هذا العلم دين، فانظروا عَمَّن تأخذون دينكم (٢).

وعنه رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة، قالوا: سموا لنا رجالكم، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم (٣).

وعن سفيان بن عيينة رَحِمَهُ اللَّهُ عن مسعر رَحِمَهُ اللَّهُ قال: سمعت سعد بن إبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: لا يحدث عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا الثقات (٤).

فينبغي تحريرُ الأخبار وتوثيقها، والتَّثبتُ من صحَّتها وسلامتها، والإعراض عن سماع الشائعات، والتحذير منها، وعدم الإصغاء إلى الشائعات من أسباب الوقاية من آفاتها، وهي خير من العلاج؛ لأن الدَّاء إذا تفشى عَسُرَ علاجه، وقد ذمَّ الله عَزَّوَجَلَّ اليهود ونعاهم بأنهم: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة:٤١].

فيلزم الناقلَ التَّبينُ والتَّبصر لكلِّ أمر مشتبهٍ وملتبس، واجتنابُ التَّحديث والإخبار لمجرد السَّماع من غير تبين. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات:٦].

---

(١) صحيح مسلم [٧].

(٢) مقدمة صحيح مسلم (١/١٤).

(٣) المصدر السابق (١/١٥).

(٤) المصدر السابق (١/١٥).

وينبغي زجر من يحدث بكل ما سمع دون تبين ولا تثبت، أو يشيع شائعة، والتحذير منه، ومطالبته بالدليل. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾﴾ [النور:٤]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾ [النور:١٣].

فكل كلمة تقال دون تثبت وتبصر فهي شائعة وزعم مذموم، كما جاء في الحديث: **«بئسَ مَطِيَّةُ الرَّجل زَعَمُوا»** (١).

قال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أصل هذا: أن الرجل إذا أراد الظَّعنَ في حاجة، والمسير إلى بلد ركب مطيته، وسار حتى يبلغ حاجته، فشبَّهَ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ما يقدِّمُ الرجل أمام كلامه، ويتوصل به إلى حاجته من قولهم: «**زعموا**» بالمطيَّة التي يتوصل بها إلى الموضع الذي يؤمه ويقصده. وإنما يُقال: زعموا في حديث لا سند له، ولا ثبت فيه، وإنما هو شيء يحكى عن الألسن على سبيل البلاغ، فذمَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من الحديث ما كان هذا سبيله، وأمر بالتثبت فيه، والتوثق لما يحكيه من ذلك، فلا يرويه حتى يكون مَعْزُوًّا إلى ثبت، ومرويًّا عن ثقة" (٢).

وقد أرشد القرآن الكريم من وردت على سمعه شائعة إلى أن يصون لسانه عن نقلها، وأن يُعْرِض عن قائلها وينهاه، ويقول له: ما يكون لي أن أتكلَّم بهذا، سبحانك ربي هذا بهتان عظيم. قال الله عَزَّوَجَلَّ لمن خاض فيما أشيع عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ [النور:١٦].

---

(١) أخرجه أبو داود [٤٩٧٢]، قال الإمام النووي: "أخرجه أبو داود بإسناد صحيح" انظر: الأذكار (ص:٣٧٩-٣٨٠)، وانظر: (المقاصد الحسنة) (ص:٢٤٣).

(٢) معالم السنن (٤/١٣٠)، وانظر: الأذكار، للنووي (ص:٣٧٩-٣٨٠).

والمسلم يعلم أن الإنسان مؤاخذ بما بما يقول، فلا يقول إلا حقًّا، ولا ينطقُ إلا صدقًا، فهو يوقن بقول الله عَزَّوَجَلَّ بأنه: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [ق:١٨].

١٥ – الأهداف التربوية للقصة (قصة لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ أنموذجًا):

إن من مقاصد القصة في القرآن الكريم: الهداية، والموعظة الحسنة، ومن مقاصدها: التربية على بناء العقيدة على أسس راسخة من الإيمان، والثبات، والاستقامة في الفكر والسلوك، والصبر على الابتلاء، وعلى مشاقِّ الدعوة. وفي القصص القرآنية: حثٌّ على مكارم الأخلاق، والصفات الفاضلة، وبيان للقدوة الحسنة التي يُقتدى بها، وفيها: التحذير من القدوة السيئة التي تضل الناس عن سواء السبيل.

وإن من قصص القرآن الهادفة والنبيلة: ما جاء في القرآن الكريم من ذكرٍ لوصايا لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ الجامعة والنافعة.

فقد كان لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ مربيًّا حكيمًا وناصحًا، آتاه الله عَزَّوَجَلَّ الحكمة، وأثنى عليه، وأمره أن يشكر الله عَزَّوَجَلَّ على هذه النعمة العظيمة؛ فإن الحكمة من يؤت الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾ [البقرة:٢٦٩].

ومن الدروس المستفادة من وصايا لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: الوصية بالشكر لله عَزَّوَجَلَّ على نعمه الوافرة، والشكر للوالدين، وذكر فائدة الشكر، وأنها تعود على العبد، وأن الله جَلَّ وَعَلَا غنيٌّ عن العباد، وهم الفقراء إليه، وحاجتهم الدنيويَّة، وكذلك الأخرويَّة هي التي تحوجهم إلى هذه الدينونة له بالعبادة، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝١٢﴾ [لقمان:١٢].

وقال جَلَّ وَعَلَا في آية أخرى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥﴾ [فاطر:١٥].

وقد سجَّل القرآن الكريم نصيحة لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لابنه؛ لما تتضمن من الهداية والإرشاد والنصح.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾ [لقمان:١٣]، فنادى لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ ابنه ناصحًا ومرشدًا، نصيحة محبٍّ، ومشفق، وحريص على سلامة ابنه ونجاته وعافيته في دنياه وفي آخرته، ناداه باللفظ المحبب، والذي يحرِّك العاطفة فقال: ﴿يَٰبُنَىَّ﴾، فكانت هذه الدروس العظيمة الفائدة.

فناداه بهذه الصِّيغة التي تحرك العاطفة، والتي فيها: الموعظة، والنُّصح والتَّوجيه والإرشاد، والتَّحبب، والشَّفقة، فماذا يريد الوالد لولده إلا الخير؟

ومن الدروس المستفادة من وصايا لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: **بناء العقيدة على التوحيد الخالص لله** عَزَّوَجَلَّ، **والنَّهي عن الشرك، وبيان أن الإيمان قول، وعمل.**

وقد تقدم أن إثبات الوحدانية لله عَزَّوَجَلَّ، والتَّحرر من العبودية لغيره من أعظم مقاصد القصص والأخبار في القرآن الكريم.

كما تقدم أنَّ أعظم أسباب النَّجاة والأمن والسعادة: تحقيق التوحيد الخاص لله عَزَّوَجَلَّ، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٨٢﴾ [الأنعام:٨٢].

والمراد بالظلم ها هنا: الشرك؛ لما جاء في (الصحيح): أن الآية لما نزلت شقَّ ذلك على الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وقالوا: أَيُّنا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ليس ما تَظُنُّونَ إنما هو ما قال لقمان لابنه:** ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ

﴿١٣﴾ [لقمان:١٣]» (١). فبين لقمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لابنه قبح الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، وسوء عاقبته، فالشرك أعظم ذنبٍ عُصِيَ الله عَزَّوَجَلَّ به، وهو أعظم ما نهى الله عَزَّوَجَلَّ عنه، وأقبح السيئات وأشنعها عند الله عَزَّوَجَلَّ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:١١٦].

ثم جاء في الآيات: ذكر الوصية بالوالدين، والحثُّ على برِّهما، وشكر الله عَزَّوَجَلَّ والوالدين، فقرن الله عَزَّوَجَلَّ شكره بشكرهما، وأمر بمصاحبتهما في الدنيا بالمعروف.

وخصَّ الإحسان إلى الوالدين من بين أوجه الإحسان الأخرى؛ لبيان مكانة الوالدين، ولا سيَّما الأم التي حملت ابنها وهي تزداد ضعفًا على ضعف؛ إذ الحمل يُضعفها، ويزيدها الحمل والولادة والإرضاع ضعفًا، فصوَّرَ القرآن الكريم ما تعانيه الأم في حملها، وفي ولادتها، وفي إرضاعها.

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: جاء رجل إلى رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقال: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «**أمك**» قال: ثم من؟ قال: «**ثم أمك**» قال: ثم من؟ قال: «**ثم أمك**» قال: ثم من؟ قال: «**ثم أبوك**» (٢).

وقد أكَّد القرآن الكريم على ضرورة الإحسان إلى الوالدين تأكيدًا لا تجد نظيرًا له في الديانات الأخرى، فقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ بعبادته وتوحيده، وجعل برَّ الوالدين مقرونًا بذلك، كما قرن شكره بشكرهما. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء:٢٣]، وقال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان:١٤]، أي: وَصَّيْنَاه بشكرنا وبشُكْر والديه، وكفى بهذا دلالة على تعظيم حقِّهما، ووجوب برِّهما، والإحسان

(١) صحيح البخاري [٣٢، ٤٦٢٩، ٦٩٣٧].
(٢) صحيح البخاري [٥٩٧١]، مسلم [٢٥٤٨].

إليهما. فأوجب الله عَزَّوَجَلَّ شكر نفسه، وشكر الوالدين. ولما حصل الإجماع على أن شكر الوالدين بدوام طاعتهما، وألا يكتفى فيه بمجرد النطق بالثناء عليهما علم أنَّ شكر الحقِّ لا يكفي فيه مجرَّد القول ما لم تكن فيه موافقه العمل، وذلك بالتزام الطاعة، واستعمال النعمة في وجه الطاعة (١).

وقد خصَّ الحق جَلَّوَعَلَا حالة الكبر والشيخوخة بالذكر في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء:٢٣]؛ لأنها الحالة التي يحتاجان فيها إلى بره أكثر من ذي قبل؛ لتغير الحال عليهما بالضعف والكبر. فألزم في هذه الحالة من مراعاة أحوالهما أكثر مما ألزمه من قبل؛ لأنه قد يظنُّ أنَّهما صارا كلًّا عليه، فيحتاجان أن يلي منهما في الكبر ما كان يحتاج في صغره أن يليا منه؛ فلذلك خص هذه الحالة بالذكر. وأيضًا: فطول المكث للمرء يوجب الاستثقال عادة، ويحصل الملل، ويكثر الضجر فيظهر غضبه على أبويه.

وإنَّ الوالدين أحق الناس بحسن الصحبة، وجميل البر والإحسان؛ لعظيم فضلهما، وشدة عنايتهما، وحرصهما على راحتك وسعادتك في جميع أطوار حياتك.

وقد اهتمَّ الإسلامُ بالوالدين اهتمامًا بالغًا، وجعل طاعتهما والبر بهما من أفضل القربات. ونهى عن عقوقهما، وشدَّد في ذلك غاية التشديد.

وقد جعلَ الشارع برَّ الوالدين من أعظم الأعمال وأحبها إليه، فقد سئل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أي العمل أحبُّ إلى الله؟ قال: «**الصلاة على وقتها**»، قيل: ثم أي؟ قال: «**ثم بر الوالدين**»، قيل: ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**» (٢).

(١) انظر: لطائف الإشارات (١٣١/٣)، مفاتيح الغيب (٧٦/١٠).

(٢) صحيح البخاري [٥٢٧، ٥٩٧٠]، مسلم [٨٥].

وقدم في الحديث: برَّ الوالدين على الجهاد؛ إشارةً إلى أن حقوق العباد اللَّازمة (التي هي من فروض الأعيان) تقدم على التطوع بالجهاد [١]، يعني: من باب تقديم فرض العين على فرض الكفاية. ويدل عليه حديث: عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: جاء رجل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فاستأذنه في الجهاد، فقال: «**أحيٌّ والداك؟**»، قال: نعم، قال: «**ففيهما فجاهد**» [٢].

وبرُّ الوالدين واجب على كل مسلم ومسلمة. ويطلق البر على الإحسان بالقول اللين اللطيف الدال على الرفق والمحبة، وتجنب غليظ القول الموجب للنفرة، واقتران ذلك بالشفقة والعطف والتودد والإحسان بالمال وغيره من الأفعال الصالحات.

ويكون بر الوالدين بالإحسان إليهما بالقول اللين الدال على الرفق بهما والمحبة لهما -كما تقدم-، وبمناداتهما بأحب الألفاظ إليهما، كيا أمي ويا أبي، وليقل لهما ما ينفعهما في أمر دينهما ودنياهما، ويعلمهما ما يحتاجان إليه من أمور دينهما، وليعاشرهما بالمعروف. أي: بكل ما عرف من الشرع جوازه، فيطيعهما في فعل جميع ما يأمرانه به، من واجب أو مندوب، وفي ترك ما لا ضرر عليه في تركه، ولا يحاذيهما في المشي، فضلًا عن التقدم عليهما، إلَّا لضرورة نحو ظلام، وإذا دخل عليهما لا يجلس إلَّا بإذنهما، وإذا قعد لا يقوم إلَّا بإذنهما، ولا يستقبح منهما نحو البول عند كبرهما أو مرضهما؛ لما في ذلك من أذيتهما.

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ: "وبر الوالدين فرض لازم، وهو أمر يسير على من يسره الله له. وبرهما: خفض الجناح، ولين الكلام، وألا ينظر إليهما إلا بعين المحبة والإجلال، ولا يعلو عليهما في مقال، إلا أن يريد إسماعهما، ويبسط أيديهما في نعمته، ولا يستأثر عليهما في مطعمه ولا مشربه.

---

(١) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن رجب (٤/٢١٦).

(٢) صحيح البخاري [٣٠٠٤، ٥٩٧٢]، مسلم [٢٥٤٩].

ولا يتقدم أحد أباه إذا مشى معه، ولا يتقدمه في القول في مجلسه، فيما يعلم أنه أولى به منه. ويتوقى سخطهما بجهده، ويسعى في مسرتهما بمبلغ طاقته.

وإدخال الفرح عليهما من أفضل أعمال البر. وعليه أن يسرع إجابتهما إذا دعواه، أو أحدهما، فإن كان في الصلاة النافلة خففها وتجاوز فيها، وأسرع إجابتهما. ولا يقل لهما إلَّا قولًا كريمًا.

وبِرُّ الوالدين فرضُ عينٍ، ولا يختصُّ بكونهما مسلمين، بل حتى لو كانا فاسقين أو كافرين يجبُ برُّهما والإحسان إليهما ما لم يأمرا بشرك أو معصية. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾ [لقمان:١٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٨﴾ [الممتحنة:٨].

وفي (الصحيح): عن أسماء بنت أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا، قالت: قدمت عليَّ أمي وهي مشركة في عهد قريش، إذ عاهدوا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ومدتهم مع أبيها، فاستفتت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فقلت: يا رسول الله إن أمي قدمت علي وهي راغبة[١] أفأصلها؟ قال: «**نعم صليها**» [٢].

ومن الدروس المستفادة من قصة لقمان عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ: **التربية بالقدوة:** المتمثلة في شخص الواعظ، العامل، الصالح، الناصح.

---

(١) قولها: «وهي راغبة» جملة حالية: أي: راغبة عن الإسلام وكارهة له. وقيل معناه: طامعة فيما أعطيها من الإحسان وحريصة عليه.

(٢) صحيح البخاري [٣١٨٣، ٥٩٧٩].

ثم جاء عقب الوصية بالوالدين: الأمر باتباع سبيل الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والصالحين، والسير على نهجهم، كما في قوله: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان:١٥]، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام:٩٠]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ١٠٠﴾ [التوبة:١٠٠]، فرضي الله عَزَّوَجَلَّ عمن اتبع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ومن تبعهم وسار على نهجهم إلى يوم القيامة، فدلَّ ذلك على أن من تابعهم فهو عامل بما يرضي الله عَزَّوَجَلَّ، وسائر في طريق الهداية والنجاة، وفيه دلالة على أن مخالفة نهجهم مفض إلى الضلال والكفر، وقد قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ١١٥﴾ [النساء:١١٥]، وقد فصَّل الله عَزَّوَجَلَّ الآيات، وبيَّنَهَا النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أيما بيان، فاستبان طريق المؤمنين الصالحين من طريق المجرمين المفسدين، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ٥٥﴾ [الأنعام:٥٥]، وقال موسى لأخيه هارون عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ١٤٢﴾ [الأعراف:١٤٢].

وينبِّه لقمان عَلَيْهِٱلسَّلَامُ ابنه على عدم استصغار الذنوب والاستهانة بالمعاصي، فمعظم النار من مستصغر الشرر، فالمعصية تبدأ صغيرة، ثم ما تلبث أن تصير كبيرة، وتنتهي بصاحبها إلى الهلاك في الدنيا والآخرة، فيذكر ابنه بالآخرة، وبما ينجيه من عذاب الله عَزَّوَجَلَّ، وبقدرة الله عَزَّوَجَلَّ، فلا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وبسعة علمه وإحاطته بكل شيء، فلا تخفى عليه خافية، فيقول له: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ

﴿١٦﴾ [لقمان:١٦]. وفي قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ [لقمان:١٦] دلالة على عظيم قدرة الله عَزَّوَجَلَّ، وواسع علمه، فهو جَلَّوَعَلَا يعلم تلك الحبة ويأتي بها إذا شاء، ويأتي بجزاء ما يَزِنُها من خيرٍ أو شرٍّ فيجازي عليه. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء:٤٠]، وقال: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء:٤٧].

وقد حذَّرنا النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من الاستهانة بصغائر الذنوب، فقال: «**إياكم ومُحَقَّرَات الذنوب؛ فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن واد، فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود، ثم حملوا ما أنضجوا به خبزهم، وإن مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ متى يُؤْخَذْ بها صَاحِبُهَا تُهْلِكْه**» (١).

(١) الحديث مروي عن سهل بن سعد، وعن عبد الله بن مسعود بألفاظ متقاربة. حديث سهل: أخرجه أحمد [٢٢٨٠٨]، والروياني [١٠٦٥]، والطبراني في (الكبير) [٥٨٧٢]، و(الأوسط) [٧٣٢٣]، و(الصغير) [٩٠٤]، والرامهرمزي في (أمثال الحديث) (ص:١٠٥)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٦٨٨١]. قال الهيثمي: (١٩٠/١٠): "رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، ورواه الطبراني في الثلاثة من طريقين، ورجال إحداهما رجال الصحيح غير عبد الوهاب بن عبد الحكم وهو ثقة". حديث ابن مسعود: أخرجه الطيالسي [٤٠٠]، وأحمد [٣٨١٨]، والطبراني في (الكبير) [١٠٥٠٠]، وفي (الأوسط) [٢٥٢٩]، وأبو الشيخ [٣١٩]، والبيهقي في (الكبرى) [٢٠٧٦٢]، و(شعب الإيمان) [٢٨١]. وقال المناوي: "قال الحافظ العراقي: إسناده جيد، وقال العلائي: حديث جيد على شرط الشيخين" فيض القدير (١٢٨/٣)، قال الهيثمي (١٨٩/١٠): "رواه أحمد، والطبراني في (الأوسط)، ورجالهما رجال الصحيح غير عمران بن داود القطان، وقد وثق". وقال ابن حجر: التعبير بالمحقرات وقع في حديث: سهل بن سعد رفعه. وقد أخرجه أحمد بسند حسن، ونحوه عند أحمد والطبراني من حديث ابن مسعود. وعند النسائي وابن ماجه عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال لها: «يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب؛ فإن لها من الله طالبًا». وصححه ابن حبان" فتح الباري، لابن حجر (٣٢٩/١١).

فقوله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إياكم ومُحَقَّرَات الذنوب**»، "أي: صغائرها؛ لأن صغارها أسباب تؤدي إلى ارتكاب كبارها، كما أن صغار الطاعات أسباب مؤدية إلى تحري كبارها، فالصغائر إذا اجتمعت ولم تُكَفَّر – بأن لم يوجد لها مكفرًا– أهلكت؛ لمصيرها كبائر بالإصرار" (١).

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: "صغائر المعاصي يجر بعضها إلى بعض حتى تفوت أهل السعادة بهدم أصل الإيمان عند الخاتمة" (٢).

وفي (الصحيح): عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**إنكم لتعملون أعمالًا، هي أدَقُّ في أعيُنِكُم من الشَّعَر، إن كنَّا لنعدُّها على عهد النبي** صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **من الموبقات**». قال أبو عبد الله: "يعني بذلك: المهلكات" (٣).

وقد قيل:

خَلِّ الذُّنوب صغيرها ... وكبيرها ذاك التقى
واصنع كماشٍ فوق أر ... ض الشَّوك يحذر ما يرى
لا تَحْقِرَنَّ صغيرة ... إنَّ الجبال من الحصا

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: "كثيرٌ من الناس يتسامحون في أمور يظنونها قريبة، كإطلاق البصر؛ هوانًا بتلك الخطيئة، وكفتوى من لا يعلم؛ لئلَّا يقال: هو جاهل، ونحو ذلك مما يظنه صغيرًا، وهو عظيم" (٤).

---

(١) انظر: فيض القدير (٣/١٢٧)، التيسير بشرح الجامع الصغير (١/٤٠٥).

(٢) إحياء علوم الدين (٣/٦٠).

(٣) صحيح البخاري [٦٤٩٢].

(٤) صيد الخاطر (ص:١٤٩) بتصرف. وقد حدَّث النبيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذنوبٍ يظنُّ البعض أنها هينة، ولكنها ليست كذلك، فقد مَرَّ النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحائط من حيطان المدينة، أو مكة، فسمع صوت إنسانين يعذبان في قبورهما، فقال النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يعذبان، وما يعذبان في كبير»، ثم قال: «بلى، كان أحدهما=

وفي قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦﴾ [لقمان:١٦] دلالة على علم الله عَزَّوَجَلَّ بدقائق الأمور وجزئياتها، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦﴾، أي: ﴿لَطِيفٌ﴾ باستخراج الحبة من موضعها حيث كانت ﴿خَبِيرٞ ١٦﴾ بموضعها ومستقرها.

وقد روى: "أنَّ أن ابن لقمان سأل لقمان عَلَيْهِٱلسَّلَامُ فقال: أرأيت الحبة تكون في مَقْلِ البحر، أي: في مغاص البحر أيعلمها الله؟ -يقال: مَقَلَ يَمْقُل: إذا غاص-، فأعلمه أن الله عَزَّوَجَلَّ يعلم الحبة حيث كانت، وفي أخفى المواضع؛ لأن الحبة في الصخرة أخفى من الماء، ثم أعلمه أنها حيث كانت يعلمها بلطفه عَزَّوَجَلَّ وخبرته. وهذا مثل لأعمال العباد أن الله عَزَّوَجَلَّ يأتي بأعمالهم يوم القيامة" (١).

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٥ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾ [آل عمران:٥-٦]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٥٩﴾ [الأنعام:٥٩].

وفي قصة لقمان عَلَيْهِٱلسَّلَامُ **دلالة على أن الدنيا دار ابتلاء**، وأن حقيقة الإيمان لا تكون إلا بالصبر على المكاره، والتزام أمر الله عَزَّوَجَلَّ من نحو: إقام الصلاة، والأمر

=لا يستتر من بوله، وكان الآخر يمشي بالنميمة» صحيح البخاري [٢١٦، ٢١٨، ١٣٦١، ٦٠٥٢، ٦٠٥٥]، مسلم [٢٩٢]. قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «وما يعذبان في كبير» ذكر العلماء فيه تأويلين أحدهما: أنه ليس بكبير في زعمهما، والثاني: أنه ليس بكبير تركه عليهما. وحكى القاضي عياض تأويلًا ثالثًا، أي: ليس بأكبر الكبائر. شرح النووي على صحيح مسلم (٣/٢٠١)، إكمال المعلم، للقاضي عياض (٢/٦٤).

(١) معاني القرآن وإعرابه (٤/١٩٧).

بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ فإن ﴿ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾، أي: مما أمر الله عَزَّوَجَلَّ به على وجه العزم والإيجاب، أو من مكارم الأخلاق التي يعزم عليها أهلُ الحزم والجد، السَّالكون طريق النجاة.

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ في آية أخرى: ﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران:١٨٦]، أي: ستقع عليكم المحن، فيعلم المؤمن من غيره، والميزان الذي يميز المؤمن الصادق عن المدعي الكاذب هو ميزان التقوى والصبر.

وفي قصة لقمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: دلالة على أن الحياة الدنيا هي ميدان العمل، وأن الدار الآخرة هي الدار الباقية، وتذكير بالحساب والجزاء، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان:١٤]، أي: فأجازي من شكر، وأعاقب من كفر. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان:١٥].

ثم أوصى لقمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ابنه بالاستقامة على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، والتزام أمره، وخصَّ الصلاة بالذكر من بين سائر الطاعات؛ لأنها عمود الدِّين، والصِّلة الدَّائمة بين العبد وربه جَلَّوَعَلَا، وهي دليلٌ على محبَّة العبدِ لربِّه عَزَّوَجَلَّ، وتقديره لنعمه التي لا تُحصى.

فالصلاة هي سنام الطاعات، والمحافظة عليها من أسباب التوفيق في الدنيا، كما أنها من أعظم المنجيات من العذاب في الآخرة، كما دلَّت النُّصوص على ذلك.

وهي تنمي في العبد شعور المراقبة لله عَزَّوَجَلَّ، فتنهاه عن الفحشاء والمنكر، كما أخبر الحق عَزَّوَجَلَّ عن ذلك بقوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ﴾ [العنكبوت:٤٥]؛ لأنها تجعل العبد مراقبًا لله عَزَّوَجَلَّ في سائر أعماله وأقواله وأحواله.

والمواظبة على الصلاة عنوان فلاح المؤمن في الدنيا والآخرة، وقد وصف الله عَزَّوَجَلَّ عباده الأخيار بأنهم ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنعام:٩٢]، ووصفهم بأنهم: ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ

دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ [المعارج:٢٣]، وبأنهم مهتمون بالصلاة، وحريصون على أدائها في أوقاتها. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء:١٠٣]، فالصلاة تعلم العبد التواضع والشكر، وتملأ قلبه بالرحمة، وفيها تدريب على النظام، والانتفاع من الزمن.

والصلاة تمد المؤمن بقوة روحية تعينه على تحمل الشدائد والمكاره، فقد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ أن خير ما يستعان به على ذلك: الصبر والصلاة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة:٤٥]؛ ولذلك أوصى لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ ابنه بالصلاة وبالصبر على ما أصابه.

وقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا حزبه أمر بادر إلى الصلاة (١).

وكان الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة، كما في حديث: صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيما حكاه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن نبي من الأنبياء السابقين: «**فقام إلى الصلاة، وكانوا إذا فزعوا، فزعوا إلى الصلاة**» (٢).

والصلاة هي الغذاء الروحي الذي يعين على مقاومة الجزع إذا مسَّ الإنسانَ الضُّرُّ، والمنع والإمساك إذا مَسَّهُ الخيرُ. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المعارج:١٩-٢٣]، أي: إلا الذين يطيعون الله عَزَّوَجَلَّ بأداء ما افترض عليهم من الصلاة، وهم على أداء ذلك مقيمون لا يضيعون منها شيئًا.

---

(١) جاء في الحديث: عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا حزبه أمر، صلَّى» أخرجه أحمد [٢٣٢٩٩]، وأبو داود [١٣١٩]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٢٩١٢]. قال الحافظ ابن حجر في (الفتح) (١٧٢/٣): "أخرجه أبو داود بإسناد حسن".

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [٤٨٠]، وأحمد بإسناد صحيح [١٨٩٣٧]، والبزار [٢٠٨٩]، والنسائي في (الكبرى) [١٠٣٧٥]، وابن حبان [١٩٧٥]، والضياء [٥٢]، وقال: "إسناده صحيح".

ثم أوصى لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ ابنه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو القطب الأعظم في الدين، وهو الْمُهِمُّ الذي ابتعث الله عَزَّوَجَلَّ له النبيين أجمعين، ولو طوي بساطه وأهمل علمه وعمله؛ لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد، كما قال الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ [(١)]. وكل من الأمر بالمعروف وفعله واجب، لا يسقط أحدهما بترك الآخر، وإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتحذير من الفساد ومحاربته، والصلاح والإصلاح طريق العزة، وعنوان الفلاح، وهو سبيل النجاة في الآخرة، والحياة الطيبة في الدنيا.

وقد تقدم بيان مكانة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ثم أوصاه بالصبر والثبات؛ لأن من استقام على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وسار على نهج النبيين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والمصلحين فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر فإنه سيتعرض للإيذاء والشدة كما تعرض من قبله من خيرة الخلق؛ فلذلك أمره بالصبر. وقد تقدم بيان مكانة الصبر.

فمن الدروس المستفادة من قصة لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: أنه أوصى ابنه بالصبر وبالشكر -كما تقدم-، وبين الشكر والصبر تلازم.

فقد ذكر غير واحد من الأئمة رَحِمَهُمُ اللَّهُ وجه التلازم بين الصبر والشكر، فمن ذلك: قول الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: "الشكر واجب، وترك الواجب حرام، وفي شغل النفس بفعل الواجب صبر على فعل الحرام، والحاصل أن الشكر يتضمن الصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية. قال بعض الأئمة: الصبر يستلزم الشكر لا يتم إلا به، وبالعكس فمتى ذهب أحدهما ذهب الآخر، فمن كان في نعمة ففرضه: الشكر والصبر، أما الشكر فواضح، وأما الصبر فعن المعصية، ومن كان في بلية ففرضه: الصبر والشكر، أما الصبر

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين، للغزالي (٢/٣٠٦).

فواضح، وأما الشكر فالقيام بحق الله عَزَّوَجَلَّ عليه في تلك البلية؛ فإن لله جَلَّوَعَلَا على العبد عبودية في البلاء، كما له عليه عبودية في النعماء"[١].

ومن ذلك: قول الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الصبر قد يكون على الطاعة وعن المعصية وفيهما يتحد الصبر والشكر؛ لأن الصبر على الطاعة هو عين شكر الطاعة؛ لأن الشكر يرجع إلى صرف نعمة الله عَزَّوَجَلَّ إلى ما هو المقصود منها بالحكمة، والصبر يرجع إلى ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى، فالصبر والشكر فيه اسمان لمسمى واحد باعتبارين مختلفين، فثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى يسمى: (صبرًا) بالإضافة إلى باعث الهوى، ويسمى: (شكرًا) بالإضافة إلى باعث الدين؛ إذ باعث الدين إنما خلق لهذه الحكمة، وهو أن يصرع به باعث الشهوة، وقد صرفه إلى مقصود الحكمة فهما عبارتان عن معنى واحد فكيف يفضل الشيء على نفسه؟!" [٢].

ومن ذلك: قول العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن العبد لا يخلو قط من أن يكون فى نعمة أو بلية، فإن كان فى نعمة ففرضها: الشكر والصبر. أما الشكر فهو قيدها وثباتها، والكفيل بمزيدها، وأما الصبر فعن مباشرة الأسباب التى تسلبها، وعلى القيام بالأسباب التي تحفظها، فهو أحوج إلى الصبر فيها من حاجة المبتلى. ومن هنا يعلم سر مسألة الغنى الشاكر والفقير الصابر، وأن كلًّا منهما محتاج إلى الشكر والصبر، وأنه قد يكون صبر الغنى أكمل من صبر الفقير. كما قد يكون شر الفقير أكمل، فأفضلهما: أعظمهما شكرًا وصبرًا، فإن فضل أحدهما في ذلك فضل صاحبه.

فالشكر مستلزم للصبر لا يتم إلا به، والصبر مستلزم للشكر لا يتم إلا به. فمتى ذهب الشكر ذهب الصبر، ومتى ذهب الصبر ذهب الشكر، وإن كان في بلية ففرضها

---

(١) فتح الباري، لابن حجر (١١/٣٠٥)، وانظر: الكواكب الدراري (٢٢/٢٢٨).

(٢) إحياء علوم الدين (٤/١٣٩).

الصبر والشكر أيضًا: أما الصبر فظاهر، وأما الشكر فللقيام بحق الله عَزَّوَجَلَّ عليه في تلك البلية؛ فإن لله جَلَّوَعَلَا على العبد عبودية في البلاء كما له عليه عبودية في النعماء، وعليه أن يقوم بعبوديته في هذا وهذا. فعلم أنه لا انفكاك له عن الصبر، ما دام سائرًا إلى الله عَزَّوَجَلَّ" (١).

وأخبر الله عَزَّوَجَلَّ أن الصبر والشكر من أسباب التدبر والاعتبار، والإنابة إلى الواحد القهار، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥﴾ [إبراهيم:٥]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٣١﴾ [لقمان:٣١]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝١٩﴾ [سبأ:١٩]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ۝٣٢ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٣٣﴾ [الشورى:٣٢-٣٣].

وقد قسم ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ الصبر باعتبار محله، وبحسب اختلاف قوته وضعفه، وباعتبار متعلقه، وباعتبار تعلق الأحكام الخمسة به.

فقال: الصبر باعتبار متعلقه ثلاثة أقسام: صبر على الأوامر والطاعات حتى يؤديها، وصبر عن المناهي والمخالفات حتى لا يقع فيها، وصبر على الأقدار والأقضية حتى لا يتسخطها.

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص:٢٦٥).

وهذه الثلاثة قد وقعت الإشارة إليها بآية: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ﴾ [لقمان:١٧] (١).

وقد فصلت القول في ذلك في الجزء الثاني من كتاب: (الإرشاد إلى أسباب النجاة).

وإن من أعظم المنجيات من الفتن وسوء العاقبة: صبر المؤمن على ما يقع عليه من البلاء في الحياة الدنيا.

فيحتاج المؤمن إلى الصبر في جميع أحواله، ولا سيما إذا نزل به ضُرٌّ، من نحو: فقر، أو مرض، أو محنة، أو بلية.

وفي الحديث: عن صهيبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عجبًا لأمر المؤمن، إنَّ أمره كُلَّهُ خيرٌ، وليس ذاك لأحدٍ إلا للمؤمن، إن أصابته سَرَّاءُ شَكَرَ، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضَرَّاءُ، صَبَرَ فكان خيرًا له**» (٢).

فقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ أمره كُلَّهُ خيرٌ**» أي: خير له في المآل وإن كان بعضه شرًّا صوريًّا في الحال.

قال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "المؤمن هنا هو العالم بالله عَزَّ وَجَلَّ، الراضي بأحكامه، العامل على تصديق موعوده، وذلك أن المؤمن المذكور إما أن يبتلى بما يضره، أو بما يسره، فإن كان الأول صبر واحتسب ورضي، فحصل على خير الدنيا والآخرة وراحتهما، وإن كان الثاني، عرف نعمة الله عَزَّ وَجَلَّ عليه، ومنَّته فيها، فشكرها وعمل بها، فحصل على نعيم الدنيا ونعيم الآخرة.

وقوله: «**وليس ذلك إلا للمؤمن**» أي: المؤمن الموصوف بما ذكرته؛ لأنه إن لم يكن كذلك لم يصبر على المصيبة، ولم يحتسبها، بل يتضجر ويتسخط، فينضاف إلى مصيبته

---

(١) انظر ذلك مفصلًا في (عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين) (ص:٢٢-٣٣).

(٢) صحيح مسلم [٢٩٩٩]، وقد تقدم.

الدنيوية مصيبته في دينه، وكذلك لا يعرف النعمة، ولا يقوم بحقها، ولا يشكرها، فتنقلب النعمة نقمة والحسنة سيئة -نعوذ بالله من ذلك-" (١).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لما حُضِرَتْ بِنْتٌ لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَغِيرَةٌ، فأخذها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فضمَّها إلى صدره، ثم وضع يده عليها، فقضت وهي بين يدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فبكت أم أيمن، فقال لها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا أم أيمن، أتبكين ورسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **عندك**»، فقالت: ما لي لا أبكي ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبكي، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إني لست أبكي، ولكنها رحمة**»، ثم قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**المؤمنُ بِخَيْرٍ على كُلِّ حالٍ تُنْزَعُ نَفْسُهُ من بين جَنْبَيْهِ وهو يَحْمَدُ اللَّهَ** عَزَّ وَجَلَّ» (٢)، يعني: أن أحوال المؤمن كلها خير له، سواء كانت سرَّاء، أم ضرَّاء؛ إذ يُثاب على كلِّ أحواله، ففي السرَّاء يُثاب على شكره، وفي الضرَّاء يثاب على صبره.

وقوله: «**تُنْزَعُ نَفْسُهُ**» ببناء الفعل للمفعول، أي: تخرُج روحه. «**من بين جَنْبَيْهِ، وهو يَحْمَدُ اللهَ** عَزَّ وَجَلَّ»، أي: فهو في هذه الحالة في ثواب عظيم، حيث رضي بقضاء ربِّه، ولم يَجزَع، بل حمده على ما أصابه، فوَفَّاه أجرَه، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزمر: ١٠].

والمصائبُ التي يُبْتلى بها المؤمنُ في الدنيا من أسباب تكفير السيئات، ورفعة الدرجات، كما جاء في الحديث: عن أبي سعيد، وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنهما سمعا رسول الله

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٦/٦٣٠).

(٢) أخرجه أحمد [٢٧٠٤]، وهناد [١٣٢٨]، وعبد بن حميد [٥٩٣]، والنسائي [١٨٤٣]، واللفظ له. وأخرجه أيضًا: ابن حبان [٢٩١٤]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٩٦٨٢]، والضياء [١٨١]، ورمز السيوطي في (جامعه) لحسنه.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول: «**ما يصيب المؤمن من وَصَبٍ، ولا نَصَبٍ، ولا سَقَمٍ، ولا حَزَنٍ حتَّى الْهَمِّ يُهَمُّهُ، إلَّا كُفِّرَ من سيئاته**» (١).

وفي قصة لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: **النَّهي عن الكبر، والحثُّ على التواضع والاعتدال في القول والسلوك**، وقد عبر عن ذلك بأسلوب بليغ، حيث قال لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لابنه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان:١٨-١٩]، فنهى ابنه عن تصعير الخدِّ، وعن المشي في الأرض مرحًا، أي: لا تول الناس خدك وتعرض عنهم تكبرًا عليهم، ولا تمش في الأرض مُخْتالًا، واعتدل في مشيك ولا تتسرع فيه إسراعًا يدل على الطيش والخفة، ولا تبطئ إبطاء يدل على الفخر والكبر.

وبيَّن له أن الله عَزَّوَجَلَّ ﴿لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾، أي: المختال في هيئته، والفخور بلسانه وقوله، فهو بهيئته مختال؛ في ثيابه، في ملابسه، في مظهره، في مشيته، فخور بقوله ولسانه، والله عَزَّوَجَلَّ لا يحب هذا، وإنما يحب المتواضع الخفي التقي.

وفي الحديث: «**بينما رجل يَجُرُّ إزَارَهُ من الخُيَلاَء، خُسِفَ به، فهو يَتَجَلْجَلُ في الأرض إلى يوم القيامة**» (٢).

وفي الحديث: عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**»، قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة، قال: «**إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق، وغمط الناس**» (٣).

(١) صحيح مسلم [٢٥٧٣].

(٢) صحيح البخاري [٣٤٨٥].

(٣) صحيح مسلم [٩١]. و«بطر الحق»: دفعه وإنكاره؛ ترفعًا وتجبرًا، و«غمط الناس»: احتقارهم.

فمن الصفات المذمومة التي لا يحبها الله عَزَّوَجَلَّ: ما جاء في الحديث من بيان صفات أهل النار: «**إن أهل النار: كل جَعْظَرِيٍّ جَوَّاظٍ مستكبر جَمَّاعٍ مَنَّاعٍ، وأهل الجنة: الضعفاء المغلوبون**» (١). ويقابلها صفات أهل الجنة التي يحبها الله عَزَّوَجَلَّ من نحو: الصبر، والتقوى، والتواضع.

و(الجعظري): -بفتح الجيم والظاء المعجمة بينهما عين مهملة وآخره راء مكسورة ثم تحتانية ثقيلة-. قيل: هو الفظ الغليظ المتكبر. وقيل: الجسيم الغليظ الأكول الشروب، أو السمين الثقيل من الشره والتنعم. وقيل: الذي يتمدح بما ليس فيه أو عنده (٢).

و(الجواظ) -بفتح جيم وتشديد واو وظاء معجمة-: الضخم المختال في مشيته(٣).

و(الجواظ) فيه تفاسير متعددة (٤)..قيل: إنه الجموع المنوع، يعني: الذي يجمع المال ويمنع ما يجب فيه.

---

(١) الحديث مروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص وعن سراقة بن مالك. حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: أخرجه أحمد [٧٠١٠]، قال الهيثمي (١٠/٣٩٣): "رجاله رجال الصحيح"، وأخرجه أيضًا: الحاكم [٣٨٤٤]، وقال: "صحيح على شرط مسلم". ووافقه الذهبي. حديث سراقة بن مالك: أخرجه أحمد [١٧٥٨٥]، والطبراني في (الكبير) [١٧٥٨٥]، و(الأوسط) [٣١٥٧]، والحاكم [٦٥٩٧]، والبيهقي في (الشعب) [٧٨٢٠]. قال الهيثمي (١٠/٢٦٥): "إسناده حسن". وفي (الصحيحين): «ألا أخبركم= =بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعف، لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار: كل عتل، جواظ مستكبر» صحيح البخاري [٤٩١٨، ٦٠٧١]، مسلم [٢٨٥٣].

(٢) انظر: فتح الباري، لابن حجر (٨/٦٦٣)، فيض القدير (٣/١٠١)، النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (جعظر) (١/٢٧٦)، معالم السنن (٤/١١٠)، شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (١٧/١٨٨).

(٣) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (جوظ) (٣/١١٧١).

(٤) انظر ما قيل في ذلك مفصلًا في (مرقاة المفاتيح) (٨/٣١٧٦).

والظاهر أن الجواظ هو الرجل الذي لا يصبر، وهو دائمًا في أنينٍ وحزنٍ وهمٍّ وغمٍّ، معترضًا على القضاء والقدر، لا يخضع له، ولا يرضى بالله عَزَّوَجَلَّ ربًّا. فجواظ يعني: جزوع لا يصبر على شيء، ويرى أنه في قمة أعلى من أن يمسه شيء.

و(الجماع) -بالتشديد-، أي: كثير الجمع للمال. و(المنوع) أي: كثير المنع له والشح والتهافت على كنزه.

ثم بين لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لابنه الصفة المحمودة، وهي التواضع وحسن الخلق، والتي تقابل تلك الصفة المذمومة، وهي التكبر وسوء الخلق، فبين له هيئة التواضع المحببة، وأنها تكون بالقول والفعل، فقال: ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ [لقمان:١٩]، وهي مشية المتواضع لربه جَلَّ وَعَلَا، وللناس، وهي الحال والهيئة المتوسطة التي يحبها الله عَزَّوَجَلَّ. ويكره ما يقابلها من مشية أهل الخيلاء، وأمَرَه أنَّ يغضَّ من صوته، وأن يرفعه قدر الحاجة؛ إذ رفعُه بلا حاجة يُؤذي السامع، وخفضه أوقر للمتكلم؛ إذ إن أقبح الأصوات، وأشنعها صوت الحمار، فنهاه عن رفع الصوت؛ مبينًا له أن من يفعل ذلك فإنما يتشبه بأقبح الصفات التي تنكرها النفوس، وتنفر منها. قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والحمار مثل في الذم البليغ والشتيمة، وكذلك نهاقه. ومن استفحاشهم لذكره مجرَّدًا وتفاديهم من اسمه: أنهم يكنون عنه، ويرغبون عن التصريح به، فيقولون: الطويل الأذنين، كما يكنى عن الأشياء المستقذرة: وقد عدَّ في مساوي الآداب: أن يجرى ذكر الحمار في مجلس قوم من أولى المروءة. ومن العرب من لا يركب الحمار؛ استنكافًا وإن بلغت منه الرجلة [1]، فتشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير، وتمثيل أصواتهم بالنهاق، ثم إخلاء الكلام من لفظ التشبيه،

(١) قوله: (منه الرجلة) أي: المشي برجله، يعني: وإن أتعبه المشي وعدم الركوب. وفي (الصحاح): (الرجل) -بالتحريك-: مصدر قولك: رجل -بالكسر- أي: بقي راجلًا. الانتصاف (٤٩٨/٣)، وانظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (رجل) (١٧٠٥/٤).

وإخراجه مخرج الاستعارة، وأن جعلوا حميرًا وصوتهم نهاقًا؛ ومبالغة شديدة في الذم والتهجين، وإفراط في التثبيط عن رفع الصوت والترغيب عنه. وتنبيه على أنه من كراهة الله عَزَّوَجَلَّ بمكان" (١).

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ۝١٩﴾ [لقمان:١٩] تعليل للأمر بغض الصوت على الاستئناف، كأنه قيل: لم أغض الصوت؟ فأجيب: لأنك إذا رفعت صوتك كنت بمنزلة الحمار في أخس أحواله. ثم ترك المشبه وأداة التشبيه ووجهه، وأخرج المشبه به مخرج الاستعارة المصرحة المركبة العقلية، أو التمثيلية" (٢).

والحاصل أنه يستفاد من قصة لقمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: أهمية غرس الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ في نفوس الإبناء من أول النشأة، وأهمية تعليمهم ونصحهم وإرشادهم، وهي أهم صفات المربِّي في بناء الشخصية المتكاملة لأبناءه ومريديه بما يصلح حالهم ومآلهم.

وقد جمعت وصايا لقمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لابنه خير الدُّنيا والآخرة، من صلاح حال العبد فيما بينه وبين ربه جَلَّ وَعَلَا، وبينه وبين الخلق.

١٦ – الأسلوب التأثيري للقصة:

تتنوع أساليب القرآن الكريم في الدعوة إلى الهدى والرشاد، وهذا التنوع يتلاءم مع العقول المتفاوتة بما ينسجم مع اختلاف أحوال الإنسان، وهي طرق ترشد الدعاة إلى مناهج الدعوة التي تنير العقول، وتؤثر في الوجدان.

---

(١) الكشاف (٣/٤٩٨).

(٢) حاشية الطيبي على الكشاف (١٢/٢٩٩).

ومن هذه الأساليب: سرد القصص، وهو أقرب الوسائل التربوية إلى فطرة الإنسان، وإلى جذب انتباهه، وأكثر العوامل النفسية تأثيرًا فيه؛ وذلك لما فيها التشويق من حيث التدرج في حلقاتها المترابطة، والتي تتكامل ببلوغ الخاتمة.

وإن مما يدلل على أهمية القصة في القرآن الكريم: أنها توضح سير الدعوة الدينية في الحياة منذ فجر الخليقة، والعقبات التي اعترضتها، ويذكر فيها الجوانب الهامة في حياة أشرف الخلق، وهم الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ودعوتهم إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، ومواقف الأمم السابقة من الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وفي ذلك ما فيه من العبرة والعظة، والتثبيت والتسرية لكل مرسل وداعية، ولا سيما تثبيت فؤاد النبي الخاتم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من طريق إيراد سوابق تاريخية من قصص الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وما تعرَّضوا له من الصَّد والإيذاء والإعراض، وحرصهم على الدعوة والإرشاد، بما أتوا به من بيلغ الحجة، وصدق البيان.

وفيها نصب المثال الأعلى، والقدوة الحسنة في الاتباع -كما تقدم-.

كما أن القصة في القرآن توضح الصراع القديم بين الحق والباطل، ويقتبس كل داعية من حياة الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ما يشد عضده، ويقوي عزيمته، ويوضح له طريق الحق من بين سبل متفرقة، وفلسفات متناقضة يهدم بعضها بعضًا؛ فإن تظافر الأدلة يرشد إلى إبصار الحق، ويريح النفس التي تتشوف دائمًا إلى الحقيقة، وتتطلع إلى معرفة المستقبل وما يصيبها من خير أو شر.

كما أن النظر إلى حياة الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من لدن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى خاتم الأنبياء صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما سجَّل القرآن الكريم من وصاياهم ونصائحهم وإرشادهم لأممهم ينصب أمام كل داعية المثال الأعلى، والقدوة الحسنة حيث يجد كلامًا متناسقًا، وهدفًا منسجمًا، ووحدة في الغاية والهدف.

كذلك فإن النظر إلى ما سجله القرآن على الأمم السابقة يعين كل متبصر على التمييز بين مآلات مخزية، وبين من كتب الله عَزَّوَجَلَّ له النجاة، وأورثه السعادة والحياة الباقية.

وإن سرد القصص له تأثير في نفس المخاطَب يجعله أقرب إلى تأمُّل الخطاب، والعمل بمقتضاه.. الخ؛ فإن فيها -على سبيل المثال- بيانًا لسنَّة من سنن الله عَزَّوَجَلَّ في الطُّغاة والظَّلمة، بأنَّ مصيرهم إلى الهلاك مهما تحصَّنوا، ومهما بلغت قوَّتهم، وتنبيهًا وتحفيزًا على الاتِّعاظ والاعتبار، وأن الجزاء من جنس العمل، ففرعون -مثلًا- كما كان في الدُّنيا إمامًا من أئمَّة الظُّلم والطُّغيان فإنه سيكون يوم القيامة هو وجنوده من أئمَّة النَّار، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [القصص:٣٩-٤٢].

فكان فرعون وملؤه أسوة في الشرِّ والضلال والجبروت، يَقتدي بهم أهلُ العتو والكفر بالله عَزَّوَجَلَّ، فهم يحثون على فعل الشرور والمعاصي، وتدسية النفوس بالفسوق والآثام التي تلقي بفاعلها في النار.

وما كفاهم أن كانوا ضالين كافرين بالله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل دأبوا على إضلال سواهم، وتحسين العصيان لهم، وبذلك فإنهم قد ارتكبوا جريمتين، فباؤوا بجزاءين: جزاء الضلال، وجزاء الإضلال.

وكما كانوا في الدنيا أئمَّة في الشر والجبروت والضَّلال، فإنهم سيكونون كذلك في الآخرة أئمَّة وقادة، لكن إلى النَّار، فكانوا عبرة لكل معتبر، فقد نزل بهم عقاب الله عَزَّوَجَلَّ في الحياة الدنيا، فلم يدفع عنهم ملكهم ولا أحد ممن تبعهم ما حلَّ بهم، فباؤوا بالخزي في

الحياة الدنيا، قال الله عَزَّوَجَلَّ في بيان عاقبتهم: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ۝٤١ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ۝٤٢﴾.

وقد جاء في الحديث الشريف: «**من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء**» [١].

وجاء في كتاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى هرقل -عظيم الروم- يدعوه إلى الإسلام: «**سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين..**» الحديث [٢].

ومن الأحاديث الواردة في ذمِّ (القدوة السيئة) قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أبغض الناس إلى الله ثلاثة: ملحد في الحرم، ومبتغ في الإسلام سُنَّةَ الجاهليَّة، وَمُطَّلِبُ دم امرئ بغير حق؛ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ**» [٣]. فقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ومبتغ في الإسلام سُنَّةَ الجاهليَّة**»، أي: ما كان عليه أهلها من الاعتقادات والأعمال الباطلة.

ومن الأحاديث الواردة في ذمِّ (القدوة السيئة): ما جاء عن كعب بن عُجْرَة قال: قال لي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أُعِيذُكَ بالله يا كعب بن عُجْرَةَ من أمراء يكونون من بعدي، فمن غَشِيَ أبوابهم فَصَدَّقَهُمْ في كذبهم، وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه، ولا يرد عَلَيَّ الحوض، ومن غَشِيَ أبوابَهم أو لم يَغْشَ ولم يُصَدِّقْهُمْ في**

---

(١) صحيح مسلم [١٠١٧].

(٢) صحيح البخاري [٧، ٢٩٤١، ٤٥٥٣]، مسلم [١٧٧٣].

(٣) صحيح البخاري [٦٨٨٢].

كذبهم، ولم يُعِنْهُمْ على ظلمهم، فهو مِنِّي وأنا منه، وسَيَرِدُ عَلَيَّ الحَوْضَ..» الحديث [(١)].

ويقول الله عَزَّوَجَلَّ عن عاقبة أئمة الضلال: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۗ﴾ [النحل:٢٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝١٢ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ۝١٣﴾ [العنكبوت:١٢-١٣].

والقرآن قد جاء يهدي جميع متبعي الملل والأديان السابقة إلى استعمال عقولهم مع ضمائرهم؛ للوصول إلى العلم والهدى في الدين، وألا يجمدوا على ما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم؛ فإن الحقَّ أحقُّ أن يُتَّبع. يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ۝٢٢ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ۝٢٣ * قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٢٤ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٢٥﴾ [الزخرف:٢٢-٢٥]. فدلت الآيات على أنهم آثروا القدوة السيئة على الحسنة فضلوا، فاستحقوا العذاب.

والأمة بأمسِّ الحاجة إلى القدوة الحسنة. وأعظم قدوة للناس رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ثم وُرَّاثُ رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من الصَّحابة والتَّابعين والسَّلف الصالح، ومن سار على هديهم، واقتفى أثرهم، ودعا إلى هذا الدين، وهو على بصيرة وبينة من العلماء الصالحين، والقادة المخلصين.. فهم بناة الأجيال الحقيقيون، والهداة إلى سواء السبيل.

---

(١) أخرجه الترمذي [٦١٤]، وقال: "حسن غريب"، وأخرجه أيضًا: الطبراني في (الكبير) [٢١٢].

ويوصف الإمام بأنه أُسوة وقدوة للمأمومين، فإذا كان إمامًا في الخير والصلاح أثَّر في أتباعه، فأثمر ذلك الاقتداء والتأسي: قيمًا وأخلاقًا واستقامة، وإذا كان إمامًا في الشَّر أثَّر فيهم، فأورث انحرافًا وضلالًا عن الحقّ.

قال الله عَزَّوَجَلَّ عن الرُّسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ الَّذين يدعون النَّاس إلى الخير، ويأمرونهم بإقامة الصَّلاة، وأداء ما وجب عليهم من الحقوق لله عَزَّوَجَلَّ، ومن حقوق العباد: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء: ٧٣]. ودلَّت الآيات على أنَّ التَّاريخ لا يذكر الظَّالمين إلا بسوء. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [القصص:٤٢]. ودلَّت الآيات كذلك على سنَّة من سنن الله عَزَّوَجَلَّ في إرسال الرُّسل والأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فكلَّما تنقضي فترة من الزَّمن، ويصبح النَّاس بحاجة إلى هدايةٍ يبعث الله عَزَّوَجَلَّ رسولًا؛ ليعيد النَّاس إلى عبادة الله عَزَّوَجَلَّ الواحد الأحد.

من أجل هذا كانت القصة في القرآن الكريم ركيزة قوية من ركائز الدعوة الإسلامية، القائمة على الإقناع العقلي، بما تدعو إليه من الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ، ورسله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وكتبه، واليوم الآخر، وبما تحمل من مُثُل في مجال الجهاد، والكفاح، والبذل، والتضحية والفداء في سبيل الدعوة إلى الحق، والتوجيه إلى الخير والهدى، والتنكر للباطل والضلال، والصمود في وجه الظلم والطغيان.

فانظر إلى عظيم ما يستفاد من القصص التي تتضمن: (الاتِّعاظ والاعتبار)، وأنَّ ما جاء في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ فيه الاعتبار والموعظة التي يتَّعظ بها العبد، وفيه بيان ما ينفعه وما يضره في حاله ومآله، فمن اتبع هدي القرآن الكريم فإنه يغتنم ما فيه الخير والنفع، ويجتنب ما فيه الشر والضر. يقال: (وعظته فاتَّعظ)، أي: انتفع، وترك ما فيه مضرَّته إلى ما فيه مصلحته.

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ [البقرة:٢٣١].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [النساء:٥٨].

وتأمَّل في قول كلِّ رسولٍ لقومه: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾ [الذاريات:٥١]، وكذلك ما كان في معناه، وكم كُرِّر في خطاب الرُّسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ؟ فإن دلَّ ذلك فإنما يدلُّ على أهميَّة الموضوع.

ولكن من أعرض عن التبصر فأنى له الذِّكرى؟ يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر:٣٧]، ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر:٢٣]، فأنى يكون له الذِّكرى في هذا اليوم الَّذي رأى فيه ما أُخبر عنه يقينًا؟! وأنى له الاتِّعاظ وقد فات الأوان؟!

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزمر:٥٦-٥٩].

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾﴾ [طه:١-٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الواقعة:٧٣]، ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحاقة:١٢]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾ [المزمل:١٩]، أي: عظةً للخلق يجبُ الاتِّعاظ بها، والعمل بموجبها.

وفي ذلك من الاتِّعاظ والاعتبار ما يوجب مبادرة الازدجار عن مخالفة الملك القهَّار. فانظر إلى لطف الله عَزَّوَجَلَّ بهذه الملة المحمديَّة؛ إذ جعل توبتها في الإقلاع عن الذَّنب، والنَّدم عليه، والعزم على عدم المعاودة إليه.

ودراسة (علم التاريخ) توسع آفاق الباحث عن الحق، وتطلعه على أحوال الأمم وسير الرجال، وتقلب الأيام، ويرى الباحث سنن الله عَزَّوَجَلَّ الكونية، وعاقبة الأمم والمجتمعات والحضارات، وانتصار أو انهزام الدعوات، فالتاريخ مرآة مصقولة تتجلى فيها عاقبة الإيمان والتقوى، ونهاية الكفر والفجور، فهو أصدق شاهد على دعوة الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وأتباعهم.

ولا شك أن القصص من أساليب الدعوة التي تؤثر في نفوس المدعوين، وتنبه القلوب والأذهان؛ فإن الداعية إذا أحسن دراسة التاريخ والإفادة منه كان أعون له في تثبيت المعاني والقيم التي يدعو إليها، ولا سيما إذا تماثلت الظروف، وتشابهت الدوافع أو الوقائع.

ومن هذه أساليب التأثير في قصص وأخبار القرآن الكريم: الاعتناء بفن التصوير، فقد حكى القرآن أحوال الأمم السابقة في صورة ناطقة تتضمن الحوار والإقناع، والموعظة الحسنة، والاعتبار، فكان لقصص القرآن الكريم أبلغ تأثير في إصلاح القلوب والأعمال والأخلاق.

وإن الإبداع في التصوير يحدث أثرًا في النفس يحمله على التأمل والإعجاب، فيؤثر في المتلقي الرضا النفسي والإقناع؛ فإن مبنى الطبائع على أن الشيء إذا ظهر من موضع لم يعهد ظهوره منه كان ميل النفوس إليه أكثر، وهي بالشغف به أجدر.

١٧ – الدَّعوة إلى الخير والإصلاح، والنهي عن الفساد في الأرض:

ومن ذلك ما جاء في قصة شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ –على سبيل المثال– من قوله لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف:٨٥] إلى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأعراف:٩٢-٩٣].

وقال لهم: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [هود:٨٨].

ومن ذلك ما جاء في قصة ابني آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ من قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ﴾ [المائدة:٢٧]، إلى قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢] الآية، ثم جاء بعدها بيان عاقبة الذين يحاربون الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويسعون في الأرض فسادًا.

إلى غير ذلك من القصص التي نصَّت أو دلَّت على الأمر بالصلاح والإصلاح، وهي كثيرة.

١٨ – محاربة اليأس القنوط:

إن النصوص التي تبعث الأمل في النفوس، وتحارب: الاكتئاب والانطواء على النفس؛ انتظارًا للموت، أو هربًا من الواقع كثيرة.

وخير مثال على ذلك: ما جاء في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ من قصص الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وما فيها من الفرج بعد الضيق.

ودونكم سيرة النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وصحابته الكرام رَضِيَاللَّهُعَنْهُمْ، فما هي عنكم ببعيد، وكيف فرج الله عَزَّوَجَلَّ عنهم الكرب الشديد، فبينما هم مستضعفون في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس، إذ جاءهم نصر الله عَزَّوَجَلَّ وفتحه فتدثروا من العزة والتمكين بأزهى اللباس، فمن طائفة مستضعفة إلى خلفاء وملوك وفاتحين، وصلوا لكافة أصقاع الدنيا، ونشروا بمبادئهم وسيرتهم العطرة: العدل والمحبة والسلام، فدخل الناس في دين الله عَزَّوَجَلَّ أفواجًا.

ولقد كان النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إمامًا في التفاؤل، والثقة بوعد الله عَزَّوَجَلَّ، وكان يحارب اليأس والتشاؤم، ويصنع الحياة، ويزرع الأمل.

وقد علَّم النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أمته التفاؤل بسلوكه وقوله، ففي قصة الهجرة -مثلًا- عندما أحدقت الأخطار بالغار، وأحاط المشركون به، وعلى الرغم من هذه الشدائد والأخطار كان النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ آمنًا مطمئنًا، متوكلًا على ربه عَزَّوَجَلَّ، واثقًا بنصره وحفظه. يقول أبو بكر رَضِيَاللَّهُعَنْهُ: كنت مع النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في الغار فرأيت آثار المشركين، قلت: يا رسول الله، لو أن أحدهم رفع قدمه رآنا، قال: «**ما ظنك باثنين الله ثالثهما**» (١).

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَاۗ﴾ [التوبة: ٤٠].

إنَّ المؤمن مهما تفاقم الشر، وتعاظم الضرر فإنه يعلم أن ما قضى الله عَزَّوَجَلَّ كائن، وما لم يشأ لم يكن، ولا يحكم به يحِق، لا رافع لما وضع، ولا واضع لما رفع، ولا معطي لما

(١) صحيح البخاري [٤٦٦٣]، مسلم [٢٣٨١].

منع، ولا مضل لمن هدى، فلا جزع ولا هلع، وإنما صبر وشكر، وما عند الله عَزَّوَجَلَّ خير وأبقى.

ورُبَّ محْنَةٍ أورثت مِنْحَةً، وربَّ نورٍ يَشِعُّ من كَبِد الظَّلام؛ فإنَّ النصر مع الصبرِ، وإنَّ الفرج مع الكرب، وإنَّ مع العسر يسرًا، فما بعد دياجير الظلام إلَّا فلقُ الصبح المشرق.

فمن اليقينِ باللهِ عَزَّوَجَلَّ، والثقةِ بوعدة ينبثقُ الفجرُ، وتنجلي سُحُبُ الظلامِ واليأسِ. يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠﴾ [يوسف:١١٠].

وقد وعد الله عَزَّوَجَلَّ الصابرين بأنه معهم بعنايته ورعايته، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾ [البقرة:١٥٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾ [الأنفال:٤٦].

وبيَّنَ أن الصَّبر من أعظم أسباب النصر، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ١٢٥ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١٢٦﴾ [آل عمران:١٢٥-١٢٦].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ١٢٨ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٢٩﴾ [الأعراف:١٢٨-١٢٩].

وقد تقدم أن مقاصد القصص والأخبار في الكتاب والسنة: معرفة سنن الله عَزَّوَجَلَّ في هذا الكون، ومن هذه السنن: نصر المؤمنين الصادقين ولو بعد حين.

وفي قصص القرآن نماذج كثيرة للفرج بعد الضيق، وللنصر بعد الصبر، ما يبعث في النفوس الأمل بأن فرج الله عَزَّوَجَلَّ قريب، وأن العاقبة للمتقين، مهما طال ليل الظلم والبغي، فلا بد للحق أن يعلو وينتصر.

ومن هذه القصص التي تتجلى فيها حقائق الفرج بعد الضيق: ما جاء في قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من نحو قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾ [يوسف:١٨].

وقد كانت عناية الله عَزَّوَجَلَّ مع يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ فنجاه من كل ما أحدق به من المخاطر، كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن ذلك في نحو قوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٢﴾ [يوسف:٢٢]، وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤﴾ [يوسف:٢٤].

وقد كان يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ على بصيرة وثقة من فرج الله عَزَّوَجَلَّ، حيث قال لأبنائه: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ [يوسف:٨٧].

فلم ينقطع الأمل عن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبقي واثقًا بالله عَزَّوَجَلَّ، مطمئنًا بأنه لن يخذله وإن طال الزمن، وقد تحقق ما كان ما كان يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ على ثقة منه، من الفرج عنه وعن يوسف عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، كما أخبر المولى جَلَّ وَعَلَا عن ذلك في قوله: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ٩٤ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ٩٥ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٩٦ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ٩٧ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٩٨﴾ [يوسف:٩٤-٩٨].

وكما جاء في خاتمة قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّاۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ١٠٠ * رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾ [يوسف:١٠٠-١٠١].

وهذا خليل الله عَزَّوَجَلَّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فبعد أن أحكمت الشدة عليه قبضتها أمر الله عَزَّوَجَلَّ النار أن تكون عليه بردًا وسلامًا، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ٦٨ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ٦٩ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ٧٠ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ٧١ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةًۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ٧٢﴾ [الأنبياء:٦٨-٧٢].

وهذا نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي دعا قومه ليلًا ونهارًا، فما زادهم ذلك إلا فرارًا، ولبث في قومه ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت:١٤] يدعوهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ولم ييأس، ولم يفتر، ومع ذلك ما آمن معه إلا قليل، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ﴾ [هود:٣٨]، إلى قوله: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ٤٨ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَاۖ فَٱصْبِرْۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ٤٩﴾ [هود:٤٨-٤٩].

وقال الله جَلَّوَعَلَا عن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ٧٦ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ٧٧﴾ [الأنبياء:٧٦-٧٧].

وهذا نبي الله أيوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ صبر على ما أصابه، وشكر الله عَزَّوَجَلَّ، فكشف الله عَزَّوَجَلَّ عنه الضر والكروب، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ٨٤﴾ [الأنبياء:٨٣-٨٤].

وذا النون عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ الذي كان من المسبحين، اجتباه الله عَزَّوَجَلَّ، وجعله من الصالحين، ونجاه من الكرب العظيم، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾ [الأنبياء:٨٧-٨٨].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ عن زكريا عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾ [الأنبياء:٨٩-٩٠].

وقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ العاقبة للمتقين، كما جاء في غير موضع من القرآن الكريم، ومن ذلك: ما جاء في قصة قارون من قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ [القصص:٧٦].. إلى قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٨٣﴾ [القصص:٨٣].

ومن ذلك: ما جاء في نبأ الإفك والزور الذي رميت به المتدثرة بثوب العفة والطهور رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا؛ فإن فرج شدتها مسطر في سورة النور، في آيات بينة تتلى إلى يوم القيامة.

وذكر تفاصيل قصص من جعل الله عَزَّوَجَلَّ له بعد عسر يسرًا فيها إطالة، فنكتفي بما سبق من الإشارة إلى ذلك والإحالة.

والحاصل أن في قصص القرآن دروس وعبر، وأن المسلم لا ييأس ولا يقنط من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، فهو يوقن بأن ما يقع في الأرض إنما يقع بقدرة الله عَزَّوَجَلَّ، ووفق إرادته، وهو

خير في جانب من جوانبه، ولله عَزَّوَجَلَّ فيه حِكَمٌ. ويعلمُ كذلك أن الفتنة والابتلاء هما الميزان الذي يميز الصادق عن الكاذب. والمسلم يتفاءل بوعد الله عَزَّوَجَلَّ، ويسعى لتحقيق النصر، ودفع الظلم، وإزالة الباطل.

فعليك أيها المسلم أن تحسنَ الظنَّ بخالقك، وأن يمتلئَ قلبُك بالفأل الصادق، والأملِ المشرق الذي يوسِّع ما ضيَّقته الخطوبُ والنَّوازل، فبالأمل تذوقُ طعم السَّعادة، وبالتفاؤل تحسُّ ببهجة الحياة. فالتَّفاؤل سُنَّة نبويَّة، وصفة إيجابيَّة للنفس السويَّة، يترك أثره على تصرفات الإنسان ومواقفه، ويمنحه سلامةَ النفس، والهمةَ العالية، ويزرع فيه الأمل، ويحفزه على الانبعاث إلى العمل.

والتفاؤل ما هو إلَّا تعبير صادق عن الرُّؤية الطيبة والإيجابية للحياة.

قال الشاعر:

أعلِّل النَّفس بالآمال أرقبها ... ما أضيق العيش لولا فسحة الأملِ [1]

فالأمل يبعث الحياة في الناس، واليأس يقتلهم.

واليأس يوقع الناس صرعى كالأموات، ويقتل النبوغ والخصال الحميدة، ويصرف عن التأمل والتبصر في العاقبة، والأمل يعزز الثقة بالنفس، وينهض بها من بين الأموات، وهو يحتاج إلى رعاية مستمرة، وتنمية متواصلة، ومراقبة دائمة؛ حتى لا ينحرف إلى إفراط يقع بالإنسان في طول الأمل، والركون إلى الدنيا، والغفلة عن الآخرة، أو ينحرف إلى تفريط يقع بالإنسان في اليأس والقنوط من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ.

والدعاة بوصفهم الدالين على طريق الله عَزَّوَجَلَّ، الآخذين بأيدي السالكين إلى صراطه المستقيم، ولكونهم أكثر الفئات احتكاكًا مع مشاكل الناس وحاجاتهم اليومية

---

(١) البيت يعزى للوزير مؤيد الدين الطغرائي. انظر: معاهد التنصيص على شواهد التلخيص (٢/١٤٢)، خزانة الأدب وغاية الأرب (١/١٨٧)، الكشكول (١/٣٠٢).

والاجتماعية، فهم مطالبون بالوقوف على مسؤوليتهم الدعوية والدينية والاجتماعية في نشر ثقافة الأمل في عالم ساده الإحباط، وعمَّه اليأس، وغلبه القنوط، بسبب كثرة الإخفاقات والهزائم والانكسارات..

والداعية الفطن يجب أن يبثَّ رسائل الأمل في قلوب المدعوين، وأن يكون خطابه الدعوي في أوقات الأزمات، واشتداد الخطوب، وكثرة الإحباطات، قائمًا على محاربة اليأس والقنوط.

وإن التفاؤل يقوي العزائم، ويبعث على الجد، ويعين على الظفر، وينتشل السالكين من دروب الضياع، وبراثن الضلال، ويقاوم المرض، فقد ثبت طبيًّا أن الذين يعيشون تفاؤلًا هم أسرع من غيرهم على تجاوز الأمراض أو الامتثال للشفاء.

والتفاؤل يدفع الإنسان لتجاوز المحن، ويحفِّزُه للعمل، ويورثه طمأنينة النفس، وراحة القلب، وهو السلوك الذي يصنع به الرجال مجدهم، ويرفعون به رؤوسهم، فهو نور وقت شدة الظلمات، ومخرج وقت اشتداد الأزمات، ومتنفس وقت ضيق الكربات، وهو منبثق من الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ، والتوكل عليه، والثقة بوعده.

فمن اليقين بالله عَزَّوَجَلَّ والثقة بوعده ينبثق الفجر، وتنجلي سحب الظلام واليأس. يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨﴾ [التوبة:١١٨]، ويقول جَلَّوَعَلَا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠﴾ [يوسف:١١٠]، ويقول جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾ [الزمر:٥٣].

والمتفائل لا يبني من المصيبة سجنًا يحبس فيه نفسه، لكنَّهُ يتطلَّعُ للفرج الذي يعقب كل ضيق، ولليسر الذي يَتْبَعُ كل عسر.

١٩ – بيان قدرة الله عَزَّوَجَلَّ، وإحاطته بكل شيء علمًا:

وفي قصص القرآن ما يدل على قدرة الله عَزَّوَجَلَّ، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وعلى سعة علمه، فلا تخفى عليه خافية، وهو يعلم ما تُكِنُّ صدرو الناس وما يعلنون، ويدل على ذلك ما قصة لقمان عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، حيث قال لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ [لقمان:١٦]. -وقد تقدم بيان ذلك في ذكر (وصايا لقمان عَلَيْهِٱلسَّلَامُ)-.

ومن ذلك: ما جاء في قصَّة الذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة: ٢٥٨-٢٥٩].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ في قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْۚ﴾ [البقرة:٢٤٣].

وقال جَلَّوَعَلَا مخبرًا عن استدلال إبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ على إثبات المعاد، وإقامة الحجة على منكريه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ

بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة:٢٥٨-٢٥٩].

وقال جَلَّ وَعَلَا في قصة أصحاب الكهف: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ ۚ﴾ [الكهف:١٩].

وقد تقدم بيان ذلك.

ومن ذلك: ما جاء في خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وما جاء في ولادة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وما جاء في تحوُّل عصا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى حية تلقف ما يأفكون، وما جاء في قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع العبد الصَّالح....إلى غير ذلك.

٢٠ – التحذير من المهلكات:

جاء في كثير من قصص القرآن الكريم التحذير من المهلكات، ولا سيما في قصص الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في دعوتهم لأقوامهم، فكان كل رسول يحذر قومه من المعاصي المهلكات، ولا سيما ما فشا في زمنه، ويذكرهم بالله عَزَّوَجَلَّ وبما ينجيهم من العذاب.

وقد دعا الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أقوامهم إلى توحيد الله عَزَّوَجَلَّ ونبذ الشرك، وكانوا حريصين على تقويم سلوك الناس، وتصحيح معاملاتهم وأخلاقهم.

ولقد أمروهم بكل معروف فيه صلاح أحوالهم في الدارين، ونهوهم عن كل منكر يضرهم في الدنيا والآخرة.

ومن ذلك: ما جاء في إنكار موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ على قوم فرعون تزويرَهم للحقائق، وإضلالهم للناس، فقال لهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ۝٧٧﴾ [يونس:٧٧]، وقال لهم: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ۝٦١﴾ [طه:٦١].

وهود عَلَيْهِ السَّلَامُ أنكر على قومه الشرك، كما أنكر عليهم اغترارهم بقوتهم، ومفاخرتهم بعمرانهم، وتباهيهم بأموالهم، وهم القائلون: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]، فبين لهم أن الله عَزَّ وَجَلَّ أقوى منهم، وحذرهم من مغبة كِبرهم وعبثهم وبطشهم، وقال منكرًا عليهم: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ۝١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝١٢٩ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۝١٣٠ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٣١﴾ [الشعراء:١٢٨-١٣١].

وأنكر صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ على قومه الشرك، والسرف في العمران والمفاخرة به بطرًا، وأنكر عليهم الفساد في الأرض، وطاعة المفسدين، مبينًا لهم مقومات الصلاح والإصلاح، فقال لهم: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٤٣ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٤٤ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٤٥ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ۝١٤٦ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝١٤٧ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ۝١٤٨ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ۝١٤٩ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٥٠ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ۝١٥١ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۝١٥٢﴾ [الشعراء:١٤٣-١٥٢].

وقال لهم: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ۝٦١﴾ [هود:٦١].

وأما قوم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ فقد انتشرت فيهم الفواحش، وكانوا يجاهرون بها، فكانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء، ويقطعون الطريق، ويرتكبون المنكرات، فأنكر عليهم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ وأرشدهم إلى ما هو أطهر لهم، وأصلح لحالهم ومآلهم، فقال لهم: ﴿أَتَأْتُونَ

ﭐلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٨٠ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ۝٨١﴾ [الأعراف: ٨٠-٨١].

وقال لهم: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ۝٥٤ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ۝٥٥ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ۝٥٦﴾ [النمل: ٥٤-٥٦].

وقال لهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ [هود: ٧٨].

وقال لهم: ﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٨ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ﴾ [العنكبوت: ٢٨-٢٩].

ومن ذلك: تحذير شعيب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لقومه، حيث حذرهم من الشرك بالله عَزَّ وَجَلَّ، كما حذرهم من التطفيف في الكيل والبخس في الميزان، وأنكر عليهم قطع الطريق، والإفساد في الأرض، والصدَّ عن سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ، مع دعوته إياهم إلى توحيد الله عَزَّ وَجَلَّ، وإلى الإصلاح، محذرًا لهم من أن يصيبهم ما أصاب من قبلهم من الأمم ممكن بغى وكذب وأفسد في الأرض، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٨٥ وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٨٦﴾ [الأعراف: ٨٥-٨٦].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ۝٨٤ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ۝٨٥﴾ [هود: ٨٤-٨٥].

وقال شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ﴾ [هود:٨٨].

وقال لهم: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هود:٨٩-٩٠].

وقال لهم: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌۖ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾ [هود:٩٣].

وقال لهم: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [العنكبوت:٣٦]... إلى غير ذلك من القصص التي نصت على التحذير من المهلكات.

ومن هذه القصص: ما جاء من التحذير من اتباع خطوات الشيطان، وإبراز عداوته القديمة لبني آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث كان أسلوب القصة في جميع ما تقدم أوقع أثرًا في النفس، وأكثر تنبيهًا للعاطفة، وفيها إيقاظ لكل ذي لبٍّ من أصحاب البصائر، وهداية لكل مسترشد.

٢١ - التنويه بجوانب الإعجاز في قصص القرآن الكريم:

وجوانب الإعجاز في قصص القرآن متعددة، منها ما يتصل بجوانب البلاغة والفصاحة، ومنها: ما هو من قبيل الإخبار عن المغيبات، ومنها: ما هو من قبيل حكاية ما أتى به كل رسول من معجزة بينة من جنس ما برع به قومه، تحداهم بها؛ ليدلل على صدق ما أتى به.

وقد قالوا: إن الله عَزَّوَجَلَّ قد جعل معجزة كل نبي فيما كان أغلب على الذين بعث فيهم، وفيما كانوا يتباهون به، وكانت عوامهم تعظم به خواصهم، قالوا: إنما لما كان السحر

الغالب على قوم فرعون، ولم يكن قد استحكم في زمان استحكامه في زمانه، جعل جَلَّوَعَلَا معجزة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في إبطاله وتوهينه، ولما كان الغالب على زمان عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الطب، جعل الله جَلَّوَعَلَا معجزته في إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، والبلاغة الفصاحة في مدة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأراهم الله عَزَّوَجَلَّ المعجزة من جنس ما برع به قومه، وكان ذلك دليلًا على صدقه (١).

و"مراتب الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ متفاوتة، وذلك لأنه جَلَّوَعَلَا اتخذ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ خليلًا، وأعطى داود عَلَيْهِ السَّلَامُ الملك والنبوة، وسخر لسليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ الجن والإنس والطير والريح. وخصَّ محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالبعث إلى الثقلين، وكونه خاتم النبيين إلى سائر خصائصه. هذا إذا حملنا الدرجات على المناصب والمراتب.

أما إذا حملناها على المعجزات ففيه أيضًا وجه وذلك أن كل واحد من الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أوتي نوعًا آخر من المعجزة لائقًا بزمانه، فمعجزات موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهي قلب العصا حية، واليد البيضاء، كانت شبيهة بما عليه أهل زمانه من السحر، ومعجزات عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وهي إبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، كانت شبيهة بما كان أهل ذلك العصر متقدمين فيه، وهو الطب، ومعجزة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي القرآن كانت من جنس البلاغة، والفصاحة، والخطب، والأشعار، وبالجملة فالمعجزات متفاوتة بالقلة والكثرة، وبالبقاء وعدم البقاء، وبالقوة وعدم القوة، وفيه وجه ثالث، وهو أن يكون المراد بتفاوت الدرجات ما يتعلق بالدنيا، وهو كثرة الأمة والصحابة وقوة الدولة، فإذا تأملت الوجوه الثلاثة علمت أن محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان مستجمعًا للكل، فمنصبه أعلى، ومعجزاته أبقى وأقوى، وقومه أكثر، ودولته أعظم وأوفر" (٢).

---

(١) انظر: دلائل الإعجاز (١/٤٧٥)، المحرر الوجيز (١/٥٣).

(٢) مفاتيح الغيب (٦/٥٢٧)، غرائب القرآن (٢/٧-٨).

وقد جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ما من الأنبياء نَبِيٌّ إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيًا أوحاه الله** عَزَّوَجَلَّ **إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**» (١).

ومن أوجه الإعجاز في القرآن الكريم: أنه قد اشتمل على أخبار كثيرة لا سبيل لبشر أن يعلمها أو يتعلمها، كيف والرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب؟! قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝٤٨ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَۚ﴾ [العنكبوت:٤٨-٤٩]، فصدور الذين أوتوا العلم تعي أنَّ القرآن الكريم كلام لا يصدر مثله عن بشر، مع تظافر الأدلة على أنه كلام الله عَزَّوَجَلَّ. والإعجاز الغيبي ثلاثة أقسام: (الأول: غيب الماضي، الثاني: غيب الحاضر. الثالث: غيب المستقبل).

أ. غيب الماضي:

فأما غيب الماضي فالمراد به: إنباء القرآن عن أخبار الماضين، وقصص السابقين، كقصة آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وغيرهم من الأنبياء عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ.

وذكر تفصيلات تلك القصص يدلُّ على أن القرآن كلام الله عَزَّوَجَلَّ، وليس كلام رسوله محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ لأنه من المتفق عليه أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أميٌّ، ولا علم له بأخبار السابقين.

---

(١) صحيح البخاري [٤٩٨١، ٧٢٧٤]، مسلم [١٥٢].

والقرآن يذكّر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنَّه لم يحضر هذه الحوادث، وفي ذلك تنبيه على أن القرآن الكريم كلام الله عَزَّوَجَلَّ؛ إذ كيف يخبر أميٌّ بأخبار غيب لم يشهدها..

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران:٤٤]، ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يوسف:١٠٢]، ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [القصص:٤٤-٤٦]، ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت:٤٨]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ﴾ [يونس:٩٤].

وما أتى به الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ يتضمن من عالم الغيب ما لا يُعْلَم إلا من طريق الوحي، ولا يظهره الله عَزَّوَجَلَّ إلا لمن ارتضى من رسول، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن:٢٦-٢٧]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود:٤٩].

فقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾، أي: هي من أخبار الغيب التي لم تشهدها فتعلمها. ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ﴾ الوحي الذي نوحيه إليك.

﴿فَٱصْبِرْ ۖ﴾ على القيام بأمر الله عَزَّوَجَلَّ وتبليغ رسالته، وما تلقى من مشركي قومك، كما صبر نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ۝٤٩﴾، أي: لمن اتقى الله عَزَّوَجَلَّ، فأدَّى فرائضه، واجتنب معاصيه، فهم الفائزون بما يؤمِّلون من النعيم في الآخرة، والظفر في الدنيا بالطلبة، كما كانت عاقبة نوح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ؛ إذ صبر لأمر الله عَزَّوَجَلَّ، أنْ نجَّاه من الهلكة مع من آمن به، وأعطاه في الآخرة ما أعطاه من الكرامة، وغرَّق المكذبين به فأهلكهم جميعهم (١).

أما قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ۝١٠٢﴾ [يوسف:١٠٢]، فقد تقدم بيانه، وكذلك الآيات ذات الصلة.

وقد أعلم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الناس أنه لا يملك خزائن الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يعلم من الغيب إلا أوحاه الله عَزَّوَجَلَّ إليه منه، وأن الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يعطي ويمنع، ويعلم الغيب، وأنه جَلَّوَعَلَا علام الغيوب، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:٥٠].

ومعلوم من حال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ "أنه كان أميًّا لا يكتب ولا يحسن ان يقرأ، وكذلك كان معروفًا من حاله أنَّه لم يكن يعرف شيئًا من كتب المتقدمين وأقاصيصهم وأنبائهم وسيرهم، ثم أتى بجمل ما وقع وحدث من عظيمات الأمور، ومهمات السير من حين خلق الله عَزَّوَجَلَّ آدم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ إلى حين مبعثه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فذكر في الكتاب الذي جاء به معجزة له: قصة آدم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، وابتداء خلقه، وما صار أمره إليه من الخروج من الجنة، ثم جملًا من أمر ولده وأحواله وتوبته، ثم ذكر قصة نوح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، وما كان بينه وبين قومه، وما انتهى إليه أمرهم، وكذلك أمر إبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ إلى ذكر سائر الأنبياء عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ المذكورين في القرآن والملوك والفراعنة الذين كانوا في أيام الأنبياء صلوات الله عليهم.

(١) انظر: تفسير الطبري (١٥/٣٥٦).

ونحن نعلم ضرورة أن هذا مما لا سبيل إليه إلا عن تعلم. وإذ كان معروفًا أنه لم يكن ملابسًا لأهل الآثار، وحملة الأخبار، ولا مترددًا إلى التعلم منهم، ولا كان ممن يقرأ فيجوز أن يقع إليه كتاب فيأخذ منه، علم أنه لا يصل إلى علم ذلك إلا بتأييد من جهة الوحي، ولذلك قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت:٤٨]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ﴾ [الأنعام:١٠٥]. وقد بينا أن من كان يختلف إلى تعلم علم ويشتغل بملابسه أهل صنعة لم يخف على الناس أمره، ولم يشتبه عندهم مذهبه، وقد كان يُعرف من يحسن هذا العلم -وإن كان نادرًا- وكذلك كان يُعرف فيهم من يختلف إليه للتعلم، وليس يخفي في العرف عالِمُ كلِّ صنعة ومتعلمها، فلو كان منهم لم يخف أمره" [1].

وقد تقدم أن (علم الآثار) من العلوم الهامة التي أغفلها المسلمون في عصرنا الحاضر، حتى تفوق غيرهم عليهم في هذا المجال، مع أن الاستدلال بالآثار على صحيح ما جاء من الأخبار مما يوثق المسموع منها بالدليل الحسي المشاهد.

والاستقراء في التواريخ، والكتب المدونة، والمخطوطات، والآثار كل ذلك مما يوثق الأخبار، ويقوي الإيمان، ويزيد اليقين.

ب. غيب الحاضر:

وأما غيب الحاضر فإن المراد به: الإخبار القرآن عن عوالم الغيب الموجودة وقت نزوله.

---

(١) إعجاز القرآن، للإمام الباقلاني (ص:٣٤-٣٥).

وهو قسمان:

الأول: كلام القرآن عن عوالم الغيب الموجودة، والتي لم يرها الناس بأبصارهم ولم يتعاطوا معها بحواسهم، كالحديث عن أسماء الله عَزَّوَجَلَّ وصفاته وأفعاله، وكالحديث عن الملائكة والجن ومشاهد الموت والاحتضار...الخ.

الثاني: كشف القرآن لأسرار ومكائد المنافقين الذين كانوا يكيدون في الخفاء للإسلام وأهله، وينسجون المؤامرات للقضاء عليه.

ومع ذلك: كانت الآيات القرآنية تتنزل بكشف عوارهم، وإظهار ما يبطنون من النفاق والمكر. كالكشف عن حقيقة قصد المنافقين من مسجد الضرار، وسورة التوبة فيها من هذا الضرب شيء كثير، فقد توعدهم الله عَزَّوَجَلَّ فيها بقوله: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [التوبة:٦٤]، فإنه يعني: أن الله عَزَّوَجَلَّ مظهر عليكم أيها المنافقون ما كنتم تحذرون أن تظهروه، فأظهر الله عَزَّوَجَلَّ ذلك عليهم وفضحهم، وكانت تسمَّى هذه السورة: (الفَاضِحَةَ)، فاضحةَ المنافقين.

ج. غيب المستقبل:

وأما غيب المستقبل فقد مثَّل له الشيخ الزرقاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (المناهل) بأمثلة عشرة [(١)].

منها: إخبار القرآن عن الروم بأنهم سينتصرون في بضع سنين -وسيأتي- إلى غير ذلك.

(١) انظر: مناهل العرفان (٢/٣٦٩).

ومن غيب المستقبل: ما وعد الله عَزَّوَجَلَّ به نبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنه سيظهر دينه على الأديان، بقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٣٣﴾ [التوبة:٣٣] ففعل ذلك.

ويعلم ذلك الظهور من حيث الأثر والتمكن من النفس، وذلك بأن يصبح هيئة راسخة في النفس، فتأمل حال المسلمين بالمقارنة مع حال غيرهم، فمن الذي يحملهم على تحمل مشاق التكليف من الصلاة والصوم والحج والعبادات الأخرى؟ وما الذي يلزمهم بالمعاملات الإسلامية؟ وهل حال المساجد كحال الكنائس -مثلًا- من حيث الصلاة فيها والتردد إليها؟

وقد ذكر الباقلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره على أن معنى الظهور ما يسَّر الله عَزَّوَجَلَّ له ولخلفائه من الفتوحات، ومن الإظهار على الجبابرة والأكاسرة، فقال: "كان أبو بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إذا أغزى جيوشه عرَّفهم ما وعدهم الله عَزَّوَجَلَّ من إظهار دينه؛ ليثقوا بالنصر، ويستيقنوا بالنجح. وكان عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يفعل كذلك في أيامه، حتى وقف أصحاب جيوشه عليه فكان سعد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وغيره من أمراء الجيوش من جهته يذكر ذلك لأصحابه، ويحرضهم به، ويوثق لهم، وكانوا يلقون الظفر في مواجهاتهم حتى فتح إلى آخر أيام عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إلى بلخ وبلاد الهند، وفتح في أيامه مرو الشاهجان، ومرو الروذ، ومنعهم من العبور إلى جيحون. وكذلك فتح في أيامه فارس إلى إصطخر، وكرمان ومكران وسجستان، وجميع ما كان من مملكة كسرى، وكل ما كان يملكه ملوك فارس بين البحرين من الفرات إلى جيحون. وأزال ملك ملوك الفرس فلم يعد إلى اليوم، ولا يعود أبدًا إن شاء الله جَلَّوَعَلَا، ثم إلى حدود إرمينية، وإلى باب الأبواب. وفتح أيضًا ناحية الشام والأردن وفلسطين وفسطاط مصر. وأزال ملك قيصر عنها، وذلك من الفرات إلى بحر مصر، وهو ملك قيصر. وغزت الخيول في أيامه إلى عمورية، فأخذ

الضواحي كلها ولم يبق منها إلا ما حجز دونه بحر أو حال عنه جبل منيع أو أرض خشنة أو بادية غير مسلوكة" (١).

والمراد أن الفتح الإسلامي آخذ في الامتداد والتمكن، فهو الأظهر والأكثر إقناعًا.

ومن ذلك قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾ [آل عمران:١٢] فصدق فيه.

وقال في أهل بدر: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ [الأنفال:٧]، ووفي لهم بما وعد.

ومن ذلك: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح:٢٧].

وفي الحديث: ما يدل على أن الإسلام سيظهر وينتشر في الأسقاع، كما جاء في (صحيح البخاري) من قول خباب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: شكونا إلى رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً له في ظلِّ الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: يا رسول الله، ألا تدعو الله، فقعد وهو محمر وجهه، فقال: «**لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد، ما دون عظامه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه، فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، ما يخاف إلا الله** عَزَّوَجَلَّ، **أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون**» (٢).

(١) انظر: إعجاز القرآن، للباقلاني (ص:٣٣-٣٤).

(٢) صحيح البخاري [٣٦١٢، ٣٨٥٢، ٦٩٤٣]، وقد تقدم.

وقال عدي بن حاتم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: بينا أنا عند النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا قطع السبيل، فقال: «**يا عدي هل رأيت الحِيرَةَ؟**»، قلت: لم أرها، وقد أنبئت عليها، قال: «**فإن طالت بك الحياة لَتَرَيَنَّ الظَّعِينَةَ ترتحلُ من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدًا إلا الله**»، قلت: فيما بيني وبين نفسي فأين دُعَّارُ طَيِّئٍ الذينَ قد سَعَّرُوا في البلاد؟! «**ولئن طالت بك حياة لَتُفْتَحَنَّ كنوز كسرى**». قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «**كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياة لَتَرَيَنَّ الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله فلا يجد أحدًا يقبله منه، وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له فيقولن: ألم أبعث إليك رسولا فيبلغك؟ فيقول: بلى، فيقول: ألم أعطك مالًا وولدًا وأفضل عليك؟ فيقول: بلى، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم، وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم**». قال عَدِيٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: سمعت النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «**اتقوا النار ولو بِشِقَّةِ تَمْرَةٍ، فمن لم يَجِدْ شِقَّةَ تَمْرَةٍ فبكلمةٍ طَيِّبَةٍ**». قال عَدِيٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم الحياة لَتَرَوُنَّ ما قال أبو القاسم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ**»(١).

ومن الآيات القرآنية التي بشَّرت المسلمين المستضعفين في مكة أنهم سينتصرون على عدوِّهم، وستقوم دولتهم: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر:٤٥].

---

(١) صحيح البخاري [٣٥٩٥]. و«الفاقة»: الفقر. و«الحيرة» بكسر الحاء المهملة وسكون الياء آخر الحروف وفتح الراء: بلد معروف قديمًا مجاور للكوفة. و«الظعينة» هو في الأصل اسم للهودج، ثم قيل للمرأة في الهودج، وقد تقال للمرأة مطلقًا. و«دعار» ضم الدال المهملة وتشديد العين المهملة جمع: داعر، وهو الخبيث المفسد الفاسق، والمراد بهم: قطاع الطرق. و«سعروا البلاد»: أشعلوا فيها نار الفتنة وأفسدوها. انظر: فتح الباري (٦/٦١٣)، أعلام الحديث، للخطابي (٣/١٥٩٩)، عمدة القاري (١٦/١٣٥).

ومن ذلك: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص:٨٥]، والمخاطب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأراد مكة؛ فإن معاد الرجل بلدته.

ومن ذلك: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿الٓمٓ ۞ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۞ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۞ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۞ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ [الروم:١-٥]. وجاء في التفسير: "عن نيار بن مكرم الأسلمي قال: لما نزلت: ﴿الٓمٓ ۞ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۞ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۞ فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾ فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم؛ لأنهم وإياهم أهل كتاب. وفي ذلك قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۞ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ [الروم:٤-٥]، فكانت قريش تحب ظهور فارس؛ لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان ببعث، فلما أنزل الله عَزَّ وَجَلَّ هذه الآية خرج أبو بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يصيح في نواحي مكة: ﴿الٓمٓ ۞ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۞ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۞ فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾ قال ناس من قريش لأبي بكر: فذلك بينا وبينكم زعم صاحبكم أن الروم ستغلب فارسًا في بضع سنين أفلا نراهنك على ذلك؟ قال: بلى -وذلك قبل تحريم الرهان-، فارتهن أبو بكر والمشركون، وتواضعوا الرهان، وقالوا لأبي بكر: كم تجعل البضع ثلاث سنين إلى تسع سنين، فسم بيننا وبينك وسطًا تنتهي إليه، قال: فسموا بينهم ست سنين، قال: فمضت الست سنين قبل أن يظهروا، فأخذ المشركون رهن أبي بكر، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس، فعاب المسلمون على أبي بكر تسمية ست سنين؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾. قال: وأسلم عند ذلك

ناس كثير. قال: هذا حديث صحيح حسن غريب من حديث: نيار بن مكرم لا نعرفه إلا من حديث: عبد الرحمن بن أبي الزناد" [١].

ومن ذلك: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾ [المدثر:١١]، إلى قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾ [المدثر:٢٦]، يعني: الوليد بن المغيرة المخزومي، وإنما خصه بالذكر -وإن كان الناس خلقوا مثل خلقه-؛ لاختصاصه بكفر النعمة بإيذاء الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

ومن ذلك: قوله جَلَّوَعَلَا عن أبي لهب وامرأته: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾ [المسد:١-٥].

فقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿تَبَّتْ يَدَآ﴾ تعليم للمخاطَبين بإنشاء الدُّعاء عليه، أي: قولوا ذلك، فهو مصروفٌ إلى الخلق؛ لإعلامهم بأنه أهل لأن يدعى عليه. أو هو من قبيل الإخبار بما يؤول إليه حاله. والفائدة عدم اقتفاء أثر من كان حاله كذلك، والتَّحذير من سلوك طريقه، وفي ذكر المآل والعاقبة عبرة للمعتبر.

والقرآن إنما يعنى بالمقاصد العامَّة، فليس الأمر مجرَّد إنشاء للدُّعاء على فلان من الناس؛ فلذلك فإنَّ القرآن لا يعنى بذكر غالبًا بذكر أشخاص ولا أماكن ولا أزمنة ولا مسافات؛ لأن ذلك لا علاقة له بالحدث، وإنما يعنى بموضع العبرة. فعندما يذكر فرعون -مثلًا- وهو لقب لملوك مصر في تلك الحِقْبَةُ من الزمن لا يذكر من هو على وجه التحديد. وإذا نصَّ القرآن الكريم في القليلِ النَّادر على ذلك فإنما يكون لقصد عظيم.

وقد ذكر القرآن الكريم حكام مصر القدامى بلقب: (فرعون)، إلا في سورة يوسف فقد ذكر فيها حاكم مصر بلقب (ملك) في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ

---

(١) أخرجه الترمذي في (السنن) [٣١٩٤] وحسنه.

سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ [يوسف:٤٣]، وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾ [يوسف:٥٠]، وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ [يوسف:٥٤].

وقد ذكر المؤرخون أن ملك مصر في عهد يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ كان من ملوك العرب المعروفين بالرعاة (الهكسوس). قال الإمام محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: "والتعريف في ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ للعهد، أي: ملك مصر. وسماه القرآن هنا: ملكا ولم يسمه فرعون؛ لأن هذا الملك لم يكن من الفراعنة ملوك مصر القبط، وإنما كان ملكا لمصر أيام حكمها (الهكسوس)، وهم العمالقة، وهم من الكنعانيين، أو من العرب، ويعبر عنهم مؤرخو الإغريق بملوك الرعاة، أي: البدو. وقد ملكوا بمصر من عام [١٩٠٠] إلى عام [١٥٢٥] قبل ميلاد المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ" (١). فالتعبير في سورة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بالملك من دقائق إعجاز القرآن.

والملاحظ هنا أنه جرى ذكر أبي لهب لفائدة، وهي أن الآية تتضمن الإعجاز والتَّحدي، فمن الَّذي يملك أن يطلق هذا التَّهديد على صفحات الدَّهر، والقطع بأنه لن يتوب في حياته، فلو أنَّ أبا لهب قال: آمنت ولو كذبًا؛ ليثبت أنَّه قد محى أسباب شقائه، أو بقصد تشكيك النَّاس بصحَّة هذا الإخبار لكان نسخًا للخبر، والنسخ لا يكون في الأخبار؛ لأنه يدل على كذب الخبر.

ومن جانب آخر جرى ذكره كأنموذج للشر والصد عن سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، فكان مثالًا وعظة وعبرة، وبيانًا لحال كل من نهج نهجه.

(١) التحرير والتنوير (١٢/٢٨٠)، وانظر: تفسير المنار (١٢/٢٦١).

قال الباقلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وجميع الآيات التي يتضمنها القرآن من الإخبار عن الغيوب يكثر جدًّا، وإنما أردنا أن ننبه بالبعض على الكل" (١).

٢٢ – فوائد أخرى متفرقة وبيان بلاغة التكرار:

ذكر الإمام محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن القصص في القرآن الكريم بثت بأسلوب بديع، إذ ساقها في مظان الاتعاظ بها مع المحافظة على الغرض الأصلي الذي جاء به القرآن من تشريع وتفريع، قال: فتوفرت من ذلك عشر فوائد:

فمن هذه الفوائد التي ذكرها: أن قصارى علم أهل الكتاب في ذلك العصر كان معرفة أخبار الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ وأيامهم، وأخبار من جاورهم من الأمم، فكان اشتمال القرآن على تلك القصص التي لا يعلمها إلا الراسخون في العلم من أهل الكتاب تحديًا عظيمًا لأهل الكتاب، وتعجيزًا لهم بقطع حجتهم على المسلمين، فكان حملة القرآن بذلك أحقاء بأن يوصفوا بالعلم الذي وصفت به أحبار اليهود، وبذلك انقطعت صفة الأمية عن المسلمين في نظر اليهود، وانقطعت ألسنة المعرضين بهم بأنهم أمة جاهلية، وهذه فائدة لم يبينها من سلفنا من المفسرين.

ومن هذه الفوائد: أن من أدب الشريعة معرفة تاريخ سلفها في التشريع من الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ بشرائعهم، فكان اشتمال القرآن على قصص الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ وأقوامهم تكليلًا لهامة التشريع الإسلامي بذكر تاريخ المشرعين، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ [آل عمران:١٤٦] الآية. وهذه فائدة من فتوحات الله عَزَّ وَجَلَّ لنا أيضًا. وقد رأيت من أسلوب القرآن في هذا الغرض: أنه لا يتعرض إلا إلى حال أصحاب القصة في رسوخ

(١) إعجاز القرآن، للإمام الباقلاني (ص:٣٤).

الإيمان وضعفه، وفيما لذلك من أثر عناية إلهية أو خذلان. وفي هذا الأسلوب لا تجد في ذكر أصحاب هذه القصص بيان أنسابهم، أو بلدانهم؛ إذ العبرة فيما وراء ذلك من ضلالهم أو إيمانهم. وكذلك مواضع العبرة في قدرة الله عَزَّوَجَلَّ في قصة أهل الكهف: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾ [الكهف:٩] إلى قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ۝١٣﴾ [الكهف:١٣] الآيات، فلم يذكر أنهم من أيِّ قوم، وفي أي عصر. وكذلك قوله فيها: ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ [الكهف:١٩]، فلم يذكر أي مدينة هي؛ لأن موضع العبرة هو انبعاثهم، ووصول رسولهم إلى المدينة إلى قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [الكهف:٢١].

ومن هذه الفوائد: ما فيها من فائدة التاريخ من معرفة ترتب المسببات على أسبابها في الخير والشر والتعمير والتخريب؛ لتقتدي الأمة وتحذر، وما فيها من فائدة ظهور المثل العليا في الفضيلة وزكاء النفوس أو ضد ذلك.

ومن هذه الفوائد: أن في حكاية القصص سلوك أسلوب التوصيف والمحاورة، وذلك أسلوب لم يكن معهودًا للعرب، فكان مجيؤه في القرآن ابتكار أسلوب جديد في البلاغة العربية، شديد التأثير في نفوس أهل اللسان، وهو من إعجاز القرآن؛ إذ لا ينكرون أنه أسلوب بديع ولا يستطيعون الإتيان بمثله؛ إذ لم يعتادوه، انظر إلى حكاية أحوال الناس في الجنة والنار والأعراف في سورة الأعراف.

ومن هذه الفوائد: أن العرب بتوغل الأمية والجهل فيهم أصبحوا لا تهتدي عقولهم إلا بما يقع تحت الحس، أو ما ينتزع منه ففقدوا فائدة الاتعاظ بأحوال الأمم الماضية، وجهلوا معظمها، وجهلوا أحوال البعض الذي علموا أسماءه، فأعقبهم ذلك إعراضا عن السعي لإصلاح أحوالهم بتطهيرها مما كان سبب هلاك من قبلهم، فكان في ذكر قصص

الأمم توسيع لعلم المسلمين بإحاطتهم بوجود الأمم ومعظم أحوالها، قال مشيرا إلى غفلتهم قبل الإسلام: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ [إبراهيم:٤٥].

ثم قال بعد ذلك: وفوائد القصص تجتلبها المناسبات، فتذكر القصة كالبرهان على الغرض المسوقة هي معه، فلا يعد ذكرها مع غرضها تكريرًا لها؛ لأن سبق ذكرها إنما كان في مناسبات أخرى. كما لا يقال للخطيب في قوم، ثم دعته المناسبات إلى أن وقف خطيبًا في مثل مقامه الأول فخطب بمعان تضمنتها خطبته السابقة: إنه أعاد الخطبة، بل إنه أعاد معانيها، ولم يعد ألفاظ خطبته. وهذا مقام تظهر فيه مقدرة الخطباء فيحصل من ذكرها هذا المقصد الخطابي.

ثم تحصل معه مقاصد أخرى.

منها: رسوخها في الأذهان بتكريرها.

ومنها: ظهور البلاغة، فإن تكرير الكلام في الغرض الواحد من شأنه أن يثقل على البليغ فإذا جاء اللاحق منه إثر السابق مع تفنن في المعاني باختلاف طرق أدائها من مجاز، أو استعارات، أو كناية. وتفنن الألفاظ وتراكيبها بما تقتضيه الفصاحة وسعة اللغة باستعمال المترادفات، وتفنن المحسنات البديعية المعنوية واللفظية ونحو ذلك كان من الحدود القصوى في البلاغة.

وذكر من هذه المقاصد:

أن تلك القصص تختلف حكاية القصة الواحدة منها بأساليب مختلفة ويذكر في بعض حكاية القصة الواحدة ما لم يذكر في بعضها الآخر وذلك لأسباب:

منها: تجنب التطويل في الحكاية الواحدة، فيقتصر على موضع العبرة منها في موضع، ويذكر آخر في موضع آخر، فيحصل من متفرق مواضعها في القرآن كمال القصة، أو كمال المقصود منها، وفي بعضها ما هو شرح لبعض.

ومنها: أن يكون بعض القصة المذكور في موضع مناسبًا للحالة المقصودة من سامعيها، ومن أجل ذلك تجد ذكرًا لبعض القصة في موضع، وتجد ذكرًا لبعض آخر منها في موضع آخر؛ لأن فيما يذكر منها مناسبة للسياق الذي سيقت له؛ فإنها تارة تساق إلى المشركين، وتارة إلى أهل الكتاب، وتارة تساق إلى المؤمنين، وتارة إلى كليهما، وقد تساق للطائفة من هؤلاء في حالة خاصة، ثم تساق إليها في حالة أخرى. وبذلك تتفاوت بالإطناب والإيجاز على حسب المقامات.

ومنها: أنه قد يقصد تارة التنبيه على خطأ المخاطبين فيما ينقلونه من تلك القصة، وتارة لا يقصد ذلك...إلى غير ذلك [(١)].

"وإن إطلاق كلمة تكرار هنا فيها كثير من التسامح والتساهل؛ فإن تعرض القرآن لما حدث مع نبي من الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مع قومه في أكثر من موضع ليس هو تكرارًا بالمعنى الحقيقي، إنما هو استشهاد بالقصة لأغراض متعددة؛ لذلك لا نجد القصة تعاد كما هي، وإنما يذكر الجزء المناسب للغرض والمقصد الذي اقتضى الاستشهاد بالقصة باستعراض سريع. أما جسم القصة فلا يكرر إلَّا نادرًا، ولاستنباط دروس وعبر جديدة منه مما يجعله على الحقيقة غير مكرر.

وهكذا وردت قصة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ في ست مواضع من القرآن تثير العبر حول خطر اتباع الهوى ومخالفة أمر الله عَزَّ وَجَلَّ، وضعف الإنسان أو توبته وقبول توبته.. وهكذا.

(١) انظر: التحرير والتنوير (١/٦٤-٦٩).

كذلك وردت قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في نحو عشرين موضعًا، تثير في كل موضع عبرة ودرسًا، في التوحيد، أو الإنابة، أو تأسيس البيت العتيق، أو الأذان في الحج.. إلى آخر ما هنالك.." (١).

فالقصة في كل سورة فيها من المعاني والحكم ما لا يوجد في سورة أخرى، وسياق السور وظرفها يحددان في موضع العبرة من القصة. فليس من السهل أن يقال: في كل سورة جاءت فيها قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع فرعون: إنها قصة واحدة، بل الواجب أن ندرس القصة في كل سورة؛ ليتبين السياق الذي جاءت من أجله، والعبرة التي هدفت لها، والحكمة التي قصدت منها.

كما في قصة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث إنها وردت في ست سور، في (البقرة، والأعراف، والحجر، وطه، وص).

وفي (سورة الأعراف) وردت هذه القصة في سياق أن الناس قليلًا ما يشكرون الله عَزَّ وَجَلَّ الذي مكنهم في الأرض، وجعل فيها معايش؛ ولذلك أسهبت القصة في موقف إبليس من الإنسان.

وفي (سورة الحجر) وردت القصة في سياق خلق الإنسان من طين، والجن من نار، فليست مادة أفضل من مادة، وهذا ما ركزت عليه القصة.

أما (سورة الإسراء) فقد وردت قصة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ في سياق فتنة الناس؛ ولذلك كان الإسهاب في حسد إبليس وأعدائه لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وذريته (٢).

---

(١) انظر: علوم القرآن الكريم، لنور الدين العتر (ص:٢٤٩)، مطبعة الصباح، دمشق [١٤١٤هـ].

(٢) بتصرف عن (مجلة لواء الإسلام)، السنة الرابعة (ص:٥٣٧-٥٥٤)، مقالة الشيخ محمد خضر حسين. انظر: (الرد على قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية)، د. فضل حسن عباس (ص:١٤١-١٤٢)، ط: جمعية عمال المطابع التعاونية، الأردن [١٤١٠هـ].

وقد نقل الدكتور جوستاف عن (دائرة المعارف البريطانية) تحت مادة: قرآن: ليس هناك مهارة أدبية عظيمة واضحة في التكرير الذي لا لزوم له لنفس الكلمات والجمل في القرآن.

والرد على ذلك من وجوه:

أولًا: إن لكل لغة منهجًا مختارًا، وللمتكلمين بها ذوقًا خاصًّا..ومن هنا يخطأ متكلم بلغة ما حين يطعن في أسلوب لغة أخرى لم يألفها لسانه، ولم يدرك سرها حجاه.

فينبغي أن يذكر في الترجمة إلى لغة أخرى: الجزء المناسب للغرض والمقصد الذي اقتضى الاستشهاد بالقصة في كلِّ موضع، وبيان أنه يغاير الموضع الآخر في كذا وكذا، وأن القصة لا تعاد كما هي كما سبق؛ فإن ذلك من (فقه اللغة) الذي لا يدركه بالترجمة الحرفية من يجهل فقهها.

ثانيًا: إن التكرار في موضع اللجاج والجحود المتتابع أسلوب مرغوب فيه في اللغة العربية، ومعروف منذ عهودها الأولى.

والقرآن الكريم كتابها الأعلى، وحجتها البالغة، وإنما جاء في الذروة من أساليبها بلاغة وإعجازًا وسحرًا.

وهاك ما ورد في (سورة الرحمن) -مثلًا-؛ فإن كل آية أو اثنتين من هذه السورة تضمنت تذكيرًا بنعمة من نعم الله عَزَّوَجَلَّ السابغة على الناس في الدنيا والآخرة، فناسب أن يكرر هذا التساؤل التذكيري الذي يذكر الناسي.

على أننا نلاحظ التكرار؛ لفاصلة الأناشيد الوطنية والحربية في سائر اللغات، وعند كافة الأمم للتركيز على معنى خاص مقصود لذاته؛ لأجل التذكير به، وبيان أهميته.

فلماذا يعاب في لغة القرآن الكريم ما لا يعاب في سواها؟! (١).

وقد تكلم كثيرون في بلاغة التكرار، ومن أبرزهم: أبو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فذكر مقاصد التكرار وأسراره، وما فيه من ألوان البلاغة، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "كانت وفود العرب ترد على رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للإسلام، فيقرئهم المسلمون شيئًا من القرآن، فيكون ذلك كافيًا لهم.

وكان يبعث إلى القبائل المتفرّقة بالسُّور المختلفة، فلو لم تكن الأنباء والقصص مثنّاة ومكرَّرة لوقعت قصّة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى قوم، وقصة عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى قوم، وقصة نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى قوم، وقصة لوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى قوم.

فأراد الله عَزَّ وَجَلَّ بلطفه ورحمته، أن يشهر هذه القصص في أطراف الأرض، ويلقيها في كل سمع، ويثبتها في كل قلب، ويزيد الحاضرين في الإفهام والتحذير.

قال: وأما تكرار الكلام من جنس واحد وبعضه يجزىء عن بعض، كتكراره في: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون:١]، وفي (سورة الرحمن) بقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾ [الرحمن:١٣] فقد أعلمتك أنَّ القرآن نزل بلسان القوم، وعلى مذاهبهم. ومن مذاهبهم: التكرار؛ إرادة التوكيد والإفهام، كما أن من مذاهبهم الاختصار؛ إرادة التخفيف والإيجاز؛ لأن افتتان المتكلم والخطيب في الفنون، وخروجه عن شيء إلى شيء أحسن من اقتصاره في المقام على فنٍّ واحد.

(١) بتصرف عن (كتاب أحكمت آياته)، أحمد محمد جمال (ص:١٢١)، ط: إدارة الصحافة والنشر، مكة المكرمة.

وقد يقول القائل في كلامه: والله لا أفعله، ثم والله لا أفعله. إذا أراد التوكيد وحسم الأطماع من أن يفعله. كما يقول: والله أفعله، بإضمار: (لا) إذا أراد الاختصار....إلى آخر ما ذكره في بيان بلاغة التكرار" [١].

وقد كتب في بلاغة التكرار المؤلفات والرسائل الكثيرة -قديمًا وحديثًا-، ولا سيما في كلية اللغة العربية في (جامعة الأزهر).

وللسجلماسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ [٢] نظرة جديدة وموسعة إلى بلاغة التكرير في القرآن الكريم.

وقد ذكر منهجه وطريقته: الدكتور عبد الله علي محمد حسن في كتابه: (السجلماسي ونظرة جديدة إلى بلاغة التكرير) في كلية اللغة العربية في (جامعة الأزهر).

وقد جاء في (أوله) أن التكرير طريق من طرق الإطناب لا يأتي عبثًا أو لغوًا أو تطويلًا بدون داع، وإنما جاء لهدف بلاغي كالتأكيد، أو لزيادة التنبيه، أو لطول الفصل، أو لتعدد المتعلق.

ومن المعروف أن التكرير هو ذكر الشيء مرتين أو أكثر لفائدة.

وقد اعتبر علماء البلاغة أن اللفظة أو الجملة إذا كررت دون أن تضيف جديدًا فإنه عيب يخل بفصاحة الكلام.

فقد قيل في قول الشاعر:

إِنِّي وأَسْطار سُطِرْنَ سَطْرًا   لَقائِلٌ يا نَصْرُ نَصْرا نَصْرًا [٣]:

---

(١) انظر: تأويل مشكل القرآن، لأبي محمد بن قتيبة (ص:١٤٩-١٥٩).

(٢) انظر: السجلماسي ونظرة جديدة إلى بلاغة التكرير، جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية، ط: مركز فجر لخدمات الطباعة، القاهرة.

(٣) البيت من الرّجز، وهو في (ديوان رؤبة بن العجاج) (ص:١٧٤)، اعتنى بتصحيحه وترتيبه: وليم بن الورد البروسي، طبع ليبسج، ودار ابن قتيبة للطباعة والنشر، الكويت.

أنه لا يفيد معنى -سوى التأكيد-، ولا ينبئ عن غرض، ولا يحمل عاطفة.

وقد ذكر البلاغيون الكثير من أغراض التكرير:

ومن هذه الأغراض: تأكيد الإنذار في نحو قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ [التكاثر:٣-٤]. وفي ﴿ثُمَّ﴾ دلالة على أن الإنذار الثاني أبلغ وأشد، تنزيلًا لبعد المرتبة بعد الزمان، واستعمالًا للفظ: ﴿ثُمَّ﴾، للدلالة على التدرج في الإنذار.

ومن هذه الأغراض: استمالة المخاطب لقبول الخطاب: كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ۝٣٨ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ [غافر: ٣٨-٣٩] فقد كرر قوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾، لاستمالتهم وحملهم على قبول الرشاد.

ونحوه: الاستعطاف، كما في نحو قوله جَلَّوَعَلَا عن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في دعوته لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ۝٤٢ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ۝٤٣ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ۝٤٤ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ۝٤٥﴾ [مريم:٤٢-٤٥].

وكما في قوله جَلَّوَعَلَا عن لقمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في نصحه لابنه: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِۖ﴾ [لقمان:١٣]، ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ﴾ [لقمان:١٦]، ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ﴾ [لقمان:١٧].

ومن هذه الأغراض: طول في الكلام، كما في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ

﴿١١٩﴾ [النحل:١١٩]، وفي قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٠﴾ [النحل:١١٠].

ومن هذه الأغراض: تعدد المتعلق، كما كرره الله عَزَّوَجَلَّ من قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ [الرحمن:١٣]؛ لأنه جَلَّ وَعَلَا ذكر نعمة عقيب نعمة غير الغرض من ذكره عقيب نعمة أخرى.

ونحوه قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ [المرسلات:١٥]؛ لأنه جَلَّ وَعَلَا ذكر قصصًا مختلفة، وأتبع كل قصة بهذا القول، فصار كأنه عقب كل قصة: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ بهذه القصة.. إلى غير ذلك [١].

وقد عدَّ النورسيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ التكرار في أسلوب القرآن الذي حسبه الجاهلون مطعنًا فيه وجهًا آخر من وجوه إعجازه، وبين حكم التكرار، وذكر منها:

١- أن القرآن الكريم كتاب ذكر ودعاء ودعوة، فالذِّكر يكرَّر، والدُّعاء يردد، والدعوة تؤكد.

٢- ومن جهة أخرى فإنه لا يمكن لكل أحد في كل وقت قراءة تمام القرآن الذي هو دواء وشفاء لكل أحد في كل وقت؛ فلهذا أدرج الحكيم الرحيم أكثر المقاصد القرآنية في أكثر سوره، ولا سيما الطويلة منها، حتى صارت كل سورة قرآنًا صغيرًا، فسهَّل السبيل لكل أحد، دون أن يحرم أحدًا، فكرَّر التوحيد والحشر، وقصة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ" [٢].

---

(١) انظر: الإيضاح في علوم البلاغة (٣/٢٠٠)، عروس الأفراح (١/٦٠٨)، مختصر المعاني (ص:١٧٧)، الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم (٢/٨٧-٨٨)، مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح (١/٦٥٩)، حاشية الدسوقي على مختصر المعاني (٢/٦٩٦).

(٢) بديع الزمان سعيد النورسي، المكتوبات (٢/٢٦٧-٢٦٨)، المؤتمر العالمي لبديع الزمان النورسي (ص:٢٧٣)، [Y .BOSNA/ISTANBUL. BASIM-YAYIN-sanayi cad. Bilge Sok].

٣- تكراره يناسب حاجات الإنسان المعنوية. فتكرار المعاني دون الألفاظ يجيء في القرآن إذن؛ للدلالة على تكرّر الاحتياج؛ وللإشارة إلى شدَّة الاحتياج إليها؛ ولتنبيه عرق الاحتياج وإيقاظه؛ وللتشويق على الاحتياج؛ ولتحريك اشتهاء الاحتياج إلى تلك الأغذية المعنوية.

٤- إن القرآن مؤسس لهذا الدين، ولا بدَّ للمؤسس من التكرير؛ للتثبيت، ومن الترديد؛ للتكرير للتأكيد، ومن التكرير للتقرير والتأييد.

٥- بحثه في المسائل العظيمة والحقائق الدقيقة يتطلب تكرارها؛ لتتقرر في القلوب، وتثبت في أفكار العامة.

ويخلص النورسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أنه لا تكرار حقيقي في القرآن الكريم، فلكل آية حد ومطلع، ولكل قصة وجوه وأحكام وفوائد ومقاصد، فتذكر في موضع لوجه، وفي آخر لآخر.

يقول الجاحظ مبيّنًا الفائدة منه: "إن الناس لو استغنوا عن التكرير، وكفوا مؤونة البحث والتنقير، لقلَّ اعتبارهم، ومن قلَّ اعتباره قلَّ علمه، ومن قلَّ علمه قلَّ فضله، ومن قلَّ فضله كثُر نقصه، ومن قلَّ علمه وفضله وكثُر نقصه لم يُحمد على خير أتاه، ولم يُذمَّ على شرٍّ جناه، ولم يجد طعم العزِّ، ولا سرور الظفر، ولا روح الرجاء، ولا برد اليقين ولا راحة الأمن.." [(١)].

قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فإن قلت: ما فائدة تكرير قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾ [القمر:٣٩-٤٠]؟

(١) رسائل الجاحظ (٣/١٨١).

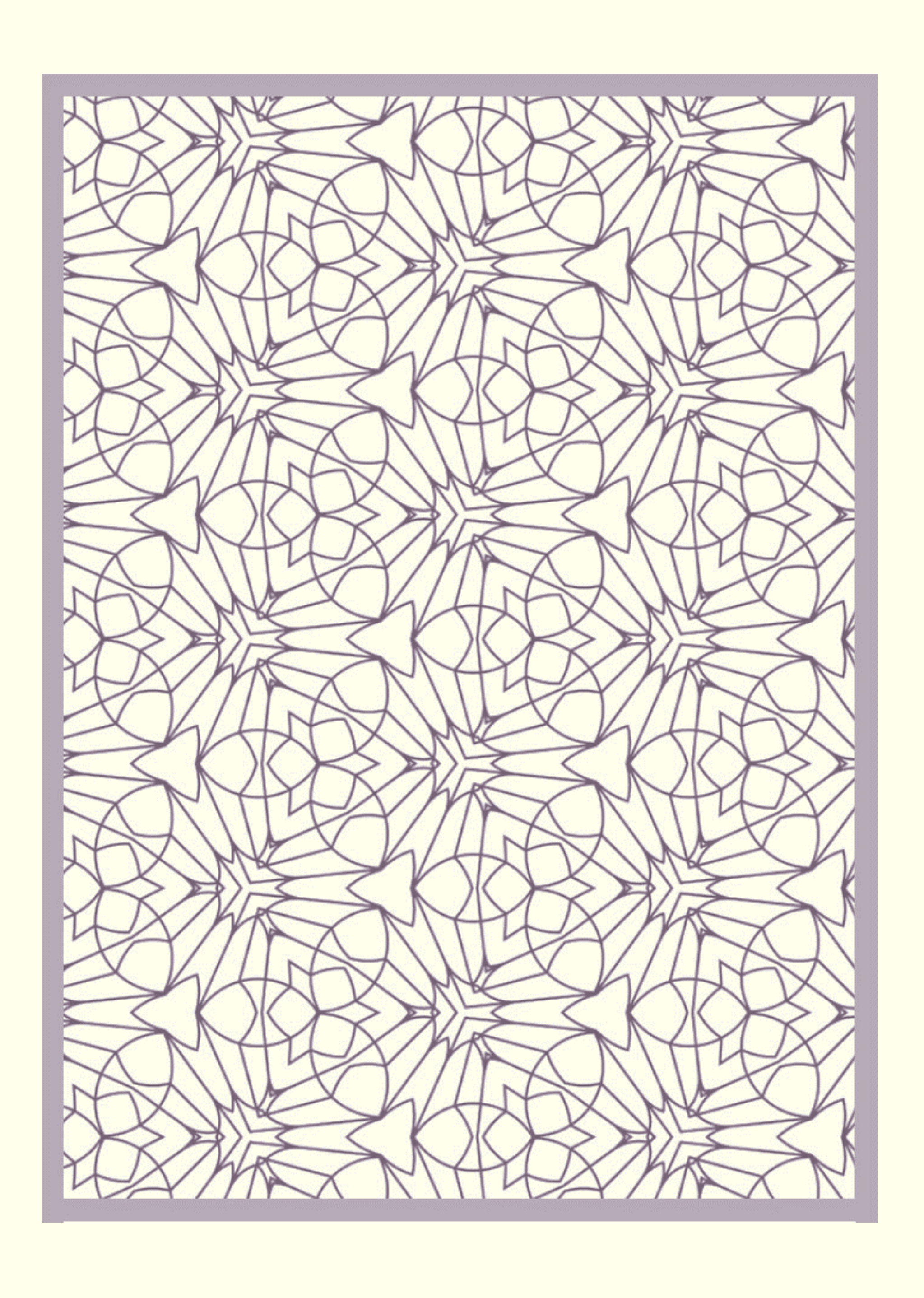
قلت: فائدته: أن يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين ادكارًا واتعاظًا، وأن يستأنفوا تنبهًا واستيقاظًا، إذا سمعوا الحث على ذلك والبعث عليه، وأن يقرع لهم العصا مرات، ويقعقع لهم الشن تارات[1]؛ لئلّا يغلبهم السهو، ولا تستولي عليهم الغفلة، وهكذا حكم التكرير، كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ⑬﴾ [الرحمن:١٣] عند كل نعمة عدها في (سورة الرحمن)، وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ⑮﴾ [المرسلات:١٥] عند كل آية أوردها في (سورة والمرسلات)، وكذلك تكرير الأنباء والقصص في أنفسها؛ لتكون تلك العبر حاضرة القلوب، مصورة للأذهان، مذكورة غير منسية في كل أوان" [2].

وقد أضفت زيادة على ما جاء هنا فوائد في مقاصد قصص القرآن في الجزء الثاني في كتاب: (تذكرة وبيان في علوم القرآن).



(١) الشَّنُّ والشَّنَّة: الْقِرْبَةُ الْخَلَقُ، وكأنها صغيرة، وجمع الشَّنِّ: (شِنَانٌ). وفي المثل: (لا يُقَعْقَعُ لي بالشِّنَان). انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (شنن) (٥/٢١٤٥-٢١٤٦). والمثل المذكور يضرب للرجل الشرس الصعب، أي: لا يهدد ولا يفزع. والقعقعة: تحريك الشيء يسمع له صوت، والشنان: جمع شن، وهي القربة البالية. قال الصفدي: الشَّنُّ: القِربة الخَلَق اليابسة، وكل وعاء أَخْلَقَ من أدَمٍ وجف فهو شَنٌّ، ولا تقل: شِنٌّ، بالكسر. وأصل المثل: أنهم كانوا إذا أرادوا حث الإبل على السير حركوا قربة بالية يسمع لها صوت فتفزع الإبل وتسرع. انظر: الكامل، للمبرد (١/٣٠٢)، المستقصى في أمثال العرب، للزمخشري (٢/٢٧٤)، تصحيح التصحيف، للصفدي (ص:٣٤٢)، الأمثال، للهاشمي (ص:٢٨١)، الزاهر في معاني كلمات الناس (٢/٣٩٦).

(٢) الكشاف (٤/٤٣٩).



المبحث السادس:

الأزمنة الفاضلة

لقد اختص الله عَزَّوَجَلَّ بعض الأزمنة وشرفها بمزايا وفضائل دائمة مستمرة غير منقطعة، وخصَّها بقرب تؤدى فيها، وضاعف لعباده الأجر فيها، وحثهم على التعبد له فيها، كشهر رمضان، والعشر الأواخر منه، وليلة القدر، والعشر الأُول من ذي الحجة، ويوم النحر، ويوم عرفة، وأيام التشريق، ويوم الجمعة، والأشهر الحرم –ولا سيما شهر الله المحرم–، ويوم عاشوراء، وشهر شعبان. ووقت الأسحار، والثلث الأخير من الليل، والأيام البيض، وفي وقت الصلاة والصيام.

ومن الأوقات التي يُرجى فيها قبولُ الدعاء، وهي من الأزمنة الفاضلة: ما بين الأذان والإقامة، والدعاء عند النداء للصلاة، وفي جوف الليل الآخر، ودُبر الصلوات المكتوبات، وفي رمضان عند فطر الصائم، والساعة التي في يوم الجمعة، والدعاء في الصلاة والسجود، وفي الصيام، والسفر، ودعاء الغازي في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، والحاج والمعتمر، وفي يوم عرفة.

وقد فاضَل الحقُّ عَزَّوَجَلَّ بين الأزمنة كما فاضَلَ بين الأمكنة، وكما فاضَلَ بين الخلائق. فمن الأزمنة الفاضلة من أيام الأسبوع: يوم الجمعة، ومن أيام السنة: يوم عرفة، ومن ليالي السنة: ليلة القدر، ومن شهور السنة: شهر رمضان.

وقد نصَّ العلماء على أن الأعمال الصالحة يتضاعف ثوابها؛ لشرف الزمان، أو شرف المكان، أو بهما معًا، وكذا المعصية يتضاعف وزرها في الأماكن المفضلة، كمكة -شرفها الله عَزَّوَجَلَّ-، وفي الأزمنة المفضلة، كرمضان وغيره.

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إنَّ الله جَلَّوَعَلَا إذا أحبَّ عبدًا استعمله في الأوقات الفاضلة بفواضل الأعمال، وإذا مقته استعمله في الأوقات الفاضلة بسيء الأعمال؛ ليكون ذلك أوجع في عقابه، وأشد لمقته؛ لحرمانه بركة الوقت، وانتهاكه حرمة الوقت"(١).

وقال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "العمل المفضول في الوقت الفاضل يلتحق بالعمل الفاضل في غيره ويزيد عليه لمضاعفة ثوابه وأجره" (٢).

وقال ابن مفلح رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الآداب الشرعية): "زيادة الوزر كزيادة الأجر في الأزمنة والأمكنة المعظمة" (٣). قال الشيخ تقي الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "المعاصي في الأيام المعظمة والأمكنة المعظمة تغلظ معصيتها وعقابها بقدر فضيلة الزمان والمكان" (٤).

ولذلك قال بعض الفقهاء في الإعلان عن النكاح -مثلًا-: يراعى فيه المكان والزمان الفاضل.

قال ابن الهمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يستحب مباشرة عقد النكاح في المسجد؛ لكونه عبادة وكونه في يوم الجمعة" (٥).

---

(١) إحياء علوم الدين (١/١٨٨).

(٢) لطائف المعارف (ص:٢٦١).

(٣) الآداب الشرعية (٣/٤٣٠).

(٤) الفتاوى الكبرى، لابن تيمية (٣/٤١٢).

(٥) انظر: مرقاة المفاتيح (٥/٢٠٧٢)، تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، للزيلعي (٢/٩٥)، البحر الرائق شرح كنز الدقائق، لابن نجيم المصري (٣/٨٦).

وقد ذهب الحنفية والشافعية والحنابلة إلى أنه يندب عقد النكاح يوم الجمعة. قال ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ويستحب عقد النكاح يوم الجمعة؛ لأن جماعة من السلف استحبوا ذلك؛ منهم ضمرة بن حبيب، وراشد بن سعد، وحبيب بن عتبة رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ؛ ولأنه يوم شريف، ويوم عيد، فيه خلق الله عَزَّوَجَلَّ آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ" (١). والبركة في النكاح مطلوبة، فاستحب له أشرف الأيام طلبًا للبركة" (٢) -والله أعلم-.

فالمسلم إنما يحب الأزمنة الفاضلة؛ لأنها مواسم للخير، يسارع الموفقون من عباد الله عَزَّوَجَلَّ إلى اغتنام لحظاتها ودقائقها، ويتعرضون لنفحات الله عَزَّوَجَلَّ، ويتلذذون بالطاعات والمناجاة والقرب من الله عَزَّوَجَلَّ. فلا شكَّ أنهم يحبون تلك المواسم، وينتظرونها، ويعدون العدة لها كحال تجار الدنيا الذين ينتظرون المواسم؛ لعظيم الرواج فيها، فإذا جاءت تلك المواسم شمَّروا عن ساعد الجد، وقد تحملهم شدة الحرص على التضحية براحتهم، ويتعرضون للمخاوف والأخطار غير مبالين بما ينالهم من شدة وعناء، بل يستسهلون في سبيل الربح جميع الصعاب..هذا حال تجار الدنيا الذين يطلبون ربحًا غير مضمون، فقد يكون وقد لا يكون، فكيف إذا كان موسم التجارة موسمًا لا خسارة فيه ولا غش ولا كساد؟ بل هي تجارة مأمونة رائجة رابحة لن تبور..هل سمعتم أن المشتري يعطي التاجر أكثر من الثمن؟ لكن الله جَلَّوَعَلَا الغني الكريم يأخذ عمل العبد، ويعطيه على الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والله عَزَّوَجَلَّ يضاعف لمن يشاء، فكما أن للدنيا تجارًا منهمكين

---

(١) انظر: المغني، لابن قدامة (٨٤/٧)، الشرح الكبير على متن المقنع (٣٦٧/٧)، الإقناع في فقه الإمام أحمد بن حنبل (١٦٢/٣)، المحرر في الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل (١٤/٢). والحديث في (صحيح مسلم) [٨٥٤]، ونصه: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة».

(٢) دقائق أولي النهى، لمنصور البهوتي (٦٣٠/٢)، كشاف القناع (٢٠/٥)، كشف المخدرات (٥٨١/٢)، مطالب أولي النهى (٢٦/٥).

في تجارتها كذلك فإن للآخرة تجارًا صادقين، أوفياء مخلصين. ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾ [النور:٣٧-٣٨].

وقد قالوا: ويل لمن غلبت آحاده عشراته؛ لأن الحسنة بعشر أمثالها وأزيد، والسيئة واحدة.

ويكون حال الصالحين بعد تلك المواسم أفضل من حالهم قبلها؛ وذلك لما تتركه من الأثر في نفوسهم، فهي بمثابة دورة تدريبية فعالة، تحمل الإنسان على ترك الماديات والشهوات، وترتقي به إلى أفق أسمى من المحبة والقرب من المحبوب..وإن كان لتلك المواسم تميزها عن سائر الأيام الأخرى من حيث الاجتهاد في اغتنام أوقاتها، والتشوق لقدومها. وفي الحديث: «**كان رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **أجود بالخير من الريح المرسلة**» (١).

وقد نبَّه النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الغافلينَ عن اغتنام الأزمنة الفاضلة، فحثَّهم على اغتنامها فقال عن (شهر شعبان) -مثلًا-: «**ذاك شهر يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان، وهو شهر ترفع فيه الأعمال إلى ربِّ العالمين**» (٢).

---

(١) صحيح البخاري [٦، ١٩٠٢، ٣٢٢٠، ٣٥٥٤، ٤٩٩٧]، مسلم [٢٣٠٨].

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [٩٧٦٥]، وأحمد [٢١٧٥٣]، والبزار [٢٦١٧]، والنسائي [٢٣٥٧]، وأبو نعيم في (الحلية) (٩/١٨)، والضياء [١٣١٩] وقال: "إسناده حسن". قال الحافظ فى (الفتح) (٤/٢١٥): "صححه بن خزيمة عن أسامة بن زيد".

وقال عن العشر الأول من ذي الحجة: «**ما العمل في أيام أفضل منها في هذه؟**»، قالوا: ولا الجهاد؟ قال: «**ولا الجهاد، إلا رجل خرج يخاطر بنفسه وماله، فلم يرجع بشيء**» (١).

وعند الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بلفظ: «**ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام العشر**»، فقالوا: يا رسول الله، ولا الجهاد في سبيل الله؟ فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء**» (٢).

ومن أيام العشر: يوم النحر، هذا اليوم العظيم من أيام الله جَلَّ وَعَلَا، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن أعظم الأيام عند الله** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ **يوم النحر، ثم يوم القَرِّ**» (٣). و(يوم القر): هو اليوم الذي يلي يوم النحر، سمي بذلك؛ لأن الناس يقرون فيه بمنى، وقد فرغوا من طواف الإفاضة والنحر فاستراحوا، وقروا.

ومن الأيام الفاضلة: يوما الاثنين والخميس، جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين، ويوم الخميس، فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئًا، إلا رجلًا كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: أنظروا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا**»(٤).

---

(١) صحيح البخاري [٩٦٩].

(٢) سنن الترمذي [٧٥٧]، وقال: "حسن صحيح غريب".

(٣) أخرجه أحمد [١٩٠٧٥]، وأبو داود [١٧٦٥]، وابن أبي عاصم [٢٤٠٧]، والنسائي في (الكبرى [٤٠٨٣]، وابن خزيمة [٢٨٦٦]، وابن حبان [٢٨١١]، والحاكم [٢٨٦٦]، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي.

(٤) صحيح مسلم [٢٥٦٥].

وفي رواية: «**تعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس، فأحب أن يعرض عملي وأنا صائم**» (١).

والشهور عند الله عَزَّوَجَلَّ اثنا عشر شهرًا اختص منها أربعةً؛ فجعلهن حرمًا، وعظم حرماتهن، وجعل الذنب فيهن أعظم، والعمل الصالح والأجر أكرم. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ﴾ [التوبة:٣٦]، وقد بين رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ هذه الأشهر، ففي (الصحيحين): عن أبي بكرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ خطب في حجة الوداع، فقال في خطبته: «**إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرًا، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب شهر مضر الذي بين جمادى وشعبان**» (٢).

وقد ختم الله عَزَّوَجَلَّ الآية السابقة بقوله: ﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ﴾، فالظلم محرَّم في كل وقت، ولكنه في الأشهر الحرم أعظم من الظلم فيما سواها، وتعظيم ما عظم الله عَزَّوَجَلَّ من صفات المؤمنين السالكين طريق النجاة.

---

(١) أخرجه الترمذي [٧٤٧]، وقال: "حديث: أبي هريرة في هذا الباب حديث حسن غريب". قال ابن الملقن: "هذا الحديث صحيح" البدر المنير (٥/٧٥٥). قال الحافظ ابن حجر في (التلخيص الحبير) (٢/٤٦٧): "حديث: «تعرض الأعمال على الله يوم الاثنين والخميس فأحب أن يعرض عملي وأنا صائم» الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة. وأبو داود والنسائي من حديث أسامة بن زيد. قال قلت: يا رسول الله إنك تصوم حتى تكاد لا تفطر، وتفطر حتى تكاد لا تصوم إلا يومين إن دخلا في صيامك وإلا صمتهما، قال: أي يومين؟ قلت: يوم الاثنين والخميس، قال: «ذانك يومان تعرض الأعمال فيهما على رب العالمين فأحب أن يعرض عملي وأنا صائم» ورواية النسائي أتم، ورواه أحمد به وأتم منه" اهـ.

(٢) صحيح البخاري [٣١٩٧، ٤٤٠٦، ٤٦٦٢، ٥٥٥٠، ٧٤٤٧]، مسلم [١٦٧٩].

وفي المقابل فإن اجتراح السيئات، ومقارفة الآثام من ظلم النفس، وهو في الشهر الحرام أشد سوءًا، وأعظم شؤمًا، وأفدح ظلمًا؛ لأنه يجمع بين الذنب وبين امتهان حرمة ما حرم الله جَلَّوَعَلَا وعظمه؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۚ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة:٢١٧]، وهذا فيمن ابتدأ القتال، أما من اعتدي عليه، فإنه يدافع عن نفسه؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ١٩١﴾ [البقرة:١٩١]، كما أن أجر العمل الصالح في الشهر الحرام أعظم.

لقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ فاتحة العام شهرًا مباركًا نجى فيه موسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ وقومه من فرعون وقومه، فشرع فيه الطاعة والعبادة والصوم، فعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أفضل الصيام، بعد رمضان، شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة، بعد الفريضة، صلاة الليل**» (١).

ومن عظيم فضل الله عَزَّوَجَلَّ أن جعل آخر شهر في العام شهر عبادة وطاعة، وأول شهر في العام شهر عبادة وطاعة؛ ليفتتح المرء عامه بإقبال ويختتمه بإقبال.

قال ابن رجب رَحِمَهُٱللَّهُ: "فمن صام شهر ذي الحجة سوى الأيام المحرم صيامها منه وصام المحرم فقد ختم السنة بالطاعة وافتتحها بالطاعة، فيرجى أن تكتب له سنته كلها طاعة؛ فإن من كان أول عمله طاعة وآخره طاعة فهو في حكم من استغرق بالطاعة ما بين العملين" (٢).

وقد سمى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هذا الشهر: شهر الله المحرم، فاختصه بإضافته إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وإضافته إلى الله عَزَّوَجَلَّ تدل على شرفه وفضله، ولما كان هذا الشهر مختصاً بإضافته

---

(١) صحيح مسلم [١١٦٣].

(٢) لطائف المعارف (ص:٣٥).

إلى الله وكان الصيام من بين الأعمال مختصًا بإضافته إلى الله عَزَّوَجَلَّ [(١)] ناسب أن يختص هذا الشهر المضاف إلى الله عَزَّوَجَلَّ بالعمل المضاف إليه المختص به، وهو الصيام.

وقد قيل في معنى إضافة هذا الشهر إلى الله عَزَّوَجَلَّ: إنه إشارة إلى أن تحريمه إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ليس لأحد تبديله كما كانت الجاهلية يحلونه، ويحرمون مكانه صفرًا. فقد تلاعب أهل الجاهلية بالأشهر الحرم زيادةً ونقصانًا، تقديمًا وتأخيرًا، وهو الذي سماه الله عَزَّوَجَلَّ: النسيء، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٧﴾ [التوبة:٣٧].

ومن فضائل شهر الله المحرم: أنه يستحب الإكثار فيه من صيام النافلة؛ ففي الحديث عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**أفضل الصيام، بعد رمضان، شهر الله المحرم**» [(٢)].

ويتأكد صيام يوم عاشوراء وهو العاشر من محرمٍ؛ لأنه يومٌ معظمٌ، فقد حث النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ على صيامه؛ لنيل ثوابه واغتنامه، فعن أبي قتادة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ سئل عن صيام يوم عاشوراء فقال: «**أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله**» [(٣)].

ويسن صيام التاسع معه؛ فعن عبد الله بن عباسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**لئن بقيت إلى قابلٍ لأصومن التاسع**» [(٤)].

---

(١) جاء في الحديث: «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم، فإنه لي وأنا أجزي به..» صحيح البخاري [١٩٠٤، ٥٩٢٧]، مسلم [١١٥١].

(٢) صحيح مسلم [١١٦٣]، وقد تقدم.

(٣) صحيح مسلم [١١٦٢].

(٤) صحيح مسلم [١١٣٤].

وقد قيل: إن سبب صوم تاسوعاء مع عاشوراء: هو مخالفة اليهود في اقتصارهم على صوم العاشر. قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قال بعض العلماء: ولعل السبب في صوم التاسع مع العاشر: أن لا يتشبه باليهود في إفراد العاشر. وفي الحديث إشارةٌ إلى هذا. وقيل: للاحتياط في تحصيل عاشوراء، والأول أولى -والله أعلم-"(١).

ولم يكن صوم يوم عاشوراء بدعًا من الأعمال، ولا افتراءً من الأقوال، بل صامه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحثَّ أمته على صيامه، وصامه موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وقومه من قبل، وكانت العرب تصومه في الجاهلية، فله منزلةٌ عظيمةٌ وحرمةٌ قديمةٌ، فعن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: كانت قريشٌ تصوم عاشوراء في الجاهلية، وكان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصومه، فلما هاجر إلى المدينة، صامه وأمر بصيامه، فلما فرض شهر رمضان قال: «**من شاء صامه، ومن شاء تركه**» (٢).

والحكمة من صيامه: أنه اليوم الذي نجى الله عَزَّ وَجَلَّ فيه موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وقومه من فرعون وجنوده، فصامه موسى شكرًا لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ روى ابن عباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قدم المدينة فوجد اليهود صيامًا يوم عاشوراء فقال لهم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما هذا اليوم الذي تصومونه؟ فقالوا: هذا يومٌ عظيمٌ أنجى الله فيه موسى وقومه، وغرق فرعون وقومه, فصامه موسى شكرًا فنحن نصومه. فقال رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **فنحن أحق وأولى بموسى منكم فصامه رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **وأمر بصيامه**» (٣).

وصيام عاشوراء على مراتب:

أدناها: أن يصام وحده.

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١٣/٨).

(٢) أخرجه البخاري [٢٠٠٢]، مسلم [١١٢٥].

(٣) أخرجه البخاري [٢٠٠٤]، مسلم [١١٣٠].

وفوقها: أن يصام التاسع معه.

وكلما كثر الصيام في محرم كان أفضل وأطيب.

إذا وافق عاشوراء يوم جمعة جاز إفراده بالصوم.

وصيام عاشوراء مرَّ بمراحل:

الأولى: كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصومه بمكة ولا يأمر بصيامه.

الثانية: جاء المدينة فرأى اليهود يصومونه فسألهم عنه، وقال: «**نحن أحق منكم بموسى**» فصامه وأمر بصيامه.

الثالثة: لما فرض صيام رمضان ترك الأمر بصيام عاشوراء.

الرابعة: عزم أن لا يصومه مفردًا؛ مخالفة لليهود.

ولعل الأقرب إلى الحكمة والصَّواب أن يقال: إن المخالفة ليست مقصودة لذاتها، وإنما المراد أن هذه الأمة لما كانت موصوفة بالخيرية كان الشكر فيها فوق الشكر في الأمم السابقة، فإن من اليهود من كان يصوم يومًا؛ شكرًا لله عَزَّ وَجَلَّ على نعمة الإنجاء، ثم تركوا، فنحن نصوم يومين، ولا نترك الشكر، فدلَّ ذلك على أن صيام التاسع مندوب وإن تركه الآخرون من الأمم السابقة؛ إذ المخالفة ليست مقصودة لذاتها، وإنما المراد الزيادة في الشكر؛ لخيرية هذه الأمة.

ومن أفرد عاشوراء بالصيام فقد حصل الأجر كاملًا من تكفير السنة الماضية، ومن زاد فهو من زيادة العمل الذي يترتب عليه زيادة الأجر والثواب.

فقد جاء في (صحيح مسلم): عن أبي قتادة الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سئل عن صومه؟ قال: فغضب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: رضينا بالله ربًّا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولًا، وببيعتنا بيعة. قال: فسئل عن صيام الدهر؟ فقال: «**لا صام ولا أفطر -أو ما صام وما أفطر-**»، قال: فسئل عن صوم يومين وإفطار يوم؟ قال: «**ومن يطيق ذلك؟**» قال: وسئل عن صوم يوم، وإفطار يومين؟

قال: «**ليت أن الله قوانا لذلك**»، قال: وسئل عن صوم يوم، وإفطار يوم؟ قال: «**ذاك صوم أخي داود** عَلَيْهِ السَّلَامُ»، قال: وسئل عن صوم يوم الاثنين؟ قال: «**ذاك يوم ولدت فيه، ويوم بعثت –أو أنزل علي فيه–**»، قال: فقال: «**صوم ثلاثة من كل شهر، ورمضان إلى رمضان، صوم الدهر**»، قال: وسئل عن صوم يوم عرفة؟ فقال: «**يكفر السنة الماضية والباقية**»، قال: وسئل عن صوم يوم عاشوراء؟ فقال: «**يكفر السنة الماضية**» (١)، كما ورد في روايات أنه يعدل صيام سنة.

والحاصل أن الأزمنة يفضل بعضها على بعض. فيرى ابن تيمية وابن القيم رَحِمَهُمَا اللَّهُ: أن الليالي العشر الأخيرة من رمضان –مثلًا– هي أفضل ليالي العام كله؛ لما خصت به من المزايا والفضائل العظيمة، ففيها ليلة القدر. قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: "أيام عشر ذي الحجة أفضل من أيام العشر من رمضان والليالي العشر الأواخر من رمضان أفضل من ليالي عشر ذي الحجة. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: وإذا تأمل الفاضل اللبيب هذا الجواب. وجده شافيًا كافيًا؛ فإنه ليس من أيام العمل فيها أحب إلى الله من أيام عشر ذي الحجة، وفيها: يوم عرفة ويوم النحر ويوم التروية. وأما ليالي عشر رمضان فهي ليالي الإحياء التي كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحييها كلها، وفيها ليلة خير من ألف شهر. فمن أجاب بغير هذا التفصيل لم يمكنه أن يدلي بحجة صحيحة" (٢).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: "الليالي العشر الأخير من رمضان أفضل من ليالي عشر ذي الحجة، وأيام عشر ذي الحجة أفضل من أيام عشر رمضان، وبهذا التفصيل يزول الاشتباه،

---

(١) صحيح مسلم [١١٦٢].

(٢) مجموع الفتاوى (٢٥/٢٨٧)، بدائع الفوائد (٣/١٦٢).

ويدل عليه أن ليالي العشر من رمضان إنما فضلت باعتبار ليلة القدر، وهي من الليالي، وعشر ذي الحجة إنما فضل باعتبار أيامه؛ إذ فيه يوم النحر ويوم عرفة ويوم التروية" (١).

وفي المقابل يرى آخرون أن ليالي العشر الأول من ذي الحجة أفضل؛ لعموم النصوص التي فضلت العشر الأول من ذي الحجة، وأن تفضيلها ليس قاصرًا على النهار، بل لياليها مثل نهارها في الفضل، وإنما تستثنى من ذلك: ليلة القدر. قال العلامة المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفيه فضل بعض الأزمنة على بعض" (٢).

ومحبة الأزمنة؛ لكونها وسيلة للقرب من الله عَزَّوَجَلَّ، ومحبته للعبد، بسبب مضاعفة الأجر فيها. قال العلامة محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معرض حديثه عن (ليلة القدر): "وتفضيلها بالخير على ألف شهر إنما هو بتضعيف فضل ما يحصل فيها من الأعمال الصالحة، واستجابة الدعاء، ووفرة ثواب الصدقات، والبركة للأمة فيها؛ لأن تفاضل الأيام لا يكون بمقادير أزمنتها، ولا بما يحدث فيها من حر أو برد، أو مطر، ولا بطولها أو بقصرها؛ فإن تلك الأحوال غير معتد بها عند الله جَلَّوَعَلَا، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ يعبأ بما يحصل من الصلاح للناس أفرادًا وجماعات، وما يعين على الحق والخير ونشر الدين. وقد قال في فضل الناس: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]، فكذلك فضل الأزمان إنما يقاس بما يحصل فيها؛ لأنها ظروف للأعمال، وليست لها صفات ذاتية يمكن أن تتفاضل بها كتفاضل الناس ففضلها بما أعده الله لها من التفضيل" (٣).

---

(١) زاد المعاد (١/٥٧).

(٢) فيض القدير (٢/٥١).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/٤٥٩).

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الأيام العشر من ذي الحجة: "والذي يظهر أنَّ السبب في امتياز عشر ذي الحجة؛ لمكان اجتماع أمهات العبادة فيه، وهي الصلاة والصيام والصدقة والحج، ولا يتأتى ذلك في غيره" [(١)].

"فينبغي أن تُخصَّص الأيامُ والأوقات التي فضَّلَها الله عَزَّوَجَلَّ بمزيد من الاهتمام والاجتهاد. ولكن مع الأسف فإنَّ الكثيرين تمرُّ عليهم أعمارُهم، وتمرُّ عليه الأيامُ الفاضلة، والأوقاتُ الشريفة، ولا يستفيدونَ منها، وتذهبُ عليهم سدىً، وقد لا يكفي أنهم لا يستفيدونَ منها، بل يستغلونها في الحرام والمعاصي والسيئات، خصوصًا في هذا الزمان الذي فشتْ فيه الشواغلُ والملهياتُ، فالمسلمُ يتنبه لنفسه، ويتنبه لأوقات الفضائل، والغافل يقول: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٥٦]، ويواجه ما ذكره الله عَزَّوَجَلَّ عن أصحابِ النار، إذا القوا فيها، قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر:٣٧]، فيقول الله عَزَّوَجَلَّ لهم: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر:٣٧]، فمن ضيَّع وقته وحياته فهذا مصيره.

ومن الأزمنة الفاضلة التي يحبها المسلم: قرن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ لحديث: «**بعثت من خير قرون بني آدم، قرنًا فقرنًا، حتى كنت من القرن الذي كنت فيه**» [(٢)]. و«**القرون**» جمع: قرن وهو الطبقة من الناس المجتمعين في عصر واحد. وقيل: هو مائة سنة، وقيل غير ذلك. و«**قرنًا فقرنًا**» أي: نقيت من القرون، وأفضلها حال كونها قرنًا بعد قرن.

---

(١) فتح الباري (٢/٤٦٠).

(٢) صحيح البخاري [٣٥٥٧].

وفي الحديث: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**» [(١)]، وقد اتفق العلماء على أن خير القرون قرن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واختلفوا في المراد بالقرن، والصحيح أن المراد من قرنه: أصحابه ، والثاني: التابعون، والثالث: تابعوهم.

وقد ذكرت ما جاء في فضائل الأوقات في كتاب: (الإرشاد إلى أسباب النجاة)، ومن ذلك: ما جاء في فضائل شهر رمضان والعشر الأخير منه، وليلة القدر.

وقد خصَّ الشارع بعض أوقات الاستغفار بمزيد فضل -كما جاء ذلك مبينًا في الجزء الثاني من كتاب: (الإرشاد إلى أسباب النجاة)-، ومن ذلك: الاستغفار عند وقوع الذنب، والاستغفار عقب الصلوات وفيها، وعقب سائر العبادات، وعقب الصلاة على الخصوص، وفي الصلاة، فيدخل في هذا: كل دعاء في الصلاة فيه سؤال الغفران، كالدعاء في الركوع والسجود، والقنوت، وعند الأذان، وبينه وبين الإقامة، وقيل: في افتتاح الصلاة، وقيل: في الجلوس بين السجدتين، ويندب بعد التشهد الأخير، وفي وقت الإفطار من الصيام، وعند دخول المسجد، والخروج منه، وعند النوم، وإذا مضى شطر الليل، وفي وقت الأسحار، وعقب كل عبادة، ويسن للعاطس أن يدعو بالمغفرة لمن شمته، ويندب الاستغفار بعد قضاء الحاجة، وعند الخروج من الخلاء، كما يندب الإكثار منه في الاستسقاء. وعند اقتراب الأجل، كما هو مفصل في مظانه. فهذه أوقات مخصوصة يتأكد فيها الاستغفار، ويعظم فيها الأجر، مع مشروعيته في كل وقت، والاستغفار بعد الفراغ من الوضوء، والاستغفار في الحجِّ وعقب إكمال أعماله، وفي ختم المجالس، وفي ختام العمر وفي حالة الكبر والشيخوخة، إلى غير ذلك مما بينته مفصلًا في (الإرشاد).

---

(١) صحيح البخاري [٢٦٥١، ٢٦٥٢، ٣٦٥٠، ٣٦٥١، ٦٤٢٨، ٦٤٢٩، ٦٦٥٨، ٦٦٩٥]، مسلم [٢٥٣٣، ٢٥٣٤، ٢٥٣٥].

المبحث السابع:

دلالات بعض ألفاظ الزمان
الأهمية والاعتبارات

أولًا: أهمية العلم بدلالات ألفاظ الزمن:

وفي هذا المبحث دراسة لبعض ألفاظ الزمن الأكثر تداولًا في الكتاب والسنة، مع بيان ما يقترن ذكره بها غالبًا مما يقابلها من ألفاظ الزمن، وبيان أكثر ما يحتاجه الباحث في اللغة، والمفسر والفقيه منها.

ثانيًا: الاعتبارات في النظر إلى ألفاظ الزمن:

١ - الاعتبارات المتعلقة بالعبادات والمعاملات:

أ. باعتبار أوقات الصلوات.

ب. باعتبار الصيام.

ج. باعتبار أداء الزكاة.

د. باعتبار أداء فريضة الحج.

هـ. باعتبار أداء العمرة.

و. باعتبار الوفاء بالنذر.

ز. باعتبار الوفاء بالوعد.

ح. باعتبار اختصاص شهور وأيام بمزايا وخصائص وعبادات.

٢ - النظر إلى الزمن من حيث كونه محدودًا أو غير محدود.

٣ - النظر إلى الزمن من حيث كونه قصيرًا أو طويلًا، ومن حيث التعجل وسرعة الانقضاء، أو البطء والتمهل.

٤ - النظر إلى الزمن باعبتار الأزمنة الثلاث: (الماضي، والحاضر، والمستقبل).

٥ - النظر إلى دلالة الأفعال الناقصة على الزمان.

٦ - النظر إلى الألفاظ الدالة على الزمن.

٧ - النظر إلى الزمن باعتبار أجزاء النهار.

٨ - النظر إلى الزمن باعتبار أجزاء الليل.

٩ - النظر إلى الزمن باعتبار أجزاء الأسبوع.

١٠ - النظر إلى الزمن باعتبار الشهور وأجزائها واختصاص كل شهر منها بأعمال ومزايا، أو اختصاص أيام منها.

١١ - النظر إلى الزمن باعتبار أجزاء السنة.

١٢ - النظر إلى الزمن باعتبار الفصول الأربعة.

١٣ - النظر إلى أسماء الزمن من حيث اختصاصها أو عمومها، ومن ذلك: اختصاص بعض ألفاظه بالمرأة -مثلًا-.

١٤ - النظر إلى الزمن كون متجددًا أو غير متجدد.

١٥ - النظر إلى الزمن من حيث كونه مبهمًا أو غير مبهم.

١٦ - النظر في أسماء الزمن الظرفية الشرطية.

١٧ - النظر في أسماء الزمن الظرفية الاستفهامية.

١٨ - النظر إلى ظرف الزمان باعتبار الإضافة.

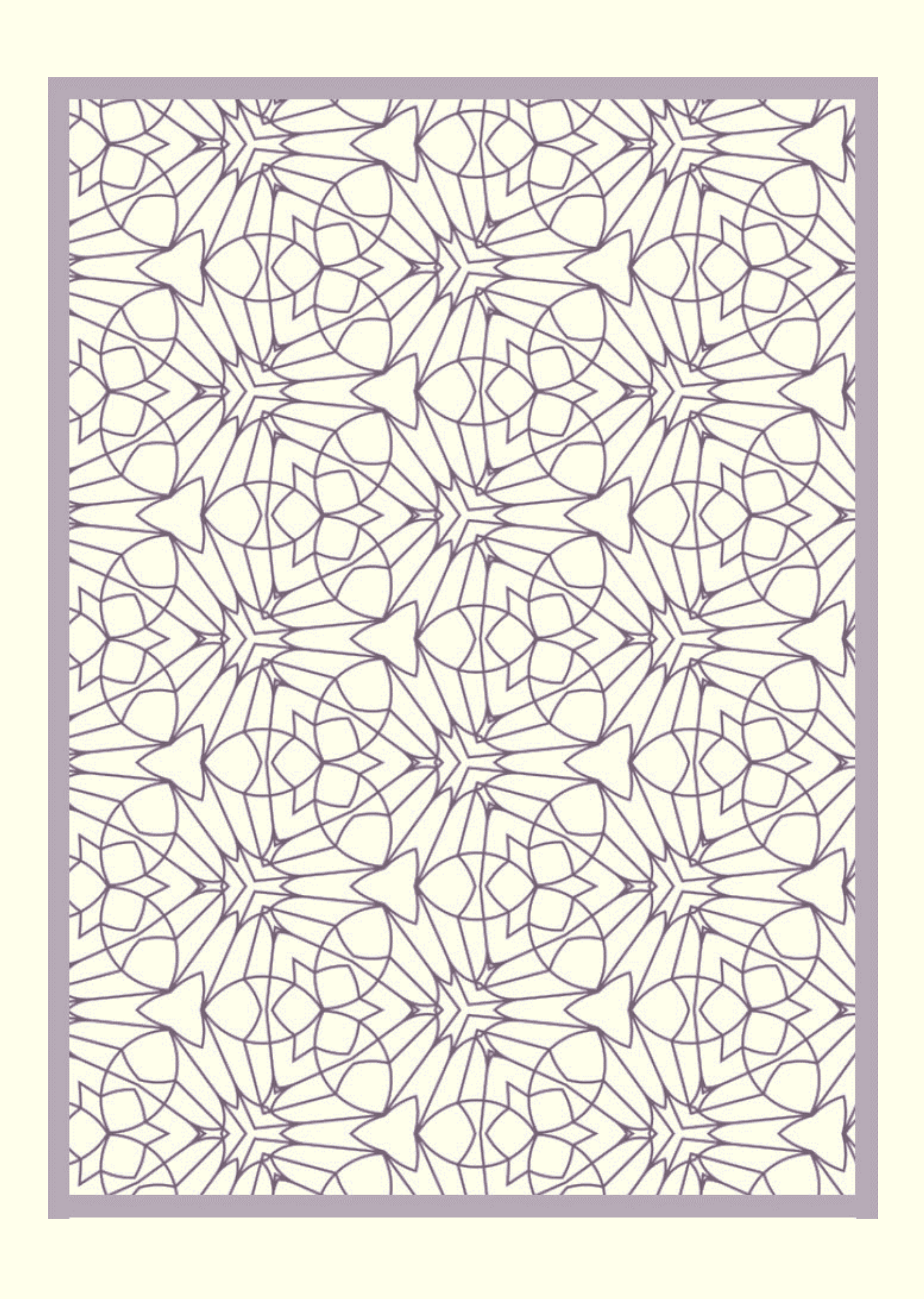
١٩ - النظر إلى حروف المعاني الدالة على الزمن.

٢٠ - النظر إلى ترتيب ألفاظ الزمن وأدواته من حيث كونها مرتبة على حروف المعجم أو على حسب المعاني الآنفة الذكر، ومن حيث اقتران بعض الألفاظ ببعضها؛ لما بينها من المقابلة.

٢١ - النظر إلى الزَّمن من حيث كونه مخلوقًا خاضعًا للنظام الكوني.

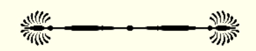
٢٢ - النظر إلى اختلاف الزمن باعتبار الحياتين: (الدنيا والآخرة).





المبحث الثامن
دلالات ألفاظ الزمان الممتد والمحدود والمبهم وغير المبهم

أبد :



قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الأبد: عبارة عن مدة الزمان الممتد الذي لا يتجزأ كما يتجزأ الزمان، وذلك أنه يقال: زمان كذا، ولا يقال: أبد كذا. وكان حقه ألا يثنى ولا يجمع؛ إذ لا يتصور حصول أبد آخر يضم إليه فيثنى به، لكن قيل: آباد، وذلك على حسب تخصيصه في بعض ما يتناوله، كتخصيص اسم الجنس في بعضه، ثم يثنى ويجمع، على أنه ذكر بعض الناس أن آبادًا مولد، وليس من كلام العرب العرباء.

وقيل: أبد آبد وأبيد، أي: دائم، وذلك على التأكيد.

وتأبد الشيء: بقي أبدًا، ويعبر به عما يبقى مدة طويلة"[(١)].

وقال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الأبَد: الدهر، والجمع: آبادٌ وأبودٌ. يقال: أَبَدٌ أَبِيدٌ، كما يقال دهرٌ دَهْرٌ دَهِيرٌ. ولا أفعله أبد الأبيد، وأبد الآبدين، كما يقال: دهر الداهرين، وعَوضَ العائضين. والأبَدُ أيضًا: الدائم. والتأبيدُ: التخليد. وأَبَدَ بالمكان يَأْبدُ -بالكسر- أبودًا، أي: أقام به" [(٢)].

---

(١) المفردات في غريب القرآن، مادة: (أبد) (ص:٥٩).

(٢) الصحاح، للجوهري، مادة: (أبد) (٢/٤٣٩)، مقاييس اللغة (١/٣٤).

وقال الشريف الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الأبد: هو استمرار الوجود في أزمنة مقدرة غير متناهية في جانب المستقبل، كما أن الأزل استمرار الوجود في أزمنة مقدرة غير متناهية في جانب الماضي" (١).

وسيأتي بيان الفرق بين الأمد والأبد.

أجل:

ورد ذكر الأجل في القرآن الكريم في مواضع كثيرة.

والأَجَلُ: مدَّةُ الشيء. والْآجِلُ والْآجِلَةُ ضِدُّ الْعَاجل وَالْعَاجِلَة (٢).

وفي (العين): "الأجلُ: غاية الوقت في الموت. ومحل الدين ونحوه. تقول: أجل هذا الشيءُ يأجل، فهو آجل، وهو نقيضُ عاجل. والأجيلُ: الْمُؤجل إلى وقت" (٣).

وبلغ الشيءُ أجَلَه: إذا بلغ غايته، والجمع: آجال (٤).

وفي (المصباح المنير): "أجل الشيء: مدته ووقته الذي يَحِلُّ فيه، وهو مصدر أَجِلَ الشَّيْءُ أَجَلًا، من باب: تَعِبَ، وأَجَلَ أُجُولًا من باب: قَعَدَ لغة. وأَجَّلْته تَأْجِيلًا، وَجَعَلْت له أَجَلًا، والْآجِلُ على فَاعِلٍ خِلَافُ الْعَاجِل، وجمع الْأَجَل: آجَالٌ، مثل: سَبَبٍ وأَسْبَاب، وأَجَلْ مثل: نَعَمْ وَزْنًا ومَعْنًى" (٥).

(١) التعريفات (ص:٧).

(٢) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (أجل) (١٦٢١/٤-١٦٢٢)، مقاييس اللغة (٨٨/١).

(٣) العين (١٧٨/٦).

(٤) جمهرة اللغة (١٠٤٣/٢).

(٥) المصباح المنير، مادة: (أجل) (ص:٦).

وتقول: ابن آدم قصير الأجل، طويل الأمل؛ يؤثر العاجل، ويذر الآجل. وتقول: أجلن عيون الآجال، فأصبن النفوس بالآجال [(١)].

ومن أقوالهم: يا طويل الأمل، في قصير الأجل، يا كثير الزلل، في يسير العمل، خلا لك الزمان، وما سددت الخلل، أفما عندك وجل، من هجوم الأجل؟! [(٢)].

ومن أقوالهم: لا ينقضي الأمل ما بقي الأجل.

وقيل لمحمد بن واسع رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كيف تجدك؟ قال: قصير الأجل، طويل الأمل، سيء العمل [(٣)].

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف:٣٤]، فالأجل: مدة العمر، وأعاد ذكره بقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾؛ للاشارة الى آخر المدة، أي: لا يتركون بعد الأجل شيئًا قليلًا من الزمان، ولا يهلكون قبله كذلك.قال أبو إسحاق الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الأجل، أي: وَقْت مؤقَت. وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف:٣٤]، المعنى: ولا يستقدمون ساعة، ولا أقل من ساعة، ولكن ذُكِرَتِ الساعة؛ لأنها أقل أسماءِ الأوقات" [(٤)].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ [الأعراف:١٨٥].

---

(١) انظر: أساس البلاغة، للزمخشري (٢٢/١).

(٢) المدهش، لابن الجوزي (ص:٣٤٢).

(٣) ربيع الأبرار، للزمخشري (٢٧٧/٣)، وانظر: المستطرف (ص:٨٢).

(٤) معاني القرآن وإعرابه (٣٣٤/٢)، وانظر: معاني القرآن، لأبي جعفر النحاس (٢٩/٣-٣٠).

وفي الحديث: عن جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: خرج علينا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونحن نقرأ القرآن وفينا الأعرابي والأعجمي، فقال: «**اقْرَءُوا فَكُلٌّ حَسَنٌ، وسيجِيءُ أقوامٌ يُقِيمُونَهُ كما يُقَامُ الْقِدْحُ يَتَعَجَّلُونَهُ ولا يَتَأَجَّلُونَه**» (١).

قال ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "التأجل: تفعل من الأجل، وهو الوقت المضروب المحدود في المستقبل، أي: أنهم يتعجلون العمل بالقرآن ولا يؤخرونه..." (٢).

الفرق بين المدة والأجل:

قال العسكري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان الفرق بين المدة والأجل: "إن الأجل الوقت المضروب لانقضاء الشيء، ولا يكون أجلًا بجعل جاعل، وما علم أنه يكون في وقت فلا أجل له إلا أن يحكم بأنه يكون فيه. وأجل الإنسان هو الوقت لانقضاء عمره، وأجل الدين محله؛ وذلك لانقضاء مدة الدين، وأجل الموت وقت حلوله؛ وذلك الانقضاء مدة الحياة قبله، فأجل الأخرة الوقت لانقضاء ما تقدم قبلها قبل ابتدائها، ويجوز أن تكون المدة بين الشيئين بجعل جاعل، وبغير جعل، وكل أجل مدة، وليس كل مدة أجلًا" (٣).

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور في (التفسير) [٣١]، وأحمد [١٤٨٥٥]، وأبو داود [٨٣٠]، وأبو يعلى [٢١٩٧]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٢٣٩٩]، والبغوي في (شرح السنة) [٦٠٩]. كما روي عن محمد بن المنكدر مرسلًا.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر (١/٢٦).

(٣) الفروق اللغوية (ص:٢٧٣).

أزل:

قد جرى ذكر الأزل فيما تقدم، مع بيان ما يفيده كل من (الأزل)، و(لا يزال)، كما تقدم كذلك تفسير قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣].

وقد ذكر أَقوامٌ أن لفظ: (الأَزلِيَ) ليس بعربي. أو أن أَصْلُه: يَزَلِيٌ، مَنْسُوبٌ إلى قوْلِهم للقدِيمِ: (لم يَزلْ)، ثمّ نُسِبَ إلى هذا، فَلم يَسُتقِيم إلا باختصار، فقالوا: يَزلِيٌ، ثمَّ أبدلت الياء ألفًا للخِفَّة.

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الأَزَلُ -بالتحريك-: القدم. يقال: أَزَلِيٌّ. ذكر بعض أهل العلم أن أصل هذه الكلمة قولهم للقديم: لم يَزَلْ، ثم نسب إلى هذا فلم يستقم إلا باختصار فقالوا: يَزَلِيٌّ، ثم أبدلت الياء ألفًا؛ لأنها أَخَفُّ فقالوا: أَزَلِيٌّ، كما قالوا في الرُّمْحِ المنسوب إلى ذي يَزَنَ: أَزَنِيٌّ، ونَصْلٌ أَثْرَبِيٌّ" (١).

والأزل: القدم الذي ليس له ابتداء، ويطلق مجازًا على من طال عمره.

والأزل: استمرار الوجود في أزمنة مقدرة غير متناهية في جانب الماضي، كما أن الأبد استمرار الوجود في أزمنة مقدرة غير متناهية في جانب المستقبل.

والأزلي: ما لا يكون مسبوقًا بالعدم.

---

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (أزل) (١٦٢٢/٤)، وانظر: مقاييس اللغة (٩٦/١-٩٧). و(أَزَنِيٌّ) نسبة إلى ذي يزن من ملوك حمير في اليمن، نسبت الرماح اليَزَنِيَّة له؛ لأنه أول من عملت له، والأصل: (يَزَنِيٌّ) و(أَزَنِي)، وبعضهم زاد الهمزة فقال: (يَزْأَنِي). وقولهم: (نَصْلٌ أَثْرَبِيٌّ)، أي: منسوب إلى يثرب.

والموجود أقسام ثلاثة لا رابع لها: أزلي أبدي، وهو الله عَزَّوَجَلَّ، ولا أزلي ولا أبدي، وهو الدنيا، وأبدي غير أزلي، وهو الآخرة، وعكسه محال؛ فإن ما ثبت قدمه امتنع عدمه (١).

قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قولهم: كان في الأزل قادرًا عالما، وعلمه أزلي وله الأزلية، مصنوع ليس من كلام العرب، وكأنهم نظروا في ذلك إلى لفظ: لم يزل" (٢). ولحنه أيضًا: ابن الجوزي، وأبو بكر الزبيدي رَحِمَهُمَاٱللَّهُ (٣).

وقيل: الأَزْلُ: ضِيقُ العَيْش والشِّدَّةُ؛ فقيل للقدم الذي ليس له ابتداء؛ لضيقِ العقل عن إدراك أوله، وسَنَةٌ أزُولٌ، كصَبورٍ: شديدة، جمع: أُزْلٌ –بالضم– (٤).

إقامة:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝٣٧﴾ [المائدة:٣٧].

﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ۝٧٦﴾ [الحجر:٧٦].

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣٩ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝٤٠﴾ [الزمر:٣٩-٤٠].

---

(١) انظر: التعريفات، للجرجاني (ص:١٧)، التوقيف على مهمات التعاريف (ص:٤٦)، الكليات (ص:٨١).

(٢) أساس البلاغة، مادة: (أزل) (٢٦/١).

(٣) انظر: خير الكلام في التقصي عن أغلاط العوام (ص:١٧).

(٤) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، مادة: (أزل) (٧٨/٩)، القاموس المحيط (ص:٩٦١)، تاج العروس (٤٤٢/٢٧).

﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الشورى:٤٥].

يقال: قَامَ يَقُومُ قِيامًا، فهو قَائِمٌ، وجمعه: قِيامٌ، وأَقَامَهُ غيره. وأَقَامَ بالمكان إِقَامَةً، أي: استوطنه ودام فيه، وإقامَة الهاء عوض من عين الفعل؛ لأن أصله: إقوامًا. وأقامَهُ من موضعه. وأقامَ الشيء، أي: أدامه، من قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة:٣]. والْمُقامَةُ -بالضم-: الإقامَة. والْمَقامَةُ -بالفتح-: المجلسُ، والجماعة من الناس. وأما الْمَقامُ والْمُقامُ فقد يكون كلُّ واحدٍ منهما بمعنى: الإقامةِ وقد يكون بمعنى: موضع القيام؛ لأنك إذا جعلته من قام يقوم فمفتوح، وإن جعلته من أقام يقيم فمضموم؛ لأن الفعل إذا جاوز الثلاثة فالموضع مضموم الميم؛ لأنه مشبه ببنات الأربعة، نحو: دَحْرَجَ، وهذا مُدَحْرَجُنا، فَشُبِّهَ بِبَنَاتِ الأربعة.

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لَا مَقَامَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب:١٣]، أي: لا موضع لكم.

وقرئ: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب:١٣] بالضم، أي: لا إقامة لكم [(١)].

و﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾ [الفرقان:٧٦]، أي: موضعًا.

وقول لبيد:

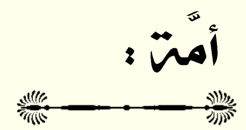
(١) قرأ أبو عبد الرحمن والأعرج وحفص: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ بضم الميم. قال الفراء: فمن قال: ﴿لَا مَقَامَ﴾، فكأنه أراد: لا موضع قيام. ومن قرأ: ﴿لَا مُقَامَ﴾ كأنه أراد: لا إقامة لكم" معاني القرآن، للفراء (٢/٣٣٧)، وانظر: معاني القرآن، لأبي جعفر النحاس (٥/٣٣١).

عَفَتِ الدِّيارُ مَحَلُّهَا فَمُقَامُهَا *** (١)" (٢).

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والْمُقَامةُ: الإقامة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [فاطر:٣٥]، نحو: ﴿دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ [فصلت:٢٨]، و﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ﴾ [التوبة:٧٢].

ويعبَّر بالإقامة عن الدوام، نحو: ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ [المائدة:٣٧]، وقرئ: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مُقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾﴾ [الدخان:٥١]، -بالضم- أي: في مكان تدوم إقامتهم فيه" (٣).

وفي قوله: ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ﴾ لم يقُلْ: أَقِيمُوا، لأن الإقامة تقتضي الدَّوام، والْمُكْثُ ليس كذلك (٤).



أمَّة:

الْأُمَّة تأتي بمعنى: الْحِينُ، كما في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ [هود:٨]، معناه: إلى أجل وحين معلوم (٥).

---

(١) عجزه: (***بمِنًى تأبَّدَ غَوْلُها فَرِجَامُهَا). ديوان لبيد بن ربيعة العامري (ص:١٠٧). عفت: أي درست واندثرت. المحل: مكان الحلول. والمقام: حيث طال المكوث. منىً: جبل أحمر عظيم يشرف على ما حوله من الجبال وهو قريب من طخفة في بلاد كلاب. الغول: اسم موضع. الرجام: جبل مستطيل بناحية طخفة، وفي أصله ماء عذب تشرب منه بنو جعفر قوم لبيد.

(٢) الصحاح، للجوهري، مادة: (قوم) (٥/٢٠١٧)، وانظر: الكليات (ص:٨٢٧).

(٣) انظر: المفردات في غريب القرآن، مادة: (قوم) (ص:٦٩٠-٦٩٣).

(٤) انظر: تفسير القرطبي (١١/١٧٢).

(٥) انظر: معاني القرآن، للأخفش (١/٣٨٠)، معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٣/٤٠).

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف:٤٥]، و﴿أُمَّةٍ﴾ بضم الألف وتشديد الميم هي قراءة القُرَّاء في أمصار الإسلام.

وقد روي عن جماعة من المتقدمين أنهم قرؤوا ذلك: ﴿بَعۡدَ أَمَهٍ﴾ بفتح الألف، وتخفيف الميم وفتحها، بمعنى: بعد نسيان.

وذكر بعضهم أن العرب تقول من ذلك: أمِهَ الرجل يأمَهُ أمَهًا: إذا نسي. وكذلك تأوَّله من قرأ ذلك كذلك (١).

وقد قرأ ابن عباس، وزيد بن علي، وقتادة، والضحاك، وأبو رجاء: ﴿بَعۡدَ أَمَهٍ﴾ بفتح الهمزة وتخفيف الميم وهاء منونة من الأَمَهِ، وهو النسيان.

وقرأ مجاهد وعكرمة وشُبَيْل بن عَزْرَة: ﴿بَعۡدَ أَمۡهٍ﴾ بسكون الميم، على أنه مصدرٌ لأَمِه على غير قياس.

قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومَنْ قرأ بسكون الميم فقد خُطِّىء" (٢).

قال أبو حيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهذا على عادته في نسبته الخطأ إلى القُرَّاء" (٣).

قال الشيخ شهاب الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لم يَنْسِبْ هو إليهم خطأً؛ وإنما حكى أنَّ بعضَهم خطَّأ هذا القارىء؛ فإنه قال: (خُطِّىء) بلفظِ ما لم يُسَمَّ فاعلُه، ولم يقل فقد أخطأ، على أنه إذا صَحَّ أنَّ مَنْ ذكره قرأ بذلك فلا سبيلَ إلى الخطأ إليه البتة" (٤).

ولا يخفى أن أبا حيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد جانبه الصواب في تعقبه للزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ ولذلك تعقبه الشيخ شهاب الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: إنما حكى أنَّ بعضَهم خطَّأ هذا القارىء.

(١) انظر: تفسير الطبري (١٦/١٢١-١٢٢).
(٢) الكشاف (٢/٤٧٦).
(٣) البحر المحيط في التفسير (٦/٢٨٤).
(٤) الدر المصون (٦/٥٠٨).

ولم ينبه الشيخ شهاب الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى قول أبي إسحاق الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذلك، حيث قال: "قرأ ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: ﴿بَعْدَ أَمَهٍ﴾، والأمهُ: النسيَانُ، يقال أمِهَ يأمَهُ أمَهًا. هذا الصحيح بفتح الميم، وروى بعضهم عن أبي عبيدة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أمْه بسكون الميم، وليس ذلك بصحيح عنه؛ لأن المصدَرَ أنه يأمَهُ أمَهٌ لا غير" (١).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ويقرأ ﴿أَمهٍ﴾ بفتح أوله وميم بعدها هاء منونة نسيان، أي: تَذَكَّرَ بعد أن كان نسي، وهذه القراءة نسبت في الشواذِّ لابن عباس وعكرمة والضحاك. يقال: رجل مَأْمُوهٌ أي: ذاهب العقل. قال أبو عبيدة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿أَمْهٍ﴾ أي: نِسْيَان، تقول: أَمِهْتُ آمَهُ أَمْهًا -بسكون الميم-، قال الشاعر:

أَمِهْتُ وكنتُ لا أَنْسَى حَدِيثًا*** (٢)

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: روي عن جماعة أنهم قرأوا ﴿بَعْدَ أَمَهٍ﴾، ثم ساق بسند صحيح عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنه كان يقرؤها ﴿بَعْدَ أَمَهٍ﴾ وتفسيرها بعد نسيان، وساق مثله عن عكرمة والضحاك. ومن طريق مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ نحوه لكن قالها بسكون الميم" (٣).

وقد قيل في تفسير قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف:٤٥]: أي حقبة من الدهر. وقيل: بعد حين. وهو: الأجل الذي يعلمه الله عَزَّوَجَلَّ. وقيل: بعد سنين (٤).

---

(١) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (١١٣/٣).

(٢) صدر بيت، عجزه: (*** كذاك الدَّهْرُ يُودِي بالعُقُولِ). انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (أمه) (٢٢٢٤/٦)، الكشف والبيان (٢٢٧/٥)، تفسير القرطبي (٢٠١/٩).

(٣) فتح الباري، لابن حجر (٣٨١/١٢-٣٨٢).

(٤) انظر: تفسير الطبري (١٢٠/١٦-١٢١)، تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (٢١٥١/٧-٢١٥٢).

وقال أبو عبيدة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: بعد قرن، ويقال: ﴿بَعْدَ أَمَهٍ﴾ أي: نسيان، نسيت كذا وكذا: أي: أمهت، وأنا آمهه، ويقال: هو ذو أمه" (١).

وقال في موضع آخر: ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: بعد حين (٢).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: قرن هو قول أبي عبيدة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قاله في تفسير آل عمران. وقال في تفسير يوسف: بعد حين. وأخرجه الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ بسند جيد: عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا مثله. ومن طريق سماك عن عكرمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: بعد حقبة من الدهر. وأخرج بن أبي حاتم: عن سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بعد سنين" (٣).

وقال الفراء رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾: "الأمة: الحين من الدهر..." (٤).

وقال أبو عبيدة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ [هود:٨]، "أي: إلى حين موقوت وأجل" (٥).

وقال ابن الأنباري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وتكون الأمة بمعنى: الزمان" (٦).

وقال أبو منصور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قال أبو الهيثم: فيما أخبرني عنه المنذري، قال: الأمة: الحين" (٧).

(١) مجاز القرآن، لأبي عبيدة (٩٩/١).

(٢) انظر: مجاز القرآن، لأبي عبيدة (٢٨٥/١)، (٣١٣/١).

(٣) فتح الباري (٣٨١/١٢).

(٤) معاني القرآن وإعرابه، للفراء (٤٧/٢).

(٥) مجاز القرآن، لأبي عبيدة (٢٨٥/١).

(٦) انظر: الزاهر في معاني كلمات الناس (١٥٠/١).

(٧) تهذيب اللغة (٤٥٤/١٥).

وقال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والأُمَّةُ: الحينُ" (١). قال: "والْأَمَهُ: النِسيانُ. تقول منه: أمه -بالكسر-" (٢).

أمد :

الأمد: الأجل والغاية التي يُنتهى إليها، تقول: بلغ أمده أي: غايته.

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "(الأَمَدُ): الغاية كالْمَدَى. يقال: ما أَمَدُكَ؟ أي: منتهى عمرك. والأَمَدُ أيضًا: الغضب. وقد أَمِدَ عليه بالكسر، وأَبِدَ عليه، أي: غضب. وآمد: بلد في الثغور" (٣).

ومدى الأجل: منتهاه، وليس لعذاب الكافر أمد (٤).

قال النابغة:

إلا لْمِثْلِكَ أو من أنتَ سابِقُهُ   سَبْقَ الجَوَادِ إذا اسْتَوْلَى على الأمَدِ (٥)

أي: بلغ الغاية.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران:٣٠]، يعني: غاية بعيدة. وقيل: مسافة واسعة -كما سيأتي-.

(١) انظر: الصحاح، مادة: (أمم) (٥/١٨٦٤).

(٢) انظر: الصحاح، مادة: (أمه) (٥/١٨٦٤).

(٣) الصحاح، مادة: (أمد) (٢/٤٤٢).

(٤) تهذيب اللغة (١٤/١٥٥)، غريب الحديث، لابن قتيبة (٢/٤٧٧).

(٥) ديوان النابغة الذبياني (ص:٢١)، ط: دار المعارف، القاهرة.

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ١٢﴾ [الكهف:١٢].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد:١٦].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ٢٥﴾ [الجن:٢٥]، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين بالله عَزَّوَجَلَّ من قومك: ما أدري أقريب ما يعدكم ربكم جَلَّ وَعَلَا من العذاب، وقيام الساعة، ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ٢٥﴾ يعني: غاية معلومة تطول مدتها.

الفرق بين الأمد والغاية:

قال أبو هلال العسكري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن الأمد حقيقة والغاية مستعارة على ما ذكرنا، ويكون الأمد ظرفًا من الزمان والمكان، فالزمان: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾ [الحديد:١٦]، والمكان: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران:٣٠]" (١).

فقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾ ما بينهم وبين موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وذلك الأمد: الزَّمان. قال الزَّجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أي: لا تكونوا كالذين لما طالت عليهم المدة قَسَتْ قُلُوبُهُمْ" (٢).

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران:٣٠]، يعني: غاية بعيدة. وقيل: مسافة واسعة كما بين المشرق والمغرب، وذلك في يوم القيامة حين تجد كل نفس خيرها وشرها حاضرين، تتمنى لو أن بينها وبين ذلك اليوم ﴿أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾، قال السدي

---

(١) الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري (ص:٢٩٣).

(٢) معاني القرآن وإعرابه (٥/١٢٦).

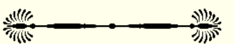
رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مكانًا بعيدًا، وقال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يسر أحدهم أن لا يلقى عمله أبدًا، وقيل: يود أنه لم يعمله.

الفرق بين الأمد والأبد:

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الأمَدُ والأبد يتقاربان، لكن الأبد: عبارة عن مدة الزمان التي ليس لها حَدٌّ محدود، ولا يتقيد، فلا يقال: أبَدَ كذا.

والأمد: مدة لها حَدٌّ مجهول إذا أطلق، وقد ينحصر نحو أن يقال: أمَد كذا، كما يقال: زمان كذا، والفرق بين الزمان والأمد: أن الأمد يقال باعتبار الغاية، والزمان عام في المبدأ والغاية؛ ولذلك قال بعضهم: المدى والأمد يتقاربان" (١).

تاريخ:



التاريخ هو ذكر ابتداء مدة الشيء؛ ليعرف بها مقدار ما بين ذلك الابتداء، وما انتهى إليه من الوقت الذي أريد منه.

قال أبو منصور الأزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن (التاريخ) الذي يؤرخه الناس ليس بعربي محض، وإن المسلمين أخذوه عن أهل الكتاب.

وتاريخ المسلمين أُرِّخَ من سنة الهجرة، وكتب في خلافة عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فصار تاريخًا إلى هذا اليوم.

(١) المفردات في غريب القرآن، مادة: (أمد) (ص:٨٨)، وانظر: روح المعاني (٨/٢٠٣).

وقيل: إنَّه عَرَبِيٌّ، واشتقاقه من (الأرخ)، وهو ولد الْبَقَرَة الوحشية إذا كانت أُنْثَى، كَأَنَّهُ شيء حَدَث كما يَحْدُثُ الولدُ، وقيل: التَّارِيخُ مأْخوذ منه؛ لأنه حَدِيثٌ" (١).

قال ابن السِّكِّيت رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقد أَرَّخْتُ الْكتاب وورَّخْتُه تاريخًا، ويقال أيضًا: أَرَختُه أَرْخًا، ووَرَختُه وَرْخًا" (٢).

وقال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "التأْريخُ: تعريف الوقت. والتَّوْريخُ مثله. وأَرَّخْتُ الكتابَ بيوم كذا، ووَرَّخْتُهُ، بمعنىً. والإراخُ: بقرُ الوحشِ، الواحدة: إرخ" (٣).

قال في (المصباح): "أَرَّخْت الْكِتَابَ بالتَّثقيل في الْأَشْهَر، والتَّخفيف لغة: إذا جعلت له تاريخًا، وهو مُعَرَّب، وقيل: عربِيٌّ، وهو بيانُ انتهاء وقته. وسببُ وضْعِ التَّاريخ أَوَّلَ الْإِسْلَامِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أُتِيَ بِصَكٍّ مكتوب إلى شعبان فقال: أهو شعبان الماضي أو شعبان القابل؟ ثم أمر بوضع التاريخ، واتفقت الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ على ابتداء التاريخ من هجرة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة، وجعلوا أول السنة: المحرم، ويعتبر التاريخ بالليالي؛ لأن الليل عند العرب سابق على النهار؛ لأنهم كانوا أميين لا يحسنون الكتابة ولم يعرفوا حساب غيرهم من الأمم، فتمسكوا بظهور الهلال، وإنما يظهر بالليل، فجعلوه ابتداء التاريخ، والأحسن ذكر الأقل ماضيًا كان أو باقيًا" (٤).

قال المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "التاريخ: ذكر ابتداء مدة الشيء؛ ليعرف بها مقدار ما بين ذلك الابتداء وبين أي وقت أريد منه" (٥).

---

(١) انظر: تهذيب اللغة (٧/٢٢٢-٢٢٣).

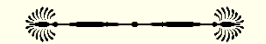
(٢) إصلاح المنطق، لابن السِّكِّيت (ص:١٢٢)، وانظر: المخصص (٤/٧).

(٣) الصحاح، للجوهري، مادة: (أرخ) (١/ ٤١٨).

(٤) المصباح المنير، مادة: (أرخ) (١/١١).

(٥) التوقيف على مهمات التعاريف (ص:٨٩).

تربص:



قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ [البقرة:٢٢٦].

﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة:٢٢٨].

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة:٢٣٤].

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ [النساء:١٤١].

﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة:٢٤].

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [التوبة:٥٢].

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ [التوبة:٩٨].

﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ﴾ [طه:١٣٥].

﴿فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾ [المؤمنون:٢٥].

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الطور:٣٠-٣١].

﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ﴾ [الحديد:١٤]. "التَرَبُّصُ: الانتظار. والْمُتَرَبِّصُ: المحتكِرُ. ولي في متاعي رُبْصَةٌ، أي: لي فيه تربص" (١).

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (ربص) (٣/١٠٤١).

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "التَرَبُّصُ: الانتظار بالشيء، سلعة كانت يقصد بها غلاء، أو رخصًا، أو أمرًا ينتظر زواله أو حصوله، يقال: تربَّصت لكذا، ولي رُبْصَةٌ بكذا، وتَرَبُّصٌ" (١).

وفي (العين): "تَرَبَّصْنا الأرضَ: إذا أَرْسلتَ فيها الماءَ، فَمَخَرْتَها؛ لتجود" (٢).

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة:٢٢٨]، التربص: التلبث والانتظار، وهذا صيغته صيغة الخبر، ومعناه: الأمر، فهو أمر من حيث المعنى. وقيل: هو أمر لفظًا ومعنى على إضمار اللام، أي: ليتربصن، وقيل غير ذلك كما سيأتي.

ثوى:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [آل عمران:١٥١].

﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام:١٢٨].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ [يوسف:٢١].

﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ [يوسف:٢٣].

﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [النحل:٢٩].

﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ [القصص:٤٥].

﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [العنكبوت:٦٨].

﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزمر:٣٢].

---

(١) المفردات، مادة: (ربص) (ص:٣٣٨).

(٢) العين (٧/١٨١).

﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ۝٦٠﴾ [الزمر:٦٠].

﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ۝٧٢﴾ [الزمر:٧٢].

﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ۝٧٦﴾ [غافر:٧٦].

﴿فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [فصلت:٢٤].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۝١٢﴾ [محمد:١٢].

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ۝١٩﴾ [محمد:١٩].

"الثَّواءُ: طُولُ الْمُقام، وقد ثَوى يَثْوِي ثواءً. ويُقالُ للمقتول: قد ثَوى. ويقال للغريب المقيم ببلدة: هو ثاويها. والْمَثْوى: الموضع. وأثويته: حَبَسْته عندي" [(١)].

ثوى يثوي ثويًا: إذا أقام بالمكان، والاسم: الثواء -ممدود-.

والثواء: المقام في الموضع، والمثوى: الموضع الذي يثوى فيه [(٢)].

وثَوَى يَثْوِي ثَوَاءً وثُوِيًّا، مثل: مضى يمضى مضاء ومضِيًّا. يقال: ثويت البصرة، وثَوَيْتُ بالبصرة. وأَثْوَيْتُ بالمكان لغة في ثويت.

وأثوى غيره يتعدى ويلزم و(ثوى) غيره أيضًا تثوية. يقال: ثوي بالمكان، وأثوى: أقام. وفلان أكرم مثواي، وطال بي الثواء [(٣)].

---

(١) العين، مادة: (ثوي) (٨/٢٥٢).

(٢) انظر: جمهرة اللغة (١/٢٣٠)، (٢/ ١٠٣٧)، معجم ديوان الأدب (٤/١٠٩).

(٣) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (ثوي) (٦/٢٢٩٦)، أساس البلاغة (١/١١٩).

وفي الحديث: عن أبي شريح الكعبي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، جائزته يوم وليلة، والضيافة ثلاثة أيام، فما بعد ذلك فهو صدقة، ولا يَحِلُّ له أن يَثْوِيَ عنده حَتَّى يُحْرِجَه**» (١).

قال القاضي عياض رَحِمَهُٱللَّهُ في (المشارق): "قوله: «**يثوى**» بفتح الواو وكسرها معًا، أي: يقيم، وكذلك اختلف فيه ضبط شيوخنا، وهما لغتان: ثوى يثوي بكسره في الماضي، وفتحه في المستقبل، وثوى يثوي بفتحها في الماضي وكسرها في المستقبل. قال بعضهم: وكسرها في الماضي هو اللغة الفصيحة، وبالفتح ذكرها صاحب الأفعال، والعين والجمهرة، وهو الأفصح" (٢).

قال الراغب رَحِمَهُٱللَّهُ: "الثَّوَاء: الإقامة مع الاستقرار، يقال: ثَوَى يَثْوِي ثَوَاءً.

وقيل: من أمَّ مثواك؟ كناية عمَّن نزل به ضيف، والثَّوِيَّة: مأوى الغنم" (٣).

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ [العنكبوت:٥٨] قُرأ: ﴿لَنُثَوِيَنَّهُمْ﴾ –بالثاء– (٤).

قال الزجاج رَحِمَهُٱللَّهُ: "يقال: ثوى الرجل: إذا أقام بالمكان، وَأَثْوَيْتُه أنزلته منزلًا يقيم فيه" (٥).

---

(١) صحيح البخاري [٦١٣٥].

(٢) مشارق الأنوار على صحاح الآثار (١/ ١٣٥-١٣٦).

(٣) المفردات في غريب القرآن، مادة: (ثوى) (ص:١٨١).

(٤) قرأه حمزة والكسائي بالثاء من الثواء، وقرأه الباقون بالباء. قال الأخفش: قرأ الأعمش: ﴿لَنُثَوِيَنَّهُمْ﴾ قال: ولا يعجبني ذلك؛ لأنك لا تقول: أثويته الدار. قال أبو علي: ووجه هذه القراءة كان في الأصل: لنثوينهم من الجنة في غرف، وحذف الجار، كما حذف من نحو قوله: أمرتك الخيرَ، أي بالخير. انظر: التفسير البسيط (١٧/ ٥٥٠)، الحجة للقراء السبعة، لأبي علي الفارسي (٥/ ٤٤٠)، المخصص (٤/ ٢٤٧).

(٥) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٤/ ١٧٣).

وقال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يقال: ثوى في المنزل، وأثوى هو، وأثوى غيره وثوى: غير متعد، فإذا تعدى بزيادة همزة النقل لم يتجاوز مفعولًا واحدًا، نحو: ذهب، وأذهبته. والوجه في تعديته إلى ضمير المؤمنين، وإلى الغرف: إمَّا إجراؤه مجرى لننزلنهم ونبوئنهم. أو حذف الجار وإيصال الفعل: أو تشبيه الظرف المؤقت بالمبهم"(١)، أي: المحدد، وهو الغرف.

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [آل عمران:١٥١]، أي: ومسكنهم النار. ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ المثوى: المكان الذي يكون مقر الإنسان ومأواه.

وقد بين أن الثَّواء هو الخلود في النار بقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ﴾ [الأنعام:١٢٨].

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ [يوسف:٢١]، أي: أكرمي منزله ومقامه عندك.

قال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: المعنى أحسني إليه في طول مُقامه عندنا" (٢). فالمثوى على هذا بمنزلة الظرف، كأنه قيل: أحسني إليه مدة مقامه عندنا، والمثوى على هذا مصدر. ومن المفسرين من يجعل المثوى الموضع الذي يقيم فيه، أي: اجعلي محل ثوائه وإقامته كريمًا، أي: حسنًا مرضيًّا، وهذا كناية عن إكرامه على أبلغ وجه وأتمه؛ لأن من أكرم المحل بتنظيفه وفرشه ونحو ذلك، فقد أكرم ضيفه بسائر ما يكرم به.

وقال المحققون: أمر العزيز امرأته بإكرام مثواه دون إكرام نفسه، يدل على أنه كان ينظر إليه على سبيل الإجلال والتعظيم وهو كما يقال: سلام الله على المجلس العالي والمقام السامي، فالمثوى بمعنى المقام على هذا مقحم.

---

(١) الكشاف (٤٦١/٣-٤٦٢).

(٢) معاني القرآن وإعرابه (٩٨/٣).

والمعنى: أحسني تعهده والنظر فيما يقتضيه إكرام الضيف.

حقبة:

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الحُقْبُ –بالضم–: ثمانون سنة، ويقال أكثر من ذلك، والجمع: حِقَابٌ، مثلُ: قُفٍّ وَقِفَافٍ. والحِقْبَةُ بالكسر: واحدة: الحِقَب، وهي السنون. و(الحُقُبُ): الدهر، وجمعه: أَحْقَاب، والأحقاب: الدهور، ومنه قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ۝٦٠﴾ [الكهف:٦٠]" [١].

قال قُطْرُب: "يقال: غَبَرَ زَمَنَةً من دهرِه، وطَرْقَةً، وحِقْبةً، وهَبَّةً، وبُرْهَةً. وقالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ۝٢٣﴾ [النبأ:٢٣]، والحُقْبُ واحِدٌ، وهو بلُغَةِ قيسٍ سَنَة" [٢].

وقال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَّبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ۝٢٣﴾ [النبأ:٢٣]، قيل: جمع الحقب، أي: الدهر. قيل: والحقبة ثمانون عامًا، وجمعها: حقب، والصحيح أن الحقبة مدة من الزمان مبهمة.." [٣].

وقال جار الله الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "﴿أَحْقَابًا ۝٢٣﴾ حقبًا بعد حقب، كلما مضى حقب تبعه آخر إلى غير نهاية [٤]، ولا يكاد يستعمل الحقب والحقبة إلا حيث يراد تتابع الأزمنة

---

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (حقب) (١/١١٤).

(٢) الأزمنة وتلبية الجاهلية (ص:٦٠).

(٣) المفردات في غريب القرآن، مادة: (حقب) (ص:٢٤٨).

(٤) (إلى غير نهاية) أي: لمجموعها، وإن كان كل منها متناهيًا، وإنما قال: (إلى غير نهاية)؛ ليوافق قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿خَلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ في غير موضع. قال صاحب (الكشف): ذكر ﴿أَحْقَابًا ۝٢٣﴾ للكثرة لا لتحديد=

وتواليها، والاشتقاق يشهد لذلك. ألا ترى إلى حقيبة الراكب، والحقب الذي وراء التصدير [(١)]. وقيل: الحقب ثمانون سنة، ويجوز أن يراد: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ غير ذائقين فيها ﴿بَرۡدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾ [النبأ:٢٤-٢٥]، ثم يبدلون بعد الأحقاب غير الحميم والغساق من جنس آخر من العذاب. وفيه وجه آخر: وهو أن يكون من (حقب عامنا): إذا قلَّ مطره وخيره، و(حقب فلان): إذا أخطأه الرزق، فهو حقب، وجمعه: أحقاب، فينتصب حالًا عنهم، يعني: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ﴾ حقيبين جحدين [(٢)]. وقوله: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾﴾ تفسير له، والاستثناء منقطع، يعني: لا يذوقون فيها بردًا وروحًا ينفس عنهم حرَّ النار، ﴿وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾﴾ يسكن من عطشهم، ولكن يذوقون فيها ﴿حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾. وقيل: (البرد): النوم.

وعن بعض للعرب: منع البرد البرد [(٣)].

=اللبث، ألا تراك تقول: لبثت فيها سنين وأعوامًا، وأنت لا تريد أنك لم تقم غيرها؟ انظر: حاشية الطيبي على الكشاف (١٦/٢٥١).

(١) قوله: (والحقب الذي وراء التصدير) قال في (الصحاح): "(التصدير): الحزام، وهو في صدر البعير، والحقب عند الثيل. وفيه: الثيلُ: وعاء قضيب البعير" الانتصاف (٤/٦٨٩)، الصحاح، للجوهري، مادة: (صدر) (٢/٧١٠)، ومادة: (ثيل) (٤/١٦٥٠). و"التَّصْدِيرُ حَبْلٌ يُصَدَّرُ به البعيرُ إذا جرَّ حِمْله إلى خلْف، والحبلُ اسمه: التَّصْدِير، والفعل التَّصْدِير. قال الأَصمعي: وفي الرَّحْلِ حِزامَةٌ يقال له: التَّصْدِير" العين (٧/٩٥)، تهذيب اللغة (١٢/٩٥)، مقاييس اللغة، مادة: (صدر) (٣/٣٣٧).

(٢) قوله: (حقيبين) لعله حقبين من (حقب) بالكسر، كجحدين من جحد: إذا كان ضيقًا قليل الخير فيهما، أفاده في الصحاح. الانتصاف (٤/٦٨٩)، يقال: حقب العام: إذا قل مطره وخيره فيكون حالًا بمعنى: لابثين فيها حقبين. قال الجوهري: "الجحد، بفتح الجيم وضمها وسكون الحاء، وبفتح الجيم والحاء أيضًا: قلة الخبر، وجحد الرجل، بالكسر، جحدًا فهو جحد: إذا كان ضيقًا قليل الخير" الطيبي (١٦/٢٥٢)، الصحاح، مادة: (جحد) (٢/٤٥٢).

(٣) الكشاف (٤/٦٨٨-٦٨٩)، وقوله: (منع البرد البرد)، أي: منع البرد النوم. الانتصاف.

قال ابن قتيبة الدينوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يقال: "الْحُقْبُ: ثمانون سنة. وليس هذا مما يدلُّ على غايةٍ، كما يظن بعض الناس. وإنما يدُلُّ على الغاية: التوقيتُ، خمسة أحقاب أو عشرة. وأراد: أنهم يَلْبَثُون فيها أحقابًا، كلَّما مضى حُقْبٌ تَبِعه حقبٌ آخرُ" (١).

وقد أشكل على البعض ما قد يفهم منه: كون عذاب أهل النار غير باق بقاء لا انقطاع له أبدًا، وقد أجاب عن ذلك غير واحد من الأئمة وأهل العلم، منهم: الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في كلام نافع (٢).

وللإمام تقي الدين، علي بن عبد الكافي السبكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتاب: (الاعتبار ببقاء الجنة والنار).

ولمحمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتاب: (رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار).

وقال الإمام أبو جعفر الطحاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والجنَّةُ والنَّارُ مخلوقتانِ لا تفْنَيَانِ أبدًا ولا تبيدان، وإن الله جَلَّ وَعَلَا خلق الجنة والنار قبل الخلق، وخلق لهما أهلًا، فمن شاء منهم إلى الجنة فضلًا منه، ومن شاء منهم إلى النار عدلًا منه" (٣). والله عَزَّ وَجَلَّ كما قال في أهل الجنة: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الحجر:٤٨]، قال في أهل النار من الكافرين: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة:١٦٧]، وقال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ [المائدة:٣٧]، أي: يريد هؤلاء الذين كفروا بربهم

(١) غريب القرآن، لابن قتيبة الدينوري (ص:٥٠٩).

(٢) انظر: دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب (ص:٩٣-٩٧).

(٣) متن الطحاوية، لأبي جعفر الطحاوي الحنفي (ص:٢٦)، طبعة دار ابن حزم.

يوم القيامة، أن يخرجوا من النار بعد دخولها، وما هم بخارجين منها. ولهم عذابٌ دائم ثابت، لا يزول عنهم، ولا ينتقل أبدًا، كما قال الشاعر:

فـإنَّ لـكـم بِيَوْمِ الشِّـعْبِ مِنِّي ... عَـذَابًا دَائِـمًا لَكُمُ مُقِيما [1]

وعن يزيد الفقير، قال: قلت لجابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا أصحاب محمد، إنكم تزعمون أن قوما يخرجون من النار، والله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة:٣٧]، وإنكم تجعلون العامَّ خاصًّا، والخاصَّ عامًّا، إنَّما هذا في الْكُفَّارِ خاصَّة، فقرأتُ الآية كلَّها من أوَّلها إلى آخرها فإذا هي في الكفَّارِ خاصَّة [2].

قال الإمام أبو محمد بن حزم الأندلسي رَحِمَهُ اللَّهُ: "اتفقت فرق الأمة كلها على أنه لا فناء للجنة ولا لنعيمها، ولا للنار ولا لعذابها" [3].

وقال في (مراتب الإجماع): "اتفقوا أن النار حق، وأنها دار عذاب أبدًا، لا تفنى ولا يفنى أهلها أبدًا بلا نهاية، وأنها أعدت لكل كافر مخالف لدين الإسلام ولمن خالف الأنبياء السالفين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ قبل مبعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبلوغ خبره إليه" [4].

واستدل بن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ في (المحلى) [5]: بما جاء في (الصحيحين): عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح، فينادي مناد: يا أهل الجنة، فَيَشْرَئِبُّونَ وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، ثم ينادي: يا أهل النار، فَيَشْرَئِبُّونَ وينظرون، فيقول:**

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٩٣/١٠)، مجاز القرآن، لأبي عبيدة معمر بن المثنى (١٦٥/١).

(٢) انظر: معاني القرآن، لأبي جعفر النحاس (٣٠٣/٢-٣٠٤)، تفسير القرطبي (١٥٩/٦).

(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٦٩/٤).

(٤) مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات (ص:١٧٣).

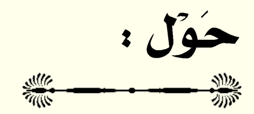
(٥) انظر: المحلى بالآثار، مسألة: بيان أن الجنة والنار لا يفنيان، ولا أحد ممن فيهما أبدًا (٣٠/١-٣١).

وهل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، فيذبح ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، ثم قرأ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾ [مريم:٣٩]، **وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا،** ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [مريم:٣٩]» [١].. إلى غير ذلك.

الفرق بين الزمان والحقبة والبرهة:

قال العسكري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الحقبة: اسم للسنة، إلا أنها تفيد غير ما تفيده السنة، وذلك أن لسنة تفيد أنها جمع شهور، والحقبة تفيد أنها ظرف لأعمال ولأمور تجري فيها، مأخوذ من الحقيبة، وهي ضرب من الظروف تتخذ من الأدم يجعل الراكب فيها متاعه، وتشد خلف رحله أو سرجه. وأما البرهة فبعض الدهر، ألا ترى أنه يقال: برهة من الدهر، كما يقال: قطعة من الدهر، وقال بعضهم: هي فارسية معربة" [٢].

حَوْل:



الحَوْلُ: الحيلةُ والقُوَّةُ أيضًا. والحَوْلُ: السنةُ. وحالَ عليه الحَوْلُ، أي: مَرَّ. وحالَتِ الدارُ، وحالَ الغُلامُ، أي: أتى عليه حَوْلٌ [٣].

---

(١) صحيح البخاري [٤٧٣٠]، مسلم [٢٨٤٩].

(٢) الفروق اللغوية (ص:١٩٢-١٩٣).

(٣) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (حول) (١٦٧٩/٤).

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الحول: السنة، اعتبارًا بانقلابها ودوران الشمس في مطالعها ومغاربها. وحالت السنة تحول، وحالت الدار: تغيرت، وأحالت وأحولت: أتى عليها الحول، نحو: أعامت وأشهرت، وأحال فلان بمكان كذا: أقام به حولًا" (١).

وقال الحرالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الحول: تمام القوة في الشيء الذي ينتهي لدورة الشمس، وهو العام الذي يجمع كمال النبات الذي يثمر فيه قواه" (٢).

ونزل بذلك القرآن في أول الإسلام قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة:٢٤٠]، ثم نسخ ذلك بقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة:٢٣٤] (٣).

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة:٢٣٣]، اللفظ لفظ الخبر، والمعنى معنى الأمر، كما تقول: حسبك درهم، فاللفظ لفظ الخبر والمعنى معنى الأمر، معناه: اكتف بدرهم. وكذلك معنى الآية: لترتضع الوالدات (٤).

ويشترط لوجوب أداء الزكاة شروط، منها: بلوغ النصاب، وحولان الحول بالتاريخ الهجري، وليس بالتاريخ الميلادي، ويجوز تعجيلها قبل أن يكتمل النصاب.

وذهب أكثر أهل العلم إلى جواز تعجيلها قبل تمام الحول من غير كراهة، لا سيما إن كان ثم مصلحة، كأن يوجد بالفقراء حاجة عاجلة، أو تنزل بالمسلمين نازلة.

(١) المفردات في غريب القرآن، مادة: (حول) (ص:٢٦٦-٢٦٧)، وانظر: تفسير الراغب (٤٨١/١).
(٢) التوقيف على مهمات التعاريف (ص:١٤٩).
(٣) انظر: غريب الحديث، لأبي عبيد القاسم بن سلام (٩٧/٢).
(٤) انظر: تهذيب اللغة (٣٠٠/١).

حيَاة:

الحَياة: "ضد الموت والحَيُّ: ضدُّ الميّت. والمِحْيا مَفْعَلٌ من الحياة. تقول: مَحْيَايَ ومَمَاتِي. والجمع: المحايي. والْحَيُّ: واحد أحياء العرب. وأَحْياهُ الله فَحَيِيَ وحَيَّ أيضًا، والإدغام أكثر؛ لأنَّ الحركة لازمه.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال:٤٢].

فإذا لم تكن الحركة لازمةٌ لم تُدغَم، كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾ [القيامة:٤٠]، ويقرأ: ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيِيَ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾" [1].

والحَيُّ: المسْلمُ كَمَا قيلَ للكَافِرِ مَيِّتٌ.

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٢٢﴾ [الأنعام:١٢٢]، أي: كافرًا فهديناه؛ لأن الإيمان حياة القلوب. فالمراد بـ: (الميت) ها هنا: الكافر، فجعله الله عَزَّوَجَلَّ لانصرافه عن طاعته، وجهله بتوحيده وشرائع دينه، وتركه الأخذ بنصيبه من العمل لله جَلَّوَعَلَا بما يؤديه إلى نجاته، بمنزلة: (الميت) الذي لا ينفع نفسه بنافعة، ولا يدفع عنها من مكروه نازلة.

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ أي: فهديناه للإسلام، فأنعشناه، فصار يعرف مضارَّ نفسه ومنافعها، ويعمل في خلاصها من الله عَزَّوَجَلَّ وعقابه في معاده.

---

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (حيا) (٦/٢٣٢٣-٢٣٢٤).

﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، لا يدري كيف يتوجه، وأي طريق يأخذ، لشدة ظلمة الليل، وإضلاله الطريق. فكذلك هذا الكافر الضال في ظلمات الكفر، لا يبصر رشدًا ولا يعرف حقًّا.

والحَياةُ: الْمَنْفَعَة، وبه فُسِّرَتِ الآيَةُ: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝١٧٩﴾ [البقرة:١٧٩]، فقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [البقرة:١٧٩]، خص بالنداء أصحاب العقول الكاملة، مع أن الخطاب عام؛ للتنبيه على أن ذا اللب هو الذي يعرف قيمة الحياة والمحافظة عليها، ويعرف ما تقوم به المصلحة العامة وما يتوسل به إليها، وهو مرتبتان: القصاص وهو العدل، والعفو وهو الفضل، كأنه يقول: إن ذا اللب هو الذي يفقه سر هذا الحكم وما اشتمل عليه من الحكمة والمصلحة، فعلى كل مكلف أن يستعمل عقله في فهم دقائق الأحكام، وما فيها من المنفعة للأنام، وهو يفيد أن من ينكر منفعة القصاص بعد هذا البيان، فهو بلا لب ولا جنان. ولا رحمة ولا حنان. فلما كان في القصاص حياة لكم كتبناه عليكم، وشرعناه لكم، ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝١٧٩﴾ الاعتداء، وتكفون عن سفك الدماء [١].

قال الأزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أخبرني المنذري، عن الغساني، عن سلمة، عن أبي عبيدة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ [البقرة:١٧٩]، أي: منفعة، ومنه قولهم: ليس بفلان حياة، أي: ليس عنده نفع، ولا خير.

وتقول العرب: كيف أنت وكيف حَيَّةُ أَهْلِكَ؟ أي: كيف من بَقِيَ منهم حيًّا" [٢].

وإحياء الليل: السهر فيه بالعبادة، وترك النوم [٣].

---

(١) المنار (١٠٧/٢).

(٢) تهذيب اللغة (١٨٥/٥).

(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (حيا) (٤٧١/١).

وإحياء السنة: العودة إلى العمل بها بعد هجرها.

وفي الحديث: «**أنه** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **كان يصلي العصر والشمس حية**» (١)، "أي: صافية اللون لم يدخلها التغير بدنو المغيب؛ كأنه جعل مغيبها لها موتًا، وأراد تقديم وقتها" (٢). قال الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله: «**والشمس حية**»: "حياتها: صفاء لونها قبل أن تصفر أو تتغير" (٣).

قال ذو الرمة:

فلما رَأَين اللَيلَ والشَّمْس حَيَّة حياةَ الَّذِي يَقضِي حُشاشَةَ نازِعِ (٤)

وفي الحديث: «**من أَحْيَا مَوَاتًا فهو أَحَقُّ به**» (٥)، و"الموات: الأرض التي لم يجر عليها ملك أحد، وإحياؤها: مباشرتها بتأثير شيء فيها، من إحاطة، أو زرع، أو عمارة، ونحو ذلك، تشبيهًا بإحياء الميت" (٦).

والمراد بالإحياء فيها: إحياؤها بالحياة النامية، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [فاطر:٩]، وإنما سمي مواتًا لبطلان الانتفاع بها، كالميت الحقيقي.

---

(١) صحيح البخاري [٥٤١، ٥٤٧، ٥٦٥، ٥٩٩، ٧٧١]، مسلم [٦٤٧].

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر (٤٧١/١).

(٣) غريب الحديث، لأبي سليمان الخطابي (١٩١/١).

(٤) يقول: بقي من الشمس مثل ما يبقى من الذي ينزع. و(الحشاشة): بقية النفس. ديوان ذي الرمة شرح أبي نصر الباهلي رواية ثعلب (٨٠١/٢-٨٠٢).

(٥) أخرجه الطبراني [٨٢٣]، عن فضالة بن عبيد. قال الهيثمي (٤/ ١٥٧): "رواه الطبراني في (الكبير)، ورجاله رجال الصحيح". والحديث له طرق أخرى تحسنه. وفي (صحيح البخاري)، باب من أحيا أرضا مواتًا: وقال عمر: «من أحيا أرضا ميتة فهي له». وروى عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا [٢٣٣٥]، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «من أعمر أرضًا ليست لأحد فهو أحق»، قال عروة: «قضى به عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في خلافته» صحيح البخاري (١٠٦/٣).

(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر (٤٧١/١).

وفي (المغرب): "الْمَوَاتُ: الأرض الخراب، وخلافه: العامر. وعن الطحاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هي ما ليس بملك لأحد، ولا هي من مرافق البلد، وكانت خارجة البلد، سواء قربت منه أو بعدت في ظاهر الرواية. وعن أبي يوسف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أرض الموات هي البقعة التي لو وقف رجل على أدناه من العامر ونادى بأعلى صوته لم يسمعه أقرب من في العامر إليه.."(١).

وقال أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حيَّت النَّار تَحْيَ حَيَاة فهي حَيَّةٌ، كما تقول: ماتت فهي ميتة. وأَرْض حَيَّةٌ: مخصبة، كما قالوا في الجدب: ميتَة. وأحيَيْنا الأَرْض: وجدناها حَيَّةَ النَّبَات غضَّة. وقال أبو حنيفَة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أُحْيِيَت الأَرْض: إذا استُخرجت.

وطرِيق حَيٌّ: بيّن. وَالْجمع: أحياءٌ.

وسمى الله عَزَّوَجَلَّ الدار الآخرة: حيوانًا في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ﴾ [العنكبوت:٦٤]؛ لأن كل من صار إلى الآخرة لم يمت، ودام حيًّا فيها إما في الجنة، وإما في النار (٢).

والله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يحيي الأرض بعد موتها، ويحيي الموتى، وهو على كل شيء قدير، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ [البقرة:١٦٤]، ﴿وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ﴾ [آل عمران:٢٧]، ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ﴾ [الأنعام:٩٥]، ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾ [النحل:٦٥]، ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦﴾ [الحج:٥-٦]، ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [العنكبوت:٦٣]، ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَيُحۡيِ

(١) المغرب، مادة: (موت) (ص:٤٤٨)، انظر: أنيس الفقهاء، لقاسم بن عبد الله القونوي (ص:١٠٥).
(٢) انظر: المحكم والمحيط الأعظم (٣/٣٩٦).

ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١٩﴾ [الروم:١٩]، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآۚ﴾ [الروم:٢٤]، ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآۚ﴾ [الروم:٥٠]، ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩﴾ [فاطر:٩]، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓۚ﴾ [فصلت:٣٩]، ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥﴾ [الجاثية:٥]، ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝١٧﴾ [الحديد:١٧].

قال ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والموت يقع على أنواع بحسب أنواع الحياة:

فمنها: ما هو بإزاء القوة النامية الموجودة في الحيوان والنبات، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآۚ﴾ [الروم:٥٠].

ومنها: زوال القوة الحسية، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُۚ﴾ [فاطر:٢٢].

ومنها: زوال القوة العاقلة، وهي الجهالة، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام:١٢٢]، و﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [النمل:٨٠].

ومنها: الحزن والخوف المكدر للحياة، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍۖ﴾ [إبراهيم:١٧].

ومنها: المنام كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَاۖ﴾ [الزمر:٤٢].

وقد قيل: المنام: الموت الخفيف، والموت: النوم الثقيل.

وقد يستعار الموت للأحوال الشاقة، كالفقر، والذل، والسؤال، والهرم، والمعصية، وغير ذلك" (١).

وقد فصل القول في ذلك: الراغب الأصفهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (المفردات) (٢).

وقد تقدم أن مرور الزمن في الحياة الدنيا ينقل الإنسان من قوة إلى ضعف، ويؤذن بانصرام العمر.

وقال الله عَزَّ وَجَلَّ في بيان حال كثيرٍ من النَّاس الذين يقدِّمونَ الحياةَ الدُّنيا على الآخرة، ويؤثرونَ متاعها العاجل على ما فيه نفعهم وصلاحهم في معاشهم ومعادهم: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧﴾ [الأعلى:١٦-١٧]، أي: ثواب الله عَزَّ وَجَلَّ في الدار الآخرة خير من الدنيا وأبقى؛ فإن الدنيا دنية فانية، والآخرة شريفة باقية، فكيف يؤثر عاقل ما يفنى على ما يبقى، ويهتم بما يزول عنه قريبًا، ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلد؟!

أما الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ فهم أحياء من باب أولى؛ فهم أرفع رتبة من الشهداء والصديقين.

وقد جاء في الحديث: عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الأنبياء أحياء يصلون في قبورهم**» وفي بعض الروايات زيادة: «**يُصَلُّونَ**» (٣).

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (موت) (٣٦٩/٤)، بتصرف يسير.

(٢) انظر: المفردات في غريب القرآن، مادة: (حيي) (ص:٢٦٨-٢٧٠).

(٣) أخرجه البزار [٦٣٩١، ٦٨٨٨]، وأبو يعلى [٣٤٢٥]، وابن عدي (٣٢٧/٢)، ترجمة: الحسن بن قتيبة المدائني [٤٦٠]، كما أخرجه تمام [٥٨]، والديلمي [٤٠٣]، وابن عساكر (٣٢٦/١٣)، قال الهيثمي (٨/ ٢١١): "رواه أبو يعلى، والبزار، ورجال أبي يعلى ثقات". وقال الحافظ في (الفتح) (٤٨٧/٦):= =أخرجه البيهقي في كتاب: (حياة الأنبياء في قبورهم) وصححه". وقال المناوي في (فيض القدير): (١٨٤/٣): "رواه أبو يعلى عن أنس بن مالك، وهو حديث صحيح".

قال العلامة المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون**»؛ لأنهم كالشهداء، بل أفضل، والشهداء أحياء عند ربهم. وفائدة التقييد بالعندية: الإشارة إلى أن حياتهم ليست بظاهرة عندنا. قال: وقوله: «**يُصَلُّونَ**» قيل المراد به: التسبيح والذكر" (١).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ أحياء عند الله عَزَّوَجَلَّ، وإن كانوا في صورة الأموات بالنسبة إلى أهل الدنيا، وقد ثبت ذلك للشهداء، ولا شك أن الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ أرفع رتبة من الشهداء"(٢).

وقال: "وقد أفرد البيهقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ جزءًا لطيفًا في حياة الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ في قبورهم، وأورد فيه عدة أحاديث تؤيد هذا، فيراجع منه، وقال في (دلائل النبوة): الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ أحياء عند ربهم كالشهداء، وقال في كتاب: (الاعتقاد): والأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ بعد ما قبضوا ردت إليهم أرواحهم فهم أحياء عند ربهم كالشهداء" (٣).

وقال البدر العيني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ أحياء، فقد رآهم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حقيقة، وقد مر على موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وهو قائم يصلي في قبره، ورآه في السماء السادسة" (٤).

وللشهداء حياة خاصة، فهم أحياء عند ربهم جَلَّ وَعَلَا، ويرزقون ويكرمون، فالشهيد يبكي عليه أهله وإخوانه ويحزنون وهو فوق ما يُتَصَوَّرُ من السعادة والسرور، فالشهداء

---

(١) فيض القدير (٣/١٨٤).

(٢) فتح الباري، لابن حجر (٦/٤٤٤).

(٣) انظر: التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، لابن حجر (٢/٢٩٣-٢٩٤)، وانظر: فتح الباري، لابن حجر (٦/٤٨٧)، الاعتقاد، للبيهقي (ص:٣٠٥)، دلائل النبوة، للبيهقي (٢/٣٨٨).

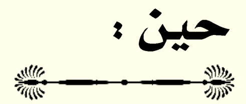
(٤) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٤/٤٨).

فرحون، مستبشرون، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [البقرة:١٥٤]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [آل عمران:١٦٩-١٧١]. وقال المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أخبرنا نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن رسالة ربنا: «**من قتل منا صار إلى الجنة**» (١).

وقال المغيرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أخبرنا نبينا** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **عن رسالة ربنا، أنه من قتل منا صـــار إلى الجنة في نعيم لم ير مثلها قط، ومن بقي منا ملك رقابكم**» (٢).

وقد فصلتُ القول في بيان حال الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والصديقين والشهداء في (الجزء الثاني) من كتاب: (الإرشاد إلى أسباب النجاة).

حين:



ومن الألفاظ ذات الصلة: الحين:

(الْحِينُ) كالوقت في أنَّه مُبْهَمٌ يقع على القليل والكثير.

قال الجوهري رَحِمَهُ اللَّهُ: "الحينُ: الوقت. وربَّما أدخلوا عليه التاء، فقالوا: (تَحِينَ) بمعنى: حين. والحينُ أيضًا: المدَّة. ومنه قوله ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ [الإنسان:١]. وحان له أن يفعلَ كذا يَحِينُ حِينًا -بالكسر-، أي: آن. وحان حينه، أي: قرب وقته. وعاملته

---

(١) صحيح البخاري [٧٥٣٠].

(٢) صحيح البخاري [٣١٥٩].

مُحايَنَةً، مثل: مُسَاوَعَة. وأَحْيَنْتُ بالمكان: إذا أقمتَ به حينًا. وحَيَّنْتُ الناقةَ: إذا جعلت لها في كلِّ يوم وليلة وقتًا تحلبها فيه. وفلان يأكل الحَيْنَةَ والحِينَةَ، أي: المرَّة الواحدة في اليوم والليلة. وفلان يفعل كذا أحيانًا، وفي الأَحايين"(١).

وقال أبو بكر الأنباري رَحِمَهُ اللَّهُ: "الحين عند العرب: الوقت من الزمان، غير محدود، وقد يجيء محدودًا.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم:٢٥]، معناه: كل عام.

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٣٥﴾ [يوسف:٣٥]، معناه: إلى سبع سنين.

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝١٧٤﴾ [الصافات:١٧٤]، معناه: إلى يوم القيامة.

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝٣٦﴾ [البقرة:٣٦]، معناه: إلى انقضاء الآجال.

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ [الإنسان:١]، فالحين ها هنا: أربعون سنة (٢).

---

(١) الصحاح، مادة: (حين) (٥/٢١٠٦).

(٢) قال ابن جرير: "اختلف أهل التأويل في قدر هذا الحين الذي ذكره الله عَزَّوَجَلَّ في هذا الموضع، فقال بعضهم: هو أربعون سنة، وقالوا: مكثت طينة آدم مصوَّرة لا تنفخ فيها الرُّوح أربعين عامًا، فذلك قدر الحين الذي ذكره الله عَزَّوَجَلَّ في هذا الموضع، قالوا: ولذلك قيل: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الإنسان:١]؛ لأنه أتى عليه وهو جسم مصوَّر لم تنفخ فيه الروح أربعون عامًا، فكان شيئا، غير أنه لم يكن شيئا مذكورا، قالوا: ومعنى قوله: ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ لم يكن شيئًا له نباهة ولا رفعة، ولا شرف، إنما كان طينًا لازبًا، وحمأ مسنونًا. وقال آخرون: لا حدَّ للحين في هذا الموضع؛ وقد يدخل هذا القول من أن الله أخبر أنه أتى على الإنسان حين من الدهر، وغير مفهوم في الكلام أن يقال: أتى على الإنسان حين قبل أن يوجد، وقبل أن يكون شيئًا، وإذا أُريد ذلك قيل: أتى حين قبل أن يُخلق، ولم=

والحين أيضًا: ثلاثة أيام. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٤٣﴾ [الذاريات:٤٣]، معناه: إلى ثلاثة أيام (١).

وقال الشاعر في الحين الذي ليس بمحدود:

ماذا مِرَاحُكَ بعدَ العلمِ والدِّينِ وقد علاك مشيب حين لا حين (٢)

معناه: في غير وقت الجهل" (٣).

وقال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والحين: القطعة من الزمان، ومنه: فمكثنا حينا. قال ابن عرفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هو الساعة فما فوقها" (٤).

قال العسكري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الفرق بين الحين والسنة: "إن قولنا: (حين) اسم جمع أوقاتًا متناهية، سواء كان سنة، أو شهورًا، أو أيامًا، أو ساعات؛ ولهذا جاء في القرآن الكريم لمعان مختلفة، وبينه وبين الدهر فرق وهو أن الدهر يقتضي أنه أوقات متوالية مختلفة -على ما ذكرنا-؛ ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ حاكيًا عن الدهريين: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا

=يقل أتى عليه. وأما الدهر في هذا الموضع، فلا حدَّ له يوقف عليه" تفسير الطبري (٢٤/٨٧-٨٨). وذكر الماوردي فيه ثلاثة أقاويل: أحدها: أنه أربعون سنة مرت قبل أن ينفخ فيه الروح، وهو ملقى بين مكة والطائف. الثاني: أنه خلق من طين فأقام أربعين سنة، ثم من حمأ مسنون أربعين سنة، ثم من صلصال أربعين سنة، فتم خلقه بعد مائة وعشرين سنة، ثم نفخ فيه الروح. الثالث: أن الحين المذكور ها هنا: وقت غير مقدر وزمان غير محدود" النكت والعيون (٦/١٦٢).

(١) تفسيره قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ۝٦٥﴾ [هود:٦٥].

(٢) المثبت في ديوان جرير وغيره: (ما بال جهلك...***). انظر: ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب (٢/٥٥٧)، الكتاب، لسيبويه (٢/ ٣٠٥)، التعليقة على كتاب سيبويه (٢/٤٢)، شرح تسهيل الفوائد (٢/٢٠٣)، شرح الرضي على كافية ابن الحاجب (٢/ ١٦٣)، ضرائر الشعر (ص:٧٦)، الأزمنة والأمكنة، لأبي علي أحمد بن محمد المرزوقي الأصفهاني (ص:١٩٦)، شرح شواهد المغني (٢/٦٥٩).

(٣) الزاهر في معاني كلمات الناس، لأبي بكر الأنباري (٢/٦٢).

(٤) مشارق الأنوار (١/٢١٧)، وانظر: مصابيح الجامع، لبدر الدين الدماميني (١/٢٠).

ٱلدَّهۡرُۚ﴾ [الجاثية:٢٤]، أي: يهلكنا الدهر باختلاف أحواله، والدهر أيضًا لا يكون إلا ساعات قليلة ويكون الحين كذلك" (١).

وقد ورد لفظ: (الحين) في آيات كثيرة، فمن ذلك إضافةً إلى ما تقدم: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ﴾ [المائدة:١٠٦].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۢ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ﴾ [إبراهيم:٢٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ٦﴾ [النحل:٦].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٨٠﴾ [النحل:٨٠].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ١١١﴾ [الأنبياء:١١١].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ ٢٥﴾ [المؤمنون:٢٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ٥٤﴾ [المؤمنون:٥٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ٤٢﴾ [الفرقان:٤٢].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ١٧ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ ١٨﴾ [الروم:١٧-١٨].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ١٤٧ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ١٤٨﴾ [الصافات:١٤٧-١٤٨].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ ١٧٤﴾ [الصافات:١٧٤].

---

(١) الفروق اللغوية (ص:٢٧١).

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر:٤٢].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣﴾ [ص:٣] ... إلى غير ذلك من الآيات، وهي تفيد ما تقدم ذكره من المعاني.

وأما قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣﴾ [ص:٣]، فإن مذهب الخليل وسيبويه رَحِمَهُمَاٱللَّهُ أن (لات) هي لا المشبهة بليس زيدت عليها تاء التأنيث لتأكيد هذا النفي، كما زيدت على (رب)، و(ثم)؛ للتأكيد [1]، وبسبب هذه الزيادة حدثت لها أحكام جديدة، منها: أنها لا تدخل إلا على الأحيان، ومنها أن لا يبرز إلا أحد جزءيها، إما الاسم، وإما الخبر ويمتنع بروزهما جميعًا.

وقال الأخفش رَحِمَهُٱللَّهُ: إنها (لا) النافية للجنس زيدت عليها التاء، وخصت بنفي الأحيان، و﴿حِينَ مَنَاصٍ ۝٣﴾ منصوب بها كأنك قلت: ولات حين مناص لهم، ويرتفع بالابتداء، أي: ولات حين مناص كائن لهم [2].

وأشهر أقوال النحويين فيها أنها تعمل عمل ليس، وأنها لا تعمل إلا في الحين خاصة، أو في لفظ الحين ونحوه من الأزمنة، كالساعة والأوان، وأنها لا بد أن يحذف اسمها أو خبرها، والأكثر حذف المرفوع منهما وإثبات المنصوب.

والحين: ظرف مبهم يتخصص بالإضافة.

وهي على مذهب الجمهور تعمل عمل (ليس) فترفع الاسم، وتنصب الخبر، لكن اختصت بأنها لا يذكر معها الاسم والخبر معًا، بل إنما يذكر معها أحدهما.

---

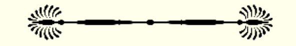
(١) قال في (العين) (٨/٣٦٩): "وأما لات فإنها ينفى بها كما يُنفَى بـ: (لا) إلَّا أنها لا تقع إلَّا على الأزمان". وانظر: الكتاب، لسيبويه (١/٥٧).

(٢) قال الأخفش: "شبهو (لاتَ) بـ: (ليسَ)، وأضمروا فيها اسم الفاعل" معاني القرآن (٢/٤٩٢).

والكثير في لسان العرب حذف اسمها وبقاء خبرها، ومنه قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣﴾ بنصب الحين فحذف الاسم وبقي الخبر، والتقدير: ولات الحين حين مناص، فالحين اسمها، و﴿حِينَ مَنَاصٍ ۝٣﴾ خبرها.

وقد قرئ شذوذًا: ﴿وَّلَاتَ حِينُ مَنَاصٍ ۝٣﴾ برفع الحين على أنه اسم: (لات) والخبر محذوف، والتقدير: ولات حين مناص لهم، أي: ولات حين مناص كائنًا لهم [(١)].

خلد وأخلد:



قال في (العين): "الخُلْدُ: من أسماء الجنان، والخُلُود: البقاء فيها، وهم فيها خالِدونَ ومُخَلَّدون. وتفسير: ﴿وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧﴾ [الواقعة:١٧]: مقرطون [(٢)].

وأخلَدَ فلان إلى كذا، أي: ركن إليه، ورضي به. والخَلَدُ: البال، تقول: ما يقع ذلك في خلدي. والخلد: ضرب من الجرذان عمي، لم يخلق لها عيون، واحدتها: خِلْدة، والجمع: خِلدان. والخَوالِد: الأثافي، وتسمى الجبال والحجارة: خوالِدَ.." [(٣)].

وقال الفراء رَحِمَهُٱللَّهُ في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الأعراف:١٧٦]: "ركن إليها وسكن. ولغة يُقال: خلد إلى الأرض بغير ألف، وهي

---

(١) انظر: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (٣١٩/١).

(٢) قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿مُّخَلَّدُونَ ۝١٧﴾ قيل: مسورون بالأسورة، ومقرطون بالأقراط. والقرط يسمى خُلْدًا وخَلَدًا، وجَمْعُه: خِلَدَة، كَقِرْدَة، وهي لغة حِمْيَرِيَّة استعملها العرب كلهم، وكانوا يحسنون غلمانهم بالأقراط في الآذان. وقال أبو عبيدة: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧﴾: أي لا يهرمون، يبقون على حالهم لا يتغيرون، ولا يكبرون. انظر: مجاز القرآن (٢٤٩/٢).

(٣) العين، مادة: (خلد) (٢٣١/٤-٢٣٢).

قليلة. ويُقال للرجل إذا بقي سواد رأسه ولحيته: إنه مُخْلِد، وإذا لم تسقط أسنانه قيل: إنه لَمخلد" (١).

ونحوه قول الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أَخْلَدَ أَكْثَرُ في اللغة، والمعنى: أنه سكن إلى لذات الأرْض" (٢).

قال الأزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وسمعت من الكسائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ نحوه (٣).

قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "خلد بالمكان وأخلد: أطال به الإقامة" (٤).

وخلدَ بالْمَكَانِ يخلُد خُلودًا وأخلَد، ومنه: خلدَ يخلُد خُلْدًا وخُلودًا: بقيَ، ودار الخُلد: هي الدار الْآخِرَة، وَقد أخلدَ الله عَزَّوَجَلَّ أهلها وخلَّدَهم، والخُلْد، اسْم من أَسمَاء الجْنان (٥).

و"الخُلْدُ: دوامُ البقاء. تقول: خَلَدَ الرجلُ يخلُدُ خُلودًا. وأخلَدَه الله وخَلَّدَه تخليدًا. وقيل لأثافِيّ الصخور: خَوالِدُ؛ لبقائها بعد دُروس الأطلال. وأخلدت إلى فلان، أي: رَكَنت إليه. ومنه قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف:١٧٦]، وأخلد بالمكان: أقام به" (٦).

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الخلود: هو تبري الشيء من اعتراض الفساد، وبقاؤه على الحالة التي هو عليها، وكل ما يتباطأ عنه التغيير والفساد تصفه العرب بالخلود، كقولهم للأثافي: خوالد، وذلك لطول مكثها لا لدوام بقائها. قال: وأصل المخلد: الذي يبقى

(١) معاني القرآن، للفراء (٣٩٩/١).
(٢) معاني القرآن وإعرابه (٣٩١/٢).
(٣) تهذيب اللغة (٧/ ١٢٤).
(٤) أساس البلاغة، مادة: (خلد) (٢٦١/١).
(٥) انظر: المخصص (٣١٩/٣).
(٦) الصحاح، للجوهري، مادة: (خلد) (٤٦٩/٢).

مدة طويلة، ومنه قيل: رجل مخلد لمن أبطأ عنه الشيب، ودابة مخلدة: هي التي تبقى ثناياها حتى تخرج رباعيتها، ثم استعير للمبقي دائمًا. والخلود في الجنة: بقاء الأشياء على الحالة التي عليها من غير اعتراض الفساد عليها، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَـٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ٨٢﴾ [البقرة:٨٢]، ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَـٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ٣٩﴾ [البقرة:٣٩]، ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا﴾ [النساء:٩٣]، وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ١٧﴾ [الواقعة:١٧]، قيل: مبقون بحالتهم لا يعتريهم استحالة، وقيل: مقرطون بخلدة، والخلدة: ضرب من القرطة [(١)]، وإخلاد الشيء: جعله مبقى، والحكم عليه بكونه مبقى، وعلى هذا قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف:١٧٦]، أي: ركن إليها ظانًّا أنه يخلد فيها" [(٢)].

و"الخلود: البقاء في دار لا يخرج منها، والفعل: خلد يخلد. وأهل الجنة خالدون مخلدون آخر الأبد، وأخلد الله عَزَّوَجَلَّ أهل الجنة إخلادًا، والخلد: اسم من أسماء الجنان" [(٣)].

وكلمة الخلود في القرآن الكريم تطلق على التأبيد، وعلى التأقيت، وعلى الفترة الزمنية الطويلة، فإذا قيد الخلود بالتأبيد كان أطول.

---

(١) القُرْط: نوع من حُلِيّ الأذُن معروف، ويجمع على أَقْرَاط، وقِرَطة، وأَقْرِطة. النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (قَرَطَ) (٤١/٤). وقال الفراء في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿مُّخَلَّدُونَ ١٧﴾ [الواقعة:١٧]: يقال: إنهم على سن واحدة، لا يتغيرون. قال: ويقال: ﴿مُّخَلَّدُونَ ١٧﴾: مقرطون. ويقال: مسورون. معاني القرآن، للفراء (١٢٢/٣-١٢٣)، وانظر: تهذيب اللغة (١٢٤/٧). وقيل: هم أولاد أهل الدنيا لم يكن لهم حسنات فيثابوا عليها ولا سيئات فيعاقبوا عليها.

(٢) المفردات في غريب القرآن، مادة: (خلد) (ص:٢٩١-٢٩٢).

(٣) تهذيب اللغة (١٢٤/٧).

ومن الإطلاق على الخلود المؤقت: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾ [الهمزة:٣].

أما قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ [النساء:٩٣] فمعناه: أنه يمكث في النار طويلًا، ولا يحمل على الخلود الأبدي إلا على من كان مستحلًّا للقتل.

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "تعاضدت الدلائل النقلية والعقلية، على أن صاحب الكبيرة إذا كان موحدًا محكومًا بإسلامه لا يخلد في النار، ولا يحرم من الجنة" (١).

والانتحار كذلك من كبائر الذنوب، ومن الذنوب المتوعد عليها بالخلود في النار، كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من تَرَدَّى من جبل فقتل نفسه، فهو في نار جهنم يَتَرَدَّى فيه خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، ومن تَحَسَّى سُمًّا فقتل نفسه، فَسُمُّهُ في يده يَتَحَسَّاهُ في نار جهنم خالدًا مُخَلَّدًا فيها أبدًا، ومن قتل نفسه بحديدة، فحديدته في يده يجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا**» (٢).

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فإن قيل: غاية هذه الأشياء أنها معصية لا كفر فيها، فما وجه الخلود؟ فالجواب: أن ذكر الخلود إنما هو في رواية أبي صالح: عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقد رواه سعيد المقبري والأعرج: عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ولم يذكرا فيه: «**خالدًا مخلدًا أبدًا**». قال الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهذا أصح؛ [لأن الروايات إنما تَجِيءُ بأن أهل التوحيد يُعَذَّبُونَ في النار، ثم يُخْرَجُونَ منها، ولم يُذْكَرْ أنهم يُخَلَّدُونَ فيها].

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٨/٢٤٥٧).

(٢) صحيح البخاري [٥٧٧٨]، مسلم [١٠٩]. و«تردى» بمعنى: سقط. و«يجأ بها»: أي: يضرب بها.

وقال القاضي أبو يعلى رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذا محمول على من فعل ذلك مستحلًا لقتله، ومكذِّبًا بتحريم ذلك، بدليل الأحاديث المروية في أن المسلمين لا يخلَّدُون"(١).

وقد تمسك به المعتزلة وغيرهم ممن قال بتخليد أصحاب المعاصي في النار.

وأجاب أهل السنة عن ذلك بأجوبة منها: ما تقدم من قول الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأجاب غيره بحمل ذلك على من استحله فإنه يصير باستحلاله كافرًا، والكافر مخلد بلا ريب.

وقيل: ورد مورد الزجر والتغليظ، وحقيقته غير مرادة.

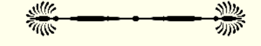
وقيل: المعنى أن هذا جزاؤه، لكن قد تكرم الله عَزَّوَجَلَّ على الموحدين فأخرجهم من النار بتوحيدهم.

وقيل: التقدير مخلدًا فيها إلى أن يشاء الله جَلَّوَعَلَا.

وقيل: المراد بالخلود طول المدة لا حقيقة الدوام، كأنه يقول: يخلد مدة معينة، وهذا أبعدها" (٢).

وقد جاء بيان ذلك مفصلًا في كتاب: (نهج الأبرار).

دأب:



قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ [إبراهيم:٣٣].

يطلق الدأب والدؤوب على اللُّبْث وَالدَّوَام، وطول البقاء في الشيء، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ۝١٠

(١) كشف المشكل من حديث الصحيحين (٣/٤٥٣)، سنن الترمذي [٢٠٤٤].

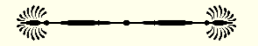
(٢) فتح الباري (٣/٢٢٧-٢٢٨).

كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾ [آل عمران:١٠-١١]، أي: دؤبهم في النار كدؤب آل فرعون [١].

و"الدُّؤوب: المبالغة في السَّيْر، وأدْأبَ الرجلُ الدابَّة إدآبًا: إذا اتعَبَها، والفعل اللازم: دَأَبَت الدابَّةُ تَدْأَبُ دُؤُوبًا. وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [آل عمران:١١]، أي: كعادتهم وحالهم" [٢]. ودأب فلان في عمله، أي: جدَّ وتعِب، دأبًا ودُؤوبًا، فهو دائب. والدائبان: الليلُ والنهار.

والدَّأْبُ: العادةُ والشّأْنُ، وقد يحرك [٣].

دهر:



الدَّهْر: الزَّمَان، ويجمع على دهور.

وقيل: الدَّهْر: الْأَبَد.

وقد تقدم الحديث عن الدهر مفصلًا.

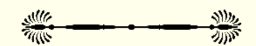
---

(١) انظر: مفاتيح الغيب (١٥٣/٧).

(٢) العين، مادة: (دأب) (٨٥/٨).

(٣) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (دأب) (١٢٣/١-١٢٤).

سرمد :



قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [القصص:٧١-٧٢].

قال أبو عبيدة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ مجازه: دائمًا لا نهار فيه، وكل شيء لا ينقطع من عيش أو رخاء أو غم وبلاء دائم فهو سرمد" (١).

وفي (العين): "السّرمدُ: دوام الزّمان من ليلٍ ونهار. والسَّرمدُ: دوام العيش" (٢).

وإنما جعل الليل سرمدا لطوله شبه بالشيء لا ينقضي.

والعرب تقول لكلِّ ما كان متصلًا لا ينقطع، وما يقع فيه فصل، من رخاء، أو بلاء، أو نعمة: هو سرمد (٣).

وفي (الكليات): "السرمد: من السرد، وهو التوالي والتعاقب، سمي الزمان به لذلك، وزادوا عليه الميم؛ ليفيد المبالغة في ذلك المعنى"(٤).

قال الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لما كان الله عَزَّوَجَلَّ هو الجاعل الأشياء على الحقيقة وأضاف إلى نفسه جعل الليل سرمدًا إلى يوم القيامة صار الليل كأنه سرمد بهذا التقدير، وظرف

---

(١) مجاز القرآن، لأبي عبيدة (١٠٩/٢).

(٢) العين (٣٤١/٧).

(٣) تفسير الطبري (٦١٢/١٩)، التفسير البسيط (٤٤١/١٧-٤٤٢)، غريب الحديث، لابن قتيبة الدينوري (ص:٥٢١). تهذيب اللغة (١٠٥/١٣).

(٤) الكليات (ص:٨٠-٨١).

الليل ظرف مظلم، لا ينفذ فيه البصر لاسيما وقد أضاف الإتيان بالضياء الذي تنفذ فيه الأبصار إلى غيره، وغيره ليس بفاعل على الحقيقة فصار النهار كأنه معدوم؛ إذ نسب وجوده إلى غير موجد، والليل كأنه لا موجود سواه؛ إذ جعل سرمدًا منسوبا إليه جَلَّوَعَلَا فاقتضت البلاغة أن يقول: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۝٧١﴾ [القصص:٧١]؛ لمناسبة ما بين السماع والظرف الليلي الذي يصلح للاستماع، ولا يصلح للإبصار.

وكذلك قال في الآية التي تليها: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٧٢﴾ [القصص:٧٢]؛ لأنه لما أضاف جعل النهار سرمدًا إليه صار النهار كأنه سرمد، وهو ظرف مضيء تنور فيه الأبصار، وأضاف الإتيان بالليل إلى غيره وغيره ليس بفاعل على الحقيقة فصار الليل كأنه معدوم؛ إذ نسب وجوده إلى غير موجد، والنهار كأنه لا موجود سواه؛ إذ جعل وجوده سرمدًا منسوبًا إليه، فاقتضت البلاغة أن يقول: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٧٢﴾؛ إذ الظرف مضيء صالح للإبصار وهذا من دقيق المناسبة المعنوية" (١).

وقد روى أبو نعيم في (الحلية): عن إبراهيم بن بشار، قال: وقف رجل صوفي على إبراهيم بن أدهم فقال: يا أبا إسحاق لم حجبت القلوب عن الله عَزَّوَجَلَّ؟ قال: «لأنها أحبت ما أبغض الله عَزَّوَجَلَّ: أحبت الدنيا، ومالت إلى دار الغرور واللهو واللعب، وتركت العمل لدار فيها حياة الأبد، في نعيم لا يزول ولا ينفد، خالدًا مخلدًا في ملك سرمد، لا نفاد له ولا انقطاع» (٢).

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٨٢/١).

(٢) حلية الأولياء (١٢/٨).

سكن:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة:٣٥].

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [الأعراف:١٦١].

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة:٢٤].

﴿وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ﴾ [التوبة:٧٢].

﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ [إبراهيم:١٤].

﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ [إبراهيم:٣٧].

﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ [إبراهيم:٤٥].

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ [النحل:٨٠].

﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُواْ ٱلْأَرْضَ﴾ [الإسراء:١٠٤].

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ﴾ [طه:١٢٨].

﴿لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَـٰكِنِكُمْ﴾ [الأنبياء:١٣].

﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَـٰعٌ لَّكُمْ﴾ [النور:٢٩].

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَـٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [القصص:٥٨].

﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَـٰكِنِهِمْ﴾ [العنكبوت:٣٨].

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْۚ﴾ [السجدة:٢٦].

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌۖ﴾ [سبأ:١٥].

﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْۚ﴾ [الأحقاف:٢٥].

﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ﴾ [الصف:١٢].

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ [الطلاق:٦].

يقال: سكن الشيء سكونًا: استقرَّ وثبت. وسكَّنَهُ غيره تَسْكينًا. والسَكينَةُ: الوَداعُ والوقار. وسَكَنْتُ داري وأَسْكَنْتُها غيري. والاسم منه: السكنى، كما أن العتبى اسم من الاعتاب.

والمسكن أيضًا: المنزل والبيت. وأهل الحجاز يقولون: مَسْكَنٌ -بالفتح-. والسَكْنُ: أهل الدار.

والسَكَنُ أيضًا: كلُّ ما سكنْتَ إليه (١).

والإسكان: هو جعل الغير ساكنًا، والأصل أن يعدى بـ: (في)؛ لأن السكنى نوع من اللبث والاستقرار، إلا أنهم لما نقلوه إلى سكون خاص تصرفوا فيه، فقالوا: أسكن الدار (٢).

قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة:٣٥]: "السكنى من السكون لأنها نوع من اللبث والاستقرار. وأَنْتَ تأكيد للمستكن في: (اسْكُنْ) ليصح العطف عليه" (٣).

---

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (سكن) (٥/٢١٣٦-٢١٣٧).

(٢) الكليات (ص:١١٥).

(٣) الكشاف (١/١٢٧).

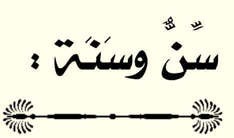
قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "السُّكُونُ: ثبوت الشيء بعد تحرُّك، ويستعمل في الاستيطان نحو: سَكَنَ فلان مكان كذا، أي: استوطنه، واسم المكان: مَسْكَنٌ، والجمع: مَسَاكِنُ، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ﴾ [الأحقاف:٢٥]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ [الأنعام:١٣]، و﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ [يونس:٦٧].

فمن الأوَّل يقال: سكنته.

ومن الثاني يقال: أَسْكَنْتُهُ، نحو قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم:٣٧]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ﴾ [الطلاق:٦]. وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [المؤمنون:١٨]، فتنبيه منه على إيجاده وقدرته على إفنائه.

والسَّكَنُ: السُّكون وما يُسْكَنُ إليه، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا﴾ [النحل:٨٠]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ﴾ [التوبة:١٠٣]، ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا﴾ [الأنعام:٩٦].

والسُّكْنَى: أن يجعل له السكون في دار بغير أجرة، والسَّكْنُ: سُكَّانُ الدَّار..." (١).



سِنٌّ وسَنَة :

السَّنَةُ: الحول، وهي محذوفة اللام، وفيها لغتان:

(١) المفردات في غريب القرآن، مادة: (سكن) (ص:٤١٧-٤١٨).

إحداهما: جعل اللام هاء، ويبنى عليها تصاريف الكلمة والأصل: سنهة، وتجمع على: سَنَهَاتٍ، مثل: سَجْدَةٍ وَسَجَدَاتٍ وتُصَغَّرُ على: سُنَيْهَةٍ. وَتَسَنَّهَتْ النخلة وغيرها: أتت عليها سِنُونَ، وعاملته مُسَانَهَةً، وأرض سَنْهَاءُ: أصابتها السَّنَةُ وهي الْجَدْبُ.

والثانية: جعلها واوا يُبْنَى عليها تصاريف الكلمة أيضًا، والأصل: سَنْوَةٌ، وتجمع على: سَنَوَاتٍ، مثل: شَهْوَةٍ وَشَهَوَاتٍ، وَتُصَغَّرُ عَلَى: سُنَيَّةٍ، وَعَامَلْتُهُ مُسَانَاةً، وَأَرْضٌ سَنْوَاءُ: أَصَابَتْهَا السَّنَةُ، وَتَسَنَّيْتُ عِنْدَهُ: أَقَمْتُ سِنِينَ.

قال النحاة: وتجمع السَّنَةُ كجمع المذكر السالم أيضًا، فيقال: سِنُونَ وَسِنِينَ، وتحذف النون؛ للإضافة.

وفي لغة تثبت الياء في الأحوال كلها، وتجعل النون حرف إعراب تنون في التنكير، ولا تحذف مع الإضافة، كأنها من أصول الكلمة، وعلى هذه اللغة قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهم اجعلها عليهم سنينًا كسنين يوسف**»(١).

والسنة عند العرب: أربعة أزمنة، وربما أطلقت السنة على الفصل الواحد مجازًا، يقال: دام المطر السنة كلها، والمراد: الفصل (٢).

وقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ [البقرة:٢٥٩]، أي: لم تغيره السنون، ومن جعل حذف السنة واوا قرأ: ﴿لَمْ يَتَسَنَّ﴾ وقال: سانيته مساناة، وإثبات الهاء أصوب.

---

(١) أخرجه أحمد [١٠٧٥٤]، والدارقطني [١٦٩٠]. وهو في (الصحيحين) بلفظ: «كَسِنِي يُوسُفَ»، صحيح البخاري [٤٨٢١، ٦٢٠٠، ٦٣٩٣، ٦٩٤٠]، مسلم [٦٧٥، ٢٧٩٨]. وقوله: «كسِنِي يوسفَ» أصله: كسِنين، سقطت النون بالإضافة، ومعنى: «سِنِي يُوسُفَ»: الجدْبُ والقحط الذي أصابهم.

(٢) المصباح المنير، مادة: (سنه) (٢٩٢/١)، وانظر: توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك (٣٣٣/١-٣٣٦)، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (٦٢/١-٦٦)، شرح المفصل للزمخشري، لابن يعيش (٢٢٧/٣)، شرح الشواهد الكبرى (٢١٩/١).

وقال الفراء رَحِمَهُ اللَّهُ في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ﴾: يقال في التفسير: لم يتغير، وتكون الهاء من أصله، وتكون زائدة صلة بمنزلة قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام:٩٠]، فمن جعل الهاء زائدة جعل فعلت منه: تسنيت، ألا ترى أنك تجمع السنة سنوات، فتكون تفعلت على صحة.

ومن قال في تصغير السنة: سنينة وإن كان ذلك قليلًا، جاز أن يقول: تسنيت: تفعلت؛ أبدلت النون ياء لما كثرت النونات، كما قالوا: تظنيت، وأصله الظن، وقد قالوا: هو مأخوذ من قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٢٦﴾ [الحجر:٢٦]، يريدون: متغير، فإن يكن كذلك فهو أيضًا مما أبدلت نونه ياء، ونرى -والله أعلم- أن معناه مأخوذ من السنة: أي: لم تغيره السنون (١).

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: "والصواب من القراءة عندي في ذلك: إثباتُ (الهاء) في الوصل والوقف؛ لأنها مثبتةٌ في مصحف المسلمين، ولإثباتها وجهٌ صحيح في كلتا الحالتين في ذلك (٢). قال: وجعل (الهاء) في (السنة) أصلًا هي اللغة الفصحى. وغير جائز حذف حرف من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ في حال وقف أو وصل؛ لإثباته وجه معروف في كلامها" (٣).

و(السِّنُّ) مؤنَّثة وتصغيرها: سُنَيْنَة، وقد يُعَبَّرُ بِالسِّنِّ عن الْعُمْرِ. وسِنَّةٌ من ثُومٍ، أي: فَصٌّ منه. وسِنُّ الْقَلَم: موضع الْبَرْيِ منه. وأسَنَّ الرَّجُلُ: كَبِرَ (٤).

---

(١) معاني القرآن، للفراء (١/١٧٢-١٧٣)، وانظر: تهذيب اللغة (٦/٧٩)، العين (٤/٨).

(٢) قرأ حمزة والكسائي: ﴿لَمۡ يَتَسَنَّ﴾، بحذف الهاء في الوصل خاصة، والباقون بإثباتها في الحالين. انظر: حاشية الطيبي على الكشاف (٣/٥٠٩)، حجة القراءات، لابن زنجلة (ص:١٤٢-١٤٣).

(٣) انظر ذلك مفصلًا في (تفسير الطبري) (٥/٤٦٠-٤٦٧)، وانظر: التفسير البسيط، لأبي الحسن الواحدي (٤/٣٨٦- ٣٩٢)، غرائب التفسير وعجائب التأويل (١/٢٢٧-٢٢٨)، حاشيتا القونوي وابن التمجيد على البيضاوي (٥/٤١٦).

(٤) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (سنن) (٥/٢١٤٠-٢١٤١).

وقال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "السَّنَةُ في أصلها طريقان:

أحدهما: أنَّ أصلها: سَنَهَةٌ؛ لقولهم: سَانَهْتُ فلانًا، أي: عاملته سَنَةً فسنة، وقولهم: سُنَيْهَةٌ، قيل: ومنه قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ﴾ [البقرة:٢٥٩]، أي: لم يتغيَّر بمرِّ السِّنين عليه، ولم تذهب طراوته.

وقيل: أصله من الواو؛ لقولهم: سنوات، ومنه: سَانَيْتُ، والهاء للوقف، نحو: ﴿كِتَٰبِيَهۡ ١٩﴾ [الحاقة:١٩]، و﴿حِسَابِيَهۡ ٢٠﴾ [الحاقة:٢٠].

وقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ﴾ [المائدة:٢٦]، ﴿سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا﴾ [يوسف:٤٧]، ﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ﴾ [الكهف:٢٥]، ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ [الأعراف:١٣٠]، فعبارة عن الجدب، وأكثر ما تستعمل السَّنَةُ في الحول الذي فيه الجدب، يقال: أَسْنَتَ القوم: أصابتهم السَّنَةُ...." (١).

وقال الفراء رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ [الأعراف:١٣٠]: "أخذهم بالسنين: القحط والجدوبة عامًا بعد عام" (٢).

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿بِٱلسِّنِينَ﴾: جمعُ: سَنَة. وفيها لغتان أشهرهما: إجراؤُه مُجْرى جمع المذكر السالم، فيُرفع بالواو، ويُنْصب ويُجَرُّ بالياء، وتُحْذَفُ نونُه للإضافة.

قال النحاة: إنما جرى ذلك المجرى؛ جبرًا له؛ لِما فاته من لامه المحذوفة.

واللغة الثانية: أن يُجْعَلَ الإعرابُ على النون، ولكن مع الياءِ خاصَّةً. نَقَلَ هذه اللغةَ أبو زيد والفراء رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ. ثم لك فيها لغتان أحدهما: ثبوتُ تنوينها، والثانيةُ عدمهُ. قال الفراء رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هي في هذه اللغة مصروفة عند بني عامر، وغير مصروفة عند بني تميم

(١) المفردات في غريب القرآن (ص:٤٢٩-٤٣٠).

(٢) معاني القرآن، للفراء (٣٩٢/١).

اهـ. ووجه حذف التنوين: التخفيف، وحينئذ لا تُحْذف النون للإضافة، وعلى ذلك جاء قولُه:

دَعَــانِيَ مِــنْ نَـجْـدٍ فـإنَّ سنينَه لَعِبْنَ بـنـا شِـيْبًا وشَـيَّبْنَنَا مُـرْدا (١)

وجاء الحديث «**اللهم اجعلها عليهم سنين كَسِني يوسف**»، و«**سنينًا كسنينِ يوسف**» باللغتين (٢).

الفرق بين السَّنة والحجَّة:

قال العسكري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان الفرق بين السَّنة الْحجَّة: "إن الْحجَّة تفيد أنها يحج فيها، والحجة المرة الواحدة، من حج يحج، والحجة فعله، مثل: الجلسة والقعدة، ثم سميت بها السنة، كما يسمى الشيء باسم ما يكون فيه" (٣).

---

(١) ينسب إلى الصمة بن عبد الله القشيري. انظر: الصمة حياته وشعره، جمع وتحقيق د. خالد الجبر (ص:٧٨)، وهو شاهد مشهور في كتب اللغة. وقال الفراء في (معاني القرآن) (٢/٩٢): "أنشدني بعض بني عَامِر" فذكره، إلا أنه قال: (ذراني من نَجْدٍ..). والشاهد فيه: قوله: (فإن سنينه) حيث نصبه بالفتحة الظاهرة، بدليل بقاء النون مع الإضافة إلى الضمير، فجعل هذه النون الزائدة على بنية الكلمة كالنون التي من أصل الكلمة في نحو: مسكين وغسلين، ألا ترى أنك تقول: هذا مسكين، ولقد رأيت رجلًا مسكينًا، ووقعت عيني على رجل مسكين، وتقول: هذا الرجل مسكينكم، فتكون حركات الإعراب على النون، سواء أضيفت الكلمة أم لم تضف؛ لأن مثلها مثل الميم في غلام، والباء في كتاب، ولو أن الشاعر اعتبر هذه النون زائدة مع الياء للدلالة على أن الكلمة جمع مذكر سالم لوجب عليه هنا أن ينصبه بالياء ويحذف النون فيقول: (فإن سنيه).

(٢) انظر: الدر المصون (٥/٤٢٥-٤٢٦)، تفسير أبي السعود (٣/٢٦٣)، روح المعاني (٥/٣١)، معاني القرآن، للفراء (٢/٩٢)، والحديث قد تقدم.

(٣) الفروق اللغوية (ص:٢٧١).

شهر:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ﴾ [التوبة:٣٦].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾ [البقرة:١٨٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ﴾ [البقرة: ١٩٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ﴾ [البقرة:١٩٧].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ﴾ [البقرة:٢١٧].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤۡلُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ تَرَبُّصُ أَرۡبَعَةِ أَشۡهُرٖۖ﴾ [البقرة: ٢٢٦].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ﴾ [البقرة:٢٣٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ تَوۡبَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ [النساء:٩٢].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ﴾ [المائدة: ٢].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ﴾ [المائدة:٩٧].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٢].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ [التوبة:٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ﴾ [سبأ:١٢].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ﴾ [الأحقاف:١٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ﴾ [المجادلة:٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ﴾ [الطلاق:٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ٣﴾ [القدر:٣].

الشَهْرُ: "واحد الشُهورِ. وقد أَشْهَرْنا، أي: أتى علينا شَهْرٌ.

قال ابن السِّكِّيت رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أَشْهَرْنا في هذا المكان: أقمنا فيه شهرًا [١].

وقال ثعلب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أَشْهَرْنا: دخلنا في الشَهْر. والْمُشاهَرَةُ من الشَّهْر، كالْمُعاوَمَة من العام. والشُهْرَةُ: وضوح الأمر. تقول منه: شَهَرْتُ الأمر أَشْهَرُهُ شَهْرًا وشُهْرَةً، فاشْتَهَرَ، أي: وضح، وكذلك شَهَّرْتُهُ تَشْهيرًا.."[٢].

وقال ابن فارس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الشين والهاء والراء أصل صحيح يدل على وضوح في الأمر وإضاءة. من ذلك: الشهر، وهو في كلام العرب: الهلال، ثم سمي كل ثلاثين يومًا باسم الهلال، فقيل شهر. قد اتفق فيه العرب والعجم؛ فإن العجم يسمون ثلاثين يومًا باسم الهلال في لغتهم. والدليل على هذا قول ذي الرمة:

فأصبح أجلى الطرف ما يستزيده   يرى الشهر قبل الناس وهو نحيل [٣]

(١) انظر: إصلاح المنطق، لابن السِّكيت (ص:١٧٣)، و(ص:١٧٦).

(٢) الصحاح، للجوهري، مادة: (شهر) (٢/٧٠٥).

(٣) مقاييس اللغة (٣/٢٢٢)، والبيت في (ديوان ذي الرمة، شرح أبي نصر الباهلي رواية ثعلب) (٣/١٩٠٠)، وفيه: "وهو ضئيل" مكان: "وهو نحيل".

وأصله من شهر الشيء: إذا أظهره، وهو لكونه ميقاتًا للعبادات والمعاملات صار مشهورًا بين الناس. وفي (البحر): "الشَّهْرُ مصدر: شَهَرَ الشَّيْءَ يَشْهَرُهُ: أَظْهَرَهُ وَمِنْهُ الشُّهْرَةُ، وبه سمي الشهر، وهو: المدة الزمانية التي يكون مبدؤ الهلال فيها خافيًا إلى أن يستسر، ثم يطلع خافيًا. سمي بذلك؛ لشهرته في حاجة الناس إليه في المعاملات وغيرها من أمورهم" (١).

قال الواحدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الشهر: مأخوذ من الشهرة، تقول: شَهَرَ الشيء يَشْهَرُه شَهْرًا: إذا أظهره، وسمي الشَّهْرُ شهرًا؛ لشهرة أمره في حاجة الناس إليه في معاملاتهم، ومحل ديونهم، وقضاء نسكهم في صومهم، وحجهم، وغير ذلك من أمورهم" (٢).

وقال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "سمي الهلال شهرًا؛ لشُهْرتِه وبيانه" (٣).

وقال غيره: سمي شهرًا باسم الهلال، إذا أهل يسمى شهرًا، والعرب تقول: رأيت الشهر، أي: رأيت هلاله (٤). وقد أَشْهَرْنا، أي: أتى علينا شَهْرٌ -كما تقدم-.

وقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ لبعض الشهور فضلًا على بعض ميزها بخصائص وأعمال جليلة، كفضل شهر رمضان، وشهر شعبان، والأشهر الحرم، كما جعل بعض الأيام والليالي أفضل من بعض، وجعل ليلة القدر خيرًا من ألف شهر.

وفي الحديث: عن أبي بكرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطب في حجَّة الوداع، فقال في خطبته: «**إنَّ الزَّمَانَ قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات**

---

(١) انظر: البحر المحيط في التفسير (٢/١٧٢- ١٧٣).

(٢) انظر: التفسير البسيط (٣/٥٦٩-٥٧٠)، مفاتيح الغيب (٥/٢٥٠-٢٥١)، البحر المحيط في التفسير (٢/١٧٢- ١٧٣)، الدر المصون (٢/٢٧٩-٢٨٠).

(٣) معاني القرآن وإعرابه (١/٢٥٩).

(٤) تهذيب اللغة (٦/٥١).

والأرض، السنة اثنا عشر شهرًا، منها: أربعة حرم، ثلاث متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورَجَبٌ شهْرُ مُضَرَ الَّذي بين جُمَادَى وشعبَانَ» (١).

طبقة:

الطَّبَقُ واحدُ: الأطباق. وطبقات النَّاس: مراتِبُهُمْ. وَالسَّمَوَاتُ طباق: أي: بعضها فوق بعض.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًاۖ﴾ [الملك:٣]، ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ١٥﴾ [نوح:١٥].

ويقال: مضى طبق من النهار، أي: ساعة. ومثله مضت طائفة من الليل.

والطبق الحال من قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ١٩﴾ [الانشقاق:١٩]، أي: حالًا عن حالٍ يوم القيامة. وقيل: الطبق: المنزلة، وكل شيء طوبق بعضه على بعض فالأعلى منه طبق للأسفل.

والطبق: الدرك من أدراك جهنم، والطبق جماعة من الناس يعدلون جماعة مثلهم، و وطِباقُ الأرض: ما علاها. ومطرٌ طَبَقٌ، أي: عامٌّ. تقول العرب: اللهم اسقنا غيثًا طبقًا، أي: يطبق الأرض.

والطبق: القرن من الناس يطبقون الأرض، ثم يموتون، ويأتي طبق آخر.

والطبق: المتشابهون من الخلق والعرب، تقول: هم طبقة واحدة: إذا كانوا متشابهين، والناس طبقات، أي: بعضهم أرفع من بعض.

---

(١) صحيح البخاري [٣١٩٧، ٤٤٠٦، ٤٦٦٢، ٥٥٥٠، ٧٤٤٧]، مسلم [١٦٧٩].

والْمُطابَقَةُ: الموافقَةُ. والتَطَابقُ: الاتِّفاقُ. وطابَقْتُ بين الشيئين: إذا جعلتهما على حَذْوٍ واحد، وألزقتهما.

وأطْبقوا على الأمر، أي: اتَّفَقُوا عليه.

وأطبقت الشيء، أي: غطيته وجعلته مُطْبقًا، فَتَطَبَّقَ هو، ومنه قولهم: لو تطبقت السَّماءُ على الأرض ما فعلت كذا.

والحُمَّى الْمُطْبِقَةُ، هي الدَّائمة لا تفارق ليلًا ولانهارًا (١).

والطبق، والطبقة: الفقرة حيث كانت.

وقيل: هي ما بين الفقرتين وجمعها: طباق.

وقد قيل: الطَّبَقَة: عشرُون سنة. عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا من كتاب الهجري (٢).

وفي الحديث: عن أبي يعفور، قال: سمعت مصعب بن سعد، يقول: صليت إلى جنب أبي، فَطَبَّقْتُ بين كَفَّيَّ، ثم وضعتهما بين فَخِذَيَّ، فنهاني أبي، وقال: «**كنا نفعله، فنهينا عنه وأمرنا أن نضع أيدينا على الركب**» (٣).

فقوله: «**طَبَّقْتُ**» أي: جعلتهما على حَذْوٍ واحد وألزقتهما.

والطبقة -كما تقدم-: مدة من الزمن محددة، وللعلماء عناية فائقة في تحديد طبقات التابعين؛ لمعرفة المتقدم منهم، وشرف الزمان كلما قرب من عصر النبوة؛

---

(١) انظر: العين، مادة: (طبق) (١٠٨/٥)، تهذيب اللغة (٢٩/٩)، الصحاح، للجوهري (١٥١٢/٤)، اتفاق المباني وافتراق المعاني، لتقي الدين سليمان بن بنين (ص:٢٢٨-٢٢٩).

(٢) المحكم والمحيط الأعظم، مادة: (طبق) (٢٩٣/٦).

(٣) صحيح البخاري [٧٩٠].

لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**» [(١)].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: "والمراد بقرن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث: الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ" [(٢)]، والثاني: التابعون، والثالث: تابعوهم.

قال الحافظ العراقي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وِلِلرُّوَاةِ طَبَقَاتٌ تُعْرَفُ ... بالسِّنِّ والأَخْذِ، وَكَمْ مُصَنِّفُ

يَغْلَطُ فيها، وابْنُ سَعْدٍ صَنَّفَا ... فيها ولكنْ كَمْ رَوَى عن ضُعَفَا[(٣)]

قال في (الشرح): "فمن المهمات: معرفة طبقات الرواة؛ فإنه قد يتفق اسمان في اللفظ، فيظن أن أحدهما الآخر، فيتميز ذلك بمعرفة طبقتيهما، إن كانا من طبقتين، فإن كانا من طبقة واحدة فربما أشكل الأمر، وربما عرف ذلك بمن فوقه، أو دونه من الرواة، فربما كان أحد المتفقين في الاسم لا يروي عمن روى عنه الآخر، فإن اشتركا في الراوي الأعلى وفيمن روى عنهما، فالإشكال حينئذ أشد. وإنما يميز ذلك أهل الحفظ والمعرفة.

ويعرف كون الراويين أو الرواة من طبقة واحدة، بتقاربهم في السن، وفي الشيوخ الآخذين عنهم، إما بكون شيوخ هذا هم شيوخ هذا أو تقارب شيوخ هذا من شيوخ هذا في الأخذ، كما تقدمت الإشارة إلى نحو ذلك في رواية الأقران، فإن مدلول الطبقة لغة: القوم المتشابهون، وأما في الاصطلاح فالمراد: المتشابه في الأسنان، والإسناد، وربما اكتفوا بالمتشابه في الإسناد.

---

(١) صحيح البخاري [٢٦٥١، ٢٦٥٢، ٣٦٥٠، ٣٦٥١، ٦٤٢٨، ٦٤٢٩، ٦٦٥٨، ٦٦٩٥]، مسلم [٢٥٣٣، ٢٥٣٤، ٢٥٣٥، ٢٥٣٥، ٢٥٣٦].

(٢) فتح الباري (٧/٥-٦).

(٣) ألفية العراقي المسماة بـ: (التبصرة والتذكرة في علوم الحديث) (ص:١٨٤) [٩٩٢، ٩٩٣].

وبسبب الجهل بمعرفة الطبقات غلط غير واحد من المصنفين، فربما ظن راويًا راويًا آخر غيره، وربما أدخل راويًا في غير طبقته.

وقد صنف في الطبقات جماعة، فمنهم من اختصر، كخليفة بن خياط، ومسلم بن الحجاج رَحِمَهُمَاٱللَّهُ، ومنهم من طول كمحمد بن سعد رَحِمَهُٱللَّهُ في (الطبقات الكبرى)، وله ثلاثة تصانيف في ذلك، وكتابه الكبير كتاب جليل، كثير الفائدة، وابن سعد رَحِمَهُٱللَّهُ ثقة في نفسه، وثقه أبو حاتم رَحِمَهُٱللَّهُ وغيره، ولكنه كثير الرواية في الكتاب المذكور عن الضعفاء، كمحمد بن عمر بن واقد الأسلمي الواقدي. ويقتصر كثيرًا على اسمه واسم أبيه من غير نسب، وكهشام بن محمد ابن السائب الكلبي، ونصر بن باب الخراساني في آخرين منهم. على أن أكثر شيوخه أئمة ثقات، كسفيان بن عيينة، وابن علية، ويزيد بن هارون، ومعن بن عيسى، وهشيم، وأبي الوليد الطيالسي، وأبي أحمد الزبيري، وأنس ابن عياض، وغيرهم، ولكنه أكثر الرواية في الكتاب المذكور عن شيخيه الأولين.

ثم إنه قد يكون الراوي من طبقة؛ لمشابهته لتلك الطبقة من وجه، ومن طبقة أخرى غيرها؛ لمشابهته لها من وجه آخر.

وأنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ونحوه من صغار الصحابة من طبقة العشرة عند من عد الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ كلهم طبقة واحدة، كابن حبان في (الثقات)؛ لاشتراكهم في الصحبة، وهو من طبقة أخرى دون طبقة العشرة، عند من عد الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ طباقًا، والتابعين

طباقًا [١]، كابن سعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقد تقدم في معرفة الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أنهم اثنتا عشرة طبقة، أو أكثر، وتقدم في معرفة التابعين أنهم خمس عشرة طبقة -والله أعلم-" [٢].

وقال شمس الدين السخاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "(طبقات الرواة) وهو من المهمات، وفائدته الأمن من تداخل المشتبهين كالمتفقين في اسم أو كنية أو نحو ذلك، وإمكان الاطلاع على تبين التدليس، والوقوف على حقيقة المراد من العنعنة، وبينه وبين التاريخ عموم وخصوص وجهي، فيجتمعان في التعريف بالرواة، وينفرد التاريخ بالحوادث والطبقات، بما إذا كان في البدريين -مثلًا- من تأخرت وفاته عمن لم يشهدها؛ لاستلزامه تقديم المتأخر الوفاة، وقد فرق بينهما بعض المتأخرين بأن التاريخ ينظر فيه بالذات إلى المواليد والوفيات، وبالعرض إلى الأحوال، والطبقات ينظر فيها بالذات إلى الأحوال، وبالعرض إلى المواليد والوفيات، ولكن الأول أشبه...الخ" [٣].

قال ابن الصلاح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "معرفة طبقات الرواة والعلماء من المهمات التي افتضح بسبب الجهل بها غير واحد من المصنفين وغيرهم.

وطبقات ابن سعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ عظيم كثير الفوائد، وهو ثقة، ولكنه كثير الرواية فيه عن الضعفاء، منهم: شيخه محمد بن عمر الواقدي. لا ينسبه.

---

(١) الطبقة القوم المتشابهون، وقد يكونون من طبقة باعتبار، ومن طبقتين باعتبار كأنس وشبهه من أصاغر الصحابة، هم مع العشرة في طبقة الصحابة إذا جعلوا كلهم طبقة واحدة، وعلى هذا فالتابعون طبقة ثانية، وأتباعهم ثالثة، وهلم جرًّا. وأما باعتبار السوابق فالصحابة بضع عشرة طبقة، والتابعون طبقات أيضًا، وكذلك من بعدهم.

(٢) شرح التبصرة والتذكرة (٢/٣٤٢-٣٤٤).

(٣) انظر: فتح المغيث بشرح الفية الحديث (٤/٣٨٨-٣٩٣).

والطبقة في اللغة: عبارة عن القوم المتشابهين، وعند هذا فرب شخصين يكونان من طبقة واحدة؛ لتشابههما بالنسبة إلى جهة، ومن طبقتين بالنسبة إلى جهة أخرى لا يتشابهان فيها.

قال: وعلى هذا فالصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بأسرهم طبقة أولى، والتابعون طبقة ثانية، وأتباع التابعين ثالثة، وهلم جرًّا.

والباحث الناظر في هذا الفن يحتاج إلى معرفة المواليد والوفيات، ومن أخذوا عنه ومن أخذ عنهم، ونحو ذلك -والله أعلم-" [(١)].

وقال أبو عبد الله الحاكم رَحِمَهُ اللَّهُ في شأن التابعين: "هم طبقات خمس عشرة طبقة: آخرهم من لقي أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أهل البصرة، ومن لقي عبد الله بن أبي أوفى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أهل الكوفة، ومن لقي السائب بن يزيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أهل المدينة، ومن لقي عبد الله بن الحارث بن جزء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أهل مصر، ومن لقي أبا أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أهل الشام" [(٢)].

وأما صاحب الطبقات محمد بن سعد رَحِمَهُ اللَّهُ فقد قسم التابعين إلى أقسام باعتبار منازلهم: كوفيين، وبصريين، وشاميين، ومكيين، ومدنيين، وعراقيين، ويمنيين، ومصريين، ومن نزل اليمامة، ومن نزل البحرين، وغير ذلك..

وينظر ذلك في مظانه.

وعلم الطبقات في العلوم العربية والإسلامية يتفرع إلى أنواع متعددة، فمن ذلك:

- علم طبقات القراء.
- علم طبقات المفسرين.

---

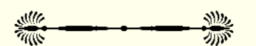
(١) معرفة أنواع علوم الحديث (مقدمة ابن الصلاح) (ص:٣٩٩)، بتصرف واختصار.

(٢) معرفة علوم الحديث، لأبي عبد الله الحاكم (ص:٤٢).

- علم طبقات المحدثين.
- علم طبقات الشافعية.
- علم طبقات الحنفية.
- علم طبقات المالكية.
- علم طبقات الحنابلة.
- علم طبقات النحاة.
- علم طبقات الأطباء.
- طبقات الفقهاء.
- طبقات الحفاظ......إلى غير ذلك.

وقد يختص ذلك بفترة زمنية معينة، كطبقات الممالك -مثلًا-.

عام:



قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَـٰذَاۚ﴾ [التوبة:٢٨].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ [التوبة:٣٧].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ﴾ [التوبة:١٢٦].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ٤٩﴾ [يوسف:٤٩].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت:١٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان:١٤].

قال في (العين): "العامُ: حَوْلٌ يأتي على شَتْوةٍ وصَيْفَةٍ، أَلِفُها واو، ويُجمَع على الأعوام. ورَسْمٌ عامِيٌّ أو حَوْلِيٌّ: أتَى عليه عامٌ" (١).

وقال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والعام: السنة. يقال: سنون عوم، وهو توكيد للأول، كما تقول: بينهم شغل شاغل" (٢).

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: العَامُ كالسّنة، لكن كثيرًا ما تستعمل السَّنَة في الحول الذي يكون فيه الشِّدَّة أو الجدب؛ ولهذا يعبَّر عن الجدب بالسَّنَة، والْعَامُ بما فيه الرَّخاء والخصب، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ۝٤٩﴾ [يوسف:٤٩]، وقوله: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت:١٤]. ففي كون المستثنى منه بالسَّنَة والمستثنى بِالْعَامِ لطيفة، والْعَوْمُ السّباحة، وقيل: سمي السَّنة: عَامًا؛ لِعَوْمِ الشمس في جميع بروجها، ويدلُّ على معنى الْعَوْم: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٤٠﴾ [يس:٤٠]" (٣).

واللطيفة قيل: هي أن نوحًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عاش بعد إغراق قومه ستين سنة في طيب زمان، وصفاء عيش، وراحة بال. فخص لفظ العام بالخمسين؛ إيذانًا بأن نبي الله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما استراح منهم بقي في زمن حسن، والعرب تعبر عن الخصب بالعام وعن الجدب بالسنة.

---

(١) العين، مادة: (عوم) (٢/٢٦٨).

(٢) الصحاح، مادة: (عوم) (٥/١٩٩٣-١٩٩٤).

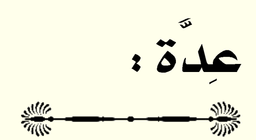
(٣) المفردات في غريب القرآن، مادة: (عوم) (ص:٥٩٨).

قال برهان الدين البقاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وعبر بلفظ: ﴿سَنَةٍ﴾ ذمًّا لأيام الكفر، وقال: ﴿إِلَّا خَمْسِينَ﴾ فحقق أن ذلك الزمان تسعمائة وخمسون من غير زيادة ولا نقص، مع الاختصار والعذوبة، وقال: ﴿عَامًا﴾، إشارة إلى أن زمان حياته عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بعد إغراقهم كان رغدًا واسعًا حسنًا بإيمان المؤمنين، وخصب الأرض" (١).

وقال العسكري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان الفرق بين العام والسنة: "إن العام جمع أيام، والسنة جمع شهور.

ويجوز أن يقال: العام يفيد كونه وقتًا لشيء، والسنة لا تفيد ذلك؛ ولهذا يقال: عام الفيل، ولا يقال: سنة الفيل. ويقال في التاريخ: سنة مائة، وسنة خمسين، ولا يقال: عام مائة، وعام خمسين؛ إذ ليس وقتًا لشيء مما ذكر من هذا العدد، ومع هذا فإن العام هو السنة والسنة هي العام، وإن اقتضى كل واحد منهما ما لا يقتضيه الآخر مما ذكرناه، كما أن الكل هو الجمع، والجمع هو الكل وإن كان الكل إحاطة بالأبعاض، والجمع إحاطة بالأجزاء" (٢).

عِدَّة :



قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة:١٨٤].

﴿وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة:١٨٥].

﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ [التوبة:٣٧].

---

(١) نظم الدرر (١٤/٤٠٤).

(٢) الفروق اللغوية (ص:٢٧١).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ [الأحزاب:٤٩].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ [الطلاق:١].

﴿وَٱلَّـٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّـٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلَـٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:٤].

قال في (العين): "الوَعْدُ والعِدَةُ يكونان مصدرًا واسمًا. فأمَّا العِدَةُ فتُجْمع: عِدات، والوعد لا يجمع. والموعِدُ: موضع التَّواعُد، وهو الميعادُ. والمَوْعِدُ مصدرُ وَعَدْتُهُ، وقد يكون الموعِدُ وقتًا للعدة.

والموعدة: اسم للعدة. قال جرير:

تُعَلِّلُنا أُمامةُ بالعِداتِ وما تَشْفي القُلوبَ الصَّادياتِ [(١)]

والميعاد لا يكون إلَّا وقتًا أو موضعًا" [(٢)].

وقال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "عَدَّهُ: أحْصَاه، والاسم: الْعَدَدُ، والْعَدِيدُ. يقال: هم عَدِيدُ الْحَصَى. وعَدَّهُ فاعْتَدَّ، أي: صار مَعْدُودًا، واعْتَدَّ به. والْأَيَّامُ الْمَعْدُودَاتُ: أَيَّامُ التَّشْرِيق. وعِدَّةُ المرأة: أيام أقْرائِها. وقد اعْتَدَّتْ، وانقضتْ عِدَّتُها. وتقول: أنفذْت عِدَّةَ كتبٍ، أي: جماعةَ كتبٍ. والعُدَّةُ -بالضم-: الاستعداد. يقال: كونوا على عُدَّةٍ. والعُدّةُ أيضًا: ما أعْدَدْتَه لحوادث الدهر من المال والسلاح. يقال: أخذَ للأمر عُدَّتَهُ وعَتاده، بمعنًى" [(٣)].

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "عِدَّةُ المرأة: وهي الأيام التي بانقضائها يحلُّ لها التزوج.

---

(١) ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب (٢/٨٢٧).

(٢) العين، مادة: (وعد) (٢/٢٢٢).

(٣) الصحاح، للجوهري، مادة: (عدد) (٢/٥٠٥-٥٠٦).

والإعدادُ من العَدِّ كالإسقاء من السَّقْيِ، فإذا قيل: أَعْدَدْتُ هذا لك، أي: جعلته بحيث تَعُدُّهُ وتتناوله بحسب حاجتك إليه. قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠]، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ١٨﴾ [النساء:١٨]، ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ﴾ [الفرقان:١١]، وقوله: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ [يوسف:٣١]، قيل: هو منه. وقوله: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة:١٨٤]، أي: عدد ما قد فاته، وقوله: ﴿وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ [البقرة:١٨٥]، أي: عِدَّةَ الشَّهر، وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [البقرة:١٨٤]، فإشارة إلى شهر رمضان. وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [البقرة:٢٠٣]، فهي ثلاثة أيام بعد النَّحر، والمعلومات: عشر ذي الحجّة. وعند بعض الفقهاء: الْمَعْدُودَاتُ: يومُ النَّحر ويومان بعده، فعلى هذا يوم النَّحر يكون من الْمَعْدُودَاتِ والمعلومات. والعِدَادُ: الوقت الذي يُعَدُّ لمعاودة الوجع، وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**ما زالت أكلة خيبر تُعَادُّنِي**» (١). وعِدَّانُ الشيءِ: عهده وزمانه" (٢).

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: قوله جَلَّوَعَلَا: الأيام المعلومات: أيام العشر، والأيام المعدودات: أيام التشريق (٣).

---

(١) أخرجه البزار [٨٠٠٧]، وقال: "وهذا الحديث لا نعلم رواه عن محمد، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة إلا سعيد بن محمد، ولم يسمعه إلا من إبراهيم بن سعيد، وسعيد بن محمد ليس بالقوي، وحدث عنه جماعة من أهل العلم، واحتملوا حديثه، وكان من أهل الكوفة اهـ". ورواه ابن عدي في (الكامل) وأعله، بسعيد بن محمد، ونقل تضعيفه عن النسائي وابن معين. انظر: الكامل في ضعفاء الرجال، ترجمة: (سعيد بن محمد الوراق) (٤/٤٥٩-٤٦١)، وانظر طرق الحديث ورواياته مفصلة في (تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف)، للزيلعي (١/٦٨-٧٤).

(٢) المفردات في غريب القرآن، مادة: (عد) (ص:٥٥٠-٥٥١).

(٣) انظر: صحيح البخاري (٢/٢٠).

وفي قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ [البقرة:١٨٤] اختصار حذف، أي: من كان مريضًا فأفطر فعدة، أو على سفرٍ فأفطر فعدة.

قال الأخفش رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة:١٨٤]: يقول: فعَلَيْهِ عِدَّةٌ رفع، وإنْ شِئْتَ نَصَبْتَ (العِدَّةَ) على فَلْيَصُمْ عِدَّةً، إلا أنَّه لم يُقرأ" [١].

فليس المرض والسفر على الإطلاق؛ فان المريض إذا لم يضر به الصوم لم يجز له الإفطار، وإنما الرخصة موقوفة على زيادة المرض بالصوم.

وقد ربط الشارع الحكيم رخصة الفطر بالنسبة للمسافر بالسفر ولم يربطها بالمشقة؛ لأن المشقة متفاوتة.

واتفق العلماء أن السفر مقدر.

وللعلماء تقييدات في السفر الذي تباح فيه الرخص بالمسافة أو المدة.

فمنهم من قدره بالمسافة، ومنهم من قدره بالمدة والتحديد بالأيام، فقال الحنفية هو مقدر بمسيرة ثلاثة أيام بسير الإبل ومشي الأقدام، وقال آخرون: هو مقدر بيوم وليلة.

وذكر ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن الشارع الحكيم ذكر السفر، وأطلقه بدون ذكر مسافة، ولا مدة، وجعل ذلك راجعًا إلى العرف، فأي سفر في عرف الناس فهو السفر الذي علق الشارع الحكيم الرخص عليه، قال: والتحديد لم يثبت به نص ولا إجماع ولا قياس.

وهو خلاف ما عليه الأئمة الأربعة، وقد يكون العرف غير منضبط، فقيل: لا من الرجوع والحالة هذه إلى القول بالتحديد، أما ما دام الأمر منضبطًا فالرجوع إلى العرف هو الصواب على هذا القول.

---

(١) معاني القرآن، للأخفش (١/١٦٩).

والمسافر الذي يباح له الفطر:

١ – من سافر مسافة أو مدة قصر.

٢ – من كان سفره مباحًا على قول الأكثر.

أما من سافر سفرًا لا يبلغ مسافة القصر، أو كان سفره سفر معصية، فلا يباح لهما الفطر.

وكذا لو سافر؛ ليفطر: حرم عليه السفر والفطر. والقول بأن العاصي بسفره لا يباح له الفطر ولا غيره من رخص السفر ،كقصر الصلاة هو مذهب المالكية والشافعية والحنابلة.

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ [البقرة:١٨٥] قرئ بالتشديد والتخفيف.

من كمَّل يكمِّل، وأكمل يُكْمِل. قال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: معطوف على علة محذوفة قد حذف معلولها. التقدير: فعل الله عَزَّوَجَلَّ ذلك؛ ليسهل عليكم ولتكملوا العدة [١].

وقيل: الفعل المعلل مقدر بعد قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾، تقديره: شرع ذلك، قاله الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهذا نص كلامه قال: "شرع ذلك، يعني: جملة ما ذكر من أمر الشاهد بصوم الشهر وأمر المرخص له بمراعاة عدة ما أفطر فيه ومن الترخيص في إباحة الفطر، فقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلِتُكْمِلُواْ﴾ علة الأمر بمراعاة العدة، ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ﴾ علة ما علم من كيفية القضاء، والخروج عن عهدة الفطر. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ علة الترخيص والتيسير، وهذا نوع من اللف لطيف المسلك، لا يهتدي إلى تبينه إلا النقاب من علماء البيان" [٢].

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (١/٢٥٤).

(٢) الكشاف (١/٢٢٨)، وانظر: الدر المصون (٢/ ٢٨٦)، البحر المحيط في التفسير (٢/٢٠٢).

وفي الحديث: عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**الشهر تسع وعشرون ليلة، فلا تصوموا حتى تروه، فإن غُمَّ عليكم فأكملوا العدة ثلاثين**» [(١)].

وعن محمد بن زياد، قال: سمعت أبا هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يقول: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أو قال: قال أبو القاسم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غُبِّيَ عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين**» [(٢)].

وعن عمرو بن مرة، قال: سمعت أبا البختري، قال: أهللنا رمضان ونحن بذات عرق، فأرسلنا رجلًا إلى ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يسأله، فقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله قد أمده لرؤيته، فإن أُغْمِيَ عليكم فأكملوا الْعِدَّةَ**» [(٣)].

وأما قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ [التوبة:٣٧] فإن النسيء -هذا- تأخير الشيء، وكانوا يحرمون القتال في المحرم فإذا عزموا على أن يقاتلوا فيه جعلوا صفرًا كالمحرَّم، وقاتلوا في المحرم وأبدلوا صفرًا منه، فأعلم الله عَزَّ وَجَلَّ أن ذلك زيادة في الكفر.

﴿لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾، فيجعلوا صفرا كالمحرم في العدة، ويقولوا: إن هذه أربعة بمنزلة أربعة. والمواطأة المماثلة والاتفاق على الشيء. قاله الزجاج رَحِمَهُ اللَّهُ [(٤)].

---

(١) صحيح البخاري [١٩٠٧].

(٢) صحيح البخاري [١٩٠٩]. و«غُبِّيَ» بضم المعجمة وكسر الموحدة المشددة. وفي نسخة: «غَبِيَ»، كعلم، وفي أخرى: «أُغمِيَ»، وفي أخرى: «غُمَّ». انظر: منحة الباري (٤/٣٤٩-٤٥٠). و«غبي» من الغباوة، وهي عدم الفطنة. يقال: غبي علي إذا لم تعرفه، وهي هنا استعارة لخفاء الهلال.

(٣) صحيح مسلم [١٠٨٨].

(٤) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٢/٤٤٧).

وأما عدة المرأة فهي مدة شرعها الله عَزَّوَجَلَّ بعد طلاق أو وفاة زوجها.

والْعِدَّة في اللغة: الإحصاء، يقال: عددت الشيء، أي: أحصيته، وتطلق أيضًا على المعدود.

وسميت بذلك؛ لاشتمالها على العدد من الأقراء أو الأشهر غالبًا، فعدة المرأة المطلقة والمتوفى عنها زوجها هي ما تعده من أيام أقرائها، أو أيام حملها، أو أربعة أشهر وعشر ليال.

وقيل: تربصها المدة الواجبة عليها.

وجمع العدة: عدد، كسدرة، وسدر.

وقيل: هي في الشرع: اسم لمدة تتربص فيها المرأة؛ لمعرفة براءة رحمها، أو للتعبد، أو لتفجعها على زوجها [1].

وقيل: هي شرعًا: تربصٌ يلزم المرأة عند زوال النكاح أو شبهته، وسمي التربص عدة؛ لأن المرأة تحصي الأيام المضروبة عليها، وتنتظر الفرج الموعود لها.

وقيل: العدة في الشرع: تربص يلزم المرأة عند زوال النكاح المتأكد بالدخول أو ما يقوم مقامه من الخلوة والموت. قال ابن الهمام رَحِمَهُ اللَّهُ: "وينبغي أن يزاد: وشبهته -بالجر- عطفًا على النكاح" [2].

---

(١) انظر: أسنى المطالب في شرح روض الطالب (٣/٣٨٩)، فتح الوهاب بشرح منهج الطلاب (٢/١٢٦)، الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع (٢/٤٦٥)، مغني المحتاج (٥/٧٨)، الغرر البهية (٤/٣٤٣).

(٢) فتح القدير، للكمال بن الهمام (٤/٣٠٧).

قال القاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فكأنهم أرادوا بالنكاح حقيقته وحكمه، ومن المعلوم أن الطلاق قبل الدخول لا تجب فيه العدة؛ لقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ [الأحزاب:٤٩]"(١).

والعلاقة بين التربص والعدة أن التربص ظرف للعدة فإذا انتهت العدة انتهى التربص، وأنه يوجد في العدة وفي غيرها، فهو أعم من العدة، فكل عدة تربص، وليس كل تربص عدة.

ومن المسائل ذات الصلة بالعدة: الإحداد، وهو لغة: المنع، ومنه: امتناع المرأة عن الزينة وما في معناها؛ إظهارًا للحزن والأسف.

وفي الاصطلاح: هو امتناع المرأة عن الزينة وما في معناها مدة مخصوصة في أحوال مخصوصة، ومنه امتناع المرأة من البيتوتة في غير منزلها.

والعلاقة بين العدة والإحداد: أن العدة ظرف للإحداد، ففي العدة تترك المرأة زينتها لموت زوجها.

وتجب العدة على المرأة بالفرقة بين الزوجين بعد الدخول بسبب الطلاق أو الموت أو الفسخ أو اللعان، كما تجب بالموت قبل الدخول وبعد عقد النكاح الصحيح.

وأما الخلوة فقد اختلف الفقهاء في وجوب العدة بها.

أما قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ [الطلاق:١]. فقد قال الفقهاء: الطلاق السُّني: هو طلاق المرأة في غير طُهْر جامعها

---

(١) مرقاة المفاتيح (٢١٧٥/٥)، وانظر: تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق مع حاشية الشلبي (٢٦/٣)، البحر الرائق شرح كنز الدقائق (١٣٨/٤)، اللباب في شرح الكتاب (٨٠/٣)، الجوهرة النيرة (٧٣/٢)، مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر (٤٦٤/١)، رد المحتار على الدر المختار (٥٠٢/٣).

فيه، وليست حاملًا، ولا آيسة، ولا صغيرة .والطلاق البدعي: هو طلاق المرأة المدخول بها في الحيْض، أو في النِّفَاس، أو في طُهر جامعها فيه ولم يتبيَّن حَمْلَهَا.

وقال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾: هذا خطاب للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ والمؤمنون داخلون معه في الخطاب. ومعناه: إن أردتم الطلاق كما قال: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة:٦] معناه: إذا أردتم القيام إلى الصلاة.

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ [الطلاق:١]، فطلاق السنة المجمع عليه في قول مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن يطلق الرجل امرأته طاهرًا من غير جماع تطليقة واحدة، ثم يتركها إذا أراد المقام على فراقها ثلاث حِيَض، فإذا طعنت في الحيضة الثالثة فلا يملك رجعتها، ولكن إن شاء وشاءت أن يجددا نكاحًا جديدًا كان ذلك لهما.

وقال أهل العراق: إن طلقها طاهرًا من غير جماع ثم أوقع عند كل حيضة تطليقة فهو أيضًا عندهم طلاق السنة، وأن فعل ما قال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ فهو عندهم سنة أيضًا.

وقال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا طلَّقها طاهرًا من غير جماع فهو مطلق للسنة أيضًا طلق واحدة أو ثلاثًا، وهذا يسقط معه إذا كان ثلاثًا.." [(١)].

وقد بسط الفقهاء القول في ذلك.

وقد أوجب الله عَزَّوَجَلَّ السُّكْنَى حتى تنقضِيَ العِدةُ. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَـٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ۝٦﴾ [الطلاق:٦].

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (١٨٣/٥-١٨٤).

والسكنى والنفقة على الزوج إذا طلق طلاق السنة إلى أن تأتي ثلاث حِيَضٍ، فإذا أَبَتَّ الطلاقَ قبل انقضاء العِدة فعليه النفقة والسكنى في قول أهل العراق، وعليه السكنى في مذهب مالك والشافعي رَحِمَهُمَاٱللَّهُ، فأما الحاملِ فعليه النفقة لها، كما في نص الآية [(١)].

والعدة تختلف بحسب حال المرأة، فإن كانت المرأة الحامل فعدتها تكون بوضع حملها، سواء كانت مطلقة أم متوفى عنها زوجها؛ لقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّۚ﴾ [الطلاق:٤].

وعدة المتوفى عنها زوجها غير الحامل أربعة أشهر وعشرًا، كما هو نص الآية في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًاۖ﴾ [البقرة:٢٣٤]. وهو يعم من تحيض ومن لا تحيض، والشابة والكبيرة في السنّ.

وقال الله عَزَّوَجَلَّ في بيان عدة المطلقة: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍۚ﴾ [البقرة:٢٢٨]. فالمرأة المطلقة إذا كانت غير حامل وهي من ذوات الحيض فعدتها ثلاث حيض كاملة بعد الطلاق في مذهب الحنفية والحنابلة. بمعنى: أن يأتيها الحيض وتطهر، ثم يأتيها وتطهر، ثم يأتيها وتطهر، هذه ثلاث حيض كاملة سواء طالت المدة بينهن أم لم تطل، وذهب المالكية والشافعية إلى أن الأقراء هي: الأطهار.

أما التي لا تحيض إما لصغرها أو لكبرها قد أيست منه، وانقطع عنها فهذه عدتها ثلاثة أشهر؛ لقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَۚ﴾ [الطلاق:٤].

وقد بسط الفقهاء القول في ذلك.

ولا علاقة للعدة بكون زوجك عقيماً أو غير عقيم.

---

(١) المصدر السابق (١٨٦/٥).

والحاصل أن العدة مدة من الزمن شرعها الله عَزَّوَجَلَّ بعد الطلاق وبعد الوفاة، ولها أحكام مبسوطة في مظانها.

والعدة مدة شرعها الله عَزَّوَجَلَّ لحكم كثيرة، منها:

منها: براءة الرحم؛ لئلَّا تشتبه الأنساب.

ومنها: ترك فسحة من الزمن للزوجين لعودة الحياة الزوجية بينهما.

ومنها: التنبيه على مكانة عقد النكاح، فهو ميثاق غليظ بين الزوجين لا تنقض عراه إلا عند تعسر الحياة بين الزوجين، ومن خلال إجراءات وأحكام ولبث لوقت طويل للمراجعة والنظر، وفتح المجال للإصلاح إن كان ثمة رجوع، أو معالجة لذلك الصدع بينهما.

ومنها: إظهار الوفاء والحرمة للميت؛ إذ لا تسارع المرأة إلى الزواج من غيره.

إلى غير ذلك.

عكف:

قال في (العين): "يقال: عَكَفَ يَعْكِفُ ويَعْكُفُ عكْفًا وعُكُوفًا، وهو إقبالك على الشيء لا تصرف عنه وجهك. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْۚ﴾ [الأعراف:١٣٨]، أي: يواظبون على عبادتها ويلازمونها.

وقرىء: ﴿يَعْكُفُونَ﴾ بضم الكاف وكسرها. ولو قيل: عكف في المسجد لكان صوابًا، ولكن يقولون: اعتكف. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلْعَٰكِفِينَ﴾ [البقرة:١٢٥]" (١).

---

(١) العين، مادة: (عكف) (١/٢٠٥-٢٠٦)، بتصرف يسير.

وعَكَفَهُ، أي: حبسه ووقفه، ومنه قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا﴾ [الفتح:٢٥]، أي: محبوسًا. ويقال: ما عَكَفَكَ عن كذا. ومنه: الاعتِكافُ في المسجد، وهو الاحتباس...(١).

وقيل: الاعتكاف افتعال من عكف: إذا دام، وعكفه: حبسه فهو في اللغة: اللبث والدَّوام.

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "العُكُوفُ: الإقبال على الشيء وملازمته على سبيل التَّعظيم له.

والاعْتِكَافُ في الشَّرع: هو الاحتباس في المسجد على سبيل القربة.

ويقال: عَكَفْتُهُ على كذا، أي: حبسته عليه، لذلك قال: ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ﴾ [الحج:٢٥].

﴿وَٱلْعَٰكِفِينَ﴾ [البقرة:١٢٥].

﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ۝٧١﴾ [الشعراء:٧١].

﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْۚ﴾ [الأعراف:١٣٨].

﴿ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًاۖ﴾ [طه:٩٧].

﴿وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِۗ﴾ [البقرة:١٨٧].

﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا﴾ [الفتح:٢٥]، أي: محبوسًا ممنوعًا" (٢).

والاعْتِكَافُ في الشَّرع -كما عرفه الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: هو الاحتباس في المسجد على سبيل القربة.

---

(١) انظر: الصحاح، مادة: (عكف) (٤/١٤٠٦).

(٢) المفردات في غريب القرآن، مادة: (عكف) (ص:٥٧٩).

وقيل: هو لبث رجل في مسجد جماعة بنية العبادة، واختلف في لبث المرأة في بيتها بنيته، كما اختلف في اعتكافها في مسجد جماعة.

والمراد بمسجد الجماعة: ما يقوم فيه جماعة ولو مرَّة في يوم.

وقيل: لا يصح إلا فيما تقوم فيه خمس مرات.

والاعتكاف لزوم المسجد بقصد الطاعة، ولأجل التفرغ للعبادة، ويكون في الليل أو في النهار، ساعة أو يومًا، أو ليلة أو أيامًا أو ليالي.

أما حكم الاعتكاف فإنه واجب في المنذور، وسنَّة في العشر الأخير من رمضان، ومستحب فيما سواه.

وقيل: هو سنَّة مؤكَّدة مطلقًا.

وأمَّا الصوم فشرط في الواجب لا المستحب.

وقيل: للمستحب أيضًا.

وقد ذهب الحنفية والحنابلة إلى أنه لا يصح الاعتكاف إلا في مسجد جماعة.

وعن أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنه لا يصح الاعتكاف إلا في مسجد تقام فيه الصلوات الخمس؛ لأن الاعتكاف عبادة انتظار الصلاة، فيختص بمكان يصلى فيه، وصححه بعضهم.

وقال أبو يوسف ومحمد رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ: يصح في كل مسجد.

وعن أبي يوسف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه فرق بين الاعتكاف الواجب والمسنون، فاشترط للاعتكاف الواجب مسجد الجماعة، وأما النفل فيجوز في أي مسجد كان.

ويعني الحنفية بمسجد الجماعة: ما له إمام ومؤذن، أديت فيه الصلوات الخمس أو لا.

واشترط الحنابلة لصحة الاعتكاف في المسجد: أن تقام الجماعة في زمن الاعتكاف الذي هو فيه، ولا يضر عدم إقامتها في الوقت الذي لا يعتكف فيه، وخرج من ذلك المرأة، والمعذور، والصبي، ومن هو في قرية لا يصلي فيها غيره؛ لأن الممنوع ترك الجماعة الواجبة، وهي منتفية هنا.

والمذهب عند المالكية والشافعية: أنه يصح الاعتكاف في أي مسجد كان.

واختلفوا في مكان اعتكاف المرأة -كما تقدم-: فذهب الجمهور، والشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المذهب الجديد إلى أنها كالرجل لا يصح اعتكافها إلا في المسجد، وعلى هذا فلا يصح اعتكافها في مسجد بيتها.

وفي القديم للشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنه يصح اعتكاف المرأة في مسجد بيتها؛ لأنه مكان صلاتها. قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قد أنكر القاضي أبو الطيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجماعة هذا القديم. وقالوا: لا يجوز في مسجد بيتها قولًا واحدًا، وغلطوا من قال: فيه قولان [(١)].

قال محمد بن الحسن الشيباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وبلغنا عن حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: لا اعتكاف إلا في مسجد جماعة، وليس ينبغي للمعتكف أن يخرج من المسجد لحاجة، ما خلا الجمعة، والغائط، والبول، فأما عيادة المريض، وشهادة الجنازة، فليس ينبغي له أن يخرج لذلك، وكذلك ما سوى ذلك من الحوائج، فإن خرج لجمعة، أو غائط، أو بول، فدخل بيتًا أو مر فيه فلا بأس بذلك، ولا يفسد ذلك اعتكافه، وليس ينبغي له أن يمكث في منزله بعد فراغه من الوضوء وليس ينبغي له أن يمكث بعد الجمعة. قال: ولا تعتكف المرأة إلا في مسجد بيتها، ولا تعتكف في مسجد جماعة" [(٢)].

---

(١) انظر: روضة الطالبين وعمدة المفتين (٢/٣٩٨).

(٢) انظر: الأصل المعروف بالمبسوط، لمحمد بن الحسن (٢/٢٧١-٢٧٤)، وانظر: المبسوط لشمس الأئمة السرخسي (٣/١١٥).

وقال: الكاساني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وروى الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن للمرأة أن تعتكف في مسجد الجماعة، وإن شاءت اعتكفت في مسجد بيتها، ومسجد بيتها أفضل لها من مسجد حيها ومسجد حيها أفضل لها من المسجد الأعظم، وهذا لا يوجب اختلاف الروايات، بل يجوز اعتكافها في مسجد الجماعة على الروايتين جميعًا بلا خلاف بين أصحابنا، والمذكور في الأصل محمول على نفي الفضيلة لا على نفي الجواز؛ توفيقًا بين الروايتين، وهذا عندنا.

وقال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا يجوز اعتكافها في مسجد بيتها وجْهً قوله: أن الاعتكاف قربة خصت بالمساجد بالنص، ومسجد بيتها ليس بمسجد حقيقة، بل هو اسم للمكان المعد للصلاة في حقِّها حتى لا يثبت له شيء من أحكام المسجد، فلا يجوز إقامة هذه القربة فيه، ونحن نقول: بل هذه قربة خصت بالمسجد، لكن مسجد بيتها له حكم المسجد في حقها في حق الاعتكاف؛ لأن له حكم المسجد في حقها في حق الصلاة لحاجتها إلى إحراز فضيلة الجماعة، فأعطي له حكم مسجد الجماعة في حقِّها، حتى كانت صلاتها في بيتها أفضل. وإذا كان له حكم المسجد في حقها في حق الصلاة فكذلك في حق الاعتكاف؛ لأن كل واحد منهما في اختصاصه بالمسجد سواء وليس لها أن تعتكف في بيتها في غير مسجد وهو الموضع المعد للصلاة؛ لأنه ليس لغير ذلك الموضع من بيتها حكم المسجد، فلا يجوز اعتكافها فيه" [(١)].

وقد اختلف الفقهاء في مقدار اللبث المجزئ في الاعتكاف المسنون.

وينظر ذلك كله في مظانه من كتب الفقه.

---

(١) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع (١١٣/٢)، وانظر: درر الحكام (٢١٢/١).

عمر :

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ [البقرة:٩٦].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:١٧].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [التوبة:١٨].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ [يونس:١٦].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود:٦١].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٢﴾ [الحجر:٧٢].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ [النحل:٧٠].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ [الأنبياء:٤٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝١٨﴾ [الشعراء:١٨].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ [القصص:٤٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم:٩].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ [فاطر:١١].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر:٣٧].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ﴾ [يس:٦٨].

وعَمِرَ الرجل بالكسر يَعْمَرُ عَمَرًا وعُمْرًا على غير قياس؛ لأنَّ قياس مصدره التحريك، أي: عاش زمانًا طويلًا. ومنه قولهم: أطالَ الله عُمْرَكُ وعَمْرَكَ. وهما وإن كانا مصدرين بمعنًى، إلا أنه استعمل في القسم أحدهما، وهو المفتوح، فإذا أدخلت عليه اللام رفعته بالابتداء قلت: لعمر الله، واللام لتوكيد الابتداء، والخبر محذوف، والتقدير: لَعَمْرُ اللَّهِ قَسَمِي، ولَعَمْرُ اللَّهِ مَا أُقْسِمُ به. فإن لم تأت باللام نصبته نصب المصادر، وقلت: عَمْرَ اللَّهِ ما فَعَلْتُ كذا، وعَمْرَكَ اللَّهَ ما فعلت كذا. ومعنى لعمر الله وعَمْرَ الله: أحلف ببقاء الله عَزَّوَجَلَّ ودَوامِه. وإذا قلت: عَمْرَكَ الله، فكأنَّك قلت: بتعميرك اللهَ، أي: بإقرارك له بالبقاء.

والعمرة في الحجّ، وأصلها من الزيارة، والجمع: العُمَرُ. وعَمَرْتُ الخرابَ أعْمُرُهُ عِمارَة، فهو عامِرٌ، أي: مَعْمورٌ، مثل: ماءٍ دافقٍ، أي: مدفوقٍ، وعيشةٍ راضية، أي: مرضية.

ومكانٌ عَمِيرٌ أي: عَامِرٌ. وأَعْمَرَه دارًا أو أرضًا أو إبلًا: أعطاه إيَّاها، وقال: هي لكَ عُمْرِي أو عُمْرَكَ فإذا مِتَّ رجعَتْ إلَيَّ، والاسمُ: الْعُمْرَى. واعْتَمَرَه: زارَه. وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود:٦١]، أي: جعلكُمْ عُمَّارَهَا. وعَمَّرَهُ اللَّهُ تَعْمِيرًا: طَوَّلَ عُمْرَهُ. وعُمَّارُ الْبُيُوت: سُكَّانُهَا من الْجِنِّ. والْعُمَرَان: أبو بكرٍ وعمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا. وقال قتادة: هما: عمر بن الْخَطَّاب وعمر بن عبد العزيز رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا [(١)].

ويجب حذف الخبر بعد القسم الصريح، نحو: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٢﴾ [الحجر:٧٢]، أي: لعمرك يميني، أو قسمي.

---

(١) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (عمر) (٢/٧٥٦- ٧٥٩).

وقد تقدم بيان القسم بالعمر مفصلًا في (دلالات القسم بالزمن).

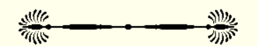
وقد وبّخ اللهُ عَزَّوَجَلَّ الكفَّارَ؛ لتفريطهم وإضاعتهم أعمارهم في الانغماس في ظلمات الكفر والغفلة والإعراض فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ٣٧﴾ [فاطر:٣٧].

فجعل جَلَّوَعَلَا التعمير موجبًا للتذكر والاستبصار، وقاطعًا للأعذار.

وقد أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: "اعلموا أَنَّ طُولَ الْعُمُرِ حُجَّةٌ، فنعوذ بالله عَزَّوَجَلَّ أن نُعَيَّرَ بِطُولِ الْعُمُر" (١).

قال في (الكشاف): "قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم﴾ [فاطر:٣٧] توبيخ من الله عَزَّوَجَلَّ، وهو متناول لكل عمر تمكن فيه المكلف من إصلاح شأنه وإن قصر، إلا أن التوبيخ في المتطاول أعظم" (٢).

عَيْش:



العيشُ: الحياةُ. والمعيشة: التي يعيش بها الإنسان من المطعم والمشرب، والعِيشة: ضربٌ من العيش، مثل: الجِلْسة، والمِشْية، وكل شيء يعاشُ به أو فيه فهو معاش، النَّهار معاش، والأرض معاش للخلق يلتمسون فيها معايشهم (٣).

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (٣١٨٥/١٠)، الدر المنثور (٣١/٧-٣١)، تفسير ابن كثير (٥٥٣/٦).

(٢) الكشاف (٦١٥/٣).

(٣) العين، مادة: (عيش) (١٨٩/٢).

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "العَيْشُ: الحياة. وقد عاشَ الرجل مَعاشًا ومَعيشًا. وكلُّ واحدٍ منهما يصلح أن يكون مصدرًا، وأن يكون اسمًا، مثل: مَعَابٍ وَمَعِيبٍ، ومَمَالٍ وَمُمِيل. وأعاشه الله عَزَّوَجَلَّ عيشَةً راضية.

والمعيشةُ جمعها: معايِشُ بلا همز، إذا جمعتها على الأصل. وأصلها معْيَشَة، وتقديرها مفعلة، والياء أصلية متحركة، فلا تنقلب في الجمع همزة. وكذلك: مُكَايِلُ وَمُبَايِعُ ونحوها. وإن جمعتها على الفرع هَمَزْتَ وَشَبَّهْتَ مَفْعِلَةً بِفَعِيلَةٍ كما هَمَزْتَ المصائب؛ لأن الياء ساكنة. وفي النحويين من يرى الهمز لحنًا. والتعيش: تكلف أسباب المعيشة. وعائشة مهموز، ولا تقل: عيشة. وبنو عايش: قوم من العرب. ولا يقال: بنو عيش"(١).

وقال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "العَيْشُ: الحياة المختصَّة بالحيوان، وهو أخصُّ من الحياة، لأنَّ الحياة تقال في الحيوان، وفي البارئ جَلَّوَعَلَا، وفي الْمَلَك، ويشتقُّ منه: الْمَعِيشَةُ لما يُتَعَيَّشُ منه. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الزخرف:٣٢]، ﴿مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه:١٢٤]، ﴿لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ [الأعراف:١٠]، ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ [الحجر:٢٠].

وقال في أهل الجنَّة: ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحاقة:٢١]، وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**لا عَيْشَ إلَّا عَيْشُ الآخرة**»"(٢)، أي: لا عيش باق، أو لا عيش مطلوب إلَّا عَيْش الآخرة؛ فهو العيش النافع للعبد في حاله ومآله، وما سواه ظل زائل، وحال حائل.

---

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (عيش) (١٠١٢/٣-١٠١٣).

(٢) المفردات في غريب القرآن، مادة: (عيش) (ص:٥٩٦). والحديث في (الصحيحين): عن أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: كانت الأنصار يوم الخندق تقول: (نحن الذين بايعوا محمدًا***على الجهاد ما حيينا أبدًا)، فأجابهم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقال: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخره***فأكرم الأنصار والمهاجره» وفي رواية: «فأصلح الأنصار»، وفي أخرى: «فاغفر للأنصار والمهاجره». انظر: صحيح البخاري [٢٩٦١، ٣٧٩٥،=

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧﴾ [الأعلى:١٦-١٧].
قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفيه أن لا عيش ألذ وأمرأ وأشهي وأهنأ مما يجد العبد من طاعة ربه عَزَّوَجَلَّ، ويستروح إليها، حتى يرفع تكاليفها ومشاقها عنه، بل إذا فقدها كان أصعب عليه مما إذا وُتِرَ أَهْلَهُ وماله (١)، وإليه ينظر قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أرحنا يا بلال**»(٢)، وقوله: «**وجعل قرة عيني في الصلاة**»(٣)، وتعريض بذم عيش الدنيا؛ لما ورد: «**تعس عبد الدرهم وعبد الدينار وعبد الخميصة**» (٤)، إلى قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**طوبى لعبد أخذ بعنان فرسه في سبيل الله** عَزَّوَجَلَّ» الحديث (٥)" (٦).

=٣٧٩٦، ٦٤١٣]، مسلم [١٨٠٥]. كما رواه سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بألفاظ مقاربة. انظر: صحيح البخاري [٣٧٩٧، ٤٠٩٨، ٦٤١٤]، مسلم [١٨٠٤]

(١) جاء في (الصحيح): عن عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «الذي تفوته صلاة العصر، كأنما وُتِرَ أهله وماله» قال أبو عبد الله: ﴿يَتِرَكُمْ﴾ [محمد:٣٥] «وَتَرْتُ الرجل: إذا قتلت له قتيلًا أو أخذت له مالًا» صحيح البخاري [٥٥٢]، مسلم [٦٢٦]. وقوله: «وتر»، أي: سلب وترك بلا أهل ولا مال.

(٢) قال في (الكشف): "رواه أبو داود عن سالم بن أبي الجعد قال: قال رجل: ليتني صليت فاسترحت، فكأنهم عابوا ذلك عليه، فقال: سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها». ولأبي داود عن محمد بن الحنفية أنه قال: انطلقت أنا وأبي إلى صهر لنا في الأنصار نعوده فحضرت الصلاة فقال لبعض أهله: يا جارية: ائتوني بوضوء لعلي أصلي فأستريح، قال: فأنكرنا ذلك عليه، فقال: سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «قم يا بلال فأرحنا بالصلاة»" كشف الخفاء [٣١٢]. والحديث له أطراف كثيرة.

(٣) أخرجه أحمد [١٢٢٩٣]، والنسائي [٣٩٣٩]، وأبو يعلى [٣٤٨٢]، والطبراني في (الأوسط) [٥٢٠٣]، و(الصغير) [٧٤١]، والحاكم [٢٦٧٦]، وقال: "صحيح على شرط مسلم"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي [١٣٤٥٤]، كلهم عن أنس. كما أخرجه الطبراني في (الكبير) [١٠١٢] عن المغيرة.

(٤) صحيح البخاري [٢٨٨٦، ٢٨٨٧].

(٥) صحيح البخاري [٢٨٨٧].

(٦) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٢٦٣٠/٨).

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١﴾ [الحاقة:٢١]، أي: ذات رضا، كقولهم: ليل نائم، وهمٌّ ناصب، أي: ينام فيه وينصب، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم:٨]، أي: ينصح فيها.

وقد اختلف النظر في نحو: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١﴾ [الحاقة:٢١]، فقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿رَّاضِيَةٍ ۝٢١﴾ بمعنى: مرضية على التجوز في الكلمة نفسها أو في إسنادها. فيكون مجاز عقليًّا في الإسناد، أو لغويًّا بجعل اسم الفاعل بمعنى: اسم المفعول. ومما جاء فيه فاعل بمعنى: مفعول قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦﴾ [الطارق:٦]، بمعنى: مدفوق، كما جاء مفعول بمعنى: فاعل في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ۝٤٥﴾ [الإسراء:٤٥]، أي: ساترًا.

قال أبو عبيدة والفراء رَحِمَهُمَاٱللَّهُ: ﴿رَّاضِيَةٍ ۝٢١﴾ أي: مرضية(١).

وحاصل ما قيل في ذلك: إن وصف العيشة بـأنها راضية مجاز عقلي؛ لملابسة العيشة حالة صاحبها، وهو العائش، ملابسة الصفة لموصوفها.

أَيْ: يرضى بها صاحبها. والراضي: هو صاحب العيشة لا العيشة، وذلك من قبيل الإسناد مجازي، أي: راض صاحبها بها، فهو مجاز عقلي(٢)؛ لأن راضية اسم فاعل: (رضيت) إذا حصل لها الرضى، وهو الفرح والغبطة.

---

(١) قال أبو عبيدة: "إن العرب وضعوا أشياء من كلامهم في موضع الفاعل، والمعنى: أنه مفعول، لأنه ظرف يفعل فيه غيره نحو: ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١﴾، وإنما يرضى بها الذي يعيش فيها" مجاز القرآن (٢٧٩/١).
فقوله: ﴿رَّاضِيَةٍ ۝٢١﴾ مجاز مرضية، فخرج مخرج لفظ صفتها، والعرب تفعل ذلك إذا كان من السبب في شيء. يقال: نام ليله، وإنما ينام هو فيه" مجاز القرآن (٢٦٨/٢)، وانظر: معاني القرآن، للفراء (١٦/٢)، معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٥٤/٣).

(٢) فمن المجاز العقلي: ما يلائم الفاعل، نحو قولك: (سيل مفعَم) -بفتح العين- أي: مملوء، فإسناد (مفعم) وهو مبني للمفعول إلى ضمير السيل، وهو فاعل: مجاز عقلي؛ ملابسته الفاعلية، ويلائم المفعول به؛ لوقوعه=

والعيشة ليست راضية، ولكنها لحسنها رضي صاحبها، فوصفها بـ: ﴿رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾ من إسناد الوصف إلى غير ما هو له، وهو من المبالغة؛ لأنه يدل على شدة الرضى بسببها حتى سرى إليها؛ ولذلك الاعتبار أرجع السكاكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما يسمى بالمجاز العقلي إلى الاستعارة المكنية [١].

و"قال غير واحد: ﴿رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾ أي: ذات رضى، على أنه من باب النسبة بالصيغة كلابن وتامر[٢]، ومعنى (ذات رضى): ملتبسة بالرضا، فيكون بمعنى: (مرضية) أيضًا[٣]. وأورد عليه أن ما أريد به النسبة لا يؤنث، كما صرح به الرضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره، وهو هنا مؤنث، فلا يصح هذا التأويل إلَّا أن يقال: التاء فيه للمبالغة[٤]، وفيه بحث. وقال بعض المحققين: الحق أن مرادهم أن ما قصد به النسبة لا يلزم تأنيثه وإن جاء فيه على خلاف

=عليه نحو: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾، فإسناد ﴿رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾ وهو مبني للفاعل إلى ضمير (العيشة)، وهي مفعول به (مجاز عقلي) ملابسته المفعولية...إلى غير ذلك مما تقدم بيانه.

(١) التحرير والتنوير (١٣٢/٢٩-١٣٣)، وانظر: حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي (٢٣٧/٨)، روح المعاني (٥٤/١٥).

(٢) (التامر): الذي عنده التمر. يقال: رجل تامر لابن، أي: ذو تمر ولبن. الصحاح، للجوهري، مادة: (تمر) (٦٠١/٢).

(٣) فلا مجاز في النسبة ولا في الكلمة، فحينئذ (التاء) فيه للمبالغة لا للتأنيث، أو يقال: إن ما قصد به النسبة لا يلزم تأنيثه لا أنه لا يجوز تأنيثه.

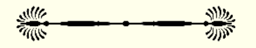
(٤) تكون التاء في نحو قولك: (فلان راوية للحديث) للمبالغة، وليست لتوكيد المبالغة؛ لأن (راوي) ليست من أوزان المبالغة، ولكنك إذا قلت: (فلان علَّامة) فإن التاء فيه لتوكيد المبالغة؛ لأن (علَّام) على وزن (فعَّال) من صيغ المبالغة، والمبالغة موجودة من غير التاء. ويحول اسم الفاعل عند قصد المبالغة إلى فَعَّال، أوْ مِفْعَال، أو فَعُول، أو فَعِيل، أو فَعِل، وتسمى هذه الخمسة أمثلة المبالغة، فيعملن عمله بشروط، وهذه الصيغ سماعية. قال ابن مالك في (الألفية) (ص:٣٩): (فَعَّال او مِفْعَال او فَعُول***في كثرةٍ عن فاعلٍ بديل)، (فيستحق ماله من عمل***وفي فَعِيلٍ قلَّ ذا وفَعِل).

الأصل الغالب أحيانًا. والمشهور حمل ما ذكر على أنه مجاز في الإسناد، والأصل: في عيشة راض صاحبها، فأسند الرضا إليها، لجعلها، لخلوصها دائمًا عن الشوائب كأنها نفسها راضية.

وجوز أن يكون فيه استعارة مكنية وتخييلية[١]، كما فصل في (المطول)[٢]. وعلى الأخير يكون المجاز في الكلمة لا في الإسناد.

وقد فصلت القول في هذه المسألة في الجزء الأول من كتاب: (تذكرة وبيان من علوم القرآن).

فترة:



الأصل في الفترة: الضعف والسكون. يقال: فتر فلان يفتر فتورًا: إذا سكن عن حدته، ولان بعد شدته، وطَرْفٌ فاترٌ: فيه فتور وسُجُوٌّ ليس بحاد النظر [٣]، ويجدُ في جَسده فَتْرَةً، أي: ضَعفًا [٤].

---

(١) روح المعاني (٥٤/١٥)، حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي (٣٩٢/٨)، حاشية القونوي على البيضاوي (٥٦/٢٠- ٥٧)، (٢٠١/٢٠).

(٢) انظر: المطول، للعلامة السعد (ص:٦٥-٦٧).

(٣) (السجو) السين والجيم والواو أصل يدل على سكون وإطباق. يقال سجا الليل: إذا ادلهم وسكن. وسَجا البحرُ وأسْجَى: إذا سكَنَ، وسَجا الليلُ وغيرُه يَسْجُو سُجُوًّا وسَجْوًا: سكَن ودَامَ، وليلةٌ ساجِيَةٌ: إذا كانت ساكنة البرْدِ والرِّيح والسَّحاب غَيْرُ مُظْلِمَة. وسجا البحر سَجْوًا: سكن تموُّجُه.

(٤) انظر: العين (١١٤/٨)، تهذيب اللغة (١٩٣/١٤).

قال ابن فارس رَحِمَهُ اللَّهُ: "الطَّرْفُ الْفَاتِر: الذي ليس بحَدِيدٍ شَزْر. وفَتَّرْتُ الشيء وأَفْتَرْتُهُ. قال اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ [الزخرف:٧٥]، أي: لا يُضْعَف. وممَّا شذَّ عن هذا الباب: الْفِتْرُ: ما بين طَرَفِ الإبْهام وطَرَفِ السَّبَّابة إذا فتحتهما" [١].

قال الجوهري رَحِمَهُ اللَّهُ: "الفَتْرَة: الانكسارُ والضعفُ. وقد فَتَرَ الْحَرُّ وغيره يفتر فتورًا، وفَتَّره الله تَفْتيرًا. (الفترة) ما بين الرسولين من رسل الله عَزَّوَجَلَّ" [٢]، من الزمان الذي انقطعت فيه الرسالة. ومنه: فترة ما بين عيسى ومحمد -عليهما الصلاة والسلام- [٣].

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة:١٩]، أي: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ حال كونه على فترة، أو حال كونكم على فترة. و﴿مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ صفة فَتْرَةٍ، و﴿مِّنَ﴾ ابتدائية، أي: فترة كائنة من الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مبتدأة من جهتهم.

و(الفترة): الفعلة، من قول القائل: فتر هذا الأمر يفتُر فُتورًا، وذلك إذا هدأ وسكن. وكذلك (الفترة) في هذا الموضع، معناها: السكون، يراد به سكون مجيء الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وذلك انقطاعها.." [٤].

فهي عند جميع المفسرين انقطاع ما بين الرسولين.

---

(١) معجم مقاييس اللغة، مادة: (فتر) (٤/٤٧٠).

(٢) الصحاح، للجوهري، مادة: (فتر) (٢/٧٧٧)، معجم ديوان الأدب (١/١٣٩).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/٤٠٨).

(٤) انظر: روح المعاني (٣/٢٧٤)، تفسير الطبري (١٠/١٥٦).

قال أبو إسحاق الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث بعد انقطاع الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ؛ لأن الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ كانت إلى وقت رفع الله عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تَتْرى، أي: متواترة، يجيءُ بعضها في إثر بعض" (١).

وقال الله عَزَّ وَجَلَّ في بيان حكم من لم تبلغه الدعوة: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥﴾ [الإسراء:١٥]، أي: وما كنا مهلكي قوم إلا بعد الإعذار إليهم بالرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، وإقامة الحجة عليهم بالآيات التي تقطع عذرهم (٢).

وقد حدَّث النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن فترة الوحي، كما جاء بيان ذلك مفصلًا في كتاب: (تذكرة وبيان من علوم القرآن). وكان الوحي قد جاء ثم انقطع.

قرن:

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "القَرْنُ لِلثَّوْرِ وغيره. والقَرْنُ: الْخُصْلَةُ من الشعر، ويقال: للمرأة قَرْنَان، أي: ضَفِيرَتَان. وذو الْقَرْنَيْنِ لَقَبُ إسْكَنْدَرَ الرُّوميّ.

والقَرْنُ: ثمانون سنة، ويقال: ثلاثون سنة. والقَرْنُ: مِثْلُكَ في السِّنِّ تقولُ: هو على قَرْنِي، أي: على سِنِّي.

والْقَرْنُ في النَّاس: أَهْلُ زَمَانٍ وَاحِدٍ.

قال الشَّاعر:

إذا ذَهَبَ الْقَرْنُ الَّذِي أَنْتَ فِيهِمُ   وخُلِّفْتَ في قَرْنٍ فَأَنْتَ غَرِيبُ

---

(١) معاني القرآن وإعرابه (١٦٢/٢).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٤٠٢/١٧).

والْقَرْنُ: قَرْنُ الْهَوْدَجِ. والْقَرْنُ: جَانِبُ الرَّأْسِ.

ويقال: منه سمِّي ذو القَرْنَيْنِ؛ لأنَّه دعا قومه إلى الله عَزَّوَجَلَّ فضربوه على قَرْنَيْه.

و(قَرْنُ) الشَّمْسِ: أَعْلَاهَا، وَأَوَّلُ ما يَبْدُو منها في الطُّلُوعِ.

والْقَرَنُ -بالتَّحريك-: موْضِعٌ، وهو ميقَاتُ أَهْلِ نَجْد (١).

وقرنت الشيء بالشيء: وصلته به، فالاقتران كالازدواج في كونه اجتماع شيئين، أو أشياء في معنى من المعاني. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ۝٥٣﴾ [الزخرف:٥٣]. يقال: قرنت البعير بالبعير: جمعت بينهما، ويسمى الحبل الذي يشد به: قرنًا، وشُدِّد للكثرة، قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ۝٣٨﴾ [ص:٣٨]. قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والقرن: القوم المقترنون في زمن واحد، وجمعه قرون. قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [يونس:١٣]، ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ [الإسراء:١٧]، ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ [مريم:٧٤]، وقال: ﴿وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ۝٣٨﴾ [الفرقان:٣٨]، ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ۝٣١﴾ [المؤمنون:٣١]، ﴿قُرُونًا ءَاخَرِينَ ۝٤٢﴾ [المؤمنون:٤٢]. والقرون: النفس لكونها مقترنة بالجسم، والقرون من البعير: الذي يضع رجله موضع يده، كأنه يقرنها بها، والقرن: الجعبة، ولا يقال لها قرن إلا إذا قرنت بالقوس، وناقة قرون: إذا دنا أحد خلفيها من الآخر، والقران: الجمع بين الحج والعمرة، ويستعمل في الجمع بين الشيئين. وقرن الشاة والبقرة، والقرن: عظم القرن، وكبش أقرن، وشاة قرناء، وقرن الجبل: الناتئ منه، وقرن المرأة: ذؤابتها، وقرن الفلاة: حرفها، وقرن الشمس، وقرن الشيطان، كل ذلك تشبيها بالقرن" (٢).

---

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (قرن) (٦/٢١٧٩-٢١٨٢).

(٢) المفردات في غريب القرآن، مادة: (قرن) (ص:٦٦٧-٦٦٨)، وينظر الفرق بين القرن والقوم في (الفروق اللغوية)، لأبي هلال العسكري (ص:٤٢٧- ٤٢٨)، وفيما حررناه مقنع.

قال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "القرن أن يكون وفاة الأشياخ وولادة الأطفال، ويَظْهر ذلك من قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ۝٦﴾ [الأنعام:٦]"(١). قال في (الدر): "فجعله معنى، وليس بواضح. وقيل: القرن: الناس المجتمعون، قلَّت السنون أو كَثُرت، واستدلوا بقوله عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**خير الناس قرني**» (٢).

وبقول الشاعر:

فِي الذَّاهِبِينَ الْأَوَّلِيـ ... نَ مِنَ الْقُرُونِ لنا بَصَائِرُ (٣)

وبقوله:

إذا ذَهَبَ الْقَرْنُ الَّذِي أَنْتَ فِيهِمُ ... وخُلِّفْتَ في قَرْنٍ فَأَنْتَ غَرِيبُ (٤)

وقال الله عَزَّوَجَلَّ في مقام الاعتبار بهلاك من هلك من القرون السالفة: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝١٣﴾ [يونس:١٣]، أي: مثل قوم نوح، وعاد، وثمود. والخطاب لأهل مكة على طريقة الالتفات للمبالغة في تشديد التهديد بعد تأييده بالتوكيد القسمي.

وقد اتفق العلماء على أن خير القرون قرن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ؛ لقوله عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**» (٥).

---

(١) المحرر الوجيز (٢/٢٦٩).

(٢) صحيح البخاري [٢٦٥١، ٢٦٥٢، ٣٦٥٠، ٣٦٥١، ٦٤٢٨، ٦٤٢٩، ٦٦٥٨، ٦٦٩٥]، مسلم [٢٥٣٣، ٢٥٣٤، ٢٥٣٥، ٢٥٣٥، ٢٥٣٦].

(٣) البيت من مجزوء الكامل لقُس بن ساعدة. انظر: لقُس بن ساعدة الإيادي، (حياته، خطبه، شعره)، لأحمد الربيعي (ص:٣٣٠). وقوله: (بصائر) أي: عبر.

(٤) الدر المصون (٤/٥٤٠)، وانظر: البحر المحيط في التفسير (٤/٤٢٦).

(٥) تقدم.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والمراد بقرن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث: الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ" (١)، والثاني: التابعون، والثالث: تابعوهم.

قال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "القرن -بسكون الراء- من الناس: أهل زمان واحد. قيل: مقدار زمانه: ثمانون سنة، وقيل: ستون، ويعني: أن هذه القرون الثلاثة: أفضل مما بعدها إلى يوم القيامة، وهذه القرون في أنفسها متفاضلة، فأفضلها: الأول، ثم الذي بعده، ثم الذي بعده. هذا ظاهر الحديث. فأما أفضلية الصحابة، وهم القرن الأول على من بعدهم، فلا تخفى، وأما أفضلية من بعدهم، بعضهم على بعض، فبحسب قربهم من القرن الأول، وبحسب ما ظهر على أيديهم من إعلاء كلمة الدين، ونشر العلم، وفتح الأمصار، وإخماد كلمة الكفر. ولا خفاء: أن الذي كان من ذلك في قرن التابعين كان أكثر وأغلب مما كان في أتباعهم، وكذلك الأمر في الذين بعدهم، ثم بعد هذا غلبت الشرور، وارتُكبت الأمور، وقد دلَّ على صحة هذا قوله في حديث: أبي سعيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ [عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ]: «**يَغْزُو فِئَامٌ مِنَ النَّاسِ، فيقال: هل فيكم من صَحِبَ رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ **فيقال: نعم، فَيُفْتَحُ لهم**..» الحديث (٢). والفئام: الجماعة من الناس، لا واحد له من لفظه، وهو مهموز، والعامة تترك همزه" (٣).

---

(١) فتح الباري (٧/ ٥ -٦).

(٢) صحيح البخاري [٢٨٩٧، ٣٦٤٩]، صحيح مسلم [٢٥٣٢].

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٦/ ٤٨٥-٤٨٦). قال الإمام النووي: «فئام» بفاء مكسورة ثم همزة، أي: جماعة وحكى القاضي فيه بالياء مخففة بلا همز ولغة أخرى فتح الفاء حكاها عن الخليل، والمشهور الأول، وفي هذا الحديث معجزات لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفضل الصحابة، والتابعين، وتابعيهم" شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/ ٨٣)، وانظر: إكمال المعلم، للقاضي عياض (٧/ ٥٦٩).

والحاصل أن القرن: الجماعة من النَّاس، وقيل: مُدَّة من الزمان يكون التقدير على هذا: من أهل قرن، كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف:٨٢]. قال أبو جعفر النحاس رَحِمَهُٱللَّهُ: "وأصح من هذا القول: القرن كل عَالَمٌ في عَصْرِهِ؛ لأنه مأخوذ من الاقتران، أي: عَالَمٌ مُقْتَرِنٌ بعضهم إلى بعض. وفي الحديث: عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**خير الناس: القرن الذي أنا فيه**» يعني: أصحابه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، «**ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**»، وأكثر أصحاب الحديث على أن القرن مائة سنة، واحتجوا بأن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال لعبد الله بن بُسْرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**تعيش قرنًا**» (١)، فعاش مائة سنة" (٢).

قال الحافظ أبو نعيم رَحِمَهُٱللَّهُ: "عبد الله بن بسر أبو صفوان السلمي المازني يكنى: أبا بسر، وقيل: أبو صفوان، آخر من مات بالشام من الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، وصلى القبلتين، وضع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يده على رأسه، وَبَرَّكَ عليه ودعا له، صحب هو وأبوه وأمه وأخوه عطية، وأخته الصَّمَّاءُ. توفي سنة ست وتسعين في خلافة سليمان رَحِمَهُٱللَّهُ، وقيل: سنة ثمان وثمانين، وله مائة سنة. وقيل: أربع وتسعون"(٣).

---

(١) حديث: «يعيش هذا الغلام قرنًا» قاله النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لعبد الله بن بسر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وقد أخرجه: أحمد [١٧٦٨٩]، والطبراني في (الشاميين) [٨٣٦]، قال الهيثمي (٩/٤٠٥): "رواه الطبراني، وأحمد بنحوه، ورجال أحمد رجال الصحيح غير الحسن بن أيوب، وهو ثقة، ورجال الطبراني ثقات". وأخرجه أيضًا: الحارث [١٠٣٢]، والبزار [٣٥٠٢]، وابن جرير في التفسير (١٧/٤٠٧)، والحاكم [٤٠١٦]، وتمام [١٩٦]، والضياء في (المختارة) [٧٢]، قال الهيثمي (٩/٤٠٤): "رجال أحد إسنادى البزار رجال الصحيح، غير الحسن بن أيوب الحضرمي، وهو ثقة.

(٢) معاني القرآن، لأبي جعفر النحاس (٢/٤٠٠-٤٠١).

(٣) معرفة الصحابة، لأبي نعيم (٣/١٥٩٥).

وقال ابن سعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "توفي عبد الله بن بسر سنة ثمان وثمانين، وهو آخر من مات بالشام من أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكان يوم مات ابن أربع وتسعين سنة" (١).

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهو آخر من مات بالشام بحمص من أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" (٢).

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "مات سنة ثمان وثمانين، وقيل: ست وتسعين، وله مائة سنة، وهو آخر من مات بالشام من الصحابة"(٣).

وقال الحافظ الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "عبد الله بن بسر بن أبي بسر، أبو صفوان المازني، الصحابي، المعمر، بركة الشام، أبو صفوان المازني، نزيل حمص. له: أحاديث قليلة، وصحبة يسيرة، ولأخويه عطية والصماء ولأبيهم صحبة.

قال يحيى بن صالح الوحاظي: حدثتنا أم هاشم الطائية، قالت: رأيت عبد الله بن بسر يتوضأ، فخرجت نفسه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قال الواقدي: مات سنة ثمان وثمانين، وهو آخر من مات من الصحابة بالشام. قال: وله أربع وتسعون سنة. وكذا أرخه في سنة ثمان وثمانين جماعة. وقال أبو زرعة الدمشقي (٤): مات قبل سنة مائة.

وقال عبد الصمد بن سعيد الحافظ: توفي سنة ست وتسعين.

---

(١) الطبقات الكبرى (٧/٢٩٠).

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٣/٨٧٤).

(٣) تقريب التهذيب (ص:٢٩٧)، وانظر: تهذيب التهذيب (٥/١٥٨-١٥٩).

(٤) تاريخ أبي زرعة الدمشقي (٢/٦٩٣).

وقال يزيد بن عبد ربه الجرجسي: توفي في إمرة سليمان بن عبد الملك رَحِمَهُ ٱللَّهُ. حديثه في الكتب الستة" (١).

وعن صفوان بن عمرو قال: رأيت في جبهة عبد الله بن بسر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أثر السجود (٢).

والحاصل أن عبد الله بن بسر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كان من العُبَّاد الصالحين، وخُتِمَ له بالحسنى؛ إذ مات وهو يتوضأ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وفي جبهته أثر السجود (٣). رضي الله عنه وأرضاه وحشرنا معه تحت لواء سيد المرسلين صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهذا من الإعجاز الذي أخبر به النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أمر غيبي يقع في مستقبل الزمان، وقد وقع كما أخبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعاش رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قرنًا من الزمن.

لبث:

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ﴾ [البقرة:٢٥٩].

﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ [يونس:١٦].

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ [يونس:٤٥].

﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾﴾ [هود:٦٩].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/٤٣١- ٤٣٣).

(٢) الطبقات الكبرى (٧/٢٩٠)، تاريخ دمشق، لابن عساكر (٢٧/١٤٩)، سير أعلام النبلاء (٣/٤٣١)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام (٢/٩٥١).

(٣) انظر: مشاهير علماء الأمصار (ص:٩٢)، رجال صحيح مسلم (١/٣٤٤).

﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ٤٢﴾ [يوسف:٤٢].

﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلًا ٥٢﴾ [الإسراء:٥٢].

﴿وَإِذًا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ٧٦﴾ [الإسراء:٧٦].

﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ١٢﴾ [الكهف:١٢].

﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ﴾ [الكهف:١٩].

﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ٢٥ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ﴾ [الكهف:٢٥-٢٦].

﴿فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ﴾ [طه:٤٠].

﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ١٠٣ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا ١٠٤﴾ [طه:١٠٣-١٠٤].

﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ١١٣ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١٤﴾ [المؤمنون:١١٢-١١٤].

﴿وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ ١٨﴾ [الشعراء:١٨].

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا﴾ [العنكبوت:١٤].

﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ ٥٥ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ﴾ [الروم:٥٥-٥٦].

﴿وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا ١٤﴾ [الأحزاب:١٤].

﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ١٤﴾ [سبأ:١٤].

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات:١٤٣-١٤٤].

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾ [الأحقاف:٣٥].

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات:٤٦].

قال في (العين): "اللَّبْث: الْمُكْثُ، ولَبِثَ لَبْثًا. واللَّبِثُ: البطيء" [١].

وقال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اللَبْثُ: واللَباثُ: الْمُكْثُ. وقد لَبِثَ يَلْبَثُ لَبْثًا على غير قياس؛ لأن المصدر من (فَعِلَ) –بالكسر– قياسه: التحريك إذا لم يتعدَّ، مثل: تَعِبَ تَعَبًا. وقد جاء الشِعر على القياس، قال جرير:

وقد أكون على الحاجات ذا لَبَثٍ ... وأَحْـوَذِيًّا إذا انْـضَـمَّ الذَعـاليبُ [٢]

فهو لابثٌ ولَبِثٌ.

وقُرِئَ: ﴿لَبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ [النبأ:٢٣]. وأَلْبَثْتُهُ أنا، ولبثته تلبيثًا" [٣].

وقال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لَبِثَ بالمكان: أقام به ملازمًا له" [٤].

و"لَبِثَ بالمكان لَبَثًا من باب تَعِبَ، وجاء في المصدر السكون؛ للتخفيف. واللَّبْثَةُ بالفتح: المرة، وبالكسر: الهيئة، والنوع والاسم: اللُّبْثُ بالضم واللَّبَاثُ بالفتح، وتَلَبَّثَ بمعناه، ويتعدى بالهمز والتضعيف، فيقال: أَلْبَثْتُهُ وَلَبَّثْتُه" [٥].

---

(١) العين، مادة: (لبث) (٨/٢٢٧).

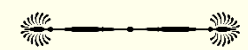
(٢) ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب (١/ ٣٤٨). و(الأحوذي): المنكمش، و(ذعاليبه): فضول ثوبه وما ناس منه.

(٣) الصحاح، مادة: (لبث) (١/٢٩١)، انظر: معجم ديوان الأدب (١/٣٧٥)، (٢/٢٢٦).

(٤) المفردات في غريب القرآن، مادة: (لبث) (ص:٧٣٣)، وانظر: الكليات (ص:٤٣٤).

(٥) المصباح المنير، مادة: (لبث) (٢/٥٤٧).

ليل ونهار :



النهارُ: ضِدُّ الليل. ولا يُجْمَعُ كما لا يجمع الْعَذَابُ والسَّرَابُ. فإن جمعته قلت في قليله: (أَنْهُرٌ)، وفي الكثير: (نُهُرٌ) كَسَحَابٍ وَسُحُبٍ (١).

الليلُ واحد بمعنى جَمْع، وواحِدَتُه: ليلة مثل: تَمْرَةٍ وَتَمْر. وقد جمع على ليال فزادوا فيها الياءَ على غير قياس. ونظيره: أَهْلٌ وأَهَالٍ. ويقال: كان الأصل فيها لَيلاةٌ فحذفت، لأنَّ تصغيرَها لُيَيْلَية. وليلٌ أَلْيَلٌ: شديدُ الظلمة. وليلة لَيْلَاءُ. ولَيْلٌ لَائِلٌ، مثلُ: شِعْرٍ شَاعِرٍ في التَّأكيد. وَعَامَلَهُ مُلَايَلَةً، مثلُ: مُيَاوَمَة (٢).

وقال الراغب رَحِمَهُ اللَّهُ: "يقال: ليل وليلة، وجمعها: ليال وليائل وليلات.." (٣).

أما أجزاء اليوم: فأوله: الفجر، ثم الصباح، ثم الغداة، ثم البكرة، ثم الضحى، ثم الهجيرة، ثم الظهر، ثم الرواح، ثم المساء، ثم العصر، ثم الأصيل، ثم العشاء الأولى، ثم العشاء الأخيرة، عند مغيب الشفق (٤).

وقد ذكر قطرب رَحِمَهُ اللَّهُ ترتيب ساعات الليل، وترتيب ساعات النهار، وهي تمثل أجزاء اليوم، مع بيان مسمياتها في كتابه: (الأزمنة) (٥).

---

(١) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (نهر) (٢/٨٣٩-٨٤٠).

(٢) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (ليل) (٥/١٨١٥).

(٣) انظر: المفردات في غريب القرآن، مادة: (ليل) (ص:٧٥١).

(٤) انظر: الكليات (ص:٩٨١).

(٥) انظر: الأزمنة وتلبية الجاهلية، لقطرب (ص:٤٩)، (ص:٥٦).

وقد أوجز الثعالبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (فقه اللغة) ذكر ساعات النهار وساعات الليل، حيث قال: ساعاتُ النَّهار: الشُّرُوق، ثُمَّ البكورُ، ثُمَّ الغُدْوَة، ثُمَّ الضُّحى، ثُمَّ الهاجِرَة، ثُمَّ الظَهِيرَةُ، ثُمَّ الرَّوَاح، ثُمَّ العَصْر، ثُمَّ القَصْر، ثُمَّ الأصِيل، ثُمَّ العَشِيُّ، ثُمَّ الغُروب.

وساعات اللَّيل: الشَّفَق، ثُمَّ الغَسَق، ثُمَّ العَتَمَة، ثُمَّ السُّدْفَة، ثُمَّ الفَحْمَة، ثُمَّ الزُّلَّةُ، ثُمَّ الزُّلْفة، ثُمَّ البُهْرَة، ثُمَّ السَّحَر، ثُمَّ الفَجْر، ثُمَّ الصُّبْح، ثُمَّ الصَّباح"، وباقي أسماء الأوقات تجيءُ بتكْرِيرِ الألفاظ التي معانيها متَّفقة" [1].

وقد وقع الليل في مقابلة النهار في آيات كثيرة من القرآن الكريم.

وقد تقرر في غير موضع أن من حكمة الله عَزَّوَجَلَّ وفضله على عباده أن صَرَّفَ اللَّيل والنَّهار والأَيَّام، وقَلَّبَ الشُّهُورَ والفُصُول والأعوام؛ لما في ذلك من مصالحَ عظيمَة، وحِكَمٍ بالغة، كما جاء ذلك مبينًا في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ في غير آية.

فقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ الليل والنهار علامتين دالتين على وحدانيته وقدرته؛ لما فيهما من الاختلاف في الطول والقصر، والحرارة والبرودة، فجعل الليل مظلمًا للراحة والنوم، وجعلنا النَّهار مضيئًا يبصر فيه الناس، فيسعون لمعاشهم، وعلى هذا جرى النظام الكوني في غالب بقاع الأرض، فعلم الناس من هذا النظام الكوني المطرد والدقيق عدد السنين، وما تحتاجون إليه من حساب أوقات الشهور والأيام والساعات.

والزمان الذي أوجده الله عَزَّوَجَلَّ في الحياة الدنيا على وفق النظام المطرد فيه، له حكم كثيرة -كما تقرر في غير موضع- فمن ذلك: معرفة الحساب الذي تستقيم به حياة الناس في عباداتهم ومعاملاتهم، وليعلم من ذلك ابتداء وقت كل حدث أو عمل أو عبادة، وانتهاء ذلك الوقت، فتتميز بذلك الأوقات، وتعلم البدايات والنهايات.

---

(١) فقه اللغة وسر العربية، لأبي منصور الثعالبي (ص:٢١٥).

وأما في الآخرة فلا تكليف وإنما يلهم أهل الجنة التسبيح إلهامًا.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ﴾ [الإسراء:١٢].

وإن في خلق السماوات والأرض من عَدَمٍ على غير مثال سبق، وفي تعاقب الليل والنهار، وما يصحب ذلك من ظلمة وضياء، ومن قصر أحدهما وطول الآخر، لدلائلَ واضحة لأصحاب العقول السليمة تبعث على التأمل والتفكر في بديع خلق الله عَزَّوَجَلَّ، وتدل على عظيم قدرته، وأنه جَلَّوَعَلَا خالق الكون والخلق، والمستحق للعبادة وحده.

قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٦٤﴾ [البقرة:١٦٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠﴾ [آل عمران:١٩٠].

﴿إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ٦﴾ [يونس:٦].

﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٦٧﴾ [يونس:٦٧].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢﴾ [النحل:١٢].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ٦٢﴾ [الفرقان:٦٢].

﴿أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [النمل:٨٦].

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾ [النور:٤٤].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الروم:٢٢-٢٣].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُۚ﴾ [فصلت:٣٧].

﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الجاثية:٣-٥].

والتأمل باعث على التقوى والعمل، والاستعداد للآخرة، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾ [يونس:٦].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان:٦٢].

وإن نعم الله عَزَّوَجَلَّ على عباده كثيرة لا تحصى، ولا يمكن للبشر أن يحصوها؛ وذلك لكثرتها، واستمرارها، ويسرها، وتتابع إنعام الله عَزَّوَجَلَّ بها، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ﴾ [النحل:١٨].

ومن هذه النعم الجليلة التي تستوجب الشكر: تسخير الليل والنهار، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ

وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۝٣٣ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ۝٣٤﴾ [إبراهيم:٣٢-٣٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٣﴾ [القصص:٧٣].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ۝٦٢﴾ [الفرقان:٦٢].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۝٦١﴾ [غافر:٦١].

وقد تقرر في غير موضع أن النظام الكوني الذي أقامه الله عَزَّوَجَلَّ في هذه الأرض، من تصريف الليل والنهار، ومن جعل الليل للسكن، والنهار للكد والعمل، إنما جري على الغالب في بقاع الأرض، أما تلك البقاع التي يختلف فيها ذلك النظام، ويطول فيها الليل والنهار فإنها كذلك تشكر الله عَزَّوَجَلَّ على نعمة الليل والنهار؛ إذ إنها إنما تقيس الوقت على البلاد القريبة منها، والتي ينتظم فيها الوقت في الليل والنهار كسائر بقاع الأرض الأخرى، وعامة المصالح والأعمال فيها قائمة على ذلك، فتعرف أوقات العمل والعبادات على ذلك التقدير.

وإن الله عَزَّوَجَلَّ هو الحافظ للعبد في تقلبه في الليل والنهار، فهو يحفظ العبد ويحرسه في ليله إذا نام، وفي نهاره إذا قام، ويحميه من النوازل والآفات، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِۚ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ۝٤٢﴾ [الأنبياء:٤٢].

وقد حذَّر الله عَزَّوَجَلَّ من الإعراض عن طاعته، وكفران نِعَمِه، وبيَّن عاقبةَ المعرضين، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:٤٢]، أي: لا يعترفون بنعمه عليهم وإحسانه إليهم، بل يعرضون عن آياته وآلائه.

ومن فائدة تقلب الليل والنهار: معرفة أوقات العبادات، والأزمنة الفاضلة، تنظيم الوقت، واغتنامه فيما ينفع العبد:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِۚ﴾ [البقرة:١٨٧].

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ۝١٠٣﴾ [النساء:١٠٣].

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء:٧٩].

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨﴾ [المزمل:٦-٨].

﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ [الفجر:١-٢].

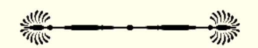
﴿سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾ [القدر:٥].

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ [الكوثر:٢]... إلى غير ذلك.

والقرآن إنما يعنى بالحكم على الكل، وهو الغالب من النظام المطرد في الكون.

وإن في انقضاء كل زمن محدد عبرة لكل معتبر؛ إذ إن أفلول شمس كل يوم، ومضي ليليه، وبزوغ فجر يوم جديد ينقص من العمر، ويؤذن باقتراب كل إنسان من أجله المحتوم.

مدة وبرهة:



(المدة والبرهة) مقدار من الزمان يقع على القليل والكثير، يقال: أقمت عنده مدة مديدة، أي: وقتًا طويلًا.

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومُدَّةٌ من الزمان: بُرهة منه" (١).

(البرهة) المدة من الزمان. يقال: أَقَمْتُ عنده بُرْهَةً من الدَّهْر كقولك: أَقَمْتُ عنده سَنَةً من الدَّهْر.

ويقال: أَتَتْ عليه (بُرْهَةٌ) من الدَّهْر -بضم الباء وفتحها، أي: مدَّةٌ طويلةٌ من الزَّمان. والجمع: بُرَهٌ وَبُرُهَات، مثلُ: غُرْفَةٍ وَغُرُفَاتٍ في وجوهها (٢).

ويقال: مضى سَنْبٌ من الدهر وسَنْبَةٌ، أي: برهة.

وفي (الصحيح): عن أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قالت: قدمت عليَّ أمي وهي مشركة في عهد قريش، إذ عاهدوا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومدتهم مع أبيها، فاستفتت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقلت: يا رسول الله إن أمي قدمت عليَّ وهي راغبة (٣) أفأصلها؟ قال: «**نعم صليها**» (٤). أراد بمدتهم: الزمان الذي كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد ترك قتالهم فيها، وهي المدة التي كانت معينة للصلح بينهم وبين رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) الصحاح، مادة: (مدد) (٥٣٧/٢).

(٢) انظر: أساس البلاغة (٥٨/١)، تهذيب اللغة (١٥٨/٦)، المصباح المنير (٤٦/١).

(٣) «وهي راغبة» جملة حالية: أي: راغبة عن الإسلام وكارهة له. وقيل معناه: طامعة فيما أعطيها من الإحسان وحريصة عليه.

(٤) صحيح البخاري [٣١٨٣، ٥٩٧٩].

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أخبره أن أبا سفيان بن حرب بن أمية أخبره: «**أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش كانوا تجارًا بالشأم، في المُدَّةِ التي مَادَّ فيها رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **أبا سفيان في كفار قريش**» (١).

قال مجد الدين ابن الأثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "المدة: طائفة من الزمان، تقع على القليل والكثير. و«**مَـادَّ فيها**»، أي: أطـالها، وهي فاعل، من المد. ومنه الحـديث: «**إن شاءوا ماددناهم**»" (٢).

وقال ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ: "«**مَادَّ**»: فاعل من المدة التى اتفق معهم على الصلح مدة ما من الزمان، تقول العرب: تماد الغريمان والمتبايعان: إذا اتفقا على أجل ومدة، وهي مفاعلة من اثنين" (٣).

وقيل: «**مَادَّ**» بتخفيف الدال. وهذه المدة هي المدة التي هادن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا سفيان في كفار قريش، سنة ست من الهجرة (٤).

وقال العسكري رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان الفرق بين المدة والزمان: "إن اسم الزمان يقع على كل جمع من الأوقات، وكذلك المدة، إلا أن أقصر المدة أطول من أقصر الزمان.." (٥).

وقال في الفرق بين الدهر والمدة: إن الدهر جمع أوقات متوالية مختلفة كانت أو غير مختلفة، ولهذا يقال: الشتاء مدة، ولا يقال: دهر؛ لتساوي أوقاته في برد الهواء وغير ذلك

---

(١) صحيح البخاري [٣١٧٤]، وقد ورد الحديث في (الصحيحين) مطولًا عن ابن عباس. صحيح البخاري [٧، ٢٩٤١، ٤٥٥٣]، مسلم [١٧٧٣].

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر (٣٠٩/٤)، والحديث في (مسند الإمام أحمد) [١٨٩٢٨]، و(السنن الكبرى)، للبيهقي [١٨٨٠٧].

(٣) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٥٣/١).

(٤) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٢٤٠/٥).

(٥) انظر ذلك في (الفروق)، لأبي هلال العسكري (ص:٢٧٠).

من صفاته ويقال للسنين: دهر؛ لأن أوقاتها مختلفة في الحر والبرد وغير ذلك، وأيضًا من المدة ما يكون أطول من الدهر، ألا تراهم يقولون: هذه الدنيا دهور، ولا يقال الدنيا: مدد. والمدة والأجل متقاربان، فكما أن من الأجل ما يكون دهورًا فكذلك المدة" (١).

مكث:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد:١٧].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء:١٠٦].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ [طه:١٠].

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [النمل:٢٢].

﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ [القصص:٢٩].

﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف:٧٧].

المكثُ: "اللبْثُ والانتظار. وقد مَكَثَ ومَكُثَ. والاسم: الْمُكْثُ والْمِكْثُ -بضم الميم وكسرها-. وتَمَكَّثَ: تَلَبَّثَ" (٢).

وفي (جمهرة اللغة): "والمكث: الْمقَام، مكث يمْكث مكثًا ومكوثًا، وهو ماكث. وقد قالوا: رجل مكيث: إذا أقام بالمكان، وربما جعل الْمكْث في معنى الانتظار" (٣).

---

(١) الفروق اللغوية (ص:٢٧٠).

(٢) الصحاح، للجوهري، مادة: (مكث) (٢٩٣/١).

(٣) جمهرة اللغة (٤٣١/١).

وقال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "المكث: ثبات مع انتظار، يقال: مَكَثَ مكثًا" (١).

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء:١٠٦]. قال الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أي: تؤدة وتأنٍّ؛ فإنه أيسر للحفظ، وأعون على الفهم، وروي ذلك عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا. وقيل: أي: تطاول في المدة، وتقضيها شيئًا فشيئًا، والظاهر تعلق: ﴿لِتَقْرَأَهُۥ﴾ بـ: ﴿فَرَقْنَٰهُ﴾. و﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بـ: تقرأه، و﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ به أيضًا، إلا أن فيه تعلق حرفي جر بمعنى بمتعلق واحد. وأجيب: بأن تعلق الثاني بعد اعتبار تعلق الأول به، فيختلف المتعلق. وفي (البحر) لا يبالى بتعلق هذين الحرفين بما ذكر؛ لاختلاف معناهما لأن الأول في موضع المفعول به، والثاني في موضع الحال، أي متمهلًا مترسلًا، ولما في ذلك من القيل والقال اختار بعضهم تعلقه بـ: ﴿فَرَقْنَٰهُ﴾.

وجوز الخفاجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعلقه بمحذوف، أي: تفريقًا أو فرقًا ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾. أو قراءة على مكث منك، كمكث تنزيله. وجعله أبو البقاء في موضع الحال من الضمير المنصوب في ﴿فَرَقْنَٰهُ﴾ أي: متمكثًا. ومن العجيب قول الحوفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه بدل من ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾. وقد تعقبه أبو حيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنه لا يصح؛ لأن ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ من صفات القارئ، أو من صفات المقروء، وليس من صفات الناس؛ ليكون بدلا منهم، والمكث مثلث الميم، وقرىء بالضم والفتح، ولم يقرأ بالكسر، وهو لغة قليلة، وزعم ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ إجماع القراء على الضم" (٢).

(١) المفردات في غريب القرآن، مادة: (مكث) (ص:٧٧٢).

(٢) روح المعاني (٨/ ١٧٨)، وانظر: البحر المحيط في التفسير (٧/١٢٤)، حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي (٦/ ٦٧)، التبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء العكبري (٢/٨٣٥)، حاشيتا القونوي وابن التمجيد على البيضاوي (١١/٦٠٩).

وفي قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣﴾ [الكهف:٣]: "شبه ما لهم من اللذات والملائمات بالظرف الذي يستقر فيه حاله للدلالة على أن الأجر الحسن كالمحيط بهم لا يفارقهم طرفة عين، فليس قوله: ﴿أَبَدًا ۝٣﴾ بتأكيد لمعنى: ﴿مَّٰكِثِينَ﴾، بل أفيد بمجموعها: الإحاطة والدوام" (١).

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [النمل:٢٢]، قال الإمام محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "المكث: البقاء في المكان وملازمته زمنًا ما، وفعله من باب: كرم ونصر. وقرأه الجمهور بالأول. وقرأ عاصم وروح عن يعقوب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالثاني.

وأطلق المكث هنا على البطء؛ لأن الهدهد لم يكن ماكثًا بمكان، ولكنه كان يطير وينتقل، فأطلق المكث على البطء مجاز مرسل؛ لأن المكث يستلزم زمنًا.

وغير بعيد صفة لاسم زمن، أو اسم مكان محذوف منصوب على الظرفية، أي: مكث زمنًا غير بعيد، أو في مكان غير بعيد، وكلا المعنيين يقتضي أنه رجع إلى سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بعد زمن قليل.

وغير بعيد قريب قربًا يوصف بضد البعد، أي: يوشك أن يكون بعيدًا. وهذا وجه إيثار التعبير بـ: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾؛ لأن ﴿غَيْرَ﴾ تفيد دفع توهم أن يكون بعيدًا، وإنما يتوهم ذلك إذا كان القرب يشبه البعد.

والبعد والقرب حقيقتهما من أوصاف المكان، ويستعاران لقلة الحصة بتشبيه الزمن القصير بالمكان القريب، وشاع ذلك حتى ساوى الحقيقة، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ۝٨٩﴾ [هود:٨٩]" (٢).

---

(١) التحرير والتنوير (١٥/٢٥٠).

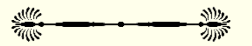
(٢) التحرير والتنوير (١٥/٢٥٠).

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ۝٧٧﴾ [الزخرف:٧٧]، أي: مقيمون في العذاب أبدًا، لا خلاص لكم منه بموت ولا غيره، وهذا تقنيط ونكاية لهم فوق ما هم فيه.

وذكر البعض أن فيه استهزاء؛ لأنه أقام المكث مقام الخلود، والمكث يشعر بالانقطاع؛ لأن المكث ثبات مع انتظار. ويمكن أن يكون وجه الاستهزاء: التعبير بـ: ﴿مَّـٰكِثُونَ ۝٧٧﴾ من حيث إنه يشعر بالاختيار، وإجابتهم بذلك بعد مدة (١).

وفي الحديث: «**أنه** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **توضأ وضوءًا مكيثًا**» (٢)، أي: بطيئًا متأنيًا غير مستعجل. والمكث والمكث: الإقامة مع الانتظار، والتلبث في المكان (٣).

وعد وموعد وميعاد:



ورد ذكر الوعد والموعد والميعاد في آيات كثيرة من القرآن الكريم.

قال في (العين): "الوَعْدُ والعِدَةُ يكونان مصدرًا واسمًا. فأما العِدَةُ فتُجْمع: عِدَات، والوعد لا يجمع، والموعِدُ: موضع التَّواعُدِ، وهو الميعادُ. ويكون المَوْعِد مصدر وَعَدْتُهُ، وقد يكون الموعِدُ وقتًا للعدة، والموعدة: اسم للعدة.

---

(١) انظر: روح المعاني (١٣/١٠٢).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [٣٧٣٨٢]، وأحمد [٢٣٩٧١]، وابن أبي عاصم في (الآحاد والمثاني) [١٢٨٦]، وابن حبان [٦٦٧٥]، والطبراني في (الشاميين) عن عوف بن مالك. كما أخرجه الطبراني في (الكبير): عن أبي جناب عن عبد الله بن عمرو. قال الهيثمي (٧/٣٢١-٣٢٢) «رواه أحمد والطبراني، وفيه: أبو جناب الكلبي، وهو مدلس».

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (مكث) (٤/٣٤٨).

والميعاد لا يكون إلا وقتًا أو موضعًا.

والوعيد من التَّهدُّد: أوعدته ضربًا ونحوه، ويكون وعدته أيضًا من الشَّرِّ. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الحج:٧٢].

وعلى هذا فالوَعْدُ يستعمل في الخير والشر، يقال: وعدتُه خيرًا، ووعدتُه شرًّا" (١).

قال الأزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الْوَعْد مصدر حقيقي، والعِدَة: اسم يوضع موضع المصدر، وكذلك: الموعدة.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ [التوبة:١١٤].

وقال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله: ﴿مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا﴾ [طه:٨٧]: الموعد: الْعَهْد. وكذلك قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ٨٦﴾ [طه:٨٦] قال: عهدي.

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢﴾ [الذاريات:٢٢] قال: رزقكم: المطر، وما توعدن: الْجنَّة.

وقال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ١ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ٢﴾ [البروج:١-٢]: إنَّه يوم القيامة.

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةً﴾ [البقرة:٥١]، قرأ أبو عمرو رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿وَعَدۡنَا﴾ بغير ألف، وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: ﴿وَٰعَدۡنَا﴾ بالْألف.

وقال أبو معاذ النحوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَاعَدت زيدًا: إذا وعدك ووعدته، ووعدت زيدًا إذا كان الوعد منك خاصَّة" (٢).

---

(١) العين (٢/٢٢٢)، وانظر: معاني القرآن، للفراء (١/٣٨٥).

(٢) تهذيب اللغة (٣/٨٥-٨٦).

وعن ابن السِّكِّيت رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "تقول: قد وَعَدتُهُ خيرًا، وقد وَعَدتُهُ شرًّا، وهو الوعد والعَدِة في الخير والشرِّ" (١).

ويقال: وعدته خيرًا أو شرًّا، فإذا قلت: وعدته لم يكن إلا للخير، وإذا قلت: أوعدته لم يكن إلا للشر(٢). فإذا أسقطوا الخير والشر قالوا في الخير: الوَعْدُ والعِدَةُ، وفي الشر: الإيعادُ والوَعيدُ. قال الشاعر:

وإِنّي وإنْ أوْعَـدْتُـهُ أو وَعَـدْتُـهُ ... لمخْلِفُ إيعادي ومُنْجِزُ مَوْعِدي (٣)

فإن أدخلوا الباء في الشر جاءوا بالألف، قال الراجز:

أَوْعَـدَني بالسـجنِ والأَداهـمِ ... رِجْـلي فرِجْـلي شَـثْـنَةُ المناسِـمِ (٤)

تقديره: أوْعَدَني بالسجن، وأوْعَدَ رِجلي بالأداهم. ثم قال: رِجْلي شَثْنَةٌ، أي: قويَّةٌ على القيد(٥).

والميعادُ: المواعدَةُ، والوقتُ، والموضعُ. وكذلك الموعد.

---

(١) إصلاح المنطق، لابن السِّكِّيت (ص:٢١١).

(٢) معاني القرآن، لأبي جعفر النحاس (٣/٥٣)، كتاب الأفعال، لابن القطاع (٣/٢٩٦).

(٣) ديوان عامر بن الطفيل (ص:٥٨)، برواية أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري.

(٤) قاله العديل بن الفرخ -بضم الفاء وسكون الراء- العجلي، وكان الحجاج طلبه فهرب منه وهجاه. انظر: شرح أدب الكاتب (ص:٢٠٠)، وهو من شواهد (معاني القرآن)، للفراء (١/١٩٧)، وهو في (الصحاح) (٢/٥٥١)، و(تهذيب اللغة) (٣/ ٨٦)، ومعجم مقاييس اللغة (٦/١٢٥)، و(المحكم) (٢/٣٢٩)، وانظر: إسفار الفصيح (١/٤٦٦)، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، لابن الأنباري (ص:٤٠٣)، شرح الرضي على كافية ابن الحاجب (٢/٣٩٠).

(٥) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (وعد) (٢/٥٥١- ٥٥٢)، المحكم والمحيط الأعظم (٢/٣٢٨-٣٢٩)، النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/٢٠٦)، المفردات في غريب القرآن، للراغب (ص:٨٧٥).

وتواعد القوم، أي: وَعَدَ بعضهم بعضًا. هذا في الخير، وأمَّا في الشَّرِّ فيقال: اتَّعَدوا. والاتِّعادُ أيضًا: قبول الوعد.

والتَّوَعُّد: التَّهَدُّدُ. ويوم واعِدٌ: إذا وَعَدَ أوَّله بحرٍّ، أو برد. وأرضٌ واعِدَة: إذا رُجيَ خيرُها من النبت.." (١).

وقال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الوعد يكون في الخير والشر. يقال: وعدته بنفع وضر وعدًا وموعدًا وميعادًا، والوعيد في الشر خاصة. يقال منه: أوعدته، ويقال: واعدته وتواعدنا.

ومن الوعد بالخير:

قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ [إبراهيم:٢٢]، ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ [القصص:٦١]، ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ [الفتح:٢٠]، ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [المائدة: ٩] ..إلى غير ذلك.

ومن الوعد بالشر:

قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الحج:٤٧]، وكانوا إنما يستعجلونه بالعذاب، وذلك وعيد.

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الحج:٧٢]، ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ [هود:٨١]، ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [الأعراف:٧٠]، ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ [يونس:٤٦]، ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ [إبراهيم:٤٧]، ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ [البقرة:٢٦٨].

(١) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (وعد) (٢/٥٥٢).

ومما يتضمن الأمرين (الخير والشر):

قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [يونس:٥٥]، فهذا وعد بالقيامة، وجزاء العباد إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

والموعد والميعاد يكونان مصدرًا واسمًا.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدًا﴾ [طه:٥٨]، ﴿بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ لَكُم مَّوۡعِدًا ۝٤٨﴾ [الكهف:٤٨]، ﴿مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ﴾ [طه:٥٩]، ﴿بَل لَّهُم مَّوۡعِدٌ﴾ [الكهف:٥٨]، ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٍ﴾ [سبأ:٣٠]، ﴿وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ﴾ [الأنفال:٤٢]، ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [يونس: ٥٥]، أي: البعث.

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٍ﴾ [الأنعام:١٣٤]، ﴿بَل لَّهُم مَّوۡعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلًا ۝٥٨﴾ [الكهف:٥٨].

ومن المواعدة: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ [البقرة:٢٣٥]، ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةً﴾ [الأعراف:١٤٢]، ﴿وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةً﴾ [البقرة:٥١]، وأربعين وثلاثين مفعول لا ظرف، أي: انقضاء ثلاثين وأربعين، وعلى هذا قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ﴾ [طه:٨٠]، ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ۝٢﴾ [البروج:٢]. وإشارة إلى القيامة كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿مِيقَٰتِ يَوۡمٍ مَّعۡلُومٍ ۝٥٠﴾ [الواقعة:٥٠].

ومن الإيعاد: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف:٨٦]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ۝١٤﴾ [إبراهيم:١٤]، ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ۝٤٥﴾ [ق:٤٥]، ﴿لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ۝٢٨﴾ [ق:٢٨].

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [النور:٥٥] إلى قوله: ﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ﴾. وقوله: ﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ﴾ تفسير لـ: ﴿وَعَدَ﴾، كما أن قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ [النساء:١١] تفسير الوصية.

وقوله: ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ﴾ [الأنفال:٧] فقوله: ﴿أَنَّهَا لَكُمۡ﴾ بدل من قوله: ﴿إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ﴾، تقديره: وعدكم الله أن إحدى الطائفتين لكم، إما طائفة العير، وإما طائفة النفير.

والعدة من الوعد، ويجمع على: عدات، والوعد مصدر لا يجمع. ووعدت يقتضي مفعولين الثاني منهما مكان، أو زمان، أو أمر من الأمور، نحو: وعدت زيدًا يوم الجمعة، ومكان كذا، وأن أفعل كذا، فقوله: ﴿أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ﴾ [البقرة:٥١] لا يجوز أن يكون المفعول الثاني من: ﴿وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ﴾؛ لأن الوعد لم يقع في الأربعين، بل انقضاء الأربعين، وتمامها: لا يصح الكلام إلا بهذا"(١).

بين الوعد والوعيد:

إن كل ذنب قرن به وعيد أو حد أو لعن فهو من الكبائر(٢).

وما وعد الله عَزَّوَجَلَّ به المؤمنين الصَّالحين من النَّعيم في الآخرة فإنَّه حقٌّ وواقع.

ووعيد الله عَزَّوَجَلَّ للكافرين واقع كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ٦﴾ [غافر:٦].

---

(١) المفردات، مادة: (وعد) (ص:٨٧٥-٨٧٦).

(٢) انظر: قواعد الأحكام في مصالح الأنام (١/٢٤).

أما وعيد الله عَزَّوَجَلَّ للعصاة من المؤمنين فلا يعني أنه من الموجبات له؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لا يخلف وعده للمؤمنين بحسن العقبى، ولكن المسامحة قد تقع في وعيد العصاة.

ومن سلك نهج الأبرار كان حريصًا على اجتناب ما توعِّد عليه بالنَّار، وعلى الاجتهاد في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ المحسن إلى عباده، والمحب لأهل طاعته؛ ليلقى الله عَزَّوَجَلَّ لقاء المحبين، فيحظى بالدرجات العلى من القرب من المحبوب جَلَّوَعَلَا.

وقد قيل في (التفسير): يجوز أن يُحْمَل قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ۝٩﴾ [آل عمران:٩] هذا على ميعاد الأولياء، دون وعيد الأعداء؛ لأنَّ خُلْفَ الوعيد كرمٌ عند العرب؛ لأنهم يمدحون بذلك.

ولا يلزم من أنه جَلَّوَعَلَا لا يخلف الوعد: القطع بوعيد الفساق -كما زعم المعتزلة-؛ لأن كل ما ورد في وعيد الفساق فهو عندنا مشروط بشرط عدم العفو، كما أنه بالاتفاق مشروط بشرط عدم التوبة بدليل منفصل(١).

قال الواحدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن الله جَلَّوَعَلَا يجوز أن يخلف الوعيد، وإن كان لا يجوز أن يخلف الوعد، بهذا وردت السنة عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ" (٢).

وقال -أعني: الواحدي-: "أخبرنا أبو بكر أحمد بن محمد الأصبهاني، أخبرنا عبد الله بن محمد الأصبهاني، حدثنا زكريا بن يحيى الساجي، وأبو حفص السلمي، وأبو يعلى الموصلي، قالوا: حدثنا هدبة بن خالد، حدثنا سهيل بن أبي حزم، حدثنا ثابت البناني،

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب (١٥١/٧)، غرائب القرآن (١١١/٢)، البحر المحيط في التفسير (٣٤/٣)، تفسير السَّمعاني (٤٦٥/١).

(٢) انظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد (١٠٠/٢).

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من وعده الله على عمله ثَوَابًا فهو مُنْجِزُهُ له، ومن أوعده على عمله عِقَابًا فهو بالخيار**» (١).

وقال -أعني: الواحدي-: أخبرنا أبو بكر، أخبرنا عبد الله، أخبرنا محمد بن حمزة، حدثنا أحمد بن الخليل، حدثنا الأصمعي، قال: جاء عمرو بن عبيد إلى أبي عمرو بن العلاء، فقال: يا أبا عمرو، يخلف الله ما وعد؟ قال: لا.

قال: قال: أفرأيت مَن أوعده الله على عمل عقابا، أيخلف الله وعده فيه؟ فقال أبو عمرو بن العلاء من العجمة: أتيت يا أبا عثمان؟ إن الوعد غير الوعيد، إن العرب لا تعد عارًا ولا خلفًا أن تعد شرًّا ثم لا تفعله، ترى ذلك كرمًا وفضلًا، وإنما الخلف أن تعد خيرًا ثم لا تفعله.

قال: فأوجدني هذا في العرب. قال: أما سمعت قول الأول:

---

(١) الوسيط (٢/١٠٠)، والحديث أخرجه أيضًا: ابن أبي عاصم في (السنة) [٩٦٠]، والبزار [٦٨٨٢]، وأبو يعلى [٣٣١٦]،، والخرائطي في (مكارم الأخلاق) [٢٠٥]، والطحاوي في (شرح مشكل الآثار) [٤٠٦٢]، والطبراني في (الأوسط) [٨٥١٦]، والكلاباذي في (بحر الفوائد) (ص:٢٣٦)، وابن بطة في (الإبانة) [١٩٦٧]، وقد ضعف. انظر: كنز العمال [١٠٤١٦]. قال الهيثمي (١٠/٢١١): "رواه أبو يعلى، والطبراني في (الأوسط)، وفيه سهيل بن أبي حزم، وقد وثق على ضعفه، وبقية رجاله رجال الصحيح". قال البزار: "سهيل، لا يتابع على حديثه". كشف الأستار عن زوائد البزار (٤/٧٥)، المطالب العالية (١٢/٥٦٦). قال في (الصحيحة) [٢٤٦٣]: "والحديث مع ضعف سنده فهو ثابت المتن عندي؛ فإن شطره الأول يشهد له آيات كثيرة في القرآن الكريم كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الروم:٦]، وقوله: ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الأحقاف:١٦]. وأما الشطر الآخر، فيشهد له حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا بلفظ: «...ومن عبد الله ...وسمع وعصى، فإن الله عَزَّ وَجَلَّ من أمره بالخيار، إن شاء رحمه، وإن شاء عذبه». أخرجه أحمد وغيره بسند حسن. وله طرق أخرى في (الصحيحين) وغيرهما بنحوه".

وإنِّي وإنْ أوْعَـدْتُــهُ أو وَعَـدْتُـهُ لمخْلِفُ إيعادي ومُنْجِزُ مَوْعِدي [(١)]

والذي ذكره أبو عمرو بن العلاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ مذهب الكرام، ويستحسن عند كل أحد خلف الوعيد كما قال السري الموصلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

إذا وعد السـر أنجز وعـده وإن أوعـد الـشر فالعـفـو مانعه [(٢)]

وأحسن يحيى بن معاذ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الفصل حيث قال: الوعد والوعيد حق، فالوعد حق العباد على الله عَزَّوَجَلَّ، ضمن لهم إذا فعلوا كذا أن يعطيهم كذا، ومن أولى بالوفاء من الله عَزَّوَجَلَّ؟ والوعيد حقه على العباد، قال: لا تفعلوا كذا فأعذبكم، ففعلوا، فإن شـاء عفا، وإن شـاء أخذ؛ لأنه حقه، وأولاهما بربنا: الكـرم والعفو، إنه غفور رحيم [(٣)].

قال الرَّازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: واعلم أنَّ المعتزلة حكوا أنَّ أبا عمرو بن العلاء لما قال هذا الكلام قال له عمرو بن عبيد: يا أبا عمرو فهل يسمَّى الله عَزَّوَجَلَّ مكذِّب نفسه؟ فقال: لا، فقال عمرو بن عبيد: فقد سقطت حجَّتك، قالوا: فانقطع أبو عمرو بن العلاء.

قال الرَّازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وعندي أنَّه كان لأبي عمرو بن العلاء أن يجيب عن هذا السُّؤال فيقول: إنَّك قستَ الوعيد على الوعد، وأنا إنما ذكرت هذا لبيان الفرق بين البابين؛ وذلك لأنَّ الوعد حقٌّ عليه، والوعيد حقٌّ له، ومن أسقط حقَّ نفسه فقد أتى بالجود والكرم، ومن أسقط حقَّ غيره فذلك هو اللُّؤم، فظهر الفرق بين الوعد والوعيد، وبطل قياسك، وإنما ذكرت هذا الشعر لإيضاح هذا الفرق. فأمَّا قولك: لو لم يفعل لصار كاذبًا

(١) ديوان عامر بن الطفيل (ص:٥٨)، برواية أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري، وقد تقدم.

(٢) انظر: التذكرة الفخرية، للصاحب بهاء الدين الإربلي (ص:٣٢٢)، شرح ديوان المتنبي، لأبي البقاء العكبري (٢/٢١٢).

(٣) الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٢/١٠٠-١٠١).

ومكذِّبًا نفسه، فجوابه: أنَّ هذا إنما يلزم لو كان الوعيد ثابتًا جزمًا من غير شرط، وعندي جميع الوعيدات مشروطة بعدم العفو، فلا يلزم من تركه دخول الكذب في كلام الله عَزَّوَجَلَّ، فهذا ما يتعلَّق بهذه الحكاية -والله أعلم-" (١).

وقال: "إن الأخبار على سبيل الوعيد مما يفيد الزجر عن المعاصي والإقدام على الطاعات، فإذا حصل هذا المقصود جاز أن لا يوجد المخبر عنه كما في الوعيد، وعند هذا قالوا: إن وعد الله عَزَّوَجَلَّ بالثواب حق لازم، وأما توعده بالعقاب فغير لازم، وإنما قصد به صلاح المكلفين مع رحمته الشاملة لهم، كالوالد يهدد ولده بالقتل والسمل والقطع والضرب، فإن قبل الولد أمره فقد انتفع، وإن لم يفعل فما في قلب الوالد من الشفقة يرده عن قتله وعقوبته" (٢).

وهذا مختص بالعصاة من المؤمنين دون الكفرة -كما سيأتي-، فهم -أي: العصاة- تحت مشيئة الله عَزَّوَجَلَّ، إن شاء عذبهم، وإن شاء عفا عنهم. ولا يفهم من ذلك: ارتفاع العذاب عن العصاة مطلقًا، ولكنه إن دل فإنما يدل على جواز العفو والمسامحة لعصاةٍ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أعلمُ بأحوالهم، والمعاصي تتفاوت -كما هو معلوم-.

ولا يخفى أن الاسترسال في المعاصي مع الاتكال على الرحمة من من كبائر الذنوب المتوعد عليها بالعذاب، وهو أسباب الخلان. كما سيأتي بيانه في مبحث: (الأمن من مكر الله عَزَّوَجَلَّ).

وقد جاء في الحديث: ما يدل على ما تقرَّر من كون العصاة تحت مشيئة الله عَزَّوَجَلَّ، فمن ذلك: ما صحَّ عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان**

(١) تفسير الرَّازي (١٥٢/٧)، وانظر: روح المعاني (٢/ ٨٨- ٨٩).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٩٩/٢).

تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب فهو كفارة له، ومن أصاب منها شيئًا من ذلك فستره الله، فهو إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له» (١).

وفي رواية: عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«خمس صلوات كَتَبَهُنَّ الله على العباد، فمن جاء بِهِنَّ لم يُضَيِّعْ مِنْهُنَّ شيئًا استخفافًا بِحَقِّهِنَّ، كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة، ومن لم يأت بِهِنَّ فليس له عند الله عهد، إن شاء عَذَّبَهُ، وإن شاء أدخله الجنة»** (٢).

وفي رواية: عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«من عبد الله لا يشرك به شيئًا فأقام الصلاة، وآتى الزكاة، وسمع وأطاع، فإن الله يدخله من أي أبواب الجنة شاء، ولها ثمانية أبواب، ومن عبد الله لا يشرك به شيئًا وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، وسمع وعصى، فإن الله من أمره بالخيار إن شاء رحمه، وإن شاء عذبه»** (٣).

---

(١) صحيح البخاري [١٨، ٣٨٩٢، ٦٨٠١، ٧٢١٣، ٧٤٦٨]، مسلم [١٧٠٩].

(٢) أخرجه مالك [٤٠٠]، وعبد الرزاق [٤٥٧٥]، والحميدي [٣٩٢]، وابن الجعد [١٥٧١]، وابن أبي شيبة [٦٨٥٢]، وأحمد [٢٢٦٩٣]، والدارمي [١٦١٨]، وابن ماجه [١٤٠١]، وأبو داود [١٤٢٠]، ومحمد بن نصر في (تعظيم قدر الصلاة) [١٠٢٩]، والنسائي [٤٦١]، وابن حبان [٢٤١٧]، والطبراني في (الشاميين) [٣٥]، والبيهقي [٢٢٢٦]، والضياء [٤٤٩]، قال ابن عبد البر في (التمهيد) (٢٣/٢٨٨): "حديث صحيح ثابت". وقال العراقي: "أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان من حديث: عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه ابن عبد البر" المغني عن حمل الأسفار (ص:١٧٣). وقال الحافظ في (الفتح) (١٢/٢٠٣): "أخرجه مالك وأصحاب السنن، وصححه ابن حبان وابن السكن وغيرهما".

(٣) أخرجه أحمد [٢٢٧٦٨]، وابن أبي عاصم في (السنة) [٩٦٨]، والبزار [٢٧٠٤]، والطبراني في (الشاميين) [١٦١١]، وابن عساكر (٦٦/٢٢٥). قال الهيثمي (٥/٢١٦): "رواه أحمد والطبراني، ورجال أحمد ثقات".

قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقد ثبت أن الكافر يدخل النار لا محالة، فلا يجوز أن يقال فيه مثل هذا، فعلمنا أنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قصد: من تركها وهو معتقد لوجوبها لا جاحدًا؛ لأن الجاحد يدخل النار لا محالة، ولا حجة لأحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إباءة إبليس من السجود وصار بذلك كافرا؛ لأنه عاند الله عَزَّوَجَلَّ واستكبر، ورد على الله عَزَّوَجَلَّ أمره، فجاهر بالمعصية لله عَزَّوَجَلَّ، فهو أشد من الجاحد أو مثله؛ لأنه جحدها واستيقنتها نفسه" (١).

وقيل: "شبه وعد الله عَزَّوَجَلَّ بإثابته المؤمنين علي أعمالهم بالعهد الموثوق به، الذي لا يخلف، ووكل أمر التارك إلي مشيئته تجويزًا لعفوه، وأنه لا يجب على الله عَزَّوَجَلَّ شيء، ومن ديدن الكرام: محافظة الوعد، والمسامحة في الوعيد" (٢).

قال الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ما أوعد الله عَزَّوَجَلَّ به الكفار لا يصح أن يخلفه بحال؛ لأن ادعاء جواز إخلافه؛ لأنه إيعاد، وأن العرب تعد الرجوع عن الإيعاد كرمًا يبطله أمران:

الأول: أنه يلزمه جواز ألا يدخل النار كافر أصلًا؛ لأن إيعادهم بإدخالهم النار مما زعموا أن الرجوع عنه كرم، وهذا لا شك في بطلانه.

الثاني: ما ذكرنا من الآيات الدالة: على أن الله عَزَّوَجَلَّ لا يخلف ما أوعد به الكفار من العذاب، كقوله: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ۝٢٨ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ الآية [ق:٢٨-٢٩]، وقوله جَلَّوَعَلَا فيهم: ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ ۝١٤﴾ [ق:١٤]، وقوله فيهم: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ ۝١٤﴾ [ص:١٤]. ومعنى حق: وجب وثبت، فلا وجه لانتفائه بحال" (٣).

(١) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٨/ ٥٧٨- ٥٧٩).

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٣/٨٦٩)، وانظر: فيض القدير (٣/٤٥٢).

(٣) أضواء البيان (٥/٢٧٧).

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ١٤﴾ [ق:١٤]، هذه الآية الكريمة تدل على أن من كذب الرسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ يحق عليه العذاب، أي: يتحتم ويثبت في حقه ثبوتًا لا يصح معه تخلفه عنه. وهو دليل واضح على أن ما قاله بعض أهل العلم من أن الله عَزَّوَجَلَّ يصح أن يخلف وعيده؛ لأنه قال: إنه لا يخلف وعده، ولم يقل: إنه لا يخلف وعيده، وأن إخلاف الوعيد حسن لا قبيح، وإنما القبيح هو إخلاف الوعد، وأن الشاعر قال:

وإنِّي وإنْ أوْعَـدْتُـهُ أو وَعَـدْتُـهُ لمخْلِفُ إيعادي ومُنْجِزُ مَوْعِدي

يمدح نفسه بأنه يخلف الوعيد، لكنه ينجز الوعد. ولكن لا يصح الإطلاق؛ لذلك يقول الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولا يصح -أي: الإطلاق- بحال؛ لأن وعيده جَلَّ وَعَلَا للكفار حق ووجب عليهم بتكذيبهم للرسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ كما دل عليه قوله هنا: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ١٤﴾.

وقد تقرر في الأصول أن الفاء من حروف العلة، كقوله: سها فسجد، أي: لعلة سهوه، وسرق فقطعت يده، أي: لعلة سرقته، ومنه قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾ [المائدة:٣٨]، فتكذيبهم الرسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ علة صحيحة؛ لكون الوعيد بالعذاب حق ووجب عليهم، فدعوى جواز تخلفه باطلة بلا شك، وما دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضحًا في آيات أخر، كقوله عَزَّوَجَلَّ في هذه السورة الكريمة: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾ [المائدة:٣٨]، والتحقيق: أن المراد بالقول الذي لا يبدل لديه هو الوعيد الذي قدم به إليهم.

وقوله جَلَّ وَعَلَا في سورة: (ص): ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ١٤﴾ [ص:١٤]، وبهذا تعلم أن الوعيد الذي لا يمتنع إخلافه هو وعيد عصاة المسلمين بتعذيبهم على كبائر الذنوب؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ أوضح ذلك في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء:٤٨]، وهذا في الحقيقة تجاوز من الله عَزَّوَجَلَّ عن ذنوب عباده المؤمنين

العاصين، ولا إشكال في ذلك، وقد أوضحنا هذا في كتابنا: (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في سورة: (الأنعام) في الكلام على قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام:١٢٨]" [(١)].

فمن أراد التوفيق والهداية فينبغي يجمع بين الخوف والرجاء، فهما الجناحان اللذان يرتقي بهما السالك إلى سُدَّة النجاة، ولا ينفعُ واحدٌ منهما دون الآخر، بل هما صِنوان، وبمثابةِ كفتي الميزان.

فمن الاغترار: التمادي في الذنوب مع رجاءِ العفو، وتوقُّع القرب من الله عَزَّوَجَلَّ بغير طاعة، وانتظارُ زرع الجنة ببَذْر النار. فلا بدَّ من تحقيق التَّكافؤ والتَّوازن بين الخوف والرَّجاء؛ حتى تستقيم حياة المؤمن في الدُّنيا، ويفوز بالنَّعيم في الآخرة.

فلا يغلِّبُ العبدُ جانبَ الرجاء؛ لئلا يفضي به ذلك إلى الأمنِ من مكرِ الله؛ فيكونَ من الذين قال الله عَزَّوَجَلَّ فيهم: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف:٩٩]. ولا يغلِّبُ جانبَ الخوف؛ لئلا يفضي به إلى اليأسِ من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ؛ فيكونَ من الذين قال الله عَزَّوَجَلَّ فيهم: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر:٥٦]. ومن الذين قال الله جَلَّوَعَلَا فيهم: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف:٨٧]. قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ قومًا ألهتهُمُ الأمانيُّ حتى خرجوا من الدنيا بغيرِ توبة، يقول أحدهم: إني لأحسنُ الظنَّ بربي، وكَذَبَ لو أحسنَ الظنَّ لأحسن العمل[(٢)]. وكان

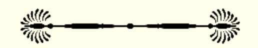
---

(١) أضواء البيان (٧/٤٢٥) وانظر: دفع إيهام الاضطراب (ص:٩٤-٩٧).

(٢) انظر: كشف المشكل، لابن الجوزي (٣/٣٢٣)، التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، للقرطبي (ص:١٢٨)، الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (ص:٢٨).

قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك، ويرجو موعودك، يا بَارُّ، يا رحيم [١]. وقد فصلت القول في (نهج الأبرار).

وقت وميقات:



الوقت: من الأزمنة المبهمة. والميقات: الوقت المضروب للفعل والموضع، والجمع: المواقيت، فاستعير للمكان. ومنه: مواقيت الحج لمواضع الإحرام. يقال: هذا ميقات أهل الشام: للموضع الذي يحرمون منه، وتقول أيضًا: وقته فهو موقوت، إذا بين للفعل وقتًا يفعل فيه ومنه قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ۝١٠٣﴾ [النساء:١٠٣]، أي: مفروضًا في الأوقات.

والتوقيت: تحديد الأوقات.

والْمُوقِت: مفعل من الوقت [٢].

قال المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الوقت: المقدار المحدود من الزمن. وقيل: الوقت الحد الواقع بين أمرين أحدهما معلوم سابق، والآخر معلوم به لاحق، ذكره الحرالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وقال غيره: نهاية الزمان المفروض للعمل؛ ولهذا لا يكاد يقال إلا مقيدًا، نحو قولهم: وقت كذا. والميقات: الوقت المضروب للشيء، ويقال: الميقات للمكان الذي يجعل وقت الشيء كميقات الحج" [٣].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤١٢/٧)، النكت والعيون (٣٥٩/٥)، تفسير القرطبي (٢٩/١٧).

(٢) أنيس الفقهاء في تعريفات الألفاظ المتداولة بين الفقهاء (ص:١٦).

(٣) التوقيف على مهمات التعاريف (ص:٣٤٠).

وقال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الوَقْتُ معروف، والميقات: الوقتُ المضروب للفعل، والموضعُ. يقال هذا ميقات أهل الشام، للموضع الذي يحرمون منه.

وتقول: وقته فهو موقوت، إذا بيَّنَ للفعل وقتاً يُفْعَلُ فيه. ومنه قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ١٠٣﴾ [النساء:١٠٣]، أي: مفروضًا في الأوقات.

والتوقيت: تحديد الأوقات. تقول: وقَّتُّهُ ليوم كذا، مثل أَجَّلْتُهُ.

وقرئ: ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ وُقِّتَتۡ﴾ [المرسلات:١١] بالتشديد، ﴿وُقِتَتْ﴾ أيضًا: مخفَّفة [1]. و﴿أُقِّتَتۡ ١١﴾ لغة، و(الْمَوْقِتُ) كالْمَجْلِس مَفْعِلٌ من الوقت. قال العجاج:

والجامعُ الناس ليوم الموقت..." [2].

وقال العسكري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان الفرق بين الوقت والميقات: "إن الميقات: ما قدر ليعمل فيه عمل من الأعمال، والوقت وقت الشيء قدره أو لم يقدره؛ ولهذا قيل: مواقيت الحج للمواضع التي قدرت للإحرام، وليس الوقت في الحقيقة غير حركة الفلك.." [3].

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ﴾ [الأعراف:١٤٢].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف:١٤٣].

---

(١) قال ابن جرير: "قرأه بعض قرَّاء البصرة بالواو وتشديد القاف ﴿وُقِّتَتْ﴾، وقرأه أبو جعفر ﴿وُقِتَتْ﴾ بالواو وتخفيف القاف. والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن كل ذلك قراءات معروفات، ولغات مشهورات، بمعنى واحد، فبأيتها قرأ القارئ فمصيب، وإنما هو فُعِّلَتْ من الوقت، غير أن من العرب من يستثقل ضمة الواو، كما يستثقل كسرة الياء في أول الحرف فيهمزها" تفسير الطبري (٢٤/١٣٠).

(٢) الصحاح، للجوهري، مادة: (وقت) (١/٢٦٩-٢٧٠)، وانظر: معجم ديوان الأدب (٣/٢٢٥)، خزانة الأدب (٨/٢٩٩).

(٣) الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري (ص:٢٧١).

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ﴾ [الأعراف:١٥٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ [الأعراف:١٨٧].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٣٧ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ٣٨﴾ [الحجر:٣٧-٣٨].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ٣٨﴾ [الشعراء:٣٨].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ مِيقَٰتُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٤٠﴾ [الدخان:٤٠].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ٤٩ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ٥٠﴾ [الواقعة:٤٩-٥٠].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتٗا ١٧﴾ [النبأ: ١٧].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿۞يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ﴾ [البقرة:١٨٩].

والمواقيت هي الأماكن التي حددها النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمن أراد ان يحرم للحج والعمرة.

والمواقيت قسمان:

الأول: مواقيت زمانية: وهي بالنسبة إلى الحج: شهر شوال، وذو القعدة، والعشر الأول من ذي الحجة، وهي أشهر الحج التي ذكرها الله عَزَّوَجَلَّ في قوله: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ﴾ [البقرة: ١٩٧].

قال الشافعية: أشهر الحج هي: شوال، وذو القعدة، وعشر ليال من ذي الحجة، تنتهي بطلوع الفجر من يوم النحر.

وقال المالكية: هي شوال، وذو القعدة، وذو الحجة بكماله؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿أَشۡهُرٞ﴾ [البقرة:١٩٧]، وهي جمع، وأقل الجمع ثلاثة.

وذهب الحنفية والحنابلة إلى أن أشهر الحج هي: شوال، وذو القعدة، وعشرة أيام من ذي الحجة، فهما يُدخلان يوم النحر بخلاف الشافعية، وينظر ذلك في مظانه.

أما العمرة فيجوز أداؤها في أيِّ وقت من السنة، وحتى في أشهر الحج، لا فرق في ذلك بين أن ينوي الحج في عامه أو لا ينوي ذلك.

والثاني: مواقيت مكانية: وقد جاء ذكرها في فيما رواه ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «**وَقَّتَ رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **لأهل المدينة: ذا الْحُلَيْفَة، ولأهل الشَّام: الْجُحْفَةَ، ولأهل نَجْدٍ: قَرْنَ الْمَنَازِل، ولأهل الْيَمَن: يَلَمْلَمَ**». قَالَ: «**فَهُنَّ لَهُنَّ، ولِمَنْ أتى عَلَيْهِنَّ من غير أَهْلِهِنَّ، ممن أراد الحج والعمرة، فمن كان دونهن فمن أهله، وكذا فكذلك، حتى أهل مكة يُهِلُّونَ منها**» (١).

وقوله: «**وَقَّتَ رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **لأهل المدينة: ذا الْحُلَيْفَة**» أي: جعل لهم ذلك الموضع ميقات الإحرام، وذو الحليفة أبعد المواقيت من مكة بينهما نحو عشر مراحل أو تسع وهي قريبة من المدينة على نحو ستة أميال منها، وتسمى: وادي العقيق.

«**ولأهل الشَّام: الْجُحْفَة**» هي ميقات لهم ولأهل مصر، وسائر المغرب، لكن إذا اجتازوا بالمدينة النبوية أحرموا من ميقات أهل المدينة.

قيل سميت بذلك؛ لأن السيل أجحفها في وقت، أي: ذهب بأهلها، ويقال لها: مهيعة، وهي على ثلاث مراحل من مكة على طريق المدينة.

«**ولأهل نَجْدٍ: قَرْن الْمَنَازِل**» وهو على نحو مرحلتين من مكة. قالوا: وهو أقرب المواقيت إلى مكة. واسمه الآن: السيل الكبير.

«**ولأهل الْيَمَن: يَلَمْلَم**» هو جبل من جبال تهامة على مرحلتين من مكة.

واسمه الآن: السعدية، وهو ميقات أهل اليمن، وكل من جاء من الجنوب عن طريق الساحل كأهل الباحة.

---

(١) صحيح البخاري [١٥٢٤، ١٥٢٦، ١٥٢٩، ١٥٣٠]، مسلم [١١٨١].

وقد جمعها بعضهم بقوله:

عرق العراق ويلملم اليمن ... وبذي الحليفة يحرم المدني

والشام جحفة إن مررت بها ... ولأهل نجد قرن فاستبن

ويضاف إليها: مساجد مكة التي بخارج حدود الحرم، مثل :مسجد التنعيم، ومسجد الجعرانة، فتعتبر مواقيت لأهل مكة فقط.

فهذه المواقيت لأهل هذه الأقطار، ولمن مر عليها من غير أهلها.

«**فمن كان دونهن فمن أهله**» هذا صريح في أن من كان مسكنه بين مكة والميقات فميقاته: مسكنه، ولا يلزمه الذهاب إلى الميقات، ولا يجوز له مجاوزة مسكنه بغير إحرام.

«**وكذا فكذلك حتى أهل مكة يهلون منها**» هكذا هو في جميع النسخ، وهو صحيح، ومعناه: وهكذا فهكذا من جاوز مسكنه الميقات حتى أهل مكة يهلون منها.

ومن تجاوز الميقات ولم يحرم منه وجب عليه الرجوع ليحرم منه، فإن لم يفعل وأحرم بعد مجاوزته للميقات فعليه دم، فيذبح شاة في مكة، ويوزعها على المساكين.

وإذا رجع إلى الميقات وأحرم منه فلا شيء عليه.

وإذا مرت الحائض بالميقات وهي تريد الحج فإنها تحرم من الميقات..



المبحث التاسع

اليوم وأجزاء الوقت فيه

أولًا: اليوم (مقداره وبيان المراد منه):

اليوم: مقدارُه من طلوع الشمس إلى غروبها، والأيَّام جَمْعُه. واليوم: الكَوْن، يُقال: نعم الأخ فلان في اليوم، أي: في الكائنة من الكَوْن إذا نزلت.

والأيام في أصل البناء: أَيْوام، ولكن العرب إذا وجدوا في كلمة: (ياء) و(واوًا) في موضع واحد، والأولى منهما ساكنة، أدغموا إحداهما في الأُخْرَى، وجعلوا الياء هي الغالبة، كانت قبل الواو أو بعدها، إلَّا في كلمات شواذٍّ تُرْوَى مثل: الفُتُوَّة والهُوَّة [1].

قال ابن كيسَان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وسُئل عَن (أَيَّام) لم ذهبت (الواو)؟ فأجاب: إِن كُل (ياء) و(واو) سبق أحدهما الآخر بسكون، فإن (الواو) تصير (ياء) في ذلك الموضع. وتدغم إحداهما في الأخرى، من ذلك (أَيَّام) أصلها: أيوام، وَمثلهَا: سيِّد، وميت، الأصل: سَيْود، ومَيوِت [2].

قال الأخفش رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾ [التوبة:١٠٨] يريد: (مُنْذُ أَوَّلِ يوم)؛ لأن من العرب من يقول (لم أَرَهُ من يوم كذا) بمعنى: مبدؤه، أي: (مُنْذُ أَوَّلِ يوم)، كقولك: (لقِيتُ كُلَّ رَجُلٍ)، تريد به: (كُلَّ

(١) العين (٤٣٣/٨).

(٢) تهذيب اللغة (٤٦٣/١٥).

الرِجّال) (١). وعاملَهُ مُيَاوَمَةً كما تقولُ: مُشَاهَرَةً. وَرُبَّمَا عَبَّرُوا عن الشِّدَّةِ باليوم، يقال: يَوْمٌ أَيْوَمُ، كما يقال: ليلةٌ لَيْلَاء (٢).

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقد يعبَّر باليوم عن مدَّة من الزَّمان، أي مدَّة كانت، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ [آل عمران:١٥٥]، ﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾ [النحل:٨٧]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وغير ذلك.

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم:٥]، فإضافة الأَيَّامِ إلى الله عَزَّوَجَلَّ تشريف لأمرها؛ لما أفاض الله عليهم من نعمه فيها.

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ الآية [فصلت:٩]" (٣). قال أبو إسحاق الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لو أراد جَلَّ وَعَلَا أنْ يخلقها في لَحَظَةٍ لَفَعَلَ ولكان ذلك سائغًا في قُدْرَتِهِ، ولكنه أحب أن يُبْصِرَ الخَلْقُ وُجُوهَ الأناة والقُدْرَة على خلق السَّمَاوَات والأرض في أيام كثيرة، وفي لحظة واحدة؛ لأن المخلوقين كلهُم والملائِكَةَ المقَرِبينَ لو اجتمعوا على أن يخلقوا مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْهَا مَا خَلَقُوا. وجاء في التفسير أن ابتداء خلق الأَرْضِ كان في يوم الأحد واستقام خلقها في يوم الاثنين" (٤).

و"يركَّب (يَوْمٌ) مع (إذ)، فيقال: (يَوْمَئِذ) نحو قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩﴾ [المدثر:٩]، وربما يعرب ويبنى، وإذا بني فللإضافة إلى (إذ)" (٥).

---

(١) انظر: معاني القرآن، للأخفش (٣٦٦/١)، تفسير الطبري (٤٧٦/١٤).

(٢) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (يوم) (٢٠٦٥/٥).

(٣) المفردات في غريب القرآن، مادة: (يوم) (ص:٨٩٤).

(٤) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٣٨٠/٤).

(٥) المفردات في غريب القرآن، مادة: (يوم) (ص:٨٩٤).

فقوله: ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ بدل من ذلك، وبني لإضافته إلى غير متمكن، وهو (إذ) والتنوين عوض عن جملة، أي: يوم إذ نفخ في الصور.

و﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ الآية [المائدة:٣]. ظرف منصوب بـ: ﴿يَئِسَ﴾، والألف واللام فيه للعهد، قيل: أراد به يوم عرفة، وهو يوم الجمعة عام حجة الوداع، نزلت هذه الآية فيه بعد العصر، ولم يعش الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بعد ذلك إلَّا إحدى وثمانين ليلة.

وقيل: هو يوم دخوله عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ مكة سنة تسع، وقيل: ثمان.

وقيل: أنه زمان النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ كله إلى أن نزل ذلك عليه يوم عرفة.

فـ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ الأول: ظرف لـ: ﴿يَئِسَ﴾، و﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ الثاني ظرف لـ: ﴿أَكۡمَلۡتُ﴾.

وقال الزجاج رَحِمَهُٱللَّهُ: "﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ منصوب على الظرف، وليس يُرادُ به -والله أعلم- يومًا بعَيْنه. معناه: الآنَ ﴿يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ﴾، وهذا كما تقول: أنا اليومَ قد كَبُرْتُ. وهذا الشأن لا يصلح في اليوم تريد: أنا الآن وفي هذا الزمان. ومعناه: أن قد حَوَّل الله عَزَّوَجَلَّ الخَوفَ الذي كاد يلحقكم منهم اليوم، ويئِسُوا من بُطْلان الإسلام وجاءكم ما كنتم توعدون من قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة:٣٣]" (١).

وتابع جارُ الله الزمخشري رَحِمَهُٱللَّهُ الزجاجَ رَحِمَهُٱللَّهُ في قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ منصوب على الظرف، وليس يُرادُ به يومًا بعَيْنه حيث قال: لم يرد بقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ يومًا بعينه، وإنما أراد به الزمان الحاضر وما يتصل به ويدانيه من الأزمنة الماضية والآتية، كقولك: (كنت

---

(١) معاني القرآن وإعرابه (٢/١٤٧-١٤٨).

بالأمس شابًا، وأنت اليوم أشيب)، فلا تريد بالأمس اليوم الذي قبل يومك، ولا باليوم يومك" [(١)].

ونحوه: (الآن) في قول قول زهير:

وأعلم ما في اليوم والأمس قبله ولكنني عن عِلْمِ ما في غَدٍ عَمِ [(٢)]

فلم يرد بهذه حقائقها.

وقد أوضح ذلك الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال: "قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ﴾ فيه قولان:

الأول: أنه ليس المراد هو ذلك اليوم بعينه حتى يقال: إنهم ما يئسوا قبله بيوم أو يومين، وإنما هو كلام خارج على عادة أهل اللسان، معناه: لا حاجة بكم الآن إلى مداهنة هؤلاء الكفار؛ لأنكم الآن صرتم بحيث لا يطمع أحد من أعدائكم في توهين أمركم، ونظيره قوله: (كنت بالأمس شابًّا واليوم قد صرت شيخًا)، ولا يريد بالأمس اليوم الذي قبل يومك، ولا باليوم يومك الذي أنت فيه.

---

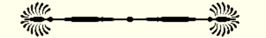
(١) الكشاف (١/٦٠٤).

(٢) هذا بيتٌ من الطويل. وقائله: زهير بن أبي سلمى. وهو في (ديوانه) (ص:٧٠)، طبعة: دار المعرفة، بيروت. والشاهد فيه: ورودُ الأزمنة الثلاثة فيه: اليوم للحال، والأمس للماضي، وغد للمستقبَل. وفيه حشو غير مفسد للمعنى، وهو لفظة قبله، قوله: قبله، صفة الأمس بتقدير الكائن قبله، وهو الوصف للتأكيد، وإنما صار حشوًا؛ لأنه لا فائدة للتأكيد فيه. انظر: معاهد التنصيص (١/٣٢٥-٣٢٦)، الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم (١/٦٦)، (٢/٦٩)، مواهب الفتاح (١/٦٨)، (١/٦٣٣)، الإيضاح في علوم البلاغة (ص:١٤١).

والقول الثاني: أن المراد به يوم نزول هذه الآية، وقد نزلت يوم الجمعة، وكان يوم عرفة بعد العصر في حجة الوداع سنة عشر والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واقف بعرفات على ناقته العضباء" (١).

ثانيًا: أجزاء الوقت في اليوم:

ساعة وبيان ما يراد منها في القرآن الكريم :



الساعة: جزء من أجزاء الزمان، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر:١]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ [الأعراف:١٨٧]، ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف:٨٥]. ويعبر بها عن القيامة؛ تشبيهًا بذلك؛ لسرعة حسابه، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنعام:٦٢]، أو لما نبه عليه بقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات:٤٦]، ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف:٣٥]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم:٥٥]، فالأولى هي: القيامة، والثانية: الوقت القليل من الزمان.

وقيل: الساعات التي هي القيامة ثلاثة: الساعة الكبرى، وهي القيامة، ووسطى وهي موت أهل القرن الواحد، وصغرى وهي موت الإنسان، فساعة كل إنسان موته، وهي المشار إليها بقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ

(١) مفاتيح الغيب (١١/٢٨٦-٢٨٧)، وانظر: الدر المصون (٤/١٩٨).

بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام:٣١]، ومعلوم أن هذه الحسرة تنال الإنسان عند موته [١].

قال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الساعة في عرف اللغة: القطعة من الزمان غير محدود بمقدار؛ كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ﴾ [الروم:٥٥]، وتقول العرب: (جئتك ساعة كذا)، فتتعين بحسب ما تضاف إليه، وليست محدودة" [٢].

والساعة: جُزءٌ من أجزاءِ الجَديدَيْنِ -الليلِ والنهار-، وهما: أَرْبَعٌ وعِشرون سَاعَة، وإذا اعْتَدَلا فكلُّ واحدٍ منهما: ثِنْتا عَشَرَةَ ساعة [٣].

والساعة أيضًا: آلة يعرف بها الوقت بحسب الساعات.

واليوم، والشهر، والسنة، والليلة، والساعة أسماء وضعن لمقادير من الزمان في أول الوضع [٤].

قال مجد الدين ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والساعة في الأصل تطلق بمعنيين:

أحدهما أن تكون عبارة عن جزء من أربعة وعشرين جزءًا هي مجموع اليوم والليلة.

والثاني: أن تكون عبارة عن جزء قليل من النهار أو الليل. يقال: (جلست عندك ساعة من النهار)، أي: وقتًا قليلًا منه، ثم استعير لاسم يوم القيامة.

---

(١) المفردات في غريب القرآن، مادة: (ساعة) (ص:٤٣٤-٤٣٥)، وانظر: التوقيف على مهمات التعاريف (ص:١٨٩)، الميسر في شرح مصابيح السنة، للتُّورِبِشْتِي (١١٨١/٤)، شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٣٤٨١/١١).

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٤٨٦/٢).

(٣) انظر: تهذيب اللغة (٥٧/٣).

(٤) انظر: المخصص، لابن سيده (٢٦٨/٤).

قال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ [١]: معنى الساعة في كل القرآن: الوقت الذي تقوم فيه القيامة، يريد أنها ساعة خفيفة يحدث فيها أمر عظيم، فلقلة الوقت الذي تقوم فيه سماها ساعة -والله أعلم-" [٢].

والصواب أنه قد يراد منها في القرآن الكريم كذلك: الوقت القليل المتناهي، وهو مدة اللبث في القبور، وقيل: في الحياة الدنيا أو فيما بين فناء الدنيا إلى البعث، كما سيأتيك في تفسير قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ﴾ [الروم:٥٥]. ومن الغريب خفاء ذلك على الإمام أبي إسحاق الزجاج، ومن تبعه كابن الأثير، وصاحب لسان العرب رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، ولعلهم أرادوا الغالب في الاستعمال؛ ولذلك قال صاحب (المنار) رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الصواب أنها استعملت في القرآن منكرة بمعنى: الساعة الزمانية، ومعرفة بالألف واللام العهدية بمعنى: الساعة الشرعية، وهي ساعة خراب هذا العالم، وموت أهل الأرض، وجمع بينهما في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ﴾. وقيل: إن هذا القول هو وجه تسميتها بالساعة.

والغالب في استعمال القرآن الكريم: التعبير بيوم القيامة عن يوم البعث والحشر الذي يكون بعد الموت، الذي يكون فيه الحساب، وما يتلوه من الجزاء، والتعبير بالساعة عن الوقت الذي يموت فيه الأحياء في هذا العالم، ويضطرب نظامه ويخرب بما يكون فيه من الأهوال يتلو بعضها بعضًا، فالساعة هي المبدأ، والقيامة هي الغاية، ففي الأولى: الموت والهلاك، وفي الآخرة: البعث والجزاء. وبعض التعبيرات في كل منهما يحتمل حلوله محل الآخر في الغالب، وفي المعنى المشترك الذي يعم المبدأ والغاية. وحمل بعض المفسرين

---

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، لأبي إسحاق الزجاج (٤/٤٢١).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (سوع) (٢/٤٢٢).

الآيات على القيامة الصغرى لكل فرد وهي ساعة موته، وزاد بعضهم القيامة الوسطى، وهي هلاك الجيل أو القرن...الخ" (١).

وقال جار الله الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ [الروم:٥٥]: ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾: القيامة، سميت بذلك؛ لأنها تقوم في آخر ساعةٍ من ساعات الدنيا، أو: لأنها تقع بغتةً وبداهةً. كما تقول: (في ساعةٍ) لمن تستعجله، وجرت علمًا لها كالنجم للثُّريَّا، والكوكب للزُّهرة (٢).

﴿يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ﴾ أي: في القبُور، أو في الدُّنيا" (٣). قال أبو السعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والأول هو الأظهر؛ لأنَّ لبثهم مُغيًّا بيوم البعث، وليس لبثُهم في الدُّنيا كذلك" (٤). وقيل: "فيما بين فناء الدنيا إلى البعث (٥). وفي الحديث: «**ما بين النفختين أربعون**» (٦)، وهو محتملٌ للسَّاعات والأيَّام والأعوام. وقيلَ لا يعلم أهي أربعونَ سنة أو أربعونَ ألفِ سنة. ﴿غَيْرَ سَاعَةٍۚ﴾، وإنما يقدِّرون وقت لبثهم بذلك على وجه استقلُّوا فيه

---

(١) انظر: تفسير المنار (٩/٣٨٧).

(٢) (الزهرة) بضمِّ الزاي وفتح الهاء، وتسكينها لحن، و(الكوكب) غلب عليها غلبة الكتاب على كتاب سيبويه. حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي (٧/١٢٨)، حاشية القونوي على البيضاوي (١٥/١٧٢).

(٣) الكشاف (٣/٤٨٦).

(٤) تفسير أبي السعود (٧/٦٦). قال الله عَزَّوَجَلَّ في الآية التالية: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٥٦﴾ [الروم:٥٦].

(٥) قال الشهاب: "قوله: (فناء الدنيا) المراد: فناء أهلها، فلا ينافي كونها في آخر ساعات الدنيا؛ فإنه قد يعد ما قبل دخول الجنة والنار من الدنيا، وقد يعد من الآخرة، وقد يعد برزخًا. حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي (٧/١٢٨).

(٦) صحيح البخاري [٤٨١٤، ٤٩٣٥]، مسلم [٢٩٥٥].

مدَّة لبثهم [(١)]، أو أنهم ينسون، أو يكذبون، أو يخمنون. ﴿كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ ۝٥٥﴾، أي: مثلَ ذلكَ الصَّرفِ كانوا يُصرفون في الدُّنيا عن الحقِّ والصِّدق"[(٢)].

والقول بأن القيامة سميت: ساعة؛ لأنها تقع بغتةً، فالساعة عبارة عن السرعة؛ فإنه ورد استعمالها كذلك في العرف؛ ولذا قيل: وقوعها في أدنى ما يطلق عليه اسم الزمان؛ إشارة إلى المباغتة، وسرعة الوقوع، وإن كانت بالنسبة إلى انتهائها مديدة.

وقيل: إنها سميت بها؛ لأنها مع طولها في نفسها فهي كساعة عند الله عَزَّوَجَلَّ، فالمراد بها: لازمها، وهو السرعة، فسميت بها؛ لسرعتها.

وقيل: لسرعة حسابها.

وقيل: هي بالنظر إلى السعداء كساعة واحدة [(٣)].

ولا أحد يعلم متى تقوم الساعة إلا الله عَزَّوَجَلَّ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝١٨٧﴾ [الأعراف:١٨٧].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان:٣٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [الأحزاب:٦٣].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ۝٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ۝٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ۝٤٤﴾ [النازعات:٤٢-٤٤].

---

(١) أي: عدوها قليلًا؛ فإنها متناهية، ومدة عذابهم غير متناهية، ولتسارع انقضاء الأيام في الحياة الدنيا.

(٢) الكشاف (٣/٤٨٦-٤٨٧).

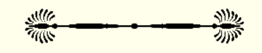
(٣) انظر: حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي (٧/١٢٨)، حاشية القونوي على البيضاوي (١٥/١٧١-١٧٢).

فالله عَزَّوَجَلَّ وحده عنده علم وقت قيام الساعة، وما يتبعه من الأحوال والأهوال، وهو متفرد بعلمه، فلا يدري أحد من الناس في أيِّ ساعة من ساعات الليل والنهار تقوم الساعة، ولا في أيِّ شهر، ولا في أيِّ سَنَة.

الفرق بين الوقت والساعة:

قال العسكري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الساعة هي الوقت المنقطع من غيره، والوقت اسم الجنس؛ ولهذا تقول: إن الساعة عندي، ولا تقول: الوقت عندي" (١).

دقيقة:



الدقيقة: مُدَّة من الوقت قصيرة، وهي جُزء من ستّين جُزْءًا من السَّاعة، وهي مَقسُومة إلى ستِّين ثانية، فكلُّ ساعة عبارة عن ستين دقيقة، وكلُّ دقيقة ستون ثانية، وعلى هذا القياس.

قال الشاعر:

دَقَّـاتُ قَـلـبِ الْـمَـرءِ قـائِلَةٌ لَهُ ... إنَّ الحَـيـاةَ دَقـائِـقٌ وَثَـواني
فَارفَع لِنَفسِكَ بَعدَ مَوتِكَ ذِكرَها ... فَالذِكرُ لِلإِنسانِ عُمرٌ ثـاني (٢)

---

(١) الفروق اللغوية (ص:٢٧٢).

(٢) البيتان لأحمد شوقي، وهما في (ديوانه) (ص:١٤٧). وقد شبه الدلالة بالقول، بجامع إيضاح المراد في كل، واستعار اللفظ الدال على المشبه به للمشبه، واشتق من القول بمعنى: الدلالة (قائل) بمعنى: دال، على طريق الاستعارة التصريحية التبعية، والقرينة نسبة القول إلى الدقات.

لحظة:

اللِّحاظ: مُؤَخَّر العَيْن، واللَّحْظة: النَّظْرة من جانب الأُذُن، ومنه قول الشاعر:

فلما تلته الخيل وهو مثابر على الركض يخفي لحظة ويعيدها (١)

وفي الحديث: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كان يَلْحَظُ في الصَّلَاةِ يَمِينًا وشِمَالًا، ولا يَلْوِي عُنُقَهُ خَلْفَ ظَهْرِه**» (٢). قال إبراهيم الحربي رَحِمَهُ اللَّهُ: "قال أبو زيد: لحظ يلحظ لحظًا ولحظانًا: إذا نظر بمؤخر عينه. أخبرني أبو نصر عن الأصمعي رَحِمَهُ اللَّهُ: اللحاظ: مؤخر العين الذي يلي الصدغ" (٣).

واللحظة: الْمَرَّة من اللَّحْظِ. يقولون: جَلَسْتُ عندَهُ لَحْظَة، أي: كلَحْظَةِ العَيْن، ويصَغِّرُونه: لُحَيْظَة، والجمع: لَحَظات.

قال الجوهري رَحِمَهُ اللَّهُ: "لَحَظَهُ ولَحَظَ إليه، أي: نظر إليه بمؤْخِرِ عينيه. واللَّحَاظُ -بالفتح-: مؤْخِرِ العين. واللِّحاظُ -بالكسر-: مصدر لاحظته: إذا راعيته" (٤). وقوله: أي: نظر بمؤخر عينه المراد منه: الزمن اليسير، أي: قدر لحظة

---

(١) العين، مادة: (لحظ) (٣/١٩٨)، وانظر: تهذيب اللغة (٤/٢٦٤).

(٢) وفي لفظ: «يلتفت» مكان: «يلحظ». والحديث صححه ابن حبان والدارقطني، والحاكم، وقال: "صحيح على شرط البخاري"، ووافقه الذهبي. قال الحافظ ابن حجر: "أخرجه الترمذي، والنسائي، وصححه ابن حبان والحاكم والدارقطني، ورجح إرساله الترمذي، وقد أخرجه البزار وابن عدي من وجه آخر في ترجمة مندل بن علي. الدراية في تخريج أحاديث الهداية (١/١٨٣)، انظر: نصب الراية (٢/٨٩).

(٣) غريب الحديث، لإبراهيم الحربي (٢/٦٥١).

(٤) الصحاح، للجوهري، مادة: (لحظ) (٣/١١٧٨)، وانظر: جمهرة اللغة، مادة: (لحظ) (١/٥٥٣)، مقاييس اللغة (٥/٢٣٧-٢٣٨).

واللحظة: مصدر لحظ الشيء هنيهة إذا نظر إليه بتحديق، ثم استعملت بمعنى الزمان اليسير بقدر ما تلحظ العين [١]. واللحظة أطول من الثانية حيث إن اللحظة وحدة زمنية قديمة تساوي تسعين ثانية.

ثانية:

الثانية: هي جزء من ستين جزءًا من الدقيقة، والدقيقة جزء من ستين جزءًا من الدرجة؛ والدرجة جزء من خمسة عشر جزءًا من الساعة المقدر بها الليل والنهار [٢].

والثانية أقصر من اللحظة حيث إن اللحظة وحدة زمنية قديمة تساوي تسعين ثانية.

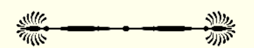


(١) التوقيف على مهمات التعاريف (ص: ٢٨٨).

(٢) انظر: الكليات (ص:٣٢٧)، حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي (٥/٦)، حاشيتا القونوي وابن التمجيد على البيضاوي (١١/٤٣٣-٤٣٤).

ثالثًا: أسماء اليوم باعتبار الماضي والحاضر والمستقبل:

أمس:



قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارًا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ﴾ [يونس:٢٤].

﴿فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥۚ﴾ [القصص:١٨].

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسًا بِٱلۡأَمۡسِۖ﴾ [القصص:١٩].

﴿وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ﴾ [القصص:٨٢].

سيأتي أن الغد تعبير عن الزمن النسبي المستقبل، ويقال في الحقيقة لليوم الذي يلي يومك الذي أنت فيه.

ثم توسَّعُوا فيه حتى أُطْلِق على البَعِيدِ الْمُتَرقَّب.

والأمس عكسه، فهو تعبير عن الزمن النسبي الماضي، فهو يقال على سبيل الحقيقة لليوم الذي قبل اليوم الحاضر.

ويتوسع فيه فيطلق على الزمن الماضي مطلقًا.

والنكتة فيه: تقريب الزمان الماضي؛ تشبيهًا لما مضى من الزمن؛ لسرعة انقضائه، بانقضاء اليوم الذي قبل اليوم الحاضر، وهو يمضي سريعًا، فكذلك ما مضى من الأيام المتعاقبة.

ويقال: ذهب فلان كما ذهب أَمسِ الدابرُ، أو أَمسِ الذاهب، وهو الماضي الذي لا يرجع أبدًا.

وأمس مبني على الكسر إذا كان معرفة، فإذا نكر أو أضيف أو دخلت عليه أل فيعرب: كلُّ غدٍ صَائرٌ أمْسًا، ومضى أمسنا، والأمس المبارك.

والأمس البعيد هو الماضي البعيد.

والأمس القريب: الماضي القريب.

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أمْسِ: اسمٌ حرِّكِ آخره؛ لالتقاء الساكنين. واختلفت العرب فيه، فأكثرهم يبنيه على الكسر معرفةً، ومنهم من يُعربه معرفةً. وكلُّهم يعربه إذا دخل عليه الألف واللام، أو صيَّره نكرة، أو أضافه. تقول: مضى الأَمْسُ المبارك، ومضى أَمْسُنا، وكلُّ غدٍ صائرٌ أمسًا. وقال سيبويه رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: قد جاء في ضرورة الشعر مذ أمس -بالفتح-.

ولا يُصَغَّرُ أَمْسِ كما لا يُصَغَّرُ غَدٌ، والْبَارِحَةُ، وكَيْفَ، وأيْنَ، ومتى، وأَيٌّ، وما، وعنْدَ، وأسماءُ الشُّهُور، والأسبُوع غَيْرَ يومِ الجمعَة" [2].

فأمس يراد به اليوم الذي قبل يومك، ويراد به ما مضى من الزمان مطلقًا، كقول زهير:

وأعـلـم مـا في اليوم والأمـس قـبـله ... ولكِنّني عـن عِـلْمِ مـا في غَـدٍ عَـمِ [3]

---

(١) انظر: الكتاب، لسيبويه (٣/٢٨٣).

(٢) الصحاح، للجوهري، مادة: (أمس) (٣/٩٠٤)، وانظر: الجمل في النحو (ص:٢٠١-٢٠٢).

(٣) هذا بيتٌ من الطويل. وقائله: زهير بن أبي سلمى. وهو في (ديوانه) (ص:٧٠)، طبعة: دار المعرفة، بيروت.
والشاهد فيه: ورودُ الأزمنة الثلاثة فيه: اليوم للحال، والأمس للماضي، وغد للمستقبَل. وفيه حشو غير مفسد للمعنى، وهو لفظة قبله، قوله: قبله، صفة الأمس بتقدير الكائن قبله، وهو الوصف للتأكيد، وإنما صار حشوًا؛ لأنه لا فائدة للتأكيد فيه. انظر: معاهد التنصيص (١/٣٢٥-٣٢٦)، الأطول شرح=

فإذا أريد منه اليوم الذي قبل يومك فهو مبني على الكسر؛ لتضمنه معنى: الألف واللام، فإذا دخله الألف واللام أو الإضافة تمكن فأعرب بالرفع والفتح عند أكثر النحويين. ومنهم من يبنيه وفيه الألف واللام.

وقد جاء في تفسير قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾ [القصص:٨٢]: أن قوله: ﴿بِٱلْأَمْسِ﴾ ظرف لـ: ﴿تَمَنَّوْاْ﴾، ولم يرد به اليوم الذي قبل يومك، ولكن الوقت المستقرب على طريق الاستعارة، أي: الاستعارة اللفظية، نحو: استعارة المرسن-وهو أنف فيه رسن- لمطلق الأنف (١). وكذلك استعار (الأمس) وهو وقت محدود متعارف للزمان المستقرب (٢). تقول: كنت بالأمس شابًّا، وأنت اليوم أشيب، فلا تريد بالأمس اليوم الذي قبل يومك، ولا باليوم يومك.

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس:٢٤].

قال الفراء رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومن العرب من يخفض الأمس، وإن أدخل عليه الألف واللام. وأنشد:

وإنّي حُبِسْتُ اليومَ والأمسِ قبله ***" (٣).

=تلخيص مفتاح العلوم (٦٦/١)، (٦٩/٢)، مواهب الفتاح (٦٨/١)، (٦٣٣/١)، الإيضاح في علوم البلاغة (ص:١٤١).

(١) (المرسن)، وهو أنف البعير، إذا أطلق على الإنسان إما أن نطلقه على سبيل إطلاق المقيد على المطلق مجازًا مرسلًا، وعلاقته: التقييد. وإما أن نطلقه على سبيل التشبيه؛ لعلاقة المشابهة، فيكون من قبيل الاستعارة.

(٢) انظر: الكشاف (٤٣٤/٣)، حاشية الطيبي على الكشاف (١١٧/١٢).

(٣) انظر: معاني القرآن، للفراء (١٠١/١-١٠٢)، تهذيب اللغة (٨٠/١٣). قال ابن هشام: "روى هذا البيت بفتح (أمس) على أنه ظرف معرب؛ لدخول (أل) عليه. ويروى أيضًا بالكسر، وتوجيهه إما على البناء، وتقدير (أل) زائدة، أو على الإعراب على أنه قدر دخول (في) على (اليوم)، ثم عطف عليه عطف=

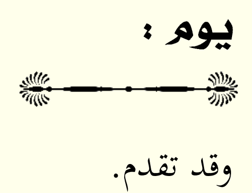
وقال ابن خروف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "للعرب في (أمس) لغات: فأهل الحجاز يبنونه على الكسر في كل حال، ولا علة لبنائه إلا التخفيف؛ تشبيها بالأصوات، كـ: (غاق) لصوت الغراب، وبنو تميم يبنونه على الكسر في الجر والنصب، ويعربونه في الرفع بلا صرف، ومنهم من يعربه بكل حال ولا يصرفه.." (١).

قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وكلُّ حرفٍ مستحق للبنا ... والأصل في المبنيِّ أن يسكَّنا

ومنه ذو فتح وذو كسر وضم ... كأين أمس حيث والسَّاكن كم (٢)

يوم :



وقد تقدم.

غَد :

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ﴾ [يوسف:١٢].

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الكهف:٢٣-٢٤].

﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ﴾ [لقمان:٣٤].

=التوهم" انظر: شرح شذور الذهب، لابن هشام (ص:١٣١-١٣٢)، وانظر: حاشية الصبان على شرح الأشمونى لألفية ابن مالك (٣/٣٩٣).

(١) انظر: تحرير ألفاظ التنبيه، للنووي (ص:٢٦٦-٢٦٧)، المحكم والمحيط الأعظم (٨/٥٦٥- ٥٦٦).

(٢) ألفية ابن مالك (ص:١٠).

﴿سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ ٢٦﴾ [القمر:٢٦].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ﴾ [الحشر:١٨].

﴿أَنِ ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ﴾ [القلم:٢٢].

﴿وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ ٢٥﴾ [القلم:٢٥].

الغد أو غدًا هو تعبير عن الزمن النسبي المستقبل، ويقال في الحقيقة لليوم الذي يلي يومك الذي أنت فيه.

ثم توسَّعُوا فيه حتى أُطْلِق على البَعِيدِ الْمُتَرقَّب. فهو يطلق على المستقبل مجازًا؛ والنكتة فيه: أنه مرتقب ينبغي أن يكون في الحسبان، وأن لا يغفل عنه؛ لملازمة اقتراب الزمن لمفهوم الغد، لأن الغد هو اليوم الموالي لليوم الذي فيه المتكلم فهو أقرب أزمنة المستقبل، كما قال قراد بن أجدع:

فإن يك صدر هذا اليوم ولَّى ... فإن غدًا لناظره قريب [(١)]

أي: لمنتظره. يقال: نظرته أي: انتظرته.

كما يستعمل اليوم بمعنى: زمان الحال، والأمس بمعنى: زمن الماضي. وقد جمعها زهير بقوله:

وأعلم ما في اليوم والأمس قبله ... ولكِنّني عن عِلْمِ ما في غَدٍ عَمِ [(٢)]

---

(١) أول من قال ذلك: قراد بن أجدع. انظر: مجمع الأمثال (٧٠/١)، التحرير والتنوير (١١١/٢٨).

(٢) هذا بيتٌ من الطويل. وقائله: زهير بن أبي سلمى. وهو في (ديوانه) (ص:٧٠)، طبعة: دار المعرفة، بيروت. والشاهد فيه: ورودُ الأزمنة الثلاثة فيه: اليوم للحال، والأمس للماضي، وغد للمستقبَل. وفيه حشو غير مفسد للمعنى، وهو لفظة قبله، قوله: قبله، صفة الأمس بتقدير الكائن قبله، وهو الوصف للتأكيد، وإنما صار حشوًا؛ لأنه لا فائدة للتأكيد فيه. انظر: معاهد التنصيص (٣٢٥/١-٣٢٦)، الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم (٦٦/١)، (٦٩/٢)، مواهب الفتاح (٦٨/١)، (٦٣٣/١)، الإيضاح في علوم البلاغة (ص:١٤١).

قال جار الله الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر:١٨]: "الغد: يوم القيامة، سماه باليوم الذي يلي يومك؛ تقريبًا له. وعن الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لم يزل يقربه حتى جعله كالغد. ونحوه قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس:٢٤]، يريد: تقريب الزمان الماضي. وقيل: عبر عن الآخرة بالغد كأن الدنيا والآخرة نهاران: يوم وغد" [١].

وتنكيره لتعظيم أمره، أي: أنه لا يعرف كنهه؛ لعظمه.

قال في (النهاية): "الغدو: أصل الغد، وهو اليوم الذي يأتي بعد يومك، فحذفت لامه، ولم يستعمل تامًّا إلا في الشعر.." [٢].

وقال أبو إسحاق الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر:١٨]: "أي: ليوم القيامة، وقُرِّبَ على الناس، فجعل كأنه يأتي غدًا. وأصل غَدٍ: غَدْوٌ، إلا أنه لم يأت في القرآن إلا بحذف الواو، وقد تُكُلِّمَ به بحذف الواو، وجاء في الشَعْر بإثبات الواو وحذفها.

قال الشاعر في إثباتها:

وما النَّاسُ إِلَّا كالدِّيارِ وأهلها ... بها يومَ حَلّوُها وغَدْوًا بَلاقِعُ [٣]

وقال آخر:

(١) الكشاف (٤/٥٠٨).

(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (غدا) (٣/٣٤٦).

(٣) قاله لبيد بن ربيعة العامري، وهو في (ديوانه) (ص:٥٦)، وبلاقع: أي: قفار.

لا تَـغْـلُـواهـا [١] وادْلُـواهـا دَلْـوَا   إنَّ مَـعَ الـيَـوْمِ أَخـاه غَـدْوَ [٢]

الغَدُ أصله غَدْوٌ - مِثْلُ فَلْسٍ-، حذفوا الواو بلا عوض، و(الْغُدْوَة): ما بين صلاة (الْغَدَاةِ) وطلوع الشمس. يقال: أتيته غُدْوَةَ غير مصروف؛ لأنها معرفة مثل: سَحَرَ، إلا أنها من الظروف المتمكنة، والجمع: غُدًا. ويقال: آتيك غَدَاةَ غَدٍ، والجمع: الْغَدَوَاتُ [٣].

قال في (العين): "غدو: غَدَا غَدْكَ: مقصور ناقص، وغَدَا غَدْوُكَ تام، وأنشد:

ومـا النَّاسُ إِلَّا كـالـدِّيـارِ وأهـلـهـا   بـهـا يومَ حَلّوُها وغَدْوًا بَلاقِعُ" [٤]

قال الراغب رَحِمَهُ اللَّهُ: "غَدٌ يقال لليوم الذي يلي يومك الذي أنت فيه، قال: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ [القمر: ٢٦]، ونحوه" [٥].

---

(١) ورد في غير مصدر بلفظ: (لا تقلواها وادلواها دلوا***)، والقلو: السير الحثيث، والدلو: السير الرفيق. انظر: الزاهر (٣٣٨/١)، الفاضل، للمبرد (ص:١٩)، جمهرة الأمثال (٢٨٤/٢)، الصحاح، مادة: (دلو) (٢٣٣٩/٦)، جمهرة اللغة (٦٧١/٢)، المستقصى في أمثال العرب (٤١٤/١)، المنصف، لابن جني (ص:٦٤)، المحكم والمحيط الأعظم (٩/ ٤٢٧)، غريب الحديث، للخطابي (٢٤٤/٢)، الممتع الكبير في التصريف، لابن عصفور (ص:٣٩٦)، شرح شافية ابن الحاجب (٢٩٧/٣)، شرح المفصل، لابن يعيش (٢٢٢/٣).

(٢) معاني القرآن وإعرابه (١٤٩/٥). و"معنى قوله: لا تغلواها، أي: لا تعنفا بها. يقال: غلوت الأبل غلوًا: إذا حثثتها في السير، ودلوتها: إذا رفقت بها. وقوله: غدوًا إنما المستعمل منه غد؛ لأنه على حرفين، مثل: يد وما أشبهه. وأصله: غدوٌ، فحذفت منه الواو، فلما اضطر إليه الشاعر رده إلى أصله" الحور العين، لنشوان بن سعيد الحميري اليمني (ص: ٤٦).

(٣) انظر: الصحاح، للجوهري (٢٤٤٤/٦).

(٤) العين، مادة: (غدو) (٤٣٦/٤-٤٣٧). والبيت قد تقدم.

(٥) المفردات في غريب القرآن، مادة: (غدا) (ص:٦٠٣).

رابعًا: أجزاء اليوم وساعات الليل والنهار:

أما أجزاء اليوم: فأوله: الفجر، ثم الصباح، ثم الغداة، ثم البكرة، ثم الضحى، ثم الهجيرة، ثم الظهر، ثم الرواح، ثم المساء، ثم العصر، ثم الأصيل، ثم العشاء الأولى، ثم العشاء الأخيرة، عند مغيب الشفق (١).

وقد ذكر قطرب رَحِمَهُ ٱللَّهُ ترتيب ساعات الليل، وترتيب ساعات النهار، وهي تمثل أجزاء اليوم، مع بيان مسمياتها في كتابه: (الأزمنة) (٢).

وقد أوجز الثعالبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (فقه اللغة) ذكر ساعات النهار وساعات الليل، حيث قال: **ساعاتُ النَّهار**: الشُرُوق، ثُمَّ البكورُ، ثُمَّ الغُدْوَة، ثُمَّ الضُّحى، ثُمَّ الهاجِرَة، ثُمَّ الظَهِيرَةُ، ثُمَّ الرَّوَاح، ثُمَّ العَصْر، ثُمَّ القَصْر، ثُمَّ الأصِيل، ثُمَّ العَشِيُّ، ثُمَّ الغُروب.

وساعات اللَّيل: الشَّفَق، ثُمَّ الغَسَق، ثُمَّ العَتَمَة، ثُمَّ السُّدْفَة، ثُمَّ الفَحْمَة، ثُمَّ الزُّلَّةُ، ثُمَّ الزُّلْفة، ثُمَّ البُهْرَة، ثُمَّ السَّحَر، ثُمَّ الفَجْر، ثُمَّ الصُّبْح، ثُمَّ الصَّباح، "وباقي أسماء الأوقات تجيءُ بتكْرِيرِ الألفاظ التي معانيها متَّفقة" (٣).



(١) انظر: الكليات (ص:٩٨١).

(٢) انظر: الأزمنة وتلبية الجاهلية، لقطرب (ص:٤٩)، (ص:٥٦).

(٣) فقه اللغة وسر العربية، لأبي منصور الثعالبي (ص:٢١٥).

المبحث العاشر
ألفاظ يحتاجها المفسر والفقيه
مع بيان دلالاتها وما يتصل بها من أعمال

إبكار وبكرة وتبكير:

والبُكْرَةُ: الغُدْوَةُ. قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "تقول: أتيتهُ بُكْرَةً -بالضم-، أي: باكرًا. فإن أردت به بُكْرَةَ يوم بعينه قلت: أتيته بكْرَة غيرَ مصروفٍ، وهي من الظُّروف التي لا تتمكن. وسِيرَ على فرسك بُكْرَةً وبَكَرًا، كما تقول: سَحَرًا. وقد بَكَرْتُ أَبْكُرُ بُكورًا، وبَكَّرْتُ تَبْكِيرًا، وأَبْكَرْتُ وابْتَكَرْتُ، وباكَرْتُ كله بمعنى. ولا يقال: بَكُر -بضم الكاف- ولا بكِر -بكسرها-. وقال أبو زيد: أَبْكَرْتُ الغَداءَ. قال: وبَكَرْتُ على الحاجة بكورًا، وأبكرت غيري. وأبكر الرجلُ: وَرَدَتْ إبله بُكْرَةً. وكلُّ من بادر إلى الشيء فقد أَبْكَرَ إليه وبَكَّرَ، أيَّ وقتٍ كانَ. يقال: بَكِّرُوا بصلاة المغرب، أي صلُّوها عند سقوط القُرص. وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ۝٤١﴾ [آل عمران:٤١]، وهو فَعلٌ يدلُّ على الوقت وهو البكرة، كما قال: ﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡآصَالِ﴾ [الأعراف:٢٠٥]، جعل الغدوَّ وهو مصدرٌ يدل على الغَدَاة. والباكورة: أول الفاكهة.

وفي (التهذيب): "والبُكْرَةُ من الغَدَاة تُجمع: بُكرًا وأبكارًا. وقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ۝﴾ [القمر:٣٨] بكرَة وغدوة إذا كانتا نكرتين أُنثتا وصُرِفتا، وإذا أرادوا بهما بكرةَ يومِك؛ وغداةَ يَوْمك لم تصرفهما فبكرة ها هُنَا نكرَة.

والبُكورُ، والتبكيرُ: الخروج في ذلك الوقت.

والإبكارُ: الدُّخول في ذلك الوقت، ويقال: باكَرْتُ الشَّيْء إذا بكَّرْتَ له"(١).

وسيأتي كذلك ذكر لفظ: (الإبكار في القرآن الكريم) مع ذكر (عشي) من ألفاظ الزمن.

ومن المجاز: "بكر بالصلاة إذا صلاها في أول وقتها. وابتكر الشيء: أخذ أوله. وابتكر الخطبة: سمع أولها. ونخلة باكر وبكور: تبكر بحملها" (٢).

وفي حديث الجمعة: «**من بَكَّرَ وَابْتَكَرَ**» (٣)، قالوا: بكر: أسرع. وابتكر: أدرك الخطبة من أولها. وهو من الْبَاكُورَة" (٤).

قال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقوله «**بَكَّرَ وَابْتَكَرَ**» زعم بعضهم أن معنى «**بَكَّرَ**»: أدرك بَاكُورَةَ الخطبة، وهي أولها، ومعنى: «**وَابْتَكَرَ**» قدم في الوقت.

---

(١) تهذيب اللغة (١٢٧/١٠).

(٢) انظر: أساس البلاغة (٧٢/١)، الفائق في غريب الحديث والأثر (٦٧/٣)، النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (بكر) (١٤٨/١-١٤٩).

(٣) رواه أصحاب السنن، وابن حبان، والحاكم وصححه من حديث: أوس بن أوس، وحسنه الترمذي. المغني عن حمل الأسفار (ص: ٢١٣).

(٤) الصحاح، للجوهري، مادة: (بكر) (٥٩٦/٢-٥٩٧).

وقال ابن الأنباري رَحِمَهُ ٱللَّهُ معنى: «**بَكَّرَ**»: تصدق قبل خروجه. وتأول في ذلك ما روي في الحديث من قوله: «**باكروا بالصدقة؛ فإن البلاء لا يتخطاها**» (١).

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح، فكأنما قَرَّبَ بدنة، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قَرَّبَ بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قَرَّبَ كبشًا أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قَرَّبَ دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قَرَّبَ بيضة، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر**» (٢).

وقوله: «**راح إلى الجمعة**» معناه: قصدها، وتوجه إليها مبكرًا قبل الزوال. وإنما تأولناه على هذا المعنى؛ لأنه لا يجوز أن يبقى عليه بعد الزوال من وقت الجمعة خمس ساعات، وهذا جائز في الكلام أن يقال: راح لكذا ولأن يفعل كذا بمعنى: أنه قصد إيقاع فعله وقت الرواح، كما يقال للقاصدين إلى الحج: حجاج ولما يحجوا بعد، وللخارجين إلى الغزو غزاة، ونحو ذلك من الكلام.

---

(١) الحديث مروي عن عليٍّ وعن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا. حديث علي: أخرجه الطبراني في (الأوسط) [٥٦٤٣]، قال الهيثمي (٣/١١٠): "رواه الطبراني في (الأوسط)، وفيه: عيسى بن عبد الله بن محمد، وهو ضعيف" حديث أنس: أخرجه البيهقي في (الكبرى) [٧٨٣١]، وفي (شعب الإيمان) [٣٠٨٢]، والديلمي [٢٠٧٩]. وقد أورده ابن الجوزي في (الموضوعات) (٢/١٥٣). وأورده كذلك القاري في (الموضوعات الكبرى) (ص:٨٧). قال ابن الجوزي: هو موضوع. وقال ابن حجر العسقلاني: لكن لا يتبين لي أنه كذلك. انظر: المقاصد الحسنة (ص:٢٣٢)، الأسرار المرفوعة (ص:١٤٦-١٤٧)، وفي (الفوائد المجموعة): "رواه ابن عدي عن أنس مرفوعًا، وفي إسناده: وضاع ومجهول وكذاب، وأخرجه الطبراني من حديث: عليٍّ بإسناد آخر، وفيه ضعف" (ص:٦١-٦٢)، وانظر: اللآلىء المصنوعة (٢/٦١-٦٢)، تنزيه الشريعة المرفوعة (٢/١٣١).

(٢) صحيح البخاري [٨٨١]، مسلم [٨٥٠].

فأما حقيقة الرواح فإنما هي بعد الزوال، يقال: (غدا الرجل في حاجته): إذا خرج فيها صدر النهار، و(راح لها): إذا كان ذلك في عجز النهار أو في الشطر الآخر منه. وأخبرني الحسن بن يحيى، عن أبي بكر بن المنذر، قال: كان مالك بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: لا يكون الرواح إلا بعد الزوال، وهذه الأوقات كلها في ساعة واحدة.

قلت: كأنه قسم الساعة التي يحين فيها الرواح للجمعة أقسامًا خمسة فسماها ساعات على معنى التشبيه والتقريب، كما يقول القائل: قعدت ساعة، وتحدثت ساعة ونحوه، يريد: جزءًا من الزمان غير معلوم، وهذا على سعة مجاز الكلام وعادة الناس في الاستعمال" (١).

وجاء في الحث على التبكير لصلاة العصر: عن أبي المليح، قال: كنا مع بريدة في غزوة في يوم ذي غيم، فقال: بكروا بصلاة العصر، فإن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله**» (٢).

فقوله: «**بكروا بصلاة العصر**»، أي: قدموها في أوَّل الوقت.

قال المهلب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "معناه من تركها مضيعًا لها، متهاونًا بفضل وقتها مع قدرته على أدائها، فحبط عمله فى الصلاة خاصة، أي: لا يحصل على أجر المصلي في وقتها، ولا يكون له عمل ترفعه الملائكة. قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فإن قيل: ما معنى قوله: «**بكروا بصلاة العصر**» في يوم الغيم، ولا سبيل إلى معرفة أوقات النهار؛ لارتفاع الأدلة على ذلك بالغيم الساتر عين الشمس؟ قال: ذلك أمر منه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالبكور بها على

(١) معالم السنن (١/١٠٨-١٠٩).
(٢) صحيح البخاري [٥٥٣، ٥٩٤].

التحرى والأغلب عند المتحري، لا على إحاطة نفس العلم بإصابة أول وقتها؛ لأن أوقات الصلوات لا تدرك في يوم الغيم إلا بالتحري والعلم الظاهر" (١).

وجاء في الحث على التبكير لصلاة المغرب: عن مرثد بن عبد الله، قال: لما قدم علينا أبو أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غازيًا وعقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يومئذ على مصر، فأخر المغرب فقام إليه أبو أيوب، فقال: له ما هذه الصلاة يا عقبة، فقال: شغلنا، قال: أما سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**لا تزال أمتي بخير** -أو قال: **على الفطرة- ما لم يؤخروا المغرب إلى أن تشتبك النجوم**» (٢).

وفي رواية: عن أبي أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**بادِرُوا بِصَلاَةِ المَغْرِب قَبْلَ طُلُوعِ النَّجْم**» (٣).

و«**بادروا**» أي: سارعوا إلى فعلها قبل ظهور النجوم للناظرين؛ فإن المبادرة بها مندوبة؛ لضيق وقتها، ويبقى وقتها إلى مغيب الشفق على المفتى به عند الشافعية والحنابلة.

---

(١) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٢/١٧٦-١٧٧).

(٢) أخرجه أحمد [١٧٣٢٩]، وأبو داود [٤١٨]، وابن خزيمة [٣٣٩]، والطبراني في (الكبير) [٤٠٨٣]، والحاكم [٦٨٥]، وقال: "حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، وله شاهد صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي، كما أخرجه البيهقي في (الكبرى) [١٧٢٨].

(٣) أخرجه أحمد [٢٣٥٢١]، والروياني [٢٥٨]، والدارقطني [١٠٢١]، وفيه: ابن لهيعة، قال الذهبي: وشاهده: «لا تزال أمتي بخير ما لم يؤخروا المغرب إلى أن تشتبك النجوم»، قال الهيثمي (١/٣١٠): رواه أحمد عن يزيد بن أبي حبيب، عن رجل، عن أبي أيوب، وبقية رجاله ثقات. ورواه الطبراني عن يزيد بن أبي حبيب عن أسلم أبي عمران عن أبي أيوب، ورجاله موثقون".

وفرّق ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بين المبادرة والعجلة بأن المبادرة: انتهاز الفرصة في وقتها فلا يتركها حتى إذا فاتت طلبها، فهو لا يطلب الأمور في أدبارها، ولا قبل وقتها، بل إذا حضر وقتها بادر إليها، ووثب عليها، والعجلة: طلب أخذ الشيء قبل وقته" (١).

وقد حكى محمد بن خويز منداد البصري المالكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه في (الخلاف): "أن الأمصار كلها بأسرها لم يزل المسلمون فيها على تعجيل المغرب والمبادرة إليها في حين غروب الشمس، ولا نعلم أحدًا من المسلمين أخر إقامة المغرب في مسجد جماعة عن وقت غروب الشمس. وفي هذا ما يكفي مع العمل بالمدينة في تعجيلها (٢).

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقد أجمع المسلمون على تفضيل تعجيل المغرب، من قال: إن وقتها ممدود إلى مغيب الشفق، ومن قال: إنه ليس لها إلا وقت واحد، كلهم يرى تعجيلها أفضل.

قال: وعلى تفضيل أوائل الأوقات جمهور العلماء، وأكثر أئمة الفتوى"(٣).

وأما صلاة الفجر فقد "أجمع العلماء على أن وقت صلاة الصبح: طلوع الفجر، وهو البياض المعترض فى الأفق الشرقي، واختلفوا فى التغليس بها هل هو أفضل أم الإسفار؟ فممن كان يغلس بالفجر: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وأبو موسى، وابن الزبير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وهو قول مالك، والليث، والأوزاعي، والشافعي، وأحمد، وإسحاق رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ. وممن كان يسفر بالصبح: ابن مسعود، وأبو الدرداء، وعمر بن عبد العزيز، وأصحاب عبد الله

---

(١) فيض القدير (١٩٣/٣).

(٢) انظر: شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٨٧/٢)، الاستذكار، لابن عبد البر (٣٠/١).

(٣) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٣٤٢/٤-٣٤٣).

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. وقال ابن سيرين رَحِمَهُ اللَّهُ: كانوا يستحبون أن ينصرفوا من الصبح، وأحدهم يرى مواقع نبله، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه، والثوري رَحِمَهُمُ اللَّهُ" (١).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «**إنْ كان رسولُ الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **لَيُصَلِّي الصُّبْحَ، فَيَنْصَرِفُ النِّساءُ مُتَلَفِّعَاتٍ بِمُرُوطِهِنَّ، ما يُعْرَفْنَ من الْغَلَسِ**» (٢).

وعن أبي بكرِ بنِ عُمَارَةَ بنِ رُؤَيْبَة، عن أبيه، قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**لن يَلِجَ النَّارَ أَحَدٌ صَلَّى قبل طلوعِ الشمس، وقبل غروبها**»، يعني: الفجر والعصر (٣).

وفي (الصحيحين): «**من صَلَّى البَرْدَيْن دخل الجنَّة**» (٤).

قوله: «**البَرْدَيْن**»: تثنية: برد -بفتح الباء الموحدة وسكون الراء-، والمراد بهما: صلاة الفجر والعصر (٥).

قال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "قال كثير من العلماء: هما: الفجر والعصر، وسُمِّيا بذلك؛ لأنهما يفعلان في وقتي البرد" (٦).

---

(١) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٢/٢٠٠).

(٢) صحيح البخاري [٥٧٨، ٨٦٧]، مسلم [٦٤٥]. و«متلفعات» متلحفات من التلفع، وهو شد اللفاع، وهو ما يغطى الوجه ويتلحف به. و«بمروطهن»: (الْمِرْطُ) -بالكسر-: كساء من صوف أو خز يؤتزر به. وقيل: الجلباب. وقيل: الملحفة. «ما يعرفن»، أي: ما يعرفهن أحد. و(الْغَلَس): بفتح اللام ظلمة آخر الليل.

(٣) صحيح مسلم [٦٣٤].

(٤) صحيح البخاري [٥٧٤]، مسلم [٦٣٥].

(٥) انظر: فتح الباري، لابن حجر (٢/٥٣)، عمدة القاري (٥/٧١).

(٦) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٢/٢٦٢).

وقال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لأنهما يصليان في بردي النهار، وهما طرفاه حين يطيب الهواء وتذهب سَوْرَةُ الحرِّ" [(١)].

وقال المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أي: الفجر والعصر، وخصمهما؛ لكونهما شاقين، فمن واظب عليهما واظب على غيرهما بالأولى"[(٢)].

وعن جرير بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: كنا عند النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فنظر إلى القمر ليلة -يعني البدر- فقال: «**إنكم سترون ربكم، كما ترون هذا القمر، لا تُضَامُّونَ في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تُغْلَبُوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا**»، ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ۝٣٩﴾ [ق:٣٩]، قال إسماعيل: افعلوا لا تفوتنكم [(٣)].

وجاء في الحثِّ على المبادرة إلى صلاة الوتر قبل صلاة الفجر: عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**بادروا الصُّبْحَ بالوِتْر**» [(٤)]، أي: سابقوا وتعجلوا من المبادرة، أي: أسرعوا بأداء قبل صلاة الفجر. قال الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يقال: بادرت إليه، وبادرته. والبدر قيل: سمي بدرًا؛ لمبادرته الشمس بالطلوع. وأقول: كأن الصبح تقدم إليك مسافرًا طالبًا منك الوتر، وأنت تستقبله مسرعًا بمطلوبه، وإيصاله إلى بغيته. وذهب بعض

---

(١) انظر: غريب الحديث، لأبي سليمان الخطابي (١/١٨٥-١٨٨)، فتح الباري، لابن حجر (٢/٥٣)، عمدة القاري (٥/٧١). و(سَوْرَة الحر): وُثُوبُه واشتداده.

(٢) التيسير بشرح الجامع الصغير (٢/٣٠٣).

(٣) صحيح البخاري [٥٥٤، ٥٧٣، ٤٨٥١، ٧٤٣٤]، مسلم [٦٣٣].

(٤) صحيح مسلم [٧٥٠].

أهل العلم إلى أنه لا وتر بعد الصبح، وهو قول عطاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وبه قال أحمد ومالك رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ، وذهب آخرون إلى أنه يقضيه متى كان" (١).

وجاء في الحثِّ على المبادرة والمسارعة إلى الأعمال الصالحة قبل تعذرها والاشتغال عنها بما يحدث من الفتن الشاغلة: عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، أو يمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا**» (٢).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "معنى الحديث: الحث على المبادرة إلى الأعمال الصالحة قبل تعذرها والاشتغال عنها بما يحدث من الفتن الشاغلة المتكاثرة المتراكمة، كتراكم ظلام الليل المظلم لا المقمر..." (٣).

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**بادروا بالأعمال ستًّا: طلوع الشمس من مغربها، أو الدخان، أو الدجال، أو الدابة، أو خاصة أحدكم أو أمر العامة**» (٤).

وقد جاء بيان ذلك مفصلًا في كتاب: (نهج الأبرار).

---

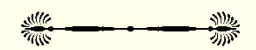
(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (١٢٢٢/٤).

(٢) صحيح مسلم [١١٨].

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (١٣٣/٢).

(٤) صحيح مسلم [٢٩٤٧].

إسفار:



والإسفار: الإضاءة. وسَفَرَ الصبحُ وأَسْفَرَ الصبحُ، أي: أضاء. وفي الحديث: «أسفروا بالصبح؛ فإنه أعظم للأجر» (١)، أي: صلوا صلاة الفجر مُسْفِرِينَ، ويقال: طوّلِوها إلى الإسْفارِ. وأَسْفَرَ وجهُه حُسْنًا، أي: أشرقَ كذا في (الصحاح)، قال الأصمعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أقول: أسْفَرْنا، إذا دَخَلنَا فِي سَفَرِ الصّبحِ، وَلَا أَقُول إِلَّا سَفَرَ الصّبح (٢).

وفي (المطلع): قوله: (مسفرين) "أي: إسفارًا يتيقن معه طلوع الفجر؛ جمعًا بينه وبين مواظبته صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على التغليس" (٣).

وفي (التهذيب): "قوله: «أَسْفِروا بالفَجْر؛ فَإِنَّهُ أعظَم لِلْأجر» يقول: صلُّوا صلاةَ الْفجْر بعدما يتبيَّن الفجرُ ويظهر ظهورًا لا ارتيابَ فيه، فكلُّ من نَظَر إليه عَلِم أنه الْفجْر الصَّادِق، ومن هذا يقال: سفَرَت المرأةُ عن وجهها: إذا كشفتْ النِّقابَ عن وجهها، تَسفِر سفُورًا، ومنه يقال: سفَرْتُ بين القوم أسفِر سفَارَةً: إذا أصلحتَ بينهم وكشفتَ ما في قَلْب هذا وقلبِ هذا؛ لتُصلح بَينهم" (٤).

---

(١) أخرجه الإمام الشافعي في (مسنده) (١/١٧٥)، وابن الجعد [٢٩٥٧]، وعبد بن حميد [٤٢٢]، والطبراني في (الكبير) [٤٢٨٦]، والبيهقي في (معرفة السنن) [٢٧٩٣]. وعند أحمد [١٥٨١٩]، ابن ماجه [٦٧٢]، وأبي داود [٤٢٤]، واللفظ له، وابن حبان [١٤٨٩]: «أَصْبِحُوا بالصُّبْح؛ فإنَّه أعظمُ لِأُجُورِكُمْ، أو أعظم للأجر». وفي راوية عند أبي شيبة [٨٣]، والطبراني [٤٤١٥]: «نَوِّرُوا بالصُّبْح بِقَدْرِ ما يُبْصِرُ القوم مواقِعَ نَبْلِهِمْ».

(٢) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (سفر) (٣/٦٨٥-٦٨٧)، جمهرة اللغة (٢/٧١٧).

(٣) المطلع على ألفاظ المقنع، للبعلي (ص:٧٧).

(٤) تهذيب اللغة (١٢/٢٧٨).

وقالوا: "يحتمل أنهم حين أمرهم بتغليس صلاة الفجر في أول وقتها كانوا يصلونها عند الفجر الأول؛ حرصًا ورغبة، فقال أسفروا بها: أي: أخروها إلى أن يطلع الفجر الثاني وتتحققوه، ويقوى ذلك أنه قال لبلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: نور بالفجر قدر ما يبصر القوم مواقع نبلهم.

وقيل: إن الأمر بالإسفار خاص في الليالي المقمرة؛ لأن أول الصبح لا يتبين فيها، فأمروا بالإسفار احتياطًا" [(١)].

قال الراغب رَحِمَهُ اللَّهُ: "والإسفار يختص باللون، نحو: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾﴾ [المدثر:٣٤]، أي: أشرق لونه، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [عبس:٣٨].." [(٢)].

واختلف الفقهاء في الأفضل من صلاة الصبح، فذهب الكوفيون وأبو حنيفة وأصحابه، والثوري، والحسن بن حي رَحِمَهُمُ اللَّهُ، وأكثر العراقيين إلى أن الإسفار بها أفضل من التغليس في الأزمنة كلها الشتاء والصيف.

وكان مالك، والليث بن سعد، والأوزاعي، والشافعي رَحِمَهُمُ اللَّهُ يذهبون إلى أن التغليس بصلاة الصبح أفضل، وهو قول أحمد بن حنبل، وأبي ثور، وداود بن علي، وأبي جعفر الطبري رَحِمَهُمُ اللَّهُ" وينظر ذلك في مظانه [(٣)].

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (سفر) (ص:٣٧١-٣٧٣).

(٢) المفردات في غريب القرآن، مادة: (سفر) (ص:٤١٢)، وانظر: التوقيف على مهمات التعاريف (ص:٥٠).

(٣) انظر: الاستذكار، لابن عبد البر (١/٣٦-٣٧).

آصال:

قوبل في القرآن الكريم الغدو بالآصال، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [الرعد:١٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾﴾ [النور:٣٦].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ [الفرقان:٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب:٤١-٤٢].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾ [الفتح:٨-٩].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [الإنسان:٢٥].

قال أبو عبيدة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾، أي: بالعشيّ، واحدها: أُصُل، وواحد الأصل: أصيل، وهو ما بين العصر إلى مغرب الشمس.." (١) فالآصال جمع: أصُلٍ، والأصل جمع: أصيل، فالآصال جمع الجمع، والآصال: العَشِيات" (٢).

(١) انظر: مجاز القرآن، لأبي عبيدة معمر بن المثنى (٣٢٨/١).

(٢) معاني القرآن وإعرابه (٣٩٨/٢).

وفي (العين): "والأصيلُ: العَشِيُّ، وهو مأخوذ من الأُصُل، وتَصغيره أُصَيلال. ولَقِيتُه مُؤْصِلًا، أي: بأصيل" [(١)].

وقال الجوهري رَحِمَهُ اللَّهُ: "الأَصيلُ: الوقت بعد العصر إلى المغرب، وجمعه: أُصُلٌ وآصَالٌ وأصَائِل، كأنه جمع: أَصِيلَة. و(أُصْلَانٌ) مِثْل: بَعِيرٍ وَبُعْرَانٍ، ثم صغروا الجمع فقالوا أُصَيْلانٌ، ثم أبدلوا من النون لامًا فقالوا: أصيلال. وقد آصَلْنا، أي: دخلنا في الأصِيلِ.."[(٢)].

والمدَّة في آصال أصلها همزتان الأولى متحرِّكة بالفتحة، والثانية ساكنة -أأصال-.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: "والآصال واحدها: أَصِيل، وهو ما بين العصر إلى المغرب، كقولك: بكرة وأصيلًا، هو قول أبي عبيدة رَحِمَهُ اللَّهُ أيضًا بلفظه. قال ابن التين ضبط في نسخة أصل بضمتين، وفي بعضها: أَصِيلٌ بوزن عظيم، وليس بِبَيِّنٍ، إلا أن يريد أن الآصال جمع: أصيل فيصح. وعن قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ: الآصال: العشي. وقال ابن فارس رَحِمَهُ اللَّهُ: الأصيل واحد الْأُصُلُ، وجمع الْأُصُلِ آصَالٌ، فهو جمع الجمع والأصائل جمع: أَصِيلَةٍ، ومنه قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥﴾ [الفرقان:٥]" [(٣)].

والحاصل أنه قد قيل في الآصال:

إنها جمع: أصُلٍ، والأصل جمع أصيل، فالآصال جمع الجمع، وليس للقلة وليس جمعًا لأصيل؛ لأن فعيلًا لا يجمع على أفعال.

وقيل: إنه جمع لأَصِيل، وفَعِيلٌ يجمع على أفْعَال، نحو: يَمِينٌ وأيمانٌ.

---

(١) العين (٧/١٥٦-١٥٧).

(٢) الصحاح، للجوهري، مادة: (أصل) (٤/١٦٢٣).

(٣) فتح الباري (٨/٣٠١)، مقاييس اللغة، مادة: (أصل) (١/١٠٩-١١٠).

وقيل: آصال جمع لأصُل، وأصُل مفرد، وفُعُل يجمع على أفْعَال كعُنُق وأعْنَاق، وعلى هذا فلا حاجة إلى دَعْوى أنه جمع الجمع. ويُجْمع على أُصلان، كرَغيف ورُغْفان.

وقيل: إنه مأخوذ من الأصل، وهو أسفل كل شيء. قال الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ "يقال: الأصيل مأخوذ من الأصل، واليوم بليلته إنما يبتدأ بالشروع من أول الليل، وآخر نهار كل يوم متصل بأول ليل اليوم الثاني، فسمي آخر النهار أصيلًا؛ لكونه ملاصقًا لما هو الأصل لليوم الثاني" (١).

قالوا: الغدو: صلاة الصبح، والآصال: صلاة الظهر والعصر والعشاءين؛ لأن اسم الآصال يشملها، ومعنى بالغدو والآصال: بالغداة والعشي، وقيل: صلاة الصبح والعصر.

قال القاضي البيضاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والغدو مصدر أطلق للوقت؛ ولذلك حسن اقترانه بالآصال" (٢).

وقال الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "خص الغدو والآصال بهذا الذكر، والحكمة فيه: أن عند الغدوة انقلب الإنسان من النوم الذي هو كالموت إلى اليقظة التي هي كالحياة، والعالم انقلب من الظلمة التي هي طبيعة عدمية إلى النور الذي هو طبيعة وجودية.

وأما عند الآصال فالأمر بالضد؛ لأن الإنسان ينقلب فيه من الحياة إلى الموت، والعالم ينقلب فيه من النور الخالص إلى الظلمة الخالصة، وفي هذين الوقتين يحصل هذان النوعان من التغيير العجيب القوي القاهر، ولا يقدر على مثل هذا التغيير إلا الإله الموصوف بالحكمة الباهرة، والقدرة الغير المتناهية؛ فلهذه الحكمة العجيبة خص الله عَزَّوَجَلَّ هذين الوقتين بالأمر بالذكر.

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب (١٥/٤٤٤)، التفسير البسيط، لأبي الحسن الواحدي (٩/٥٧٣).

(٢) تفسير البيضاوي (٤/١٠٨)، وانظر: حاشية الطيبي على الكشاف (١١/١٠٧).

ومن الناس من قال: ذكر هذين الوقتين، والمراد: مداومة الذكر، والمواظبة عليه بقدر الإمكان" [(١)]، فعلى هذا: ليس المراد التخصيص، بل دوام الذكر واتصاله، أي: اذكر كل وقت.

آناء الليل:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ١١٣﴾ [آل عمران:١١٣].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ١٣٠﴾ [طه:١٣٠].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾ [الزمر:٩].

قال في (العين): الإنْيُ، والأَنَى -مقصور-: ساعة من ساعات الليل، والجمع: آناء، وكلّ إنْيٍ ساعة. والإنَى، مقصور أيضًا: الإدراك والبلوغ، وإنَى الشَّيء: بلوغه وإدراكُهُ، فتقول: انتظرنا إنَى الطعام، أي: إدراكه، وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ [الأحزاب:٥٣]، أي: غير منتظرين نُضْجه وبلوغه. يقال: أَني الحميمُ، أي: انتهى حرُّه، وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿حَمِيمٍ ءَانٖ ٤٤﴾ [الرحمن:٤٤]، أي: بالغٍ إناهُ في شدَّة الحرِّ، والفِعْل: أَنَى ياني أنىً. وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ ٥﴾ [الغاشية:٥]، أي: سُخْنة، متناهيةٍ في شدة الحرّ" [(٢)].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٥/٤٤٤).

(٢) العين (٨/٤٠٠)، بتصرف، وانظر: المحكم والمحيط الأعظم، مادة: (أني) (١٠/٥٣٠).

وأَنَى الشيءُ أَنْيًا وإِنِيّ وإِنًى وأَنَآءُ، وهو أَنِيٌّ: حَانَ وأدْرَكَ. وكلُّ مدركٍ آنٍ. وآناهُ يُؤْنِيهِ إيناءً، أي: أَخَّرَهُ وحَبَسَهُ وأبطأه.

وآناء الليل: ساعاتُه. قال الأخفش رَحِمَهُ ٱللَّهُ: واحدُها: إِنًى، مثال: مِعًى. قال: وقال بعضهم: واحدها: إِنْيٌ وإِنْوٌ. يقال: مضى إِنْوَانِ من الليل وإِنْيَان. وتَأَنَّى في الأمْر: تَرَفَّقَ وتَنَظَّرَ، واسْتَأْنَى به: انتظَرَ به، يقال: اسْتُؤْنِيَ به حَوْلًا، والاسم: الأَنَاةُ -بوزن الْقَنَاة-. والأَنَاة أيضًا: الْحِلْمُ..(١).

قال قُطْرُب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قالوا في واحِدِ الآناءِ من قولِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ [آل عمران:١١٣]: مَضَى إِنْيٌ، منقوصٌ، وإِنًى، مقصورٌ، وإِنْوٌ وإِنْيٌ. وقال المتنخل الهُذَلِيُّ:

حُلْوٌ ومُرٌّ كعَطْفِ القِدْحِ مِرَّتُهُ ... في كُلِّ إِنْيٍ قَضَاهُ الليلُ يَنْتَعِلُ (٢)

وفي الحديث: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل، وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالًا، فهو ينفقه آناء الليل، وآناء النهار**» (٣).

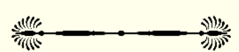
---

(١) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (أنا) (٦/٢٢٧٣-٢٢٧٤)، معاني القرآن، للأخفش (١/٢٣٠).

(٢) الأزمنة وتلبية الجاهلية (ص:٥١)، وانظر: جمهرة اللغة (١/٢٥٠)، الأزمنة والأمكنة (ص:٢٤٢)، ديوان الهذليين (٢/٣٥)، الشعر والشعراء (٢/٦٤٩). وقوله: (حلو ومر) يعني: أنه سهل لمن لاينه، صعب على من خاشنة. وقوله: (كعطف القدح)، يريد: أنه يطوى كما يطوى القدح، ثم يعود إلى شدته واستقامته. و(المرة): القوة والشدة. و(قضاه الليل)، أي: أي صنعه وقدره وفصله. و(انتعل الليل): اتخذه نعلًا، يعني: سرى فيه، غير حافل بما يلقى. والمثبت في (ديوان الهذليين) وغيره: (بكلِّ إِنْيٍ حَذاه اللّيلُ ينتعِل)، و(حذاه الليل)، أي: قطعه الليل حذاء، وهو شبيه في المعنى بقوله: (قضاه الليل).

(٣) صحيح البخاري [٧٥٢٩]، مسلم [٨١٥].

رواح وإدلاج:



الرَّوَاحُ: نقيض الصَبَاح، وهو اسمٌ للوقت من زوال الشمس إلى الليل. وقد يكون مصدر قولك: رَاحَ يَرُوحُ رَواحًا، وهو نقيض قولك: غَدَا يَغْدُو غدوًا.

وتقول: خرجوا بِرَواحٍ من العَشِيِّ ورَياحٍ بِمعنىً. وسَرَحَتِ الماشِيَةُ بالغَداةِ، وراحَتْ بالعَشِيِّ، أي: رجعت. وتقول: افْعَلْ ذاك في سَراحٍ ورَواحٍ، أي: سُهولة. والْمُرَاحُ بالضم: حيثُ تأوي إليه الإبل والغَنَمُ بالليل. والْمَرَاحُ بالفتح: الموضع الذي يَرُوح منه القوم أو يروحون إليه، كالْمَغْدَى من الغَدَاة. يقال: ما تَرَكَ فُلانٌ من أبيه مَغْدىً ولا مَراحًا: إذا أَشْبَهَهُ في أحوالِهِ كُلِّها. والْمِرْوَحَةُ -بالكسر-: ما يُتَرَوَّح بها، والجمع الْمَراوح. والْمَرْوَحَةُ -بالفتح-: المفازة"[1].

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٞ وَرَوَاحُهَا شَهْرٞ﴾ [سبأ:١٢].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران:١٢١].

فقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿غُدُوُّهَا﴾ أي: سيرها غدوة، وهي ما بين الفجر وطلوع الشمس. والغدوُّ: الخروجُ أولَ النهار. يقال: غَدَا يَغْدُو غدوًا، أي: ذهب غدوة -كما تقدم-.

ويُسْتعمل بمعنى: صار عند بعضهم، فيكونُ ناقصًا يرفع الاسم وينصبُ الخبر[2]، وعليه قولُه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لو أنكم توكلتم على الله حَقَّ توكُّلِهِ لرزقكم كما يَرزق الطيرَ، تَغْدُو خِمَاصًا، وتروُح بِطَانًا**»[3].

---

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (روح) (١/٣٦٨-٣٦٩).

(٢) انظر: الدر المصون (٣/٣٧٨).

(٣) أخرجه ابن المبارك في (الزهد) [٥٥٩]، والطيالسي [٥١]، وأحمد [٢٠٥]، وابن حميد [١٠]، وابن ماجه [٤١٦٤]، والترمذي [٢٣٤٤]، وقال: "حسن صحيح"، والبزار [٣٤٠]، وأبو يعلى [٢٤٧]، وابن=

فأثبت لها غدوًا ورواحًا لأجل طلب الرزق، فهي تخرج من أول النهار «**خماصًا**»، أي: جياعًا، جمع خميص، وهو الضامر البطن. و«**خماصًا**» حال: أي: خالية الأجواف من القوت. «**وتروح**» أي: في آخره «**بطانًا**» أي: ممتلئة الأجواف، جمع بطين. فمعنى الغدو: الذهاب أول النهار، والرواح ضده.

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَرَوَاحُهَا﴾ [سبأ:١٢]: سيرها في الرواح، أي: العشي.

وفي الحديث: عن أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**لغدوة في سبيل الله أو روحة، خير من الدنيا وما فيها**»(١).

وفي رواية: «**لروحة في سبيل الله، أو غدوة، خير من الدنيا وما فيها، ولقاب قوس أحدكم من الجنة، أو موضع قيد** - يعني: سوطه - **خير من الدنيا وما فيها**»(٢).

وفي رواية: عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**لغدوة أو روحة في سبيل الله، خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب**»(٣).

وعن سهل بن سعد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**الروحة والغدوة في سبيل الله أفضل من الدنيا وما فيها**»(٤).

=حبان [٧٣٠]، والحاكم [٧٨٩٤]، وصححه، وأبو نعيم في (الحلية) (١٠/٦٩)، والشهاب القضاعي [١٤٤٤]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١١٣٩]، والضياء [٢٢٧]، وقال: "إسناده صحيح".

(١) صحيح البخاري [٢٧٩٢]، مسلم [١٨٨٠].

(٢) صحيح البخاري [٢٧٩٦].

(٣) صحيح البخاري [٢٧٩٣].

(٤) صحيح البخاري [٢٧٩٤]، مسلم [١٨٨٠].

وعن أبي أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**غدوة في سبيل الله، أو روحة، خير مما طلعت عليه الشمس وغربت**»[(١)].

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "«**الغدوة**» -بفتح الغين-: السير أول النهار إلى الزوال. و«**الروحة**»: السير من الزوال إلى آخر النهار.

و«**أو**» هنا للتقسيم، لا للشك، ومعناه: أن الروحة يحصل بها هذا الثواب، وكذا الغدوة، والظاهر أنه لا يختص ذلك بالغدو والرواح من بلدته، بل يحصل هذا الثواب بكلِّ غدوة أو روحة في طريقه إلى الغزو وكذا غدوه وروحة في موضع القتال؛ لأن الجميع يسمى: غدوة وروحة في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ.

ومعنى هذا الحديث: أن فضل الغدوة والروحة في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ وثوابهما خير من نعيم الدنيا كلها لو ملكها إنسان وتصور تنعمه بها كلها؛ لأنه زائل، ونعيم الآخرة باق.

قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: وقد قيل في معناه ومعنى نظائره من تمثيل أمور الآخرة وثوابها بأمور الدنيا أنها خير من الدنيا وما فيها لو ملكها إنسان، وملك جميع ما فيها وأنفقه في أمور الآخرة قال هذا القائل، وليس تمثيل الباقي بالفاني على ظاهر إطلاقه -والله أعلم-"[(٢)].

قال المهلب رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله: «**الغدوة والروحة خير من الدنيا**» يعني: خير من زمن الدنيا؛ لأن الغدوة والروحة في زمن، فيقال: إن ثواب هذا الزمن القليل فى الجنة خير من زمن الدنيا كلها، وكذلك قوله: «**لقاب قوس أحدكم**»، أو «**موضع سوط فى الجنة**» يريد: أن ما صغر في الجنة من المواضع كلها من بساتينها وأرضها، فأخبر في هذا الحديث: أن قصير الزمان، وصغير المكان في الآخرة خير من طويل الزمان وكبير المكان فى الدنيا؛

---

(١) صحيح مسلم [١٨٨٣].

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٣/٢٦-٢٧)، إكمال المعلم، للقاضي عياض (٦/٣٠٠).

تزهيدًا فيها، وتصغيرًا لها، وترغيبًا في الجهاد؛ إذ بالغدوة والروحة فيه، أو مقدار قوس المجاهد يعطيه الله عَزَّوَجَلَّ في الآخرة أفضل من الدنيا وما فيها، فما ظنك بمن أتعب فيه نفسه وأنفق ماله. وقال صاحب (العين): قاب القوس: قدر طولها" (١).

وفي حديث السَّحور: عن العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: دعاني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى السَّحُورِ في رمضان، فقال: «**هَلُمَّ إلى الغَدَاء المُبارك**» (٢).

قال مجد الدين ابن الأثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "الغَدَاء: الطَّعام الذي يُؤكل أوَّل النَّهار، فسُمِّي السَّحور: غَدَاءً؛ لأنَّه للصَّائم بمنزلته للمُفْطِر.

وفيه: «**لَغَدْوَةٌ أو رَوْحةٌ في سبيل الله** عَزَّوَجَلَّ» الغَدْوَة: المرَّةُ من الغُدُوِّ، وهو سَيْرُ أوَّل النَّهار، نقيض: الرَّواح. وقد غَدَا يَغْدُو غُدُوًّا. والغُدْوَة بالضَّمِّ: ما بين صلاة الغداة وطلوع الشمس" (٣).

---

(١) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٤/٥).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [٨٩٢٢]، وأحمد [١٧١٤٣]، وأبو داود [٢٣٤٤]، والبزار [٤٢٠٢]، والنسائي [٢١٦٣]، وابن خزيمة [١٩٣٨]، وابن حبان [٣٤٦٥]، والطبراني في (الكبير) [٦٢٨]، والبيهقي في (الكبرى) [٨١١٦]. والحديث له أكثر من شاهد. فقد روي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «أرسل إلي عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يدعوني إلى السحور، وقال: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سماه: «الغداء المبارك»»، قال الهيثمي (١٥١/٣): "رواه الطبراني في (الأوسط)، وفيه: محمد بن إبراهيم أخو أبي معمر، وهو محمد بن إبراهيم بن معمر بن الحسن أبو بكر الهذلي، قال موسى بن هارون الحمال: صدوق لا بأس به، وسئل= =ابن معين، عن أبي معمر فقال: مثل أبي معمر لا يسأل عنه، هو وأخوه من أهل الحديث، وبقية رجاله رجال الصحيح. وروي عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قربي إلينا الغداء المبارك»، يعني: السحور، «وربما لم يكن إلا تمرتين». قال الهيثمي (١٥١/٣): "رواه أبو يعلى [٤٦٧٩]، ورجاله ثقات". وعن المقدام بن معدي كرب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «عليكم بغداء السحر؛ فإنه هو الغداء المبارك» أخرجه أحمد [١٧١٩٢]، وهو حسن بشواهده.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (غدا) (٣٤٦/٣).

وقال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إنما سماه غداء؛ لأن الصائم يتقوى به على صيام النهار، فكأنه قد تغدى، والعرب تقول: غدا فلان لحاجته: إذا بكر فيها، وذلك من لدن وقت السحر إلى طلوع الشمس" (١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«إنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، ولن يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وقاربوا، وأبشِرُوا، واستعِينُوا بالْغَدْوَةِ والرَّوْحة، وشيءٍ من الدُّلْجَةِ»** (٢).

وعن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«عليكم بِالدُّلْجَة؛ فإنَّ الأرضَ تُطْوَى باللَّيْل»** (٣).

قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "كأنه خاطب مسافرًا يقطع طريقه إلى مقصده، فنبهه على أوقات نشاطه التي يزكو فيها عمله؛ لأن الغدو والرواح والدلج أفضل أوقات المسافر، وقد حض الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المسافر على المشى بالليل، وقال: إن الأرض تطوى بالليل،

---

(١) معالم السنن (٢/١٠٤).

(٢) صحيح البخاري [٣٩]. قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يسر»، أي: ذو يسر. «يشاد الدين»، أي: يكلف نفسه من العبادة فوق طاقته والمشادة المغالبة. «إلا غلبه»، أي: رده إلى اليسر والاعتدال. «فسددوا»، أي: الزموا السداد، وهو التوسط في الأعمال. «وقاربوا»، أي: اقتربوا من فعل الأكمل إن لم تسطيعوه.

(٣) الحديث مروي عن أنس وعن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا. حديث أنس: أخرجه أبو داود [٢٥٧١]، والبزار [٦٣١٥، ٦٥٢١]، قال الهيثمي (٥/٢٥٧): "رواه البزار ورجاله ثقات". كما أخرجه ابن خزيمة [٢٥٥٥]، والحاكم [١٦٣٠]، وقال: "صحيح على شرط الشيخين"، وأخرجه أيضًا: أبو نعيم في (الحلية) (٩/٢٥٠)، والبيهقي في (الكبرى) [١٠٣٤٢، ١٠٣٤٣]، والضياء [٢٦٣٠]، وقال: "إسناده صحيح". حديث جابر: أخرجه أحمد [١٤٢٧٧]، أبو يعلى [٢٢١٩]، قال الهيثمي (٣/٢١٣): "رجاله رجال الصحيح". والحديث مروي عن خالد بن معدان مرسلًا، ومروي عن خالد بن معدان عن أبيه. حديث: خالد بن معدان عن أبيه: أخرجه عبد الرزاق [٩٢٥١]، والطبراني [٨٥٢]، قال الهيثمي (٣/٢١٣): "رجاله رجال الصحيح". حديث: خالد بن معدان المرسل: أخرجه مالك [١٧٦٧]، وسعيد بن منصور [٢٦٢٠].

وقال لعبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «**كن فى الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل**»(١)، فشبه الإنسان فى الدنيا بالمسافر، وكذلك هو على الحقيقة؛ لأن الدنيا دار نقلة وطريق إلى الآخرة، فنبه أمته أن يغتنموا أوقات فرصتهم وفراغهم" (٢).

فبين النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن خيرَ ما يستعانُ به عند نزول الشدائد: العبادات التي تقرِّبُ من الله عَزَّوَجَلَّ، وتريح النفس، أي: استعينوا على مداومة العبادة بإيقاعها في الأوقات الْمُنَشِّطَةِ، كأول النهار، وبعد الزوال، وآخر الليل.

والاستعانة بالأوقات الثلاثة في العمل والتقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وعند نزول الشدائد مصداق لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة:٤٥]. والمعنى: استعينوا على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ بالأعمال في وقت نشاطكم وفراغ قلوبكم، بحيث تستلذون العبادة ولا تسأمون، وتبلغون مقصودكم، كما أن المسافر الحاذق يسير في هذه الأوقات ويستريح هو ودابته في غيرها، فيصل المقصود بغير تعب. وهذا يحتمل أن الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أراد أن يضرب مثلًا للسفر المعنوي بالسفر الحسي؛ فإن الإنسان المسافر حسًّا يبتغي له أن يكون سيرة في أول النهار، وفي آخره، وفي شيء من الليل؛ لأن ذلك هو الوقت المريح للراحلة وللمسافر.

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُٱللَّهُ: "قوله: «**واستعينوا بالغدوة والروحة، وشيء من الدلجة**» يعني: أن هذه الأوقات الثلاثة أوقات العمل والسير إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وهي: أول

---

(١) حديث: عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: أخذ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بمنكبي، فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»، وكان ابن عمر، يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك» أخرجه البخاري [٦٤١٦].

(٢) شرح صحيح البخارى لابن بطال (١/٩٦-٩٧).

النهار، وآخره، وآخر الليل. فالغدوة: أول النهار، والروحة آخره، والدلجة: سير آخر الليل" (١).

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أَدْلَجَ القوم: إذا ساروا من أوَّل الليل. والاسم: الدَلَجُ -بالتحريك-. والدُّلْجَةُ والدَّلْجَةُ أيضًا، مِثْلُ: بُرْهَةٍ من الدَّهْرِ وبَرْهَةٍ. فإن ساروا من آخر الليل فقد ادَّلَجوا -بتشديد الدال-، والاسم: الدُلْجَةُ والدلجة"(٢).

قال الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**الغدوة**» -بالضم-: ما بين صلاة الغداة وطلوع الشمس. وبالفتح: المرة من الغدو، وهو سير أول النهار، نقيض: الرواح، و(الدلجة) -بالضم والفتح- اسم من ادَّلَجَ بالتشديد: إذا سار من آخر الليل، استعيرت هذه الأوقات للصلاة فيها(٣). قال العلامة التُّورِبِشْتِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "المراد من الألفاظ الثلاثة: الحث على التحريك لعبادة الله عَزَّوَجَلَّ في أوقات الصلاة، وكأنه بيان قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾ [هود:١١٤]، وإنما قال: بشيء من الدلجة؛ ليأخذ العبد بحظه من آناء الليل على ما تيسر له، ثم لينتهي عن التحامل على نفسه بالسهر في سائر الليل، بل يكتفر بشيء منه؛ فإن ذلك من المشادة المنهي عنها" (٤).

وقيل: الدُّلْجَةُ من الْإِدْلَاجِ -بسكون الدال-، وهو سَيْرُ أَوَّلِ اللَّيْل. قال العلامة المظهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "(الدُّلْجَة): اسم من الادِّلَاج -بتشديد الدال- وهو السيرُ في آخر الليل. وقيل: بل هي اسمٌ من الإدْلاج -بسكون الدال- وهو السيرُ في أول الليل، يعني: كما أن المسافرَ يقدِرُ على دوامِ المسافرةِ بأن يمشيَ في أولِ النهارِ إلى أن يمضيَ بعضُ النهار،

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن رجب (١/١٥٢).

(٢) الصحاح، للجوهري، مادة: (دلج) (١/٣١٥).

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٤/١٢١٤).

(٤) الميسر في شرح مصابيح السنة (١/٣١٧)، وانظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٤/١٢١٤).

ثم ينزل ويستريح ساعةً، ثم يمشي بعد العَصْر إلى اللَّيل، ثم ينزل ويستريح، ثم يمشي في آخر الليل، فكذلك العابد ينبغي أن يتعبَّدَ ساعةً، ثم يستريحَ ساعةً، وهكذا ساعةً فساعةً حتى لا يتعَب" [١].

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾، يعني: الغداةَ والعشيَّ، يعني: صلاة الصبح والمغرب.

وقال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: النهار: صلاة الصبح والظهر والعصر. ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾: صلاة المغرب والعشاء. وقال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: طرفا النهار: الصبح والعصر، ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾: المغرب والعشاء. وقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: طرفا النهار: الغداة والعشي، يعني: صلاة الصبح والمغرب.

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد عرضه ما قيل في معنى الآية: "وأولى هذه الأقوال بالصواب: قولُ من قال: هي صلاة المغرب، -كما ذكرنا عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا-.

وإنما قلنا هو أولى بالصواب؛ لإجماع الجميع على أن صلاة أحد الطرفين من ذلك صلاة الفجر، وهي تصلى قبل طلُوع الشمس. فالواجب إذ كان ذلك من جميعهم إجماعًا، أن تكون صلاةُ الطرف الآخر المغرب؛ لأنها تصلى بعد غُروب الشمس.

قال: وأما قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ [هود:١١٤] فإنه يعني: ساعاتٍ من الليل. وهي جمع: (زُلْفة)، و(الزلفة): الساعة، والمنزلة، والقربة. وقيل: إنما سميت (المزدلفة)؛ لأنها منزلٌ بعد عرفة بقرب مكة. وقيل سميت بذلك؛ لازدلاف آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من عَرَفة إلى حواء عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ وهي بها [٢].

---

(١) المفاتيح في شرح المصابيح (٢/٢٨٠).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٥/٥٠٢-٥٠٥).

قال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "معنى هذا الكلام: الأمر بالاقتصاد في العبادة، وترك الحمل منها على النفس ما يؤودها ويثقلها.

يقول: إن الله عَزَّوَجَلَّ لم يتعبد خلقه بأن ينصبوا آناء الليل والنهار، ولا يفتروا ولا يستريحوا أبدًا، وإنما أوجب عليهم وظائف الطاعات، في وقت دون وقت؛ تيسيرًا منه ورحمة، فعليكم بالسداد، ولا تكلفوا أنفسكم ما لا تطيقونه، واخلطوا طرف الليل بطرف النهار، وأجِمّوا أنفسكم [١] فيما بينهما؛ لئلا تنقطع بكم"[٢].

وقال ابن المنير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "في هذا الحديث علم من أعلام النبوة، فقد رأينا ورأى الناس قبلنا أن كل متنطع في الدين ينقطع، وليس المراد: منع طلب الأكمل في العبادة؛ فإنه من الأمور المحمودة بل منع الإفراط المؤدي إلى الملال، أو المبالغة في التطوع المفضي إلى ترك الأفضل، أو إخراج الفرض عن وقته، كمن بات يصلي الليل كله ويغالب النوم إلى أن غلبته عيناه في آخر الليل، فنام عن صلاة الصبح في الجماعة، أو إلى أن خرج الوقت المختار، أو إلى أن طلعت الشمس فخرج وقت الفريضة" [٣].

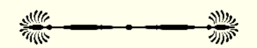
---

(١) يقال: (أجمَّ الإنسان)، أي: استراح فذهب إعياؤه. قال الجوهري: "والجَمَامُ بالفتْح: الراحةُ. يقال: جَمَّ الفرسُ جَمًّا وجَمَامًا: إذا ذهب إعياؤه، و(أُجِمَّ) الفرسُ و(جُمَّ) على ما لم يُسَمَّ فاعله فيهما، أي: تُرِكَ رُكوبه" الصحاح، مادة: (جَمَّ) (١/٦١).

(٢) أعلام الحديث (شرح صحيح البخاري) (١/١٧٠-١٧١).

(٣) انظر: فتح الباري، لابن حجر (١/٩٤)، فيض القدير (٣/٥٥٥).

زلفة:



تقدم أن ترتيب ساعات اللَّيل يكون مجملًا على النحو التالي: الشَّفَق، ثُمَّ الغَسَق، ثُمَّ العَتَمَة، ثُمَّ السُّدْفَة، ثُمَّ الفَحْمَة، ثُمَّ الزُّلَّةُ، ثُمَّ الزُّلْفة، ثُمَّ البُهْرَة، ثُمَّ السَّحَر، ثُمَّ الفَجْر، ثُمَّ الصُّبْح، ثُمَّ الصَّباح.

فالزلفة هي إحدى ساعات الليل، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾ [هود:١١٤]، قال أبو عبيدة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أي: ساعات، وواحدتها: زلفة، أي: ساعة، ومنزلة وقربة، ومنها سميت المزدلفة، قال العجَّاج:

نـاجٍ طَـوَاهُ الأَيْـنُ مِـمَّـا وجَـفـا طَـيَّ الـلَّـيـالـِي زُلَفًا فَزُلَفَا" (١)

وفي (العين): "زُلْفَةٌ من اللَّيل: طائفة من أوَّله" (٢).

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والزُلُفَةُ والزُلْفى: القُرْبَةُ والمنزلةُ. ومنه قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ﴾ [سبأ:٣٧]، وهي اسمُ المصدر، كأنه قال: بالتي تقربكم عندنا ازدلافًا.

والزلفة: الطائفة من أوَّل الليل، والجمعُ: زلف وزلفات.

والزَّلَفُ والزَّلِيفُ والتَّزَلُّفُ: التَّقَدُّمُ من موضعٍ إلى موضع، وتزلفوا وازدلفوا، أي تقدموا. ومزدلفة: موضع بمكة" (٣).

---

(١) مجاز القرآن، لأبي عبيدة (١/٣٠٠)، ديوان العجاج، رواية عبد الملك بن قريب وشرحه (ص:٤٢٦)، وانظر: الكتاب، لسيبويه (١/٣٥٩). والأين: الفتور والتعب، وطواه: أضمره، والزجيف: ضرب من السير. وزُلَفًا فَزُلَفَا، أي: منزلة بعد منزلة ودرجة بعد درجة، والزلف: الدرج، والْمَزَالِفُ: المنازل والدَّرَج.

(٢) العين، مادة: (زلف) (٧/٣٦٨).

(٣) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (زلف) (٤/١٣٧٠)، جمهرة اللغة (٢/٨٢١).

وقد قيل: إنما سميت: (المزدلفة) بهذا الاسم؛ لأنها منزلٌ بعد عرفة.

وقيل: سميت بذلك؛ لازدلاف آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من عَرَفة إلى حواء عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ وهي بها (١).

فطرفا النهار: غدوة وعشية، وصلاة طرفي النهار: الصبح في أحد الطرفين والأولى، والعصر في الطرف الأخير، وهو العشي.

قال أبو إسحاق الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهو منصوب على الظرف، كما تقول: جئتُ طرفي النَّهَار وأول الليل.

ومعنى: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾ [هود:١١٤]: الصَّلاةُ الْقَرِيبَةُ من أول اللَّيْل، أَراد بالزُّلَفِ: المغربَ والعِشَاءَ الأَخيرة؛ ومن قرأَ: (وَزُلْفًا) فهو جمع: زَلِيفٍ، مِثْلُ: القُرْب والقَرِيب" (٢).

قال ابن دريد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يقال: فلان يزلف في حديثه ويزرف فيه: إذا زاد فيه" (٣).

وقال أبو العباس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾، قال: الزُّلَفُ: أول ساعات الليل، واحدتها: زُلْفَة، وقال شمر في قول العجاج:

***طَيَّ اللَّيَالِي زُلَفًا فَزُلَفَا

أي: قليلًا قليلًا، يقول: طوى الإعياء هذا البعير كما تطوي الليالي سماوة الهلال، أي: شخصه قليلًا قليلًا حتى دق واستقوس" (٤).

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٥/٥٠٥).

(٢) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٣/٨٢)، تهذيب اللغة (١٣/١٤٦).

(٣) جمهرة اللغة، لابن دريد (٢/٨٢١).

(٤) تهذيب اللغة (١٣/١٤٧)، وانظر: العين، مادة: (زلف) (٧/٣٦٨)، جمهرة اللغة، لابن دريد (٢/٨٢٠-٨٢١)، غريب القرآن، لابن قتيبة (ص:٢١٠)، الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي (ص:١٢٦)، النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (زلف) (٢/٣٠٩-٣١٠)، فقه اللغة، لأبي منصور الثعالبي (ص:٣٧).

وقُرِئَ: (وَزُلُفًا) بضم الزاي واللام، (وَزُلْفًا) بضم الزاي ساكنة اللام.

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿طَرَفِي ٱلنَّهَارِ﴾ [هود:١١٤] الطرف الأول هو صلاة الصبح باتفاق.

وأما الطرف الثاني ففيه ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنه عنى صلاة الظهر والعصر.

الثاني: صلاة العصر وحدها.

الثالث: صلاة المغرب.

وفي معنى: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ قولان:

أحدهما: صلاة العشاء الآخرة.

الثاني: صلاة المغرب والعشاء الآخرة" (١).

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الزلفة: المنزلة والحظوة.

وقيل: واستعمالها في منزلة العذاب كاستعمال البشارة ونحوها من الألفاظ.

وقيل لمنازل الليل: زلف، والمزالف: المراقي، وأزلفته: جعلت له زلفى.." (٢).

وقال جار الله الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وانتصاب ﴿طَرَفِي ٱلنَّهَارِ﴾ على الظرف؛ لأنهما مضافان إلى الوقت، كقولك: أقمت عنده جميع النهار، وأتيته نصف النهار وأوله وآخره، تنصب هذا كله على إعطاء المضاف حكم المضاف إليه.

ونحوه: ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ [طه:١٣٠].

وقُرِئَ: (وَزُلُفًا) بضمتين. (وَزُلْفًا) بسكون اللام.

---

(١) انظر: النكت والعيون (٢/٥٠٨).

(٢) انظر: المفردات في غريب القرآن، مادة: (زلف) (ص:٣٨٢).

وزلفى: بوزن قربى. فالزلف: جمع: زلفة، كظلم في ظلمة. والزُّلْف بالسكون: نحو بسرة وبسر. والزُّلُف بضمتين نحو: بسر في بسر [فيمن ضم السين]. والزلفى بمعنى: الزلفة، كما أن القربى بمعنى: القربة: وهو ما يقرب من آخر النهار من الليل. وقيل: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾: وقربًا من الليل، وحقها على هذا التفسير أن تعطف على الصلاة [1]، أي: أقم الصلاة ﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾، وأقم زلفًا من الليل، على معنى: وأقم صلاة تتقرب بها إلى الله عَزَّوَجَلَّ في بعض الليل.." [2].

قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والمقصود: أن تكون الصلاة أول أعمال المسلم إذا أصبح، وهي صلاة الصبح، وآخر أعماله إذا أمسى وهي صلاة العشاء؛ لتكون السيئات الحاصلة فيما بين ذلك ممحوة بالحسنات الحافة بها" [3].

وفي (صحيح البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ): وزلفا: ساعات بعد ساعات، ومنه سميت المزدلفة، الزلف منزلة بعد منزلة، وأما ﴿زُلۡفَىٰٓ﴾ [سبأ:٣٧]: فمصدر من القربى، ازدلفوا: اجتمعوا، ﴿وَأَزۡلَفۡنَا﴾: جمعنا.

وعن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: أن رجلًا أصاب من امرأة قبلة، فأتى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ فذكر ذلك له، فأنزلت عليه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ

---

(١) "لأن معنى: (قربًا من الليل): يتقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ في بعض الليل، بأن تصلى صلاة التهجد، فتعطف على (الصلاة)، وهي الصلاة في طرفي النهار؛ لتجتمع صلاة النهار وصلاة الليل" حاشية الطيبي على الكشاف (٢٢٣/٨).

(٢) الكشاف (٤٣٤/٢-٤٣٥)، وانظر: المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، لابن جني (٣٣٠/١-٣٣١)، المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده (٤٨/٩-٤٩).

(٣) التحرير والتنوير (١٧٩/١٢).

ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤﴾ [هود:١١٤]، قال الرجل: ألي هذه؟ قال: «**لمن عمل بها من أمتي**» (١).

قال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فبين أن الآية نزلت بسبب ذلك الرجل. وإقامة الصلاة: القيام بفعلها على سنتها والمثابرة عليها. وطرفا النهار: هما الصبح والعصر. وقيل: الظهر والعصر، وقيل: العشاء والمغرب.

﴿وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾: بفتح اللام على قراءة الجماعة، وهي: الساعات المتقاربة، جمع: زلفة، وهي القربة والمنزلة.

وقرأها يزيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ بضم اللام، وابن محيصن رَحِمَهُ ٱللَّهُ بسكونها، والمراد: المغرب والعشاء -والله أعلم-.

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ يعني: الصلوات الخمس، كما قد جاء مفسَّرًا عنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، قاله الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هي: لا إله إلا الله، والله أكبر، والحمد لله.

قلت: واللفظ بحكم عمومه صالح لما قالاه، ولزيادة عليه، كما قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات ما بينهن إذا اجتنب الكبائر**»" (٢). فالصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، أعمال تكفر الذنوب والخطايا، وترفع العبد عند الله عَزَّ وَجَلَّ درجات. وإقامة الصلوات المفروضات على وجهها الذي شرعه الله عَزَّ وَجَلَّ يوجب مباعدة الذنوب، ويوجب تطهير

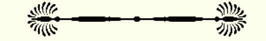
---

(١) صحيح البخاري (٦/٧٤-٧٥). والحديث في (صحيح البخاري)، رقم [٥٢٦، ٤٦٨٧] وفي (صحيح مسلم) [٢٧٦٣].

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٧/٨٧-٨٨). والحديث في (صحيح مسلم) [٢٣٣]: عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

ظاهر العبد وباطنه، كما جاء (الصحيح): عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسلُ منه كُلَّ يوم خمسَ مَرَّاتٍ، هل يَبْقَى من دَرَنِهِ شيءٌ؟**»، قالوا: لا يبقى من دَرَنِهِ شيء، قال: «**فذلك مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْس، يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الخطايا**» (١).

سجو :



يُقالُ أيضًا: سَجَا الليلُ وأَسْجَى. وقالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ [الضحى:٢]. ويقال: يومٌ أَسْجَى، وليلةٌ سَجْواءُ: وهي اللَّيِّنَةُ. وبَعيرٌ أَسْجَى، وناقةٌ سَجْواءُ، أي: أديبة" (٢).

والسُّجُوُّ: السُّكون. وعينٌ ساجِيةٌ، أي: فاترةُ النَّظر يعتري الحُسنَ في النساء. وسجا الليل والبحر: إذا سكن سجوًا، وليل وبحر ساج. وليلةٌ ساجيةٌ: ساكنةُ الرِّيحِ غير مظلمة. يقال: سَجَا اللَّيْل: إذا ادْلَهَمَّ وَسَكَنَ. سجا الليل: أدبر، وقيل: أقبل، ومنه:

يا حَبَّذَا الْقَمْرَاءُ واللَّيْلُ السَّاجْ وطُرُقٌ مِثْلُ مُلَاءِ النُّسَّاجْ (٣)

(١) صحيح البخاري [٥٢٨]، مسلم [٦٦٧].

(٢) الأزمنة وتلبية الجاهلية، لقُطْرُب (ص:٥٣-٥٤).

(٣) انظر: العين، مادة: (سَجَوَ) (١٦١/٦)، مقاييس اللغة، (١٣٧/٣)، أساس البلاغة (٤٤٠/١)، الخصائص، لابن جني (١١٧/٢)، الكامل في اللغة والأدب (٢٢٦/١)، أمالي القالي (١٧٤/١)، الأزمنة والأمكنة، للأصفهاني (ص:٢٩٥)، شرح ديوان الحماسة (ص:٢٢٣).

وقال الفراء رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾: "إذا أظلم وركد في طوله، كما تقول: بحر ساج، وليل ساج: إذا ركد وسكن وأظلم" (١).

وعن ابن الأعرابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "سجا: سكن، وسجا: امتدَّ بظلامه، وسجا: أظلم" (٢).

قال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أوقات الصلاة في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾ [الإسراء:٧٨]، يعني: الظهر والعصر. ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ يعني: المغرب والعشاء. ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ يعني: صلاة الفجر.

وقد قال ذلك قبله جماعة من العلماء بتأويل القرآن منهم: ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا ومجاهد وعكرمة رَحِمَهُمَاٱللَّهُ وغيرهم" (٣).

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأما غسق الليل فالأكثر على أنه أراد به: صلاة العشاء. وروي عن مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: غسق الليل: غروب الشمس" (٤).

وقال التُّورِبِشْتِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الغاسق: الليل إذا اعتكر ظلامه، ووقوبه: دخول ظلامه في كل شيء. وإنما أمرنا بالاستعاذة منه؛ لما في الوقت من انبثاث الشر أكثر مما في غيره، ثم إن التحرز منه أصعب، وأستند الشر إليه، لملابسته له من حدوثه فيه" (٥).

---

(١) معاني القرآن، للفراء (٣/٢٧٣).

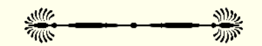
(٢) انظر: تهذيب اللغة (١١/٩٧).

(٣) الاستذكار، لابن عبد البر (١/٢٣).

(٤) الاستذكار، لابن عبد البر (١/٦٤-٦٥)، وانظر: المسالِك في شرح موطَّأ مالك (١/٤١٠).

(٥) الميسر في شرح مصابيح السنة (٢/٥٨٠-٥٨١).

السَّحَرُ وثلث الليل الآخر:



قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ١٧﴾ [آل عمران:١٧].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ١٨﴾ [الذاريات:١٨].

قال في (العين): "السَّحَرُ: آخِرُ الليل.." [(١)].

وقال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " السَّحَرُ: قُبَيْلَ الصُّبْحِ. تقول: لقيته سحرنا هذا: إذا أردت به سحر ليلتك لم تصرفه؛ لأنه معدول عن الألف واللام. وهو معرفة وقد غلب عليه التعريف بغير إضافة ولا ألف ولام، كما غلب ابن الزبير على واحد من بنيه. وتقول: سر على فرسك سحر يا فتى، فلا ترفعه؛ لأنه ظرف غير متمكن. وإن أردت بسحر نكرة صرفته، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ٣٤﴾ [القمر:٣٤]. ويقال: أتيتُه بسَحَرٍ وبِسُحْرَةٍ. وأَسْحَرْنا: أي: سرنا في وقت السَحر. وأَسْحَرْنا أيضًا: صِرْنا في السَحَر. واسْتَحَرَ الديك: صاح في ذلك الوقت. والسَحور: ما يُتَسَحَّرُ به..." [(٢)].

قالوا: السحر سَحَرَانِ: السَّحَرُ الأعلى قَبْلَ انْصِدَاعِ الفجر، والآخرُ عند انْصِدَاعِهِ قبيل الصبح.

وانصداع الفجر، أي: انشقاقه عن الظلمة، ومنه سمي الفجر: الصديع [(٣)].

قال جَلَّوَعَلَا في وصف المؤمنين المسارعين إلى الخيرات، وفي بيان فضل الاستغفار في وقت الأسحار: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٦ ٱلصَّٰبِرِينَ

(١) كتاب العين، مادة: (سحر) (٣/١٣٥).

(٢) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (سحر) (٢/٦٧٨-٦٧٩).

(٣) انظر: المغرب، مادة: (سحر) (ص:٢١٩)، الكليات (ص:٩٨١)، مشارق الأنوار، مادة: (صدع) (٢/٤٠).

﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ۝١٧﴾ [آل عمران:١٦-١٧]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨﴾ [الذاريات:١٨].

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِوَاللَّهُعَنْهُ: أن رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**ينزل ربنا** تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ **كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعوني، فأستجيب له من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له**»(١).

وفي رواية: «**إذا مضى شطر الليل، أو ثلثاه، ينزل الله** تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ **إلى السماء الدنيا، فيقول: هل من سائل يعطى؟ هل من داع يستجاب له؟ هل من مستغفر يغفر له؟ حتى ينفجر الصبح**»(٢).

وعن عبادة بن الصامت رَضِوَاللَّهُعَنْهُ عن النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**من تَعَارَّ**(٣) **من الليل، فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، الحمد لله، وسبحان الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة**

(١) صحيح البخاري [١١٤٥، ٧٤٩٤]، مسلم [٧٥٨].

(٢) صحيح مسلم [٧٥٨].

(٣) «تعَارَّ»: بمهملة وراء مشددة. و«تعار من الليل»: إذا هب من نومه. ولعله مأخوذ من (عِرارِ الظليم)، وهو صوته. و(عرار الظليم) صوت ذكر النعام، ويقال لصوت الأنثى زمار. قال أبو عبيد: ولا أدري أهو من ذلك أم لا. قال ابن التِّين: ظاهر الحديث أنَّ تعارَّ معناه: استيقظ؛ لأنَّه قال: «مَن تعارَّ فقال»، فعطف القول بالفاء على «تعارَّ». ويحتمل أن تكون الفاء تفسيريَّة لما يصوت به المستيقظ؛ لأنَّه قد يصوِّت بغير ذكر، فخصَّ الفضل المذكور في الحديث بمن صوَّت بما ذكر من ذكر الله عَزَّوَجَلَّ. وهذا هو السرُّ في اختيار لفظ: «تعارَّ» دون استيقظ أو انتبه، وإنَّما يتَّفق ذلك لمن تعوَّد الذكر، واستأنس به وغلب عليه حتَّى صار حديث نفسه في نومه ويقظتهِ، فأكرم من اتَّصف بذلك بإجابة دعوته وقبول صلاته. وقيل: تعارَّ تقلَّب في فراشه، ولا يكون إلَّا يقظةً مع كلام يرفع به صوته عند انتباهه وتمطِّيه، وقيل غير ذلك. انظر: فتح الباري، لابن حجر (٤٠/٣)، معالم السنن (١٤٣/٤)، غريب الحديث، لأبي عُبيد، مادة: (عرر) (١٣٤/٤-١٣٥)، تهذيب اللغة (٧٦/١)، مقاييس اللغة (٣٥/٤)، مشارق الأنوار (٧٢/٢).

إلا بالله، ثم قال: اللهم اغفر لي، أو دعا، استجيب له، فإن توضأ وصلى قبلت صلاته» (١).

قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "حديث: عبادة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ شريف عظيم القدر، وفيه: ما وعد الله عَزَّوَجَلَّ عباده على التيقظ من نومهم، لهجة ألسنتهم بشهادة التوحيد له والربوبية، والإذعان له بالملك، والاعتراف له بالحمد على جزيل نعمه التى لا تحصى، رطبة أفواهم بالإقرار له بالقدرة التى لا تتناهى، مطمئنة قلوبهم بحمده وتسبيحه، وتنزيهه عما لا يليق بالإلهية من صفات النقص، والتسليم له بالعجز عن القدرة عن نيل شىء إلا به جَلَّوَعَلَا؛ فإنه وعد بإجابة دعاء من بهذا دعاه، وقبول صلاة من بعد ذلك صلى، وهو جَلَّوَعَلَا لا يخلف الميعاد، وهو الكريم الوهاب، فينبغي لكلِّ مؤمن بلغه هذا الحديث: أن يغتنم العمل به، ويخلص نيته لربه العظيم جَلَّوَعَلَا أن يرزقه حظًّا من قيام الليل، فلا عون إلا به، ويسأله فكاك رقبته من النار، وأن يوفقه لعمل الأبرار، ويتوفاه على الإسلام. قد سأل ذلك الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ الذين هم خيرة الله عَزَّوَجَلَّ، وصفوه من خلقه، فمن رزقه الله عَزَّوَجَلَّ حظًّا من قيام الليل فليكثر شكره على ذلك، ويسأله أن يديم له ما رزقه، وأن يختم له بفوز العاقبة، وجميل الخاتمة" (٢).

وأخرج ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنه كان يحيي الليل صلاةً، ثم يقول: يا نافع أسحَرْنا؟ فيقول: لا، فيعاود الصلاة، فإذا قلتُ: نعم قعد يستغفر ويدعو حتى يُصْبح (٣).

---

(١) صحيح البخاري [١١٥٤].

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٤٧/٣-١٤٨).

(٣) تفسير الطبري (٢٦٦/٦)، وانظر: مختصر قيام الليل، لأبي عبد الله محمد بن نصر المرْوَزي (ص:٩٦).

وقد قيل: خُصَّ السحر، وهو آخر الليل بالذكر؛ لأنه وقت الغفلة، ولذة النوم، ولأنه أرجى في القبول، فهو وقت إجابة الدعاء لمن توجه إلى الله عَزَّوَجَلَّ بالدعاء بصدق وإخلاص.

وقد قيل: إن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، لما قال لبنيه: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ [يوسف:٩٨] أنه أخرهم إلى وقت السحر؛ ولذلك فإن الذكر والدعاء في هذا الوقت من أفضل الأعمال.

وقيل: إلى ليلة الجمعة؛ ليتعمد به وقت الإجابة. وقيل: ليتعرَّف حالهم في صدق التوبة وإخلاصها. وقيل: أراد الدوام على الاستغفار لهم.

ومن دأب الصالحين: أنهم لا يغفلون عن الأوقات الفاضلة، وقد جاء: عن يحيى بن أيوب المقابري، قال: حدثني بعض أصحاب وكيع رَحِمَهُ اللَّهُ الذين كانوا يلزمونه، قال: كان لا ينام -يعني: وكيعًا- حتى يقرأ جزءه في كل ليلة ثلث القرآن، ثم يقوم في آخر الليل فيقرأ المفصل، ثم يجلس فيأخذ في الاستغفار حتى يطلع الفجر، فيصلي الركعتين [(١)].

وفي الأسحار نسمات ينالها المقربون، ففي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا مضى شطر الليل، أو ثلثاه، ينزل الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا، فيقول: هل من سائل يعطى؟ هل من داع يستجاب له؟ هل من مستغفر يغفر له؟ حتى ينفجر الصبح**» [(٢)]، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٦ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ

---

(١) انظر: تاريخ بغداد (١٥/٦٤٧)، تاريخ دمشق (٦٣/٧٧)، صفة الصفوة (٢/٩٩)، تهذيب الكمال في أسماء الرجال (٣٠/٤٨١)، سير أعلام النبلاء (٩/١٤٨).

(٢) صحيح مسلم [٧٥٨].

بِٱلۡأَسۡحَارِ ﴿١٧﴾ [آل عمران:١٦-١٧]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات:١٧-١٨].

جاء في الحديث: عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تسحروا؛ فإن في السحور بركة**»(١).

ويستحب تأخير السحور؛ لأنه أقرب إلى حصول المقصود منه من حفظ القوى، والتقوي به على النشاط، كما جاء في الحديث: عن زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**تسحرنا مع النبي** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **ثم قام إلى الصلاة**»، قلت: كم كان بين الأذان والسحور؟ قال: «**قدر خمسين آية**»(٢). وفي رواية: «**قدر خمسين أو ستين**»، يعني: آية(٣).

قال ابن دقيق العيد رَحِمَهُ اللَّهُ: "فيه دليل على استحباب السحور للصائم. وتعليل ذلك بأن فيه بركة. وهذه البركة: يجوز أن تعود إلى الأمور الأخروية؛ فإن إقامة السنة توجب الأجر وزيادته. ويحتمل أن تعود إلى الأمور الدنيوية؛ لقوة البدن على الصوم، وتيسيره من غير إجحاف به. و(السحور) بفتح السين: ما يتسحر به. وبضمها الفعل. هذا هو الأشهر.

و(البركة) محتملة لأن تضاف إلى كل واحد من الفعل والمتسحر به معًا"(٤).

---

(١) صحيح البخاري [١٩٢٣]، مسلم [١٠٩٥].

(٢) صحيح البخاري [١٩٢١]، مسلم [١٠٩٧].

(٣) صحيح البخاري [٥٧٥].

(٤) إحكام الإحكام شرح عمدة الأحكام (٩/٢). قال ابن الملقن: "ويجوز أن تكون البركة بمجموع الأمرين: وحاصل البركة في السحور يتنوع أنواعًا: **أولها**: اتباع السنَّة والاقتداء. **ثانيها**: مخالفة أهل الكتاب في الزيادة في الأكل على الإفطار. **ثالثها**: التقوي به والنشاط للصوم سيما الصبيان. **رابعها**: التسبب للصدقة على من يسأل إذ ذاك. **خامسها**: التسبب لذكر الله والدعاء وللرحمة فإنه وقت الإجابة. **سادسها**: التسبب في حسن الخلق؛ فإنه إذا جاع ربما ساء خلقه. **سابعها**: تجديد نية الصوم فيخرج من خلاف من أوجب=

والسَّحْر والسَّحَر: آخِرُ اللَّيْلِ قُبَيْل الصُّبْح، وَالجمع: أسحارٌ. والسُّحْرَةُ: السَّحَرُ، وَقِيلَ: أَعلى السَّحَرِ، وقيل: هو من ثُلْثِ اللَّيْلِ الآخِرِ إلى طلوع الفجر[1].

فوقت السحر يبدأ في آخر الليل، والثلث الأخير من الليل، وهو أن تقسم الليل من غروب الشمس إلى طلوع الفجر أثلاثًا، فتحذف ثلثين الأولين منه، وما بقي فهو الثلث، فإذا قدرنا أن ما بين غروب الشمس إلى طلوع الفجر تسع ساعات، فإذا مضى ست ساعات من الليل دخل الثلث الآخر من الليل.

يأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتسحر، الذي هو الأكل والشرب وقت السحر، استعدادًا للصيام، ويذكر الحكمة الإلهية فيه، وهي حلول البركة، والبركة تشمل منافع الدنيا والآخرة.

فمن بركة السحور: ما يحصل به من الإعانة على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ في النهار وعلى القيام بما ينبغي على الصائم القيام به من العمل.

ومن بركة السحور: أن الصائم إذا تسحر لا يمل إعادة الصيام، خلافًا لمن لم يتسحر، فإنه يجد حرجًا ومشقة يثقلان عليه العودة إليه؛ لأن السحور فيه تنظيم لوقت تناول الطعام.

ومن بركة السحور: الثواب الحاصل من متابعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومن بركته أيضًا: أن المتسحر يقوم في آخر الليل، فيذكر الله عَزَّوَجَلَّ، ويستغفره.

ومن بركة السحور: أنه عبادة، إذا نوى به الاستعانة على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، والمتابعة للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولله عَزَّوَجَلَّ في شرعه حكم وأسرار.

=تجديدها إذا نام ثم تنبه. ثم قال: أجمع العلماء على استحباب السحور، وأنه ليس بواجب، وإنما الأمر به أمر إرشاد، وهو من خصائص هذه الأمة" الإعلام بفوائد عمدة الأحكام، لابن الملقن (١٨٧/٥-١٨٨).

(١) المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده، مادة: (سحر) (١٨٤/٣).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأما البركة التي فيه فظاهرة؛ لأنه يقوي على الصيام، وينشط له، وتحصل بسببه الرغبة في الازدياد من الصيام؛ لخفة المشقة فيه على المتسحر، فهذا هو الصواب المعتمد في معناه.

وقيل: لأنه يتضمن الاستيقاظ، والذكر، والدعاء في ذلك الوقت الشريف، وقت تنزل الرحمة، وقبول الدعاء والاستغفار، وربما توضأ صاحبه وصلى أو أدام الاستيقاظ للذكر والدعاء والصلاة، أو التأهب لها حتى يطلع الفجر" (١).

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والأولى أن البركة في السحور تحصل بجهات متعددة، وهي اتباع السنة، ومخالفة أهل الكتاب، والتقوي به على العبادة، والزيادة في النشاط، ومدافعة سوء الخلق الذي يثيره الجوع، والتسبب بالصدقة على من يسأل إذ ذاك، أو يجتمع معه على الأكل، والتسبب للذكر"(٢). فذكر بعض ما ذكره الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وزاد عليه.

سرح وأراح:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦﴾ [النحل:٦].

قال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الإراحة: أن تروح الإبل من مراعيها إلى الموضع الذي تقيم فيه.

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (٧/٢٠٦).

(٢) انظر: فتح الباري، لابن حجر (٤/١٤٠).

﴿وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ٦﴾، أي: حين تُخَلونها للرعْي، وفيما ملكه الإنسان جمال وزينة، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [الكهف:٤٦]، والمال ليس يخص الوَرِق والعينَ دونَ الأمْلَاك، وأكثر مال العرب الإبل، كما أن أكثر أمْوال أهل البصرة النخَلُ، إنما يقولون: مال فلان بموضع كذا وكذا، يعنون: النخل"(١).

فالسَّرْحُ بالْغَدَاة، والإراحَةُ بالْعَشِيّ.

سرى:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ [هود:٨١].

﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ [الحجر:٦٥].

﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ [الإسراء:١].

﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي﴾ [طه:٧٧].

﴿فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ٢٣﴾ [الدخان:٢٣].

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ٤﴾ [الفجر:٤].

السُّرَى كالهُدَى: قال في (العين): "هو سير الليل، وكلُّ شيءٍ طرق ليلًا فهو سارٍ. سَرَى يسري سُرىً وسَرْيًا. والسّاريةُ من السَّحاب: التي تجيء بين الغادية والرَّائحة ليلًا، والعرب تؤنّث السُّرَى، قال:

(١) معاني القرآن وإعرابه (٣/١٩١).

هنَّ الغِياثُ إذا تَهَوّلتِ السُّرَى *** (١)

وسرى وأسرى، لغتان، وسَرَى به وأَسرَى به سواء" (٢).

وفي (المحكم): "سَيْرُ الليلِ عامَّتِه (٣) يذكر ويؤنث ولم يعرف اللحياني إلا التأنيث، وقول لبيد:

قلت: هَجِّدْنا فقد طالَ السُّرَى   وقَدَرْنا إنْ خَنَى الدَّهر غَفَلْ (٤)

فقد يكون على لغة من ذكَّر، وقد يجوز أن يريد: طالت السري، فحذف علامة التأنيث؛ لأنه ليس بمؤنث حقيقي" (٥).

والسُّرى: سَيْرُ اللَّيْل، ألفهُ منقلبة عن ياء؛ لأَنَّهُ يقال: سَرَيْت وأَسْرَيْت. ونحوه: (أسرى)؛ فإن فيه إعلالًا بالقلب، فأصله: أسري بالياء، تحركت الياء بعد فتح قلبت ألفًا.

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقد قيل: إنَّ (أسرى) ليست من لفظة: سرى يسري، وإنما هي من السَّرَاة، وهي أرض واسعة، وأصله من الواو، ومنه قول الشاعر:

*** بِسَرْوِ حِمْيَرَ أَبْوَالُ الْبِغَالِ (٦)

---

(١) وعجز البيت: (***وإذا توقد في الناد الحزور). و(الحزور): الإكام والنشور. انظر: ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب (١/٣٨٤)، أساس البلاغة (٢/٢٥٠).

(٢) العين، مادة: (سري) (٧/٢٩١).

(٣) أي: سَيْرُ عامَّة الليل لا بعضه.

(٤) ديوان لبيد بن ربيعة العامري (ص:٩٢). و(هجدنا): أي دعنا ننام. و(قدرنا): دنونا، وخنى الدهر: آفاته وأحداثه. فكأنَّه قال: نَوِّمْنا؛ فإن السُّرَى طال حتَّى غَلَبَنَا النَّوم، فقد دنونا إن لم يعقنا الدهر.

(٥) المحكم والمحيط الأعظم (٨/٥٦٩)، وانظر: المخصص (٥/١٤٢).

(٦) هذا شطر بيت، وعجزه: (***أَنِّي تَسَدَّيْتَ وهْنًا ذلك الْبِينَا)، وهو لتميم بن مقبل العامري، وهو في (ديوانه) (ص:٣١٦)، وزارة الثقافة، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، دمشق [١٣٨١هـ]، وانظر: جمهرة أشعار العرب (ص: ٦٨٣)، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات (ص:٤٣٣)، شرح مقصورة ابن=

فأسرى نحو: أَجْبَل وأَتْهَم [(١)]، وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ [الإسراء:١]، أي: ذهب به في سراة من الأرض، وسَرَاةُ كلِّ شيء: أعلاه، ومنه: سَرَاةُ النهار، أي: ارتفاعه"[(٢)].

قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "و(أسرى) بمعنى: (سرى) يقال: أسراه وأسرى به، وسرى به. فهمزة (أسرى) ليست للتعدية؛ ولذا عدي بالباء [(٣)].

وفرّق بعضهم بين أسرى وسرى بالمبالغة في (أسرى)؛ لإفادة السرعة في السير؛ ولذا أوثر على (سرى).

والإسراء: سير الليل كله، كأسرى، فقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَيۡلٗا﴾ [الإسراء:١]؛ للتأكيد أو للتجريد عن بعض القيود. مثل: أسعفت مرامه. مع أن الإسعاف قضاء الحاجة، أو للتنبيه على أنه المقصود بالذكر.

وأَسْرى وسرى لغتان. و﴿لَيۡلٗا﴾ نصب على الظرف.

=دريد، لابن خالويه (ص:٤٩٧)، الفائق في غريب الحديث والأثر (٢/١٧٤). و(السرو): ما انحدر عن الجبل وارتفع عن الوادي، و(تسديت) أي: علوت وركبت.

(١) يقال: أجبل القوم: إذا صاروا إلى الجبل، وأسهلوا: إذا صاروا إلى السهل، وأبر فلان: إذا صار إلى البر، وأبحر: إذا ركب البحر، وأفلى: إذا صار إلى الفلاة، وأتهم: إذا أتى تهامة.

(٢) المفردات، مادة: (سرى) (ص:٤٠٨-٤٠٩).

(٣) "وللمبرد والسهيلي نكتة في التفرقة بين التعدية بالهمزة، والتعدية بالباء بأن الثانية أبلغ؛ لأنها في أصل الوضع تقتضي مشاركة الفاعل المفعول في الفعل، فأصل (ذهب به) أنه استصحبه، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ﴾ [القصص:٢٩]. وقالت العرب: أشبعهم شتمًا، وراحوا بالإبل. وفي هذا لطيفة تناسب المقام هنا؛ إذ قال: ﴿أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ دون: (سرى بعبده)، وهي التلويح إلى أن الله عَزَّوَجَلَّ كان مع رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ في إسرائه بعنايته وتوفيقه، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطور:٤٨]، فالمعنى: الذي جعل عبده مسريًا، أي: ساريًا" انظر: التحرير والتنوير (١٥/١١).

فإن قلت: الإسراء لا يكون إلا بالليل، فما معنى ذكر الليل؟ قلت: أراد بقوله ﴿لَيۡلٗا﴾ بلفظ التنكير: تقليل مدَّة الإسراء، وأنه أسري به في بعض الليل من مكة إلى الشام مسيرة أربعين ليلة، وذلك أنَّ التنكير فيه قد دلَّ على معنى: البعضية. ويشهد لذلك قراءة عبد الله وحذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (من الليل)، أي: بعض الليل، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ [الإسراء:٧٩] يعني: الأمر بالقيام في بعض الليل" (١).

وقال في (الانتصاف): "وقد جرى ذكرُ الليل في موضع لا يليق به الجواب الذي ذكره الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ [هود:٨١]. والظاهر أن ذكر الليل لتصوير السُّرى بصورته، أو لأن السُّرى دل على أمرين: السير، وكونه ليلًا، فأفرد أحدهما بالذكر؛ تقوية له في ذهن المخاطب، مثله قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾ [النحل:٥١]، فإن الاسم الحامل للتثنية دالٌّ عليها وعلى الجنسية، فأكد التثنية؛ لأنها مقصودة بالإبطال، وكذلك أريد الإيقاظ؛ لأن الوحدانية هي المقصودة في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [الأنعام:١٩]، ولو اقتصر على قوله: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ﴾ لأوهم أن المهم إثبات الالهية له، والغرض من الكلام ليس إلا الإثبات للوحدانية" (٢).

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأجيب: أن بين المقامين بونًا بعيدًا؛ لأنه ما وقع النزاع في أن عروجه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان ليلًا أو نهارًا، كما وقع في اتخاذ الإله والعدد في تلك الآية، وإنما هو بيان إبداء أمر غريب خارق للعادات.

وأما قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ فهو له لا عليه، لأنه أتى بالليل هناك، ونُكر ليُضمن المعنى المقصود في الإيراد من التبعيض. وجيء بقوله: ﴿مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ هنا؛ ليبين أن

---

(١) الكشاف (٢/٦٤٦-٦٤٧).

(٢) الانتصاف (٢/٦٤٦).

البعض هنا مقصودٌ منصوصٌ فيه البعضية، وذاك مُضمن. والحاصل أن إعادة الشيء لإناطة أمر زائد أسلوبٌ من الأساليب.

وأقول- والعلمُ عند الله عَزَّوَجَلَّ-: ويُمكن أن يُراد بالتنكير: التعظيم والتفخيم، والمقامُ يقتضيه، ألا ترى كيف افتتحت السورة بالكلمة المنبئة عنه؟ ثُم وصف المسرى به بالعبودية، ثم أردف تعظيم المكانين بالحرم وبالبركة لما حوله؛ تعظيمًا للزمان، ثم تعظيمًا للآيات بإضافتها إلى صيغة التعظيم، وجمعها ليشمل جميع أنواع الآيات، وكل ذلك شاهدُ صدقٍ على ما نحن بصدده، والمعنى: ما أعظم شأن من أسرى به بمن حقق له مقام العبودية، وحقق استئهاله للعناية، وصحح له النعمة السرمدية. و﴿لَيۡلٗا﴾، أي: ليل له شأن جليل، ليلٌ دنا فيه الحبيبُ من المحبوب، وفاز في مقام الشهود بالمطلوب، ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ۝٩ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾ [النجم:٨-١١]، فحينئذ ينطبق عليه التعليل بقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝١﴾ [الإسراء:١]، أي: السميع بأحوال ذلك العبد، والبصير لأفعاله، العالمُ بكونها مهذبة خالصة من شوائب الهوى، مقرونة بالصدق والصفا، مُستأهلة للقربة والزلفى. ولا بُعد أن يرجع الضمير إلى العبد، كما نقل أبو البقاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن بعضهم، قال: إنه ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ لكلامنا، و﴿ٱلۡبَصِيرُ﴾ لذاتنا. وأما توسيطُ ضمير الفصل؛ فللإشعار باختصاصه بهذه الكرامة وحده" (١).

وقال محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وإذ قد كان السرى خاصًّا بسير الليل كان قوله: ﴿لَيۡلٗا﴾ إشارة إلى أن السير به إلى المسجد الأقصى كان في جزء ليلة، وإلا لم يكن ذكره إلا تأكيدًا، على أن الإفادة كما يقولون خير من الإعادة.

---

(١) حاشية الطيبي على الكشاف (٩/٢٣٥-٢٣٦).

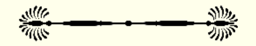
وفي ذلك إيماء إلى أنه إسراء خارق للعادة؛ لقطع المسافة التي بين مبدأ السير ونهايته في بعض ليلة، وأيضًا ليتوسل بذكر الليل إلى تنكيره المفيد للتعظيم.

فتنكير ﴿لَيْلًا﴾ للتعظيم، بقرينة الاعتناء بذكره مع علمه من فعل: أسرى، وبقرينة عدم تعريفه، أي: هو ليل عظيم باعتبار جعله زمنًا لذلك السرى العظيم، فقام التنكير هنا مقام ما يدل على التعظيم. ألا ترى كيف احتيج إلى الدلالة على التعظيم بصيغة خاصة في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢﴾ [القدر:١-٢]؛ إذ وقعت ليلة القدر غير منكرة" (١).

والمتسري: الذي يخرج في السرية، وهي طائفة من الجيش يبلغ أقصاها: أربعمائة، تبعث إلى العدو، وجمعها: السرايا، سموا بذلك؛ لأنهم يكونون خلاصة العسكر وخيارهم، من الشيء السري النفيس (٢).

وأما قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤﴾ [الفجر:٤] فقد تقدم بيانه مفصلًا في (الأقسام). وكذا قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ۝٥﴾ [الفجر: ٥].

شروق وغروب وإشراق وبُلوج:



ويدل على الشروق والغروب: الجهة التي تشرق وتغرب منها الشمس، فتسمى جهة الشروق: المشرق، وجهة الغروب: المغرب.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ [البقرة:١١٥].

---

(١) التحرير والتنوير (١٥/١١-١٢).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (سرى) (٢/٣٦٣-٣٦٥).

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ [البقرة:١٤٢].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ الآية [البقرة:١٧٧].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة:٢٥٨].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ [الكهف:٨٦].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الشعراء:٢٨].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾﴾ [الصافات:٥].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾ [ص:١٨].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾ [ق:٣٩].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾ [الرحمن:١٧].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج:٤٠].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل:٩].

الغَرْبُ: الْمَغْرِبُ، والغُرُوب: غَيْبُوبَةُ الشمس. يقال: لقيته عند مُغَيْرِبانِ الشمس. والغُرْبَةُ: الاغتِراب من الوطن. وغَرَبَ فلانٌ عَنَا يَغْرُبُ غَرْبًا، أي: تنحى، وأغربته وغَرَّبْتُه

أي: نحيته. ويقال: وغايةٌ مُغرِبةٌ، أي: بعيدة الشأو. وغَرَّبَتِ الكلاب، أي: أمعنت في طلب الصيد. والغَريبُ: الغامض من الكلام، وغربت الكلمة غرابة، وصاحبه مُغْرِبٌ..[(١)].

والْغُرْبَةُ: الاغْتِرَابُ. تقول: (تَغَرَّبَ) واغترب، بمعنىً، واغترب، بمعنى، وغُرُبٌ -بضم الغين والراء- والجمع: الغرباء. والغرباء أيضاً: الأباعد. واغترب فلانٌ، إذا تزوَّج إلى غير أقاربه.

والتَّغْرِيب: النَّفْيُ عن البلد. وأغرب الرجل: جاء بشيء غريب. وأَغْرَبَ أيضًا صار غَرِيبًا. وأَسْوَدُ غِرْبِيبٌ بوزن: قِنْدِيل، أي: شَدِيدُ السَّوَاد. فإذا قلتَ: غَرَابِيبُ سُودٍ كَانَ السُّودُ بدلًا من غَرَابِيبَ؛ لأنَّ لأنَّ تواكيد الألوان لا يَتَقَدَّمُ. والغَرْب والمغْرِب بمعنًى واحد. وغَرَبَ: بَعُدَ. واغْرُبْ عَنِّي، أي: تَبَاعَدْ. وغَرَبت الشمس غُروبًا. والغُروب أيضًا: مجاري الدمع. والْغَرْبُ -بوزن: الضَّرْب-: الدَّلْوُ العظيمة. وغَرْبُ كلِّ شيءٍ أيضًا: حَدُّهُ. والْغَارِبُ: ما بين السَّنَام إلى الْعُنُق، ومنه قولهم: (حَبْلُكِ عَلَى غَارِبِك): أي: اذهبي حيث شئت..[(٢)].

وفي الحديث: عن أبي بَصْرَةَ الْغِفَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: صلى بنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العصر بِالْمُخَمَّص، فقال: «**إن هذه الصلاة عرضت على من كان قبلكم فَضَيَّعُوهَا، فمن حافظ عليها كان له أجره مرتين، ولا صلاة بعدها حتى يَطْلُعَ الشَّاهِدُ**»، والشَّاهِدُ: النَّجْم [(٣)].

وقد قيل: هو كناية عن غروب الشمس؛ لأن لغروبها يظهر الشاهد.

---

(١) انظر: العين، مادة: (غرب) (٤/٤٠٩-٤١٥)، وانظر: مادة: (غرب) في (النهاية في غريب الحديث والأثر) (٣/٣٤٨-٣٥٢).

(٢) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (غرب) (١/١٩١-١٩٤).

(٣) صحيح مسلم [٨٣٠].

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يسمى شاهدًا؛ لأنه يشهد الليل، أي: يحضر ويظهر، ومنه قيل لصلاة المغرب: صلاة الشاهد. أقول: ويجوز أن يحمل على الاستعارة، شبه النجم عند طلوعه دليلًا على وجود الليل بالشاهد الذي تثبت به الدعاوى" (١).

وعن أبي أيوب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن هذه الصلاة** -يعني: العصر- **فرضت على من كان قبلكم فضيعوها، فمن حافظ منكم اليوم عليها أعطي أجرها مرتين ولا صلاة بعدها حتى يرى الشاهد** -يعني: النجم-» (٢).

فعلى هذا فإن صلاة المغرب سميت: صلاة الشاهد؛ لأنها تصلى عند طلوع نجم اسمه شاهد. قال شَمِرٌ: هو راجع إلى ما فسره أبو أيوب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه النجم.

وقال غيره: وتسمى هذه الصلاة: صلاة البَصَرِ؛ لأنه تبصر في وقته نجوم السماء، فالبَصَرُ يدرك رؤية النجم؛ ولذلك قيل له: صلاة البصر.

وقيل في صلاة الشاهد: إنَّها صلاة الفجر؛ لأن المسافر يُصَلّيها كالشاهد، لا يَقْصُرُ منها (٣).

وقد قوبل العشي بالإشراق في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾ [ص:١٨].

الإشراقُ يكون عندَ استقبال الشمس (٤). تقول: أشرق: إذا دخل في وقت الشروق.

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (١١٢٤/٤).

(٢) أخرجه الطبراني في (الكبير) [٤٠٨٤]، قال الهيثمي (٣٠٨/١): "رواه الطبراني في الكبير، وفيه: ابن إسحاق، وهو ثقة مدلس".

(٣) انظر: تهذيب اللغة (٤٩/٦).

(٤) انظر: الأزمنة وتلبية الجاهلية، لقُطْرُب (ص:٥٦).

والبُلوج: الإشراق. تقول: بَلَجَ الصبحُ يَبْلُجُ -بالضم-، أي: أضاء. وانْبَلَجَ وتَبَلَّجَ مثله. وتبلَّج فلانٌ: إذا ضحك وهشَّ. وصُبْحٌ أبلج بين البلج، أي: مشرق مضيء [1].

وقال ابن فارس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "البلج: الإشراق، ومنه: انبلاج الصبح" [2].

وفي حديث: أم معبد رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: «**أبلج الوجه**» [3] "أي: مشرق الوجه مسفره. ومنه: تبلج الصبح وانبلج. فأما الأبلج فهو الذي قد وضح ما بين حاجبيه فلم يقترنا، والاسم: البلج -بالتحريك-، لم ترده أم معبد؛ لأنها قد وصفته في حديثها بالقرن.

ومنه الحديث: «**ليلة القدر بلجة**» [4] أي: مشرقة.

---

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (بلج) (٣٠٠/١)، وانظر: تهذيب اللغة (٦٨/١١).

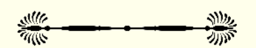
(٢) مقاييس اللغة، مادة: (بلج) (٢٩٦/١).

(٣) حديث أم معبد حديث: أم معبد رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا في قصة الهجرة، ووصفها للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عندما مر بها في طريقه، مشهور في كتب السيرة والسنة، وفي سنده مجاهيل، وقد حُسِّنَ باعتبار مجموع طرقه. وقد أخرجه ابن أبي عاصم في (الآحاد والمثاني) [٣٤٨٥]، والطبراني في (الكبير) [٣٦٠٥]، والحاكم [٤٢٧٤]، وصححه، وأقره الذهبي. قال الحافظ ابن كثير في (البداية والنهاية) (٤٧٢/٤): "وقصتها مشهورة مروية من طرق يشد بعضها بعضًا".

(٤) الحديث رواه عبادة بن الصامت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه قال: «إن أمارة ليلة القدر أنها صافية بلجة..» الحديث. وقد أخرجه أحمد [٢٢٧٦٥]، والطبراني في (الشاميين) [١١١٩]، والضياء في (المختارة) [٣٤٢]. قال ابن عبد البر: "هذا حديث حسن حديث غريب، وهو من حديث: الشاميين، رواته كلهم ثقات، وبقية إذا روى عن الثقات فليس بحديثه بأس" الاستذكار (٤١٧/٣)، وقال الهيثمي (١٧٥/٣): "رواه أحمد، ورجاله ثقات" اهـ. وأخرجه ابن أبي شيبة في (مصنفه) [٨٦٧٨، ٩٥٤٣]: عن الحسن بلفظ: «ليلة القدر بلجة سمحة، تطلع شمسها ليس لها شعاع». والطبراني في (الكبير) [١٣٩]، وفي (الشاميين) [٣٣٨٩]: عن واثلة بن الأسقع بلفظ: «ليلة القدر بلجة، لا حارة ولا باردة، ولا سحاب فيها، ولا مطر، ولا ريح، ولا يرمى فيها بنجم، ومن علامة يومها تطلع الشمس لا شعاع لها» . قال الهيثمي (١٧٨/٣-١٧٩): "رواه الطبراني في (الكبير)، وفيه بشر بن عون عن بكار بن تميم، وكلاهما ضعيف". وفي (صحيح مسلم) [٧٦٢]: عن عبد الله بن مسعود، يقول: «من قام السنة أصاب ليلة=

والبلجة -بالضم والفتح-: ضوء الصبح" [(١)].

شفق ووسق:



قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧﴾ [الانشقاق:١٦-١٧].

الباء هي الأصل في القسم، وتبدل منها الواو [(٢)].

والشَفَقُ: "بقيَّة ضوء الشمس وحُمْرَتِها في أول الليل إلى قريبٍ من العَتَمة. وقال الخليل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الشَفَقُ: الحمرةُ من غُروب الشمس إلى وقت العِشاء الآخِرة، فإذا ذهب قيل: غاب الشفق. وقال الفراء رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سمعتُ بعض العرب يقول: عليه ثوبٌ كأنّه الشَفَقُ، وكان أحمرَ. والشَفَقَةُ: الاسم من الإشْفاقِ، وكذلك الشَفَقُ.. " [(٣)].

وقال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الشفَق: الحمرة التي ترى في الأفق في المغرب بعد سقوط الشمس. وقيل: الشفق النَّهار" [(٤)].

وقال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الشفق: اختلاط ضوء النهار بسواد الليل عند غروب الشمس. والإشفاق: عناية مختلطة بخوف، لأن المشفق يحب المشفق عليه ويخاف ما يلحقه، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ ٤٩﴾ [الأنبياء:٤٩]، فإذا عدي بـ: (من)

=القدر»، فقال أبي: «والله الذي لا إله إلا هو، إنها لفي رمضان، يحلف ما يستثني، ووالله إني لأعلم أي ليلة هي، هي الليلة التي أمرنا بها رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بقيامها، هي ليلة صبيحة سبع وعشرين، وأمارتها أن تطلع الشمس في صبيحة يومها بيضاء لا شعاع لها».

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (بلج) (١٥١/١).

(٢) انظر: معاني القرآن، لأبي جعفر النحاس (١١٧/٥).

(٣) الصحاح، للجوهري، مادة (شفق) (١٥٠١/٤)، وانظر: معاني القرآن، للفراء (٢٥١/٣).

(٤) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٣٠٥/٥).

فمعنى الخوف فيه أظهر، وإذا عدي بـ: (في) فمعنى العناية فيه أظهر. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [الطور:٢٦]، ﴿مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ [الشورى:١٨]، ﴿مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ﴾ [الشورى:٢٢]، ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ﴾ [المجادلة:١٣]" [١].

وقال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الشفق: الحمرة التي ترى في المغرب بعد سقوط الشمس، وبسقوطه يخرج وقت المغرب، ويدخل وقت العتمة عند عامة العلماء، إلا ما يروى عن أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إحدى الروايتين: أنه البياض. وروى أسد بن عمرو [٢]: أنه رجع عنه، سمي لرقته. ومنه الشفقة على الإنسان: رقة القلب عليه" [٣].

قال محمد بن الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والشفق البياض المعترض في الأفق في قول أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وفي قول أبي يوسف ومحمد رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ: الحمرة. وروى أيضًا عن أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: الشفق هو الحمرة" [٤].

وقال في (الحجة): "والشفق عندنا: الحمرة التي تكون في المغرب، فإذا ذهبت تلك الحمرة فقد غاب الشفق، وكذلك قال أهل المدينة، ومالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ مثل قولنا: إن الشفق هو الحمرة" [٥].

---

(١) المفردات، للراغب، مادة: (شفق) (ص:٤٥٨-٤٥٩).

(٢) قل شمس الأئمة السرخسي: "والشفق البياض الذي بعد الحمرة في قول أبي حنيفة، وهو قول أبي بكر وعائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وإحدى الروايتين عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وفي قول أبي يوسف ومحمد والشافعي: الحمرة التي قبل البياض وهو قول عمر وعلي وابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وإحدى الروايتين عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وهكذا روى أسد بن عمرو عن أبي حنيفة" المبسوط (١/١٤٤-١٤٥). وعليها الفتوى، كما في الدراية، ومجمع الروايات، وشروح المجمع، وبه قالت الثلاثة. انظر: اللباب في شرح الكتاب (١/٥٧).

(٣) الكشاف (٤/٧٢٧).

(٤) الأصل المعروف بالمبسوط، لأبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني (١/١٤٦).

(٥) الحجة على أهل المدينة (١/٧).

وفي الحديث: عن عبد الله بن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**ووقت صلاة المغرب: ما لم يغب الشفق**» (١).

قال الشوكاني رَحِمَهُٱللَّهُ: "ومن حجج القائلين بأن الشفق الحمرة ما روي عنه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أنه صلَّى العشاء لسقوط القمر لثالثة الشهر**» (٢)، أخرجه أحمد وأبو داود، والترمذي، والنسائي رَحِمَهُمُٱللَّهُ.

قال ابن العربي رَحِمَهُٱللَّهُ: وهو صحيح، وصلى قبل غيبوبة الشفق (٣).

قال ابن سيد الناس رَحِمَهُٱللَّهُ في (شرح الترمذي): وقد علم كل من له علم بالمطالع والمغارب أن البياض لا يغيب إلا عند ثلث الليل الأول، وهو الذي حد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ خروج أكثر الوقت به، فصح يقينًا أن وقتها داخل قبل ثلث الليل الأول بيقين، فقد ثبت بالنص أنه داخل قبل مغيب الشفق الذي هو البياض، فتبين بذلك يقينًا أن الوقت إنما دخل بالشفق الذي هو الحمرة؛ للفرق بين أول الوقت وآخره (٤).

وقد جاء ذكر الشفق في غير موضع.

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧﴾ [الانشقاق:١٧].

---

(١) صحيح مسلم [٦١٢].

(٢) أخرجه الطيالسي [٨٣٤]، وأحمد [١٨٤١٥]، والدارمي [١٢٤٧]، وأبو داود [٤١٩]، والترمذي [١٦٥]، والبزار [٣٢٣٢]، والنسائي [٥٢٨]، والطحاوي في (شرح مشكل الآثار) [٣٧٨٤]، وابن حبان [١٥٢٦]، والطبراني في (الكبير) [١٧٢]، والدارقطني [١٠٥٨]، والحاكم [٦٩٨]، وصححه، ووافقه الذهبي، كما أخرجه البيهقي في (الكبرى) [١٧٤٨].

(٣) انظر: أحكام القرآن، لأبي بكر بن العربي (٣٦٩/٤).

(٤) نيل الأوطار (١٤/٢)، وانظر: شرح الترمذي (النفح الشذي)، لابن سيد الناس اليعمري (٤٠٥/٣)، وانظر: التفسير البسيط، للواحدي (٣٦٣/٢٣-٣٦٦)، تفسير ابن كثير (٣٥٨/٨-٣٥٩).

أي: وما جَمَعَ وضمَّ [(١)].

قال الشاعِر.

*** مُسْتَوْسِقَاتٍ لو يَجِدْنَ سَائِقَا

أي: مجتمعات، ومنه الوَسْق في الطعام؛ لأنه مكيلة معلومة تجمع قدرًا معلومًا.

قال أبو عبيدة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا وَسَقَ ۝١٧﴾، أي: وما جمع من الجبال والبحار والأشجار، كأنه جمعها بأن طلع عليها كلها [(٢)].

وقال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الوسق: جمع المتفرق. يقال: وسقت الشيء: إذا جمعته، وسمي قدر معلوم من الحمل كحمل البعير وسقًا، وقيل: هو ستون صاعًا.

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧﴾ [الانشقاق:١٧]، قيل: وما جمع من الظلام. وقيل: عبارة عن طوارق الليل، ووسقت الشيء: جمعته، والوسيقة الإبل المجموعة كالرفقة من الناس، والاتساق: الاجتماع والاطراد. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝١٨﴾ [الانشقاق:١٨]" [(٣)].

وفي (الكشاف): "قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا وَسَقَ ۝١٧﴾ وما جَمَعَ وضمَّ، يقال: وسقه فاتسق واستوسق [(٤)]. ونظيره في وقوع افتعل واستفعل مطاوعين: اتسع واستوسع. ومعناه: وما جمعه وستره وآوى إليه من الدواب وغيرها" [(٥)].

---

(١) انظر: معاني القرآن، للفراء (٣/٢٥١)، معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٥/٣٠٥).

(٢) انظر: مجاز القرآن، لأبي عبيدة (٢/٢٩١)، تهذيب اللغة (٩/١٨٥).

(٣) المفردات في غريب القرآن، مادة: (وسق) (ص:٨٧١).

(٤) يعني أن كلًّا منهما مطاوع لوسق، أي: جمعه فاجتمع.

(٥) الكشاف (٤/٧٢٧).

وهو عبارة عما جَمَعَ الليل وضمَّ مما كان منتشرًا بالنهار، من الدَّواب والحشرات والهوام والسباع، وذلك أنه إذا أقبل الليل أقبل كل شيء إلى مأواه.

وقيل: يجوز أن يكون المراد بما جمعه الليل من العباد المتهجدين بالليل؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ قد مدح المستغفرين بالأسحار، فيجوز أن يقسم بهم.

صبح:

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾ [هود:٨١].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾﴾ [المدثر:٣٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾ [التكوير:١٨].

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الصُبْح: الفَجْر (١). وصلاة الفجر تسمى أيضًا: صلاة الصبح -كما سيأتيك في بيان معنى: الفجر-. ويقال للصُّبْح المستطير: فَجْرٌ، وهو الصَّادق. والمستطيل الكاذب يقال له: فجر أيضًا. وأما الصُّبْح فلا يكونُ إلَّا الصَّادق (٢). وعلى هذا فالصبح أخص من الفجر.

والصَباحُ: نقيض المساء. وكذلك: الصَّبِيحَةُ: تقول: أَصْبَحَ الرَّجل، وصَبَّحه الله، وصَبَّحْتُه، أي: قُلتُ له: عِمْ صَباحًا. وصَبَّحْتُه أيضًا: إذا أَتَيْتَهُ صَبَاحًا. ولا يُراد بالتشديد

---

(١) قال في (المختار): "وهو أيضًا اسم من (الإصباح) ذكره في (مسا). مختار الصحاح، مادة: (صبح) (ص:١٧٢).

(٢) انظر: تهذيب اللغة (٣٥/١١).

ههنا: التكثير. وأصبح فلانٌ عالما، أي: صار. وفُلانٌ ينامُ الصَبْحَةَ والصُبْحَةَ، أي: يَنامُ حين يُصْبِح. و(الصَّبُوحُ): الشُّرْبُ بالغَدَاة، وهو ضِدُّ الْغَبُوقِ.." (١).

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الصبح والصباح: أول النهار، وهو وقت ما احمر الأفق بحاجب الشمس. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ۝٨١﴾ [هود:٨١]، وقال: ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝١٧٧﴾ [الصافات:١٧٧]، والتصبح: النوم بالغداة، والصبوح: شرب الصباح، يقال: صبحته: سقيته صبوحًا. ويقال: صبح فلان، أي: وضؤ" (٢).

تنفُّسُ الصُّبح:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨﴾ [التكوير:١٨].

قال الفرَّاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إذا ارتفع النهار، فهو تنفس الصبح" (٣).

وقال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فإن قلت: ما معنى تنفس الصبح؟ قلت: إذا أقبل الصبح: أقبل بإقباله روح ونسيم، فجعل ذلك نفسًا له على المجاز. وقيل: تنفس الصبح" (٤).

وقال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وتنفس النهار عبارة عن توسعه" (٥).

وقيل: ﴿إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨﴾: إذا أضاء وأقبل وتبين (٦).

---

(١) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (صبح) (١/٣٧٩-٣٨١).

(٢) المفردات في غريب القرآن، مادة: (صبح) (ص:٤٧٣). يقال: وضؤ وضاءة، أي: جمل.

(٣) معاني القرآن، للفراء (٣/٢٤٢).

(٤) الكشاف (٤/٧١١).

(٥) المفردات في غريب القرآن، مادة: (نفس) (ص:٨١٨).

(٦) انظر: إعراب القرآن، لأبي جعفر النحاس (٥/١٠١)، تفسير الطبري (٢٤/٢٥٨)، تفسير ابن كثير (٨/٣٣٨).

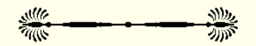
وقال الزَّجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إِذا امتدَّ يصيرُ نَهارًا بيِّنًا" (١).

وقيل: "إِذا انْشَقَّ الفجرُ وانفَلَق حَتَّى يتبيَّن"(٢).

قال عِلْقَةُ بنُ قُرْط التيمي:

حتى إذا الـصُّبْحُ لَـهَـا تَـنَـفَّــسا وانْجـابَ عَنْها لَيْلُها وَعَسْعَسا (٣)

صريم :



قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ۝٢٠ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ۝٢١﴾ [القلم:٢٠-٢١]، قال أبو عبيدة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "انصرم في الليل، وهو الليل، وكل رملة انصرمت من معظم الرمل فهي الصريمة" (٤).

قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله: جَلَّوَعَلَا: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ۝٢٠﴾ [القلم:٢٠]، أي: كالمصرومة لهلاك ثمرها. وقيل: الصريم الليل، أي: احترقت فاسودت. وقيل: النهار، أي: يبست وذهبت خضرتها. أو لم يبق شيء فيها، من قولهم: بيض الإناء: إذا فرغه. وقيل: الصريم الرمال" (٥).

---

(١) معاني القرآن وإعرابه (٥/٢٩٢).

(٢) انظر: تهذيب اللغة (٩/١٣).

(٣) انظر: الأزمنة وتلبية الجاهلية، لقُطْرُب (ص:٥١)، مجاز القرآن، لأبي عبيدة (٢/٢٨٨)، المخصص (٤/١٧٨).

(٤) مجاز القرآن، لأبي عبيدة (٢/٢٦٥).

(٥) الكشاف (٤/٥٩٠)، "بيض الإناء: ملأه وفرغه. وعن بعض العرب: ما بقي لهم صميل إلا بيض، أي: سقاء يابس إلا مليء" أساس البلاغة، مادة: (بيض) (١/٨٦)، حاشية الطيبي (١٥/٥٨٤).

و"الصريم من الأضداد؛ يقال لليل: صريم، وللنهار: صريم؛ لأن كل واحد منهما يتصرم من صاحبه.." [(١)]. فالصرَّم: القَطعُ البائن، قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "صرمت الشيء صرمًا: إذا قطعتَه. وصَرَمْتُ الرجلَ صَرْمًا: إذا قطعت كلامه. والاسم الصُرْمُ. وصَرَمَ النخلَ، أي: جَدَّهُ. وأَصْرَمَ النخلُ، أي: حان له أن يُصْرَمَ. واصْطِرامُ النخل: اجترامه. والانْصِرامُ: الانقطاعُ. والتَصارُمُ: التقاطع. والتَصَرُّمُ: التقطع. قال: والصَرِيمُ: المجدود المقطوع" [(٢)]. وقد استعمل اللفظ في دلالتي الصباح والليل؛ لأن كل واحد منهما ينصرم عن صاحبه. فقيل: الأَصْرَمان: لليلُ والنَّهَارُ.

قال في (العين): "والصَّرْمُ: قَطعٌ بائِنٌ لحَبْل وعِذْقٍ ونحوه. والصِّرامُ: وقت صِرام النّخْل، وصَرَمَ العِذْقُ عن النَّخْلة، وأصْرَمَ النَّخْلُ: اذا حان وقتُ اصِطِرامِه. والصَّريمة: إحكامُكَ أمرًا والعَزْمُ عليه. وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ ٢٠﴾ [القلم:٢٠]، أي: كاللَّيل. وتَصَرَّمَتِ الأيَّام والسَّنَةُ والأمر، أي: انقَضَى. وانصَرَمَ الأَمرُ والشيء: اذا انقطع فذَهَبَ" [(٣)].

قال إبراهيم الحربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أخبرنا سلمة، عن الفراء رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿كَٱلصَّرِيمِ ٢٠﴾: كالليل المسود.

وأخبرنا الأثرم، عن أبي عبيدة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿كَٱلصَّرِيمِ ٢٠﴾: ما انصرم من الليل، الصريم: الليل، والصريم الصبح قال بشر بن أبي خازم:

فَبَاتَ يقُولُ أَصْبِحْ لَيْلُ حتَّى ... تَجَلَّى عن صَرِيمَتِهِ الظَّلامُ [(٤)]

(١) انظر: الأضداد، لأبي بكر بن الأنباري (ص:٨٤-٨٥).

(٢) الصحاح، مادة: (صرم) (٥/١٩٦٥- ١٩٦٦).

(٣) انظر: العين، مادة: (صرم) (٧/١٢٠-١٢١).

(٤) غريب الحديث، لأبي إسحاق إبراهيم الحربي (٣/١٢٠٠-١٢٠١).

وقال الفراء رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ ٢٠﴾، أي: كالليل المسود، ونحوه قول الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1].

ضحى :

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ٩٨﴾ [الأعراف:٩٨].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى ٥٩﴾ [طه:٥٩].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ١١٩﴾ [طه:١١٩].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ٢٩﴾ [النازعات:٢٩].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ٤٦﴾ [النازعات:٤٦].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ١﴾ [الشمس:١].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ٢﴾ [الضحى:١-٢].

ضَحْوَةُ النهار: بعد طلوع الشمس، ثم بعده: الضُحى، وهي حين تشرق الشمس، مقصورة تُؤَنَّثُ وتُذَكَّر، فمن أَنَّثَ ذهب إلى أنها جمع: ضحوة، ومن ذَكَّرَ ذَهَبَ إلى أنه اسم على فُعَلٍ، مثل: صُرَدٍ وَنُغَرٍ.

وهو ظرف غير مُتَمَكِّنٍ مِثْلُ: سَحَرٍ، تقول: تقول: لَقِيتُه ضُحًى وضُحَى، إذا أردت به ضُحى يومك لم تُنَوِّنْه.

وقيل: ضُحىً مصروفٌ على كلِّ حالٍ.

---

(١) معاني القرآن، للفراء (٣/١٧٥)، معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٥/٢٠٨).

ثم بعده الضَّحَاءُ ممدود مُذَكَّر، وهو عند ارتفاع النهار الأعلى. تقول منه: أقمت بالمكان حتى أضحيت، كما تقول من الصباح: أصبحت. والضحاء أيضًا: الغداء، وإنما سمّي بذلك؛ لأنه يؤكل في الضَحاء. و(أضْحَى) فلانٌ يَفْعَلُ كذا كما تقولُ: ظلَّ يفعَلُ كذا. و(ضَحَّى) بشاةٍ من الأضحية، وهي شاةٌ تُذْبَحُ يوم الأضحى.

يقال: (أُضْحِيَّة) -بضمِّ الهمزة وكسرها- والجمع: أضاحِيُّ.

و(ضَحِيَّةٌ) على فَعِيلَة، والجمع: (ضَحَايَا). و(أَضْحَاة) والجمع: (أَضْحًى)، كَأَرْطَأَةٍ وأَرْطًى، وبها سُمِيَّ يوم الأضْحَى. والأضْحَى يُذَكَّرُ وَيُؤَنَّثُ، فمنْ ذَكَّرَ ذهب إلى العِيد واليوم.. [١].

وفي (العين): الضَّحْوُ: ارتفاعُ النَّهار، والضُّحى: فويق ذلك، وضَحِيَ الرَّجلُ ضَحًى: أصابه حرُّ الشَّمس. قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ١١٩﴾ [طه:١١٩]، أي: لا يؤذيك حرُّ الشّمس. وقد تُسَمَّى الشَّمس: الضَّحاء -ممدود-. وتقول: اضْحَ، أي: ابرُزْ للشمس. ضحا يضحو ضُحُوًّا وضَحِيَ يَضْحَى ضَحًى وضُحِيًّا. وضَحِّ الأُضْحِية، وأَضْحِ بصلاة الضُّحَى إضحاءً، أي: أخِّرها إلى ارتفاع الضُّحَى. وهَلُمَّ نتضحَى، أي: نتغدَّى. وتَضَحَّتِ الإبِلُ: أخذت في الرَّعي من أوَّل النَّهار، وتعشَّت: رَعَتْ باللَّيل. يقال: ضَحْها وعَشِها. والضَّاحية من كلِّ بلدةٍ: ناحيتها البارزة.." [٢].

وقال الراغب رَحِمَهُٱللَّهُ: "الضحى: انبساط الشمس، وامتداد النهار، وسمي الوقت به. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ١﴾ [الشمس:١]، ﴿ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ٤٦﴾ [النازعات:٤٦]، ﴿وَٱلضُّحَىٰ ١ وَٱلَّيْلِ﴾ [الضحى:١-٢]، ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا

---

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (ضحا) (٦/٢٤٠٦)، وانظر: غريب الحديث، لأبي عبيد (٤/٢٩١-٢٩٢)، تهذيب اللغة (٥/٩٨)، المخصص (٥/١٤٩).

(٢) العين، مادة: (ضحو) (٣/٢٦٥)، وانظر: المحكم والمحيط الأعظم، مادة: (ضحو) (٣/٤٧٠-٤٧١).

﴿٢٩﴾ [النازعات:٢٩]، ﴿وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ٥٩﴾ [طه:٥٩]، وضحى يضحى: تعرض للشمس. قال: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ١١٩﴾ [طه:١١٩]، أي: لك أن تتصون من حر الشمس.." (١).

قال الفرّاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ١﴾ [الشمس:١]: "ضحاها: نهارها، وكذلك قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ١﴾ [الضحى:١]، هو النهار كله" (٢).

وقال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "معنى: ﴿وَضُحَىٰهَا ١﴾ [الشمس:١]: وضيائِها. وقيل ضحاها النهار" (٣).

وقال في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ١﴾ [الضحى:١]: "النهار، وقيل: ساعة من ساعات النهار" (٤).

فقابل بين الضحى وبين الليل إذا سجى؛ ولذلك قالوا: إن المراد من الضحى في الآية: النهار؛ لقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ٢﴾ [الضحى:٢] فقابله بالليل. وفي (سورة الأعراف): ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ٩٧ أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ٩٨﴾ [الأعراف:٩٧-٩٨]، أي: نهارًا. وقال قتادة ومقاتل وجعفر الصادق: أقسم بالضحى الذي كلم الله عَزَّ وَجَلَّ فيه موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وبليلة المعراج. وقيل: هي الساعة التي خر فيها السحرة سجدًا. بيانه قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى ٥٩﴾ [طه:٥٩]. وقال أهل المعاني فيه وفي أمثاله: فيه إضمار، مجازه: ورب الضحى. و﴿سَجَىٰ ٢﴾ معناه: سكن، قاله قتادة ومجاهد وابن زيد وعكرمة رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ. يقال: ليلة ساجية، أي:

---

(١) المفردات في غريب القرآن، مادة: (ضحى) (ص:٥٠٢).

(٢) معاني القرآن، للفراء (٣/٢٦٦).

(٣) معاني القرآن وإعراب، للزجاج (٥/٣٣١).

(٤) معاني القرآن وإعراب، للزجاج (٥/٣٣٩).

ساكنة. ويقال للعين إذا سكن طرفها: ساجية. يقال: سجا الليل يسجو سجوا: إذا سكن. والبحر إذا سجا: سكن" (١).

والأضحية: المنحورة يوم الأضحى وما يليه، أفعولة (٢) من ضحى يضحى: إذا برز للشمس؛ لأنها تنحر ظاهرة عند ضحوة.

فالأضحية لغة: اسم لما يذبح وقت الضحى، ثم كثر حتى صار اسمًا لما يذبح في أي وقت كان من أيام الأضحى، من تسمية الشيء باسم وقته. وشرعًا: ذبح حيوان مخصوص، في وقت مخصوص، بنية القربة (٣).

فالأضحية: اسم لما يذبح في أيام النحر (من يوم العيد إلى آخر أيام التشريق)؛ بِنِيَّة القربة إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

قال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يقال: أضحية، وإضحية -بالضم والكسر مشددة الياء-، وجمعها: أضاحي -مشدد الآخر-. وضَحِيَّة وجمعها: ضحايا، وأضحاه وجمعها: أَضْحىً وأضاحٍ، ومنه قيل: يوم الأضحى، ومنه سميت بذلك. وقيل: سميت بذلك اليوم؛ لأن وقتها وقت ضحى النهار، وهو ارتفاعه" (٤).

---

(١) تفسير القرطبي (٢٠/٩١).

(٢) "أفعولة، أصله أضحوية، اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون، فقلبت الواو ياء، وأدغمت الياء في الياء، وكسرت الحاء؛ لثبات الياء. وتجمع على: أضاحي بتشديد الياء كما في (العناية). ونقل في (الشرنبلالية) أن فيها ثماني لغات: أضحية بضم الهمزة وكسرها مع تشديد الياء، وتخفيفها، وضحية بلا همزة بفتح الضاد وكسرها، وأضحاة بفتح الهمزة وكسرها" رد المحتار على الدر المختار (٦/٣١١).

(٣) اللباب في شرح الكتاب (٣/٢٣٢)، العناية شرح الهداية (٩/٥٠٥)، البناية شرح الهداية (١٢/٣)، درر الحكام (١/٢٦٥)، مجمع الأنهر (٢/٥١٦)، رد المحتار على الدر المختار (٦/٣١١- ٣١٢).

(٤) إكمال المعلم بفوائد مسلم (٦/٣٩٨)، وانظر: نجاح القاري (ص:١٩٥٣٠)، إرشاد الساري (٨/ ٢٩٨)، شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك (٣/١٠٦).

والذبح كذلك -بكسر الذال-: اسم لما يذبح، وبالنصب مصدر [١].

ومن خصائص القرآن الكريم: مراعاة العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه، كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى:١-٣]، فالعلاقة تشبيه نور الوحي بالضحى، وانقطاعه بظلام الليل، وهو من لطائف القسم.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فتأمَّلْ مطابقةَ هذا القسم، وهو نور الضحى الذي يوافي بعد ظلام الليل للمُقْسَم عليه، وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه حتى قال أعداؤه : (ودَّعَ محمدًا ربُّهُ)[٢]، فأقسَمَ بضوء النَّهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحي ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه.

وأيضًا فإنَّ الذي فَلَقَ ظلمةَ الليل عن ضوء النهار هو الذي فَلَقَ ظلمة الجهل والشرك بنور الوحي والنبوة، فهذان للحِسِّ، وهذان للعقل. وأيضًا: فإن الذي اقتضت رحمته أن لا يترك عباده في ظلمة الليل سرمدًا، بل هداهم بضوء النهار إلى مصالحهم ومعايشهم، لا يليق به أن يتركهم في ظلمة الجهل والغي، بل يهديهم بنور الوحي والنبوة إلى مصالح دنياهم وآخرتهم.

فتأمَّلْ حُسْنَ ارتباط المقْسَم به بالمقْسَم عليه، وتأمل هذه الجزالةَ والرَّونقَ الذي على هذه الألفاظ، والجلالةَ التي على معانيها" [٣].

(١) انظر: التعريفات (ص:٢٩)، التوقيف على مهمات التعاريف (ص:٥٤)، وانظر: فيض القدير (٦/٩٣).

(٢) أخرجه مسلم في (صحيحه) [٤٧٥٧].

(٣) التبيان في أيمان القرآن، لابن القيم (٢/١١٠-١١١)، وانظر: الإتقان (٢/٣٥٥).

ظهر وبيان المراد من الإبراد :

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾ [النور:٥٨].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ۝١٨﴾ [الروم:١٧-١٨].

قال في (العين): "الظُّهْرُ: ساعةُ الزَّوال [١]، ومنه يُقالُ: صلاةُ الظُّهْر. والظَّهيرةُ: حدُّ انْتِصافِ النَّهار" [٢]، والظهر مشتق منها. قال في (التهذيب): هما واحد.

قال الأصمعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقال: جاء فلان مُظَهِّرًا أي: جاء في الظَّهيرة [٣].

وقد يحذفون على السعة فيقولون: هذه الظهر، يريدون: صلاة الظهر. وأتاني مُظَهِّرًا ومُظْهِرًا، أي: في الظَّهيرَة [٤].

وفي (المفردات): "الظهيرة: وقت الظهر وأظهر فلان حصل في ذلك الوقت، على بناء أصبح وأمسى ..." [٥].

وقال مجد الدين ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "في أسماء الله عَزَّوَجَلَّ: (الظاهر)، وهو الذي ظهر فوق كل شيء وعلا عليه.

---

(١) أي: زوال الشمس من كبد السماء.

(٢) العين، مادة: (ظهر) (٤/٣٧).

(٣) تهذيب اللغة (٦/١٣٦)، وانظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (ظهر) (٢/٧٣١-٧٣٢).

(٤) انظر: المحكم والمحيط الأعظم (٤/٢٩٠)، وانظر: الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي (ص:٤٩).

(٥) المفردات في غريب القرآن، مادة: (ظهر) (ص:٥٤١).

وقيل: هو الذي عرف بطرق الاستدلال العقلي بما ظهر لهم من آثار أفعاله وأوصافه.

و(صلاة الظهر) وهو اسم لنصف النهار، سمي به من ظهيرة الشمس، وهو شدة حرها.

وقيل: أضيفت إليه؛ لأنه أظهر أوقات الصلاة للأبصار.

وقيل: أظهرها حرًّا.

وقيل: لأنها أول صلاة أظهرت وصليت.

وقد تكرر ذكر (الظهيرة) في الحديث، وهو شدة الحر نصف النهار. ولا يقال في الشتاء ظهيرة. وأظهرنا: إذا دخلنا في وقت الظهر، كأصبحنا وأمسينا في الصباح والمساء. وتجمع الظهيرة على الظهائر..." [(١)].

وفي الحديث: عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**وقت الظهر: إذا زالت الشمس وكان ظل الرجل كطوله، ما لم يحضر العصر، ووقت العصر: ما لم تصفر الشمس، ووقت صلاة المغرب: ما لم يغب الشفق، ووقت صلاة العشاء: إلى نصف الليل الأوسط، ووقت صلاة الصبح: من طلوع الفجر ما لم تطلع الشمس، فإذا طلعت الشمس فأمسك عن الصلاة؛ فإنها تطلع بين قرني شيطان**» [(٢)].

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أن النبي** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **كان يصلي الجمعة حين تميل الشمس**» [(٣)].

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (ظهر) (٣/١٦٤).

(٢) صحيح مسلم [٦١٢].

(٣) صحيح البخاري [٩٠٤].

الإبراد :

وأريد به هنا: الإبراد في الاصطلاح الشرعي، وهو الذي جاء النص عليه في أكثر من حديث، فمن ذلك: ما رواه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا اشتدَّ الحرُّ فأبردوا عن الصلاة؛ فإنَّ شِدَّةَ الحْرِّ من فَيْحِ جَهَنَّم**» (١).

وعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أذن مؤذن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الظهر، فقال: «**أبرد أبرد**»، أو قال: «**انتظر انتظر**»، وقال: «**شدة الحر من فيح جهنم، فإذا اشتد الحر فأبردوا عن الصلاة**» حتى رأينا فيء التلول (٢).

وعن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أبردوا بالظهر؛ فإن شدة الحر من فيح جهنم**» (٣).

قال الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ: "الإبراد: الدخول في البرد. كقولك: أظهرنا وأفجرنا. والباء للتعدية. فالمعنى: ادخلوا الصلاة في البرد" (٤).

وفي (النهاية): "وأما الحديث الآخر: «**أبردوا بالظهر**» فالإبراد: انكسار الوهج والحر، وهو من الإبراد: الدخول في البرد. وقيل معناه: صلوها في أول وقتها، من برد النهار وهو أوله" (٥).

وقال غير واحد: قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَبْرِدُوا**» أي: افعلوها في وقت البرد، وهو الزَّمان الذي يتبين فيه شدة انكسار الحر؛ لأن شدة الحر تذهب الخشوع، قال ابن التين

---

(١) صحيح البخاري [٥٣٣، ٥٣٦]، مسلم [٦١٥، ٦١٧].

(٢) صحيح البخاري [٥٣٥، ٥٣٩]، مسلم [٦١٦].

(٣) صحيح البخاري [٥٣٨].

(٤) الفائق في غريب الحديث والأثر، للزمخشري (١/٩١).

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر (١/١١٤).

رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**أَبْرِدُوا**» أي: ادخلوا في وقت الإبراد، مثل: أظلم دخل في الظلام، وأمسى دخل في المساء" (١).

وكان حد التأخير غالبًا: أن يظهر الفيء للجدر.

قالوا: وتأخيرها عن وقتها على سبيل الندب إلى أن يصير للحيطان ظل يمشي فيه قاصد الجماعة من محل بعيد، بشرط: عدم وجود ظل يمشي فيه، وأن لا يجاوز به نصف الوقت، وأن يكون بقطر حار.." (٢). وقال الفقهاء: يندب الإبراد بالظهر في شدة الحر بقطر حار، لا بالجمعة؛ لشدة الخطر في فواتها المؤدي إليه تأخيرها بالتكاسل، ولأن الناس مأمورون بالتبكير إليها، فلا يتأذون بالحر (٣).

وقال الإمام ابن دقيق العيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا اشتد الحر فأبردوا بالصلاة**» الكلام عليه من وجوه:

أحدها: (الإبراد): أن تؤخر الصلاة عن أول الوقت مقدار ما يظهر للحيطان ظل، ولا يحتاج إلى المشي في الشمس. هذا ما ذكره بعض مصنفي الشافعية.

وعند المالكية: يؤخر الظهر إلى أن يصير الفيء أكثر من ذراع.

الثاني: اختلف الفقهاء في الإبراد بالظهر في شدة الحر: هل هو سنة، أو رخصة؛ وعبر بعضهم بأن قال: هل الأفضل التقديم أو الإبراد؟ وبنوا على ذلك: أن من صلى في

(١) انظر: التوضيح لشرح الجامع الصحيح، لابن الملقن (٦/١٤٤)، عمدة القاري، للبدر العيني (٥/٢٠)، منحة الباري، لزكريا الأنصاري (٢/٢٥٣).

(٢) انظر: فيض القدير (١/٧٦).

(٣) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٢/١٧٤).

بيته، أو مشى في كِنٍّ [(١)] إلى المسجد: هل يسن له الإبراد؟ فإن قلنا: إنه رخصة لم يسن؛ إذ لا مشقة عليه في التعجيل، وإن قلنا: إنه سنة أبرد. والأقرب: أنه سنة؛ لورود الأمر به، مع ما اقترن به من العلة، وهو أن «**شدة الحر من فيح جهنم**»، وذلك مناسب للتأخير، والأحاديث الدالة على فضيلة التعجيل عامة أو مطلقة، وهذا خاص.

ولا مبالاة مع ما ذكرناه من صيغة الأمر ومناسبة العلة بقول من قال: إن التعجيل أفضل؛ لأنه أكثر مشقة؛ فإن مراتب الثواب إنما يرجع فيها إلى النصوص، وقد يترجح بعض العبادة الخفيفة على ما هو أشق منها بحسب المصالح المتعلقة بها" [(٢)].

وقوله: «**حتى رأينا فيء التلول**» يدل على زيادة التأخير بالإبراد؛ إذ التلول لا يظهر ظلها إلا بعد تمكن الفيء وطوله بخلاف الأشياء المنبسطة؛ فإن ظهور ظلها سريع.

وقال في (طرح التثريب): "ذكر أصحابنا الشافعية أن الإبراد بالظهر يكون بقدر ما يبقى للحيطان ظل يمشي فيه الساعي للجماعة، قالوا: ولا ينبغي أن يؤخر عن النصف الأول من الوقت قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الأم): ولا يبلغ بتأخيرها آخر وقتها، فيصليهما جميعًا معًا، ولكن بقدر ما يعلم أنه يصليها متمهلًا فينصرف منها قبل آخر وقتها؛ ليكون بين انصرافه منها وبين آخر وقتها فصل..[(٣)].

وكذا قال الحنابلة وقدر المالكية التأخير بزيادة على ربع القامة إلى نصف الوقت.

---

(١) الكِنُّ: السُترة، والجمع: أكْنانٌ. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ [النحل:٨١]. والأَكِنَّةُ: الأغطية. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ [الأنعام:٢٥]، الواحد: كِنانٌ. الصحاح، للجوهري، مادة: (كنن) (٦/٢١٨٨).

(٢) إحكام الإحكام شرح عمدة الأحكام (١/٢٩٣).

(٣) انظر: الأم، للإمام الشافعي (١/٩١).

واختلفوا هل ينتهي بالإبراد إلى آخر الوقت أم لا؟ فمنعه أشهب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأجازه ابن عبد الحكم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ويدل له قوله في رواية البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**حَتَّى سَاوَى الظِّلُّ التُّلُولَ**» "[1].

وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من فيح جهنم**» أي: شدة غليانها، وانتشار حرها.

قال العلامة السندي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والجمهور حمله على الحقيقة؛ إذ لا يستبعد مثله. وقيل: خرج مخرج التشبيه والتقريب، أي: كأنه نار جهنم في الحرِّ؛ فاحذروها واجتنبوا ضرها" [2].

وبناء على ما تقدم فإن الحكمة من الأمر بالإبراد بصلاة الظهر وإن كان على سبيل الندب فهي ظاهرة، وهي لأجل أداء الصلاة على أتم وجه من الخشوع وحضور القلب، ولا يكون ذلك إلا إذا المصلي غير منشغل عن الصلاة بشيء.

هذا الوجه الأول، وأما الوجه الثاني فإن الإبراد أسلم للمصلِّي من الأذى الذي قد يترتب على المشي إلى الصلاة في اشتداد حرِّ الشمس.

وفي الحديث: عن عقبة بن عامر الجهني رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول: «**ثلاث ساعات كان رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **ينهانا أن نصلي فيهن، أو أن نقبر فيهن موتانا: حين تطلع الشمس بازغة حتى ترتفع، وحين يقوم قائم الظهيرة حتى تميل الشمس، وحين تضيف الشمس للغروب حتى تغرب**» [3].

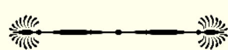
---

(١) صحيح البخاري [٦٢٩]. انظر: طرح التثريب في شرح التقريب (٢/١٦٠)، وانظر: عارضة الأحوذي، لأبي بكر بن العربي (١/٢٦٨-٢٦٩).

(٢) انظر: حاشية السندي على سنن ابن ماجه (١/٢٣١-٢٣٢)، وانظر: حاشية السندي على سنن النسائي (١/٢٤٨-٢٤٩).

(٣) صحيح مسلم [٨٣١].

عشاء وعشي:



العَشاء -بفتح العين-: طعام العشي، جاء في الحديث: عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا وضع عَشَاءُ أحدكم وأقيمت الصلاة، فابدءوا بالعَشَاءِ ولا يعجل حتى يفرغ منه**» (١).

والعِشاءُ -بكسر العين- هو أوَّلُ ظلام اللَّيلِ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يوسف:١٦].

يقال: عشَّيتُ الإبل فتعشَّت: إذا رعيتُها الليل كلَّه. ويقال: العواشي: الإبل والغنم تُرعَى باللَّيل. والعشيُّ، آخر النَّهار، فإذا قلت: عَشِيَّة فهي ليومٍ واحد، تقول: لقيتُه عشيَّةَ يوم كذا، وعشيَّةً من العَشِيّات.

والعَشاءُ ممدود مهموز: الأكلُ في وقت العشيّ. والعِشاءُ عند العامَّة بعد غروب الشّمس من لدُنْ ذلك إلى أن يولِّي صدر اللَّيل، وبعض يقول: إلى طلوع الفجر، والعِشاءان: الْمغرب والعَتَمَة" (٢).

وقال ابن فارس رَحِمَهُ اللَّهُ: "العين والشين والحرف المعتل أصل صحيح يدل على ظلام وقلة وضوح في الشيء، ثم يُفَرَّعُ منه ما يُقَارِبُه، فمن ذلك: العشاء، وهو أول ظلام الليل. وعَشْوَاءُ الليل: ظلمته.

قال: والْعَشِيُّ: آخر النهار. فإذا قلت: عشية فهو ليوم واحد. تقول: لقيته عشية يوم كذا، ولقيته عشية من العشيات. وهذا الذي حكي عن الخليل فهو مذهب، والأصح

---

(١) صحيح البخاري [٦٧٣]، مسلم [٥٥٩].

(٢) انظر: العين، مادة: (عَشَوَ) (٢/١٨٧-١٨٩)، جمهرة اللغة (٢/٨٧٢)، غريب الحديث، لإبراهيم بن إسحاق الحربي (٢/٥٧٥)، تفسير غريب ما في الصحيحين، لأبي عبد الله الحَمِيدي (ص:٢٠٢).

عندنا أن يقال في العشي مثل ما يقال في الْعَشِيَّة. يقال: لَقِيتُهُ عَشِيَّ يوم كذا، كما يقالُ عَشِيَّةَ يوم كذا؛ إذ الْعَشِيُّ إنَّما هو آخِرُ النَّهَار. وقد قِيلَ: كُلُّ ما كان بَعْدَ الزَّوَالِ فهو عَشِيٌّ. وتُصَغَّرُ الْعَشِيَّةُ: عُشَيْشِيَة [(١)]. والعشاءُ -ممدود مهموز بفتح العين- هو الطَّعَامُ الَّذي يُؤْكَلُ من آخِرِ النَّهار وأَوَّلِ اللَّيْلِ.

والْعَشَا -مقصور-: مصدر الْأَعْشَى، والمرأةُ عَشْوَاءُ، ورِجَالٌ عُشْوٌ، وهو الَّذي لا يُبْصِرُ باللَّيْل، وهو بالنَّهارِ بَصِيرٌ. يقال: عَشَى يَعْشِي عَشًى. والعشواء من النوق: التي كأنها لا تبصر ما أمامها فتخبط كل شيء بيديها. وتقول: إنهم لفي عشواء من أمرهم" [(٢)].

وقال في (العين): "والعِشاءُ: أوَّلُ ظلام اللّيلِ، وعشَّيتُ الإبل فتعشَّت: إذا رعيتُها الليلِ كلَّه. قال: العشيّ، آخر النهار، فإذا قلت: عَشِيَّة فهي ليومٍ واحد، تقول: لقيتُه عشيّةَ يوم كذا، وعشيّةً من العَشِيَّاتِ، وإذا صغَّروا العشيَّ قالوا: عُشَيشِيان، وذلك عند الشَّفَى، وهو آخر ساعة من النهار عند مُغَيْرِبان الشّمس. ويجوز في تصغير عَشيَّة: عُشَيَّة، وعُشَيشِيَة. والعَشاءُ [بالفتح] ممدود مهموز: الأكلُ في وقت العشيّ. والعِشاءُ [بالكسر] عند العامَّة بعد غروب الشَّمس من لدُنْ ذلك إلى أن يولِّي صدر الليل، وبعض يقول: إلى طلوع الفجر.." [(٣)].

---

(١) تصغير: عشية. قال سيبويه: صغرت على غير مكبرها. انظر: الكتاب، لسيبويه (٣/٤٨٤).

(٢) مقاييس اللغة، مادة: (عَشَوَ) (٤/٣٢٢)، وانظر: العين (٢/١٨٧-١٨٩)، مشارق الأنوار، للقاضي عياض (٢/١٠٣)، المصباح المنير (٤/٣٢٢).

(٣) انظر: العين، مادة: (عَشَوَ) (٢/١٨٨).

وقال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "العَشِيُّ والعَشِيَّةُ: من صلاة المغرب إلى العَتَمة. تقول: أتيته عَشِيَّ أمس، وعَشِيَّةَ أمس. والعِشَاءُ مكسور ممدود مِثْلُ الْعَشِيّ. قال: العِشاءان: المغربُ والعتمةُ. وزعم قوم أنَّ العِشاءَ من زوال الشمس إلى طلوع الفجر.." (١).

قال الأزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (العشي): ما بين زوال الشمس وغروبها. وصلاتا العشي هما: الظهر والعصر، فإذا غابت الشمس فهو (العشاء). قال أبو عبيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يقال لصلاتي المغرب والعشاء: العشاءان، والأصل العشاء فغلب على المغرب، كما قالوا: الأبوان وهما الأب والأم. ومثله كثير. قال النضر: العشاء: حين يصلي الناس العتمة" (٢).

وقال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "العشي: من حين تزول الشمس إلى أن تغيب. والإبكار من طلوع الفجر إلى وقت الضحى" (٣). قال في (الدر): "وهو المعروف" (٤).

وقال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغير واحد -كما تقدم-: "العشي: من زوال الشمس إلى الصباح.." (٥).

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «**صلى بنا رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **إحدى صلاتي العشي، إما الظهر، وإما العصر، فسلم في ركعتين**...» الحديث (٦).

قال مجد الدين بن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يريد: صلاة الظهر أو العصر؛ لأن ما بعد الزوال إلى المغرب عشي. وقيل: العشي: من زوال الشمس إلى الصباح" (٧).

---

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (عشا) (٦/٢٤٢٦).

(٢) تهذيب اللغة (٣/٣٨)، وانظر: غريب الحديث، لأبي عبيد (٤/١٣١).

(٣) الكشاف (١/٣٦١).

(٤) الدر المصون (٣/١٦٧).

(٥) انظر: المفردات في غريب القرآن، مادة: (عشا) (ص:٥٦٧).

(٦) صحيح البخاري [٤٨٢، ١٢٢٩]، مسلم [٥٧٣]، واللفظ له.

(٧) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر مادة: (عشا) (٣/٢٤٢).

وفي الحديث: عن عبد الله بن مُغَفَّلٍ الْمُزَنِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا تَغْلِبَنَّكُمُ الأعراب على اسم صلاتكم المغرب**»، قال الأعراب: وتقول: هي العِشَاءُ (١).

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تَغْلِبَنَّكُمُ الأعراب على اسم صلاتكم الْعِشَاءِ؛ فإنها في كتاب الله الْعِشَاء، وإنَّهَا تُعْتِمُ بِحِلَابِ الْإِبِلِ**» (٢).

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بِحِلَابِ الْإِبِلِ**»: كانت الأعراب يحلبون الإبل بعد غيبوبة الشفق حين يمد الظلام رواقه، ويسمى ذلك الوقت: العتمة.

وقيل: كانوا يؤخرون الحلاب إلى الظلمة، ويسمون ذلك الوقت: العتمة فهو من باب تسمية الشيء باسم وقته.

وكان ذلك مستفيضًا في اللغة العربية، فلما جاء الإسلام، وتمهدت قواعده، وأكثر المسلمون من أن يقولوا: العتمة بدل: صلاة العشاء قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يغلبنكم الأعراب**» أي: لا تطلقوا هذا الاسم على ما هو متداول بين المسلمين، فيغلب مصطلحهم على الاسم الذي جئتكم به من الله عَزَّ وَجَلَّ (٣).

قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أثقل الصلاة على المنافقين: العشاء والفجر**»، وقال: «**لو يعلمون ما في العتمة والفجر**»، قال أبو عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ: والاختيار: أن يقول: العشاء، لقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾ [النور:٥٨]. ويذكر عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «**كنا نتناوب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند صلاة العشاء فأعتم بها**».

---

(١) صحيح البخاري [٥٦٣].

(٢) صحيح مسلم [٦٤٤].

(٣) انظر: الميسر في شرح مصابيح السنة، للتُّورِبِشْتِي (١/١٨٩-١٩٠)، شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٣/٨٩٩)، مرقاة المفاتيح (٢/٥٤٤).

وقال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وعائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: «**أعتم النبي** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **بالعشاء**». وقال بعضهم، عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: «**أعتم النبي** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **بالعتمة**». وقال جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**كان النبي** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **يصلي العشاء**». وقال أبو برزة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**كان النبي** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **يؤخر العشاء**». وقال أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**أخر النبي** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **العشاء الآخرة**». وقال ابن عمر، وأبو أيوب، وابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ: «**صلى النبي** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **المغرب والعشاء**» (١).

وعن محمد بن عمرو بن الحسن بن علي، قال: قدم الحجاج فسألنا جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا فقال: «**كان النبي** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **يصلي الظهر بالهاجرة، والعصر والشمس نقية، والمغرب إذا وجبت، والعشاء أحيانًا وأحيانًا، إذا رآهم اجتمعوا عجل، وإذا رآهم أبطؤوا أخر، والصبح كانوا -أو كان- النبي** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **يصليها بِغَلَسٍ**» (٢).

(١) صحيح البخاري (١/١١٧). قوله: «نتناوب» أي: نأتي نوبةً بعد نوبة. وقوله: «فأعتم»: أي: دخلَ في العتمة، وهي الظُّلْمَة. وقيل: إنها اسم لثلث الليل الأول بعد غروب الشفق. و«العشاء الآخرة» قيدها بالآخرة احترازًا عن المغرب؛ لأنها قد تسمى: العشاء. قال الحافظ ابن رجب: "مراده: أن العشاء الآخرة تسمى: العشاء، وتسمى: العتمة، وأنه يجوز تسميتها بالعتمة من غير كراهة، وإن كان تسميتها بالعشاء أفضل؛ اتباعًا لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ﴾ [النور:٥٨]، وهذا قول كثير من العلماء، أو أكثرهم، وهو ظاهر كلام أحمد، وقول أكثر أصحابه، وكذا قال الشافعي في (الأم): أحب إليَّ أن لا تسمى العشاء الآخرة: عتمة، وهو قول كثير من أصحابه، أو أكثرهم. ومنهم من قال: يكره أن تسمى: عتمة، وهو وجه ضعيف لأصحابنا" فتح الباري، لابن رجب (٤/٣٦٣).

(٢) صحيح البخاري [٥٦٠، ٥٦٥]، مسلم [٦٤٦]. وقوله: «بالهاجرة» هي شدة الحر نصف النهار عقب الزوال. قيل سميت هاجرة من الهجر، وهو الترك؛ لأن الناس يتركون التصرف حينئذ لشدة الحر ويقيلون. وقوله: «وجبت» أي: غابت الشمس، والوجوب: السقوط، وحذف ذكر الشمس؛ للعلم بها كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ۝٣٢﴾ [ص:٣٢].

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: أعتم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالعشاء حتى ناداه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الصلاة نام النساء والصبيان، فخرج، فقال: «**ما ينتظرها أحد من أهل الأرض غيركم**»، ولم يكن أحد يومئذ يصلي غير أهل المدينة، وكانوا يصلون فيما بين أن يغيب الشفق إلى ثلث الليل الأول (١).

وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شغل عنها ليلة، فأخرها حتى رقدنا في المسجد، ثم استيقظنا، ثم رقدنا، ثم استيقظنا، ثم خرج علينا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم قال: «**ليس أحد من أهل الأرض ينتظر الصلاة غيركم**»، وكان ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**لا يبالي أقدمها أم أخرها، إذا كان لا يخشى أن يغلبه النوم عن وقتها، وكان يرقد قبلها**» (٢).

وعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنت أنا وأصحابي الذين قدموا معي في السفينة نزولًا في بقيع بُطْحَانَ، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمدينة، فكان يتناوب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند صلاة العشاء كل ليلة نفر منهم، فوافقنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنا وأصحابي، وله بعض الشُّغْلِ في بعض أمره، فأعتم بالصلاة حتى ابْهَارَّ الليل، ثم خرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فصلى بهم، فلما قضى صلاته، قال لمن حضره: «**على رِسْلِكُمْ، أبشروا، إن من نعمة الله عليكم، أنه ليس أحد من الناس يصلي هذه الساعة غيركم**»، أو قال: «**ما صلَّى هذه الساعة أحد غيركم**» لا يدري أي الكلمتين قال، قال أبو موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فرجعنا، ففرحنا بما سمعنا من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٣).

---

(١) صحيح البخاري [٥٦٦، ٥٦٩، ٨٦٢، ٨٦٤]، مسلم [٦٣٨].

(٢) صحيح البخاري [٥٧٠].

(٣) صحيح البخاري [٥٦٧]، مسلم [٦٤١].

و«**ابهارَّ النهار**» -بتشديد الراء-، يعني: انتصف، قاله الأصمعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره، وقالوا: وهو مأخوذ من (بُهْرة الشيء) أي: وسطه. وقيل: طلعت نجومه وأضاء (١).

وعن أبي بَرْزَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**أن رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **كان يكره النوم قبل العشاء والحديثَ بعدها**» (٢).

والعشاء -بالفتح كما تقدم-: الطعام الذي يؤكل عند العشاء.

وفي الحديث: عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**إذا وضع العَشَاءُ وأقيمت الصلاة، فابدءوا بالعشاء**» (٣).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إذا قُدِّمَ العَشَاءُ، فابدءوا به قبل أن تصلوا صلاة المغرب، ولا تعجلوا عن عشائكم**» (٤).

وعن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا وضع عشاء أحدكم وأقيمت الصلاة، فابدءوا بالعشاء ولا يعجل حتى يفرغ منه**».

وكان ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «**يوضع له الطعام، وتقام الصلاة، فلا يأتيها حتى يفرغ، وإنه ليسمع قراءة الإمام**» (٥).

---

(١) انظر: غريب الحديث، لأبي عبيد القاسم بن سلام، مادة: (بهر) (٨٣/١)، مشارق الأنوار، للقاضي عياض (ص:١٠٢)، النهاية في غريب الحديث والأثر (١٦٥/١)، مقاييس اللغة (٨٣/١).

(٢) صحيح البخاري [٥٦٨].

(٣) صحيح البخاري [٦٧١، ٥٤٦٥].

(٤) صحيح البخاري [٦٧٢]، مسلم [٥٥٧].

(٥) صحيح البخاري [٦٧٣، ٦٧٤]، مسلم [٥٥٩].

إطلاق العشاءين على المغرب والعشاء:

جاء في الحديث: عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الأحزاب: «**شغلونا عن الصلاة الوسطى، صلاة العصر، ملأ الله بيوتهم وقبورهم نارًا**»، ثم صلاها بين العشاءين، بين المغرب والعشاء(١).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "«**ثم صلاها بين العشاءين**»: بين المغرب والعشاء، فيه: بيان صحة إطلاق لفظ: (العشاءين) على المغرب والعشاء، وقد أنكره بعضهم؛ لأن المغرب لا يسمى عشاء، وهذا غلط؛ لأن التثنية هنا للتغليب، كالأبوين، والقمرين، والعمرين، ونظائرها"(٢). قال العراقي رَحِمَهُ اللَّهُ: "فإن قلت: كيف الجمع بين هذا وبين نهيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن تسمية المغرب عشاء، وقد صرح الفقهاء الشافعية بأنه مكروه؟

قلت: لعل النهي إنما هو عن إفرادها بهذا الاسم، فأما إذا أطلقه عليها مع العشاء على سبيل التغليب فهذا لا ينكر؛ لأنه مجاز خارج عن أصل الوضع على أن هذا الإطلاق هنا ليس مرفوعًا، وإنما هو من كلام الصحابي -والله أعلم-" (٣).

ويستحب إحياء ما بين العشاءين بالصلاة والذكر (٤).

ولا خلاف بين الفقهاء في أن إحياء ما بين المغرب والعشاء مستحب. ويرى كثير منهم أنه مستحب استحبابا مؤكدًا.

---

(١) صحيح مسلم [٦٢٧].

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٥/ ١٣٠).

(٣) طرح التثريب في شرح التقريب (١٧٧/٢).

(٤) انظر: جامع العلوم والحكم، لابن رجب (٥٢٦/٢).

اختلف في عدد ركعات إحياء ما بين العشاءين، فذهب جماعة إلى أن إحياء ما بين العشاءين يكون بست ركعات، وبه أخذ الإمام أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو الراجح من مذهب الحنابلة. وفي رواية عند الحنابلة أنها أربع ركعات، وفي رواية أنها عشرون ركعة.

وذهب الشافعية إلى أن أقلها ركعتان وأكثرها عشرون ركعة.

وذهب المالكية إلى أنه لا حد لأكثرها، ولكن الأولى أن تكون ست ركعات. وينظر ذلك في مظانه. وتسمى هذه الصلاة: صلاة الأوابين، وصلاة الغفلة.

إحياء ما بين العشاءين:

جاء في الحديث: عن حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: أتيت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فصليت معه المغرب فصلى إلى العشاء**» (١).

قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والأحاديث المذكورة في الباب تدل على مشروعية الاستكثار من الصلاة ما بين المغرب والعشاء، والأحاديث وإن كان أكثرها ضعيفًا فهي منتهضة بمجموعها لا سيما في فضائل الأعمال، قال العراقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وممن كان يصلي ما بين المغرب والعشاء من الصحابة: عبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمرو، وسلمان الفارسي، وابن عمر، وأنس بن مالك في ناس من الأنصار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

ومن التابعين: الأسود بن يزيد، وأبو عثمان النهدي، وابن أبي مليكة، وسعيد بن جبير، ومحمد بن المنكدر، وأبو حاتم، وعبد الله بن سخبرة، وعلي بن الحسين، وأبو عبد الرحمن الحبلي، وشريح القاضي، وعبد الله بن مغفل وغيرهم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ. ومن الأئمة: سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ" (٢).

---

(١) أخرجه النسائي في (الكبرى) [٣٧٩]، قال المنذري (٢٢٨/١): "رواه النسائي بإسناد جيد".

(٢) نيل الأوطار (٦٨/٣).

قال المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وإحياء ما بين العشاءين سنة مؤكدة، وإنما رغب في هذه الأحاديث على الصلاة بين العشاءين؛ لأنه إذا واصل بينهما بالصلاة ينغسل عن باطنه آثار الكدورة الحاصلة في أوقات النهار من رؤية الخلق ومخالطتهم، وسماع كلامهم؛ فإن لذلك كله أثرًا وخدشًا في القلب، حتى النظر إليهم يعقب كدرًا في القلب، يدركه من صفا قلبه، ورق حجابه، وبالمواصلة بين العشاءين بالعبادة يرجى ذهاب ذلك الأثر" (١).

عشي في القرآن الكريم :

ذكر لفظ (العشي) في القرآن من غير مقابلة في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ۝٣١﴾ [ص:٣١].

وقوبل لفظ الغداة بالعشي في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الأنعام:٥٢]، وقوله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الكهف:٢٨].

كما قوبل العشي بالإبكار، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ۝٤١﴾ [آل عمران:٤١].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ۝٥٥﴾ [غافر:٥٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١﴾ [مريم:١١].

---

(١) التيسير بشرح الجامع الصغير (٢/٤٢٧)، وانظر: فيض القدير (٦/١٦٧).

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾﴾ [مريم:٦٢].

كما قوبل لفظ بكرة بالأصيل، وهو العشي، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ [الفرقان:٥].

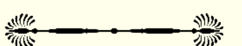
وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب:٤٢].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾ [الفتح:٩].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [الإنسان:٢٥].

كما قوبل العشي بالإشراق في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾ [ص:١٨].

عصر:



العصر: مصدر عصرت، والمعصور: الشيء العصير، والعصارة: نفاية ما يعصر.

واعتصرت من كذا: أخذت ما يجري مجرى العصارة.

والاعتصار: والاعتصار أن يغصَّ الإنسان بطعام فيعتصر بالماء، وهو شربه إياه قليلًا قليلًا؛ ليسيغه.." [(١)].

---

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن، مادة: (عصر) (ص:٥٦٩)، تفسير الراغب (١/٥٦٠)، العين (١/٢٩٤)، الصحاح (٢/٧٤٩).

والعَصْر: الدَّهْر، وفيه لغتان أخريان: عُصْرُ وعُصُر، مثل: عُسْرٍ وَعُسُرٍ. والجمع: عُصُورٌ، أقسم الله عَزَّوَجَلَّ به فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ [العصر:١-٢]، أراد بالعصر: الدهر.

و(الْعَصْرَان): الليل والنهار، وذلك كالقمرين للشمس والقمر.

والعصران أيضًا: الغَدَاة والْعَشِيُّ، ومنه سِمِّيَتْ صلاة (الْعَصْر)؛ لأنَّها تعصر، أي: تُؤَخَّرُ عن الظُّهْر [١].

وقال ابن السِّكِّيتِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في باب ما جاء مثنى: الليل والنهار يقال لهما: العصران. قال: ويقال: العصران: الغداة والعشي [٢].

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "العصر مصدر عصرت العنب، وسمي آخر النهار ومدة من الزمان: عصرًا؛ كأنه مدة عصرت فجمعت، والمعصر: سحاب ذات عصر للمطر.." [٣].

وفي (جمهرة اللغة): "سميت صلاة العصر؛ لأنها تصلى في أحد العصرين، وهو آخر النهار. وقالوا: صلاة العَصْر، وصلاة العَصَر. أخبرنا أبو عثمان الأشناندانى قال: سمعت الأخفش يقول: كنت عند الخليل فسأله رجل عن حدِّ الليل فقال: من ندأة الشفق إلى ندأة الفجر" [٤].

وقد قيل: سميت العصر؛ لأنها تعصر، أي: تؤخَّر، أو لأن الوقت يُعصر.

---

(١) انظر: الصحاح، مادة: (عصر) (٧٤٨/٢-٧٥٠)، العين، مادة: (٢٩٢/١-٢٩٣)، مقاييس اللغة (٣٤١/٤)، الزاهر في معاني كلمات الناس (١٧٠/٢).

(٢) إصلاح المنطق، لابن السِّكِّيت (ص:٢٧٧)، تهذيب اللغة (١٠/٢-١١).

(٣) انظر: تفسير الراغب (٥٦٠/١)، حاشية الطيبي على الكشاف (٥٢٦/٣).

(٤) جمهرة اللغة (٧٣٩/٢)، و(النَّدْأَة): الحُمرة تكون حول الشمس في غروبها أو طلوعها.

وقد قيل: معنى أنها تعصر: وقوعها في آخر النهار، فهي مؤخَّرة عن جميع صلوات النهار، ووقتها مؤخر عن جميع أوقات صلوات النهار، لا لأنها تُعصر عن أول وقتها.

قال أبو بكر ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قال أبو قلابة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سُمِّيت العصرُ؛ لأنها تعصر، فتَعلَّقَ بالاشتقاق. وهذا غيرُ مسلَّمٍ له؛ فإن العصرَ في اللُّغة: الدَّهْر، والعصرُ: وقتٌ من اليوم، وهو الغَدَاة والعَشِي، والعصر: الليل، والعصرُ: النَّهار. ويقال أيضًا: العصران..." (١).

وفي الحديث: «**حَافِظْ على الْعَصْرَيْن: صلاةُ قبلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وصلاةُ قبلَ غروبها**» (٢).

وعند ابن حبان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**حافظوا على الصلوات، وحافظوا على العصرين صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها**» (٣).

قال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يريد بالعصرين: صلاة العصر، وصلاة الصبح. والعرب قد تحمل أحد الاسمين على الآخر، فتجمع بينهما في التسمية؛ طلبًا للتخفيف، كقولهم: سُنَّة العمرين لأبي بكر وعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا. والأسودين يريدون: التمر والماء. والأصل في العصرين عند العرب: الليل والنهار" (٤).

---

(١) المسالِك في شرح مُوَطَّأ مالك (٢/٣٥٦)، عارضة الأحوذي (١/٢٧١).

(٢) أخرجه البخاري في (التاريخ الكبير) (٧/١٢٤)، وأبو داود [٤٢٨]، وابن أبي عاصم في (الآحاد والمثاني) [٩٣٩]، والطحاوي في (شرح مشكل الآثار) [٩٩٦]، والطبراني [٨٢٦]، والرامهرمزي في (أمثال الحديث) (ص:١٥٧)، والحاكم [٧١٧]، وقال: "صحيح على شرط مسلم"، وأقره الذهبي. والبيهقي في (الكبرى) [٢١٨٨].

(٣) صحيح ابن حبان [١٧٤٢].

(٤) معالم السنن (١/١٣٤).

قال مجد الدين ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله: «**حافظ على العصرين**» يريد: صلاة الفجر وصلاة العصر، سماهما العصرين؛ لأنهما يقعان في طرفي العصرين، وهما: الليل والنهار. والأشبه أنه غلب أحد الاسمين على الآخر" (١).

وقيل: "غلب العصر على الفجر؛ لأن رعاية العصر أشد؛ لاشتغال الناس بمصالحهم. وقال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: غلب العصر على الفجر؛ لزيادة فضلها؛ لأنها الوسطى، والغالب في التغليب رعاية الأشرف. وتعقبه المحقق العراقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنه لا حاجة لادِّعاء التغليب؛ لقول صاحب الصحاح: العصران: الغداة والعشي، فالصلاتان واقعتان في نفس العصرين، وخصهما بالأمر؛ لأن وقتها مظنة للاشتغال عنهما" (٢).

وفي (الصحيحين): «**من صَلَّى البَرْدَيْن دخل الجنَّة**» (٣).

قوله: «**البَرْدَيْن**»: تثنية: برد -بفتح الباء الموحدة وسكون الراء-، والمراد بهما: صلاة الفجر والعصر (٤).

قال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قال كثير من العلماء: هما: الفجر والعصر، وسُمِّيا بذلك؛ لأنهما يفعلان في وقتي البرد" (٥).

وقال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لأنهما يصليان في بردي النهار، وهما طرفاه حين يطيب الهواء، وتذهب سَوْرَةُ الحرِّ" (٦).

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/٢٤٦-٢٤٧).

(٢) فيض القدير (٣/٣٦٧).

(٣) صحيح البخاري [٥٧٤]، مسلم [٦٣٥].

(٤) انظر: فتح الباري، لابن حجر (٢/٥٣)، عمدة القاري (٥/٧١).

(٥) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٢/٢٦٢).

(٦) انظر: غريب الحديث، لأبي سليمان الخطابي (١/١٨٥-١٨٨)، فتح الباري، لابن حجر (٢/٥٣)، عمدة القاري (٥/٧١). و(سَوْرَة الحر): وُثُوبُه واشتداده.

وقال المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أي: الفجر والعصر، وخصمهما؛ لكونهما شاقين، فمن واظب عليهما واظب على غيرهما بالأولى" (١).

قال التُّورِبِشْتِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومن المفهوم الواضح أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يخصص هاتين الصلاتين بالمحافظة تسهيلًا للأمر في إضاعة غيرهما من الصلوات، أو ترخيصًا لتأخيرها عن أوقاتها، وإنما أمر بأدائهما في الوقت المختار، والمحافظة عليهما في جماعة؛ لما فيهما من الفضل والزيادة في الأجر؛ فإن صلاة الفجر تشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار؛ قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝٧٨﴾ [الإسراء:٧٨]، وصلاة العصر: هي الصلاة الوسطى؛ نص عليها الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الصحيح، ويجتمع فيها -أيضًا- ملائكة الليل وملائكة النهار.

ثم إن إحداهما تقام في وقت تثاقل النفوس؛ لتراكم الغفلة، واستيلاء النوم، والأخرى تقام عند قيام الأسواق في البلدان، واشتغال الناس بالمعاملات؛ فنبه المكلَّفين على هذه المعاني بزيادة تأكيد" (٢).

وقوله: وصلاة العصر: هي الصلاة الوسطى؛ نص عليها الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الصحيح، يعني: كما جاء في حديث: علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: لما كان يوم الأحزاب قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ملأ الله بيوتهم وقبورهم نارا، شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس**» وهي صلاة العصر (٣).

وكما في حديث: عن عبد الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: حبس المشركون رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن صلاة العصر، حتى احْمَرَّتِ الشَّمْسُ، أو اصْفَرَّتْ، فقال رسول الله

(١) التيسير بشرح الجامع الصغير (٢/ ٣٠٣).
(٢) الميسر في شرح مصابيح السنة (١/١٨٧-١٨٨).
(٣) صحيح البخاري [٢٩٣١، ٤١١١، ٦٣٩٦]، مسلم [٦٢٧].

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**شغلونا عن الصلاة الوسطى، صلاة العصر، ملأ الله أجوافهم، وقبورهم نارًا**»، أو قال: «**حشا الله أجوافهم وقبورهم نارًا**» (١).

وعن أبي يونس، مولى عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أنه قال: أمرتني عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن أكتب لها مصحفًا، وقالت: إذا بلغت هذه الآية فآذني: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة:٢٣٨]، فلما بلغتها آذنتها فَأَمْلَتْ عَلَيَّ: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾، وصلاةِ العصر، ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨﴾ [البقرة:٢٣٨]، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: سمعتها من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٢).

وقوله: ويجتمع فيها -أيضًا- ملائكة الليل وملائكة النهار، يعني: كما جاء في أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون**» (٣).

والصلاة الوسطى على ما تقدم هي صلاة العصر.

وقيل: إن الصلاة الوسطى: صلاة العتمة والصبح.

وقيل: هي الظهر؛ لأنها وسط النهار، والنهار أوله من طلوع الفجر.

وقيل: إنها المغرب؛ لأن الأولى هي الظهر، فتكون المغرب الثالثة، والثالثة من كل خمس هي الوسطى؛ ولأنها وسطى في عدد الركعات ووسطى في الأوقات، فعدد ركعاتها ثلاث، فهي وسطى بين الأربع والاثنين، ووقتها في آخر النهار وأول الليل، خصت من

---

(١) صحيح مسلم [٦٢٨].

(٢) صحيح مسلم [٦٢٩].

(٣) صحيح البخاري [٥٥٥، ٣٢٢٣، ٧٤٢٩، ٧٤٨٦]، مسلم [٦٣٢].

بين الصلاة بأنها الوتر، والله عَزَّوَجَلَّ وتر يحب الوتر، وبأنها تصلى في أول وقتها في جميع الأمصار والأعصار، ويكره تأخيرها عنه.. إلى غير ذلك.

وقيل: إن الصلاة الوسطى هي صلاة العشاء؛ لأنها بين صلاتين لا تقصران، ويستحب تأخيرها، وذلك شاق، فوقع التأكيد في المحافظة عليها.

وقيل: إنها صلاة الجمعة؛ لأن الجمعة خصت بالجمع لها والخطبة فيها، جعلت عيدًا للمسلمين.

وقيل: إنها الصلوات الخمس.

وقيل: إن الصلاة الوسطى غير معينة، فهي مبهمة في الصلوات الخمس؛ ليجتهد في الجميع، كما في ليلة القدر، والساعة التي في يوم الجمعة... إلى غير ذلك.

والحاصل أنه قد اختلف في الصلاة الوسطى على أقوال. وقد جمع الحافظ الدمياطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذلك كتابًا سماه: (كشف الغطا عن الصلاة الوسطى) (١)، وذكر فيها تسعة عشر قولًا (٢).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "كونها العصر هو المعتمد، وبه قال: ابن مسعود، وأبو هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وهو الصحيح من مذهب أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقول أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والذي صار إليه معظم الشافعية؛ لصحة الحديث فيه. قال الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هو قول أكثر علماء الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، وقال الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هو قول جمهور التابعين، وقال ابن عبد البر

---

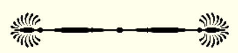
(١) (كشف الغطا عن الصلاة الوسطى)، للحافظ عبد المؤمن الدمياطي. المتوفى سنة: [٧٠٥هـ]. انظر: كشف الظنون (١٤٩٢/٢).

(٢) انظر: نجاح القاري لصحيح البخاري (ص:١٥٥٧٠).

رَحِمَهُ اللَّهُ: هو قول أكثر أهل الأثر، وبه قال من المالكية: ابن حبيب، وابن العربي، وابن عطية رَحِمَهُمُ اللَّهُ" (١).

وقال العسكري رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان الفرق بين الدهر والعصر بعد أن ذكر معنى الدهر: "إن العصر لكل مختلفين معناهما واحد، مثل الشتاء والصيف، والليلة واليوم، والغداة والسحر. يقال لذلك كله: العصر. وقال المبرد رَحِمَهُ اللَّهُ في تأويل قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ [العصر:١-٢] قال: العصر ههنا: الوقت، قال: ويقولون: أهل هذا العصر، كما يقولون أهل هذا الزمان، والعصر اسم للسنين الكثيرة.. وتقول: عاصرت فلانًا، أي: كنت في عصره، أي: زمن حياته.." (٢).

غدو وغدوة:



تقدم أن الغَدْوَة هي المرَّةُ من الغُدُوِّ، وهو سَيْرُ أوَّل النَّهار، نقيض: الرَّواح.

قال الجوهري رَحِمَهُ اللَّهُ: "الْغُدْوَةُ: ما بين صلاة الْغَدَاةِ وطلوع الشمس. يقال: أتيته غُدْوَةَ غير مصروفة؛ لأنها معرفة، مثل: سَحَرَ، إلا أنها من الظروف المتمكنة. تقول: سِيرَ على فَرسك غُدْوَةَ وغُدْوَةً، وغُدْوَةُ وغُدْوَةٌ. فما نون من هذا فهو نكرة، وما لم ينون فهو معرفة، والجمع: غدا. ويقال: آتيك غداة غد. والجمع: الغدوات، مثل: قطاة وقطوات. وقولهم: إن لآتيه بالغَدايا والعَشايا، هو لازدواج الكلام كما قالوا: هنأني الطعام ومَرَأني، وإنَّما هو أَمْرَأني. والغُدُوُّ: نقيض الرواح. وقد غَدا يَغْدو غُدُوًّا. وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿بِٱلْغُدُوِّ

(١) فتح الباري (٨/١٩٦).

(٢) الفروق اللغوية (ص:٢٧١-٢٧٢).

﴿وَٱلۡأٓصَالِ﴾ [الأعراف:٢٠٥]، أي: بالغَدَوات، فعبَّر بالفعل عن الوقت، كما يقال: أتيتك طلوع الشمس، أي: وقت طلوع الشمس" [١].

وقال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الغدوة والغداة من أول النهار، وقوبل في القرآن الغدو بالآصال، نحو قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ [الأعراف:٢٠٥]. وقوبل الغداة بالعشي، قال: ﴿بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾ [الأنعام:٥٢]، ﴿غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ﴾ [سبأ:١٢]. والغادية: السحاب ينشأ غدوة، والغداء: طعام يتناول في ذلك الوقت، وقد غدوت أغدو، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَنِ ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ﴾ [القلم:٢٢]، وغد يقال لليوم الذي يلي يومك الذي أنت فيه، قال: ﴿سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا﴾ [القمر:٢٦]، ونحوه"[٢].

وغدوة معرفة لا تنصرف، كذا في (العين)[٣]؛ لأنها علم وضع للتعريف[٤].

قال الأزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قال النَّحْوِيُّون: إنَّها لَا تُنَوَّن، ولا يدخل فيها الألف واللام، وإذا قالوا: (الغَدَاة) صَرَفوا، قال اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ﴾ [الأنعام:٥٢]؛ وهي قراءةُ جميعِ القُرّاء إلَّا ما رُوي عن ابن عامر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنَّهُ قرأَ بالغُدْوَةِ، وهي شاذة"[٥].

والغَداءُ: ما يؤكل من أول النهار.

قال الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "في لفظ: (الغدو) قولان:

---

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (غدا) (٦/٢٤٤٤).

(٢) المفردات في غريب القرآن، مادة: (غدا) (ص:٦٠٣).

(٣) العين (٤/٤٣٧).

(٤) الكليات (ص:٦٦٦).

(٥) تهذيب اللغة (٨/١٥٥)، وانظر: حجة القراءات، لابن زنجلة (ص:٢٥١)، المحرر الوجيز (٢/٢٩٥).

القول الأول: أنه مصدر، يقال: غدوت أغدو غَدْوًا وغُدُوًّا[(١)]، ومنه: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ:١٢]، أي: غدوها للسير، ثم سمي وقت الغدو: غدوًا، كما يقال: دنا الصباح، أي: وقته، ودنا المساء، أي: وقته.

القول الثاني: أن يكون الغدو جمع: غدوة، قال الليث: الغدو جمع، مثل: الغدوات، وواحد الغدوات: غدوة"[(٢)].

غسق ووقب:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ [الإسراء:٧٨].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾ [الفلق:٣].

الغَسَق: أول ظلمة الليل. وقد غسَق الليل يَغْسِقُ، أي: أظلم. والغاسقُ: الليلُ إذا غاب الشفق. وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾، قال غير واحد: الليل إذا دخل[(٣)]، ويقال: إنه القمر. ووقبت الشمس: غابت. وغَسَقَتْ عينه غَسْقًا: أظلمت. وغَسَقَ الجرح غَسَقانًا: إذا سال منه ماء أصفر. وأغسق المؤذن، أي: أخَّر المغرب إلى غَسَقِ الليل. والغَسَّاقُ: البارد المُنْتِنُ، يخفف ويشدد. وقرأ أبو عمرو رَحِمَهُٱللَّهُ: ﴿إِلَّا حَمِيمًا

---

(١) الغَدْو على هذا: مصدر غَدا يَغْدُو غَدْوًا وغُدُوًّا. ويقال: ألقاه غَدْوًا، في معنى: غَد. كذا في (جمهرة اللغة (٦٧١/١).

(٢) مفاتيح الغيب (٤٤٤/١٥)، وانظر: تهذيب اللغة (١٥٥/٨).

(٣) انظر: تفسير عبد الرزاق (٤٧٦/٣)، تفسير الطبري (٧٠٢/٢٤)، معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٣٧٩/٥)، الهداية إلى بلوغ النهاية (٨٥٠٨/١٢)، التفسير البسيط (٤٥٨/٢٤)، معاني القرآن، للفراء (٣٠١/٣)، غريب الحديث، لأبي عُبيد (١٩٤/٢).

وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ [النبأ:٢٥] بالتخفيف، والكسائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالتشديد. وفسّروا الغَسّاق في التَّنْزِيل بأنه صديد أهل النَّار [١].

وقد قيل: إن معنى: (غساق): الشديدُ البرْدِ الذي يُحْرِقُ من بَرْدِه كإحراق الحميم. وقيل: إن الغساقَ: ما يغسق ويسيل من صديدهم وجلودهم [٢].

وقال الفراء رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ [الإسراء:٧٨]: هو "أوَّل ظلمته للمغرب والعشاء" [٣].

قال الأزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (التهذيب): "﴿غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ عندي: غيبوبة الشفق الأحمر، حين تحل صلاة العشاء الآخرة، يدل على ذلك: سياق الآية.. إلى آخرها، وقد دخلت الصلوات الخمس فيما أمر الله عَزَّوَجَلَّ به، فقال: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾، وهو زوالها، ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾: العشاء الآخرة، فهذه أربع صلوات، ثم قال: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ﴾ تتمة خمس" [٤].

قال ابن قتيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الْغَاسِقُ: الليل؛ والغَسَقُ: الظلْمة. و﴿ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾﴾ أي: دخل في كل شيء. ويقال: الغَاسقُ: القمر إذا كُسف فاسودَّ. ﴿إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾﴾: دخل في الكسوف" [٥].

(١) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (غسق) (١٥٣٧/٤)، المفردات، مادة: (وقب) (ص:٨٧٩)، جمهرة اللغة (٨٤٥/٢).

(٢) انظر: معاني القرآن، للفراء (٤١٠/٢)، معاني القرآن وإعرابه (٣٣٩/٤)، وانظر: تفسير عبد الرزاق (١٢٥/٣)، المفردات في غريب القرآن، للراغب، مادة: (غسق) (ص:٦٠٦)، الكشاف (١٠١/٤)، مقاييس اللغة، لابن فارس (٤٢٥/٤).

(٣) معاني القرآن، للفراء (١٢٩/٢).

(٤) تهذيب اللغة (٣١/٨).

(٥) غريب القرآن، لابن قتيبة (ص:٥٤٢).

قال الأزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (التهذيب): "والصواب في تفسير قوله: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾ [الفلق:٣]: من شر الليل إذا دخل ظلامه في كل شيء، وهو قول الفراء والزجاج رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ؛ وإليه ذهب أهل التفسير.

فقوله: ﴿غَاسِقٍ﴾، يعني به: الليل. ﴿إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾: إذا دَخَل" (١).

قال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقيل لليل غاسقٌ -والله أعلم-؛ لأنه أبرد من النهار" (٢).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وعليه حمل عبد الله بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ۝٥٧﴾ [ص:٥٧]، وقوله: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝٢٤ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۝٢٥﴾ [النبأ:٢٤-٢٥]، قال: هو الزمهرير يحرقهم ببرده كما تحرقهم النار بحرها، وكذلك قال مجاهد ومقاتل هو الذي انتهى برده. ولا تنافي بين القولين؛ فإن الليل بارد مظلم، فمن ذكر برده فقط، أو ظلمته فقط، اقتصر على أحد وصفيه، والظلمة في الآية أنسب لمكان الاستعاذة؛ فإن الشر الذي يناسب الظلمة أولى بالاستعاذة من البرد الذي في الليل؛ ولهذا استعاذ بربِّ الفلق، الذي هو الصبح والنور، من شر الغاسق، الذي هو الظلمة فناسب الوصف المستعاذ به للمعنى المطلوب بالاستعاذة.." (٣).

وفي (صحيح الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ): "قال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿ٱلْفَلَقِ ۝١﴾: الصبح. و﴿غَاسِقٍ﴾: الليل. ﴿إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾: غروب الشمس، يقال: أَبْيَنُ مِنْ فَرَقِ وَفَلَقِ الصُّبْحِ. ﴿وَقَبَ ۝٣﴾: إذا دخل في كل شيء وأظلم" (٤).

(١) تهذيب اللغة (٣٢/٨)، معاني القرآن، للفراء (٣٠١/٣)، معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٣٧٩/٥).

(٢) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٣٧٩/٥).

(٣) بدائع الفوائد (٢١٦/٢-٢١٧).

(٤) صحيح البخاري (١٨١/٦).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله: "وقال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿ٱلْفَلَقِ ①﴾: الصبح. وصله الفريابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ من طريقه، وكذا قال أبو عبيدة رَحِمَهُ ٱللَّهُ. قوله: و﴿غَاسِقٍ﴾: الليل. ﴿إِذَا وَقَبَ ③﴾: غروب الشمس، وصله الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ من طريق: مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ بلفظ: ﴿غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ③﴾: الليل إذا دخل.

قوله: يقال: أَبْيَنُ من فَرَقِ وفَلَقِ الصُّبْح [(١)] هو قول الفراء رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولفظه: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ①﴾: الصبح، وهو أبين من فلق الصبح، وفرق الصبح [(٢)].

قوله: ﴿وَقَبَ ③﴾: إذا دخل في كل شيء وأظلم، هو كلام الفراء رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا.

وجاء في حديث مرفوع: أن الغاسق: القمر، أخرجه الترمذي، والحاكم رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ من طريق: أبي سلمة عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَظَرَ إلى القمر، فقال: «**يا عائشة اسْتَعِيذِي بالله من شَرِّ هذا؛ فَإِنَّ هذا هو الغَاسِقُ إذا وَقَبَ**» [(٣)]، وإسناده حسن" [(٤)].

---

(١) "(فلق الصبح، وفرق الصبح) باللام والراء المفتوحتين، وهذا الأمر أبين من فلق الصبح وفرق الصبح لغتان صحيحتان فصيحتان، ذكرهما أبو العباس ثعلب وغيره، هكذا مضافين إلى الصبح، وهذا إنما يقال في الشيء الواضح البين.." شرح الحديث المقتفى في مبعث النبي المصطفى، لأبي شامة (ص:٨٤-٨٥).

(٢) انظر: معاني القرآن، للفراء (٣/٣٠١).

(٣) أخرجه الطيالسي [١٥٨٩]، وأحمد [٢٤٣٢٣]، وعبد بن حميد [١٥١٧]، والترمذي [٣٣٦٦]، قال: "حسن صحيح". كما أخرجه النسائي في (الكبرى) [١٠٠٦٤]، وأبو يعلى [٤٤٤٠]، والطحاوي في (شرح مشكل الآثار) [١٧٧١]، وابن السني في (عمل اليوم والليلة) [٦٤٨]، وأبو الشيخ (٤/١٢٠٤)، والحاكم [٣٩٨٩] وقال: "صحيح الإسناد"، وأقره الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي في (الدعوات) [٣٦٥].

(٤) فتح الباري، لابن حجر (٨/٧٤١).

قال أبو عبيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حديث النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه لما رأى الشمس قد وقبت قال: «**هذا حينُ حَلِّها**» (١): "قوله: «**حينُ حَلِّها**» يعني: صلاة المغرب. وقوله: وقبت، يعني: غابت ودخلت موضعها، وأصل الوقب: الدخول" (٢).

يقال: وَقَبَ الشَّيْءُ: دَخَلَ في وَقْبَةٍ، وهي كَالنُّقْرَة في الشَّيْءِ. ووقَبَتْ عَيْنَاهُ: غَارَتَا. ووَقَبَ الشَّيْءُ: نَزَلَ ووقَعَ. ووقب الشيء يَقِبُ وَقْبًا، أي: دخل. تقول: وقبت الشمسُ: إذا غابت ودخلت موضعها. ووقَبَ الظلامُ: دخلَ على الناس. ومنه قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾ [الفلق:٣].

قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا دخلَ على الناس. وأوقبت الشيء: إذا أدخلته في الوقبة. وأَوْقَبَ القومُ، أي: جاءوا (٣).

قال قُطْرُب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ويقال: غَسَقَ الليلُ يَغْسِقُ غُسُوقًا وغَسَقًا، أي: أَظْلَمَ. قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾.

وقال كعب بنُ زُهيرٍ:

ظَلَّتْ تـجوبُ يـداها وهي لاهِيةٌ   حتى إذا ذَهَـبَ الإظلامُ والغَسَـقُ" (٤)

---

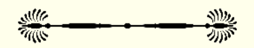
(١) أخرجه أبو عبيد في (غريب الحديث) مرسلًا. انظر: الانتصاف، لابن المنير (٨٢١/٤)، تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف، للزيلعي (٣٣٥/٤). و«حين حَلِّها» برفعِ «حين»، وكسرِ الحاءِ، وجرِّ اللامِ من «حلها». و«حينُ حِلِّها»: الوقتُ الذي يَحِلُّ فيه أداؤها، يعني: صلاة المغرب. و(الوقوب): الدخول في كل شيء. النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (وقب) (٢١٢/٥)، حاشية الطيبي على الكشاف (٦٤٦/١٦)، البارع في اللغة، لأبي علي القالي (ص:٥٠٩).

(٢) غريب الحديث، لأبي عُبيد القاسم بن سلام (١٩٤/٢-١٩٥).

(٣) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (وقب) (٢٣٤/١)، مقاييس اللغة (١٣١/٦).

(٤) الأزمنة وتلبية الجاهلية (ص:٥٣).

غَلَس :



الغَلَسُ: ظَلامُ آخر اللَّيل. وغَلَّسْنا: سِرْنا بغَلَس [١]. قال في (التهذيب): "الغَلَسُ: أوَّلُ الصُّبْح الصادقِ الْمُنْتَشِر في الْآفَاق، وكذلك: الغَبَسُ، وهما: سوادٌ يخالطهُ بياضٌ يضربُ إلى الحُمْرة قليلًا، وكذلك: الصُّبْحُ، وحَرَّةُ غَلاَّسٍ معروفة، وهي إحْدَى الحرار في بلاد العرب" [٢].

والتَغْليسُ خلاف النور، وهو السير من الليل بغَلَسٍ. يقال: غَلَّسْنا الماء، أي: وردناه بغَلَس، وكذلك إذا فعلنا الصلاة بغَلَسٍ، وقولهم: وقع في تُغُلِّسَ، أي: دَاهِيَة، هو من هذا، لأنَّهُ يقعُ في أمْرٍ مُظْلِمٍ لا يَعْرِفُ الْمَخْرَجَ منه [٣].

وفي الحديث: عن أسماء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها نزلت ليلة جمع عند المزدلفة، فقامت تُصَلِّي، فَصَلَّتْ ساعةً ثم قالت: «**يا بُنَيَّ، هل غاب القمر؟**»، قلت: لا، فصلت ساعة ثم قالت: «**يا بُنَيَّ هل غاب القمر؟**»، قلت: نعم، قالت: «**فارتحلوا**»، فارتحلنا ومضينا، حتى رمت الجمرة، ثم رجعت فصلت الصبح في منزلها، فقلت لها: يا هَنْتَاهُ ما أُرَانَا إلَّا قد غَلَّسْنَا، قالت: «**يا بُنَيَّ، إن رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **أَذِنَ لِلظُّعُن**» [٤].

وفي رواية أبي داود رَحِمَهُ اللَّهُ: عن أسماء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها رمت الجمرة، قلت: إنا رمينا الجمرة بليل، قالت: «**إنا كنا نصنع هذا على عهد رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» [٥].

---

(١) العين، مادة: (غلس) (٤/٣٧٨).

(٢) تهذيب اللغة، مادة: (غلس) (٨/٦٩).

(٣) الصحاح، للجوهري، مادة: (غلس) (٣/٩٥٦)، مقاييس اللغة (٤/٣٩٠).

(٤) صحيح البخاري [١٦٧٩]، مسلم [١٢٩١].

(٥) سنن أبي داود [١٩٤٣]، وأخرجه البيهقي في (الكبرى) [٩٥٧٠].

وقوله (يا هَنْتَاه) أي: يا هذه. قال ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وتفتح النون وتسكن، وتضم الهاء الآخرة وتسكن. وفي التثنية: هنتان، وفي الجمع: هنوات وهنات، وفي المذكر: هن وهنان وهنون. ولك أن تلحقها الهاء لبيان الحركة، فتقول: يا هنه، وأن تشبع الحركة فتصير ألفا فتقول: يا هناه، ولك ضم الهاء، فتقول: يا هناه أقبل. قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (هذه اللفظة تختص بالنداء). وقيل: معنى يا هنتاه: يا بلهاء، كأنها نسبت إلى قلة المعرفة بمكايد الناس وشرورهم" (١).

قال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله: لقد غلسنا: أي: رمينا بغلس، وهو أعلى السحر" (٢). قال أبو زيد: "الغلس آخر الليل حين يشتد سواده، ومنه قوله: (غلسنا) أي: فعلنا ذلك وأتيناه ذلك الوقت" (٣).

وقال ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الغلس: ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح.

ومنه حديث الإفاضة: «**كُنَّا نُغَلِّسُ من جَمْعٍ إلى مِنًى**» (٤)، أي: نسير إليها ذلك الوقت. وقد غلس يغلس تغليسًا" (٥).

وقولها «**إن النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **أذن للظعن**» هو بضم الظاء والعين، وبإسكان العين أيضًا، وهنَّ النساء، الواحدة: ظعينة كسفينة وسفن. وأصل الظعينة: الهودج الذي تكون

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (هنا) (٥/٢٧٩-٢٨٠)، وانظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (هنو) (٦/٢٥٣٦-٢٥٣٧).

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم (٤/٣٦٩).

(٣) مشارق الأنوار (٢/١٣٤).

(٤) صحيح مسلم [١٢٩٢].

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (غلس) (٣/٣٧٧).

فيه المرأة على البعير فسميت المرأة به مجازًا، واشتهر هذا المجاز حتى غلب، وخفيت الحقيقة، فأطلق على المرأة مطلقًا. وظعينة الرجل: امرأته (١).

وفي هذا الحديث ما يفيد أنه يجوز للنساء الرمي لجمرة العقبة في النصف الأخير من الليل، ومفهومه أنه لم يأذن بذلك للذكور الأقوياء وفيه خلاف ينظر في مظانه.

قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "و(غلسنا) لفظة محتملة للتأويل، لا يقطع بها؛ لأنه يجوز أن يسمى ما بعد الفجر: غلسًا. واعترض ابن القصار رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال: لو صح قوله: (رمينا قبل الفجر) لكان ظنًّا منه؛ لأنه لما رآها صلت الصبح في دارها ظنَّ أن الرمي كان قبل الفجر، والرمي كان بعد الفجر، فأخرت صلاة الصبح إلى دارها. وقولها: «**هكذا كنا نفعل مع رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» إشارة إلى فعلها، وفعلها يجوز أن يكون بعد الفجر؛ لأنها لم تقل هي: رمينا قبل الفجر، ولا قالت: كنا نرمي معه قبل الفجر؛ لأنه لم ينقل أحد عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه رمى قبل الفجر". قال ابن الملقن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفيه ما لا يخفي" (٢)

وعن محمد بن عمرو بن الحسن بن علي، قال: قدم الحجاج فسألنا جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا فقال: «**كان النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يصلي الظهر بالهاجرة، والعصر والشمس نقية، والمغرب إذا وجبت، والعشاء أحيانًا وأحيانًا، إذا رآهم اجتمعوا عجل، وإذا رآهم أبطؤوا أخر، والصبح كانوا –أو كان– النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يصليها بِغَلَسٍ**» (٣).

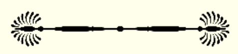
---

(١) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٩/٤٠-٤١)، وانظر: الاستذكار، لابن عبد البر (٤/٢٩٥)، فتح الباري، لابن حجر (٣/٥٢٨).

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٤/٣٥٩)، التوضيح لشرح الجامع الصحيح، لابن الملقن (١١/٥٨٩).

(٣) صحيح البخاري [٥٦٠، ٥٦٥]، مسلم [٦٤٦]. وقوله: «بالهاجرة» هي شدة الحر نصف النهار عقب الزوال. قيل سميت هاجرة من الهجر، وهو الترك؛ لأن الناس يتركون التصرف حينئذ لشدة الحر ويقيلون.=

فجر:



قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة:١٨٧].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ [الإسراء:٧٨].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ [الإسراء:٧٨].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِۚ﴾ [النور:٥٨].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾﴾ [الفجر:١].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿سَلَـٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾ [القدر:٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾﴾ [الفلق:١-٣].

تقدم في (مواضع ودلالات القسم بالزمن في القرآن الكريم) تفسير قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾﴾ [الفجر:١].

=وقوله: «وجبت» أي: غابت الشمس، والوجوب: السقوط، وحذف ذكر الشمس؛ للعلم بها كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾﴾ [ص:٣٢].

والفَجرُ: "ضوءُ الصباحِ، والفَجرُ: الصُّبحُ. والفجرُ: المعروفُ، وما أكثر فَجَرَه، أي: معروفه. والفَجر: تفجيرُكَ الماءَ. والمِفجَرُ: الموضع الذي يَنفَجِرُ منه الماءُ. وانفجرَ عليهم القومُ، وانفجرت عليهم الدَّواهي إذا جاءهم الكثيرُ منها بغتة. والفُجُورُ: الرِّيبةُ، والكذبُ من الفُجُور" (١).

يقال: فَجَرْتُ الماء أفْجُرُهُ -بالضم- فَجْرًا، فانْفَجَرَ، أي: بجستُهُ فانْبَجَسَ. وفَجَّرته شُدِّدَ؛ للكثرة، فَتَفَجَّرَ. والفَجْرُ في آخر اللَّيْلِ كَالشَّفَقِ في أَوَّلِه. وقد أفْجَرْنا، كما تقول: أصبحنا من الصبح. وفَجَرَ فُجورًا، أي: فسق. وفَجَرَ، أي: كذب. وأصله الميل. والفاجر: المائل (٢).

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الفجر: شق الشيء شقًّا واسعًا، يقال: فجرته فانفجر وفجرته فتفجر. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر:١٢]، ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ٣٣﴾ [الكهف:٣٣]، ﴿فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ٩١﴾ [الإسراء:٩١]، ﴿تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ٩٠﴾ [الإسراء:٩٠].

وقرأ الكوفيون ﴿تَفْجُرَ﴾ بفتح التاء وضم الجيم مخفَّفًا، والباقون: بضم التاء وكسر الجيم مشدَّدًا (٣).

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة:٦٠]، ومنه قيل للصبح: فجر؛ لكونه فجر الليل. قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلْفَجْرِ ١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ٢﴾ [الفجر:١-٢]، ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ٧٨﴾ [الإسراء: ٧٨]، وقيل: الفجر فجران: الكاذب، وهو كذنب السرحان (٤)،

(١) العين، مادة: (فجر) (٦/١١١)، وانظر: المحيط في اللغة (٩٢/٧).

(٢) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (فجر) (٢/٧٧٨).

(٣) انظر: حاشية الطيبي على الكشاف (٩/٣٧٦).

(٤) سيأتي بيانه.

والصادق، وبه يتعلق حكم الصوم والصلاة، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ﴾ [البقرة:١٨٧]. والفجور: شق ستر الديانة، يقال: فجر فجورًا فهو فاجر، وجمعه: فجار وفجرة..." (١).

قال أبو منصور الأزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والفجر: الشق، وبه سمِّيَ الصبح: فجرًا؛ لاشتقاق ظلمة الليل عن نور الفجر، إما ساطعًا وإما مستطيرًا" (٢).

وقال في (التهذيب): "ويقال: استطار الغبار: إذا انتشر في الهواء، واستطار الفجر: إذا انتشر في الأفق ضوؤه، فهو مستطير، وهو الصبح الصادق البيِّن الذي يحرم على الصائم الأكل والشرب والجماع، وبه تحل صلاة الفجر، وهو الخيط الأبيض الذي ذكره الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه. وأما الفجر المستطيل -باللام- فهو المستدق الذي يشبه بذنب السرحان، وهو الخيط الأسود، ولا يحرم على الصائم شيئا، وهو الصبح الكاذب عند العرب" (٣).

وقال الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وسمي الصبح: فجرًا؛ لكونه فاجرًا لليل، وهو كاذب لا يتعلق به حكم الصوم والصلاة، وصادق به يتعلق حكمهما" (٤).

---

(١) المفردات في غريب القرآن، مادة: (فجر) (ص: ٦٢٥- ٦٢٦).

(٢) معاني القراءات، للأزهري (١٠٠/٢).

(٣) تهذيب اللغة (١٢/١٤).

(٤) روح المعاني (٣٣٤/١٥).

وفي الحديث: عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«الْفَجْرُ فَجْرَان: فأما الفجر الذي يكون كَذَنَبِ السِّرْحَان، فلا يُحِلُّ الصَّلَاة، ولا يُحَرِّمُ الطَّعَام، وأما الذي يذهب مُسْتَطِيلًا في الأفق فإنَّه يُحِلُّ الصَّلَاةَ وَيُحَرِّمُ الطَّعَامَ»** (١).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«الفجر فجران: فأما الأول فإنه لا يحرم الطعام، ولا يحل الصلاة، وأما الثاني فإنه يحرم الطعام، ويحل الصلاة»** (٢).

وعن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«الفجرُ فَجْرَان، فأمَّا الذي كأنَّه ذَنَبُ السِّرْحَان، فإنَّهُ لا يُحِلُّ شيئًا ولا يُحَرِّمُهُ، ولكن الْمُسْتَطِير»** (٣).

وروي عن محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان مرسلًا (٤).

---

(١) أخرجه الحاكم [٦٨٨]، والبيهقي في (الكبرى) [١٧٦٥]. وقال: "هكذا روى بهذا الإسناد موصولًا، وروي مرسلًا، وهو أصح".

(٢) أخرجه ابن خزيمة [٣٥٦]، والدارقطني [٢١٨٥]، وقال: "لم يرفعه غير أبي أحمد الزبيري عن الثوري، ووقفه الفريابي وغيره عن الثوري، ووقفه أصحاب ابن جريج عنه أيضًا. وأخرجه أيضًا: الحاكم [٦٨٧] وقال: "صحيح على شرط الشيخين"، وأقره الذهبي، وأخرجه أيضًا: البيهقي في (الكبرى) [١٧٦٧]، وقال: "رواه أبو أحمد الزبيري مسندًا، ورواه غيره موقوفًا، والموقوف أصح"، كما أخرجه الخطيب (٥٨/٣)، والديلمي [٤٤٣١]، والضياء [٢٥٦].

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في (مصنفه) [٩٠٧١]: عن ثوبان مرفوعًا.

(٤) أخرجه ابن وهب في (جامعه) [٣٢٨]، وأبو داود في (المراسيل) [٩٧]، وابن جرير الطبري في (التفسير) (٥١٤/٣)، والدارقطني [١٠٥٣]، وقال: هذا مرسل. كما أخرجه البيهقي في (الكبرى) [١٧٦٦].

وروى الدارقطني رَحِمَهُ اللَّهُ: عن عبد الرحمن بن عائش -صاحب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**الفجر فجران: فأما المستطيل في السماء فلا يمنعن السحور، ولا تحل فيه الصلاة، وإذا اعترض فقد حرم الطعام فصل صلاة الغداة**» (١).

والحاصل أن الحديث صحيح بمجموع طرقه.

قسم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الفجر من حيث الحكم إلى قسمين:

الأول: الفجر الكاذب والمستطيل، أي: الصاعد، وهو كذنب السرحان -بكسر السين- وهو الذئب؛ لأن ذَنَبه يمتد مرتفعًا، فهو يشبه ذَنب الذئب في امتداده إلى أعلى الأفق، ثم إنه يذهب، وتعقبه ظُلمة، فهذا الفجر لا تحل فيه صلاة الفجر، ويحل فيه الأكل والشرب للصائم.

والثاني: الفجر الصادق والمستطير، أي: الممتد المنتشر، وهو الذي يكون ممتدًا في الأفق من الشمال إلى الجنوب، ولا ظُلمة بعده، بل يَزداد نُوره شيئًا فشيئًا، حتى ينتشر في الأُفق، فهذا الذي تَحل فيه صلاة الفجر ويحرم فيه الأكل والشرب على الصائم.

قال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "ووقت الصبح من طلوع الفجر ما لم تطلع الشمس، الفجر: هو انصداع البياض من المشرق، وسمي بذلك: لانفجاره؛ أي: لظهوره وخروجه؛ كما ينفجر النهر. وهو اثنان: الكاذب، وهو المسمى: بذنب السرحان، وهو الصاعد المستطيل. والصادق: وهو الممتد المنتشر في الأفق.

وهذا هو الذي يحرم الأكل على الصائم، وتجزئه الصلاة فيه دون الأول بلا خلاف. واختلف في آخر وقت الصبح، فذهب الجمهور وأئمة الفتيا: إلى أن آخر وقتها طلوع أول جرم الشمس، وهو مشهور مذهب مالك رَحِمَهُ اللَّهُ" (٢).

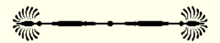
---

(١) سنن الدارقطني [٢١٨٣].

(٢) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٢/٢٣٩).

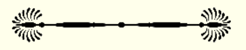
وصلاة الفجر تسمى أيضًا: صلاة الصبح.

فلق:



الفلق: الصبح. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ [الفلق:١]، والله فلقه، أي: أوضحه وأبداه فانفلَقَ. والله يفلُق الحب فيَنْفَلِقُ عن نباته. وسمعته من فَلْقِ فيه. وضَرَبْتُه على فَلْقَ مَفْرِقِه، مفرقه. وفَلَقْتُ الفستقة فانفَلَقَتْ. والفِلْقةُ: الكسرة من الخبز[1]. وقالوا: انْفَلَقَ الصُّبْحُ. وقالوا: عند فَلَق الصُّبْحِ، وفَرَقِ الصُّبْحِ، بالراء. وقالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ من ذلك. والفَلَقُ أيضًا: الطريقُ لفَلَقِ الجَبَلَيْنِ بينهما. وتَمِيمٌ تقول: فَرَقُ الصُّبْح -بالراء-[2].

مبيت وتبييت:



قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ [النساء:٨١].

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [النساء:١٠٨].

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤﴾ [الأعراف:٤].

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝٩٧﴾ [الأعراف:٩٧].

---

(١) العين، مادة: (صبح) (١١١/٦).

(٢) الأزمنة وتلبية الجاهلية، لقُطْرُب (ص:٥٢).

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [يونس:٥٠].

﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾﴾ [الفرقان:٦٤].

﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ [النمل:٤٩].

قال في (العين): "البيتوتة: دُخولُكَ في الليل، تقول: بِتُّ أصنَعُ كذا: إذا كان بالليل، وبالنَّهار: ظَلِلتُ. ومن فَسَّرَ باتَ على النَّوم فقد أخطأَ، ألا تَرَى إنك تقول: بِتُّ أراعي النُّجُوم، معناه: بتُّ أنظرُ إليها، فكيف نامَ وهو ينظر إليها؟! وتقول: أباتَهم اللهُ إباتةً حَسَنةً فباتوا بَيتُوتةً صالحة. وأَتاهُم الأمرُ بَياتًا، أي: أتاهم في جَوْفِ الليلِ، وباتَ يُصَلِّي. والْمَبيتُ يجمع كلَّ المعاني" (١).

قال ابن كيسان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "بات يجوز أن يجري مجرى: نام، وأن يجري مجرى: كان، قاله في باب كان وأخواتها: (ما زال، وما انفك، وما فتىء، وما برح).

وقال الفراء رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ﴾ [النساء:٨١] وفي قراءة عبد الله: «بَيَّتَ مُبَيِّتٌ مِنْهُم» غير الذي تقول. القراءة أن تنصب التاء؛ لأنها على جهة فعل. ومعناه: غيروا ما قالوا وخالفوا، وقد جزمها حمزة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقرأها: ﴿بَيَّتْ طَآئِفَةٌ﴾، جزمها؛ لكثرة الحركات، فلما سكنت التاء اندغمت في الطاء (٢).

وقال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [النساء:١٠٨]، كل ما فكر فيه أو خيض فيه بليل فقد بيت (٣). ويقال: هذا أمر دبر بليل، وبيت بليل بمعنى واحد.

---

(١) العين، مادة: (بيت) (٨/١٣٨-١٣٩).

(٢) انظر: معاني القرآن، للفراء (١/٢٧٩).

(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه (٢/١٠١).

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا﴾ [الأعراف:٤]، أي: ليلًا، والبيت سمي بيتًا؛ لأنه يبات فيه، وبيتهم العدو: إذا جاءهم ليلًا.

وقوله: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾ [النمل:٤٩] أي: لنوقعن به بياتًا، أي: ليلًا.

وقوله: ﴿مَا يُبَيِّتُونَ﴾ [النساء:٨١]، أي: ما يدبرون بالليل" (١).

وقال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ۝٦٤﴾ [الفرقان:٦٤]: "كل من أدركه الليل فقد بات يبيت، نام أو لم ينم، بات فلان البارحة قلقًا، إنما المبيت: إدراك الليل" (٢).

والبيوت: الأمر يبيت عليه صاحبه مهتما به. وبات يَبِيتُ ويَبَاتُ بَيْتوتَةً. تقول: أَباتَكَ الله بخير. وباتَ يفعل كذا: إذا فعله ليلًا، كما يقال: ظلَّ يفعل كذا: إذا فعله نهارًا. وبَيَّتَ العدوَّ، أي: أوقع بهم ليلًا. والاسم: البَياتُ. وبيَّتَ أمرًا، أي: دبَّره ليلًا. ومنه قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [النساء:١٠٨]. وبُيِّتَ الشيء، أي: قدر. وتقول: ماله بيت ليلة -بكسر الباء-، وبيتَةُ ليلةٍ، أي: قوت ليلة" (٣).

وعلى ذلك قوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«من لم يُبَيِّتِ الصِّيَامَ قبل الفجر، فلا صيام له»** (٤).

ولو حلف لا يبيت في مكان كذا، فأقام فيه ولم ينم حنث؛ لأن البيتوتة هو المكث والإقامة. قال نجم الدين النسفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ويقع ذلك على نصف الليل أو أكثر.

---

(١) تهذيب اللغة (١٤/٢٣٧-٢٣٨).

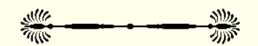
(٢) معاني القرآن وإعرابه (٤/٧٥).

(٣) الصحاح، للجوهري، مادة: (بيت) (١/٢٤٥).

(٤) أخرجه الدارقطني: عن عائشة [٢٢١٣]، وقال: تفرد به عبد الله بن عباد عن المفضل بهذا الإسناد، ورواته كلهم ثقات، وضعفه ابن حبان بعبد الله بن عباد، والحديث له طرق أخرى.

ولو حلف لا يؤويه بيت فعلى قول أبي يوسف رَحِمَهُ ٱللَّهُ الأول لا يحنث إلا بأكثر الليل والنهار؛ لأنه عبارة عن المقام، والمأوى: موضع الإقامة، فأشبه البيتوتة. وفي قول الآخر وهو قول محمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يحنث بساعة؛ لأن الإيواء هو الضم، يقال: أوى إلى فلان يأوي أويًا، أي: انضم إليه، وآواه فلان إلى نفسه إيواء، أي: ضمه.." (١).

مساء:



قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧﴾ [الروم:١٧].

المساءُ: خلاف الصباح. والإمْساءُ: نقيض الاصباح. و(أَمْسَى) (مُمْسًى). قال أمية بن أبي الصلت:

الحمد لله مُمْسَانا ومُصْبَحنا ... بالخير صبَّحنا ربي ومسَّانا (٢)

وهما مصدران وموضعان أيضًا (٣).

قال امرؤ القيس يصف جارية:

(١) طلبة الطلبة، لأبي حفص، نجم الدين النسفي (ص:٧١).

(٢) انظر: ديوان أمية بن أبي الصلت (ص:١٣٤)، وانظر: الكتاب، لسيبويه (٤/ ٩٥)، شرح الأشموني على ألفية ابن مالك (٢/٢٤١)، شرح المفصل، لابن يعيش (٤/٥٨)، شرح المعلقات السبع (ص:٥٧).

(٣) فقوله: (ممسانا ومصبحنا) حيث ورد الاسمان دالين على زمان الحدث، بمعنى: الإمساء والإصباح، وهما على وزن اسم المفعول من الفعل الثلاثي المزيد. وقد يكونان دالين على مصدرين أو موضعين للإمساء والإصباح، فيكونان اسمين للمكان.

تُضيءُ الظَّلامَ بالعِشاءِ كأنَّها … مَنَارَةُ مُمْسَى راهبٍ مُتَبَتِّلِ [١]

يريد: صومعته حيثُ يُمْسي فيها.

والاسم: الْمُسْيُ والصُبْحُ...." [٢].

والْمَسَاءُ ما بين الظُّهْرِ إلى المغرب وأَمْسَيْتُ إمْسَاءً: دَخَلْتُ فِي الْمَسَاء، ومَسَّاهُ اللَّهُ بِخَيْر: دعاءٌ له، كما يقال: صَبَّحَهُ اللَّهُ بالخير [٣].

وفي (العين): "الْمُسيُ: من المساء، كالصُّبْح من الصّباح. والْمُمسَى كالْمُصْبَح. والمساء: بعد الظُّهر إلى صلاة المغرب. وقال بعضٌ: إلى نصفِ اللَّيل. وقول الناس: كيف أمسيت؟ أي: كيف كنت في وقتِ المساء، وكَيْف أصبحت؟ أي: كيف صرتَ في وقت الصُّبح؟ ومسَّيت فلانًا: قلت له: كيف أمسيت. وأمسينا نحن: صِرْنا في وقت المساء" [٤].

وفي الحديث: عن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذا أمسى قال: «**أمسينا وأمسى الملك لله، والحمد لله لا إله إلا الله، وحده لا شريك له**» قال: أراه قال فيهن: «**له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، رب أسألك خير ما في هذه الليلة وخير ما بعدها، وأعوذ بك من شر ما في هذه الليلة وشر ما بعدها، رب**

(١) الإضاءة: قد يكون الفعل المشتق منها لازمًا وقد يكون متعديًّا، تقول: أضاء الله الصبح فأضاء، والضَّوء والضُّوء واحد، والفعل ضاء ضوءًا، وهو لازم. والمنارة: المسرجة، والجمع: المناور والمنائر. الممسى: بمعنى: الإمساء والوقت جميعًا. ديوان امرئ القيس (ص:٤٦).

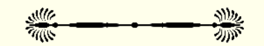
(٢) الصحاح، للجوهري، مادة: (مسا) (٦/٢٤٩٢-٢٤٩٣).

(٣) انظر: كتاب الأفعال، لابن القطَّاع (٣/٢٠٦)، المغرب (ص:٤٤٢)، المصباح المنير (٢/٥٧٤).

(٤) العين (٧/٣٢٣)، وانظر: تهذيب اللغة (١٣/٨٢)، وانظر ما قيل في (الفرق بين البكرة والغداة، والمساء، والعشاء، والعشي، والأصيل) في الفروق اللغوية (١/٢٧٢).

أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر، رب أعوذ بك من عذاب في النار وعذاب في القبر»، وإذا أصبح قال ذلك أيضًا: «**أصبحنا وأصبح الملك لله**» (١).

ناشئة الليل:



قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ [المزمل:٦].

قال أبو عبيدة رَحِمَهُٱللَّهُ: "قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾: ساعات الليل، وهي آناء الليل، ناشئة بعد ناشئة. ﴿أَشَدُّ وَطۡـٔٗا﴾ عليك أشد ركوبًا، وكل شيء تعمله من سير أو صلاة بالليل فهو ﴿أَشَدُّ وَطۡـٔٗا﴾ عليك. ويقال: وطئنا الليل وطئًا فراشًا، أي: مهادًا؛ لأنه يفترش الليل. ﴿وَأَقۡوَمُ قِيلًا ۝٦﴾: أسمع قولًا، إن الليل أسمع" (٢).

وقال الزجاج رَحِمَهُٱللَّهُ: "﴿نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾: ساعات الليل كلها، كلما نَشَأ منه، أي: كل ما حدث منه فهو ناشئة، ومعنى: ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا﴾ أي: أشد مواطأة لتقلب السمع.

ومن قرأ ﴿وَطۡـٔٗا﴾ -بفتح الواو- فمعناه: هي أبلغ في القيام، وأبين في القول.

ويجوز أن يكون ﴿أَشَدُّ وَطۡـٔٗا﴾ أغلظ على الإنسان من القيام بالنهار؛ لأن الليل جُعِلَ لِيُسْكنَ فيه. وقيل: ﴿أَشَدُّ وَطۡـٔٗا﴾ أي: أبلغ في الثواب؛ لأن كل مجتهد فثوابه على قَدْرِ اجتهاده" (٣).

---

(١) صحيح مسلم [٢٧٢٣].

(٢) مجاز القرآن، لأبي عبيدة (٢/٢٧٣).

(٣) معاني القرآن وإعرابه (٥/٢٤٠).

وكل صلاة بعد العشاء الأخيرة فهي ناشئة من الليل، والأمور التي تحدث في ساعة الليل أو ساعاته فهي ناشئة الليل أيضًا (١).

وقال إبراهيم بن إسحاق الحربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "كان أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والحسن، وعلي بن الحسين، والضحاك، والحكم، ومجاهد رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، يقولون: ﴿نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾: أوله، وإليه ذهب الكسائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا، ومجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الناشئة: ما كان بعد نومه.

وقال ابن مسعود، وابن عمر، وابن الزبير رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ، وأبو مالك، ومعاوية بن قرة، وعكرمة، وأبو مجلز، والسدي رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: الليل كله ناشئة، فمتى قمت فقد نشأت.

قال: وأخبرني أبو نصر، عن الأصمعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: خرج السحاب له نشء حسن، وخرج له خروج حسن، وذلك أول ما ينشأ" (٢).

قرأ أبو عمرو وابن عامر رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ: ﴿وِطَاء﴾ بكسر الواو، وفتح الطاء، والمد والهمزة، من المواطأة والموافقة.

وقال الفراء رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "معنى: ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا﴾: يقول: هي أثبت قيامًا. ﴿وَأَقۡوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ يقول: إن النهار يضطرب فيه الناس، ويتقلبون فيه للمعاش، والليل أخلى للقلب، فجعله أقوم قيلًا.

وقال بعضهم: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ﴾ على المصلي من صلاة النهار؛ لأن الليل للنوم، فقال: هي، وإن كانت أشد وطئًا فهي أقوم قيلًا.

---

(١) انظر: الكليات (ص:٨٨٧).

(٢) غريب الحديث لإبراهيم بن إسحاق الحربي (٢/٨٧٩)، وانظر: تهذيب اللغة (١١/٢٨٧-٢٨٨).

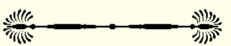
وقرأ بعضهم: ﴿هِيَ أَشَدُّ وِطَاءً﴾ على فعال، يريدون: أشد علاجًا ومواطأة" [١].

وقال ابن قتيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "من قرأ: ﴿وِطَاءً﴾ على تقدير (فعال) فهو مصدر لواطأت فلانًا على كذا مواطأة ووطاء. وأراد: أنَّ القراءة في الليل يتواطأ فيها قلب المصلي ولسانه وسمعه على التَّفهُّم والأداء والاستماع، بأكثر مما يتواطأ عليه بالنهار.

﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ أي: أخلص للقول وأسمع له؛ لأن الليل تهدأ عنه الأصوات، وتنقطع فيه الحركات، فيخلص القول، ولا يكون دون تسمُّعه وتفهُّمه حائل" [٢].

وروى ابن سلام عن يونس: ﴿أَشَدُّ وِطَاءً﴾ قال: ملاءمة ومُوافقة، ومن ذلك قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ [التوبة:٣٧]، أي: ليوافقوا [٣].

هجد :



قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء:٧٩].

قال أبو عبيدة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أي: اسهر بصلاة أو بذكر الله عَزَّوَجَلَّ، وهجدت: نمت أيضًا، وهو الهجود" [٤].

---

(١) معاني القرآن، للفراء (٣/١٩٧)، وانظر: معاني القراءات، للأزهري (٣/٩٩)، تهذيب اللغة (١٤/٣٧)، حجة القراءات (ص:٧٣٠)، السبعة في القراءات (ص:٦٥٨).

(٢) تأويل مشكل القرآن (ص:٢١٥).

(٣) انظر: الحجة للقراء السبعة، لأبي علي الفارسي (٦/٣٣٥)، حجة القراءات (ص:٧٣٠)، التفسير البسيط (٢٢/٣٦٢).

(٤) مجاز القرآن، لأبي عبيدة (١/٣٨٩).

وقال صاحب (العين): "هَجَدَ القومُ هجودًا، أي: ناموا، وتهجَّدوا، أي: استيقظوا لصلاةٍ أو لأمر. وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾، أي: بالقرآن في الصّلاة، أي: انتبهْ بعد النوم نافلة، أي: فضيلة" (١).

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هَجَدَ وتَهَجَّدَ، أي: نام ليلًا. وهَجَدَ وتَهَجَّدَ، أي: سهر، وهو من الأضداد. ومنه قيل لصلاة الليل: التَهَجُّدُ. والتَهْجيدُ: التنويم" (٢).

هجع :

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ١٧﴾ [الذاريات:١٧].

قال في (العين): "الهُجُوعُ: نومُ الليل دُون النَّهار، يقال: لقِيتُهُ بعد هَجْعَة. وقَوْمٌ هُجَّعٌ وهُجُوعٌ وهاجُعونَ، وامرأةٌ هاجِعَةٌ، ونسوةٌ هَواجعُ وهاجِعاتٌ"(٣).

وقولهم: لقيته بعد هجعة من الليل، أي: بعد ساعة منه (٤).

ويقال: أتيت فلانًا بعد هَجْعَةٍ، أي: بعد نومةٍ خفيفة من أوَّل الليل. والهِجْعَةُ منه، كالجِلسة من الجلوس (٥).

---

(١) العين، مادة: (هجد) (٣/٣٨٥).

(٢) الصحاح، للجوهري، مادة: (هجد) (٢/٥٥٥)، وانظر: المفردات في غريب القرآن، مادة: (هجد) (ص:٨٣٢-٨٣٣).

(٣) العين، مادة: (هجع) (١/٩٨).

(٤) انظر: جمهرة اللغة (١/٤٨٦).

(٥) انظر: الصحاح، مادة: (هجع) (٣/١٣٠٥- ١٣٠٦).

وفي حديث الشورى: «**طرقني بعد هَجْعٍ من الليل**» (١)، قال ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الْهَجْعُ وَالْهَجْعَةُ وَالْهَجِيع: طائفة من الليل. والهجوع: النوم ليلًا" (٢).

هَجِيرُ وهَاجِرَة:

الْهَجْرُ والْهَاجِرَةُ والْهَجِيرُ: نِصْفُ النَّهَارِ عِنْدَ اشْتِدَادِ الْحَرِّ. والتَّهْجِير والتَّهَجُّر: السَّيْرُ في الهاجرة، قال لبيد:

راحَ القَطينُ بِهَجْرٍ بَعدَما ابتَكَرُوا ... فَمَا تُواصِلُهُ سَلْمَى ومَا تَذرُ (٣)

وأَهْجَرْنا: صِرْنا في الهَجير، وهَجَّر مثله (٤).

قال قطرب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الهَجِير: نصف النهار" (٥).

قال ابن الأعرابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس يقال له: السَّجْسَج (٦) ومن الزوال إلى العصر يقال له: الهجير والهاجرة (٧).

---

(١) صحيح البخاري [٧٢٠٧].

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (هجع) (٢٤٧/٥)، وانظر: فتح الباري، لابن حجر (١٩٦/١٣).

(٣) ديوان لبيد بن ربيعة العامري (ص:٣٧)، و(القطين): أهل الدار.

(٤) انظر: العين، مادة: (هجر) (٣٨٧/٣)، الصحاح، للجوهري (٨٥١/٢).

(٥) الأزمنة وتلبية الجاهلية (ص:٥٧).

(٦) وفي (الدلائل)، للسرقسطي (٩٠٤/٢): عن عبد الله: "السَّجْسَجُ من الزمان: الذي ليس فيه حر يؤذي، ولا برد يؤذي". وفي (الصحاح) مادة: (سجج) (٣٢١/٣): "ويوم سَجْسَجٌ، لا حَرٌّ مؤذٍ ولا قُرٌّ". و«ظل الجنة سَجْسَج» أي: معتدل لا حَرٌّ ولا قُر" النهاية في غريب الحديث والأثر (٣٤٣/٢).

(٧) انظر: تهذيب اللغة (٢٤٢/١٠).

وفي (المحكم): الهَجِيرُ والهَجِيرَة والهَجْرُ والهاجِرَةُ: نصف النَّهَار عِنْد زوال الشَّمْس مَعَ الظّهْر.

وقيل: من عند زوال الشَّمْس إلى الْعَصْر، وقيل: في كل ذلك: إنَّه شدَّة الحرِّ.

وهَجَّرَ الْقَوْم، وأهْجَروا، وتَهَجَّروا: ساروا في الهاجِرَة" (١)؛ لأن الناس يسكنون في بيوتهم في وقت الهاجرة فكأنهم قد تهاجروا؛ لشدَّة الحرِّ (٢).

وقيل: ويجوز أن تكون سميت هاجرة؛ لأنها أكثر حرًّا من سائر النهار. من قولهم: فلان أهجر من فلان: إذا كان أضخم منه. ويقال للحوض الضخم: هجير فسميت الهاجرة هاجرة؛ لضخامة الحر فيها. ويقال لوقت الحر: هجير أيضًا، فيكون لفظه كلفظ الهجير، إذا عُنِيَ به الحوض الضخم (٣).

وفي الحديث: عن سَيَّارِ بن سَلامَة، قال: دخلت أنا وأبي على أبي برزة الأسلمي، فقال له أبي: كيف كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصلي المكتوبة؟ فقال: «**كان يُصَلِّي الهَجِيرَ، التي تدعونها الأولى، حين تَدْحَضُ الشَّمْسُ، وَيُصَلِّي العَصْرَ، ثم يرجع أحدنا إلى رحله في أقصى المدينة، والشمس حَيَّةٌ** -ونسيت ما قال في المغرب- **وكان يستحب أن يؤخر العشاء، التي تدعونها العَتَمَةَ، وكان يكره النوم قبلها، والحديث بعدها، وكان يَنْفَتِلُ من صلاة الغَدَاةِ حين يعرف الرَّجلُ جليسَه، ويقرأ بالسِّتِّينَ إلى المائة**» (٤).

---

(١) المحكم والمحيط الأعظم، مادة: (هجر) (١٥٧/٤).

(٢) القاموس المحيط، مادة: (هجر) (ص:٤٩٥)، وانظر: الكليات (ص:٩٦١)، نيل الأوطار، للشوكاني (٣٩٢/١).

(٣) انظر: الزاهر في معاني كلمات الناس (٤٠٣/١).

(٤) صحيح البخاري [٥٤٧، ٥٩٩].

قوله: «**حين تَدْحَضُ الشَّمْسُ**»: الدَّحْضُ: الزَلَقُ، كذا في (العين)، يقال: دَحَضَتِ الشَمس عن بطن السَماءِ، أي: زالت. ودَحَضَت حُجَّتُه: أي: بَطَلَتْ [١].

قال ابن قتيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله: «**حين تَدْحَضُ الشَّمْسُ**»: يعني: تزول، وأصل الدحض: الزَّلَقُ. يقال: دحض يدحض دحضًا: إذا زلق، وجعل الشمس تدحض؛ لأنها لا تزال ترتفع من لدن تطلع إلى أن تصير في كبد السماء، ثم تنحط عن الكبد؛ للزوال، فكأنها تزلق في ذلك الوقت، فلا تزال في انحطاط حتى تغرب" [٢].

وقال ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أراد صلاة الهجير، يعني: الظهر، فحذف المضاف" [٣]. يقال: "دحضت الشمس زالت الشمس حية، أي: لم يتغير لونها إلى الاصفرار" [٤].

وعن زيد بن ثابت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: كان رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يصلي الظهر بالهاجرة، ولم يكن يصلي صلاة أشد على أصحاب رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ منها، فنزلت: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة:٢٣٨]، وقال: «**إن قبلها صلاتين، وبعدها صلاتين**» [٥].

---

(١) العين، مادة: (دحض) (٣/١٠١).

(٢) غريب الحديث، لابن قتيبة (١/٣٢٠-٣٢١). قال الإمام النووي: "الدَّحْضُ والزَّلَل والزَّلَقُ والرَّدْغ -بفتح الرَّاء وإسكان الدَّال المهملة وبالغين المعجمة- كُلُّهُ بمعنًى واحد" شرح النووي على صحيح مسلم (٥/٢٠٧).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (هجر) (٥/٢٤٦).

(٤) تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم، لمحمد بن فتوح الأزدي (ص:١٤٠).

(٥) أخرجه أحمد [٢١٥٩٥]، وأبو داود [٤١١]، واللفظ له، والنسائي في (الكبرى) [٣٥٤]، والطبراني في (الكبير) [٤٨٠٨]، والبيهقي [٢١٥٤]، والبغوي في (شرح السنة) [٣٨٩]، من طرق مختلفة.

وقد اختلف في الصلاة الوسطى على أقوال. وقد جمع الحافظ الدمياطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذلك كتابًا سماه: (كشف الغطا عن الصلاة الوسطى) (١)، وذكر فيها تسعة عشر قولًا، منها: قول زيد بن ثابت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنها صلاة الظهر (٢).

وقد ذكرت أهم هذه الأقوال في الحديث عن صلاة العصر.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "كونها العصر هو المعتمد، وبه قال: ابن مسعود، وأبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وهو الصحيح من مذهب أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقول أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والذي صار إليه معظم الشافعية؛ لصحة الحديث فيه. قال الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هو قول أكثر علماء الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وقال الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هو قول جمهور التابعين، وقال ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هو قول أكثر أهل الأثر، وبه قال من المالكية: ابن حبيب، وابن العربي، وابن عطية رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ" (٣).

وعن ابن شهاب، قال: أخبرني سالم، أن الحجاج بن يوسف، عام نزل بابن الزبير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، سأل عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، كيف تصنع في الموقف يوم عرفة؟ فقال سالم: «**إن كنت تريد السنة فَهَجِّرْ بِالصَّلَاةِ يوم عرفة**»، فقال عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «**صدق، إنهم كانوا يجمعون بين الظهر والعصر في السنة**»، فقلت لسالم: أفعل ذلك رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فقال سالم: «**وهل تتبعون في ذلك إلا سُنَّتَه**» (٤).

فقوله: «**فَهَجِّرْ بِالصَّلاة**»، أي: صلها وقت الهجير، وهو شدة الحر.

---

(١) (كشف الغطا عن الصلاة الوسطى)، للحافظ عبد المؤمن الدمياطي. المتوفى سنة: [٧٠٥هـ]. انظر: كشف الظنون (١٤٩٢/٢).

(٢) انظر: نجاح القاري لصحيح البخارِي (ص:١٥٥٧٠).

(٣) فتح الباري (١٩٦/٨).

(٤) صحيح البخاري [١٦٦٢].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لو يعلم الناس ما في النِّدَاءِ والصَّفِّ الأوَّل، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا، ولو يعلمون ما في التَّهْجِيرِ لاستبقوا إليه، ولو يعلمون ما في العتمة والصبح، لأتوهما ولو حبوًا**» (١).

والمراد بالتهجير هنا: التبكير إلى الصلوات. قال ابن الأثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "والْهَجِيرُ والْهَاجِرَةُ: اشتدادُ الحَرِّ نصفَ النهار. والتَّهْجِيرُ، والتَّهَجُّرُ، والْإِهْجَارُ: السَّيْر في الْهَاجِرَة. وقد هَجَّرَ النهار، وهَجَّرَ الرَّاكِبُ، فهو مُهَجِّرٌ.

ومنه: حديث زيد بن عمرو: «***وهل مُهَجِّرٌ كمن قَالَ؟**» (٢)، أي: هل من سارَ في الْهَاجِرَة كمن أَقَامَ في الْقَائِلَة؟" (٣).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا كان يوم الجمعة وقفت الملائكة على باب المسجد يكتبون الأول فالأول، ومثل المُهَجِّرِ كمثل الذي يهدي بدنة، ثم كالذي يهدي بقرة، ثم كبشًا، ثم دجاجة، ثم بيضة، فإذا خرج الإمام طووا صحفهم، ويستمعون الذكر**» (٤).

والتهجير هنا: التبكير.



---

(١) صحيح البخاري [٦١٥، ٦٥٤، ٧٢١، ٢٦٨٩]، مسلم [٤٣٧].

(٢) وهو عجز بيت، صدره: (الْبِرَّ أَبْغِي لَا الْخَالْ***). وتمام الحديث في (مسند أبي داود الطيالسي) [٢٣١]، وهو عند الطبراني في (الكبير) [٣٥٠]، والضياء في (المختارة) [١١١١]، بلفظ: «وهل مهاجر كمن قال» وحسنه الضياء.

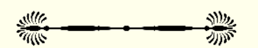
(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (هجر) (٥/٢٤٦).

(٤) صحيح البخاري [٩٢٩]، مسلم [٨٥٠].

المبحث الحادي عشر

أسماء وأفعال الزمن الحال والمقارب

ارتداد الطرف:



قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل:٤٠].

قال في (العين): "الطَّرْفُ: تَحريكُ الجفون في النَّظر. يقال: شَخَصَ بَصَرُهُ فما يطرف. والطَّرْفُ: اسم جامع للبصر، لا يثنى ولا يجمع [؛لأنَّه في الأصل مصدر، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ [إبراهيم:٤٣]]. والطَّرْفُ: إصابتُك عينًا بثوبٍ او غيره، والاسم: الطُّرفة. تقول: طُرِفَتْ عَيْنُه، وأصابتها طُرفة. وطَرَفَها الحزنُ بالبُكاء" (١).

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ [إبراهيم:٤٣]، أي: لا ترجع إليهم أبصارهم من شدة النظر، فهي شاخصة، أي: نظرهم إلى شيء واحد، فكأن ذلك الشيء الذي ينظرون إليه قد ذهب بنظرهم نحوه، فليسوا ينظرون إلى غيره.

---

(١) العين، مادة: (طرف) (٧/٤١٣-٤١٤).

وقال الأصمعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "طرفت عينه فهي تطرف طرفًا: إذا حركت جفونها بالنظر، ويقال: هي بمكان لا تراه الطوارف: يعني: العيون. ويقال: امرأة مطروفة بالرجال: إذا كانت لا خير فيها، تطمح عينها إلى الرجال" [١].

وقال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وطَرَفَ بصرَه يَطْرِفُ طَرْفًا: إذا أطبق أحد جفنيه على الآخر. الواحدة من ذلك: طَرْفَةٌ. يقال: (أسرعُ من طَرْفَةِ عينٍ). وطَرَفْتُ عينَه: إذا أصبتها بشيء فدمعت. وقد طرفت عينُه، فهي مطروفةٌ. والطَرْفَةُ أيضًا: نقطةٌ حمراء من الدم تحدُث في العين من ضربةٍ وغيرها، وقولهم: لا تراه الطوارف، أي: العيون"[٢].

وقال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الطرف: تحريكك أجفانك إذا نظرت، فوضع موضع النظر [٣]. ولما كان الناظر موصوفًا بإرسال الطرف في نحو قوله:

وكنت إذا أرسلت طرفك رائدًا ... لقلبك يومًا أتعبتك المناظر[٤]

---

(١) تهذيب اللغة (٢١٨/١٣).

(٢) الصحاح، مادة: (طرف) (١٣٩٥/٤).

(٣) "كأن التطرف بالنسبة إلى النظر، كالنظر بالنسبة إلى الرؤية" حاشية الطيبي (٥٣٠/١١).

(٤) (وكنت إذا أرسلت طرفك رائدًا***لقلبك يومًا أتعبتك المناظر)، (رأيت الذي لا كله أنت قادر***عليه ولا عن بعضه أنت صابر)، لأعرابية، نظرها أعرابي فخاطبها بشعر يسألها عن أحوالها ومحاسنها، كأنه يراودها عن نفسها، فأجابته بذلك. وقيل: هو لشاعر حماسي. وشبه إطلاق البصر نحو المناظر الجميلة بإرسال الرائد أمام الركب يتعرف لهم مكان الخصب، على طريق التصريحية، ورائدًا ترشيح؛ لأنه يلائم الإرسال. ويومًا: ظرف له. والمناظر: مواقع النظر، واستدل على إتعابها إياه بقوله: رأيت الذي لا تملكه كله، ولا تصبر عن بعضه، فكانت عينك سببًا لوقوع قلبك في حيرة الهوى، وحرقة الجوى. الانتصاف (٣٦٨/٣)، وانظر: حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي (٤٦/٧)، حاشية الطيبي على الكشاف (٥٣١/١١)، حاشيتا القونوي وابن التمجيد على البيضاوي (٣٩٥/١٤).

وصف بردِّ الطرف، ووصف الطرف بالارتداد. ومعنى قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ أنك ترسل طرفك إلى شيء، فقبل أن تردَّه أبصرت العرش بين يديك" (١).

قال القاضي البيضاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والمعنى أنك ترسل طرفك نحو شيء فقبل أن ترده أحضر عرشها بين يديك، وهذا غاية في الإسراع، ومثل فيه" (٢).

وقال الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الطرف: تحريك الأجفان عند النظر، فإذا فتحت الجفن فقد يتوهم أن نور العين امتد إلى المرئي، وإذا أغمضت فقد يتوهم أن ذلك النور ارتدَّ إلى العين" (٣).

قال المرزوقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوله: "(رائدًا) حالٌ، وجواب (إذا): أتعبتك المناظر. وقوله: (رأيت الذي)، تفصيلٌ لما أجمله: أتعبتك المناظر. والرائد: الذي يتقدم القوم لطلب الكلأ لهم. المعنى: إذا جعلت عينك رائدًا لقلبك تطلب له هواهم، فتتعبك مناظرها، وأوقعتك مواردها في أشق المكاره، وذلك أنها تهجم بالقلب في ارتيادها له على ما لا يصبر في بعضه على فراقه مع مهيجات اشتياقه، ولا يقدر على السلو عن جميعه، فهو ممتحنٌ الدهر ببلوى ما لا يقدر على كله، ولا يصبر عن بعضه.

وعن بعض الحكماء: (من أرسل طرفه استدعى حتفه).

وفي المثل: (الرائد لا يكذب أهله)؛ لأنه إن كذب هلك معهم" (٤)، وإنما هو ناصح لهم، يهديهم إلى ما يصلحهم ويبعدهم عما يسوءهم.

---

(١) الكشاف (٣/٣٦٨).

(٢) تفسير البيضاوي (٤/١٦١).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٤/٥٥٧).

(٤) انظر: حاشية الطيبي على الكشاف (١١/٥٣١)، حاشية القونوي على البيضاوي (١٤/٣٩٤). قال في (العين): "ومن أمثالهم: الرائدُ لا يكذِبُ أهله، يُضرَبُ مثلًا للذي لا يكذب إذا حَدَّثَ" العين (٨/٦٣).=

وقال الفراء رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلۡمٌ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ﴾ [النمل:٤٠]: "يقول: قبل أن يأتيك الشيء من مدِّ بصرك " (١).

وفي (تلخيص البيان): "هذه استعارة؛ لأن المراد بارتداد الطَّرف هاهنا: التقاء الجفنين بعد افتراقهما. وذلك أبلغ ما يوصف به فى السرعة. وليس هناك على الحقيقة شيء ذهب عنه ثم رجع إليه. ولكن جفن العين لما كان ينفتح وينطبق، أقام الانفتاح مقام الخروج ، والانطباق مقام الرجوع. وقيل غير ذلك" (٢).

وقال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "طَرَفُ الشيءِ: جانبُه، ويستعمل في الأجسام والأوقات وغيرهما. قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ [طه:١٣٠]، ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ [هود:١١٤]، ومنه استعير: هو كريمُ الطَّرَفَيْن (٣)، أي: الأب والأم. وقيل: الذَّكَرُ واللِّسَان؛ إشارة إلى العفَّة.

وطَرْفُ العينِ: جَفْنُهُ، والطَّرْفُ: تحريك الجفن، وعبر به عن النَّظر؛ إذ كان تحريك الجفن لازمه النَّظر" (٤).

=وفي (جمهرة الأمثال) (٤٧٤/١): "الرائد: الذي يتقدم القوم لطلب الماء والكلأ لهم، فإن كذبهم أفسد أمرهم وأمر نفسه معهم؛ لأنه واحد منهم".

(١) معاني القرآن، للفراء (٢٩٤/٢).

(٢) انظر: تلخيص البيان فى مجازات القرآن، للشريف الرضي (٢٦٠/٢).

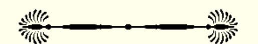
(٣) يقال في مقام المدح: (فلان كريم الطَرَفين، شريف الجانبين، المجد لسان أوصافه، والشرفُ نسب أسلافه) انظر: لباب الآداب، لأبي منصور الثعالبي (ص:٦٤)، سحر البلاغة (ص:٥٩)، أدب الكاتب، لابن قتيبة (ص:٤٣)، فقه اللغة، للثعالبي (ص:١١٤).

(٤) المفردات في غريب القرآن، مادة: (طرف) (ص:٥١٧-٥١٨).

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ [الصافات:٤٨]، أي: عندهم حور قد قصرن طرفهن، أي: عيونهن على أزواجهن، فلا يمددن طرفًا إلى غيرهم (١).

قال أبو عبيدة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لا تطمح أبصارهن" (٢).

آنفًا:



قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ﴾ [محمد:١٦].

قال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "كانُوا يَسْمُعونَ خطبة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فإذا خرجوا سألوا أصحاب رسول الله استهزاء وإعلامًا أنهم لم يلتفتوا إلى ما قال، فقالوا: ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ﴾، أي: ماذا قال الساعة، ومعنى: ﴿ءَانِفًاۚ﴾ من قولك: استأنَفْتُ الشيء: إذا ابْتَدَأتُه، ورَوْضَة أُنُفٌ: إذَا لَمْ تُرْعَ بَعْدُ، أي: لها أولٌ يُرعَىْ، فالمعنى: ماذا قال من أول وَقْتٍ يَقْرُب مِنَّا" (٣).

و﴿ءَانِفًاۚ﴾ حال من الضمير في قال، أي: مؤتنفًا، وأعربه الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ ظرفًا (٤)، أي: ماذا قال الساعة؟

---

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٣٠٤/٤)، معاني القرآن، لأبي جعفر النحاس (٢٧/٦)، الكشاف (٤٣/٤).

(٢) مجاز القرآن (٢٤٥/٢).

(٣) معاني القرآن وإعرابه (١٠/٥).

(٤) انظر: الكشاف (٣٢٢/٤)،

وقال أبو البقاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "و﴿ءَانِفًاۚ﴾: ظرف؛ أي: وقتًا مؤتنفًا. وقيل: هو حال من الضمير في قال" [(١)].

و"هو على ما ذهب إليه الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ نصب على الظرفية، ولا ينافي كونه: اسم فاعل كما في (بادىء)؛ فإنه اسم فاعل غلب على معنى الظرفية في الاستعمال. وقال أبو حيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الصحيح أنه ليس بظرف، ولا نعلم أحدًا من النُّحاة عدَّه في الظروف [(٢)]. وأوجب نصبه على الحال من فاعل: (قال) أي: ماذا قال مبتدئًا؟ أي: ما القول الذي ائتنفه الآن قبل انفصالنا عنه؟ وإلى ذلك يشير كلام الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ" [(٣)].

وقال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والمفسرون يقولون آنفا معناه الساعة الماضية القريبة مِنَّا وهذا تفسير بالمعنى" [(٤)].

قال في (العين): "يقال: ائْتَنَفْتُ في العمل ائْتِنَافًا، وهو أوَّل ما تَبتدىء به من كلِّ شيءٍ من الأَمْر والكَلام كذلك، وهو من أَنْف الشَّيء، يقال: هذا أَنْفُ الشَّدِّ والعَدْو، أي: أوَّله وأشدَّه، وأَنْفُ البَرد أَوَّله وأَشدُّه" [(٥)].

قال الأزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "استأنفت الشيء إذا ابتدأته، وفعلت الشيء آنفًا، أي في أول وقت يقرب مني" [(٦)].

---

(١) التبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء العكبري (١١٦٢/٢).

(٢) البحر المحيط في التفسير (٤٦٨/٩).

(٣) روح المعاني (٢٠٦/١٣-٢٠٧)، وانظر: المفردات، للراغب، مادة: (أنف) (ص:٩٥).

(٤) المحرر الوجيز (١١٥/٥).

(٥) العين، مادة: (أنف) (٣٧٨/٨)، وانظر: الصحاح (١٣٣٢/٤)، مقاييس اللغة (١٤٦/١).

(٦) انظر: تهذيب اللغة (٣٤٦/١٥)، وانظر: المحكم والمحيط الأعظم (٤٨٤/١٠).

قال ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومنه الحديث: «**أنزلت عليَّ سورة آنفًا**» (١)، أي: الآن. وقد تكررت هذه اللفظة في الحديث" (٢).

أوان وآن:

والأوان: الحين والزَّمان، تقول: جاء أوان البرد، قال العَجَّاج:

هَذَا أَوانُ الجِدِّ إِذْ جَدَّ عُمَرْ *** (٣)

وجمع، الأوان: آونة.

وقد حكى ابن السِّكِّيتِ، عن الكسائي رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ، قال: قال أبو جامع رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذا إوَان ذاك. والكلام: أَوان ذاك، بالفتح (٤).

وقال أبو عمرو رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أتيته آئِنةً بَعْدَ آئنةٍ، بمعنى: آونة.

و(الآنُ): بمنزلة السَّاعة إلا أنَّ السَّاعة جزءٌ مؤقَّت من أجْزاء اللَّيْل والنَّهار (٥).

يقال: آنَ يَئِينُ أَيْنًا وَأَنَى لَكَ يَأْنِي أَنْيًا، أي: حان. ويقال أَتَيْتُ فَلَانًا آيِنَةً بعد آيِنَةٍ، أي: أحيانا بعد أحيان، ويقال: تارة بعد تارة. وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ [الأحزاب:٥٣]. وأما الظرف فالإناء ممدود، من الآنية (٦).

---

(١) صحيح مسلم [٤٠٠].

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر (أنف) (٧٦/١).

(٣) ديوان العجاج، رواية عبد الملك بن قريب الأصمعي وشرحه (ص:٦٧).

(٤) انظر: إصلاح المنطق، لابن السِّكِّيت (ص:٨٣).

(٥) انظر: العين (٤٠٤/٨)، تهذيب اللغة (٣٩٢/١٥).

(٦) مقاييس اللغة، لابن فارس (١٤٣/١).

و"(الآن): الزمن الكائن الفاصل بين الماضي والآتي. ذكره الحرالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وعبر عنه غيره بأنه فصل الزمانين الماضي والمستقبل مع أنه إشارة إلى الحاضر. وقال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كل زمان مقدر بين زمانين: ماض ومستقبل، نحو: أنا الآن أفعل كذا، وخصَّ الآن بالألف واللام المعرّف بهما ولزماه، وأفعل كذا آونة، أي: وقتًا بعد وقت الآن. وقولهم: هذا أوان كذا، أي: زمنه المختص به وبفعله. قال سيبويه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يقال: الآن آنك، أي: هذا الوقت وقتك" (١).

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يقال: آنَ أَيْنُكَ، أي: حان حَيْنك. وآنَ لكَ أن تفعل كذا يئين أينًا، أي: حانَ، مثل: أنى لك، وهو مقلوب منه.

و(أَيْنَ): سؤالٌ عن مكان، إذا قلت: أَيْنَ زيد؟ فإنما تسأل عن مكانه.

و(أيان): معناه: أَيُّ حِينٍ، وهو سؤال عن زمان، مثل: متى. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ [الأعراف:١٨٧].

و(إيان)، بكسر الهمزة: لغة سليم، حكاها الفراء. وبه قرأ السلمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿إِيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝٢١﴾ [النحل:٢١].

و(الآن): اسم للوقت الذي أنت فيه، وهو ظرف غير متمكن، وقع معرفة ولم تدخل عليه الألف واللام للتعريف؛ لأنه ليس له ما يشركه. وربما فتحوا منه اللام وحذفوا الهمزتين، فقالوا: (لَانَ) بمعنى: الْآنَ" (٢).

---

(١) التوقيف على مهمات التعاريف (ص:٦٤)، المفردات في غريب القرآن، مادة: (أين) (ص:١٠١)، الكتاب، لسيبويه (٤٠٢/٢).

(٢) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (أين) (٢٠٧٦/٥)، وانظر: المفردات في غريب القرآن، مادة: (أبن) (ص:١٠١).

والآن إن سبق بحرف جر فهو اسم مبني على الفتح في محل جر، وإن لم يسبق بحرف جر فهو ظرف زمان مبني على الفتح في محل نصب.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُواْ ٱلۡـَٔـٰنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ [البقرة:٧١].

وقال أبو الفتح ابن جني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱلۡـَٔـٰنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ [البقرة:٧١]: اللام في ﴿ٱلۡـَٔـٰنَ﴾ زائدة أنها لا تخلو إما أن تكون للتعريف -كما يظن مخالفنا-، أو أن تكون لغير التعريف -كما نقول-، فالذي يدل على أنها لغير التعريف أنا اعتبرنا جميع ما لامه للتعريف، فإذا إسقاط لامه جائز فيه، وذلك نحو: رجل والرجل، وغلام والغلام، ولم يقولوا: (افعله آن) كما قالوا: (افعله الآن)، فدل هذا على أن اللام ليست فيه للتعريف بل هي زائدة كما يزاد غيرها من الحروف.

وقد أطال الاحتجاج على زيادة اللام، وأنها ليست للتعريف" [١].

وقال الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (شرح المفصل): "الزمان ما له مقدار، ويقبل التجزئة. والآن: لا مقدار له، وهو اسم الوقت الحاضر المتوسط بين الماضي والمستقبل" [٢].

قال الكرماني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "(الْآنَ) عبارة عن الزمان الموجود، وأصله عند الكوفيين: الأوان، قلبت الواو؛ لتحركها وانفتاح ما قبلها ألفًا، فاجتمع ساكنان، فحذف أحدهما.

وروي عن الكسائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن أصلها: آن، من أأن يائن فجعل اسمًا، ودخله اللام. وعند البصريين مبني على الفتح؛ لتضمنه لام التعريف، والألف واللام فيه زائدتان، كما في (الذي) و(مائة)" [٣].

---

(١) انظر: سر صناعة الإعراب (٢/٣٢)، الخصائص (٣/٩٣)، المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده (١٠/٥٣١).

(٢) تاج العروس (٣٤/٢٢٤).

(٣) غرائب التفسير وعجائب التأويل، لمحمود بن حمزة الكرماني (١/١٤٨-١٤٩).

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ﴾ [البقرة:١٨٧]. فالآن: ظرف زمان، حضر جميعه أو بعضه، والألف واللام فيه للحضور. وقيل: زائدة، وهو مبني؛ لتضمنه معنى الإشارة. وزعم الفراء رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه منقول من الفعل، يقال: آن يئين أينًا: أي: حان (١).

وأكثر النحاة على أن (الآن) مبني على الفتح، ثم اختلفوا في سبب بنائه؟ فذهب قوم إلى أن علة بنائه تضمنه معنى: (أل) الحضورية، و(أل) الموجودة فيه زائدة -على هذا الرأي-، وبناؤه لتضمنه معنى: (أل) أخرى غير موجودة، كما بني (الأمس) على الكسر في قوله:

وأعلم ما في اليوم والأمس قبله ... ولكِنّني عن عِلْمِ ما في غَدٍ عَمِ (٢)

فإنهم جعلوا بناءه في هذا وما أشبهه لتضمنه معنى: (أل) غير الموجودة فيه، وهذا غريب منهم؛ فإنهم ألغوا الموجود، واعتبروا المعدوم؛ ولذلك قال الشيخ محمد الخضري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (حاشيته على شرح ابن عقيل): وفيه غرابة؛ حيث ألغى اللفظ الموجود، وضمن معنى غيره من جنسه، وقال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: تضمنه معنى: الإشارة؛ فإنه بمعنى هذا الوقت. وقيل: الشبه الجمودي؛ إذ لا يثنى ولا يجمع ولا يصغر، بخلاف: حين، ووقت، وزمان، ومن غير الجمهور من جعله اسم إشارة للزمان، كهناك للمكان، وعليه فعلة بنائه كأسماء الإشارة، ومنهم من قال غير ذلك اهـ".

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء:١٨].

(١) البحر المحيط في التفسير (١/٤٠٢).

(٢) هذا بيتٌ من الطويل. وقائله: زهير بن أبي سلمى. وهو في (ديوانه) (ص:٧٠)، وقد تقدم بيانه.

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱلۡـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ﴾ [الأنفال:٦٦].

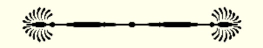
وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٔـٰنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ٥١﴾ [يونس:٥١].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ءَآلۡـَٔـٰنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٩١﴾ [يونس:٩١].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٔـٰنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾ [يوسف:٥١].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا ٩﴾ [الجن:٩].

لمح البصر:



قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٧٧﴾ [النحل:٧٧].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ٥٠﴾ [القمر:٥٠].

قال الفراء رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هذا للساعة كلمح خطفة" (١).

وقال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والساعة اسم لإماتة الخلق وإحيائهم.

فأعلم الله عَزَّوَجَلَّ أن البعث والإحياء في قدرته ومشيئته كلمح البصر، أو هو أقرب، ليس يريد أن الساعة تأتي في أقرب من لمح البصر، ولكنه يصف سرعة القدرة على الإتيان بها" (٢)؛ ولذلك قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٧٧﴾ [النحل:٧٧]، أي: لا يعجزه شيء، وهو مصداق قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧﴾ [البقرة:١١٧]،

---

(١) معاني القرآن، للفراء (٣/١١٠).

(٢) معاني القرآن وإعرابه (٣/٢١٤).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ﴾ [الأنعام:٧٣]، ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل:٤٠].

وقال مقاتل: "قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [النحل:٧٧]، يعني: أمر تأتي يعني البعث. ﴿إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ يعني: كرجوع الطرف. ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ﴾ يقول: بل هو أسرع من لمح البصر. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من البعث وغيره ﴿قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾" (١).

واللمح النظر بسرعة. يقال: لمح البرق والنجم: لمع من بعيد، وبرقٌ لماحٌ، ورأيته لمحة البرق، ولمحته ببصري: اختلست النظر إليه، وهو أسرع من لمح البصر، ومن لمحةٍ بالبصر، ولامحته ملامحة. وألمحت المرأة من وجهها: أمكنت من أن تلمح.

ومن المجاز: أَبيضُ لَمَّاحٌ: يَقَقٌ (٢)، ولأرينَّك لمحًا باصرًا، أي: أمرًا واضحًا (٣).

ولا بدَّ في لمح البصر من زمان تتقلب فيه الحدقة نحو المرئي، وكل زمان قابل للتجزئة؛ ولذا قال: ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ﴾، بأن يكون من زمان نصف تلك الحركة، بل في الآن الذي تبتدأ فيه.

وقد قيل في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ﴾ [النحل:٧٧]: إن ﴿أَوْ﴾ للشك، ولكنها تعود على شكِّ المخاطب، أي: كونوا في تقدير سرعة كونها على هذا الشك.

وقيل: إنَّ ﴿أَوْ﴾ هاهنا بمنزلة: (بل)، وهي للانتقال والترقي، لا للإبطال (٤).

وقال أبو عبد الله القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ليست (أو) للشك، بل للتمثيل بأيهما أراد الْمُمَثِّل. وقيل: دخلت لشك المخاطب.

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان (٤٧٩/٢).

(٢) يقال: أبيض يقق، أي: شديد البياض ناصعه.

(٣) أساس البلاغة، مادة: (لمح) (١٧٩/٢)، وانظر: المفردات في غريب القرآن (ص:٧٤٦)

(٤) انظر: حاشيتا القونوي وابن التمجيد على البيضاوي (٣٤٤/١١).

وقيل: هي بمنزلة: بل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٧٧﴾، ومجيء الساعة بسرعة من جملة مقدوراته" (١).

قال في (البحر): "والشك والتخيير بعيدان؛ لأن هذا إخبار من الله عَزَّوَجَلَّ عن أمر الساعة، فالشك مستحيل عليه، ولأن التخيير إنما يكون في المحظورات كقولهم: خذ من مالي دينارًا أو درهمًا، أو في التكليفات كآية الكفارات، و﴿أَوْ﴾ هنا للإبهام على المخاطب، كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝١٤٧﴾ [الصافات:١٤٧]، وقوله: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس:٢٤]، وهو جَلَّوَعَلَا قد علم عددهم، ومتى يأتيها أمره، كما علم أمر الساعة، لكنه أبهم على المخاطب. وكون ﴿أَوْ﴾ هنا للإبهام ذكره الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا. وقال القاضي: هذا لا يصح؛ لأن إقامة الساعة ليست حال تكليف حتى يقال: إنه جَلَّوَعَلَا يأتي بها في زمان، يعني القاضي: فيكون الإبهام على المخاطب في ذلك الزمان، وليس زمان تكليف.

والذي نقوله: إن الإبهام وقع وقت الخطاب المتقدم على أمر الساعة، لا وقت الإتيان بها. وليس من شرط الإبهام على المخاطب في الإخبار عن شيء اتحاد زمان الإخبار، وزمان وقوع ذلك الشيء، ألا ترى في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝١٤٧﴾ كيف تأخر زمان الإخبار عن زمان وقوع ذلك الإرسال، ووجودهم مائة ألف أو يزيدون.

وما ذكره من أن ﴿أَوْ﴾ بمعنى: (بل)، هو قول الفراء رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولا يصح؛ لأن الإضراب على قسمين كلاهما لا يصح هنا.

(١) تفسير القرطبي (١٠/١٥٠).

أما أحدهما: فأن يكون إبطالًا للإسناد السابق، وأنه ليس هو المراد، وهذا مستحيل هنا؛ لأنه يؤول إلى إسناد غير مطابق.

والثاني: أن يكون انتقالًا من شيء إلى شيء من غير إبطال لذلك الشيء السابق، وهذا مستحيل هنا؛ للتنافي الذي بين الإخبار بكونه مثل: لمح البصر في السرعة، والإخبار بالأقربية، فلا يمكن صدقهما معًا. وقد قيل: وهذا وإن كان يعتبر إدراكه حقيقة، إلا أن المقصود المبالغة على مذهب العرب وأرباب النظم" (١).



(١) البحر المحيط في التفسير (٥٧٣/٦-٥٧٤) مع بعض اختصار، وانظر: مفاتيح الغيب (٢٥٠/٢٠)، شرح الرضي على كافية ابن الحاجب (٣٩٦/٤).

المبحث الثاني عشر
أفعال المقاربة والشروع

تدل أفعال المقاربة في اللغة العربية على قرب انقضاء الحدث.

أما أفعال الإنشاء والشروع فتدل على الشروع في القيام بالفعل؛ فلذلك كانت مقاربة للحدث، فمسميت بأفعال المقاربة.

قال المبرد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "تسمى أفعال المقاربة، وهي مختلفة المذاهب والتقدير، مجتمعة في المقاربة" [١].

وقال ابن الحاجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أفعال المقاربة: ما وضع لدنوِّ الخبر؛ رجاءً، أو حصولًا، أو أخذًا فيه [٢].

قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ككان كاد وعسى لكن ندر ... غير مضارعٍ لهذين خبر

وكونه بدون أن بعد عسى ... نزر، وكاد الأمر فيه عكسا

وكعسى جرى ولكن جعلا ... خبرها حتمًا بأن متَّصلا

وألزموا اخلولق أن مثل حرى ... وبعد أوشك انتفا أن نزرا

ومثل كاد في الأصحِّ كربا ... وترك أن مع ذي الشروع وجبا

(١) المقتضب، للمبرد (٣/٦٨).

(٢) وانظر: التعريفات، للشريف الجرجاني (ص:٣٢).

كأنشأ السائق يحدو وطفق   كذا جعلت وأخذت وعلق
واستعملوا مضارعًا لأوشكا   وكاد لا غير وزادوا موشكا
بعد عسى اخلولق أوشك قد يرد   غنى بأن يفعل عن ثان فقد
وجرِّدن عسى أو ارفع مضمرا   بها إذا اسم قبلها قد ذكرا
والفتح والكسر أجز في السين من   نحو عسيت وانتفا الفتح زكن [(١)]

نواسخ الابتداء قسمان: أفعال وحروف، فالأفعال: (كان) وأخواتها، وأفعال المقاربة، و(ظن) وأخواتها، والحروف: (ما) وأخواتها، و(لا) التي لنفي الجنس وإن وأخواتها.

فالقسم الأول: هو (كان) وأخواتها، وكلها أفعال اتفاقًا إلا (ليس) فذهب الجمهور إلى أنها فعل، وقيل: إنها حرف.

والقسم الثاني من الأفعال الناسخة للابتداء: هو كاد وأخواتها، وذكر ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ منها أحد عشر فعلًا، ولا خلاف في أنها أفعال إلا (عسى) فقيل: إنها حرف.

قال ابن عقيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والصحيح أنها فعل بدليل اتصال تاء الفاعل وأخواتها بها، نحو: عسيتُ، وعسيتِ، وعسيتما، وعسيتم، وعسيتن.

وهذه الأفعال تسمى: أفعال المقاربة، وليست كلها للمقاربة، بل هي على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما دل على المقاربة (قرب حصول الخبر)، وهي: كاد، وكرب، وأوشك.

والثاني: ما دل على الرجاء، وهي: عسى، وحرى، واخلولق.

والثالث: ما دل على الإنشاء (الشروع)، وهي: جعل، وطفق، وأخذ، وعلق، وأنشأ [(٢)].

---

(١) ألفية ابن مالك (ص:٢٠-٢١).

(٢) انظر: همع الهوامع في شرح جمع الجوامع (١/٤٦٨).

فتسميتها أفعال المقاربة من باب التغليب: تسمية للكل باسم البعض [(١)]، كتسميتهم الكلام كلمة.

ويلزم أن يكون خبر هذه الأفعال مضارعًا مقترنًا بـ: (أن) وجوبًا في اخلولق وحرى، وكثيرًا في أوشك وعسى، وقليلًا في كاد وكرب. ولا اقتران في أفعال الشروع.

وتفصيل ذلك في مظانه [(٢)].

والتحقيق أن (عسى) تفيد كذلك المقاربة، قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ولها مذهبان:

أحدهما: أن تكون بمنزلة قارب: فيكون لها مرفوع ومنصوب، إلا أن منصوبها مشروط فيه أن يكون أن مع الفعل متأولًا بالمصدر. كقولك: (عسى زيد أن يخرج)، في معنى: قارب زيد الخروج. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ﴾ [المائدة:٥٢].

والثاني: أن يكون بمنزلة قرب: فلا يكون لها إلا مرفوع، إلا أن مرفوعها أن مع الفعل في تأويل المصدر كقولك: (عسى أن يخرج زيد)، في معنى: قرب خروجه، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦].

ومنها: (كاد)، ولها اسم وخبر. وخبرها مشروط فيه أن يكون فعلًا مضارعًا متأولًا باسم الفاعل، كقولك: كاد يخرج. وقد جاء على الأصل:

فَأُبْتُ إلى فَهْمٍ وما كِدْتُ آيبًا *** [(٣)]

---

(١) وفي (شرح التصريح): "وهذا مجاز مرسل من باب تسمية الكل باسم الجزء، كتسميتهم الكلام: كلمة، وكتسميتهم ربيئة القوم: عينًا" شرح التصريح على التوضيح (١/٢٧٧).

(٢) انظر: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (١/٣٢٢-٣٤٤)، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، لابن هشام (١/٢٩٠).

(٣) أتى بخبر (كاد) مفردًا، وهو (آيبا) اسم فاعل من (آب): إذا رجع. وقائله: هو تأبط شرًّا، واسمه: ثابت بن جابر بن سفيان. وتمام البيت المذكور: (***وَكَمْ مِثْلِهَا فَارَقْتُهَا وَهِي تَصْفِرُ). والاستشهاد فيه: في قوله: (وما كدت آيبًا)، وهو أنَّه استعمل خبر (كاد) اسمًا مفردًا، وإنما قياسه الفعل، ويروى: (وما كنت آيبًا)،=

كما جاء: (عَسَى الغُوَيْر أبْؤُسًا) [(١)]

وقال في الفصل بين معنيي: (عسى) و(كاد): "إن (عسى) لمقاربة الأمر على سبيل الرجاء والطمع، تقول: (عسى الله أن يشفي مريضي)، تريد: أن قرب شفائه مرجو من عند الله عَزَّوَجَلَّ مطموع فيه؛ و(كاد) لمقاربته على سبيل الوجود والحصول، تقول: (كادت الشمس تغرب)، تريد: أن قربها من الغروب قد حصل.

=فإن صح فلا استشهاد فيه" انظر: المقاصد النحوية (٢/٦٨٠-٦٨٣). قال ابن مالك: "ومن عادة العرب في بعض ماله أصل متروك، وقد استمر الاستعمال بخلافه، أن ينبهوا على ذلك الأصل؛ لئلا يجهل، فمن ذلك جعل بعض العرب خبر كاد وعسى مفردًا منصوبًا.." شرح تسهيل الفوائد (١/ ٣٩٣).

(١) قولهم في المثل: (عَسَى الغُوَيْر أبْؤُسًا) فـ: (أبؤسًا) جمع: بؤس ومعناه: العذاب أو الشدة، خبر (عسى) وهو مفرد؛ لأنه ليس جملة. هذا قول سيبويه، وأبي علي من البصريين، وقال الكوفيون: خبر يكون محذوفة، والتقدير: أن يكون أبؤسًا. وقال الأصمعي: خبر (يصير) محذوفة. وقيل: مفعول به، والتقدير: عسى الغوير يأتي بأبؤس، فحذف الناصب والجار توسعًا. وتلخص أن (أبؤسًا) خبر لعسى، أو لكان، أو لصار، أو مفعولًا به. قال الموضح في (شرح الشواهد): والأحسن من ذلك كله: أن يقدر يبأس أبؤسًا، فيكون مفعولًا مطلقًا، على حدِّ: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا﴾ [ص:٣٣]، أي: يمسح مسحًا اهـ. وقال في (المغني): الصواب أنه مما حذف فيه (كان) أي: يكون أبؤسًا؛ لأن في ذلك إبقاء لها على الاستعمال الأصلي اهـ. وسبقه إلى ذلك ابن جني، فقال في البيت: التقدير: وما كدت أكون آيبًا اهـ..كذا في (شرح التصريح) (١/٢٧٨-٢٧٩)، وانظر: الكتاب، لسيبويه (٣/١٥٨)، المقتضب (٣/٧٠)، الأصول في النحو (٢/٢٠٧)، مغني اللبيب (ص:٢٠٣)، شرح المفصل (٤/٣٧٧). والغوير تصغير الغار، وأبؤس، أي: شدائد، جمع: بؤس، وهو مثل يضرب لتوقع الشر من محل معين. وانتصاب (أبؤسًا) على أنه خبر (عسى) جاء على أصل التقدير. وأصله: أن قومًا أخذتهم السماء، ففزعوا إلى جبل فيه غار، فقالوا: ندخل هذا الغار، فقال أحدهم: عسى أن يكون في الغار بأس، فدخلوا وأقام الواحد، فانهار عليهم الجبل، وجاء الرجل فحدث الحي فقالوا: هذا كان ابؤسًا لا بأسًا واحدًا. انظر: المستقصى في أمثال العرب (٢/١٦١)، وانظر: مجمع الأمثال (٢/١٧).

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾ [النور:٤٠] على نفي مقاربة الرؤية، هو أبلغ من نفي نفس الرؤية" [١].

وقد جاءت (كاد) في القرآن الكريم بصيغة الماضي، كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي﴾ [الأعراف:١٥٠]، والمضارع كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ﴾ [البقرة:٢٠].

وقد ورد اشتقاقها في القرآن على النحو التالي:

﴿يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ﴾ [البقرة:٢٠].

﴿وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ٧١﴾ [البقرة:٧١].

﴿لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ٧٨﴾ [النساء:٧٨].

﴿قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي﴾ [الأعراف:١٥٠].

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ﴾ [التوبة:١١٧].

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ [إبراهيم:١٧].

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ [الإسراء:٧٣].

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الإسراء:٧٦].

﴿لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ٩٣﴾ [الكهف:٩٣].

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ﴾ [مريم:٩٠].

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾ [طه:١٥].

﴿يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ﴾ [الحج:٧٢].

---

(١) انظر ذلك في (المفصل في صنعة الإعراب) (ص:٣٥٧-٣٥٩)، ومفصلًا في (شرح المفصل)، لابن يعيش (٣٧٢/٤-٣٨٥).

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ﴾ [النور:٣٥].

﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ٤٣﴾ [النور:٤٣].

﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ [الفرقان:٤٢].

﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص:١٠].

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّۚ﴾ [الشورى:٥].

﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ٥٢﴾ [الزخرف:٥٢].

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِۖ﴾ [الملك:٨].

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ [القلم:٥١].

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ١٩﴾ [الجن:١٩].

أما أفعال الشروع فلم يرد في القرآن الكريم منها إلا (طفق)، ويجب في خبرها أن يكون فعلًا مضارعًا مجردًا من (أن).

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۖ﴾ [الأعراف:٢٢].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۚ﴾ [طه:١٢١].

أما (عسى) وأخواتها: (حرى) و(اخلولق) من أفعال الرَّجاء فلم يرد في القرآن منها إلا (عسى).

وتستعمل للتَّرجي وللإشفاق، كما في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْۚ﴾ [البقرة:٢١٦]. قيل: (عسى) الأولى للإشفاق، والثَّانية للتَّرجي. وقيل العكس.

وبيان ذلك على النَّحو التَّالي:

قـــال أبو حيَّان في (البحر) في ترجيح الوجه الأوَّل: "(عسى) الأولى للإشفاق، والثَّانية للرَّجاء. عسى هنا -أي: الأولى- للإشفاق لا للتَّرجي، ومجيئها للإشفاقِ قليلٌ، وهي هنا تامَّة لا تحتاج إلى خبر، ولو كانت ناقصـــةً لكانت مثل قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ﴾ [محمد:٢٢]، فـــقـــوله: ﴿أَن تَكۡرَهُواْ﴾ في مـــوضـــع رفـــع بـعسى" (١).

قال الإمام ابن عرفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التعقيب على قول أبي حيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ ومن وافقه: "المناسـب العكس؛ فإنَّ المسـتقبل في الأولى خَيرٌ، وانتظاره رجاءٌ، والمسـتقبل في الثَّانية شرٌّ، فانتظاره إشفاقٌ وخوفٌ.

قيل لابن عرفة: إنَّما المعتبرُ ما دخلت عليه (أن)؟ فقال: نعم لكن بصـفته وقيده، والأوَّل مقيَّدٌ بأنَّه يعقبه خيرٌ، والثَّاني مقيَّدٌ بأنَّه يعقبه الشَّـرُّ. قيل لابن عرفة: المســتقبلُ غير معلومٍ للإنسـان، وإنَّما يُعْلَمُ الحاضـرُ، فيعسـر عليه المستقبل، فإن كان الحاضـر خيرًا ترجَّى دوامه، وإن كان شرًّا أشفق وخاف من دوامه" (٢).

وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يقال: عسى من الله عَزَّوَجَلَّ واجبة" (٣).

وقال أبو عبيدة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "عسـى إيجاب من الله عَزَّوَجَلَّ، وهي في القرآن كلها واجبة، فجاءت على إحدى لغتي العرب؛ لأن عسى في كلامهم: رجاء ويقين.." (٤).

---

(١) البحر المحيط (٢/٣٨٠).

(٢) تفسير ابن عرفة (٢/٦١٧).

(٣) انظر: الأم، للشافعي (٤/١٦٩)، أحكام القرآن، للشافعي، جمع البيهقي (٢/١٧)، البرهان في علوم القرآن (٤/٢٨٨).

(٤) مجاز القرآن، لأبي عبيدة (١/ ١٣٤).

وقال المبرد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "(عسى) وهي لمقاربة الفعل، وقد تكون إيجابًا" (١).

وقال الأخفش رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يقال: (عَسَى) من الله عَزَّوَجَلَّ واجبة، قال: لو علمت من رجل أنه لا يدع شيئًا هو أحسن من شيء إلا يأتيه، فقال لك: (عسى أنْ أُكَافِئَكَ) استبنت بعلمك به أنه سيفعل الذي يجب؛ إذ كان لا يدع شيئًا هو أحسن من شيء إلا يأتيه" (٢).

وقال الفراء رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "عسى من الله عَزَّوَجَلَّ واجب إن شاء الله" (٣).

وقال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وعسى من الله عَزَّوَجَلَّ واجبة في جميع القرآن، إلا في قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ﴾ [التحريم:٥] (٤)؛ وفي (شرح الكافية): "لاستحالة الطمع والإشفاق عليه جَلَّوَعَلَا؛ إذ لا يكونان إلا في المجهول، وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ للتخويف، لا للخوف والإشفاق، كما أن (أو) في كلامه جَلَّوَعَلَا، للإبهام، والتشكيك، لا للشك" (٥).

وقال أبو حيَّان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وكلُّ (عسى) في القرآن للتَّحقيق، يعنون به: الوقوع، إلا قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ [التحريم:٥]" (٦). وهو كقول الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ الآنف الذكر.

---

(١) المقتضب، للمبرد (٣/٦٨).

(٢) معاني القرآن، للأخفش (٢/٤٢٦)، بتصرف، وانظر: معاني القرآن وإعرابه (٢/١٨١)، معاني القرآن، للنحاس (٢/١٤٥).

(٣) معاني القرآن، للفراء (١/٤٥١).

(٤) الصحاح، للجوهري، مادة: (عسا) (٦/٢٤٢٦).

(٥) شرح الرضي على كافية ابن الحاجب (٤/ ٢١٤).

(٦) البحر المحيط (٢/٣٨٠).

قال ابنُ عرفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "بل هي أيضًا للتَّحقيق؛ لما تقدَّم من أنَّ القضية الشَّرطيَّة تقتضي صحَّة ملزوميَّة الجزاءِ للشَّرط، ولا تقتضي الثُّبوت والوقوع، والقضيةُ الحمليَّة تقتضي الثُّبوتَ والوقوع، أو يفهم الوقوع في الآية باعتبار المتكلِّم بهذا الشَّرط، والرَّجاء واقع من الله عَزَّوَجَلَّ" [١]؛ لأنَّ الجزاءَ إنما يقع عند وقوع الشَّرط، فإذا قال قائل لزوجته: (أنت طالق إن ذهبت إلى أهلك)، لا تتحقَّق ملزوميَّة الجزاء إلا عند تحقق الشَّرط..أمَّا القضيةُ الحمليَّة فهي واقعةٌ لا محالة..وبيان ذلك أنَّ القضية الشَّرطيَّة هي الَّتي يحكم فيها بالتَّلازم أو العناد [٢] بين شيئين، أو بنفيه فيها. أو القضية الَّتي قُيِّد الحكم فيها بشرط، نحو: (إن كانت الشَّمس طالعة فالنَّهار موجود)، فقد حكمنا بالتَّلازم بين وجود النَّهار وطلوع الشَّمس. ونحو: العددُ إمَّا أن يكون زوجًا أو فردًا، فقد حكمنا بالتَّنافي والعناد بين زوجيَّة العدد وفرديَّته. ولا بدَّ أن تكون كلُّ قضيَّةٍ شرطيَّة من جزأين على الأقلِّ، هما: (المقدَّم)، و(التَّالي). ففي قولنا: (إن كانت الشَّمس طالعة فالنَّهار موجود)، فإنَّ عبارة: (الشَّمس طالعة) هي المقدَّم، وعبارة: (النَّهار موجود) التَّالي. أمَّا القضيَّة الحمليَّة هي الَّتي يحكم فيها بثبوتِ شيءٍ لشيء أو نفيه عنه، نحو: (كلُّ السَّلاحف بطيئة، ولا

---

(١) تفسير ابن عرفة (٢/٦١٧-٦١٨)

(٢) (العناد) لغة: الاعوجاجُ والخلاف. وقيل: المبالغة في الإعراض ومخالفة الحقِّ. وعند المنطقيين: قضية يكون الحكم فيها بالتَّنافي لذاتِ الجزئيين مع قطع النَّظر عن الواقع كما بين الفرد والزَّوج، والشَّجر والحجر، وبين إمَّا أن يكون زيد في البحر وإمَّا أن لا يغرق، أي: وإمَّا أن لا يكون في البحر، ويلزمه أن لا يغرق. أو يقال: إمَّا أن يكون زيدٌ في البحر وإمَّا أن لا يغرق لكنَّه ليس في البحر فلا يغرق، أو لكنَّه غرق فيكون في البحر. وتسمَّى الأخيرة مانعة الخلو. فالجمع أن يكون في البحر ولا يغرق، والخلو يغرق لا في البحر. أمَّا مانعة الجمع فنحو:(هذا العدد إمَّا مساو لذلك أو أكثر)، وأمَّا مانعتهما فنحو:(العدد إمَّا زوج أو فرد).

شيء من الأسماك طائر)، ويسمَّى الجزء الأوَّل: موضوعًا؛ لأنَّه وضع ليحمل عليه الثَّاني أو ليحكم عليه بشيء. والجزء الثَّاني يسمَّى: محمولًا.

ولكلٍّ من القضيَّة الشَّرطيَّة والحمليَّة أحكامٌ تنظرُ في مظانِّها..

والحاصل أنَّه لا تتحقَّق ملزوميَّة الجزاء هنا إلا عند تحقق الشَّرط..ومن المعلوم أنَّ ذلك لم يتحقَّق..، والقضية الشَّرطية تقتضي صحَّة ملزوميَّة الجزاء للشَّرط، ولا تقتضي الثُّبوت والوقوع، والقضيةُ الحمليَّة تقتضي الثُّبوت والوقوع.

وفي الغالبِ يقترنُ خبرُ (عسى) بـ: (أن). ولم يرد في القرآن غير ذلك.

وتأتي ناقصةً، كما في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْۚ﴾ [الإسراء:٨].

وتامَّةً، وهي التي تكتفي بمرفوعها فيكون فاعلًا، كما في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ۝٢٤﴾ [الكهف:٢٤].

فإنَّ (عسى) تامَّة، والمصدر ﴿أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي﴾ فاعل (عسى)، و﴿يَهْدِيَنِ﴾ فعل مضارع منصوب، والنُّون للوقاية، والياء المقدَّرة مفعول به.

ومن أفعال المقاربة: (أوشك)، ويستعمل بصيغة الماضي كما تستعمل بصيغة المضارع.

قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومنها: (أوشك) يستعمل استعمال: (عسى) في مذهبيها، واستعمال (كاد). تقول: (يوشك زيد أن يجيء)، و(يوشك أن يجيء زيد)، و(يوشك زيد يجيء)" [1].

---

(١) المفصل في صنعة الإعراب (ص:٣٥٩-٣٦٠). قال الشارح: "اعلم أن (أوشك) يستعمل استعمال: (عسى) في المقاربة، فيقال: (أوشك زيد أن يقوم)، فـ (زيد) فاعل، و(أن يقوم) في موضع المفعول، والمراد: قارب زيد القيام. ويقال: (أوشك أن يقوم زيد)، فتكون (أن) وما بعدها في موضع مرفوع، كما كانت (عسى)=

والغالب في خبر (عسى) و(أوشك) الاقتران بأن، نحو: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ [الأعراف:١٢٩]، ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ [الإسراء:٨]، ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [التحريم:٨].

قال الشاعر:

ولو سُئِل النـاسُ الترابَ لأوشـكوا   إذا قـيل هـاتوا أن يـملوا ويـمـنعوا (١)

ويقل حذفها منه، ومن تجرده منها قوله:

والتجرد من (أن) قليل، كقول هدبة:

عسى الكـرب الذي أمسيت فيه   يـكـون وراءه فـرج قـريــب (٢)

وكقول أمية:

يوشـــك من فـرَّ مـن مـنـيتـه   في بـعـض غراته يـوافـقـهـا (٣)

=كذلك، وقد أسقط من خبرها (أن)؛ تشبيهًا بـ: (كاد)، نحو قولك: (أوشك زيد يقوم)" شرح المفصل، لابن يعيش (٤/٣٨٥-٣٨٦).

(١) أنشده ثعلب في (أماليه)، الجزء الثامن (ص:٣٦٥) عن ابن الاعرابي، ورواه الزجاجي في (أماليه) عن ثعلب (ص:١٢٦). ويستشهد النحاة بهذا البيت ونحوه على أمرين، الأول: في قوله (لاوشكوا) حيث ورد (أوشك) بصيغة الماضي، والأمر الثاني: في قوله: (أن يملوا) حيث أتي بخبر (أوشك) جملة فعلية فعلها مضارع مقترن بـ: (أن)، وهو الكثير.

(٢) هذا البيت لهدبة بن خشرم العذري. انظر: الكتاب، لسيبويه (٣/ ١٥٨)، المقتضب (٣/٧٠)، أوضح المسالك (١/ ٢٩٩)، مغني اللبيب (ص:٢٠٣)، شرح ابن عقيل (١/ ٣٢٧)، شرح الأشموني (١/٢٧٦)، همع الهوامع (١/ ٤٧٦)، إيضاح شواهد الإيضاح (١/ ١١٣)، شرح الرضي على كافية ابن الحاجب (٤/ ٢١٩). شرح شواهد المغني (١/٤٤٣-٤٤٤). والشاهد فيه: وقوع خبر(عسى) فعلًا مضارعًا مجردًا من (أن) المصدرية، وهو قليل.

(٣) البيت لأمية بن أبي الصلت، وهو في (ديوانه) أمية بن أبي الصلت، بتحقيق: عبد الحفيظ السطلي (ص:٤٢١). والشاهد فيه: "إسقاط (أن) بعد (يوشك)؛ تشبيهًا بـ: (كاد)، كما أسقطت بعد (عسى)؛=

و(كرب) و(أخذ) و(جعل) و(طفق)، يستعملن استعمال: (كاد)، تقول: (كرب يفعل)، و(جعل يقول ذاك)، و(أخذ يقول) [١].

قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومثل كاد في الأصحِّ كربا وترك أن مع ذي الشروع وجبا

كأنشأ السائق يحدو وطفق كذا جعلت وأخذت وعلق [٢]

يريد: أن (كرب) مثل: (كاد) في معناها، وهو: المقاربة، وفي عملها، وفي عدم اتصال خبرها بـ: (أن) في الأغلب.

ثم ذكر ترك (أن) مع ذي الشروع، فأوجب الحذف، وعد من أن أفعال الشروع، أنشأ، وطفق، وجعل، وأخذ، وعلق، ومثل للأول بقوله: أنشأ السائق يحدو، أي: يغني.

=تشبيهًا بـ: (كاد). ومعنى: (يوشك): يقارب، يقال: (أوشك فلان أن يفعل كذا): إذا قاربه. وهو من السرعة من قولهم: (خرج وشيكًا)، أي: سريعًا، ومنه: (وشك البين)، أي: سرعة الفراق. فقولهم: (يوشك أن يفعل)، أي: يسرع. وضده: يبطئ، أي: يبعد، ومعنى (أن) فيه صحيح؛ لأنه في معنى: يقرب أن يفعل. والغرة: الغفلة عن الدهر، ووقوع صروفه، أي: لا ينجي من المنية شيء، فاعرفه" شرح المفصل، لابن يعيش (٤/٣٨٦)، وانظر: الكتاب، لسيبويه (٣/١٦٠-١٦١)، الأصول في النحو (٣/٢٠٧-٢٠٨)، شرح الكافية الشافية (١/٤٥٥-٤٥٦)، أوضح المسالك (١/٢٩٨-٣٠٤)، شرح تسهيل الفوائد (١/٣٩٢)، الكامل (١/٦٢).

(١) انظر: المفصل في صنعة الإعراب (ص:٣٦٠)، شرح المفصل (٤/٣٨٦)، وانظر: الكتاب، لسيبويه (٣/١٥٩)، الأصول في النحو (٢/٢٠٧)، الكافية في علم النحو، لابن الحاجب (ص:٤٨-٤٩).

(٢) ألفية ابن مالك (ص:٢٠).

قال ابن عقيل رَحِمَهُ اللَّهُ: "لم يذكر سيبويه رَحِمَهُ اللَّهُ في (كرب) إلا تجرد خبرها من (أن) [(١)]. وزعم ابن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ أن الأصح خلافه، وهو أنها مثل: (كاد) فيكون الكثير تجريد خبرها من أن، ويقل اقترانه بها" [(٢)].

وكذا قول الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره -كما تقدم-، وفي (شرح التصريح): "وما ذكره سيبويه رَحِمَهُ اللَّهُ مردود بالسماع" [(٣)].

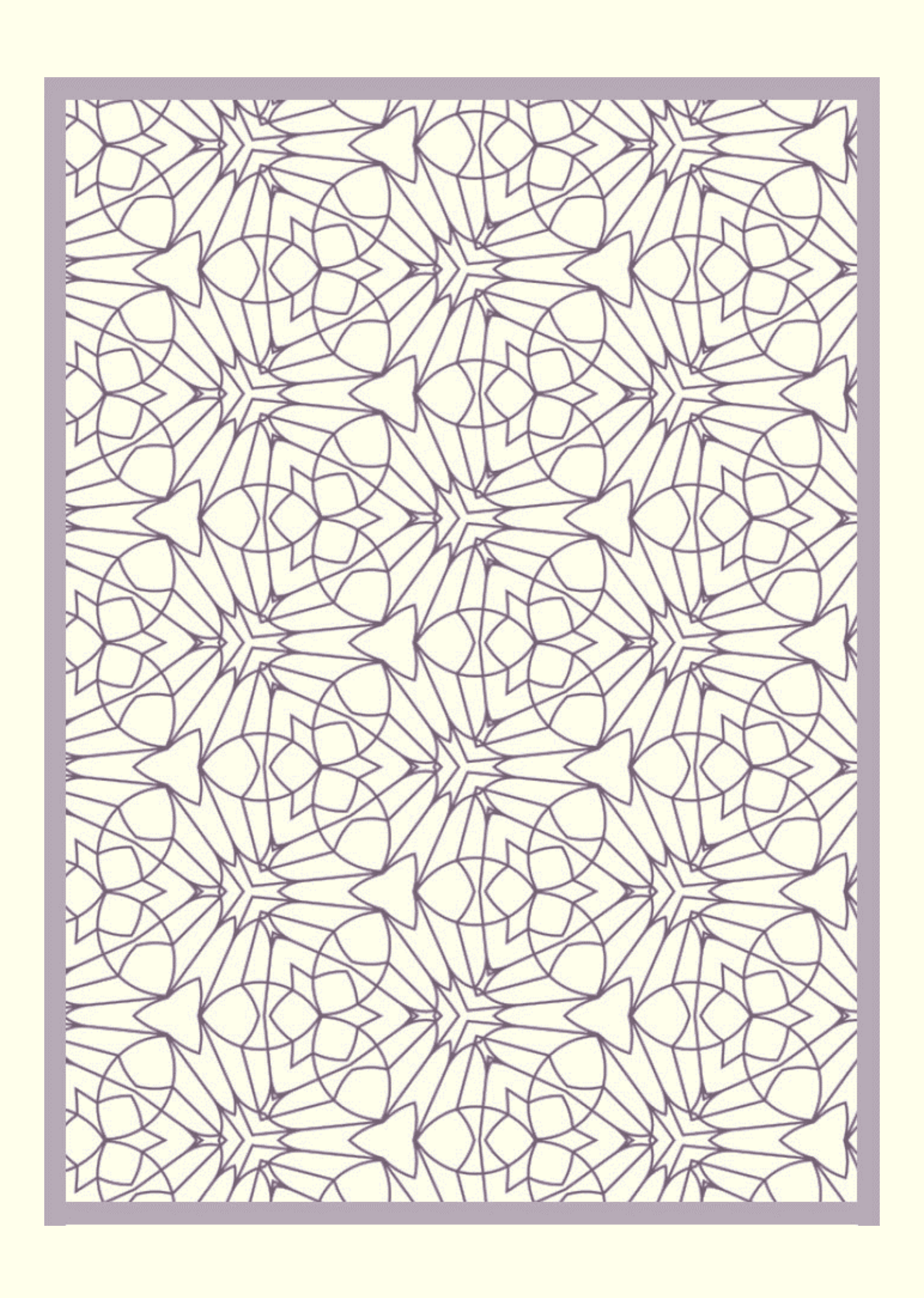
وتفصيل ذلك في مظانه.



(١) قال سيبويه: "وأما (كاد) فإنهم لا يذكرون فيها (أن)، وكذلك كرب يفعل، ومعناهما واحد. يقولون: كرب يفعل، وكاد يفعل" الكتاب، لسيبويه (١٥٩/٣).

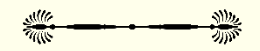
(٢) انظر: شرح ابن عقيل (٣٣٥/١)، وانظر: توضيح المقاصد (١/ ٥١٨).

(٣) شرح التصريح على التوضيح (٢٨٦/١).



المبحث الثالث عشر
أسماء الزمن المتجدد
أو ما يغلب استعماله في التجدد

تارة:



قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء:٦٩].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه:٥٥]، أي: مرة وكرة أخرى، هو فيما قيل: من تار الجرح: إذا التأم.

والتّارَةُ: الحِينُ والمرَّةُ. وقولُه:

ومـا الـدَّهْرُ إلا تـارَتـانِ فـمِنْـهُـمـا أَمُوتُ وأُخْرَى أَبْتَغِي العَيْشَ أَكْدَحُ

أراد: فمِنْهُما تـارَةٌ أموتُها، أي: أَمُـوتُ فِـيـها. والجَـمْـعُ: تارات، وتِيَرٌ. حـكـاه سِـيبويه رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١).

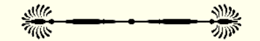
(١) انظر: الكتاب، لسيبويه (٣٤٦/٢). والبيت لتميم بن مقبل في (ديوانه) (ص:٢٤)، وانظر: الكامل (١٣٢/٣)، الحيوان (٢١/٣)، شرح تسهيل الفوائد (٣٢٣/٣)، شرح الرضي على كافية ابن الحاجب (٣٢٥/٢)، الأزمنة والأمكنة (٥٢/١). والكدح: الاكتساب، والمعنى: لا راحة في الدنيا؛ لأن وقتها تارتان: إما موت، وإما حياة كلها كد وتعب في المعيشة.

وأَتَرْتُ الشَّيْءَ: جِئْتُ به تارَةً أُخْرَى، أي: مَرَّةً بَعْدَ مَرَّة [١].

و"أتاره: أعاده مرة بعد مرة، ويجمع على (تير) و(تارات)، وألفها تحتمل أن تكون عن واو أو ياء، قيل: هو من (تار الجرح): إذا التأم.

وتارة، منصوب: إما ظرف، أو مصدر على قياس ما قيل في (مرَّة) في (ضربته مرَّة) [٢].

طوْر وأطوار وأخياف:



تطلق الأطوار إلى إيقاع الفعل على مراحل، أو تارة بعد تارة. فالطَّوْرُ: التَّارَة، يقال: فعل كذا طورًا بعد طور، أي: تارة بعد تار. قال الأخفش رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝﴾ [نوح:١٤]، أي: "طَوْرًا عَلَقَةً، وطَوْرًا مُضْغة" [٣]. قيل: هو إشارة إلى نحو قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [الحج:٥]، وقيل: إشارة إلى نحو قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾ [الروم:٢٢]، أي: مختلفين في الخلق والخلق [٤].

والناس أطْوارٌ، أي: أَخْيافٌ على حالاتٍ شتَّى. وبلغَ فلانٌ في العلم أطْوَرَيْهِ، أي: حدَّيه: أوَّلَه وآخره. ويروى: أَطورِيه –بكسر الراء–: أي بلغ أقصاه وغايته [٥].

---

(١) المحكم والمحيط الأعظم، مادة: (تور) (٩/٥٣٠).

(٢) الكليات (ص:٣١٦).

(٣) معاني القرآن، للأخفش (٢/٥٥٠).

(٤) انظر: المفردات في غريب القرآن، مادة: (طور) (ص:٥٢٨).

(٥) انظر: انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (طور) (٢/٧٢٧)، تهذيب اللغة (١٤/١٠).

قال في (العين): "الأخياف: الأطوار، والناس أخياف، أي: على حالاتٍ شتى. وأولاد أخياف، أي: ما كانوا لأم واحدة وآباء شتى. وخُيِّفَ هذا الأمر بينهم، أي: وزع" (١).

فين :

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الفَيْناتُ: الساعات. يقال: لَقِيتُهُ الفَيْنَةَ بعد الفَيْنَة، أي: الحين بعد الحين. وإن شئت حذفت الألف واللام فقلت: لقيته فَيْنَةً، كما قالوا: لَقِيتُهُ النَّدَرَى، وفي نَدَرَى. ورجلٌ فَيْنَانٌ الشَعَر، أي: حسن الشعر طويله، وهو فعلان" (٢).

ويقال: ما أَلْقَاهُ إلَّا الفَيْنَة بعد الفَيْنَة، أي: أَحْيَانًا. ويقال: أيضًا: الحِينة بعد الحِينة، أو المرَّةَ بعد المرَّة (٣).

وفي الحديث: عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ما من عبد مؤمن إلا وله ذنب يعتاده الْفَيْنَةَ بَعْدَ الْفَيْنَةِ، أو ذَنْبٌ هُوَ مُقِيمٌ عَلَيْهِ لا يُفَارِقُهُ حتَّى يُفَارِقَ، وإنَّ الْمُؤْمِنَ خُلِقَ مُفَتَّنًا، تَوَّابًا، نَسَّاءً، إذا ذُكِّرَ ذَكَرَ**» (٤).

---

(١) العين، مادة: (خيف) (٤/٣١٢).

(٢) الصحاح، للجوهري، مادة: (فين) (٦/٢١٧٩).

(٣) انظر: المخصص، لابن سيده (٣/٤٦٦)، جمهرة اللغة (٢/٩٧٢).

(٤) أخرجه عبد بن حميد [٦٧٤]، والطبراني في (الكبير) [١١٨١٠، ١٢٤٥٧]، والأوسط [٥٨٨٤]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٦٧٢٢]، قال الهيثمي (١٠/٢٠١): "رواه الطبراني في (الكبير) و(الأوسط باختصار، وأحد أسانيد الكبير رجاله ثقات". وقال العراقي (ص:١٣٨١): "أخرجه الطبراني، والبيهقي في (الشعب) من حديث: ابن عباس بأسانيد حسنة".

فقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْفَيْنَةَ بَعْدَ الْفَيْنَةِ**» أي: الحين بعد الحين، والساعة بعد الساعة (١).

قال الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ: "قال الأصمعي رَحِمَهُ اللَّهُ: يقال: أقمت عنده فينات، أي: ساعات. وروي: كان هذا في فينة من ففين الدهر كبدرة وبدر، وهو أحد الأسماء التي يعتقب عليها التعريفان: اللامي والعلمي (٢). حكى أبو زيد رَحِمَهُ اللَّهُ: لقيته فينة والفينة، ونظيرها: لقيته سحرًا والسحر... " (٣).

المَرُّ والمرَّة:

أ. الْمَرُّ:

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة:٢٥٩].

﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ﴾ [الأعراف:١٨٩].

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾ [يونس:١٢].

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ [هود:٣٨].

---

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٤٨٦/٣)، وانظر: تفسير غريب ما في الصحيحين، لمحمد بن فتوح الحَمِيدي (ص:٢٧٠).

(٢) أي: التعريفان، أحدهما: بالألف واللام، والآخر بالوضع والعلمية.

(٣) الفائق في غريب الحديث والأثر، للزمخشري (١٥٠/٣)، وانظر: سر صناعة الإعراب، لأبي الفتح ابن جني (٤٠/٢)، (٤٠٧/٢)، شرح المفصل، لابن يعيش (١٢٣/١)، شرح الرضي على كافية ابن الحاجب (٤٩٩/١).

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف:١٠٥].

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾ [الفرقان:٧٢].

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل:٨٨].

﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الصافات:١٣٧].

﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [المطففين:٣٠].

الْمَرُّ: الْمُرُور. والْمَرُّ: المرَّةُ، تقول: في المرَّة الأولى، والْمرِ الأوَّل. ومرَّ يمرُّ من المرور. ويقال: لقد مررت: من المرَّة، أمر مرًّا ومرَّة، وهي الاسم (١).

ومرَّ من الماضي الثلاثي المضعَّف من باب نصر، وهو بمعنى: سار ومضى.

قال ابن فارس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الميم والراء أصلان صحيحان، يدل أحدهما على مضي شيء، والآخر على خلاف الحلاوة والطيب.

فالأول: مَرَّ الشَّيْءُ يَمُرُّ: إذا مضى. وَمَرُّ السَّحَابِ: انْسِحَابُهُ وَمُضِيُّه. ولقيته مرة ومرتين إنما هو عبارة عن زمان قد مرَّ. ويقولون: لقيته مَرَّةً من الْمَرِّ، يَجْمَعُونَ الْمَرَّةَ على الْمَرِّ.

والأصل الآخر: أَمَرَّ الشَّيْءُ يُمِرُّ ومَرَّ: إذا صَارَ مُرًّا. ولَقِيتُ منه الْأَمَرَّيْنِ، أي: شدائدَ غير طَيِّبَة. والأمَرَّان: الْهَمُّ والمرضُ" (٢).

---

(١) العين، مادة: (مر) (٨/٢٦١)، تهذيب اللغة (١٥/١٤٣).

(٢) مقاييس اللغة، مادة: (مر) (٥/٢٧٠).

ب. المرة:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام:٩٤].

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام:١١٠].

﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ﴾ [الأنفال:٥٦].

﴿وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [التوبة:١٣].

﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ [التوبة:٨٠].

﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [التوبة:٨٣].

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ [التوبة:١٢٦].

﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء:٧].

﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء:٥١].

﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الكهف:٤٨].

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ٣٧﴾ [طه:٣٧].

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس:٧٩].

﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٢١﴾ [فصلت:٢١].

واسْمُ الْمَرَّة أو مَصْدَرُ الْمَرَّة يستعمل للدلالة على أن الفعل حدث مرة واحدة، ويصاغ من الفعل الثلاثي على وزن فَعْلَة نحو: قَوْمَة ورَحْمَة وخَشْيَة.

وأما الفعل غير الثلاثي فاسم المرة منه، هو مصدره القياسيُّ، مضافًا إليه تاء في آخره على وزن: إفْعَالَة، نحو: إعْطَاءَة وانْطِلاَقَة، وانحدارة.

المبحث الرابع عشر

الزمن الخاص بالمرأة

أولًا: قرء:

القَرْءُ -بالفتح-: الحيض، والجمع: أقْراءٌ وقُروءٌ على فُعولٍ، وأَقْرُؤٌ في أدنى العدد. والقَرْءُ أيضًا: الطهر، وهو من الأضداد. وأقْرأتِ المرأة: حاضت، فهي مُقْرِئٌ. وأقْرَأتْ: طَهُرت. وقال الأخفش رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أقْرأتِ المرأةُ إقْراءً: إذا صارت صاحبة حيضٍ، فإذا حاضت قلت: قَرَأَتْ -بلا ألفٍ- يقال: قَرَأتِ المرأةُ حَيْضَةً أو حَيْضَتين. والقرء: انقضاء الحيض. قال: وقال بعضهم: ما بين الحيضتين. قال أبو عمرو بن العلاء: يقال دفع فلان جاريته إلى فلانة تقرئها، أي: تمسكها عندها حتَّى تحيض للاستبراء. قال: وإنما القرء: الوقت، فقد يكون للحيض، وقد يكون للطهر. واعتدَّت بثلاثة قروء، وأقراء، وأقرء [(١)].

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة:٢٢٨]، "والتربص: التلبث والانتظار، وهذا صيغته صيغة الخبر ومعناه الأمر. والقروء على وزن الفعول جمع: قرء، وهو في اللغة اسم للطهر والحيض جميعًا، وقد ورد في الشرع في مواضع لهذا ولهذا، أما للطهر فقوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لعبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «**إن من السنة أن تطلقها لكل**

---

(١) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (قرأ) (١/٦٤-٦٥)، معاني القرآن، للأخفش (١/١٨٧)، أساس البلاغة (٦٣/٢).

قرء تطليقة» (١)، أي: لكل طهر، وأما الحيض ففي قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتلك المستحاضة: «**دعي الصلاة أيام أقرائك**» (٢)، وهي جمع: قرء أيضًا، والمراد منها: الحيض، وإنما صلح هذا الاسم لهما جميعًا؛ لأن القرء في الأصل هو الوقت، والقارئ كذلك" (٣).

---

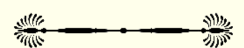
(١) أخرجه الطبراني في (الكبير) [١٣٩٩٧]، و(الشاميين) [٢٤٥٥]، قال الهيثمي (٣٣٦/٤): رواه الطبراني، وفيه: علي بن سعيد الرازي قال الدارقطني: ليس بذاك، وعظمه غيره، وبقية رجاله ثقات" اهـ. وفيه كذلك: عطاء الخراساني. وأخرجه أيضًا: الدارقطني في (السنن) [٣٩٧٤]، والبيهقي في (الكبرى) [١٤٩٣٩]، وفي (معرفة السنن والآثار) [١٤٦٦٤]، قال الحافظ في (الدراية) (٦٩/٢): أخرجه "الدارقطني، والطبراني من حديث: ابن عمر في قصة تطليقه امرأته، فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: السنة أن تستقبل الطهر فتطلق لكل قرء. وقال البيهقي: أتى عطاء الخراساني في هذا الحديث بزيادات لم يتابع عليها، وهو ضعيف" وانظر: نصب الراية (٢٢٠/٣)، فتح الغفار، للصنعاني (١٥٠٨/٣).

(٢) أخرجه أبو داود، والنسائي، والدارقطني، من حديث: فاطمة بنت أبي حبيش، والنسائي،من حديث: عائشة نحوه، والحديث مروي من طرق. قال الحافظ ابن حجر: "حديث: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «دعي الصلاة أيام أقرائك» أبو داود، والنسائي من حديث: «فاطمة بنت أبي حبيش أنها شكت إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدم، فقال: إذا أتاك قرؤك فلا تصلي، وإذا مر قرؤك فتطهري، ثم صلي ما بين القرء إلى القرء». ورواه النسائي من حديث: الزهري، عن عمرة، عن عائشة: «أن أم حبيبة كانت تستحاض، فسألت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأمرها أن تترك الصلاة قدر أقرائها وحيضها». ورواه ابن حبان من طريق: هشام، عن أبيه، عنها بنحوه. ورواه البيهقي موقوفًا، والطبراني في الصغير مرفوعًا، من طريق: قمير امرأة مسروق عنها بنحوه، وزاد: «إلى مثل أيام أقرائها». ورواه الدارقطني من طرق عن أم سلمة. وهو في أبي داود كما تقدم، ورواه الدارمي من حديث: عدي بن ثابت، عن أبيه، عن جده، وهو في الترمذي وأبي داود وابن ماجه، ولفظه: «في المستحاضة تدع الصلاة أيام أقرائها التي كانت تحيض، ثم تغتسل وتصلي» وإسناده ضعيف. وفي الباب: عن سودة بنت زمعة نحوه، وزاد «ثم تتوضأ لكل صلاة» . رواه الطبراني في الأوسط، وفيه عن جابر نحوه" التلخيص الحبير (٣٠٠/١-٣٠١)، وانظر: البدر المنير، لابن الملقن (١٢٥/٣-١٣١).

(٣) طلبة الطلبة، لنجم الدين النسفي (ص:٥٢)، وانظر: الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي (ص:٢٢٥).

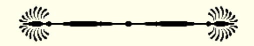
ثانيًا: ما يغلب إطلاقه في الاصطلاح الشرعي على ما يخص المرأة:

١ - عدة:



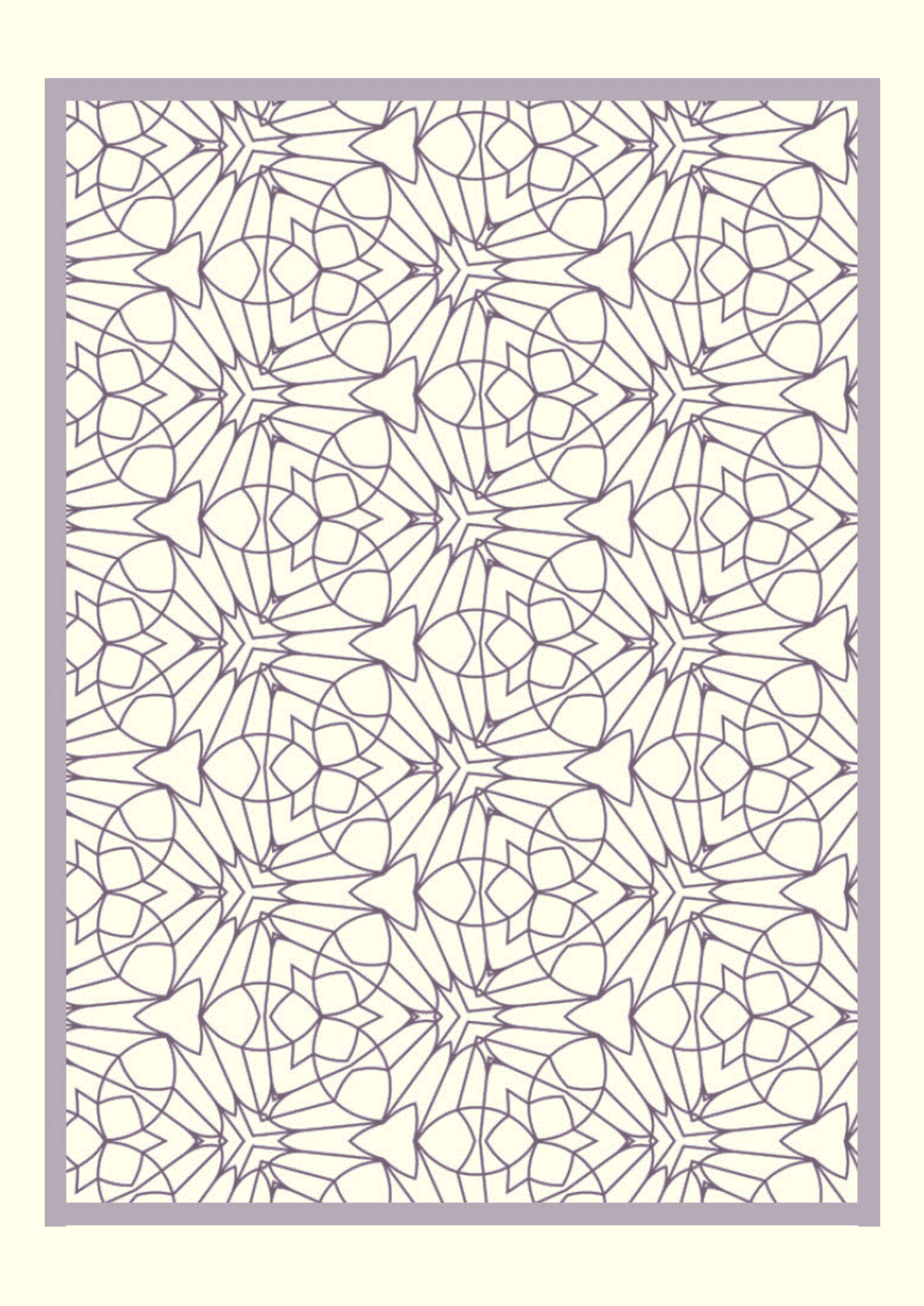
ويطلق في الاصطلاح الشرعي على عدة المرأة عند وفاة زوجها أو طلاقها، وله معان أخرى في الشرع واللغة، وقد تقدم بيانه.

٢ - تربص:



ويطلق في الاصطلاح الشرعي على تربص المرأة عند وفاة زوجها أو طلاقها أو عند الإيلاء، وله معان أخرى، وقد تقدم بيانه.





المبحث الخامس عشر

أسماء السنة وبيان أجزائها

أولًا: أسماء السنة:

سنة:

وقد تقدم ذكر السنة.

حول:

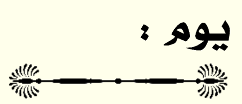
وقد تقدم ذكر الحول.

عام:

وقد تقدم ذكر العام.

ثانيًا: أجزاء السنة:

يوم:

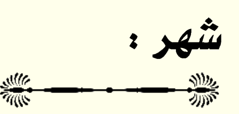


وقد تقدم ذكر اليوم.

أسبوع:

سيأتي ذكر الأسبوع.

شهر:



وقد تقدم ذكر الشهر.



ثالثًا: فصول السنة:

فصول السنة هي: (الربيع، والصيف، والخريف، والشتاء).

قال في (التهذيب): "قال أبو يحيى بن كناسة في صفة أزمنة السنة وفصولها -وكان علامة بها-: اعلم أن السنة أربعة أزمنة: الربيع الأول، وهو عند العامة: الخريف. ثم الشتاء ثم الصيف، وهو الربيع الآخر، ثم القيظ. قال: وهذا كله قول العرب في البادية.

قال: والربيع الأول الذي هو الخريف عند الفرس يدخل لثلاثة أيام من أيلول. قال ويدخل الشتاء لثلاثة أيام من كانون الأول، قال: ويدخل الصيف الذي هو الربيع عند الفرس لخمسة أيام تخلو من آذار، ويدخل القيظ الذي هو صيف عند الفرس لأربعة أيام تخلو من حزيران.

قال أبو يحيى: وربيع أهل العراق موافق لربيع الفرس، وهو الذي يكون بعد الشتاء. وهو زمان الورد، وهو أعدل الآونة، وفيه تقطع العروق، ويشرب الدواء.

قال: وأهل العراق يمطرون في الشتاء كله، ويخصبون في الربيع الذي يتلو الشتاء، وأما أهل اليمن فإنهم يمطرون في القيظ ويخصبون في الخريف الذي يسميه العرب الربيع الأول.

قال الأزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وسمعت العرب تقول لأول مطر يقع بالأرض أيام الخريف: ربيع. قال: وإنما سمي فصل الخريف خريفًا؛ لأن الثمار تُخْتَرَف فيه، وسَمَّتْهُ العرب: ربيعًا؛ لوقوع أول المطر فيه. ويقال للفصيل الذي ينتج في أول النتاج: ربع وجمعه رباع" [(١)].

---

(١) انظر: تهذيب اللغة (٢/٢٢٥-٢٢٦).

وقال في (العين): "سُمِّيَ الخريف، لأنه يُخْرَفُ فيه كل شيء أي يُؤْخَذُ ويُجْتَنَى في حينه، فهو ثلاثة أشهر بين آخر القيظ وأول الشتاء. وإذا مطر القوم في الخريف قيل: خُرِفُوا. ومطر الخريف هو الخَرَفِيُّ" (١).

والخَرَفِيُّ -بفتح العين- كما قالوا في ثقيف: ثَقَفَي، وقالوا: خَرْفِي أَيضًا بسكون العين بالنسبة إلى المصدر (٢).

وقال الجوهري رَحِمَهُ اللَّهُ: "والخريف: المطر في ذلك الوقت. وقد خُرِفْنا، أي: أصابنا مطر الخَريف. وخَرَفَتِ الأرضُ فهي مَخْروفَةٌ. قال الكسائي رَحِمَهُ اللَّهُ: يقال: عَامَلْتُه مُخَارَفَةً من الخَريفِ، كالمشاهرة من الشهر" (٣).

و"الشِّتاء: معروف، والواحدة: شتوة. والموضعُ: المشتى والمشتاةُ، والفعلُ: شتا يشتو. ويوم شاتٍ" (٤).

قال المبرّد رَحِمَهُ اللَّهُ: هو جمع: شَتْوَةٍ (٥).

وجمع الشِتاءِ: أَشْتِيَةٌ. والنسبة إليها: شَتْوِيٌّ وشَتَوِيٌّ، مثل: خَرَفِي وخَرْفِي. وشَتَوْتُ بموضع كذا وتَشَتَّيْتُ: أقمت به الشِتاءَ. وأَشْتى القوم: دخلوا في الشتاء. قال الكسائي رَحِمَهُ اللَّهُ: عاملته مُشاتَاةً، من الشتاء. والشتي على فعيل، والشتوى: مطر الشتاء" (٦).

---

(١) العين، مادة: (خرف) (٤/٢٥١-٢٥٢).

(٢) انظر: شرح شافية ابن الحاجب (٢/٨٢).

(٣) الصحاح، مادة: (خرف) (٤/١٣٤٩).

(٤) العين (٦/٢٧٨).

(٥) كـ: (قصعة)، و(قصاع)، و(صحفة)، و(صحاف)، وأنت إذا نسبت إلى جمع؛ رددته إلى واحده، فعلى هذا يكون قياسًا. فعلى هذا شَتْوي قياس؛ لأن الجمع في النسب يرد إلى واحده.

(٦) الصحاح، للجوهري، مادة: (شتا) (٦/٢٣٨٩)، وانظر: المفردات في غريب القرآن، مادة: (شتا) (ص:٤٤٥).

وقال قطرب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فأوَّلُ الشتوية يُقالُ له: (الوسميُّ)، والثاني: (الشتويُّ)، والثالث: (الربيعُ).

وأَوَّلُ الصيفِ يُقال له: (الصيفُ)، والثاني: (الحميمُ)، والثالث: (الخريفُ).

وقالَ آخرون: السنةُ عند العربِ أَربعةُ أزمنة: فأَوَّلُها: (الوسميُّ)، والثاني: (الرَّبيعُ)، والثالثُ: (الصيفُ)، والرابع، في لغة أهل الحجاز: (الخريفُ)، وفي لغة تميم: (الحميمُ)" [١].

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والربيع عند العرب ربيعان:

ربيع الشهور، وربيع الأزمنة: فربيع الشهور شهران بعد صفر، ولا يقال فيه إلا شهر ربيع الأول، وشهر ربيع الآخر.

وأما ربيع الأزمنة فربيعان: الربيع الأول: وهو الذي تأتي فيه الْكَمْأَةُ وَالنَّوْرُ وهو ربيع الْكَلَإِ. والربيع الثاني: وهو الذي تدرك فيه الثمار، وفي الناس من يسميه الربيع الأول.

وسمعت أبا الغوث يقول: العرب تجعل السنة ستة أزمنة: شهران، منها: الربيع الأول، وشهران صيف، وشهران قيظ، وشهران الربيع الثاني، وشهران خريف، وشهران شتاء. وجمع الربيع: أربعاء، و أربعة، مثل: نصيب وأنصباء وأنصبة. والمربع: منزل القوم في الربيع خاصة تقول هذه (مرابعنا) ومصايفنا أي حيث نرتبع ونصيف. والنسبة إلى الربيع: (ربعي) بكسر الراء" [٢].

والصَيْفُ: واحد فصول السنة، وهو بعد الربيع الأول، وقيل: القيظ. يقال: صيف صائف، وهو توكيد له كما يقال: ليلٌ لَائِل، وَيَوْمٌ (صَائِفٌ) أي: حَارٌّ وليلةٌ صَائِفَة.

---

(١) الأزمنة وتلبية الجاهلية (١/٢٢-٢٣).

(٢) الصحاح، للجوهري، مادة: (ربع) (١٢١٢/٢).

وعَامَلَه مُصَايَفَةً، أي: أَيَّامَ الصَّيْفِ، وصَافَ بالمكان: أقَامَ به الصَّيْفَ، واصْطَافَ مِثْلُهُ، والموضع: مَصِيفٌ وَمُصْطَافٌ. وتَصَيَّفَ من الصَّيْف، كما تقولُ: تشَتَّى من الشِّتَاء (١).

قال في (العين): "الصَّيفُ: رُبْعٌ من أرباع السَّنَةِ، والصَّيِّفُ من المطر والأزمنة والنبات: ما يكون في الرُّبْع الذي يتلو الربيعَ من السنة، وهو الصَّيْفيُّ. ويومٌ صائفٌ وليلةٌ صائفةٌ. وصافَ القوم في مَصيفهم: إذا أقامُوا في مكان صَيْفَتهم. وغَزوةٌ صائفةٌ: أَنهم كانوا يخرُجُون صيفاً ويرجِعونَ شِتاءً" (٢).

و"سمِّي المطر الآتي في الصَّيْفِ: صَيْفًا، كما سمِّي المطر الآتي في الرَّبيع ربيعًا. وصَافُوا: حصلوا في الصَّيْفِ، وأصَافُوا: دخلوا فيه" (٣).

وفي حديث الكلالة حين سئل عنها عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال له: «**تَكْفِيكَ آيَةُ الصَّيْفِ**» (٤) أي: التي نزلت في الصيف. وهي الآية التي في آخر سورة النساء. والتي في أولها نزلت في الشتاء (٥).

ولا يخفى أن للمسلمين عناية واهتمام بالغ بالقرآن الكريم، حيث إنَّهم لم يكتفوا بحفظ النَّص القرآني فحسب، بل تتبَّعوا أماكن نزوله، ما كان قبل الهجرة وما كان بعدها، ما نزل باللَّيل وما نزل بالنَّهار، ما نزل في الصَّيف وما نزل في الشِّتاء، إلى غير ذلك من الأحوال، وذلك مما يعطي الثِّقة بهذا القرآن، وبوصوله إلينا سالما من التَّغيير والتَّحريف.

---

(١) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (صيف) (١٣٨٩/٤).

(٢) العين، مادة: (صيف) (١٦٤/٧).

(٣) المفردات، مادة: (صيف) (ص:٤٩٩-٥٠٠).

(٤) صحيح مسلم [٥٦٧، ١٦١٧].

(٥) انظر: مادة: (صيف) في (النهاية في غريب الحديث والأثر) (٦٧/٣-٦٨).

وقد ذكر القران الكريم الشتاء والصيف في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢﴾ [قريش:١-٢].

وفي الحديث: «**مَنْ صَامَ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، بَعَّدَ اللَّهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا**» (١).

قال الإمام ابن دقيق العيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والخريف يعبر به عن السنة، فمعنى «**سبعين خريفًا**»: سبعون سنة. وإنما عبر بالخريف عن السنة؛ من جهة أن السنة لا يكون فيها إلا خريف واحد؛ فإذا مر الخريف فقد مضت السنة كلها، وكذلك لو عبر بسائر الفصول عن العام، كان سائغًا بهذا المعنى؛ إذ ليس في السنة إلا ربيع واحد، وصيف واحد. قال بعضهم: ولكن الخريف أولى بذلك؛ لأنه الفصل الذي يحصل به نهاية ما بدأ في سائر الفصول؛ لأن الأزهار تبدو في الربيع، والثمار تتشكل صورها في الصيف، وفيه يبدو نضجها، ووقت الانتفاع بها أكلًا، وتحصيلًا وادِّخارًا في الخريف، وهو المقصود منها، فكان فصل الخريف أولى بأن يعبر به عن السنة من غيره -والله أعلم-" (٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ قال: كنا مع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ إذ سمع وَجْبَة (٣)، فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**تَدْرُونَ ما هذا؟**» قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «**هذا حَجَرٌ رُمِيَ به في النَّار منذُ سبعينَ خريفًا، فهو يَهْوِي في النَّارِ الآن، حتى انتهى إلى قَعْرِهَا**» (٤).

---

(١) صحيح البخاري [٢٨٤٠]، مسلم [١١٥٣].

(٢) إحكام الإحكام شرح عمدة الأحكام (٣٧/٢).

(٣) «وجبة» -بفتح الواو وإسكان الجيم-: السقطة من علو إلى سفل بصوت قوي مزعج. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١٧٩/١٧)، كشف المشكل من حديث الصحيحين (٥٧٦/٣).

(٤) صحيح مسلم [٢٨٤٤].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ألا من قتل نفسًا معاهدًا، له ذِمَّةُ الله وذِمَّةُ رسوله، فقد أَخْفَرَ بِذِمَّةِ الله، فلا يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفًا**» (١).

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفًا**» (٢).

قال ابن الأثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "الخريف: الزمان المعروف من فصول السنة: ما بين الصيف والشتاء. ويريد به: أربعين سنة؛ لأن الخريف لا يكون في السنة إلا مرة واحدة، فإذا انقضى أربعون خريفًا فقد مضت أربعون سنة" (٣).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وفي حَافَتَيِ الصِّرَاطِ كلالِيبُ مُعَلَّقَةٌ مأمورةٌ بِأَخْذِ من أُمِرَتْ به، فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ، ومَكْدُوسٌ في النار**» والذي نفس أبي هريرة بيده إنَّ قعر جهنم لسبعون خريفًا (٤).

وقد روي عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**الشِّتاء ربيع المؤمن**» (٥).

---

(١) أخرجه ابن ماجه [٢٦٨٧]، والترمذي [١٤٠٣]، واللفظ له، وقال: "حسن صحيح". وأخرجه أيضًا: الحاكم [٢٥٨١]، وقال: "صحيح على شرط مسلم"، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه أحمد [١٤٤٧٦]، وعبد بن حميد [١١١٧]، والترمذي [٢٣٥٥]، وقال: "حديث حسن".

(٣) انظر: مادة: (خرف) في (النهاية في غريب الحديث والأثر) (٢/٢٤-٢٥).

(٤) صحيح مسلم [١٩٥].

(٥) أخرجه أحمد [١١٧١٦]، وأبو يعلى [١٠٦١]، وابن عدي [٦٤٧]، وقال: "قال أحمد: أحاديث دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد فيها ضعف..الخ"كما أخرجه أبو نعيم في (الحلية) (٣٢٥/٨)، والشهاب القضاعي [١٤١]، والديلمي [٣٦٧٢]. والبيهقي في (الكبرى) [٨٤٥٦]، وزاد: «قَصُرَ نهارُهُ فَصَامَ، وطال ليلُهُ فَقَامَ» قال الهيثمي (٢٠٠/٣): "رواه أحمد وأبو يعلى، وإسناده حسن". وقال ابن الجوزى في (العلل المتناهية) [٥٠١]، وقال: "قال الدارقطني: تفرد به عمرو عن دراج. قال أحمد: أحاديث دراج منكرة". قال السخاوي: "لكن قد وثقه ابن معين وابن حبان، وقال ابن شاهين في ثقاته: ما كان من حديثه عن=

فالشتاء ربيع المؤمن يرتع فيه في بساتين العبادات، ويسرح في ميادين الطَّاعات والقربات؛ لأن ليله طويل لقيام الليل، ونهاره قصير من أجل الصيام. والربيع هو محراب المؤمن لعبادة الله عَزَّوَجَلَّ، والتدبر والتأمل.

وقد كان السَّلف يفرحون بقدوم فصل الشِّتاء؛ لقصر نهاره للصّائم؛ لما فيه من فرصٍ للطَّاعة والعبادة: بليله الطَّويل الذي يجعل للمؤمن فسحةً لقيامه، ونهاره القصير البارد الذي يرغِّب المؤمن في صيامه، فهو ربيع المؤمن، وغنيمته الباردة. و(الغنيمة الباردة)، وهي التي يتحصَّل عليها الجيش من غير قتالٍ وتعبٍ.

قال المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«الشتاء ربيع المؤمن»**؛ لأنه يرتع فيه في روضات الطاعات، ويسرح في ميادين العبادات، وينزه القلب في رياض الأعمال، فالمؤمن فيه في سعة عيش من أنواع طاعة ربه جَلَّ وَعَلَا، فلا الصوم يجهده، ولا الليل يضيق عن نومه وقيامه كالماشية تربع في زهر رياض الربيع. قال العسكري: إنما قال الشتاء ربيع المؤمن؛ لأن أحمد الفصول عند العرب فصل الربيع؛ لأن فيه الخصب ووجود المياه والزرع؛ ولهذا كانوا يقولون للرجل الجواد: هو ربيع اليتامى، فيقيمونه مقام الخصب والخير كثير الوجود في الربيع" (١).

وفي فصل الشتاء يستذكر المؤمن نِعَمَ الله عَزَّوَجَلَّ الكثيرة، والتي منها: المسْكَنُ والملْبَس، وقد امْتَنَّ اللهُ عَزَّوَجَلَّ على عباده فقال: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا

=أبي الهيثم عن أبي سعيد، فليس به بأس. قال: وعليه مشى شيخي في تقريبه حيث قال: إنه صدوق في حديثه عن أبي الهيثم، ضعيف، يعني في غيره، وعكس أبو داود فقال: أحاديثه مستقيمة، إلا ما كان عن أبي الهيثم عن أبي سعيد، وعلى كل حال فلهذا الحديث شواهد..الخ" المقاصد الحسنة (٦/٣٧٨-٣٧٩). والحديث يروى من طرق لا تخلو من ضعف. ويروى عند البيهقي موقوفًا.

(١) فيض القدير (٤/١٧٢).

تَأۡكُلُونَ ۝٥﴾ [النحل:٥]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتًا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ۝٨٠ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ۝٨١﴾ [النحل:٨٠-٨١].

وهذا التَّذكر يحرِّض المؤمن على النَّظر إلى حال الضعفاء والمساكين ممن لا مأوى لهم، ولا لباس، فيتفقد أحوالهم، ويكون عونًا لهم.

وشدَّةُ البرد فِي الشِّتَاءِ من المذكِّرات بما أعده الله عَزَّوَجَلَّ للكافرين والعصاة في جهنَّم، كما جاء في الصحيح: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**اشْتَكَتِ النَّارُ إلى ربِّها، فقالت: رَبِّ، أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا، فَأَذِنَ لها بِنَفَسَيْنِ؛ نَفَسٍ في الشِّتَاء، ونَفَسٍ في الصَّيْفِ، فَأَشَدُّ ما تَجِدُونَ من الحَرِّ، وأشَدُّ ما تَجِدُونَ من الزَّمْهَرِيرِ**»(١).

ومن الأعمال الفاضلة في فصل الشتاء: إسْباغُ الوضوء وإتمامه في شدَّة البَرْدِ وعدمُ التَّساهل في ذلك؛ لما فيه من الأجر العظيم، والفضل الكبير؛ كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسُول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ألا أَدُلُّكُمْ على ما يَمْحُو اللَّهُ به الْخَطَايَا، ويرفَعُ به الدَّرَجَاتِ؟**»، قالوا: بلى يا رسولَ اللَّه، قال: «**إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ على الْمَكَارِه، وكَثْرَةُ الخُطَا إلى المساجد، وانتظار الصَّلَاةِ بعد الصَّلَاة، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ**» (٢).

وأما الربيع فقد جاء ذكره متمثلًا به في رواية: عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أنها تَمَثَّلَتْ بهذا البيت وأبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقضي:

وأَبْيَض يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِه ... رَبِيعُ الْيَتَامَى عِصْمَةٌ للأرملِ

---

(١) صحيح البخاري [٥٣٦، ٥٣٧، ٣٢٦٠]، مسلم [٦١٧].

(٢) صحيح مسلم [٢٥١].

فقال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ذاك والله رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (١).

وفي (صحيح البخاري): عن عبد الله بن دينار، عن أبيه، قال: سمعت ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يتمثل بشعر أبي طالب:

وأبيض يُسْتَسْقَي الغَمَامُ بوَجْهِهِ ثِمَالُ اليَتَامَى عِصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ

وقال عمر بن حمزة، حدثنا سالم، عن أبيه، ربما ذكرت قول الشاعر، وأنا أنظر إلى وجه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يَسْتَسْقِي، فما يَنْزِلُ حَتَّى يَجِيشَ كُلُّ مِيزَابٍ:

وأبيض يُسْتَسْقَي الغَمَامُ بوَجْهِهِ ثِمَالُ اليَتَامَى عِصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ

وهو قول أبي طالب (٢).

وكما جاء ذكر الربيع متمثلًا به فيما رواه: عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما أصاب أحدًا قَطُّ هَمٌّ ولا حزن، فقال: اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، ماضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أو عَلَّمْتَهُ أحَدًا من خَلْقِكَ، أو أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أو اسْتَأْثَرْتَ به في عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ: أن تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، ونُورَ صَدْرِي، وجِلَاءَ حُزْنِي، وذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وحُزْنَهُ، وأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا**»، قال: فقيل: يا رسول الله، ألا نَتَعَلَّمُهَا؟ فقال: «**بلى، ينبغي لمن سمعها أن يَتَعَلَّمَهَا**» (٣).

---

(١) أخرجه أحمد [٢٦]، واللفظ له، والبزار [٥٨] وحسّنه، والدينوري في (المجالسة) [٥٧٤]، وابن الأعرابي [١٠٢٢]، قال الهيثمي (٢/٢٧٢): "رواه أحمد والبزار، ورجاله ثقات" وفي إسناده: علي بن زيد.

(٢) صحيح البخاري [١٠٠٨، ١٠٠٩]، (ثمال اليتامى): مطعمهم وقائم بأمرهم.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في (مصنفه) [٢٩٣١٨]، وأحمد [٣٧١٢]، واللفظ له، والبزار [١٩٩٤]، وأبو يعلى [٥٢٩٧]، وابن حبان [٩٧٢]، والطبراني [١٠٣٥٢]، والحاكم [١٨٧٧]، وقال: "صحيح على شرط مسلم إن سلم من إرسال عبد الرحمن بن عبد الله، عن أبيه؛ فإنه مختلف في سماعه عن أبيه". قال الهيثمي (١٠/١٣٦): "رجاله رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني، وقد وثقه ابن حبان".

قال ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "جعله ربيعًا له؛ لأن الإنسان يرتاح قلبه في الربيع من الأزمان، ويميل إليه" (١).

قال الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "كما أن الربيع زمان إظهار آثار رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، وإحياء الأرض بعد موتها، كذلك القرآن يظهر منه تباشير لطف الله عَزَّوَجَلَّ من الإيمان والمعارف، وتزول به ظلمات الكفر والجهالة والهموم" (٢).

وقال القاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "كما أن الربيع سبب ظهور آثار رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، وإحياء الأرض بعد موتها، كذلك القرآن سبب ظهور تأثير لطف الله عَزَّوَجَلَّ من الإيمان والمعارف، وزوال ظلمات الكفر والجهل والهرم" (٣).

وكان مالك بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: ما زرع القرآن في قلوبكم يا أهل القرآن، إن القرآن ربيع المؤمن كما أن الغيث ربيع الأرض (٤).



(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (ربع) (٢/١٨٨).

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٦/١٩١٠).

(٣) مرقاة المفاتيح (٤/١٧٠١).

(٤) انظر: الزهد، لأحمد بن حنبل (١/٢٥٨)، حلية الأولياء (٢/٣٥٨)، مختصر قيام الليل، لمحمد بن نصر المَرْوَزِي (ص:١٧٥)، إحياء علوم الدين (١/٢٨٥)، سير السلف الصالحين، لإسماعيل بن محمد الأصبهاني (ص:٩٣٤)، التبصرة، لابن الجوزي (٢/٢٦٨)، صفة الصفوة (٢/١٦٢).

رابعًا: أيام الأسبوع:

الأُسبوع هو وحدة زمنية أطول من اليوم وأقصر من الشهر.

وأيام الأسبوع هي: (السبت، والأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة).

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ [البقرة:٦٥].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ﴾ [النساء:٤٧].

﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ [النساء:١٥٤].

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ﴾ [الأعراف:١٦٣].

﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ﴾ [النحل:١٢٤].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ [الجمعة:٩].

أما السَبتُ فقيل هو: الراحة. وقيل: هو بُرهةٌ من الدهر. وقيل: حَلْقُ الرَّأْسِ، وَضَرْبُ الْعُنُقِ. ومنه سمِّي يومُ السَبْتِ، لانقطاع الأيَّام عنده. والجمع: أَسْبُتٌ وسُبُوتٌ. والسَبْتُ: قيام اليهود بأمرِ سَبْتها. قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ [الأعراف:١٦٣]. وأسبتت اليهود، أي: دخَلَتْ في السَبْتِ. والْمُسْبِت: الذي لا يتحرَّك، وقد أَسْبَتَ. والسُباتُ: النوم، وأصله: الراحة. ومنه قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩﴾ [النبأ:٩]..(١).

---

(١) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (سبت) (١/ ٢٥٠).

قال في (العين): "والسُّباتُ: النوم الغالب الكثير، والمريضُ يَسْبُتُ سَبْتًا فهو مسبوت. والسُّباتُ من النوم: شِبهُ غَشيةٍ. وسَبَتَ رأسَه: إذا جزَّهُ مستأصلًا. والسَّبُتُ بُرهةٌ من الدهر"(١).

قال أبو عبيدة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩﴾، أي: ليس بموت، رجل مسبوت فيه روح"(٢).

وقال الزَّجَّاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "السُّبَاتُ: أن يَنْقَطِع عن الحَرَكة والرُّوحُ في بَدَنه، أَي: جعلنَا نومَكم رَاحَة لكم" (٣).

قال أبو بكر بن الأنباري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "السبت، معناه في كلام العرب: القطع، يقال: قد سَبَتَ رأسَه: إذا حَلَقَه، وقَطَعَ الشعرَ منه. ويقال: نَعْلٌ سِبْتِيَّةٌ: إذا كانت مدبوغة بالقرظ، محلوقة الشعر.

فسمي السبت سبتًا؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ ابتدأ الخلق فيه، وقطع فيه بعض خلق الأرض. أو لأن الله جَلَّ وَعَلَا أمر بني إسرائيل فيه بقطع الأعمال وتركها. وقال: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩﴾، فمعناه: قطعًا لأعمالكم.

قال: وأخطأ من قال: سمي السبت؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ أمر فيه بني إسرائيل بالاستراحة من الأعمال. وخلق هو السموات والأرض في ستة أيام، آخرها يوم الجمعة، واستراح يوم السبت.

وهذا خطأ؛ لأنه لا يعلم في كلام العرب: (سبت) بمعنى: (استراح)، وإنما المعروف فيه: قطع، ولا يوصف الله عَزَّوَجَلَّ بالاستراحة؛ لأنه لا يتعب فيستريح، ولا يشتغل فينتقل

---

(١) العين، مادة: (سبت) (٢٣٨/٧-٢٣٩).

(٢) مجاز القرآن، لأبي عبيدة (٢٨٢/٢).

(٣) معاني القرآن وإعرابه (٢٧٢/٥).

من الشغل إلى الراحة. والراحة لا تكون إلا بعد تعب أو شغل، وكلاهما زائل عن الله عزَّ ذكره.

واتفق أهل العلم على أن الله عَزَّوَجَلَّ ابتدأ الخلق يوم السبت، ولم يخلق يوم الجمعة سماء ولا أرضًا. وقالت اليهود: ابتدأ الله عَزَّوَجَلَّ الخلق يوم الأحد، وفرغ يوم الجمعة، واستراح يوم السبت.

فقول هؤلاء خارج عن اللغة، وموافق لتأويل اليهود، ومباين لقول المسلمين"(١).

من المقرر عند أهل الإيمان الراسخ، أن المولى جَلَّوَعَلَا قادر على كل شيء، وقدرته جَلَّوَعَلَا ليس لها حدود، فله جَلَّوَعَلَا مطلق القدرة، وكمال الإرادة، ومنتهى الأمر والقضاء، وإذا أراد شيئًا كان كما أراد، وفي الوقت الذي يريد، وبالكيفية التي أرادها جَلَّوَعَلَا.

وقد تواترت النصوص القطعية في الكتاب والسنة على تقرير هذا الأمر، وبيانه بيانًا واضحًا لا لبس فيه ولا غموض، وما من أمر يفعله الله عَزَّوَجَلَّ إلا وله فيه بالغ الحكمة، وقد تكون هذه الحكمة ظاهرة للعباد أو لبعضهم، وقد تخفى عليهم؛ لقصور علمهم وضعفهم.

والجهل بتلك الحكمة فلا يعني نفيها، أو الاعتراض من جاهل على أفعال الله عَزَّوَجَلَّ، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء:٢٣].

وقد قيل في الحكمة من خلق السماوات والأرض في ستة أيام:

إن الله عَزَّوَجَلَّ أن يعلم العباد الرفق والتثبت في الأمور، ولا سيما أنه يكثر عند العباد الزلل بسبب التعجل.

وقيل: إنه جَلَّوَعَلَا أراد أن يوقع في كلِّ يوم أمرًا تستعظمه الملائكة، ومن يشاهده.

---

(١) الزاهر في معاني كلمات الناس، لأبي بكر الأنباري (٢/١٣٧)، وانظر: تهذيب اللغة (١٢/٢٦٨-٢٦٩).

وقيل: إن التعجيل أبلغ في القدرة، والتثبيت أبلغ في الحكمة ، فأراد جَلَّ وَعَلَا إظهار حكمته في ذلك، كما يظهر قدرته في قوله: ﴿كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة:١١٧].

وقيل غير ذلك.

وقد قيل: إن الأرض قد عمرها قبل آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ الجن، ومنهم إبليس [١].

وقد قال غير واحد من أهل العلم: إن أول أيام الأسبوع السبت.

وجاء في (الروض الأنف) أنه لم يقل بأن أوله الأحد إلا ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ، وتعقبه فيه [٢].

وقال أبو جعفر النحاس رَحِمَهُ اللَّهُ: "واختلف المسلمون في اليوم الذي ابتدئ فيه الخلق، وفي أول الأيام فقال قومٌ: أولها الأحد؛ وقال قومٌ: أولها السبت، وقال قومٌ: أول الأيام: الأحد، وأول الجمعة: السبت، وهذا أحسنها" [٣]. ودلل على قوله بما يراه أقرب إلى الصواب.

وذكر القلقشندي رَحِمَهُ اللَّهُ أن اختلف الناس في ذلك على ثلاثة مذاهب:

المذهب الأول: أن أوَّل أيام الأسبوع، وابتداء الخلق: الأحد.

المذهب الثاني: أن أوَّل أيام الأسبوع وابتداء الخلق: السبت.

المذهب الثالث: أن أوَّل أيام الأسبوع: الأحد [٤].

وقد قالوا: سمي الاثنين؛ لأنه ثاني الأسبوع، والخميس؛ لأنه خامسه، كذا نقله الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ عن أهل اللغة. قالوا: وهو مبني على أن أول الأسبوع الأحد، وقد

(١) انظر: فيض القدير (٣/٤٤٧).

(٢) انظر: الروض الأنف، للسهيلي (٤/٥٩-٦٠).

(٣) عمدة الكتاب، لأبي جعفر النحاس (ص:٨٧-٨٨).

(٤) انظر: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء (٢/٣٩٢).

نقله ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الأكثرين، لكن قال السهيلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الصواب أن أول الأسبوع هو السبت، وهو قول العلماء كافة [١]. وفي المسألة خلاف مطول ينظر في مظانه.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "سمي الاثنين؛ لأنه ثاني الأيام. وقال أبو جعفر النحاس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سببه أنه لا يثنى ولا يجمع، بل يقال مضت أيام الاثنين. قال: وقد حكى البصريون اليوم: الأثن، والجمع: الثني. وذكر الفراء رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن جمعه: الأثانين والأثان. وفي كتاب سيبويه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اليوم: الثِّنَى -مقصورًا-، فعلى هذا جمعه: الأثناء [٢].

وقال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا يُثَنَّى ولا يجمع؛ لأنه مثنى، فإن أحببت أن تجمعه كأنه صفة للواحد قلت: أثانين. وقولهم: هذا ثاني اثْنَيْنِ، أي: هو أحد الاثنين. ويوم الخميس؛ لأنه خامس الأسبوع. قال النحاس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: جمعه: أخمسة وخمس وخمسان، كرغيف ورغف ورغفان، وأخمساء كأنصباء، وأخامس حكاه الفراء رَحِمَهُ ٱللَّهُ" [٣].

---

(١) انظر: مغني المحتاج، للخطيب الشربيني (٢/١٨٢)، تحفة المحتاج (٣/٤٥٤)، أسنى المطالب في شرح روض الطالب (١/٤٣٢)، إعانة الطالبين (٢/٣٠٦)، حاشيتا قليوبي وعميرة (٢/٩٢)، مرقاة المفاتيح (٤/١٤٢١)، فيض القدير (٣/٤٤٧)، (٥/١٦٨).

(٢) انظر: الكتاب، لسيبويه (٣/٣٩٣).

(٣) تحرير ألفاظ التنبيه، للإمام النووي (ص:١٢٩-١٣٠)، بتصرف يسير، وانظر: المجموع شرح المهذب (٦/٣٨٥-٣٨٦)، الصحاح، للجوهري، مادة: (ثني) (٦/٢٢٩٥)، الأزمنة وتلبية الجاهلية، لقطرب (ص: ٣٥)، تهذيب اللغة (١٥/٣٤٩).

ما جاء في الخميس والاثنين :

سئل النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن صوم يوم الاثنين؟ قال: «**ذاك يوم ولدت فيه، ويوم بعثت -أو أنزل علي فيه-**» (١).

وعن أبي هريرة رَضِيَاللَّهُعَنْهُ، عن رسول الله صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، قال: «**تُعْرَضُ لأعمال في كل يوم خميس واثنين، فيغفر الله** عَزَّوَجَلَّ **في ذلك اليوم، لكل امرئ لا يشرك بالله شيئا، إلا امرأ كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: ارْكُوا هَذَيْنِ حتَّى يَصْطَلِحَا، ارْكُوا هذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا**» (٢).

وعن عائشة رَضِيَاللَّهُعَنْهَا قالت: «**كان النبي** صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **يتحرى صوم الاثنين والخميس**» (٣).

تخصيص يوم الجمعة من بين أيام الأسبوع بالفضل :

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩﴾ [الجمعة:٩].

فاضَل الحقُّ عَزَّوَجَلَّ بين الأزمنة كما فاضَلَ بين الأمكنة، وكما فاضَلَ بين الخلائق. فمن الأزمنة الفاضلة من أيام الأسبوع: يوم الجمعة، ومن أيام السنة: يوم النحر، ويوم عرفة، ومن ليالي السنة: ليلة القدر، ومن شهور السنة: شهر رمضان.

---

(١) صحيح مسلم [١١٦٢].

(٢) صحيح مسلم [٢٥٦٥].

(٣) أخرجه أحمد [٢٤٥٠٩]، والترمذي [٧٤٥]، وقال: "وفي الباب: عن حفصة، وأبي قتادة، وأبي هريرة، وأسامة بن زيد. حديث عائشة حديث حسن غريب من هذا الوجه"، كما أخرج الحديث أبو نعيم في (الحلية) (١٢٣/٧).

قال المقريزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (تذكرته): "يستجاب الدعاء في أوقات، وذكر منها: "وفي ساعة من يوم الجمعة.." [١].

وذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن أوقات الإجابة الستة هي: الثلث الأخير من الليل، وعند الأذان، وبين الأذان والإقامة، وأدبار الصلوات المكتوبات، وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتى تقضى الصلاة من ذلك اليوم، وآخر ساعة بعد العصر[٢].

وقد نصَّ العلماء على أن الأعمال الصالحة يتضاعف ثوابها؛ لشرف الزمان، أو شرف المكان، أو بهما معًا، وكذا المعصية يتضاعف وزرها في الأماكن المفضلة، كمكة -شرفها الله عَزَّوَجَلَّ-، وفي الأزمنة المفضلة، كرمضان وغيره.

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ إذا أحبَّ عبدًا استعمله في الأوقات الفاضلة بفواضل الأعمال، وإذا مقته استعمله في الأوقات الفاضلة بسيء الأعمال؛ ليكون ذلك أوجع في عقابه، وأشد لمقته؛ لحرمانه بركة الوقت، وانتهاكه حرمة الوقت"[٣].

وقال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "العمل المفضول في الوقت الفاضل يلتحق بالعمل الفاضل في غيره ويزيد عليه لمضاعفة ثوابه وأجره" [٤].

وقال ابن مفلح رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الآداب الشرعية): "زيادة الوزر كزيادة الأجر في الأزمنة والأمكنة المعظمة" [٥]. قال الشيخ تقي الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "المعاصي في الأيام المعظمة والأمكنة المعظمة تغلظ معصيتها وعقابها بقدر فضيلة الزمان والمكان" [٦].

---

(١) انظر: فيض القدير (٣/٣٠١).

(٢) انظر: الجواب الكافي (ص:١٢).

(٣) إحياء علوم الدين (١/١٨٨).

(٤) لطائف المعارف (ص:٢٦١).

(٥) الآداب الشرعية (٣/٤٣٠).

(٦) الفتاوى الكبرى، لابن تيمية (٣/٤١٢).

ولذلك قال بعض الفقهاء في الإعلان عن النكاح -مثلًا-: يراعى فيه المكان والزمان الفاضل. قال ابن الهمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يستحب مباشرة عقد النكاح في المسجد؛ لكونه عبادة وكونه في يوم الجمعة" (١).

وقد ذهب الحنفية والشافعية والحنابلة إلى أنه يندب عقد النكاح يوم الجمعة. قال ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ويستحب عقد النكاح يوم الجمعة؛ لأن جماعة من السلف استحبوا ذلك؛ منهم ضمرة بن حبيب، وراشد بن سعد، وحبيب بن عتبة رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ؛ ولأنه يوم شريف، ويوم عيد، فيه خلق الله عَزَّوَجَلَّ آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ" (٢).

والبركة في النكاح مطلوبة، فاستحب له أشرف الأيام طلبًا للبركة" (٣).

وقد يجتمع في يوم واحد عيدان، كما إذا اجتمع يوم الجمعة مع يوم عرفة، أو مع يوم النحر، فيزداد ذلك اليوم حرمة وفضلًا؛ لاجتماع عيدين فيه.

وقد اجتمع للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حجته يوم عرفة، فكان يوم جمعة، وفيه نزلت هذه الآية: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة:٣].

---

(١) مرقاة المفاتيح (٢٠٧٢/٥)، تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، للزيلعي (٩٥/٢)، البحر الرائق شرح كنز الدقائق، لابن نجيم المصري (٨٦/٣).

(٢) المغني، لابن قدامة (٨٤/٧)، الشرح الكبير على متن المقنع (٣٦٧/٧)، والحديث في (صحيح مسلم [٨٥٤]، ونصه: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة» وقد تقدم.

(٣) دقائق أولي النهى، لمنصور بن يونس البهوتي (٦٣٠/٢)، كشاف القناع (٢٠/٥)، كشف المخدرات (٥٨١/٢)، مطالب أولي النهى (٢٦/٥).

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة**»(١).

قال الترمذي رَحِمَهُٱللَّهُ: "وفي الباب: عن أبي لبابة، وسلمان، وأبي ذر، وسعد بن عبادة، وأوس بن أوس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ"(٢).

وعن أَوْسِ بن أَوْسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خُلِقَ آدم، وفيه قُبِضَ، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا عَلَيَّ من الصلاة فيه؛ فإن صلاتكم معروضة عَلَيَّ**» قال: **قالوا: يا رسول الله، وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أَرِمْتَ** -يقولون: بَلِيتَ-؟ فقال: «**إن الله** عَزَّوَجَلَّ **حرَّم على الأرض أجساد الأنبياء**»(٣).

ويوم الجمعة هو خيرُ يوم طلعَتْ فيه الشمس، كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أهبط منها، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم يصلي فيسأل الله فيها شيئا إلا أعطاه إياه**»، قال أبو هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: فلقيت عبد الله بن سلام فذكرت له هذا الحديث، فقال: أنا أعلم بتلك الساعة، فقلت: أخبرني بها ولا

---

(١) صحيح مسلم [٨٥٤].

(٢) سنن الترمذي [٤٨٨].

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة [٨٦٩٧]، وأحمد [١٦١٦٢]، والدارمي [١٦١٣]، وابن ماجه [١٠٨٥]، وأبو داود [١٠٤٧]، وابن أبي عاصم في (الآحاد والمثاني) [١٥٧٧] والنسائي [١٣٧٤]، وابن خزيمة [١٧٣٣]، وابن حبان [٩١٠]، والطبراني في (الكبير) [٥٨٩]، و(الأوسط) [٤٧٨٠]، والحاكم [١٠٢٩]، وقال: "صحيح على شرط البخاري"، ووافقه الذهبي. كما أخرجه البيهقي في (الكبرى) [٥٩٩٣] وغيرِه.

تضنن بها علي، قال: هي بعد العصر إلى أن تغرب الشمس، قلت: فكيف تكون بعد العصر وقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يوافقها عبد مسلم وهو يصلي**»؟ وتلك الساعة لا يصلى فيها، فقال عبد الله بن سلام: أليس قد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من جلس مجلسا ينتظر الصلاة فهو في صلاة**»؟، قلت: بلى، قال: فهو ذاك، وفي الحديث قصة طويلة. ومعنى قوله «**أخبرني بها ولا تضنن بها علي**»: لا تبخل بها علي، و(الضن): البخل، و(الظنين): المتهم (١).

ومن مكفرات الذنوب: المحافظة على الصوات الخمس، وغسل الجمعة، وصلاة الجمعة، كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**الصَّلَاةُ الخَمْس، والجُمْعَة إلى الجُمْعَة، كَفَّارَةٌ لما بَيْنَهُنَّ، ما لم تُغْشَ الكبائر**» (٢).

وفي لفظ: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات ما بينهن إذا اجتنب الكبائر**» (٣).

وقد فصلتُ القول في ذلك في كتاب: (الإرشاد إلى أسباب النَّجاة).

وعن سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال لي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أتدري ما يوم الجمعة؟**»، قلت: هو اليوم الذي جمع الله فيه أباكم، قال: «**لكني أدري ما يوم الجمعة،**

---

(١) أخرجه مالك [٢٤١]، والشافعي في (مسنده) [٣٧٨]، والطيالسي [٢٤٨٣]، وأحمد [١٠٣٠٣]، وأبو داود [١٠٤٦]، والترمذي [٤٩١]، واللفظ له، وقال: "حديث صحيح"، كما أخرجه النسائي [١٤٣٠]، وأبو يعلى [٥٩٢٥]، وابن حبان [٢٧٧٢]، والحاكم [١٠٣٠]، وقال: "صحيح على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي، وأخرجه أيضًا: البيهقي [٦٠٠٢]، والضياء [٣٩٥].

(٢) صحيح مسلم [٢٣٣].

(٣) صحيح مسلم [٢٣٣]، وقد تقدم.

لا يتطهر الرجل فيحسن طهوره، ثم يأتي الجمعة، فينصت حتى يقضي الإمام صلاته، إلا كان كفارة له ما بينه وبين الجمعة المقبلة ما اجتنبت المقتلة» (١).

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "حديث: أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وحديث عمران بن حصين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وحديث بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وحديث سلمان الفارسي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كلها عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهما من الخطايا والذنوب ما اجتنبت الكبائر**» أو «**ما لم تغش الكبائر**». وفي حديث سلمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**ما لم تصب المقتلة**»، «**وما اجتنبت المقتلة**» على حسب اختلاف ألفاظ المحدثين. وهذه الآثار كلها بأسانيدها في (التمهيد)" (٢).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الْجُمُعَة -بضم الميم وإسكانها وفتحها- حكاها الفراء والواحدي رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ، سميت جمعة؛ لاجتماع النَّاس فيها. وكان يقال ليوم الجمعة في الجاهليَّة: الْعرُوبَة، وجمعها: جمعات، وجمع" (٣).

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في (مصنفه) [٧٦٤٣]، وأحمد [٢٣٧١٨]، واللفظ له، والبزار [٢٥٢٦]، والنسائي في (الكبرى) [١٦٧٧]، وابن خزيمة [١٧٣٢]، والطحاوي في (شرح مشكل الآثار) [٣٨٢٨]، والطبراني في (الكبير) [٦٠٨٩]، والحاكم [١٠٢٨]، وقال: "صحيح الإسناد، واحتج الشيخان بجميع رواته غير قرثع، سمعت أبا علي القارئ، يقول: أردت أن أجمع مسانيد قرثع الضبي؛ فإنه من زهاد التابعين، فلم يسند تمام العشرة" ووافقه الذهبي. كما أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) [٢٧٢٤]. قال الهيثمي (١٧٤/٢): "روى النسائي بعضه. رواه الطبراني في (الكبير) وإسناده حسن. وعن سلمان قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يا سلمان ما يوم الجمعة؟ قلت: الله ورسوله أعلم، ثلاثًا قال سلمان: يوم الجمعة فيه جمع أبوك أو أبويك». فذكر نحوه، ورجاله ثقات".

(٢) الاستذكار (٢٠٢/١).

(٣) تحرير ألفاظ التنبيه، للنووي (ص:٨٤). انظر: قرأ الجمهور: ﴿ٱلْجُمُعَةِ﴾ [الجمعة:٩] بضم الجيم والميم، وقرأ الأعمش: ﴿ٱلْجُمْعَةِ﴾ بضم الجيم وإسكان الميم. انظر: معاني القرآن، للفراء (١٥٦/٣)، تفسير الطبري (٣٨٤/٢٣)، التفسير البسيط، للواحدي (٤٥٣/٢١-٤٥٤). قال الأزهري: "الجمعة تثقل، والأصل=

وقال في (شرح مسلم): "ووجهوا الفتح بأنها تجمع الناس، ويكثرون فيها كما يقال: همزة، ولمزة؛ لكثرة الهمز واللمز، ونحو ذلك.."(١).

وقال الليث رَحِمَهُ اللَّهُ: "الجمعة يوم خُصَّ به؛ لاجتماع الناس في ذلك اليوم(٢).

وقيل: أول من سماها جمعة: كعب بن لؤي.

وقيل: إنَّمَا سمي يوم الجُمُعة؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ جمع فِيهِ خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقال قوم: إنَّما سميت الجُمُعة في الإسلام؛ وذلك لاجتماعهم في المسجد للصلاة.

وقيل: إنَّمَا سمي يوم الجُمُعَة؛ لأن قُرَيْشًا كانت تجتمع إلى قصي في دار الندوة.

قال الراغب رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقولهم: يوم الجمعة، لاجتماع الناس للصلاة، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة:٩]، ومسجد الجامع، أي: الأمر الجامع، أو الوقت الجامع، وليس الجامع وصفا للمسجد، وجَمَّعُوا: شهدوا الجمعة، أو الجامع أو الجماعة"(٣).

والمعول عليه في الاصطلاح الشرعي هو أنها سميت جمعة؛ لاجتماع النَّاس فيه، اجتماعًا واجبًا في الشرع على كل مسلم ذكر بالغ مكلف غير معذور، على وفق ما قرر في الشريعة، ولأنه يوم يجتمع فيه المسلمون في الغالب مع الأرحام وغيرهم؛ لأن يوم الجمعة هو يوم عيد جعله الله عَزَّوَجَلَّ للمسلمين، يتبادلون فيه أواصر المحبة والإخاء.

=فيها التخفيف: جُمْعة. فمن ثقل أتبع الضمة، ومن خفف فعلى الأصل. والقُرَّاء قرؤوها بالتثقيل" تهذيب اللغة (٢٥٤/١). والجُمَعة: الَّتِي تجمع النَّاس كثيرًا، كما قالوا: رجل لعُنَةَ: يكثر لعن النَّاس، ورجل ضحكة: يكثر الضحك.

(١) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١٣٠/٦).

(٢) انظر: تهذيب اللغة (٢٥٤/١)، الصحاح، للجوهري، مادة: (جمع) (١١٩٨/٣)، التفسير البسيط (٤٥٣/٢١).

(٣) المفردات، مادة: (جمع) (ص:٢٠٢).

فلا ريب أن يوم الجمعة هو سيد أيام الأسبوع، وأفضلها عند الله عَزَّوَجَلَّ، وهو اليوم الذي أمرت الأمم بتعظيمه فضلوا عنه، وهدانا الله عَزَّوَجَلَّ إليه، وله الحمد والمنة، ويوم الجمعة هو العيد الأسبوعي للمسلمين، كما جاء في الحديث: عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إن هذا يوم عيد، جعله الله للمسلمين، فمن جاء إلى الجمعة فليغتسل، وإن كان طيب فليمس منه، وعليكم بالسواك**»(١).

وأخرج عبد الرزاق في (مصنفه)، وعبد بن حميد في (تفسيره)، وابن المنذر: عن ابن سيرين رَحِمَهُٱللَّهُ قال: «جمع أهل المدينة قبل أن يقدم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وقبل أن تنزل الجمعة، قالت الأنصار: لليهود يوم يجمعون فيه كل سبعة أيام، وللنصارى مثل ذلك، فهلم فلنجعل يومًا نجتمع فيه، فنذكر الله عَزَّوَجَلَّ ونشكره، فجعلوه يوم العروبة، واجتمعوا إلى أسعد بن زرارة، فصلى بهم يومئذ ركعتين، وذكرهم، فسموا الجمعة حين اجتمعوا إليه، فذبح لهم شاة فتغدوا وتعشوا منها، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ في ذلك بعد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة:٩]» الآية (٢).

وفي الحديث: عن أبي حازم، عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وعن رِبْعِيِّ بْنِ حِرَاشٍ، عن حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قالا: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أَضَلَّ الله عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم**

---

(١) أخرجه ابن ماجه [١٠٩٨]، والطبراني في (الأوسط) [٧٣٥٥]. قال البوصيري في (الزوائد) (١/١٣٢): "في إسناده: صالح بن أبي الأخضر لينه الجمهور وباقي الرجال ثقات". قال الحافظ المنذري (١/٢٨٦): "رواه ابن ماجه بإسناد حسن".

(٢) انظر: فتح الباري، لابن رجب (٨/٦٩)، روح المعاني (١٤/ ٢٩٤)، التلخيص الحبير، لابن حجر (٢/١١٥).

الجمعة، فجعل الجمعة، والسبت، والأحد، وكذلك هم تَبَعٌ لنا يوم القيامة، نحن الْآخِرُونَ من أهل الدنيا، والْأَوَّلُونَ يوم القيامة، الْمَقْضِيُّ لهم قبل الخلائق» (١).

قال الإمام المازريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: "فيه دليلٌ على فساد تعلُّق اليهود والنصارى بالقياس في هذا الموضع؛ لأن اليهودَ عظَّمت السبتَ لما كان فيه فراغُ الخلق، وظنَّتْ ذلك فضيلةً تُوجِب تعظيمَ اليوم، وعظَّمتِ النصارى الأحدَ؛ لما كان فيه ابتداءُ الخلق، واتَّبع المسلمون الوحيَ والشرع الواردَ بتعظيمِ يومِ الجمعة؛ فعظَّمُوه" (٢).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: يوم الجمعة هو "اليوم الذي يستحب أن يتفرغ فيه للعبادة، وله على سائر الأيام مزية بأنواع من العبادات واجبة ومستحبة، فالله جَلَّ وَعَلَا جعل لأهل كل ملة يومًا يتفرَّغون فيه للعبادة، ويَتَخَلَّوْنَ فيه عن أشغال الدنيا، فيوم الجمعة يوم عبادة، وهو في الأيام كشهر رمضان في الشهور، وساعة الإجابة فيه كليلة القدر في رمضان؛ ولهذا من صَحَّ له يوم جمعته وسَلِمَ سلمت له سائر جمعته، ومن صح له رمضان وسلم سلمت له سائر سنته، ومن صحت له حجته وسلمت له، صح له سائر عمره، فيوم الجمعة ميزان الأسبوع، ورمضان ميزان العام، والحج ميزان العمر" (٣).

وعن أَوْسِ بْنِ أَوْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«من اغتسل يوم الجمعة وغسل، وبَكَّرَ وَابْتَكَرَ، ودنا واستمع وأنصت، كان له بكل خطوة يخطوها**

---

(١) صحيح مسلم [٨٥٦].

(٢) الْمُعْلم بفوائد مسلم (١/٤٧١).

(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد (١/٣٨٦).

أجر سنة صيامها وقيامها» [(١)]، قالوا: بكر: أسرع. وابتكر: أدرك الخطبة من أولها. وهو من الْبَاكُورَة" [(٢)].

قال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقوله «**بَكَّرَ وَابْتَكَرَ**» زعم بعضهم أن معنى «**بَكَّرَ**»: أدرك بَاكُورَةَ الخطبة، وهي أولها، ومعنى: «**وَابْتَكَرَ**» قدم في الوقت.

وقال ابن الأنباري رَحِمَهُ ٱللَّهُ معنى: «**بَكَّرَ**»: تصدق قبل خروجه.

وتأول في ذلك ما روي في الحديث من قوله: «**باكروا بالصدقة؛ فإن البلاء لا يتخطاها**» [(٣)].

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح، فكأنما قَرَّبَ بدنة، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قَرَّبَ بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قَرَّبَ كبشًا أقرن، ومن راح في الساعة**

---

(١) رواه أصحاب السنن، وابن حبان، والحاكم وصححه من حديث: أوس بن أوس، وحسنه الترمذي. المغني عن حمل الأسفار (ص: ٢١٣). قال الترمذي [٤٩٦]: وفي الباب: عن أبي بكر، وعمران بن حصين، وسلمان، وأبي ذر، وأبي سعيد، وابن عمر، وأبي أيوب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ. وحديث: أوس بن أوس حديث حسن.

(٢) الصحاح، للجوهري، مادة: (بكر) (٢/٥٩٦-٥٩٧).

(٣) الحديث مروي عن عليٍّ وعن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا. حديث علي: أخرجه الطبراني في (الأوسط) [٥٦٤٣]، قال الهيثمي (٣/١١٠): "رواه الطبراني في (الأوسط)، وفيه: عيسى بن عبد الله بن محمد، وهو ضعيف". حديث أنس: أخرجه البيهقي في (الكبرى) [٧٨٣١]، وفي (شعب الإيمان) [٣٠٨٢]، والديلمي [٢٠٧٩]. وقد أورده ابن الجوزي في (الموضوعات) (٢/١٥٣). وأورده كذلك القاري في (الموضوعات الكبرى) (ص:٨٧). قال ابن الجوزي: هو موضوع. وقال ابن حجر العسقلاني: لكن لا يتبين لي أنه كذلك. انظر: المقاصد الحسنة (ص:٢٣٢)، الأسرار المرفوعة (ص:١٤٦-١٤٧)، وفي (الفوائد المجموعة) (ص:٦١-٦٢): "رواه ابن عدي عن أنس مرفوعًا، وفي إسناده: وضاع ومجهول وكذاب، وأخرجه الطبراني من حديث: عليٍّ بإسناد آخر، وفيه ضعف"، وانظر: اللآلىء المصنوعة (٢/٦١-٦٢)، تنزيه الشريعة المرفوعة (٢/١٣١).

الرابعة فكأنما قَرَّبَ دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قَرَّبَ بيضة، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر» [١].

وقوله: «**راح إلى الجمعة**» معناه: قصدها، وتوجه إليها مبكرًا قبل الزوال. وإنما تأولناه على هذا المعنى؛ لأنه لا يجوز أن يبقى عليه بعد الزوال من وقت الجمعة خمس ساعات، وهذا جائز في الكلام أن يقال: راح لكذا ولأن يفعل كذا بمعنى: أنه قصد إيقاع فعله وقت الرواح، كما يقال للقاصدين إلى الحج: حجاج ولما يحجوا بعد، وللخارجين إلى الغزو غزاة، ونحو ذلك من الكلام.

وعن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال لقوم يَتَخَلَّفُونَ عن الجمعة: «**لقد هممت أن آمر رجلًا يصلِّي بالناس، ثم أُحَرِّقَ على رجال يَتَخَلَّفُونَ عن الجمعة بيوتهم**» [٢].

فإن قيل: كيف يترك الفرض ويشتغل بهم؟ فالجواب أن المقصود: التغليظ والمبالغة دون الحقيقة، على أنه يجوز تركه إلى بدل لمصلحة ضرورة إذا أدى إليه الاجتهاد، ولكن الإحراق إنما يتصور إذا كان تخلفهم جحودًا. كذا في (المرقاة) وغيره [٣].

وقد قيل: إنه أراد تحريق بيوت المنافقين لنفاقهم؛ ولهذا قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم نفاقه.

والمنافق إذا تخلف عن الصلاة مع المسلمين لا يصلي في بيته بالكلية، كما أخبر الله عَزَّ وَجَلَّ عنهم، أنهم ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ١٤٢﴾ [النساء:١٤٢].

---

(١) صحيح البخاري [٨٨١]، مسلم [٨٥٠].

(٢) صحيح مسلم [٦٥٢].

(٣) انظر: مرقاة المفاتيح (٣/ ١٠٢٦)، وانظر: كشف المشكل (١/٣٣٨).

وهذا التأويل عن الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره.

ومنها: أنه لم يفعل التحريق، وإنما توعد به.

وقد ذهب قوم من العلماء الى جواز أن يهدد الحاكم رعيته بما لا يفعله بهم.."[1].

وفي الحديث: تنبيه على عظم إثم ترك الجمعة من غير عذر.

وقد ورد أن الموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة من أسباب الوقاية من عذاب البرزخ، كما روي عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما من مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة إلا وقاه الله فتنة القبر**»[2].

---

(١) انظر: فتح الباري، لابن رجب (٥/٤٥٤).

(٢) أخرجه أحمد [٦٥٨٢]، والترمذي [١٠٧٤]، وقال: "هذا حديث غريب، وليس إسناده بمتصل". قال الحافظ ابن حجر: "وفي إسناده ضعف، وأخرجه أبو يعلى من حديث: أنس نحوه، وإسناده أضعف" فتح الباري (٣/٢٥٣). ومن أهل العلم من حسن الحديث من مجموع طرقه. قال الإمام الزيلعي: "قلت: وصله الطبراني في (معجمه)، فرواه من حديث: ربيعة بن سيف، عن عياض ابن عقبة الفهري، عن عبد الله بن عمرو فذكره، وكذلك رواه أبو يعلى الموصلي في (مسنده)، وله طريق آخر: رواه أحمد وإسحاق بن راهويه في (مسنديهما)، والطبراني في (معجمه) من حديث: بقية، حدثني معاوية بن سعيد التجيبي، سمعت أبا قبيل، سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «من مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة وقي فتنة القبر» انتهى. وكذلك رواه عبد بن حميد في (مسنده) سواء، والحديث الذي أشار إليه الترمذي رواه: أبو داود والنسائي، في (الجنائز): عن ربيعة بن سيف، عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن عبد الله بن عمرو أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لفاطمة: «لعلك بلغت معهم الكدا» الحديث. وليس لربيعة غير هذين الحديثين، مع أن فيه مقالًا" تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف (٤/٢٠-٢١)، وانظر: المقاصد الحسنة، للسخاوي (ص:٦٧١-٦٧٢)، المغني عن حمل الأسفار (ص:٢١١)، التذكرة، لأبي عبد الله القرطبي (ص:٤٢٢-٤٢٣). قال المناوي: "وصله الطبراني فرواه من حديث: ربيعة بن عياض عن عقبة بن ابن عمرو فذكره، وهكذا أخرجه أبو يعلى، والحكيم الترمذي متصلًا، وخرجه أبو نعيم متصلًا من حديث: جابر. فلو عزاه المؤلف -السيوطي- لهؤلاء كان أجود، ومع ذلك ضعفه المنذري" فيض القدير (٥/٤٩٩).

قال في (المرقاة): "وهذا يدل على أن شرف الزمان له تأثير عظيم، كما أن فضل المكان له أثر جسيم" (١).

وقال أبو عبد الله القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اعلم رحمك الله أن هذا الباب لا يعارض ما تقدم من الأبواب، بل يخصصها، ويبين من لا يسأل في قبره، ولا يفتن فيه، ممن يجري عليه السؤال، ويقاسي تلك الأهوال، وهذا كله ليس فيه مدخل للقياس، ولا مجال للنظر فيه، وإنما فيه التسليم والانقياد لقول الصادق المرسل إلى العباد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" (٢).

وقد قيل: إذا قبض الله عَزَّوَجَلَّ عبدًا من عبيده، فوافق قبضه يوم الجمعة كان ذلك دليلًا لسعادته، وحسن مآبه" (٣).

قال الحكيم الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فمن مات يوم الجمعة انكشف الغطاء عما له عند الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن يوم الجمعة لا تسجر فيه جهنم، وتغلق أبوابها، فإذا قبض الله عَزَّوَجَلَّ عبدًا من عبيده يوم الجمعة كان دليل سعادته، وحسن مآبه عند الله عَزَّوَجَلَّ، فيوم الجمعة يوم الله عَزَّوَجَلَّ الذي خلق فيه آدم وذريته، ويومه الذي تقوم فيه الساعة، فيميز بين الأحباب والأعداء، ويومه الذي يدعوهم إلى زيارته في جنات عدن، فلم يكن ليعطي بركة هذا اليوم إلا من كتب له السعادة عنده؛ فلذلك يقيه فتنة القبر، على أن سبب فتنة القبر إنما هو لتمييز المنافق من المؤمن في البرزخ، من قبل أن يلقى الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن كلا الصنفين صلَّى عليهما، وفعل بهما سنته في الموتى، من الغسل والتكفين، فامتحنا بالسؤال؛ ليهتك

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣/١٠٢١).

(٢) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، لأبي عبد الله القرطبي (ص:٤٢٣).

(٣) انظر: نوادر الأصول في أحاديث الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٤/١٦٢)، شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور، للسيوطي (ص:١٥١)، اللمعة في خصائص الجمعة، للسيوطي (ص:٦١)، مرقاة المفاتيح (٣/١٠٢١)، فيض القدير (٥/٤٩٩).

المنافق من ستره بقوله: «**لا أدري**»؛ إذ ستر الله عَزَّوَجَلَّ عليه نفاقه بحرمة ما أظهر من المنطق الجميل، فقال: لا إله إلا الله، محمد رسول الله.." (١).

قال السيوطي رَحِمَهُٱللَّهُ: "ومن تتمة ذلك أن «**من مات يوم الجمعة له أجر شهيد**» (٢)، فكان على قاعدة الشهداء في عدم السؤال، فقد ورد النص بأن الشهيد لا يسأل، فكأنَّ الميت يوم الجمعة، أو ليلتها على منواله" (٣).

وقال اليافعي رَحِمَهُٱللَّهُ في (روض الرياحين): بلغنا أن الموتى لم يعذبوا ليلة الجمعة تشريفًا لهذا الوقت.

قال: ويحتمل ذلك بعصاة المسلمين دون الكفار" (٤).

وقد قيل -كما في (بحر الكلام) -: "إن المسلم العاصي يعذب في قبره، ولكن يرفع عنه يوم الجمعة وليلتها، ثم لا يعود إليه إلى يوم القيامة، وإن مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة يكون له العذاب ساعة واحدة وضغطة القبر كذلك، ثم ينقطع عنه العذاب ولا يعود إليه إلى يوم القيامة" (٥).

---

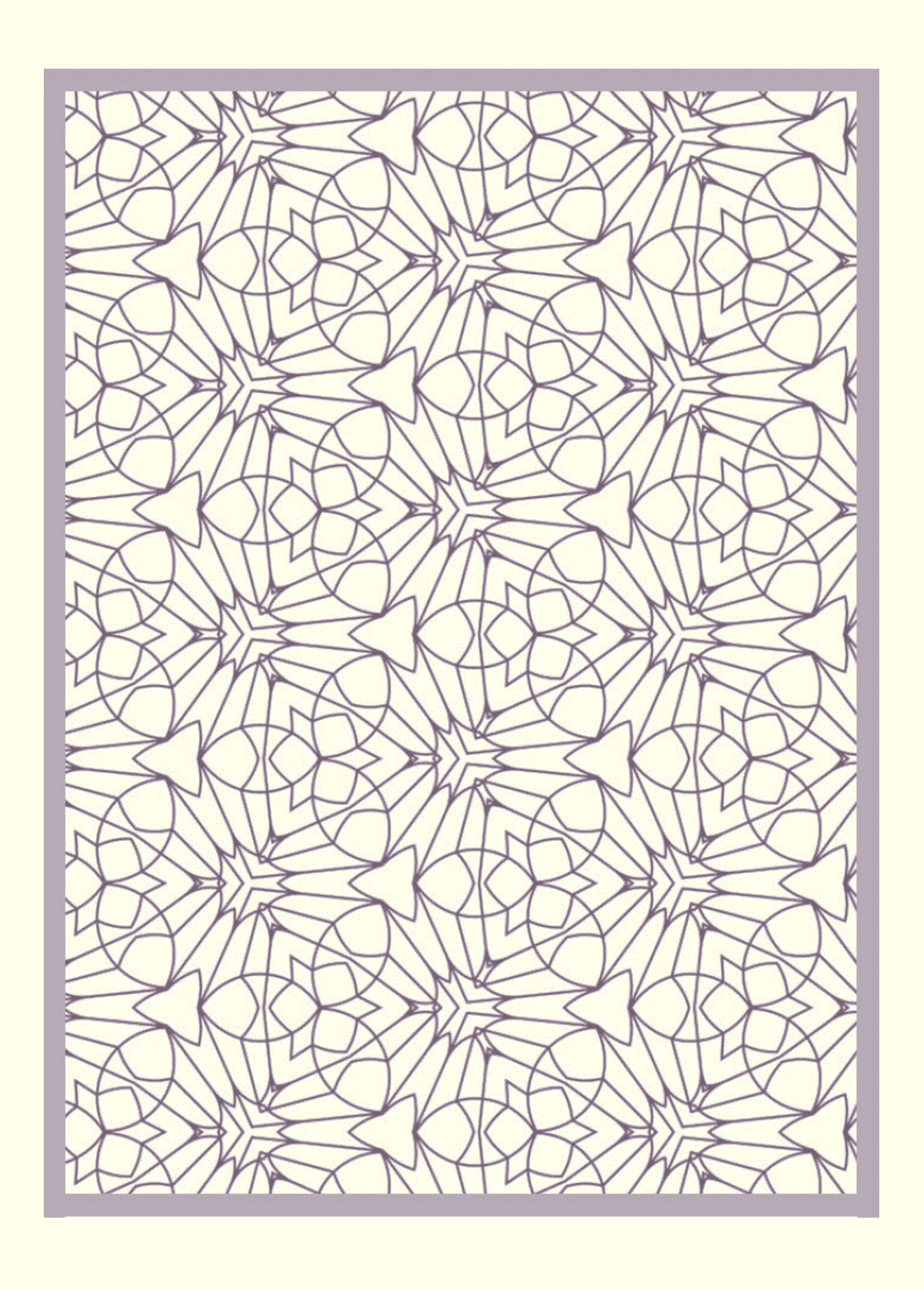
(١) نوادر الأصول في أحاديث الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ (١٦٢/٤).

(٢) ساق السيوطي في ذلك أحاديث، ولكن لا يخلو واحد منها من ضعف. انظر: شرح الصدرو (ص:١٥١-١٥٣)، وانظر: مرقاة المفاتيح (١٠٢١/٣). فحديث: «من مات يوم الجمعة كتب الله له أجر شهيد ووقى فتنة القبر» رواه الترمذي، وقال: غريب، ولم يذكر الشهادة، ورواه غيره بهذا اللفظ، وزاد بعضهم: وليلة الجمعة. وقد تقدم تخريجه. وينظر التفصيل في (تخريج أحاديث الكشاف)، للزيلعي [١٣٤٤] (١٩/٤-٢١)، وفي (المقاصد الحسنة)، لشمس الدين السخاوي (ص:٦٧١-٦٧٢).

(٣) شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور (ص:١٥١)، قوت المغتذي على جامع الترمذي (٣٢٤/١).

(٤) شرح الصدور (ص:١٨١)، اللمعة في خصائص الجمعة، للسيوطي (ص:٦٢).

(٥) بحر الكلام، لميمون بن محمد النسفي (ص:٢٥١)، شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور (ص:١٨١).



المبحث السادس عشر
دلالة الفعل وأقسامه على الزمن

أولًا: دلالة الفعل على معنى مقترن بحدث وزمن:

الفعل: كلمةٌ دلَّت على معنًى في نفسها، واقترنت بزمن وضعًا.

فالفعل يدل على معنى مقترن بحدث وزمن.

ودلالته على الحدث تأتي عن اشتراكه مع مصدره في مادة واحدة، والمعروف أن المصدر اسم الحدث.

قال ابن جني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "المصدر: كل اسم دل على حدث وزمان مجهول، وهو وفعله من لفظ واحد، والفعل مشتق من المصدر، فإذا ذكرت المصدر مع فعله فضلة فهو منصوب تقول: قمت قيامًا، وقعدت قعودًا" (١).

وقال السهيلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "دلالة الفعل على الحدث بالتضمين لا بالمطابقة، كنحو دلالة (البيت) على (السقف) (٢).

وأما دلالته على الزمان فقال النحويون: بالبنية.

---

(١) اللمع في العربية (ص:٤٨).

(٢) دلالة المطابقة هي دلالة اللفظ على تمام المعنى، كدلالة (الإنسان) على الحيوان الناطق، ومثل: دلالة (البيت) على الجدران والسقف والأساس. ودلالة التضمين هي دلالة اللفظ على جزء معناه، كدلالة (الإنسان) على الحيوان فقط، أو الناطق فقط. فإنا أردنا من البيت السقف وحده أو الحائط كانت الدلالة دلالة تضمين.

وهو لا يدل على الزمان ألبتَّة، وإنما يدل اختلاف أبنيته على اختلاف أحوال الحدث من المضي والاستقبال والحال..." (١).

ويتحصل مما تقدم: أن الفعل له دلالتان:

١ – الدلالة الزمنية.

٢ – دلالته على المعنى الذي يتضمنه.

ثانيًا: أقسام الفعل ودلالة كل منها على الزمن:

الفعل ثلاثة أقسام: ماض ومضارع وأمر.

القسم الأول: الماضي :

فالماضي: ما دلَّ وضعًا على حدث وزمان انقضى.

وفي (معاني النحو): "يستعمل الفعل الماضي للدلالة على أزمنة متعددة أشهرها:

١ – الماضي المطلق: وهو الزمن الذي مضى قبل زمن التكلم –قريبًا كان أو بعيدًا–.

فمن القريب: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ [النساء:١٨]، وقوله: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ [البقرة:٧١]، ونحو قولك: (استيقظ الطفل).

ومن البعيد: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [العنكبوت:٤٤].

---

(١) نتائج الفكر في النحو، للسُّهَيلي (ص:٥٢-٥٣)، وانظر: الكتاب، لسيبويه (١/١٢)، الخصائص، لابن جني (١/١٢٠)، الصاحبي في فقه اللغة (ص:٥٠)، شرح تسهيل الفوائد (١/١٥).

وإن هذه الفعل يصلح لجميع الأزمنة، فإذا قلت: (حضر أخوك) احتمل أن يكون الحضور قريبًا أو بعيدًا، وليس مختصًّا بزمن معين.

٢ - الماضي المنقطع: كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ [الأحزاب:١٥].

وأما الفعل الماضي المجرد من (كان)، فهو قد يفيد الانقطاع، نحو قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [العنكبوت:٤٤].

ويحتمل أن يكون قد تكرر، كما في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ [الأعراف:٩٣]، ونحو قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ [الأنعام:٩٩]، ولا شك أن الله عَزَّوَجَلَّ يفعل ذلك باستمرار؛ فإن إنزال الماء وإخراج النبات مستمران.

٣ - الماضي القريب: وذلك إذا صُدِّر بـ: (قد) نحو (قد حضر خالد) وذلك أن قولك: (حضر خالد) يدل على القريب والبعيد، فإذا قلت (قد حضر خالد) أفاد القرب من الحال جاء في (شرح ابن يعيش رَحِمَهُ ٱللَّهُ): "قد حرف معناه التقريب، وذلك أنك تقول (قام زيد) فتخبر بقيامه فيما مضى من الزمن، إلا أن ذلك الزمان قد يكون بعيدًا، وقد يكون قريبا من الزمان الذي أنت فيه، فإذا قرنته بـ (قد) فقد قربته مما أنت فيه، ولذلك قال المؤذن: قد قامت الصلاة، أي: قد حان وقتها في هذا الزمان" (١).

ويذكر النحاة لـ (قد) الداخلة على الفعل الماضي ثلاثة معان هي: التحقيق، والتوقع، والتقريب" (١).

---

(١) معاني النحو (٣/٣٠٨-٣٠٩).

وقد جاء استعمال (قد) التي تقرب الماضي من الحال في القرآن الكريم في غير موضع، فمن ذلك قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ﴾ [المائدة:٦١].

قالوا: الفائدة في ذكر كلمة: (قد) تقريب الماضي من الحال. قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ولمعنى آخر: وهو أن أمارات النفاق كانت لائحة عليهم، وكان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متوقعًا لإظهار الله عَزَّ وَجَلَّ ما كتموه، فدخل حرف التوقع، وهو متعلق بقوله: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ أي: قالوا ذلك وهذه حالهم" (١). يعني بقوله: (وهو متعلق)، أي: والحال، وقوة كلامه تعطي: أن صاحب الحال وعاملها الجملة المحكية بالقول، و﴿بِٱلْكُفْرِ﴾ متعلق بمحذوف؛ لأنه حال من فاعل ﴿دَّخَلُواْ﴾، فهي حال من حال، أي: دخلوا ملتبسين بالكفر، أي: ومعهم الكفر؛ كقولهم: (خرج زيد بثيابه) (٢).

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء:٢١] (٣).

و"لا يقال: (جئت وقام الأمير) ولكن: (وقد قام) قال صاحب (المفتاح) رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنما وجب ذلك ليقربه من زمانك حتى يصلح للحال (٤).

وقال السجاوندي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الفعل الماضي لا يصح أن يكون حالًا؛ لأن الحال مفعول فيها، وما مضى لا يصح أن يقع فيه شيء، فإذا صحبه (قد) وقع حالًا، وذلك أن (قد)

---

(١) الكشاف (١/ ٦٥٣)، وانظر: مفاتيح الغيب (٣٩٢/١٢).

(٢) الدر المصون (٣٤٠/٤)، وانظر استعمال (قد) ومواضعها في القرآن الكريم في (دراسات لأسلوب القرآن الكريم) (٣١٠/٢)، وانظر أيضًا: الدر المصون (٤١٢/١).

(٣) انظر: الدر المصون (٦٣٤/٣)، وانظر ما حرره السيوطي في (حاشيته على البيضاوي) (٢٨٥/٣- ٢٨٦)، و(حاشية الشهاب الخفاجي) (٢٦٠/٣).

(٤) انظر: مفتاح العلوم، للسكاكي (ص:٢٧٥).

حرف معنى، وحرف المعنى إذا دخل على الفعل غيره عما كان عليه من المعنى، فإذا قلت: (جئت وقد كتب زيد)، لا يجوز أن يكون حالًا إن كانت الكتابة قد انقضت، ويكون إذا شرع في الكتابة، وقد مضى منها جزء لا أنه ملتبس بها، فيفيد (قد) أن زيدًا قد شرع في الكتابة، وأنه قد مضى جزء منها، فلمضي ذلك الجزء جيء بالماضي، ولا يقع الماضي حالًا إلا على هذا المعنى؛ فلهذا لزم أن يكون معه (قد) ظاهرة أو مقدرة.

وقال غيره: لا بدَّ في الماضي المثبت من (قد) ظاهرة أو مقدرة؛ لأنه إنما يصلح للحال ما يصح أن يقع فيه: (الآن) أو (الساعة)، وهذا ممتنع في الماضي المثبت، فلا يكون حالًا، إلا إذا كان معه (قد)، فإنه قد يقرب الماضي من الحال، ولا يحتاج الماضي المنفي إلى ذلك؛ لدلالة ما على نفي الحال، ولهذا يصح تقدير: (الآن) أو (الساعة)". كذا في (حاشية العلامة الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ على الكشاف)، و(الإنصاف)، لابن الأنباري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، و(مختصر المعاني) للسعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ [1].

وقد جاءت (قد) مضمرة في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ﴾ [النساء:٩٠].

وقد اختلفوا في موضع قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ﴾، فقال الأكثرون: إنه في موضع الحال بإضمار (قد)؛ لأن (قد) تقرب الماضي من الحال، ألا تراهم يقولون: (قد قامت الصلاة)، ويقال: (أتاني فلان ذهب عقله)، أي: أتاني فلان قد ذهب عقله. وتقدير الآية، أو جاؤكم حال ما قد حصرت صدورهم.

---

(١) حاشية الطيبي على الكشاف (٢/٤١٣-٤١٤)، الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين (١/٢٠٦-٢٠٧)، مختصر المعاني (ص:١٦٤).

وقيل غير ذلك [١].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ①﴾ [المؤمنون:١]. و(قد) ها هنا يجوز أن تكون تأكيدًا لفلاح المؤمنين، ويجوز أن تكون تقريبًا للماضي من الحال، ويكون المعنى: أن الفلاح قد حصل لهم، وأنهم عليه في الحال [٢]. وفي (تفسير ابن فورك رَحِمَهُ ٱللَّهُ): "معنى (قد): تقريب الماضي من الحال؛ فدل على أن فلاحهم قد حصل، وهم عليه في الحال. وهذا أبلغ في الصفة من تجريد ذكر الفعل" [٣].

وتأتي (هَلْ) بمعنى: (قد) فتكون للتقريب، أي: تقريب الماضي من الحال، كما في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ [الإنسان:١].

وللفعل الماضي استعمالات أخر جاء ذكر أشهرها في (معاني النحو) [٤].

فمن ذلك:

٤ – الدلالة على الاستقبال: وينصرف إلى ذلك في مواطن منها:

أ. الإنشاء المقصود به الطلب: وذلك كالدعاء له أو عليه نحو: (غفر الله لك) أي: ليغفر الله لك، ونحو: (ناشدتك الله إلا فعلت).

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب (١٧٢/١٠)، التفسير البسيط، لأبي الحسن الواحدي (٣٦/٧-٣٧)، الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين، لابن الأنباري (٢٠٦/١-٢٠٧)، تحقيق الفوائد الغياثية، للكرماني (٥٥٧/٢-٥٥٨)، مختصر المعاني (ص:١٦٤)، الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم (٥٦/٢).

(٢) انظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٢٨٤/٣)، التفسير البسيط (٥١٩/١٥)، حاشية الطيبي على الكشاف (٥٤٢/١٠).

(٣) تفسير ابن فورك (٦٢/١).

(٤) انظر: معاني النحو (٣٠٨/٣-٣٢٢).

وفي (الكليات): الأفعال الواقعة بعد (إلا) و (لما) ماضية في اللفظ، مستقبلة في المعنى؛ لأنك إذا قلت: (عزمت عليك لما فعلت) لم يكن قد فعل، وإنما طلبت فعله وأنت تتوقعه [(١)].

ب. الوعد أو الوعيد: نحو قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۝٩٥﴾ [الحجر:٩٥]، ومن ذلك: الإخبار عن الإحداث المستقبلة مع قصد القطع بوقوعها، نحو قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر:٦٨].

ج. دخول أداة الشرط عليه: كـ: (من)، و(إن) و(إذا): نحو: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥]، ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء:٨]، وقوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [النصر:١].

وقد يبقى على مضيه قليلًا، نحو: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٢٦﴾ [يوسف:٢٦].

د. دخول (ما) الظرفية: نحو: ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١﴾ [مريم:٣١]، أي: مدة دوامي حيًّا، وهذا يشمل المستقبل أيضًا، ونحو: (لا أكلمك ما طلع نجم وغرب)، أي: يطلع ويغرب، وهذا التعبير أدل على الاستمرار.

جاء في (شرح الرضي على الكافية): أن الفعل الماضي ينقلب إلى المستقبل بدخول (ما) النائبة عن الظرف المضاف، نحو: [لا أفعل] ما ذرَّ شارق [(٢)]، وما دامت السماوات؛ لتضمنها معنى: (إن)، أي: إن دامت قليلًا أو كثيرًا.

---

(١) الكليات (ص:٨٤٠)، وانظر: شرح الكافية الشافية، لابن مالك (٣/١٦٤٥-١٦٤٦)، شرح الرضي على كافية ابن الحاجب (٢/١٤٠).

(٢) يقال: (لا أفعل ذلك ما ذَرَّ شارق)، أي: ما طلع قرن الشَّمْس. انظر: جمهرة اللغة (٢/٧٣١).

وقد يبقي معها على المضي كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ﴾ [المائدة:١١٧] (١).

هـ. وينصرف إلى الاستقبال أيضًا إذا كان منفيًّا بـ: (لا) أو (إن) في جواب القسم: نحو: (والله لا كلمتك أبدًا)، ونحو: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾ [فاطر:٤١]، أي: ما يمسكهما.

٥ - احتمال المضي والاستقبال:

وذلك في مواطن، منها:

أ. بعد همزة التسوية: نحو قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ١٣٦﴾ [الشعراء:١٣٦].

ب. بعد حرف التحضيض: نحو: هلَّا فعلت، ونحو قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ [التوبة:١٢٢] (٢)، فهذا يحتمل المضي والاستقبال.

وفي (شرح ابن يعيش): فأما قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾ [المنافقون:١٠]، فقد وليه الماضي، إلا أن الماضي هنا في تأويل المستقبل، كما يكون بعد حرف الشرط كذلك؛ لأنه في معناه والتقدير: إن أخرتني أصدق (٣).

ج. في الأحكام: نحو قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦ مِنۡ خِطۡبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾ [البقرة:٢٣٥]؛ فإنه يحتمل المضي والاستقبال.

---

(١) انظر: شرح الرضي على كافية ابن الحاجب (١٣/٤).

(٢) (لولا): كلمة تفيد: التحضيض، والمراد به في الآية: الأمر؛ لأن (لولا) إذا دخل على الفعل كان بمعنى: التحضيض، مثل: (هلَّا). انظر: التفسير البسيط (١١/٩٣-٩٤)، مفاتيح الغيب (١٦/١٧١).

(٣) انظر: شرح المفصل، لابن يعيش (٥/٨٩).

د. **بعد (حيث)**: فالماضي نحو: ﴿فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ [البقرة:٢٢٢]، والاستقبال نحو: ﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾ [البقرة:١٤٩].

هـ. **بعد (كلما)**: فالمضي نحو: ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ﴾ [المؤمنون:٤٤]، والاستقبال نحو: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا﴾ [النساء:٥٦].

وهذا في الحقيقة يدل على الاستمرار، ولكن قد يكون الاستمرار في الماضي، كما في الآية الأولى، وقد يكون في المستقبل كما في الآية الثانية.

و. **إذا وقع صلة**: فالمضي نحو: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [آل عمران:١٧٣]. والاستقبال نحو: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ [المائدة:٣٤].

وقد اجتمعا في قول الطرماح:

فإني لآتيكمْ تَشَكُّرَ ما مضى ... من الأمر واستيجابَ ما كان في غدِ [(١)]

فقال: (ما كان في غد)، وهو يريد: ما يكون في غد. ولو كان أراد الماضي لقال: (ما كان في أمس)، ولم يجز له أن يقول: (ما كان في غد).

ز. **إذا وقع صفة لنكرة عامة**: يحتمل المضي كقول الشاعر:

رب رفد هرقته ذلك اليوم *** [(٢)].

---

(١) قائله: الطرماح بن حكيم الطائي. ذيل ديوانه (ص:٥٧٢)، وانظر: معاني القرآن، للفراء (١/١٨٠)، (١/٢٤٤)، الأضداد، لابن الأنباري (ص:٦١)، الخصائص، لابن جني (٣/٣٣٤)، همع الهوامع (١/٤٤)، شرح تسهيل الفوائد (١/٣٢)، أمالي ابن الشجري (١/٦٧)، (٢/٣٥)، (٢/٤٥٣).

(٢) صدر بيت، وعجزه: (***وأسرى من معشرٍ أقتال)، وقائله: الأعشى الكبير (ميمون بن قيس)، وهو في (ديوانه)، القصيدة الأولى، البيت: [٧١] (ص:١٣). و(الرفد) بفتح الراء: القدح الضخم، وبالكسر: المعونة. انظر: مجاز القرآن (١/٢٩٨-٢٩٩)، أمالي القالي (١/٩٠)، تهذيب اللغة (١٤/٧١)، المحكم (٩/٣٠٥)، خزانة الأدب (٩/٥٧٢).

ويحتمل الاستقبال كقول النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**نَضَّرَ الله امرأ سمع مقالتي فأدَّاها كما سمعها**» (١)؛ فإن هذا منه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ترغيب لمن أدركه في حفظ ما يسمعه منه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وذلك يقتضي أن يكون المعنى: نضر الله امرأ يسمع مقالتي فيؤديها كما يسمعها (٢).

٦ - **الماضي المستمر**: وذلك إذا دخلت (كان) على الفعل المضارع، نحو قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ [مريم:٥٥]، أي: كان مستمرًا على ذلك. ونحو: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧﴾ [الذاريات:١٧].

فهذا يفيد الدلالة على الاستمرار أو الاعتياد، جاء في (البرهان) (٣): الحكاية عن النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بلفظ: «**كان يصوم**»، و«**كنا نفعل**»، وهو عند أكثر الفقهاء والأصوليين يفيد الدوام؛ فإن عارضه ما يقتضي عدم الدوام مثل أن يروى: «**كان يمسح مرة**»، ثم نقل «**أنه يمسح ثلاثًا**»، فهذا من باب تخصيص العموم" (٤).

وعلامة الفعل الماضي: أن يقبل تاء التأنيث الساكنة.

وحكمُه: البناءُ على الفتح لفظاً كـ (قامَ)، أو تقديرًا إن اتصل به ضمير رفع متحرك، أو واو جماعة كـ: ضربتُ، وضربوا.

والأصل في الفعل الماضي: أن يدل على حدث وقع في الزمن الماضي، وهو يفيد تحقق الأمر.

---

(١) رواه أصحاب السنن وغيرهم بطرق كثيرة، وألفاظ مختلفة.

(٢) شرح تسهيل الفوائد، لابن مالك (١/٣٢).

(٣) البرهان في علوم القرآن، لأبي عبد الله الزركشي (٤/١٢٥).

(٤) انظر ذلك في (معاني النحو) (٣/٣٠٨-٣٢٢)، و(شرح تسهيل الفوائد) (١/٣٠-٣٢)، و(همع الهوامع)، للسيوطي (١/٤٣-٤٥).

وقد يدل على الزمن الحاضر والمستقبل؛ لنكتة، والتجوز به من خلال ما يحتف به من قرائن لفظية أو معنوية -كما تقدم-.

القسم الثاني: المضارع :

أولًا: تعريف الفعل المضارع: ما دلَّ وضعًا على حدث في زمن التكلم، حاضرًا كان أو مستقبلًا.

وحروف المضارعة هي: (الهمزة، والنون، والتاء، والياء)، وتكون في صدر الفعل المضارع، وزيادتها في أوله لازمة. وتجمع حروف المضارعة كلمة: (نأتي)، أو (أنيت)، أو (نأيت).

فالهمزة للمتكلم وحده، ويستوي فيه المذكر والمؤنث، نحو: (أقوم أنا)، و(أنا أفعل)، والنون للمتكلم إذا كان معه غيره نحو: (نقوم نحن)، والتاء للمذكر الحاضر نحو: (تقوم أنت)، وللمؤنث الغائبة نحو: (تقوم هي)، والياء للمذكر الغائب نحو: (يقوم هو) [1].

ونون العظمة تختص باسم الله جَلَّوَعَلَا. وأما قول الملوك: (نحن نفعل) ؛ قيل: لما كانت تصاريف أقضية الله عَزَّوَجَلَّ تجري على أيدي خلقه نزلت أفعالهم منزلة فعله مجازًا؛ وعلى هذا الحكم يجوز أن ينطق بالنون من لا يباشر الأمر بنفسه.

وأما قول العالم: (نحن نبين) ؛ فهو مخبر عن نفسه وأهل مقالته [2].

والأصل في الفعل المضارع: أن يدل على الحال أو الاستقبال.

---

(١) انظر: اللمع في العربية، لابن جني (ص:٩).

(٢) اللمحة في شرح الملحة (١/١٤٣).

وفي (المفصل): "ويشترك فيه الحاضر والمستقبل. واللام في قولك: (إن زيدًا ليفعل)، مخلصة للحال، كالسين أو سوف للاستقبال. وبدخولهما عليه قد ضارع الاسم، فأعرب بالرفع، والنصب، والجزم مكان الجر" (١).

وقال أبو القاسم السهيلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "دخول الزوائد على الحروف الأصلية منبئة على معان زائدة على معنى الكلمة التي وضعت الحروف الأصلية عبارة عنه، فإن كان المعنى الزائد آخرًا كانت الزيادة آخرًا، كنحو (التاء) في (فعلت)؛ لأنها تنبئ عما رتبه بعد الفعل.

فإن كان المعنى الزائد أولًا كانت الزيادة المنبئة عنه (أولًا) مسبقة على حروف الكلمة كهذه الزوائد الأربع، فإنها تنبئ أن الفعل لم يحصل بعد لفاعله، وأن بينه وبين تحصيله جزءًا من الزَّمان، فكان الحرف الزَّائد السابق للفظ الفعل مشيرًا في اللسان إلى ذلك الجزء من الزَّمان، مرتَّبًا في البيان على حسب ترتُّب المعنى في الجنان" (٢).

ومعنى المضارعة: المشابهة، ويعنون بالمضارعة: مشابهة الفعل المضارع للأسماء.

قال أبو العباس المبرد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "تقول: (زيد يأكل) فيصلح أن يكون في حال أكل، وأن يأكل فيما يستقبل، كما تقول: (زيد آكل) أي: في حال أكل، و(زيد آكل غدًا)، وتلحقها الزوائد؛ لمعنى، كما تلحق الأسماء: الألف واللام؛ للتعريف، وذلك قولك: سيفعل، وسوف يفعل، وتلحقها اللام في (إن زيدًا ليفعل) في معناه: لفاعل" (٣).

وفي (شرح المفصل): "فإن قيل: فمن أين أشبه الاسم؟ فالجواب من جهات:

---

(١) المفصل في صنعة الإعراب (ص:٣٢١).

(٢) نتائج الفكر في النَّحو، للسُّهَيلي (ص:٩١).

(٣) المقتضب (٢/٢). وقال في موضع آخر: "إذا قلت: (زيد يأكل) فأنت مبهم على السامع، لا يدري أهو في حالِ أكل، أم يوقع ذلك فيما يستقبل، فإذا قلت: سيأكل أو سوف يأكل فقد أبنت أنه لما يستقبل" المقتضب (٨٣/١).

أحدها: أنَّ إذا قلنا: (زيدٌ يقوم)، فهو يصلح لزماني: الحال والاستقبال، وهو مبهمٌ فيهما، كما أنك إذا قلت: (رأيت رجلًا)، فهو لواحد من هذا الجنس مبهم فيهم، ثم يدخل على الفعل ما يُخَلِّصه لواحد بعينه، ويقصره عليه، نحوُ قولك: (زيدٌ سَيقوم، وسوف يقوم)، فيصير مستقبلًا لا غير بدخول: السين وسوف، كما أنك إذا قلت: (رأيت الرجل)، فأدخلتَ على الواحد المبهم من الأسماء الألف واللام، قُصر على واحد بعينه، فاشتبها بتعيينهما ما دخل عليهما من الحروف بعد وقوعهما أوَّلًا مبهمَيْن.

ومنها: أنه يقع في مواقع الأسماء، ويؤدِّي معانيها: نحوَ قولك: (زيدٌ يضرب)، كما تقول: (زيد ضاربٌ)، وتقول في الصفة: (هذا رجلٌ يضرب) كما تقول: (هذا رجلٌ ضاربٌ)، فقد وقع الفعل هنا موقع الاسم، والمعنى فيهما واحد.

والثالث: أنها تدخل عليه لام التأكيد التي هي في الأصل للاسم؛ لأنها في الحقيقة لام الابتداء، نحوَ قولك: (إنَّ زيدًا ليَقوم)، كما تقول: (إنّ زيدًا لَقائمٌ). ولا يجوز دخولها على الماضي لبُعْدِ ما بينه وبين الاسم، فلا يُقال: (إنَّ زيدًا لَقَامَ) على معنى هذه اللام. فلمَّا ضارع الاسمَ من هذه الأوجه؛ أُعرب لمضارَعة المعرب" (١).

ثانيًا: الدلالة على الزمن في الفعل المضارع:

١ - الحال أو الاستقبال:

الأصل في الفعل المضارع: أن يدل على الحال أو الاستقبال -كما تقدم-.

---

(١) شرح المفصل، لابن يعيش (٤/ ٢١٠).

٢ – خروجه إلى الإنشاء:

وقد يخرج إلى الإنشاء: وذلك كما في (الدعاء): نحو: ﴿قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ [يوسف:٩٢]، و(يرحمك الله).

و(الأمر): نحو: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ﴾ [البقرة:٢٢٨]، أي: ليتربصن (١).

و﴿يَتَرَبَّصۡنَ﴾ خبر عن المبتدأ، وصورته صورة الخبر، وهو أمر من حيث المعنى.

وقيل: هو أمر لفظًا ومعنى على إضمار اللام، أي: ليتربصن، وهذا على رأي الكوفيين.

وقيل: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ﴾ على حذف مضاف، أي: وحكم المطلقات ويتربصن على حذف: أن، حتى يصح خبرا عن ذلك المضاف المحذوف، التقدير: وحكم المطلقات أن يتربصن، وهذا بعيد جدًّا.

وقال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هو خبر في معنى الأمر. وأصل الكلام: وليتربص المطلقات، وإخراج الأمر في صورة الخبر تأكيد للأمر، وإشعار بأنه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى امتثاله، فكأنهن امتثلن الأمر بالتربص، فهو يخبر عنه موجودًا.

ونحوه: قولهم في الدعاء: (رحمك الله)، أخرج في صورة الخبر؛ ثقة بالاستجابة، كأنما وجدت الرحمة فهو يخبر عنها، وبناؤه على المبتدأ مما زاده أيضًا فضل تأكيد (٢).

---

(١) فهذا صيغته صيغة الخبر، ومعناه: الأمر –وقد تقدم–.

(٢) قال صاحب (المفتاح): "وسبب تقويه هو أن المبتدأ لكونه مبتدأ يستدعي أن يسند إليه شيء، فإذا جاء بعده ما يصلح أن يستند إليه صرفه المبتدأ على نفسه، فينعقد بينهما حكم، سواء كان خاليًا عن ضمير المبتدأ نحو: (غلامك)، أو كان متضمنًا له نحو: (أنا عرفت، وأنت عرفت، وهو عرف، أو زيد عرف)، ثم إذا كان متضمنًا لضميره صرفه ذلك الضمير على المبتدأ ثانيًا فيكتسي الحكم قوة، فإذا قلت: هو يعطى=

ولو قيل: (ويتربص المطلقات)، لم يكن بتلك الوكادة" (١).

قال في (البحر): "وهو كلام حسن، وإنما كانت الجملة الابتدائية فيها زيادة توكيد على جملة الفعل والفاعل لتكرار الاسم فيها مرتين: إحداهما: بظهوره، والأخرى: بإضماره، وجملة الفعل والفاعل يذكر فيها الاسم مرة واحدة" (٢).

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة:٢٣٣]، أي: ليرضعن، وقد أخرج الأمر مخرج الخبر؛ للدلالة على أنهن يفعلن ذلك امتثالًا لأمر الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا شأنهن، وهو أبلغ من صريح الأمر، ونظير هذا قولنا: (تذهب إلى فلان وتخبره كذا وكذا) على معنى أذهب إليه، وهو ألطف من الأمر الصريح؛ إذ لا يراد أحيانًا المواجهة بالأمر، بل يخرج مخرج الخبر؛ تلطفًا بالسامع، أو إكرامًا له.

وجاء في (شرح شذور الذهب): في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ [البقرة:٢٢٨]، وقوله: ﴿۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ﴾ [البقرة:٢٣٣]: وهذان الفعلان خبريان لفظًا، طلبيان معنى، ومثلهما: (يرحمك الله).

=الجزيل كان المراد: تحقيق إعطائه الجزيل عند السامع دون تخصيص إعطاء الجزيل به" مفتاح العلوم، للسكاكي (٢٢١/١). و(قوله: فيكتسي الحكم) الذى هو ثبوت الفعل قوة أى: لتكرر الإسناد، وهذا واضح في الإثبات، وأما في النفي كقولك: (ما زيد أكل) فيقال فيه: إن سلب الأكل المحكوم به يطلبه المبتدأ، وضميره يطلب الفعل، وهو منفي فيحصل إسناد نفي الفعل مرتين فيلزم التقوّي.." حاشية الدسوقي على مختصر المعاني (١٣٤/٢)، وانظر: الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم (٥٠٠/١). ويعلل عبد القاهر الجرجاني سبب التقوي: بأن تقديم ذكر المحدث عنه يفيد تنبيه السامع؛ لقصده بالحديث قبل ذكر الحديث تحقيقًا للأمر وتأكيدًا له. انظر: دلائل الإعجاز (١٣٢/١).

(١) الكشاف (٢٧٠/١).

(٢) البحر المحيط في التفسير (٤٥٣/٢)، وانظر: الدر المصون (٤٣٧/٢)، حاشية القونوي على البيضاوي (٢٤٠/٥).

وفائدة العدول بهما عن صيغة الأمر: التوكيد والإشعار بأنهما جديران بأن يتلقيا بالمسارعة، فكأنهن امتثلن فهما مخبر عنهما بموجودين (١).

و(**النهي**): نحو قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾ [البقرة:٨٤]، بمعنى: لا تسفكوا، ونحو (لا يكره المرء في الدين) بالرفع، ومعناه النهي، أي: لا تكرهوا، وقد أخرج مخرج الخبر؛ للدلالة على أن هذا هو الوضع الطبيعي، وإن هذا هو الذي يحصل (٢).

وقال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [البقرة:٨٣]: "إخبار في معنى النهي، كما تقول: (تذهب إلى فلان تقول له كذا)، تريد: الأمر، وهو أبلغ من صريح الأمر والنهي؛ لأنه كأنه سورع إلى الامتثال والانتهاء، فهو يخبر عنه

وفي (الانتصاف): "وجه الدليل منه: أن الأول لو لم يكن في معنى النهى لما حسن عطف الأمر عليه، لما بين الأمر والخبر المحض من التنافر. ولا كذلك الأمر والنهي؛ لالتقائهما في معنى الطلب" (٣).

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (شرح مسلم) في باب تحريم الجمع بين المرأة وعمتها وخالتها: "وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يَخْطُبُ الرَّجُلُ على خِطْبَةِ أَخِيه، ولا يَسُومُ على سَوْمِ أَخِيه**» (٤)، هكذا هو في جميع النسخ. «**ولا يسوم**» بالواو، «**ولا يخطُب**» بالرفع، وكلاهما لفظه لفظ الخبر والمراد به: النهي، وهو أبلغ في النهي؛ لأن خبر الشارع لا يتصور وقوع خلافه، والنهي قد تقع مخالفته، فكأن المعنى: عاملوا هذا النهي معاملة خبر الحتم. ثم قال

---

(١) شرح شذور الذهب، لابن هشام (٩٠/١).

(٢) معاني النحو (٣٣٤/٣).

(٣) الكشاف ومعه (الانتصاف) (١٥٩/١).

(٤) صحيح مسلم [١٤٠٨].

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ولا تسأل المرأة طلاق أختها**» يجوز في «**تسأل**» الرفع والكسر، الأول: على الخبر الذي يراد به النهي، وهو المناسب لقوله قبله: «**لا يخطب ولا يسوم**»، والثاني: على النهي الحقيقي" (١).

٣ – مشارفة وقوع الفعل:

يستعمل للدلالة على مشارفة وقوع الفعل، نحو قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم﴾ [البقرة:٢٤٠]، أي: والذين يشارفون الموت، وترك الأزواج يوصون وصية (٢).

٤ – إرادة الفعل:

نحو: (متى تقم إلى الصلاة فتوضأ)، والمعنى: متى أردت القيام إلى الصلاة، وإلا كان الوضوء بعد القيام إلى الصلاة، ونحو: (متى تقرأ القرآن فاستعذ بالله) أي: إذا أردت ذلك (٣).

وعلامة الفعل المضارع: أن يقبل لم، والسين، وسوف.

وحكمُه: الإعراب ما لم تتصل به نون النسوة، فيبنى على السكون، أو تباشره نون التوكيد الخفيفة أو الثقيلة، فيبنى على الفتح.

والأصل في الفعل المضارع: أن يدل على حدث وقع في الزمن الحاضر، وهو يفيد استمرار الفعل، وتكرار صفته، وتجدد حدوثه.

وقد يدل على الزمن الماضي إذا كان مسبوقًا بـ: (كان)، أو بـ: (لم) الجازمة.

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (٩/١٩٢)، البرهان في علوم القرآن (٣/٣٥١-٣٥٢).

(٢) مغني اللبيب، لابن هشام (ص:٩٠٢).

(٣) انظر ذلك كله في (معاني النحو) (٣/٣٢٣-٣٣٤).

وإذا سبق بـ: (لَمَّا) الجازمة دلَّ على الماضي المستمر إلى الحاضر.

ويدل على الزمن المستقبل إذا وجدت قرينة لفظية أو معنوية.

ومن ذلك: أن يكون مسبوقًا بالسين، أو سوف، أو الظروف الدالة على المستقبل مثل : (غدا)، و(فيما بعد).وكذا المتضمن معنى: الشرط، أو الطلب، أو الاستفهام.

القسم الثالث: الأمر:

أولًا: الأصل في دلالة فعل الأمر على الزَّمن أنه مستقبل أبدًا:

الأمر مستَقْبَلٌ أبدًا، فهو يدل على حدث في زمن مستقبل، وقد يراد به دوام ما حصل، وقد يتوسع في دلالته على الزمن إلى معان أخرى -كما سيأتي-:

قال ابن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: "لما كان الأمر مطلوبًا به حصول ما لم يحصل، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ [المدثر:٢]، ودوام ما حصل، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب:١] لزم كونه مستقبلًا، وامتنع اقترانه بما يخرجه عن ذلك.." (١).

"إلا أن يراد به الخبر، نحو: «**ارْمِ ولا حَرَجَ**» (٢)؛ فإنه بمعنى: رميت، والحالة هذه وإلا لكان أمرًا بتجديد الرمي، وليس كذلك" (٣).

---

(١) انظر ذلك مفصلًا في (شرح تسهيل الفوائد)، لابن مالك (١/١٧)، وانظر: همع الهوامع، للسيوطي (١/٣٥).

(٢) جاء في الحديث: عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقف في حجة الوداع بمنى للناس يسألونه، فجاءه رجل فقال: لم أشعر فحلقت قبل أن أذبح؟ فقال: «اذبح ولا حرج»، فجاء آخر فقال: لم أشعر فنحرت قبل أن أرمي؟ قال: «ارم ولا حرج»، فما سئل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن شيء قدم ولا أخر إلا قال: «افعل ولا حرج» صحيح البخاري [٨٣، ١٢٤، ١٧٣٦]، مسلم [١٣٠٦].

(٣) همع الهوامع (١/٣٥).

ثانيًا: أزمنة فعل الأمر :

جاء في (معاني النحو): أن تحديد زمن فعل الأمر بما تقدَّم من دلالته على الاستقبال، ومن أنه قد يراد به دوام ما حصل فيه نظر؛ إذ هو أوسع من ذلك.

ثم ذكر بيان أزمنة (فعل الأمر) من حيث دلالتها على معان أوسع مما تقدم ذكره في أصل الاستعمال، وهاك إيجاز تلك الدلالات المتنوعة، فمن ذلك:

١ – الاستقبال المطلق :

قد يكون فعل الأمر دالًّا على الاستقبال المطلق –سواء كان الاستقبال قريبًا أم بعيدًا–، **فمن المستقبل القريب:** قوله جَلَّ وَعَلَا في سورة البقرة: ﴿فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ۝٦٨﴾ [البقرة:٦٨]، وقوله: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٩٤﴾ [الحجر:٩٤].

ومن البعيد: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ [الفرقان:٦٥].

٢ – الدلالة على الحال :

ومن ذلك: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ۝٤٨ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ۝٤٩﴾ [الدخان:٤٨-٤٩]، فزمن الذوق مصاحب لصب الحميم.

٣ – الأمر الحاصل في الماضي :

ومن ذلك: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ۝٩٩﴾ [يوسف:٩٩]، فقوله: ﴿ٱدْخُلُواْ مِصْرَ﴾ كان بعد دخولهم إياها، فهو أمر يفيد المضي.

ونحوه قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٤٥ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ۝٤٦﴾ [الحجر:٤٥-٤٦]، فقوله: ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ كان بعد دخلوهم الجنة.

ومن دلالة فعل الأمر على المضي قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لشخص رمي في الحج بعد الذبح: «**ارْمِ ولا حَرَج**» (١)، فليس القصد أمره بالمرمي في المستقبل؛ لأن الرمي قد حصل في الماضي، وإنما المعنى هو الموافقة والإقرار على ما فعل... إلى غير ذلك.

٤ – الأمر المستمر :

وهو كثير، ومن ذلك: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة:٨٣].

٥ – ما كان غير مقيد بزمن :

وربما كان فعل الأمر مطلقًا غير مقيد بزمن؛ لكونه دالًّا على الحقيقة، أو لكونه دالًّا على التوجيه والحكم، أو لغير ذاك، وذلك كقوله:

كن ابن من شئت واكتسب أدبا ... يـغنيك مـحـموده عن النـسب (٢)

فهو لا يأمرك بأن تكون ابن من شئت على وجه الحقيقة، فليس بمقدورك ذاك، وإنما القصد: أن يأمرك باكتساب الأدب، ولا يهم بعد ذلك أن تكون ابن من ممن خلق الله عَزَّوَجَلَّ. فقوله: (كن ابن من شئت) لا يدل على زمن ما، وإنما هو ذكر لحقيقة من حقائق الحياة، وهي أن (**الأدب يغني عن النسب**).

---

(١) تقدم.

(٢) انظر: الفاضل، للمبرد (ص:٨)، جمهرة الأمثال (٣١٢/٢)، محاضرات الأدباء (٤٨/١)، غرر الخصائص الواضحة (ص:١٨٧)، المستطرف (ص:٣١).

ونحوه قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تَعَرَّفْ إلى الله في الرَّخَاء، يَعْرِفْكَ في الشِّدَّة**» [(١)]، فهذا لا يقصد به التعرف إلى الله عَزَّوَجَلَّ والالتجاء إليه في وقت دون وقت، وإنما هو من باب: التوجيه للالتجاء إليه في كل وقت؛ إذ من المعلوم أن أغلب الناس تبطرهم الراحة، وينسيهم الرخاء، فهم لا يلتجئون إلى الله عَزَّوَجَلَّ إلا في وقت الشدة والضيق، ونزول المكروه، فيقول لهم: إذا أردتم أن يعينكم الله، ويخلصكم مما تقعون فيه من محن وكروب، فالتجئوا إليه، واعرفوا له حقَّه في كل وقت.

ومن باب الحقائق أن تقول مثلًا: **(احترم الناس يحترموك، وتواضع لهم يرفعوك)**، فهذه قاعدة عامة، وحقيقة مطلقة غير مقيدة بزمن، فمن احترم الناس احترموه، ومن تواضع لهم رفعوه.

---

(١) قال السخاوي في (المقاصد) (ص:٢٥٦-٢٥٧): أخرجه "الطبراني في (الكبير) من حديث: عيسى بن محمد القرشي، والعسكري في (الأمثال) من حديث: حجاج بن فرافصة، كلاهما عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس قال: كنت ردف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالتفت إليَّ فقال: «يا غلام! احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف..» الحديث. وفيه: «قد جف القلم بما هو كائن، فلو أن الخلق كلهم جميعًا أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه، أو أرادوا أن يضروك بشيء، لم يقضه الله عليك، لم يقدروا عليه»، وفيه: «واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك. وما أخطاك لم يكن ليصيبك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا». ومن طريق الطبراني أورده الضياء في (المختارة)، وهو حسن، وله شاهد عند: عبد بن حميد من طريق: المثنى بن الصباح، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس مرفوعًا: «يا ابن عباس: احفظ الله يحفظك، واحفظ الله تجده أمامك، وتعرف إلى الله في الرخاء، يعرفك في الشدة»، وذكره مطولًا، وسنده ضعيف، وأصل الحديث بدون لفظ الترجمة عند الترمذي، وصححه من حديث: حَنش عن ابن عباس مرفوعًا، بل أخرجه أحمد، والطبراني، وغيرهما من هذا الوجه أيضًا بتمامه، وهو أصح وأقوى رجالًا، وقد بسطت الكلام عليه في (تخريج الأربعين)اهـ". وفي (أسنى المطالب) (ص:١١٢): "رواه أحمد وغيره، وهو حسن". وأخرجه أبو القاسم بن بشران في (أماليه) [١٣٦٥]: عن أبي هريرة.

وقد يكون فعل الأمر غير مطلوب حصوله، بل إنما يذكر للتحذير منه، وذلك كأن تقول: (تواضع للناس يحبوك، واستعل عليهم يبغضوك)، فأنت لا تأمره بالاستعلاء على الناس، وإنما تحذره منه فتقول له: إذا استعليت على الناس أبغضوك.

ونحوه أن تقول: (اعمل خيرًا تلق خيرًا، واعمل شرًّا تلق شرًّا)، فأنت لا تأمره بعمل الشرّ، وإنما أنت تحذره من مغبة فعل الشرِّ، إلى غير ذلك، وهذا كله من باب الحقائق المطلقة غير المقيدة بزمن.." [1].

وعلامة فعل الأمر: أن يدلَّ على الطلب بالصيغة مع قبول ياء المخاطبة.

وحكمه: البناءُ على ما يجزم به مضارعه لو كان معربًا.

ثالثًا: الأمر من أنواع الإنشاء الطلبي:

(الأَمْرُ) طلبُ حصول الفعل من المخاطَب على وجه الاستعلاء، وقول القائل لغيره: (افعل) أو ما يقوم مقامه لإفادة معنى الطَّلب.

قال في (المراقي):

هـو اقتضـاء فعـل غـيرِ كَـفِّ   دُلَّ عـليـه لا بـنـحـو كُفِّي [2]

---

(١) انظر ذلك مفصلًا في (معاني النحو) (٤/٣٢-٣٩).

(٢) مراقي السعود [٢٣٦]، (ص:٣٤)، وانظر: نثر الورود (١/١٧٢)، نشر البنود (١/١٤٧). وقوله: (كَفِّ) مصدر: (كفَّ)، وفي الثَّاني أمر للأنثى المخاطَبة، يعني: أنَّ الأمر هو اقتضاء، أي: طلب تحصيل فعل غير (كف) مدلول عليه بغير: كُفَّ، ودَعْ، وذَرْ، واترك، وخلِّ. فيتناول الطَّلب ما ليس بكفٍ نحو: (قم)، و(خذ)، وما هو كَف مدلول عليه بكُف ونحوه. فهذه كلُّها أوامر بخلاف الكفِّ المدلول عليه بنحو: (لا تفعل) فليس بأمر بل هو نهي، ولا فرق في الاقتضاء بين الجازم وغيره وإن كان الأمر حقيقة في الجازم فقط على الصَّحيح، لكنَّ المراد بالأمر صيغة (افعل)..انظر: نشر البنود (١/١٤٧)، نثر الورود (١/١٧٢-١٧٣).

والأمرُ محمولٌ في أغلبه على الوجوبِ إلا إن صرفته قرينةٌ عن الوجوب؛ لأنَّ الأصل في الأمرِ الوجوبُ، فإن صرفته قرينةٌ عن الوجوب انصرف إليها، كما قيل في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ [النور:٣٣]. فقد ذَهَبَ كثيرٌ من العلماءِ إلى أنَّ هذا الأمر أمرُ إرشادٍ واستحبابٍ وندب على الصَّحيح (١)، لا أمر تحتُّمٍ وإيجاب، بل السيِّد مخيَّرٌ إذا طلب منه عبده الكتابةَ، إن شاء كاتَبَه، وإن شاء لم يكاتِبْه.

وغالبُ الأمرِ في القرآن الكريم يدعمه تهديدٌ، فالله جَلَّوَعَلَا عندما يقول: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة:٤٣]، يدلُّ على وجوب الصَّلاة؛ لأنَّ الذين لا يصلُّون يتوعدهم ويهددهم في آياتٍ أخرى حيث يقول جَلَّوَعَلَا: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ [الماعون:٤-٥]، ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٧﴾ [فصلت:٦-٧]. والطَّلب إن كان بطريق العلو سواء كان عاليًا حقيقة أو لا فهو أمر(٢)، وإن كان على طريق السُّفل سواء كان سافلًا في الواقعِ أم لا فدعاء" (٣). وقيل: من الأعلى أمرٌ، ومن الأدنى دعاءٌ (٤).

---

(١) وقيل: هو للوجوب.

(٢) (ما كان عاليًا حقيقة) كقول السَّيد لعبده: افعل كذا. (أو لا) كقول العبد لسيِّده: افعل كذا -حال كونه طالبًا للعلو- فخرج الدُّعاء والالتماس؛ لأنَّ الأوَّل من الأدنى، والثَّاني من المساوي، بخلاف الأمر؛ فإنَّه يشترط فيه طلب الآمر العلوَّ. والمراد بطلبه العلوَّ أن يعدَّ نفسه عاليًا بإظهار حاله العالي، وذلك بأن يكون كلامه على جهة الغلظة والقوَّة لا على جهة التَّواضع والانخفاض، فسمِّي ميله في كلامه إلى العلوِّ طلبًا له سواء كان عاليًا في نفسه أو لا. انظر: شروح تلخيص المفتاح (٢/٣٠٩-٣١٠).

(٣) انظر: مختصر المعاني، للعلامة السعد (١/١٣٩)، الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم (١/٥٩٦)، مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح (١/٤٩٩)، الكليات (ص:٥٨٢)، شموس البراعة (ص:١٤).

(٤) انظر: حاشية الجرجاني على الكشاف (١/٦٧)، البهجة في شرح التحفة (١/٢٦)، الجنى الداني (ص:١١٠)، التصريح (٢/٢٤٦). قال الأخضري: (أَمْرٌ مَعَ اسْتِعْلا وَعَكْسُهُ دُعا***وَفي التَّساوِي فَالْتِماسٌ وَقَعا)،=

قال الإمام ابنُ عرفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة:٦]: "الطَّلب من الأدنى للأعلى سؤال عند المنطقيين، ودعاء عند النَّحويين. ومنهم من قال: إن كان لله عَزَّوَجَلَّ فهو دعاء، وإن كان لغيره فهو أمر" (١).

والطَّلب مع الخضوع مطلقًا ليس بدعاء، بل الدُّعاء مخصوصٌ بالطَّلب من الله عَزَّوَجَلَّ في العرف وفي جميع الاصطلاحات (٢)، كما أنَّ الالتماس لا يستعمل إلا في مقام التَّواضع (٣)، وأمَّا السُّؤال فهو أعمُّ منه.

والمطلوب به إن كان ممَّا لا يمكن فهو التَّمني، وإن كان ممكنًا، فإن كان حصول أمر في ذهن الطَّالب فهو الاستفهام، وإن كان حصول أمرٍ في الخارج، فإن كان ذلك الأمرُ انتفاء فعل فهو النَّهي، وإن كان ثبوته فإن كان بأحد حروف النِّداء فهو النِّداء، وإلا فهو الأمر. والطَّلبُ فعلٌ اختياريٌّ لا يتأتَّى إلا بإرادةٍ متعلِّقةٍ بخصوصيَّة المطلوب موقوفة على امتيازه عمَّا عداه.

=فالأمرُ ما دلَّ على الفعل بذاته كاضرب، وقوله: (مع اسْتِعْلا)، أي: مع إظهار الطَّالب العلوَّ على المطلوب منه. (وَعَكْسُه)، أي: طلبُ الفعلِ لا مع استعلاء، بل مع خضوع وإظهار الطَّالب الانخفاض عن المطلوب منه دعاء، وفي التَّساوي التماس، كقول بعض الخدمة لبعض: أعطني عمامتي. السلَّم بشرح الشَّيخ درويش القويسني (ص:١٧).

(١) تفسير ابن عرفة (١/١٠٢).

(٢) يعنى أنَّ الدُّعاء مخصوصٌ بالطَّلب من الله عَزَّوَجَلَّ في (الاصطلاح الشَّرعي)، وكذلك في (الاصطلاح العرفيِّ و(اللُّغوي).

(٣) ومع التَّساوي في الرتبة فقد نبَّه العلامة السَّعد، وصاحب: (الكليات) إلى أنَّ ثمَّة فرقًا بين الالتماس والسُّؤال، فالالتماسُ يستعملُ في مقام التَّواضع، والسُّؤال أعمُّ. وعلى ذلك فكلُّ التماس سؤال، وليس كلُّ سؤال التماسًا فبينهما عموم وخصوص مطلق.

والطَّلب من الله عَزَّوَجَلَّ يجوزُ بلفظ الماضي والمضارع، وبصيغة الأمر على اصطلاح الأدباء، وكذا الثَّناء مثل: (صلى الله عليه وسلم) و(حمدت الله)، و(أحمده)، بخلاف: (أضرب)، و(أبيع)، والفرق إمكان الوعد فيه، وعدم إمكان الوعد في الثَّناء على الله عَزَّوَجَلَّ والطَّلب منه إلا إذا قام دليل مثل: سأستغفر الله عَزَّوَجَلَّ، فإنَّ حرف التَّنفيس دليل الوعد" (١).

والحاصل أنَّهم فرَّقوا بين (الأمر) و(الدُّعاء) و(الالتماس) في الصِّيغة الواحدة، وذلك بالنَّظر إلى المخاطِب -بكسر الطاء المهملة- والمخاطَب -بفتح الطاء المهملة-.

ولكن ينبغي أن نلحظ أنَّ الطَّلب من غير الله عَزَّوَجَلَّ وإن كان معه خضوعٌ وانكسارٌ وذلٌّ فليس بدعاءٍ، وإنَّما هو سؤالٌ والتماسٌ ورجاءٌ -كما تقرَّر-.

وما سبق يصدق أيضًا على (لا النَّاهية). فما كان الأعلى إلى الأدنى يسمَّى: نهيًا، وبالعكس يسمَّى: دعاءً، ومن المساوي يسمَّى: التماسًا، وذلك مع ملاحظة الاعتبارات السَّابقة. فقول الله عَزَّوَجَلَّ -مثلًا- على لسان لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ [لقمان:١٣] نهيٌ حقيقيٌّ.

وقوله عَزَّوَجَلَّ على لسان المخاطَبين: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٦] ليس نهيا حقيقيًّا، وإنَّما هو دعاءٌ، وإسقاط حرف النداء يشير إلى قرب المنادَى، وأنه حاضر مع المنادِي غير غافل عنه.

قال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "كثرة مجيء النداء باسم الرب المقتضي للقيام بأمور العباد وإصلاحها؛ فكان العبد متعلق بمن شأنه التربية والرفق والإحسان، قائلًا: يا من هو

(١) الكليات (ص:٥٨٢).

المصلح لشؤوننا على الإطلاق أتم لنا ذلك بكذا، وهو مقتضى ما يدعو به، وإنما أتى (اللهم) في مواضع قليلة، ولمعان اقتضتها الأحوال" (١).

أمَّا (الالتماسُ) فكقولكَ لصاحبكَ أو زميلكَ أو أخيكَ أو مَن يساويكَ في الرُّتبة: (لا تقلقْ يا أخي فالامتحانُ سهلٌ)، أو ما إلى ذلك من الأفعال التي تتحدَّث بها مع ندِّك؛ فإنَّها حينئذٍ تسمَّى التماسًا.

رابعًا: صيغ الأمر:

وإنَّ الأمرَ له أربعُ صيغٍ، وقد وردت في القرآن الكريم:

١ – فعلُ الأمر: وذلك كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الإسراء:٧٨].

٢ – المضارع المجزوم بلام الأمر: كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ [الحج:٢٩]، ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [الطلاق:٧].

أمَّا (لام الأمر) في القرآن الكريم فقد جاءت متعيِّنة غير محتملة في (ثمانين) موضعًا في القرآن الكريم.

أ. دخلت (لام الأمر) على المضارع المبدوء (بتاء الخطاب)، كما في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْتَفْرَحُوا﴾ [يونس:٥٨]، وكذلك قراءة: ﴿وَلْتَعْفُوا وَلْتَصْفَحوا﴾ [النور:٢٢] –بالتَّاء– أمر خطاب للحاضرين (٢).

---

(١) الموافقات (٤/٢٠٣).

(٢) وهي قراءة عبد الله بن مسعود والحسن وسفيان بن الحسن وأسماء بنت يزيد. انظر: البحر المحيط (٨/٢٥).

وفي (المحتسب) قال أبو الفتح بن جني: "هذه القراءة –بالتَّاء– كالأخرى المأثورة عنه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ﴿فَبِذَلِكَ فَلْتَفْرَحُوا﴾، وقد ذكرنا ذلك، وأنَّه هو الأصل، إلا أنَّه أصل مرفوض، استغناء عنه بقولهم:=

ب. (لام الأمر) غير المسبوقة بحرف عطف:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ [النور:٥٨].

﴿وَنَادَوْاْ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف:٧٧].

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [الطلاق:٧].

ج. (لام الأمر) للمتكلِّم:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ﴾ [العنكبوت:١٢].

وروى عن أبيّ بن كعب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّه قرأ: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لَنسوءن وُجُوهَكُمْ﴾ [الإسراء:٧] –بالنُّون الخفيفة واللاَّم المفتوحة– وهي (لام الأمر)..–(١).

د. (لام الأمر) بعد الفاء في مواضع كثيرة:

فمن ذلك: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة:١٨٥]، ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي﴾ [البقرة:١٨٦]، ﴿فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ﴾ [البقرة:٢٨٢]، ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾ [البقرة:٢٨٢]، ﴿فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ﴾ [البقرة:٢٨٣]... إلى غير ذلك.

=(اعفوا واصفحوا)" المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها (١٠٦/٢)، دارسات لأسلوب القرآن الكريم (٤٢٢/٢–٤٢٣).

(١) انظر: معاني القرآن، للفراء (١١٧/٢)، المحتسب (١٥/٢)، المحرر الوجيز (٤٤٠/٣)، تفسير القرطبي (٢٢٣/١٠)، روح المعاني (١٩/١٥)، معاني القرآن، للنَّحاس (١٢٥/٤)، الدر المصون (٣٧٣/٤)، البحر المحيط (١٠/٦).

هـ. (لام الأمر) بعد الواو في مواضع:

فمن ذلك: قوله جَلَّوَعَلَا:

﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبُۢ بِٱلْعَدْلِ﴾ [البقرة:٢٨٢] [البقرة:٢٨٢].

﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ [البقرة:٢٨٢، ٢٨٣] ... إلى غير ذلك.

و. (لام الأمر) بعد (ثُمَّ):

﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ﴾ [الحج:٢٩]، ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ [الحج:١٥].

٣ – اسم فعل الأمر: نحو: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [المائدة:١٠٥].

٤ – المصدر النَّائب عن فعل الأمر:

وهو الَّذي يقع جزاءً لشرط، نحو قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد:٤]، أي: فاضربوا رقابهم.

قال الفراء رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "نصب على الأمر، والذي نصب به مضمر" [(١)].

قال أبو إسحاق الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "معناه: فاضربوا الرقاب ضربًا، منصوب على الأمر. وتأويله: فإذا لقيتم الذين كفروا فاقتلوهم، ولكن أكثر مواقع القتل ضرب العنق" [(٢)].

وقال جار الله الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أصله: فاضربوا الرقاب ضربًا، فحذف الفعل، وقدم المصدر، فأنيب منابه مضافًا إلى المفعول. وفيه اختصار مع إعطاء معنى التوكيد؛ لأنك تذكر المصدر وتدل على الفعل بالنصبة التي فيه" [(٣)].

---

(١) معاني القرآن، للفراء (٣/٥٧).

(٢) معاني القرآن وإعرابه (٥/٦).

(٣) الكشاف (٤/٣١٦).

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك:١١]، أي: فبعدًا لهم عن رحمة الله عَزَّوَجَلَّ وكرامته اعترفوا أو جحدوا؛ فإن ذلك لا ينفعهم. وانتصابه بفعل مضمر على أنه مصدر وقع موقع الدعاء. قال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ويروى: ﴿فَسُحقًا﴾ بضم الحاء. ﴿فَسُحْقًا﴾ منصوب على المصدر، المعنى: أسحقهم الله سحقًا، أي: باعدهم الله عَزَّوَجَلَّ من رحمته مباعدة، والسحيق: البعيد" (١).

ونحو قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ﴾ [المجادلة:٤]، أي: فليصم شهرين متتابعين، أو فليطعم ستين مسكينًا.

وأكثرُ العلماءِ قالوا: صيغةُ الأمر تدلُّ على الوجوب دلالةً حقيقيَّة، ولا تدلُّ على غير الوجوب من النَّدب والإباحة ونحوهما إلا بقرينة.

وتفصيل ذلك في مظانه.

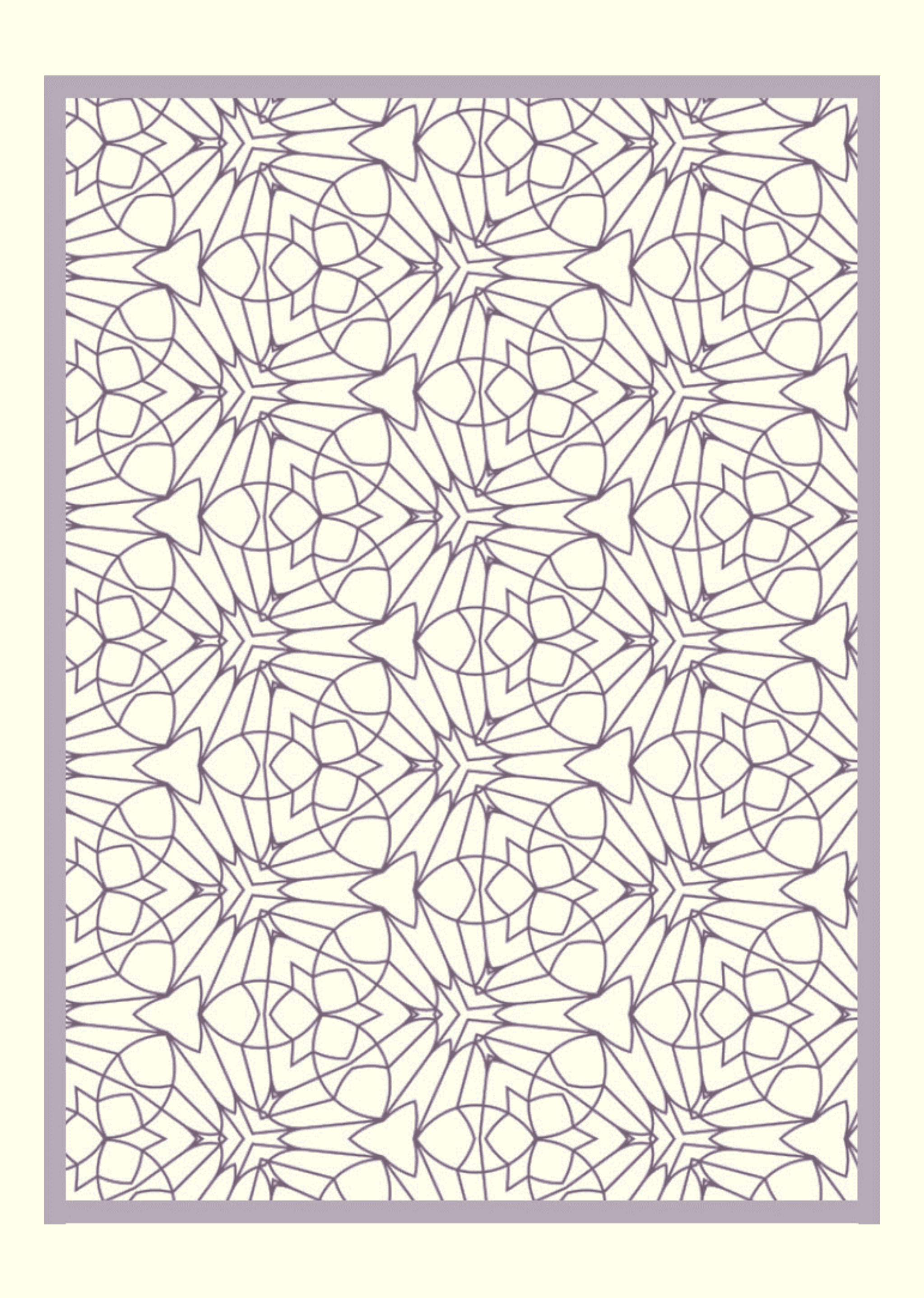
وقد تستعمل صيغة الأمر لغيره، أي: لغير طلب الفعل استعلاء (٢).

وقد كنتُ قد فصلت القول في خروج كل من الأمر والنهي عن معناهما الأصلي إلى معانٍ أخرى تستفاد من سياق الكلام وقرائنِ الأحوال في كتاب: (أساليب الخطاب في القرآن الكريم).



(١) معاني القرآن وإعرابه (١٩٩/٥).

(٢) انظر: مختصر المعاني، للسعد (ص:١٣٩)، مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح (٥٠٢/١)، حاشية الدسوقي على مختصر المعاني (٤٠٧/٢).



المبحث السابع عشر

دلالة النواسخ الفعلية على الزمان

الأفعال الناسخة هي أفعال ناقصة، أي: لا تكتفي بوجود اسمها المرفوع، كما في الأفعال التامة، وإنَّما تحتاج إلى خبرها المنصوب حتى يكتمل معنى الجملة، وتتم دلالة الحدث، وهذه الأفعال تدخل على الجملة الاسمية، فترفع المبتدأ؛ تشبيهًا له بالفاعل، ويسمى: اسمها، وتنصب الخبر تشبيهًا؛ بالمفعول به، ويسمى: خبرها، كما أنَّها تسمى بالأفعال الناسخة؛ لأنها تنسخ حكم الخبر، فهي تغير في إعراب الجملة التي تدخل عليها.

والأفعال الناقصة لها دلالة زمنية من حيث كونها أفعالًا ماضية أو مضارعة.

ولها دلالتان -كما للفعل-:

١ – الدلالة الزمنية.

٢ – دلالته كل فعل منها على المعنى الذي يتضمنه.

قالوا: الأفعال الناقصة هي أفعال وضع كل واحد منها لتقرير فاعله وتثبيته -إيجابًا أو سلبًا- على صفة يدل عليها خبره.

وإنما سميت ناقصة؛ لأنها لا تتم بمرفوعها، كالأفعال الغير الناقصة، ففيها احتياج إلى الخبر. وكل شيء فيه احتياج فيه نقصان [١].

والأفعال الناقصة تدل على زمان فقط، بينما تدل الأفعال التامة على الزمان والحدث.

فـ: (كان) -مثلًا- مجردًا يدل على الزمان الماضي دون الحدث.

أما (كتب) -مثلًا- فهي تدل على الزمان الماضي، وعلى الحدث، هو الكتابة.

ذهب أكثر النحاة إلى أن (كان) ليس فيها عنصر الحدث، وإنما تجردت للزمن فقط.

قال ابن يعيش رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأما كونها ناقصة فإن الفعل الحقيقي يدل على معنى وزمان، نحو قولك: (ضرب)؛ فإنه يدل على ما مضى من الزمان، وعلى معنى: الضرب. و(كان) إنما تدل على ما مضى من الزمان فقط، و(يكون)، تدل على ما أنت فيه، أو على ما يأتي من الزمان، فهي تدل على زمان فقط. فلما نقصت دلالتها، كانت ناقصة" [٢].

وفي (شرح الرضي على الكافية): "وما قال بعضهم من أنها سميت ناقصة، لأنها تدل على الزمان دون المصدر ليس بشيء لأن (كان) في نحو: (كان زيد قائمًا)، يدل على الكون الذي هو الحصول المطلق، وخبره يدل على الكون المخصوص، وهو كون القيام، أي: حصوله، فجيء أولًا بلفظ دال على حصول ما، ثم عين بالخبر ذلك الحاصل، فكأنك قلت: حصل شيء، ثم قلت: حصل القيام، فالفائدة في إيراد مطلق الحصول

---

(١) جامع العلوم في اصطلاحات الفنون (٩٩/١)، وانظر: موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم (٢٣٨/١).

(٢) شرح المفصل، لابن يعيش (٣٣٥/٤-٣٣٦)، وانظر: معاني النحو (٢٠٩/١).

أولًا. ثم تخصيصه كالفائدة في ضمير الشأن على قبل تعين الشأن مع فائدة أخرى ههنا، وهي: دلالته على تعيين زمان ذلك الحصول المقيد، ولو قلنا (قام زيد)، لم تحصل هاتان الفائدتان معًا، فكان يدل على حصول حدث مطلق تقييده في خبره، وخبره يدل على حدث معين واقع في زمان مطلق تقييده في (كان)، لكن دلالة (كان) على الحدث المطلق، أي: الكون وضعية، ودلالة الخبر على الزمان المطلق عقلية.

فمعنى: (كان زيد قائمًا) أن زيدًا متصف بصفة القيام، المتصف بصفة الكون، أي: الحصول والوجود" [(١)].

وفي (معاني النحو): "الحقيقة إنها تدل على الحدث الذي هو الكون، بدليل أنه يأتي منها المصدر واسم الفاعل قال الشاعر.

*** وكونك إياه عليك يسير [(٢)]

(١) شرح الرضي على كافية ابن الحاجب (٤/١٨١-١٨٢).

(٢) هذا عجز بيت، وصدره قوله: (ببذل وحلم ساد في قومه الفتى***). انظر: مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح (٣١٩/١)، توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك (٤٩٨/١)، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك (٢٣٤/١)، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (٢٧٠/١)، شرح الأشموني على ألفية ابن مالك (٢٢٨/١)، شرح التصريح على التوضيح (٢٤٠/١)، همع الهوامع (٤١٩/١). قال العيني: "لم أقف على اسم قائله" المقاصد النحوية (٥٨٥/٢). وقوله: (وكونك إياه) استعمل مصدر (كان) الناقصة وأجراه مجراها في رفع الاسم ونصب الخبر.

وقال:

وما كل من يبدي البشاشة كائنًا أخاك إذا لم تلفه لك منجدًا [(١)]

والمصدر هو الحدث المجرد من الزمن، واسم الفاعل يدل على الحدث، وذات الفاعل فهي إذن تدل على الحدث وهو الكون" [(٢)].

والأفعال الناقصة هي: كان، وصار، وأصبح، وأمسى، وأضحى، وظل، وبات، وما زال، وما برح، وما فتئ، وما انفك، وما دام، وليس: ترفع الاسم، وتنصب الخبر، تقول: كان زيد منطلقًا، وصار زيد غنيًا، ويجوز في هذا الباب تقديم الخبر على الاسم تقول: كان منطلقًا زيد، وكان في الدار زيد، وفي التنزيل: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم:٤٧]، ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ [الكهف:٣٤]، ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ﴾ [الكهف:٤٣] [(٣)].

وقال ابن الحاجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الأفعال النَّاقصة: ما وضع لتقرير الفاعل على صفة.." [(٤)].

قال الشيخ رضي الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (شرحه): "كان ينبغي أن يقيد الصفة فيقول: على صفة غير مصدره؛ فإن (زيد) في (ضرب زيد) أيضًا، متصف بصفة الضرب، وكذا جميع الأفعال التامة، وأما الناقصة فهي لتقرير فاعلها على صفة، متصفة بمصادر الناقصة،

---

(١) انظر: شرح الكافية الشافية (٣٨٧/١)، اللمحة في شرح الملحة (٥٧٣/٢)، أوضح المسالك (٢٣٥/١)، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (٢٦٩/١)، شرح الأشموني (٢٢٨/١)، شرح التصريح على التوضيح (٢٤٠/١)، همع الهوامع (٤٢١/١)، شرح تسهيل الفوائد (٣٤٠/١). وقوله: (كائنًا) اسم فاعل من (كان) الناقصة، وقد عمل عملها، فرفع اسمًا ونصب خبرًا، أما الاسم فهو ضمير مستتر فيه، وأما الخبر فهو قوله: (أخاك).

(٢) معاني النحو، للدكتور فاضل السامرائي (٢١٠/١).

(٣) انظر: المغرب في ترتيب المعرب (ص:٥٣٣-٥٣٤).

(٤) الكافية في علم النحو، لابن الحاجب (ص:٤٧).

فمعنى: (كان زيد قائمًا): أن زيدًا متصف بصفة القيام المتصف بصفة لكون، أي: الحصول والوجود، ومعنى: (صار زيد غنيًا): أن زيدًا متصف بصفة الغني المتصف بصفة الصيرورة، أي: الحصول بعد أن لم يحصل، قوله: (لتقرير الفاعل على صفة)، أي: جعله وتثبيته عليها" [١].

قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ترفع كان الْمبتدا اسمًا والخبر ... تنصبه ككان سيدًا عمر

ككان ظلَّ بات أضحى أصبحا ... أمسى وصار ليس زال برحا

فتئ وانفكَّ وهذي الأربعة ... لشبه نفي أو لنفي متبعه

ومثل كان دام مسبوقًا بما ... كأعط ما دمت مصيبًا درهمًا [٢]

قال ابن عقيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "نواسخ الابتداء قسمان: أفعال وحروف فالأفعال: كان وأخواتها، وأفعال المقاربة، وظن وأخواتها.

والحروف ما وأخواتها ولا التي لنفي الجنس وإن وأخواتها.

وكان وأخواتها كلها أفعال اتفاقًا، إلا (ليس) فذهب الجمهور إلى أنها فعل، وذهب الفارسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أحد قوليه، وأبو بكر بن شقير رَحِمَهُ ٱللَّهُ -في أحد قوليه- إلى أنها حرف.

وهذه الأفعال قسمان:

منها: ما يعمل هذا العمل بلا شرط: وهي: (كان، وظل، وبات، وأضحى، وأصبح، وأمسى، وصار، وليس).

---

(١) انظر: شرح الرضي على كافية ابن الحاجب (٤/١٨١-١٨٢)، ونحو قولِ الرضي -الآنف الذكر- قول الشيخ عبد الحكيم السيالكوتي في (حاشيته على المطول) (ص:٢٦٠).

(٢) ألفية ابن مالك (ص:١٩).

ومنها: ما لا يعمل هذا العمل إلا بشرط، وهو قسمان:

أحدهما: ما يشترط في عمله أن يسبقه نفي لفظًا أو تقديرًا، أو شبه نفي:

وهو أربعة: (زال، وبرح، وفتىء، وانفك).

فمثال النفي لفظًا: (ما زال زيد قائمًا).

ومثاله تقديرًا: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ [يوسف:٨٥]، أي: لا تفتؤ. ولا يحذف النافي معها إلا بعد القسم كالآية الكريمة، وقد شذ الحذف بدون القسم، كقول الشاعر:

وأبــرح مــا أدام الله قــومي ... بـحـمـد الله مُنْـتَـطِقًا مُـجِيْدًا [1]

أي: لا أبرح منتطقًا مجيدًا، أي: صاحب نطاق وجواد ما أدام الله عَزَّوَجَلَّ قومي. وعنى بذلك: أنه لا يزال مستغنيًا ما بقي له قومه، وهذا أحسن ما حمل عليه البيت.

ومثال شبه النفي، والمراد به: النهي: قولك: (لا تزل قائمًا)، ومنه قوله:

---

(١) قال العيني: "قائله: هو خداش بن زهير". وقوله: (أبرح) حيث استعمله بدون نفي أو شبه نفي، مع كونه غير مسبوق بالقسم، قال ابن عصفور: وهذا البيت فيه خلاف بين النحويين، فمنهم من قال: إن أداة النفي مرادة، فكأنه قال: (لا أبرح). ومنهم من قال: إن (أبرح) غير منفي، لا في اللفظ ولا في التقدير، والمعنى عنده: أزول بحمد الله عن أن أكون منتطقًا مجيدًا، أي: صاحب نطاق وجواد؛ لأن قومي يكفونني هذا، فعلى الوجه الأخير في كلام ابن عصفور لا استشهاد فيه. انظر: المقاصد النحوية، للبدر العيني (٢/٦١٨-٦١٩)، المعاني الكبير في أبيات المعاني، لابن قتيبة (١/٨٢)، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات (ص:٣١٤)، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال (ص:٦٤)، خزانة الأدب (٩/٢٤٣)، زهر الأكم في الأمثال والحكم (١/١٧٩).

صاح شمر ولا تزل ذاكر المو ت فنسيانه ضلال مبين [١]

والدعاء كقولك: (لا يزال الله محسنًا إليك)، وقول الشاعر:

ألا يا اسلمي يا دارمي على البلى ولا زال منهلًا بجرعائك القطر [٢]

القسم الثاني: ما يشترط في عمله أن يسبقه (ما) المصدرية الظرفية:

وهو (دام) كقولك: (أعط ما دمت مصيبًا درهمًا)، أي: أعط مدة دوامك مصيبًا درهما، ومنه: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ [مريم:٣١]، أي: مدة دوامي حيًّا.

ومعنى (ظلَّ): اتصاف المخبر عنه بالخبر نهارًا.

ومعنى: (بات): اتصافه به ليلًا [٣].

---

(١) قال العيني: "لم أقف على اسم قائله. قوله: (ولا تزل) أجرى فيه (زال) مجرى (كان)؛ لتقدم شبه النفي، وهو النهي، وقد عُلِمَ أن (زال وأخواتها) لا تفارق أداة النفي في حال نقصانها إما ملفوظًا بها وإما مقدرة" المقاصد النحوية (٢/٥٨٤-٥٨٥).

(٢) قائله: ذو الرمة. وهو في (ديوانه) (١/٥٥٩) بشرح أبي نصر الباهلي رواية ثعلب. وقوله: (ولا زال.. الخ) أجرى (زال) مجرى (كان) في رفعها الاسم ونصب الخبر؛ لتقدم (لا) الدعائية عليها، والدعاء شبه النفي. والمعنى: يدعو لدار حبيبته بأن تدوم لها السلامة على مر الزمان من طوارق الحدثان، وأن يدوم نزول الامطار بساحتها، وكنى بنزول الامطار عن الخصب والنماء بما يستتبع من رفاهية أهلها، وإقامتهم في ربوعها، وعدم المهاجرة منها؛ لانتجاع الغيث والكلأ.

(٣) قال الزمخشري: "وظل وبات على معنيين: أحدهما: اقتران مضمون الجملة بالوقتين الخاصيين على طريقة كان. والثاني: كينونتهما بمعنى: صار، ومنه قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ [النحل:٥٨]" المفصل في صنعة الإعراب (ص:٣٥٣)، وانظر: شرح المفصل، لابن يعيش (٤/٣٥٧). قال ابن مالك: "وزعم الزمخشري أن (بات) ترد -أيضًا- بمعنى: (صار)، ولا حجة له على ذلك، ولا لمن وافقه.." انظر: شرح الكافية الشافية (١/٣٩٤).

و(أضحى): اتصافه به في الضحى.

و(أصبح): اتصافه به في الصباح.

و(أمسى): اتصافه به في المساء [١].

ومعنى (صار): التحول من صفة إلى صفة أخرى [٢].

ومعنى (ليس): النفي، وهي عند الإطلاق لنفي الحال، نحو: (ليس زيد قائمًا) أي: الآن، وعند التقييد بزمن على حسبه، نحو: (ليس زيد قائمًا غدًا) [٣].

ومعنى (زال وأخواتها) ملازمة الخبر المخبر عنه على حسب ما يقتضيه الحال، نحو: (ما زال زيد ضاحكًا) و(ما زال عمرو أزرق العينين).

ومعنى (دام): بقي واستمر" [٤].

---

(١) وأصبح وأمسى وأضحى على ثلاث معان: أحدهما: أن يقرن مضمون الجملة بالأوقات الخاصة التي هي الصباح والمساء والضحى على طريقة كان. والثاني: أن تفيد معنى الدخول في هذه الأوقات كأظهر وأعتم، وهي في هذا الوجه تامة يسكت على مرفوعها. والثالث: أن يكون بمعنى: صار كقولك: (أصبح زيد غنيًّا وأمسى أميرًا). المفصل (ص:٣٥٢-٣٥٣)، وانظر: شرح المفصل (٤/٣٥٣).

(٢) ومعنى (صار): الانتقال، وهو على ذلك على استعمالين: أحدهما: قولك: (صار الفقير غنيًّا، والطين خزفًا)، والثاني: (صار زيد إلى عمرو)، ومنه: (كل حي صائر إلى الزوال). انظر: المفصل (ص:٣٥٢). الفائق، للزمخشري (١/٦٨)، وانظر: شرح المفصل (٤/٣٥٣).

(٣) قال الزمخشري: "و(ليس) معناه: نفي مضمون الجملة في الحال، تقول: (ليس زيد قائمًا الآن)، ولا تقول: (ليس زيد قائمًا غدًا). والذي يصدق أنه فعل: لحوق الضمائر وتاء التأنيث ساكنة به.." انظر: المفصل (ص:٣٥٥)، شرح المفصل (٤/٣٦٥).

(٤) شرح ابن عقيل (١/٢٦١-٢٦٨)، وانظر: شرح الأشموني (١/٢٢١)، همع الهوامع (١/٤١١). قال الزمخشري: "وما دام توقيت للفعل في قولك: (أجلس ما دمت جالسًا)، كأنك قلت: (أجلس دوام جلوسك)، نحو قولهم: (آتيك خفوق النجم ومقدم الحاج)؛ ولذلك كان مفتقرًا إلى أن يشفع بكلام؛ لأنه ظرف لا بد له مما يقع فيه" المفصل (ص:٣٥٥)، شرح المفصل (٤/٣٦٥). وانظر في ذلك كله الكافية في علم النحو، لابن الحاجب (ص:٤٧-٤٨) وشرحها للرضي.

وتجيء (كان) تامة بمعنى: حدث، ووجد، كما في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ [البقرة:٢٨٠].

و(كان) التامة مثل الأفعال الأخرى تدل على حدث وزمن.

بينما (كان) الناقصة تدل على الزمن فقط، فهي تخلو من الحدث، ولا فاعل لها.

قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومنع سبق خبر ليس اصطفي ... وذو تمام ما برفع يكتفي

وما سواه ناقص والنقص في ... فتىء ليس زال دائمًا قفي [(١)]

فقوله: "(وذو تمام.. إلى آخره) معناه: أن هذه الأفعال انقسمت إلى قسمين:

أحدهما: ما يكون تامًّا وناقصًا.

والثاني: ما لا يكون إلا ناقصًا.

والمراد بالتام: ما يكتفي بمرفوعه، وبالناقص: ما لا يكتفي بمرفوعه، بل يحتاج معه إلى منصوب.

وكل هذه الأفعال يجوز أن تستعمل تامَّة، إلا (فتىء)، و(زال التي مضارعها: يزال)، لا التي مضارعها: يزول؛ فإنها تامة، نحو: زالت الشمس، و(ليس) فإنها لاتستعمل إلا ناقصة.

ومثال التام: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ [البقرة:٢٨٠] أي: إن وجد ذو عسرة، وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [هود:١٠٧]، أي: ما بقيت، وقوله

(١) ألفية ابن مالك (ص:١٩).

جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧﴾ [الروم:١٧]" (١)، أي: حين تدخلون في المساء، وحين تدخلون في الصباح.

وقوله: (*** وذو تمام ما برفع يكتفي)، وقول من تبعه من الشُّرَّاح مخالف لمذهب سيبويه رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأكثر البصريين، من أن معنى تمامها: دلالتها على الحدث والزمان، وكذا الخلاف في تسمية ما ينصب الخبر ناقصًا، لم سمي ناقصًا؟ فعلى الأول: لكونه لم يكتف بمرفوعه، وعلى قول الأكثرين: لكونه سلب الدلالة على الحدث، وتجرد للدلالة على الزمان، واستدل ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ على بطلان مذهب الأكثرين بعشرة أوجه مذكورة في (شرحه على التسهيل) (٢).

و(كان) فعل ماض ناقص، غير أنها لا تختص بالماضي فقط، بل قد تكون لغيره، وقد ذكر كثير من النحاة تلك المعاني التي تخرج فيها (كان) عن المضي إلى معانٍ أخرى، وقد أجمل هذه المعاني صاحب (الكليات) رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حيث قال: "تأتي (كان) بمعنى: وقع، نحو: (ما شاء الله كان).

وبمعنى: صار، نحو: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝٣٤﴾ [البقرة:٣٤] (٣).

وبمعنى: الاستقبال، نحو: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾ [الإنسان:٧] (٤).

---

(١) شرح ابن عقيل (١/٢٧٩)، وانظر: شرح الأشموني (١/٢٣٥).

(٢) شرح التصريح على التوضيح (١/٢٤٩)، وانظر: شرح تسهيل الفوائد، لابن مالك (١/٣٣٨-٣٤٠).

(٣) ومنه قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ۝١٩ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠﴾ [النبأ:١٩-٢٠]، وقوله: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَـٰثَةً ۝٧﴾ [الواقعة:٥-٧].

(٤) ونحوه قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥﴾ [الإنسان:٥]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۝١٠٧﴾ [الكهف:١٠٧]. قال في (معاني النحو): "والذي أراه في مثل هذا أنه من باب: (تنزيل المستقبل منزلة الماضي)؛ لبيان أنه محقق الوقوع، وأنه بمنزلة=

وبمعنى: الماضي المنقطع، نحو: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ [النمل:٤٨] (١).

وبمعنى: الحال، نحو: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عمران:١١٠] (٢).

=ما مضى وفرغ منه، وذلك نحو قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر:٦٨]، وقوله: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ﴾ [الزمر:٧١]، وهذا في القرآن كثير؛ فإن القرآن كثيرًا ما يخبر عن المستقبل بلفظ الماضي؛ لبيان أن هذا المستقبل بمنزلة ما مضى، فكما أن الذي وقع وحصل لا شك فيه، فهذا كذلك" معاني النحو (٢١٦/١-٢١٧)، وقد تقدم بيان التجوز في الأفعال في القرآن الكريم مفصلًا.

(١) "وهو الغالب عليها، كأن تقول: (كان خالد غنيًا، وأصبح فقيرًا)، ومنه: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ [التوبة: ٦٩] والماضي المنقطع على ضربين: ١- ضرب يراد به الاتصاف بالحدث في الزمن الماضي على وجه الثبوت نحو: (كان محمد شاعرًا)، و﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً﴾ [التوبة:٦٩]، أي: متصفين بهذه الصفات على وجه الثبوت، وهذا إذا كان خبرها اسمًا. ٢- وضرب يراد به أنه حصل مرة، ولم يكن وصفًا ثابتًا، وذلك إذا كان خبرها فعلًا ماضيًا، وذلك كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَۚ﴾ [الأحزاب:١٥]، أي: أحدثوا معه عهدًا سابقًا" معاني النحو (٢١٠/١-٢١١).

(٢) ونحو قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ١٠٣﴾ [النساء:١٠٣]، ومنه قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ٢٠﴾ [النمل:٢٠]، وقوله: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٧٠﴾ [يس:٧٠]، وقوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ﴾ [الأحزاب:٤٠]. قال في (معاني النحو): "والذي أراه أنها بمعنى المضي فمعنى قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عمران:١١٠]: "وجدتم خير أمة، وقيل: كنتم في علم الله عَزَّوَجَلَّ خير أمة، وقيل: كنتم في الأمم مذكورين بأنكم خير أمة، موصوفين به" الكشاف (٤٠٠/١)، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ١٠٣﴾ [النساء:١٠٣]، أي: فرضت عليهم، أو كتبت عليهم، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة:١٨٣]، فهي مفروضة على المؤمنين منذ القديم، وكذلك البواقي" معاني النحو (٢١٦/١).

وبمعنى: الأزل والأبد، نحو: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾﴾ [النساء:١٧].

وبمعنى: الدوام والاستمرار، نحو: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ [النساء:٩٦]، ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنبياء:٨١]، أي: لم نزل كذلك، وعلى هذا المعنى يتخرج جميع الصفات الذاتية المقترنة بكان.

وبمعنى: ينبغي، نحو: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾ [النمل:٦٠]، [أو هي بمعنى القدرة والاستطاعة] (١) .

وبمعنى: صح وثبت، كقوله: (صَحَّ عِنْدَ النَّاسِ أَنِّي عَاشِقٌ ***) (٢)، ثم إنهم لما أرادوا نفي الأمر بأبلغ الوجوه قالوا: ما كان لك أن تفعل كذا، حتى استعمل فيما هو محال، أو قريب منه، فمن الأول: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ [مريم:٣٥].

---

(١) وقيل: هي بمعنى: القدرة، أي: ما قدرتم. انظر: الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها (ص:١١٦). وقد قال غير واحد في تفسير قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة:١١٦]، وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ﴾ [يونس:١٥]: يعني: ما ينبغي لي. انظر: تفسير مقاتل (٥١٩/١)، الكشاف (٦٩٤/١)، (٣٣٤/٢)، الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٥٤١/٢)، ومن ذلك قوله: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾ [الأعراف:٨٩]، ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ [النور:١٦]. وفي قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾ [النمل:٦٠]، أي: لا تستطيعون ذلك. وفي السياق والقرائن ما يدل على المعنى المراد.

(٢) وتمامه: (***غَيْرَ أَنْ لم يَعْلَمُوا عِشْقِي لِمَنْ). انظر: حلية الأولياء، لأبي نعيم (٣٧٣/١٣)، وفيات الأعيان (٢٧٥/٢)، حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع (٤٦١/٢).

ومن الثاني: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ [النساء:٩٢]، أي: ما صح له وما استقام (١).

وتكون للتأكيد، وهي: الزائدة، وجعل منه: ﴿وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الشعراء:١١٢]" (٢).

وفي (معاني النحو): التفريق بين الماضي المتجدد والمعتاد: وذلك إذا كان خبرها فعلا مضارعًا، وهو نوعان:

١ - **الماضي المستمر**: وهو ما حدث مرة وكان مستمرًا في حينه، نحو: (كنت اقرأ في كتابي فجاءني خالد)، أي: كنت مستمرًا على القراءة فجاءني خالد.

٢ - **الماضي المعتاد أو الدلالة على العادة في الماضي**: أي: كان الفاعل يعتاد الفعل، نحو: (كان يقوم الليل)، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ

---

(١) قال الزمخشري في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ [النساء:٩٢]: "﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾: وما صح له ولا استقام ولا لاق بحاله، كقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ [آل عمران:١٦١]، ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾ [الأعراف:٨٩]. أن يقتل مؤمنا ابتداء غير قصاص إلا خطأ إلا على وجه الخطأ" الكشاف (٥٤٨/١). ومن ذلك قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [التوبة:١٢٠]. قال الطيبي: "معناه: ما صح لهم ولا استقام أن يترفعوا بأنفسهم عن نفسه، أي: بأن يكرهوا الشدائد لأنفسهم، ولا يكرهوها له؛ فإنه مستهجن جدًّا، بل عليهم أن يعكسوا القضية" حاشية الطيبي على الكشاف (٣٩٤/٧)، وانظر: حاشية الشهاب الخفاجي= =(٣٧٣/٤)، روح المعاني (٤٣/٦). ومن ذلك قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ [الأنفال:٦٧].

(٢) الكليات (ص:٧٤٨-٧٤٩).

﴿١٧﴾ [الذاريات:١٧]، أي: هذه عادتهم. وقال: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ [مريم:٥٥]، أي: كان مستمرًا على ذلك.

ومن معانيها: **توقع الحدوث في الماضي**: تقول: (كان محمد سيفعل هذا) أي: كان متوقعًا منه الفعل في الماضي، أو بمعنى: أنه كان ينوي فعله في الماضي.

جاء في (الخصائص) [١]: "(كان زيد سيقوم أمس): أي كان متوقعًا منه القيام فيما مضى" [٢].



(١) انظر: الخصائص، لأبي الفتح بن جني (٣/٣٢٥).

(٢) معاني النحو (١/٢١١-٢١٢)، وانظر معانيها واستعمالاتها مفصلة في (معاني النحو).

المبحث الثامن عشر
دلالة الحال في اللغة على الزمان

أولًا: تعريف الحال:

قال ابن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ:

الحال وصف فضلة منتصب مفهم في حال كفردًا أذهب [(١)]

الحال وهو: وصفٌ فَضلَةٌ يبيّنُ هيئةَ صاحبِهِ عندَ وقوعِ الفعلِ، مثل: (جاءَ زيدٌ ضاحِكًا)، فضاحكًا: حال منصوب؛ لأنه وصف، أي: اسم مشتق؛ لكونه اسم فاعل، وفضلة، أي: ليس مسندًا ولا مسندًا إليه؛ إذ المسند هو (جاء)، والمسند إليه هو (زيدٌ)، وقد بيَّن هيئة زيد عند وقوع المجيء، بدليل أنه يقال: كيفَ جاءَ زيدٌ؟ فيقال: راكبًا، وهذه علامة الحال صحة وقوعها في جواب: (كيفَ)، ويسمى زيدٌ: صاحب الحال.

قال الشيخ أبو البركات الأنباري رَحِمَهُ اللَّهُ: "إن قال قائل: ما الحال؟ قيل: هيئة الفاعل والمفعول، ألا ترى أنك إذا قلت: (جائني زيد راكبًا) كان الركوب هيئة زيد عند وقوع المجيء منه، وإذا قلت: (ضربته مشدودًا)؛ كان الشَّدُّ هيئته عند وقوع الضرب له" [(٢)].

وفي (شرح المفصل): "الحال وَصْفُ هَيْئةِ الفاعل أو المفعول، وذلك نحوُ: (جاء زيدٌ ضاحِكًا)، و(أقبل محمّدٌ مُسْرِعًا)، و(ضربتُ عبدَ اللَّه باكيًا)، و(لقيتُ الأميرَ عادلًا).

(١) ألفية ابن مالك (ص:٣٢).

(٢) أسرار العربية، لأبي البركات كمال الدين الأنباري (ص:١٥٠).

والمعنى: جاء عبدُ اللَّه في هذه الحال، ولقيتُ الأمير في هذه الحال. واعتبارُه بأن يقع في جوابِ (كَيْفَ). فإذا قلتَ: (أقبل عبدُ الله ضاحكًا)، فكأَنَّ سائلًا سأل: (كيف أقبل؟) فقلتَ: (أَقبل ضاحكًا)، كما يقع المفعولُ له في جوابِ: (لِمَ فعلتَ؟)" (١).

فالوصف: جنس يشمل: الخبر والنعت والحال.

و(**فضلة**): مخرج للخبر؛ فإن الوصف فيه عمدة.

والأصل في الحال بسبب كونه فضلة أنه يجوز حذفه، وقد يجب ذكره، في مواضع.

فمعنى كونه (فضلة) أنه ليس مسندًا اليه، وليس معنى ذلك أنه يصح الاستغناء عنه في جميع الأحوال؛ إذ قد تجيء الحال غير مستغنى عنها، فلا يصح حذفها؛ لتوقف صحة المعنى على ذكرها، كما في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ١٦﴾ [الأنبياء:١٦]، وكقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء:٤٣]، وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء:٣٧].

ومن الأحوال التي لا تحذف؛ لكون المراد لا يفهم إلا بثبوتها: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود:٧٢].

ومن المواضع التي يجب فيها ذكر الحال: أن تكون محصورة في صاحبها، أو محصورًا فيها صاحبها، فالأول نحو: (ما جاء راكبًا إلا علي)، والآخر نحو: (ما جاء علي إلا راكبًا)، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ١٠٥﴾ [الإسراء:١٠٥].

(١) شرح المفصل، لابن يعيش (٢/٤)، وانظر: اللمع في العربية، لابن جني (ص:٦٢).

ومنها: أن يكون الحال جوابًا، كقولك: كقولك: (راكبًا) في جواب من قال: (كيف جئت؟).

ومنها: أن تكون الحال نائبة مناب الخبر، نحو: (ضربي زيدًا قائمًا)، فيمتنع حذفها هنا؛ لسدها مسد الخبر.

ومنها: أن تكون بدلًا من التلفظ بفعلها، نحو: (هنيئًا لك).

وبسط ذلك في مظانه [1].

وخرج بقوله: **(للدلالة على الهيئة)**: التمييز المشتق، نحو: (لله دره فارسًا)؛ فإنه تمييز لا حال على الصحيح؛ إذ لم يقصد به الدلالة على الهيئة، بل التعجب من فروسيته، فهو لبيان المتعجب منه، لا لبيان هيئته.

وكذلك: (رأيت رجلًا راكبًا)؛ فإن (راكبًا) لم يسق للدلالة على الهيئة، بل لتخصيص الرجل.

وقول المصنف مفهم في حال هو معنى قولنا: للدلالة على الهيئة.

كذا في (شرح ابن عقيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ) [2].

و**(منتصب)** مخرج لنعتي المرفوع والمخفوض، كـ: (جاءني رجل راكب) و(مررت برجل راكب).

---

(١) انظر: شرح تسهيل الفوائد، لابن مالك (٢/٣٥٣)، شرح الكافية الشافية (٢/٧٦٦)، همع الهوامع، للسيوطي (٢/٣٣٤)، اللباب في علل البناء والإعراب (١/١٤٥).

(٢) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (٢/٢٤٣-٢٤٤).

قال ابن هشام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفي هذا الحد نظر؛ لأن النصب حكم، والحكم فرع التصور، والتصور متوقف على الحد، فجاء الدور" (١).

ثانيًا: تعدد الحال وصاحبها مفرد أو متعدد:

قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والحال قد يجيء ذا تعدُّد لمفردٍ فاعلم وغير مفرد

وعامل الحال بها قد أكِّدا في نحو: لا تعث في الأرض مفسدًا (٢)

يجوز تعدد الحال وصاحبها مفرد أو متعدد.

فمثال الأول: (جاء زيد راكبًا ضاحكًا) فـ: راكبًا وضاحكًا حالان من زيد، والعامل فيهما: جاء. خلافًا لابن عصفور رَحِمَهُ ٱللَّهُ في منعه تعدد الحال في هذا النحو ما لم يكن العامل أفعل التفضيل، نحو: (هذا بُسْرًا أطيبُ منه رُطبًا) (٣).

---

(١) أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك (٢/٢٥٠). قال الأخضري: (وعندهم من جملة المردود*** أن تَدْخُلَ الأحكام في الحدود)، يشترط في التعريف: أن لا يكون التعريف مشتملًا على الحكم؛ بحيث يثبت صفة للتعريف، أو ينفيها عنه؛ لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره. والسبب في منع إدخال الأحكام في التعاريف هو أن الحكم لا يعرف ثبوته إلا بعد تصور المحكوم عليه، فلو جعل جزءًا من تعريفه لزم الدور،كقولهم: الفاعل هو الاسم المرفوع، فالرفع حكمٌ من أحكام الفاعل، والحكم على الشيء متوقف على تصوره، فإذا أخذ الحكم جزءًا في التعريف توقف المعرف عليه، وحصل الدور الذي هو توقف كل من الشيئين على الآخر.

(٢) ألفية ابن مالك (ص:٣٣).

(٣) قوله: (بسرًا) بضم الموحدة وسكون المهملة، (أطيب منه رطبًا) بضم الراء وفتح الطاء؛ فـ: (بسرًا) حال من فاعل (أطيب)، المستتر فيه، و(رطبًا): حال من الضمير المجرور بـ: (من)، والمعنى: هذا في حال كونه بسرًا أطيب من نفسه في حال كونه رطبًا..كذا في (شرح التصريح) (١/٥٧٦).

ونقل المنع عن الفارسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجماعة؛ فـ: (ضاحكًا) في المثال عندهم نعت لراكب، أو حال من الضمير في (راكب).

والثاني: قد يكون بجمع، نحو: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ [إبراهيم:٣٣]، ونحو: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [النحل:١٢].

وقد تكون بتفريق، وله طريقان:

إحداهما: أن تولي كل حال صاحبه نحو: (لقيت مصعدًا زيدًا منحدرًا)، ولا إشكال فيها [١].

والأخرى: أن تؤخرهما، نحو: (لقيت زيدًا مُصْعِدًا منحدِرًا).

فإن لم تكن قرينة تعين جعل الأولى للثاني، والثانية للأول؛ لتتصل إحداهما بصاحبه، خلافًا لمن عكس[٢].

وإن وجدت قرينة عمل بها [٣]، نحو:

خَرَجْتُ بها أمشي تَجُرُّ وراءَنا *** [٤]

---

(١) فلا يجوز أن يكون (المصعد) إلا أنت، و(المنحدر) إلا (زيدًا)؛ لأنك إن قدمت وأخرت التبس. انظر: الأصول في النحو، لابن السراج (٢/٢٤٥-٢٤٦)، المقتضب (٤/١٦٩)، شرح الكافية الشافية (٢/٧٥٥)، همع الهوامع (٢/٣١٦).

(٢) قال في (الأصول): "ومن كلام العرب: (رأيت زيدًا مصعدًا منحدرًا)، و(رأيت زيدًا ماشيًا راكبًا) إذا كان أحدهما ماشيًا والآخر راكبًا، وأحدكما مصعدًا والآخر منحدرًا. تعني: أنك إذا قلت: (رأيت زيدًا مصعدًا منحدرًا) أن تكون أنت المصعد، وزيد المنحدر، فيكون (مصعدًا) حالًا للتاء و(منحدرا) حالًا لزيد، وكيف قدرت بعد أن يعلم السامع من المصعد، ومن المنحدر جاز" الأصول في النحو (١/٢١٨)، شرح المفصل، لابن يعيش (٢/٦)، وانظر: شرح الرضي على كافية ابن الحاجب (٢/٦).

(٣) انظر: شرح ابن عقيل (٢/٢٧٤)، توضيح المقاصد (٢/٧١٤-٧١٥)، شرح الأشموني (٢/٢٦-٢٧).

(٤) هذا صدر بيت لامرئ القيس من (معلقته)، وعجزه: (على أثرينا ذيل مِرْط مُرَحَّل). ديوان امرئ القيس (ص:٣٨). والشاهد: وقوع الجملتين: (أمشي) و(تجر) في محل نصب على الحال، غير أن صاحب كل=

ثانيًا: الحال المؤكده، وغير المؤكدة:

وتنقسم الحال إلى مؤكده، وغير مؤكدة، فالمؤكدة على قسمين، وغير المؤكدة ما سوى القسمين.

فالقسم الأول من المؤكدة: ما أكدت عاملها -وهي المراد بهذا البيت- وهي: كل وصف دل على معنى عامله وخالفه لفظًا وهو الأكثر، أو وافقه لفظًا، وهو دون الأول في الكثرة.

فمثال الأول: لا تعث في الأرض مفسدًا.

ومنه قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝٦٠﴾ [البقرة:٦٠]، وقوله: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝٢٥﴾ [التوبة:٢٥].

ومن الثاني: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَرْسَلْنَـٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ [النساء:٧٩]، وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [النحل:١٢].

قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وإن تؤكد جملة فمضمر عاملها ولفظها يؤخر [(١)]

القسم الثاني من الحال المؤكدة: ما أكدت مضمون الجملة.

وشرط الجملة: أن تكون اسمية، وجزآها معرفتان جامدان، نحو: (زيد أخوك عطوفًا) [(٢)]، و(أنا زيد معروفًا)، ومنه قوله:

=واحد غير الآخر؛ فجاء الحالان على ترتيب الصاحبين؛ الأول للأول، والثاني للثاني؛ لأمن اللبس؛ لأن (أمشي) مذكر، و(تجر) مؤنث، ومعلوم أن الحال يطابق صاحبه في التذكير والتأنيث.

(١) ألفية ابن مالك (ص:٣٣).

(٢) و"هذه جملة معقودة من اسمين معرفتين جامدتين، وهذه الحال واجبة التأخير عن الجملة المذكورة، وهي معمولة لمحذوف وجوبًا، تقديره: أحقه ونحوه" أوضح المسالك (٢/٢٨٤).

وأنا ابن دارة معروفًا بها نسبي *** [١]

فـ: (عطوفًا) و(معروفًا) حالان، وهما منصوبان بفعل محذوف وجوبًا، والتقدير في الأول: أحقه عطوفًا، وفي الثاني: أحق معروفًا.

ولا يجوز تقديم هذه الحال على هذه الجملة، فلا تقول: (عطوفًا زيد أخوك)، ولا (معروفًا أنا زيد)، ولا توسطها بين المبتدأ والخبر، فلا تقول: (زيد عطوفًا أخوك) [٢].

وبناء على ما تقدم فقد أوجز ابن هشام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعريف الحال في (شذور الذهب)، حيث قال: **(الحال هو وصف، فضلة، مسوق؛ لبيان هيئة صاحبه، أو تأكيده، أو تأكيد عامله، أو مضمون الجملة قبله)**.

قال: "ويأتي من الفاعل [٣]، ومن المفعول [٤]، ومنهما [٥] مطلقًا [٦]،......

(١) صدر بيت قائله: سالم بن دارة اليربوعي. والشاهد فيه قوله: (معروفًا)؛ فإنه حال أكدت مضمون الجملة التي قبلها، والتقدير: أحق معروفًا. انظر: الكتاب، لسيبويه (٢/٧٩)، الخصائص، لابن جني (٢/٢٧٠)، المفصل في صنعة الإعراب (ص:٩٢)، شرح المفصل (٢/٢١)،شرح الكافية الشافية (٢/٧٥٦)، توضيح المقاصد (٢/٧١٦)، مغني اللبيب (ص:٦٠٥).

(٢) شرح ابن عقيل (٢/٢٧٦-٢٧٧).

(٣) أي: يكون صاحب الحال فاعلًا، نحو: (جاء زيد راكبًا)، ونحو: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا﴾ [القصص:٢١].

(٤) أي: يكون صاحب الحال مفعولًا، نحو: ضربتُ اللِّصَّ مكتوفًا، ونحو: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًاۚ﴾ [النساء:٧٩].

(٥) ومن الفاعل والمفعول، نحو: (زيد لقيته راكبين) فـ: (راكبين) مبين لهيئة الفاعل، وهو تاء المتكلم، ولهيئة المفعول، وهو هاء الغائب. كذا في (شرح التصريح) (١/٥٦٩)، وانظر: المفصل (ص:٨٩)، أوضح المسالك (٢/٢٥٠)، شرح شذور الذهب، لشمس الدين الجوجري (٢/٤٥٢).

(٦) قوله: (مطلقًا) أي: تأتي الحال من الفاعل، ومن المفعول، ومنهما بلا شرط. بخلاف مجيئها من المضاف إليه؛ فإنه مشروط بأن يكون المضاف بعضه، أي: بعض المضاف إليه.

..ومن المضاف إليه إن كان المضاف بعضه نحو: ﴿لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا﴾ [الحجرات:١٢] (١)، أو كبعضه نحو: ﴿مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ﴾ [البقرة:١٣٥] (٢)، أو عاملًا فيها، نحو: ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ﴾ [يونس:٤] (٣)...." (٤).

وتفصيل ذلك في مظانه.

ومنع بعض النحاة مجيء الحال من المضاف إليه إذا كان المضاف بعضًا، أو كبعض منه؛ لأنه يصير العامل في الحال غير العامل في صاحبها، وهو ممتنع.

والصواب اعتباره، لأنه إذا كان بعض المضاف إليه أو كبعضه كانا كالشيء الواحد، وصح مجيء الحال منه، ألا ترى أنه لو قيل في الكلام: (ونزعنا ما فيهم من غِلّ)، و(اتبع إبراهيم حنيفًا) لكان سائغًا حسنًا" (٥).

---

(١) ونحو: (أعجبني وجهها مسفرة)، ومن ذلك: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا﴾ [الحجر:٤٧].

(٢) أو يكون كبعضه، أي يكون المضاف كبعض المضاف إليه، بأن يستقيم الكلام بحذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، نحو قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ﴾ [النحل:١٢٣].

(٣) أو عاملًا، أي: أو يكون المضاف عاملًا في الحال، نحو: (أعجبني انطلاقك منفردًا)، ونحو: (هذا شارب السويق ملتوتًا الآن أو غدًا) فـ: (ملتوتًا) حال من (السويق) المضاف إليه شارب، و(شارب): اسم فاعل عامل في الحال النصب؛ لأنه بمعنى: الحال أو الاستقبال، واعتماده على المخبر عنه. كذا في (شرح التصريح) (٥٩٢/١)، و(شرح الجوجري) (٤٥١/٢-٤٥٤)، وانظر: شرح الأشموني (٢٠/٢)، وحاشية الصبان (٢٦٦/٢). و(السويق): ما يتخذ من القمح والشعير، و(الملتوت): من لت السويق؛ سحقه وبله وبسه بالماء.

(٤) انظر ذلك مفصلًا في (شرح شذور الذهب)، لابن هشام (ص:٣١٦)، شرح شذور الذهب، لشمس الدين الجوجري (٤٤٦/٢).

(٥) انظر: شرح تسهيل الفوائد، لابن مالك (٣٤٢/٢)، شرح شذور الذهب، لشمس الدين الجوجري (٤٥٤/٢)، شرح شذور الذهب، لابن هشام (٣٢٢/١)، شرح التصريح على التوضيح (٥٩٢/١).

رابعًا: أقسام الحال بالنسبة للزمان:

والحال بالنسبة للزمان ثلاثة أقسام:

١ - مقارنة: وهي الغالبة نحو: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود:٧٢]. يعني: أن الحال بها مقارنة لزمن الحدث، وهي هى الغالبة من أنواع الحال؛ لأن الحال تقترن زمانًا بعاملها مع صاحبها.

ومن ذلك: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص:٢١]، فقوله: ﴿خَائِفًا﴾ والجملة الفعلية ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ حالان من الفاعل الضمير المستتر في قوله: ﴿فَخَرَجَ﴾، وهي حال مقارنة دون النظر إلى زمن عاملها وزمنها في الماضي؛ لأن النظر فيها يكون إلى الاقتران الزمني بين الحال وعاملها مع صاحبها، وزمن الاثنين في الماضي، وهما مقترنان زمنيًّا.

٢ - مقدرة: وهي المستقبلة، نحو: كمررت برجل معه صقر صائدًا به غدًا، أي: مقدرًا ذلك (١)، ومنه قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزمر:٧٣].

فقوله: ﴿خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ حال، وصاحبها الفاعل في قوله: ﴿فَادْخُلُوهَا﴾، والعامل فعل الأمر (ادخل)، والحال هنا مقدرة، حيث زمنها مستقبل بالنسبة إلى زمن عاملها مع صاحبها؛ لأن الخلود -وهو معنى الحال- يأتى بعد دخول الجنة.

---

(١) "كانت الحال مقارنة لمقارنة التقدير المرور، فجعلها مستقبلة إنما هو بالنظر إلى الصيد نفسه لا إلى تقديره، وهل يلزم أن يكون المقدر للحال هو صاحبها أو لا؟ قولان. انظر: حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك (٢/٢٨٨).

فالحال المقدرة هي الحال التي ينتظر زمنها، أو يستقبل بالنسبة لزمن عاملها مع صاحبها.

قال في (الكليات): "الحال المقدرة: هي أن تكون غير موجودة حين وقع الفعل، وهي المستقبلة" (١).

وقال ابن هشام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والذي يتحرَّر لي أن الحال على ضربين: حال مقارنة ومنتظرة، وتسمى: (حالًا مقدَّرة)، فالأولى ظاهرة.

والثانية نحو: ﴿فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣﴾ [الزمر:٧٣]؛ فإن الخلود ليس شيئًا يقارن الدخول، وإنما هو استمرار في المستقبل، ويقدر النحويون ذلك: ادخلوها مقدرين الخلود.

وكذلك: ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ﴾ [الفتح:٢٧]، أي: مقدرين ذلك؛ فإنهم في حال الدخول لا يكونون محلقين ومقصرين، إنما هم مقدرون الحلق والتقصير، فهذه الحال لا يمتنع اقترانها بحرف الاستقبال؛ لأنها مستقبلة، بخلاف الحال الأولى" (٢).

وذكر في (المغني) أن انقسامها بحسب الزمان إلى ثلاثة، فزاد: (الحال المحكية)، وهي محل نظر -كما سيأتيك- (٣).

ومن ذلك قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ [التوبة:٦٨]، أي: مقدرين الخلود.

---

(١) الكليات (ص:٣٧٥).

(٢) اعتراض الشرط على الشرط، لابن هشام (ص:٤٦-٤٧)، وانظر: أمالي ابن الشجري (١/١١٨)، (٣/١٤).

(٣) انظر: مغني اللبيب، لابن هشام (ص:٦٠٥-٦٠٦)، وبتحقيق الدكتور عبد اللطيف الخطيب (٥/٤٢٧-٤٢٩)، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع (٢/٣١٩)، شرح التصريح على التوضيح (١/٦٠٤).

قال أبو إسحاق الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ [النساء:١٣]: "أي: يدخلهم مقدرين الخلود فيها، والحال يستقبل بها، تقول: (مررت به معه باز صائدًا به غدًا)، أي: مقدرًا الصيد به غدًا" (١).

وقال ابن الشجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٤﴾ [الأحقاف:١٤]: يحتمل عامل النصب في ﴿خَٰلِدِينَ﴾ على الحال وجهين:

أحدهما: أن يكون ناصبه ما في ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ من معنى: أشير، فتكون الحال على هذا حالا مقدَّرة، مثلها في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ۝٧٣﴾ [الزمر:٧٣]، أي: مقدِّرين الخلود.

والوجه الآخر: أن تنصب ﴿خَٰلِدِينَ﴾ بأصحاب، فلا تكون حالًا مقدَّرة، كأنه قيل: أولئك مالكوا الجنَّة خالدين فيها" (٢).

وقال جار الله الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١١٢﴾ [الصافات:١١٢]. ﴿نَبِيّٗا﴾ حال مقدرة، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ۝٧٣﴾ [الزمر:٧٣]. فإن قلت: فرق بين هذا وبين قوله: ﴿فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ۝٧٣﴾، وذلك أن المدخول موجود مع وجود الدخول، والخلود غير موجود معهما، فقدرت: مقدرين الخلود فكان مستقيمًا، وليس كذلك المبشر به؛ فإنه معدوم وقت وجود البشارة، وعدم المبشر به أوجب عدم حاله لا محالة؛ لأن الحال حلية، والحلية لا تقوم إلا بالمحلى، وهذا المبشر به الذي هو إسحاق عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ حين وجد لم توجد النبوة أيضًا بوجوده، بل تراخت عنه مدة متطاولة،

(١) معاني القرآن وإعرابه (٢/٢٧).

(٢) أمالي ابن الشجري (٢/٤٧٥).

فكيف يجعل ﴿نَبِيًّا﴾ حالًا مقدَّرة، والحال صفة الفاعل أو المفعول عند وجود الفعل منه أو به، فالخلود وإن لم يكن صفتهم عند دخول الجنة، فتقديرها صفتهم(١)، لأن المعنى: مقدرين الخلود، وليس كذلك النبوة؛ فإنه لا سبيل إلى أن تكون موجودة أو مقدرة وقت وجود البشارة بإسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لعدم إسحاق. قلت: هذا سؤال دقيق السلك، ضيق المسلك، والذي يحل الإشكال: أنه لا بد من تقدير مضاف محذوف، وذلك قولك: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا﴾، أي: بأن يوجد مقدرة نبوته(٢)، فالعامل في الحال الوجود لا فعل البشارة، وبذلك يرجع، نظير قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

---

(١) قوله: (فتقديرها صفتهم) لعله: فتقديره. الانتصاف (٤/٥٨).

(٢) قال العلامة الطيبي: "هذا البحث موقوف على مقدمة، وهي: أنه تقرر عند أصحاب المعاني أن لا بد من تقرر الوصف والموصوف معًا عند إثباته له. قال صاحب (المفتاح): إن حق كل ما يقصد ثبوته للغير: أن يكون في نفسه ثابتًا وعندك، فما لا يكون ثابتًا كذلك أو متحققًا يمتنع منك جعله وصفًا. وقال: إن محاولة إثبات الثابت في نفسه لشيء آخر يستدعي ثبوت ذلك الشيء الآخر في نفسه لا محالة. وهو المراد من قول المصنف، وعدم المبشر به أوجب عدم حاله؛ لأن الحال حلية، والحلية لا تقوم إلا بالمحلى؛ ولهذه النكتة قالوا في قوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [النساء:١٣]، حال مقدرة؛ لأن الخلود لم يكن صفتهم عند دخول الجنة، وعلى هذا ذو الحال-الذي هو الموصوف في الحقيقة وهو إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ- لم يكن موجودًا عند البشارة، فلابد من التأويل وتقدير الوجود. قال القاضي البيضاوي رَحِمَهُ اللَّهُ: معنى قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [الصافات:١١٢] مقضيًا نبوته مقدرًا كونه من الصالحين، وبهذا الاعتبار وقعا حالين، ولا حاجة إلى وجود المبشر به وقت البشارة؛ فإن وجود ذي الحال غير شرط، بل الشرط مقارنة تعلق الفعل به؛ لاعتبار المعنى بالحال، فلا حاجة إلى تقدير مضاف يجعل عاملًا فيهما مثل: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ﴾ بوجود إسحاق، أي: بأن يوجد إسحاق نبيًّا من الصالحين، ومع ذلك لا يصير نظير قوله: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزمر:٧٣]؛ فإن الداخلين مقدورون خلودهم وقت الدخول، وإسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يكن مقدرًا نبوة نفسه وصلاحها حينما يوجد" حاشية الطيبي على الكشاف (١٣/١٩٢-١٩٣)،=

وقوله: ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ حال ثانية، وورودها على سبيل الثناء والتقريظ؛ لأن كل نبي لا بد أن يكون من الصالحين" [١].

ومن ذلك قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾﴾ [ق:٣٤].

إلى غير ذلك.

٣ - الحال المحكية: وهي الماضية نحو: جاء زيد أمس راكبًا [٢].

قال الشيخ الأُشْمُوني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفيه نظر [٣]. ووجه النظر في هذا القسم -كما ذكر الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد رَحِمَهُ ٱللَّهُ -: أن المدار في مقارنة الحال وعدم مقارنتها إنما هو على مقارنتها لعاملها. ولا شك أن التي سماها ابن هشام رَحِمَهُ ٱللَّهُ ماضية هي عند التحقيق مقارنة لعاملها في زمانه، والظاهر أن ابن هشام رَحِمَهُ ٱللَّهُ فهم أن الغرض مقارنتها لزمان التكلم، ولو كان كما ظنه لتحقق وجود هذا القسم، لكن الأمر ليس كما ظن، بل هو على ما قدمنا، لا جرم لم يكن لهذا القسم وجود، فإن قلت: فالوصف الذي وقع حالًا قد أريد به الزمن الماضي. قلت: لا ضرر في ذلك؛ لأن أقصى ما فيه أن يكون استعمالًا مجازيا؛ ولا حجر فيه اهـ.

=تفسير البيضاوي (٥/١٦)، وانظر: حاشية الشهاب الخفاجي (٧/٢٨١)، حاشيتا القونوي وابن التمجيد على البيضاوي (١٦/٣٠٥).

(١) الكشاف (٤/٥٨-٥٩).

(٢) انظر: مغني اللبيب، لابن هشام (ص:٦٠٥-٦٠٦)، وبتحقيق الدكتور عبد اللطيف الخطيب (٥/٤٢٧-٤٢٩)، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع (٢/٣١٩)، شرح التصريح على التوضيح (١/٦٠٤).

(٣) انظر: شرح الأشموني على ألفية ابن مالك (٢/٤٥).

وقال الشيخ الصبان رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (حاشيته): "قوله: (وفيه نظر) أي: في إثبات هذا القسم والتمثيل له بما ذكر؛ لأن العبرة بمقارنة الحال لزمن العامل، وهي موجودة، لا لزمن التكلم، غاية ما هناك أنه عبر باسم الفاعل الذي هو حقيقة في الحال عن الماضي؛ حكاية للحال الماضية مجازًا" (١).

والحال تنقسم باعتبارات تنظر في مظانها (٢)، وما يعنينا هنا هو انقسامها بحسب الزمان على ما تقدم. وذكر كذلك ما يهدي إلى التعريف.

وهنالك قاعدة مشهورة عند العلماء وهي أن: (**الحال وصف لصاحبها قيد لعاملها**)

فإذا قلتَ: (جاءَ زيدٌ ضاحِكًا)، فالضحك من حيث المعنى وصف لصاحب الحال وهو (زيد)، وهو قيدٌ للذي نصب ضاحكًا وهو (جاءَ)؛ لأنَّ المعنى هو أنه ضاحكٌ في وقت المجيء.

وبهذا يتبين الفرق بين الحال والنعت فإن النعت لا يقيد عامله، تقول: جاءَ زيدٌ الضاحكُ، فالضاحكُ وصف لزيد، وقد يكون ضاحكًا قبل المجيء لا حال المجيء، بخلاف قولك: (جاءَ زيدٌ ضاحكًا)، فهو ينص على أنه وقت المجيء كان ضاحكًا، وقد لا يكون قبل المجيء كذلك.

---

(١) حاشية الصبان على شرح الأشموني (٢/٢٨٨).

(٢) انظر: مغني اللبيب، لابن هشام (ص:٦٠٤)، شرح الأشموني على ألفية ابن مالك (٢/٤٤)، حاشية الصبان على شرح الأشموني (٢/٢٨٧).

المبحث التاسع عشر
دلالة اسم الزمان والظرف في اللغة

أولًا: بيان المراد من اسم الزمان والظرف:

ينبغي التمييز بين ظرف المكان والزمان وبين اسم المكان والزمان، ولا يتبين ذلك إلا من خلال بيان التعريف والخصائص.

فاسم الزمان اسم مشتقٌّ من الفعل؛ للدلالة على زمان وقوع هذا الفعل.

ويُشتق اسم الزمان من الفعل الثلاثيِّ على أوزان متعدِّدة مثل: (مَفعَل) و(مَفعِل)، أما من غير الثلاثيِّ فيُصاغ على أوزان أخرى مقترنة بالفعل المضارع بالجملة. وينظر ذلك في مظانه [(١)].

قال في (التعريفات): "اسم الزمان والمكان: ما اشتق من (يفعل) لزمان أو مكان وقع فيه الفعل" [(٢)].

وقال في بيان معنى: (الظرفية) في اللغة: "الظرفية: هي حلول الشيء في غير حقيقة، نحو: الماء في الكوز، أو مجازًا، نحو: النجاة في الصدق.

و**الظرف اللغوي**: هو ما كان العامل فيه مذكورًا، نحو: زيد حصل في الدار.

و**الظرف المستقر**: هو ما كان فيه العامل مقدرًا، نحو: زيد في الدار" [(٣)].

---

(١) انظر: المفتاح في الصرف (ص:٥٩-٦١)، جامع الدروس العربية (١/٢٠١-٢٠٢).

(٢) التعريفات (ص:٢٦).

(٣) المصدر السابق (ص:١٤٣-١٤٤). وقوله: (زيد في الدار)، تقديره: استقر أو حصل في الدار.

ومن الفروق التي ذكرها النحاة بين ظرف المكان والزمان وبين اسم المكان والزمان:

١ - كل ما يستقر فيه غيره فهو ظرف، وكل ظرف فهو في التقدير جار ومجرور؛ لأن قولنا: (صليت يوم الجمعة) معناه: صليت في يوم الجمعة، وعلى هذا القياس سائر الأزمنة والأمكنة.

٢ - الظرف في عرف النحويين: ليس كل اسم من أسماء الزمان أو المكان على الإطلاق، بل الظرف منها ما كان منتصبًا على تقدير (في)، واعتباره بجواز ظهورها معه فتقول: (قمت اليوم)، و(في اليوم).

٣ - ظرف الزمان يدل على الزمن أو الوقت الذي وقع فيه الفعل أو الحدث، وظرف المكان هو الذي وقع فيه الفعل أو الحدث.

٤ - الظروف في اللغة مبنية ومعربة، وتتخذ المبنية منها حركة إعرابية واحدة، إما الضم وإما الكسر وإما السكون، أما الظروف المعربة فإنها منصوبة إلا في حالات تعرب فيها.

٥ - أسماء الزمان والمكان مشتقة من الفعل الثلاثيِّ وغير الثلاثي.

٦ - ظروف الزمان والمكان أسماء جامدة لا يمكن اشتقاقها من فعل، كما لا يوجد تصريفات لها، فتُبنى على حركة واحدة، مثل: (حين)، و(أمس)، و(حيث).. إلى غير ذلك. وقد تعرب بعلامة النصب إذا كانت مبهمة، أو مختصة.

٧ - أسماء الزمان والمكان تعرب على حسب موقعهما في الجملة.

٨ - أسماء الزمان كلها صالحة للانتصاب على الظرفية، سواء في ذلك مبهمها كـ: (حين)، و(مدة). ومختصها كـ: (يوم الخميس)، ومعدودها كـ: (يومين)، و(أسبوعين). ...إلى غير ذلك من الخصائص.

وقد ذكر أبو البقاء الكفوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ جملة من الفروق في (الكليات)، وفصَّل ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ القول في ذلك في (التسهيل) [(١)].

وهاك إيضاح تلك الفروق من خلال تحرير معنى: الظرف في الاصطلاح: قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الظَّرف: وقت أو مكـان ضـمِّنـا (في) بـاطِّراد كهنا امكـث أزمنـا [(٢)]

الظرف لغة: الوعاء، ومنه: ظروف الزمان والمكان عند النحويين [(٣)].

واصطلاحًا -كما عرفه ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: (وقت أو مكان)، أي: اسم وقت أو اسم مكان، ضُمِّنا معنى: (في) دون لفظها (باطراد) نحو: (امكث هنا أزمنًا)، فـ: (هنا): ظرف مكان، و(أزمنًا): ظرف زمان، وكل منهما تضمن معنى: (في)؛ لأن المعنى: امكث في هذا الموضع، وفي أزمن [(٤)].

واحترز بقوله: (ضمنا) معنى: (في) مما لم يتضمن من أسماء الزمان أو المكان معنى: (في)، كما إذا جعل اسم الزمان أو المكان مبتدأ أو خبرًا نحو: (يوم الجمعة يوم مبارك)، و(يوم عرفة يوم مبارك) و(الدار لزيد)؛ فإنه لا يسمى: ظرفًا والحالة هذه، وكذلك ما وقع منهما مجرورًا، نحو: (سرت في يوم الجمعة)، و(جلست في الدار) على أن في هذا ونحوه

---

(١) انظر: الكليات (ص:٥٨٩)، شرح تسهيل الفوائد، لابن مالك (٢/٢٠٠).

(٢) ألفية ابن مالك (ص:٣٠).

(٣) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (ظرف) (٤/١٣٩٨).

(٤) قال ابن جني: "الظرف: كل اسم من أسماء الزمان أو المكان يراد فيه معنى: (في) وليست في لفظه، كقولك: (قمت اليوم)، و(جلست مكانك)؛ لأن معناه: قمت في اليوم، وجلست في مكانك، فإن ظهرت (في) إلى اللفظ كان ما بعدها اسما صريحًا وصار التضمن لـ: (في) تقول: سرت في يوم الجمعة، وجلست في الكوفة" اللمع في العربية (ص:٥٥).

خلافًا في تسميته ظرفًا في الاصطلاح [١]، وكذلك ما نصب منهما مفعولًا به، نحو: (بنيت الدار) و(شهدت يوم الجمل)، كذا في (شرح ابن عقيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ) [٢].

واحترز بقوله: (باطراد) من نحو: (دخلت البيت)، و(سكنت الدار)؛ مما انتصب بالواقع فيه، وهو اسم مكان مختص؛ فإنه غير ظرف؛ إذ لا يطرد نصبه مع سائر الأفعال، فلا يقال: (نمت البيت)، ولا (قرأت الدار)؛ فانتصابه على المفعول به بعد التوسع بإسقاط الخافض؛ هذا مذهب الفارسي والناظم رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ، ونسبه لسيبويه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقيل: منصوب على المفعول به حقيقة، وإن نحو: (دخل) متعد بنفسه، وهو مذهب الأخفش رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقيل: على الظرفية تشبيهًا له بالمبهم، ونسبه الشلوبين إلى الجمهور؛ وعلى هذين لا يحتاج إلى قيد: (باطراد)؛ وعلى الأول يحتاج إليه خلافًا للشارح -كذا في (شرح الشيخ الأشموني رَحِمَهُ ٱللَّهُ)، وتفصيل ذلك في مظانه [٣].

وقد تقدم ذكر ألفاظ الزمن الواردة في القرآن الكريم.

اسم الزمان يكون مبهمًا، ومختصًا، ومعدودًا، ومشتقًا:

أسماء الزمان كلها صالحة للانتصاب على الظرفية، سواء في ذلك مبهمها كـ: (حين)، و(مدة). ومختصها كـ: (يوم الخميس)، ومعدودها كـ: (يومين)، و(أسبوعين) [٤].

---

(١) لا يسمى: ظرفًا في الاصطلاح، على الأرجح.

(٢) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (٢/١٩١-١٩٣).

(٣) انظر ذلك مفصلًا في (شرح الأشموني على ألفية ابن مالك) (١/٤٨٥)، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك (٢/٢٠٦-٢٠٨)، شرح التصريح على التوضيح (١/٥١٨-٥٢٢)، حاشية الصبان (٢/١٨٤-١٨٥)، توضيح المقاصد (٢/٦٥٧-٦٦٠).

(٤) أوضح المسالك، لابن هشام (٢/٢٠٩).

والمراد بالمختص: ما يقع جوابًا لـ: (متى) كـ: (يوم الخميس) كما مثل.

وبالمعدود: ما يقع جوابًا لـ: (كم) كـ: (يومين) و(أسبوعين)، كما مثل.

والمبهم (١): ما لا يقع جوابًا لشيء منهما كـ: (حين) و(مدة) كما مثل.

تقول: (صمت مدة)، أو (يوم الخميس) أو (يومين).

وبقي عليه ظرف الزمان المشتق نحو: (قعدت مقعد زيد)، تريد: الزمان، كما تفعل ذلك إذا أردت المكان؛ إذ لا فرق بينهما في صحة تقدير: (في)، ونصبه على الظرفية (٢).

ثانيًا: الظرف المتصرف وغير المتصرف:

الظرف نوعان: متصرف وغير متصرف، قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وما يرى ظرفًا وغير ظرف ... فذاك ذو تصرف في العرف
وغير ذي التَّصرف: الذي لزم ... ظرفيَّة أو شبهها من الكلم (٣)

ينقسم اسم الزمان واسم المكان إلى: متصرف، وغير متصرف، فالمتصرف من ظرف الزمان أو المكان: ما استعمل ظرفًا وغير ظرف كـ: (يوم) و(مكان).

فإن كل واحد منهما يستعمل ظرفًا نحو: (سرت يومًا)، و(جلست مكانًا)، ويستعمل مبتدأ نحو: (يوم الجمعة يوم مبارك)، و(مكانك حسن)، وفاعلًا نحو: (جاء يوم الجمعة)، و(ارتفع مكانك).

---

(١) ظرف الزمان المبهم: هو ما دل على قدر غير معين من الزمان، والمختص: هو ماله نهاية تحصره، أو مقدار معين من الزمان. انظر: شرح الكافية (١/١٨٤).

(٢) شرح التصريح على التوضيح (١/٥٢٣).

(٣) ألفية ابن مالك (ص:٣٠).

فمن المتصرف من الزمان نحو: يوم وليلة، ومن المكان نحو: يمين وشمال.

وغيرُ المتصرف نوعان:

الأول: ما يُلازمُ النصبَ على الظرفيَّةِ أبدًا: فلا يُستعمَلُ إلا ظرفًا منصوبًا، نحو: (قَط، وعوْضُ [1]، وبَينا، وبينما، وإذا، وأَيَّانَ، وأنَّى، وذا صَباحٍ، وذاتَ ليلة).

ومن ذلك: سحر، إذا أردت به سحر يوم معين، تقول: (خرجت يوم الجمعة سحر)، فإن لم ترده من يوم بعينه، فهو متصرف، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ٣٤﴾ [القمر:٣٤].

ومثله: صباحًا، ومساء، وعشية، وعشاء، وليلًا، ونهارًا، إذا أردت صباح يومك، ومساءه وعشيته، وعشاءه، وليله، ونهاره، أو يومًا آخر بعينه تقول: (جئت يوم السبت عشاء)، فلا يكون إلا ظرفًا، و(جئت يوم الخميس صباحًا) أو مساء، أو ليلًا، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ١٦﴾ [يوسف:١٦]، أي: في عشاء ذلك اليوم الذي خرجوا فيه، فهذا لا يكون إلا ظرفًا.

---

(١) ما لا يفارق الظرفية أصلًا كـ: (قط) في استغراق الماضي، و(عوض) في استغراق المستقبل، ولا يستعملان إلا بعد نفي. تقول: (ما فعلته قَطُّ)، و(لا أَفْعَلُهُ عَوْضَ)، والمعنى ما فعلته في الزمن الماضي، ولا أفعله في الزمن المستقبل، وعوض معناه: أبدًا، أي: لا أفعله أبدًا، فهو ظرف لاستغراق المستقبل، مثل: أبدًا إلا أنه مختص بالنفي، وهو معرب إن أضيف كقولهم: (لا أَفْعَلُهُ عَوْضَ العائضينَ)، ومبني إن لم يضف، وبناؤه على الضم كقبل، أو على الكسر كأمس، أو على الفتح كأين. و(قط) مشتقة من (قططت الشيء): إذا قطعته، فمعنى: (ما فعلته قط): ما فعلته فيما انقضى من عمري؛ لأن الماضي ينقطع عن الحال والاستقبال، وهي مبنية، وعلة بنائها: تضمنها معنى حرفي ابتداء الغاية وانتهائها؛ إذ المعنى: ما فعلته مذ خلقني الله عَزَّوَجَلَّ إلى الآن، وبنيت على حركة فرارًا من التقاء الساكنين، وكانت ضمة في بعض لغاتها حملًا على (قبل)، و(بعد). و(عوض) مشتقة من العوض، وسمي الزمان: (عوض)؛ لأن الدهر كلما مضى منه جزء خلفه آخر، فكان عوضًا منه، ويبنى على الحركات الثالث إذا لم يكن مضافًا، كذا في (شرح التصريح) (٥٢٦/١).

ومنه: ما رُكِّبَ من الظروف، كصباحَ مساءَ، وليلَ ليلَ.

والثاني: ما يَلزَمُ النصبَ على الظرفيَّة، وما يخرج عنها إلى شبهها: والمراد بشبه الظرفية: أنه لا يخرج عن الظرفية إلا باستعماله مجرورًا، نحو: (قَبل، وبَعد، وفوق، وتحت، ولدَى، وَلدُنْ، وعندَ، ومتى، وأينَ، وهُنا، وثَمَّ، وحيث، والآن) [1].

ثالثًا: اختصاص ظرف الزمان بالأحداث:

ظروف الزمان لا تقع أخبارًا عن الأشخاص، وتختص بالأحداث؛ لأن الفائدة لا تتم إلا بها، فلو قلت: (زيد يوم الجمعة) لم تكن مخبرًا بشيء، لأن الغرض في الخبر إفادة المخاطب. قال المبرد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فلا معنى لهذا؛ لأن يوم الجمعة لا يخلو زيد، ولا غيره منه، ولا حي ولا ميت، فلما لم تكن فيه فائدة قال النحويون: لا تكون ظروف الزَّمان للجثث" [2].

وقال أبو الفتح بن جني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ولو قلت: (زيد يوم الجمعة) أو نحو ذلك لم يجز؛ لأن ظروف الزمان لا تكون أخبارًا عن الجثث؛ لأنه لا فائدة في ذلك، فأما قولهم: (الليلة الهلال) فعلى معنى، فإنما تقديره: (الليلة حدوث الهلال) أو (طلوع الهلال) فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف:٨٢]، أي: أهل القرية" [3].

والحاصل أن الظرف نوعان:

---

(١) انظر: شرح ابن عقيل (١٩٨/٢)، شرح الأشموني (٤٨٩/١)، حاشية الصبان (١٩٢/٢)، شرح التصريح على التوضيح (٥٢٦/١)، جامع الدروس العربية (٥٠/٣)، معاني النحو (١٩٢/٢).

(٢) المقتضب (١٧٢/٤)، علل النحو (ص:٢٦٧).

(٣) اللمع في العربية (ص:٢٩).

ظرف زمان: وهو يختص بالأحداث، كقولك: (الصيام يوم الخميس).

وظرف مكان: وهو يختص بالأجسام، كقولك: (الإمام أمام القوم).

وقد يقع (**ظرف المكان خبرًا عن حدث**)، كقولك: (الصلاة وراء الإمام).

واسم الزمان يخبر به عن المعنى، نحو: (الرحيل غدًا)، ولا يخبر به عن الجثة، فلا يقال: (زيد اليوم)؛ لعدم الإفادة:

قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولا يكون اسم زمان خبرًا   عن جُثَّةٍ وإن يفد فأخبرا

قوله: (ولا يكون اسم زمان خبرًا***عن جثة)، يعني: عن شخص.

قال ابن عقيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ظرف المكان يقع خبرًا عن الجثة، نحو: (زيد عندك)، وعن المعنى نحو: (القتال عندك).

وأما ظرف الزمان فيقع خبرًا عن المعنى منصوبًا، أو مجرورًا بـ: (في) نحو: (القتال يوم الجمعة)، أو (في يوم الجمعة).

ولا يقع خبرًا عن الجثة إلا إذا أفاد نحو: (الليلة الهلال)، و(الرطب شهري ربيع).

فإن لم يفد لم يقع خبرًا عن الجثة، نحو: (زيد اليوم)، وإلى هذا ذهب قوم منهم: المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وذهب غير هؤلاء إلى المنع مطلقًا، فإن جاء شيء من ذلك يؤول، نحو قولهم: (الليلة الهلال) و(الرطب شهري ربيع) التقدير: طلوع الهلال الليلة، ووجود الرطب شهري ربيع، هذا مذهب جمهور البصريين. وذهب قوم منهم المصنف إلى جواز ذلك من غير شذوذ لكن بشرط أن يفيد، كقولك: (نحن في يوم طيب، وفي شهر كذا).

وإلى هذا أشار بقوله: (وإن يفد فأخبرا)، فإن لم يفد امتنع، نحو: (زيد يوم الجمعة)" (١).

رابعًا: الاتساع في الظرف:

الاتساع في الظرف هو أن لا يقدر معه (في) توسعًا؛ فينصب نصب المفعول به نحو: (دخل بيتًا)، و(قام ليلًا)، و(صاد يومين)، و(صام شهرًا) و(سرق الليلة)، والمعنى على ظاهر التركيب من غير تقدير (في) وإن كان أصل المعنى على الظرفية. ومن ثمة يفهم منه غالبًا قيام الليلة بتمامها، وكذا في البواقي؛ ولو كان بتقدير (في) لم يفهم التمام.

وإذا توسع في فعل له مفعول واحد يقال للظرف المتوسع فيه: مفعول ثان، ولا يتوسع فيما له ثلاثة مفاعيل؛ لأنه يكون حينئذ مفعولًا رابعًا، ولم يجئ في كلام العرب ماله أربعة مفاعيل (٢).

وتفصيل ذلك في مظانه.

خامسًا: ما ينوب عن الظرف:

قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد ينوب عن مكان مصدر   وذاك في ظرف الزَّمان يكثر (٣)

ينوب المصدر عن ظرف المكان قليلًا، كقولك: (جلست قرب زيد) أي: مكان قرب زيد، فحذف المضاف، وهو (مكان)، وأقيم المضاف إليه مقامه، فأعرب بإعرابه،

---

(١) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (١/٢١٤-٢١٥).

(٢) انظر ذلك بتمامه في (الكليات) (ص:٣٦)، وانظر: موسوعة اصطلاحات الفنون (١/٩٢).

(٣) ألفية ابن مالك (ص:٣٠).

وهو النصب على الظرفية، ولا ينقاس ذلك؛ [لقلته]، فلا تقول: (آتيك جلوس زيد) تريد: مكان جلوسه.

ويكثر إقامة المصدر مقام ظرف الزمان، نحو: (آتيك طلوع الشمس)، و(قدوم الحاج)، و(خروج زيد)، والأصل: وقت طلوع الشمس، ووقت قدوم الحاج، ووقت خروج زيد، فحذف المضاف، وأعرب المضاف إليه بإعرابه، وهو مقيس في كل مصدر (١).

تقول: (كان ذلك خفوق النجم، وطلوع الثريا) أي: وقت خفوق النجم، ووقت طلوع الثريا، وكثرته تقتضي القياس عليه (٢).

وفي (شرح الشيخ الأشموني رَحِمَهُ ٱللَّهُ): "قوله: (ذاك في ظرف الزمان يكثر) فيقاس عليه؛ وشرطه: إفهام تعيين وقت أو مقدار، نحو: (كان ذلك خفوق النجم، وطلوع الشمس)، و(انتظرته نحر جزور، وحلب ناقة)؛ والأصل: وقت خفوق النجم، ووقت طلوع الشمس، ومقدار نحر جزور، ومقدار حلب ناقة، فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه.

وقد يحذف أيضًا المصدر الذي كان الزمان مضافًا إليه؛ فينوب ما كان هذا المصدر مضافًا إليه، من اسم عين، نحو: (لا أكلمه القارظين)، و(لا آتيه الفرقدين)، والأصل مدة: غيبة القارظين، ومدة بقاء الفرقدين.

---

(١) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (٢/٢٠٠).

(٢) توضيح المقاصد والمسالك (١/٢١٦).

ومما ينوب عن الظرف أيضًا: صفته [١]، وعدده [٢]، وكليته أو جزئيته، نحو: (جلست طويلًا من الدهر شرقي مكان)، و(سرت عشرين يومًا ثلاثين بريدًا)، و(مشيت جميع اليوم جميع البريد)، أو (كل اليوم كل البريد)، و(نصف اليوم نصف البريد)، أو (بعض اليوم بعض البريد)" [٣].

سادسًا: اسم الزَّمان يقبل النصب على الظرفية:

واسم الزمان يقبل النصب على الظرفية، مبهمًا كان أو غير مبهم.

والمراد بالمبهم: ما دل على زمن غير مقدر، كحين، ومدة، ووقت؛ تقول: (سرت حينًا، ومدةً، ووقتًا).

وبالمختص: ما دل على مقدر: معلومًا كان، وهو المعرف بالعلمية؛ كـ: (صمت رمضان)، و(اعتكفت يوم الجمعة)، أو بـ: (أل)، كـ: (سرت اليوم)، و(أقمت العام)، أو بالإضافة، كـ: (جئت زمان الشتاء)، و(يوم قدوم زيد).

أو غير معلوم؛ وهو النكرة، نحو: (سرت يومًا، أو يومين، أو أسبوعًا، أو وقتًا طويلًا)..." [٤].



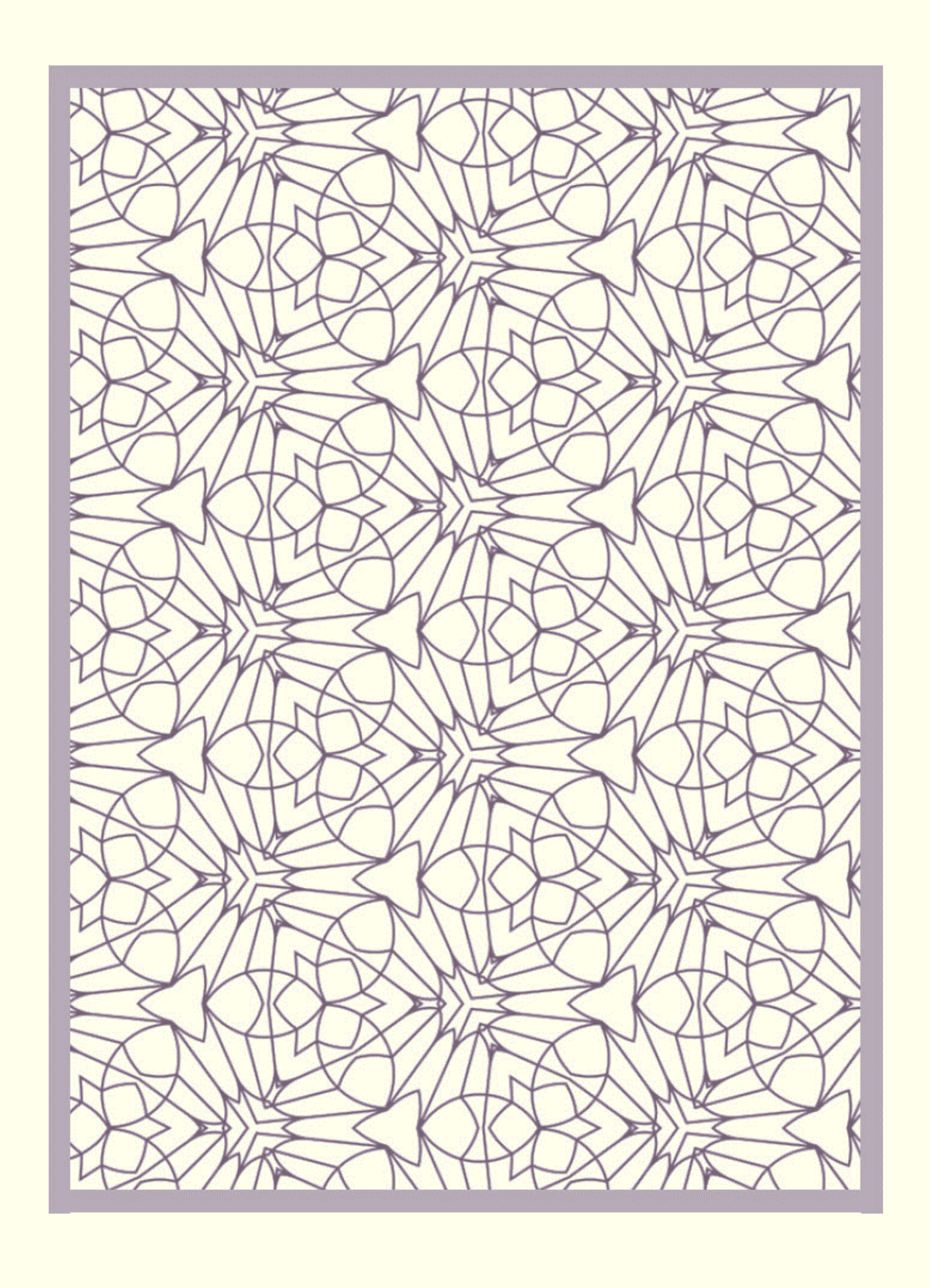
---

(١) وذلك نحو قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾ [البقرة:١٢٦]، أي: زمنًا قليلًا، ويحتمل أن يكون المعنى: تمتيعًا قليلًا، فيكون نائبًا عن المصدر.

(٢) وذلك نحو قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٍ﴾ [البقرة:٢٥٩].

(٣) شرح الأشموني على ألفية ابن مالك (١/٤٩٠)، وانظر: شرح ابن عقيل (٢/٢٠٠)، معاني النحو (٢/١٩١).

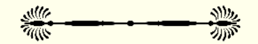
(٤) شرح الأشموني (١/٤٨٧-٤٨٨)، وانظر: شرح المفصل، لابن يعيش (١/٤٢٦).



المبحث العشرون

الدلالة على الزمن باعتبار الإضافة والقطع عنها

حيث وإذ وإذا:



قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "حيث: كلمة تدل على المكان؛ لأنه ظرف في الأمكنة، بمنزلة: حين في الأزمنة. وهو اسم مبني، وإنما حرك آخره؛ لالتقاء الساكنين. فمن العرب من يبنيها على الضم؛ تشبيهًا بالغايات؛ لأنها لم تجيء إلا مضافة إلى جملة، كقولك: (أقوم حيث يقوم زيد)، ولا تقل: حيث زيد. وتقول: (حيث تكون أكون). ومنهم من يبنيها على الفتح، مثل: كيف؛ استثقالًا للضم مع الياء. وهي من الظروف التي لا يجازى بها إلا مع ما، تقول: حيثما تجلس أجلس، في معنى: (أينما)..." وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ [طه:٦٩] في حرف ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (أين أتى). والعرب تقول: (جئت من أين لا تعلم)، أي: من حيث لا تعلم" [١].

وقد استعملوا (حيث) للزَّمان، وهو قليل -كما سيأتي-.

وأما (إذ) فهي كلمة تدل على ما مضى من الزمان.

---

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (حيث) (١/٢٨٠).

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهو اسم مبني على السكون، وحقه أن يكون مضافًا إلى جملة، تقول: جئتك إذ قام زيد، وإذ زيد قائم، وإذ زيد يقوم، فإذا لم تضف نونت. قال أبو ذؤيب:

نَهَيْتُكَ عن طلابِكَ أُمَّ عَمْرو بِعاقِبةٍ، وأَنْتَ إذٍ [1] صحيحُ [2]

أراد حينئذ كما تقول: يومئذ وليلتئذ. وهو من حروف الجزاء إلا أنه لا يجازى به إلا مع (ما)، تقول: (إذ ما تأتني آتك)، وقد تكون للشيء توافقه في حال أنت فيها. ولا يليه إلا الفعل الواجب، تقول: (بينما أنا كذا إذ جاء زيد).

وقد تكون (إذ) للمفاجأة، مثل: (إذا). وقد يزادان جميعًا في الكلام، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ﴾ [البقرة:٥١]، أي: وواعدنا" [3].

قال سيبويه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأما (إذا) فلما يستقبل من الدهر، وفيها مجازاة، وهي ظرف، وتكون للشيء توافقه في حال أنت فيها، وذلك قولك: (مررت فإذا زيد قائم). وتكون (إذ) مثلها أيضًا، وذلك قولك: (بينما أنا كذلك إذ جاء زيد)..الخ" [4].

---

(١) قال ابن جني: "لما حذف ما يضاف إليه (إذ) عوض منه التنوين بعدها" انظر: سر صناعة الإعراب (٢/١٦٣)، الخصائص (٢/٣٧٨). المخصص (٤/٢٣٢)؛ "لأن (إذ) لازم الإضافة، ولا وجه لتنوينه إلا أن يكون عوضًا؛ لبعد معنى التنكير والتمكن منه" شرح الرضي على كافية ابن الحاجب (٣/١٧٨).

(٢) هذا من مقطوعة، لأبي ذؤيب الهذلي. وأصله: وأنت إذ نهيتك، فحذف الجملة، وعوض منها التنوين. ومثله: (حينئذ)، و(ساعتئذ) و(يؤمئذ)، والمراد: حين إذ كان كذا وكذا، وساعة إذ كان كذا وكذا، ويوم إذ كان كذا كذا. انظر: ديوان الهذليين (١/٦٨)، مغني اللبيب (ص:١١٩)، شرح شواهد المغني (١/٢٦٠)، التعليقة على كتاب سيبويه (١/٢٢-٢٣)، شرح تسهيل الفوائد (٢/٢٠٧)، شرح المفصل (٢/٢٠١).

(٣) الصحاح، للجوهري، مادة: (إذا) (٦/٢٥٤٣).

(٤) الكتاب، لسيبويه (٤/٢٣٢)، وانظر: الأصول في النحو (٣/١٧٧-١٧٨).

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "(إذا) اسم يدل على زمان مستقبل، ولم تستعمل إلا مضافة إلى جملة، تقول: (أجئتك إذا احْمَرَّ الْبُسْرُ)، و(إذا قدم فلان). والدليل على أنها اسم: وقوعها موقع قولك: (آتيك يوم يقدم فلان)، وهي ظرف، وفيها مجازاة؛ لأن جزاء الشرط ثلاثة أشياء:

أحدها: الفعل: كقولك: (إن تأتني آتك).

والثاني: الفاء: كقولك: (إن تأتني فأنا محسن إليك).

والثالث: إذا، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الروم:٣٦]. وتكون للشيء توافقه في حال أنت فيها، نحو قولك: خرجت فإذا زيد قائم، والمعنى: خرجت ففاجأني زيد في الوقت بقيام" [١].

قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان لزوم (حيث) و(إذ) للإضافة إلى الجمل:

وألزموا إضافة إلى الجمل ... (حيث) و(إذ)، وإن ينون يحتمل

إفراد (إذ) وما كـ: (إذ) معنى كإذ ... أضف جوازًا نحو: حين جا نبذ[٢]

حيث ظرف مكان [٣].

وقد استعملوها للزَّمان، وهو قليل[٤]، كقوله:

---

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (إذا) (٢٥٤٢/٦-٢٥٤٣).

(٢) ألفية ابن مالك (ص:٣٧).

(٣) بني (حيث)؛ للافتقار اللازم إلى جملة. قال الجوهري: "حيث: كلمة تدل على المكان؛ لأنه ظرف في الأمكنة بمنزلة: (حين) في الأزمنة. وهو اسم مبني، وإنما حرك آخره؛ لالتقاء الساكنين. فمن العرب من يبنيها على الضم؛ تشبيهًا بالغايات؛ لأنها لم تجيء إلا مضافة إلى جملة" الصحاح، مادة: (حيث) (٢٨٠/١). وانظر: الأصول في النحو، لابن السراج (١٤٣/٢-١٤٤).

(٤) انظر: أمالي ابن الشجري (٥٩٩/٢)، شرح الرضي على كافية ابن الحاجب (١٨٣/٣)، شرح المفصل، لابن يعيش (١١٥/٣)، شرح تسهيل الفوائد (٢٣٣/٢)، همع الهوامع (٢١١/٢)، شرح الأبيات المشكلة=

لـلـفَـتـى عـقْـلٌ يَـعِـيـشُ بــه   حـيـثُ تَـهْـدي سـاقَـهُ قَـدَمُـهْ [(١)]

ويصح هنا أن تكون للمكان أيضًا.

"وشبه (حيث) بالغايات من حيث ملازمتها الإضافة. ويقال: (حيث) و(حوث) بالفتح والضم فيهما، وقد حكى الكسائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (حيث) بالكسر" [(٢)].

من الملازم للإضافة: ما لا يضاف إلا إلى الجملة، وهو (حيث)، و(إذ)، و(إذا).

فأما (حيث) فتضاف إلى الجملة الاسمية، نحو: اجلس حيث زيد جالس.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ [الأنفال:٢٦].

وإلى الجملة الفعلية نحو: اجلس حيث جلس زيد، أو حيث يجلس زيد.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف:٨٦].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنفال:٣٠].

وشذ إضافتها إلى مفرد، كقوله:

أمـا تـرى حيث سُـهَـيْلٍ طـالـعًا [(٣)]   نـجما يضـيء كالشـهـاب لامعًا [(٤)]

=الإعراب، لأبي علي الفارسي (ص:١٨٢)، اللباب في علل البناء والإعراب (٢/٧٧)، شرح ديوان الحماسة (ص:٦٢٦).

(١) ديوان طرفة بن العبد (ص:٧٣).

(٢) انظر: المفصل (ص:٢١١)، شرح المفصل، لابن يعيش (٣/١١٣)، الكتاب، لسيبويه (٣/٢٩٢).

(٣) "بفتح الثاء من (حيث)، وخفض (سهيل)، و(حيث) بالضم، و(سهيل) بالرفع، أي: موجود فحذف الخبر" مغني اللبيب (ص:١٧٨). قال الرضي: "وحذف خبر المبتدأ الذي بعد (حيث) غير قليل، ومع الإضافة إلى المفرد يعربه بعضهم؛ لزوال علة البناء، أي: الإضافة إلى الجملة، والأشهر بقاؤه على البناء؛ لشذوذ الإضافة إلى المفرد، وترك إضافة (حيث) مطلقًا، لا إلى جملة ولا إلى مفرد: أندر، وظرفيتها غالبة، لا لازمة" شرح الرضي على كافية ابن الحاجب (٣/١٨٣)، وانظر: اللباب في علل البناء والإعراب (٢/٧٨).

(٤) انظر: تهذيب اللغة (٥/١٣٦)، المفصل في صنعة الإعراب (ص:٢١١)، شرح الكافية الشافية (٢/٩٣٧).

وأما (إذ) فتضاف أيضًا إلى الجملة الاسمية، نحو: جئتك إذ زيد قائم.

وإلى الجملة الفعلية، نحو: (جئتك إذ قام زيد).

ويجوز حذف الجملة المضاف إليها، ويؤتى التنوين عوضًا عنها، كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [الواقعة: ٨٤].

وهذا معنى قوله: (وإن ينون يحتمل *** إفراد إذ..) أي: وإن ينون (إذ) يحتمل إفرادها، أي: عدم إضافتها لفظًا؛ لوقوع التنوين عوضًا عن الجملة المضاف إليها.

وأما (إذا) فلا تضاف إلا إلى جملة فعلية، نحو: (آتيك إذا قام زيد)، ولا يجوز إضافتها إلى جملة اسمية، فلا تقول: (آتيك إذا زيد قائم)، خلافًا لقوم.

وأشار بقوله: (وما كـ: إذ معنى كإذ) إلى أن ما كان مثل (إذ) في كونه ظرفًا ماضيًا غير محدود يجوز إضافته إلى ما تضاف إليه (إذ) من الجملة، وهي الجمل الاسمية والفعلية، وذلك نحو: (حين، ووقت، وزمان، ويوم) فتقول: (جئتك حين جاء زيد، ووقت جاء عمرو، وزمان قدم بكر، ويوم خرج خالد)، وكذلك تقول: (جئتك حين زيد قائم)، كذلك الباقي.

وإنما قال المصنف: (أضف جوازًا)؛ ليعلم أن هذا النوع، أي: ما كان مثل: (إذ) في المعنى يضاف إلى ما يضاف إليه (إذ) وهو الجملة، جوازًا لا وجوبًا.

فإن كان الظرف غير ماض، أو محدودًا لم يجر مجرى (إذ)، بل يعامل غير الماضي، وهو المستقبل معاملة (إذا) فلا يضاف إلى الجملة الاسمية، بل إلى الفعلية، فتقول: (أجيئك حين يجيء زيد)، ولا يضاف المحدود إلى جملة، وذلك نحو: (شهر، وحول)، بل لا يضاف إلا إلى مفرد، نحو: (شهر كذا، وحول كذا)" (١).

(١) شرح ابن عقيل (٣/٥٥-٥٨).

قال ابن النحاس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (التعليقة): "حيث ظرف مكان، وليس في ظروف المكان ما يضاف إلى الجملة غيرها، لما أبهمت لوقوعها على كل جهة احتاجت في زوال إبهامها إلى إضافتها لجملة، كـ: (إذ)، و(إذا) في الزمان" (١).

أما (حيثما) فأصلها: (حيث)، ثم زيدت (ما) الحرفية الكافة لها عن الظرفية، والمهيئة لها للشرطية، فصارتا كلمة واحدة مبنية على السكون، وهي اسم شرط جازم لفعلين مضارعين: أولهما: فعل الشرط، والثاني: جواب الشرط وجزاؤه. تقول: (حيثما ينزِلْ مطرٌ يَنْمُ الزرع).

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة:١٤٤]، فحيثما: اسم شرط جازم مبني على السكون في محل نصب على الظرفية المكانية، متعلق بمحذوف خبر كنتم المقدم. ﴿كُنتُمْ﴾ كان واسمها، وهي في محل جزم فعل الشرط. ﴿فَوَلُّواْ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، و(ولوا) فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، والجملة في محل جزم جواب الشرط. ﴿وُجُوهَكُمْ﴾ مفعول به. ﴿شَطْرَهُۥ﴾ مفعول فيه ظرف مكان، متعلق بالفعل قبله، والجملة في محل جزم جواب الشرط.

جاء في (المقتضب): وحيث اسم من أسماء المكان مبهم يفسره ما يضاف إليه..، لما وصلتها بـ: (ما) امتنعت من الإضافة، فصارت كـ (إذ) إذا وصلتها بـ: (ما). وتلزمها (ما) إذا استعملت للشرط(٢).

وقال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لا يجزم بـ: (إذا) و(حيث) إلا مقرونتين بـ: (ما)؛ لأنهما إذا تجردتا لزمتهما الإضافة إلى ما يليهما، والإضافة من خصائص الأسماء، فكانت منافية

(١) التعليقة على مقرب ابن عصفور، لابن النحاس (ص:٣١٩)، الأشباه والنظائر في النحو، للسيوطي (٢/٢١٤).

(٢) انظر: المقتضب، للمبرد (٢/٥٤).

للجزم، فلما قصد جعل هاتين الكلمتين جازمتين ركبتا مع (ما)؛ لتكفهما عن الإضافة، وتهيئهما لما لم يكن لهما من معنى وعمل، فصارت (ما) ملازمة لهما ما دامت المجازاة مقصودة بهما" (١).

وفي (الأشباه والنظائر): "باب الشرط مبناه على الإبهام، وباب الإضافة مبناه على التوضيح؛ ولهذا لما أريد دخول: (إذ) و(حيث) في باب الشرط لزمتهما: (ما)؛ لأنهما لا زمان للإضافة، والإضافة توضحهما، فلا يصلحان للشرط حينئذ، فاشترطنا (ما)؛ لتكفهما عن الإضافة فيبهمان، فيصلح دخولهما في الشرط حينئذ" (٢).

و(إذا) أداة شرط غير جازمة لما يستقبل من الزمان، وهي تفيد الربط بين جملة الشرط وجوابه، ولا يليها إلا الفعل ظاهرًا، أو مقدرًا.

فمثال مجيء الفعل بعدها ظاهرًا قولهم: (إذا حضر الماء بطل التيمم).

ومنه قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ﴾ [الأعراف:٣٨] فـ: ﴿إِذَا﴾ ظرفية شرطية غير جازمة. و﴿ٱدَّارَكُواْ﴾ فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله. و﴿فِيهَا﴾ جار ومجرور متعلقان بـ: ﴿ٱدَّارَكُواْ﴾، و﴿جَمِيعًا﴾ حال، والجملة في محل جر بالإضافة.

ونحو قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ٧﴾ [الملك:٧]، فـ: ﴿إِذَا﴾ ظرفية شرطية غير جازمة، و﴿أُلۡقُواْ﴾ فعل ماض مبني للمجهول، والواو نائب فاعل، والجملة في محل جر بالإضافة.

ونحو قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ﴾ [المنافقون:١].

---

(١) شرح الكافية الشافية (٣/١٦٢٠-١٦٢١).

(٢) الأشباه والنظائر في النحو، للسيوطي (١/٢١٥).

ومثال مجيئه مقدَّرًا قول الشاعر:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته   وإن أنت أكرمت اللئيم تمرَّدا [(١)]

فيعرب الاسم أو الضمير بعد (إذا) فاعلًا لفعل محذوف يفسره الفعل الظاهر، وقد استحسن النحاة هذا الوجه. فـ: (إذا): ظرف لما يستقبل من الزمن متضمن معنى: (الشرط)، في محل نصب على الظرفية الزمانية، وهو منصوب بجوابه. و(أنت): ضمير رفع منفصل مبني على الفتح في محل رفع فاعل لفعل محذوف، يفسره المذكور الذي بعده.

والجملة الفعلية من الفعل المحذوف والفاعل المذكور في محل جر بالإضافة بعد (إذا).

ومن ذلك قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾ [الانشقاق:١] -كما سيأتيك-.

وقد أجاز سيبويه رَحِمَهُ ٱللَّهُ إعراب الاسم، أو الضمير الواقع بعد (إذا) مبتدأ إذا كان الخبر فعلًا، وأجاز الأخفش وابن مالك وقوع المبتدأ بعدها بلا شرط-كما سيأتيك-.

قال أبو حيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (شرح التسهيل): "إذا استعملت (إذا) شرطًا فهل تكون مضافة للجملة بعدها أم لا؟ قولان:

قيل: تكون مضافة، وضُمِّنت الربط بين ما تضاف إليه وغيره.

وقيل: ليست مضافة، بل معمولة للفعل بعدها؛ لأنها لو كانت مضافة لكان الفعل من تمامها، فلا يحصل به ربط.

قال: وينبني على ذلك: الخلاف في العامل فيها، فمن قال: إنها مضافة أعمل الجزاء، ولا بدَّ، ومن منع ذلك أعمل فيها فعل الشرط كسائر الأدوات" [(٢)].

---

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي (ص:٣٦١)، وانظر: شرح ديوان المتنبي، لأبي البقاء العكبري (١/١٦٦)، شرح شعر المتنبي، السفر الأول، لأبي القاسم بن الإفلِيلي (٢/٢٠١).

(٢) الأشباه والنظائر في النحو، للسيوطي (٢/٣٧٦-٣٧٧)، شرح التسهيل (٥/٩٦).

وفي (علل النحو): "(إذا) تستعمل على ضربين:

أحدهما: أن تكون للزمان المستقبل، ويدخل فيها معنى الشرط والجزاء، فهذه التي لا بدَّ أن يذكر بعدها الفعل.

والضرب الثاني: أن تكون (إذا) بمعنى: المفاجأة، وظاهرها أن تكون ظرفًا من المكان، فهذه لا تحتاج إلى الفعل؛ إذ ليس فيها معنى: الشرط والجزاء، فإذا قلت: (خرجت فإذا زيد قائم)، فـ: (زيد): رفع بالابتداء، و(إذا): في موضع خبره، ونصبت (قائمًا) على الحال، والعامل في الحال فعل تقديره: خرجت فحضرني زيد في حال قيامه، أو فاجأني زيد، فتكون (إذا) في موضع نصب بهذا الفعل" (١).

والأصل في استعمال (إذا) أنها تدخل المتيقن وقوعه أو ما رجح.

والأصل في استعمال (إن) أنها تدخل على المشكوك فيه. وقد يقع كل منهما موقع الآخر.

وفي (الكيات): "اعلم أن كلمة (إذا) عند نحويي الكوفة مشترك بين الوقت والشرط، وإذا استعملت للشرط لم يبق فيها معنى الوقت أصلًا، ويصير بمعنى: (إن) وهو قول أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وعند البصريين أنها موضوعة للوقت، وتستعمل في الشرط مجازًا من غير سقوط معنى: الوقت عنها، مثل: (متى)؛ فإنها للوقت لا يسقط ذلك عنها بحال، وهذا قول صاحبيه رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ.

و(إذا): بالنظر إلى كونها شرطًا تدخل على المشكوك، وبالنظر إلى كونها ظرفًا تدخل على المتقين كسائر الظروف" (٢).

---

(١) علل النحو (ص:٢٣٣).

(٢) الكليات (ص:٧١).

قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان لزوم (إذا) للإضافة عند الجمهور:

وألـزمـوا (إذا) إضـافـة إلى جمل الأفعال، كـ: (هن إذا اعتلى)[١]

مذهب الجمهور أن (إذا) لازمة للإضافة إلى جمل الأفعال خاصة، نظرًا إلى ما تضمنته من معنى: (الشرط) غالبًا، كـ: (هن إذا اعتلى)، وكقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [النصر:١]، فـ: (إذا) ظرف مستقبل، متضمن معنى: (الشرط)، مضاف إلى الجملة بعده، والعامل فيه جوابه على المشهور. فهو متعلق بـ: (سبِّح) الذي هو جوابها، وجملة ﴿جَآءَ﴾ في محل جر بإضافة الظرف إليها.

قال ابن عقيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "(إذا) تلزم الإضافة إلى الجملة الفعلية، ولا تضاف إلى الجملة الاسمية، خلافًا للأخفش والكوفيين، فلا تقول: (أجيئك إذا زيد قائم)، وأما (أجيئك إذا زيد قام) فـ: (زيد) مرفوع بفعل محذوف، وليس مرفوعًا على الابتداء، هذا مذهب سيبويه، وخالفه الأخفش، فجوَّز كونه مبتدأ خبره الفعل الذي بعده.

وزعم السيرافي أنه لا خلاف بين سيبويه والأخفش في جواز وقوع المبتدأ بعد (إذا)، وإنما الخلاف بينهما في خبره، فسيبويه يوجب أن يكون فعلًا، والأخفش يجوِّز أن يكون اسمًا، فيجوز في (أجيئك إذا زيد قام) جعل زيد مبتدأ عند سيبويه والأخفش، ويجوز (أجيئك إذا زيد قائم) عند الأخفش فقط"[٢].

أما قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢﴾ [الانشقاق:١-٢] فإن ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمن، و﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ فاعل بفعل محذوف يفسِّره ما بعده،

(١) ألفية ابن مالك (ص:٣٧). ومعنى: (هن إذا اعتلى): كن متواضعًا هينًا إذا تكبَّر وتعالى غيرك.

(٢) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (٣/٦١)، وانظر: توضيح المقاصد (٢/٨٠٩-٨١٠).

والتقدير: (إذا انشقَّت السماء انشقت)؛ لأن (إذا) الشرطية يختص دخولها بالجمل الفعلية. وقد قدَّر سيبويه رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ١﴾ [الانشقاق:١] ونحوهِ فعلًا قبل الاسم، والأخفشُ لم يُقَدِّرْه.

وقد اختلفوا في جواب ﴿إِذَا﴾، قال أبو البقاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ جواب: ﴿إِذَا﴾ فيه أقوال:

أحدها: ﴿أَذِنَتۡ﴾ [الانشقاق:٢]، والواو زائدة.

والثاني: هو محذوف، تقديره: يقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ [الانشقاق:٦]. وقيل: التقدير: بعثتم، أو جوزيتم، ونحو ذلك مما دلت عليه السورة.

والثالث: أن ﴿إِذَا﴾ مبتدأ، ﴿وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ﴾ [الانشقاق:٣] خبره، والواو زائدة. حكي عن الأخفش.

والرابع: أنها لا جواب لها، والتقدير: اذكر إذا السماء" (١).

والحاصل أن (إذا) عند غير الأخفش والكوفيين تختص بالجملة الفعلية.

ويقع شرطها وجوابها ماضيين، نحو: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ﴾ [الإسراء:٨٣]، ومضارعين، نحو: ﴿إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ﴾ [الإسراء:١٠٧]، ومختلفين، نحو: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ الآية [المائدة:٨٣]، ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْ﴾ [مريم:٥٨]، وماضيًا وأمرًا، نحو: ﴿إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ [الطلاق:١] (٢).

---

(١) التبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء العكبري (١٢٧٨/٢)، وانظر: المحرر الوجيز (٤٥٧/٥)، شرح التصريح على التوضيح (٧٠١/١)، شرح المفصل، لابن يعيش (٢٤٠/١)، انظر ذلك في (شرح الشيخ الأشموني على ألفية ابن مالك) (١٥٠/٢-١٥٣)، حاشية الصبان (٣٨٨/٢).

(٢) انظر: شرح التصريح على التوضيح (٧٠١/١).

وقد تنوع استعمال (إذا) باعتبار ما وليها، في القرآن الكريم، وجاء بيان ذلك مفصلًا في كتاب: (دراسات لأسلوب القرآن الكريم)، لمحمد عبد الخالق عضيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ [(١)].

وتأتي (إذا) متمحضة للظرفية، لا شرطية، واجبة الإضافة إلى الجملة الفعلية، وهي قسمان:

الأول: مجيئها للمستقبل:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ﴾ [آل عمران:٢٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [النساء:٦٢].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ٤١﴾ [النساء:٤١].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ ٢٧﴾ [محمد:٢٧].

فـ: (كيف) في هذه الآيات إما في محل نصب على الحال، والتقدير: كيف يصنعون، وإما في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: كيف حالهم وصنيعهم، والعامل في (إذا) هو الفعل المحذوف، أو المبتدأ المحذوف.

وجاءت (إذا) متمحضة للظرفية أيضًا في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ﴾ [البقرة:١٩٦]، والعامل في (إذا): (صيام).

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ﴾ [البقرة:٢٣٢]. فـ: ﴿إِذَا﴾ ظرف لـ: ﴿يَنكِحۡنَ﴾.

---

(١) انظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم، لمحمد عبد الخالق عضيمة (١/١٦٩).

ونظائر ذلك كثيرة [١].

الثاني: مجيئها للحال إذا وقعت بعد القسم:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١﴾ [النجم:١].

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ٣٣﴾ [المدثر:٣٣] في قراءة: ﴿إِذَا﴾.

﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ٣٤﴾ [المدثر:٣٤].

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨﴾ [التكوير:١٧-١٨].

﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ١٨﴾ [الانشقاق:١٨].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ٤﴾ [الفجر:٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ٤﴾ [الشمس:٢-٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢﴾ [الليل:١-٢].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ٢﴾ [الضحى:٢].

فـ: (إذا) بعد القسم ظرف للحال، ليس فيها معنى الشرطية، ولا تدل على الاستقبال.

قال ابن هشام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والثاني: أن تجيء للحال، وذلك بعد القسم، نحو: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١﴾ [الليل:١]، ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١﴾ [النجم:١]" [٢].

---

(١) انظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم (١/١٨٨-١٩٠).

(٢) مغني اللبيب (ص:١٣٠).

وقال الرضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قيل: ليس في (إذا) في نحو قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١﴾ [الليل:١] معنى الشرط؛ إذ جواب الشرط إما بعده أو مدلول عليه بما قبله. وليس بعده ما يصلح للجواب لا ظاهرًا ولا مقدرًا؛ لعدم توقف معنى الكلام عليه، وليس هاهنا ما يدل على جواب الشرط قبل (إذا) إلا القسم، فلو كان (إذا) للشرط كان للتقدير: (إذا يغشى أقسم)، فلا يكون القسم منجزًا، بل معلقًا بغشيان الليل، وهو ضد المقصود؛ إذ القسم بالضرورة حاصل وقت التكلم بهذا الكلام، وإن كان نهارًا غير متوقف على دخول الليل اهـ". وقد اختلف كلمة النحويين في تقدير العامل في (إذا) بعد القسم، وقدَّر الرضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ العامل في (إذا) مصدرًا مضافًا محذوفًا تقديره: وعظمة الليل وعظمة النجم [1].

وجاءت (إذا) محتملة للظرفية فقط، وللظرفية مع الشرطية في آيات كثيرة، وهذا الاحتمال إنما يكون مع حذف الجواب، فإن جعلت (إذا) شرطية قدر الجواب، وإن جعلت ظرفية استغنت عن تقدير الجواب. ومن أمثلة ذلك قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ﴾ الآية [البقرة:١٨٠]، فـ: ﴿إِذَا﴾ شرطية حذف جوابها، والتقدير: فليوص، أو ظرفية عاملها: ﴿كُتِبَ﴾.

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمۡ أَن تَسۡتَرۡضِعُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا سَلَّمۡتُم مَّآ ءَاتَيۡتُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ﴾ [البقرة:٢٣٣]، فجواب ﴿إِذَا﴾ محذوف يدل عليه جواب الشرط الأول، أو هو متعلق بما تعلق به ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾، و﴿إِذَا﴾ حيئنذ متمحضة للظرفية.

---

(١) شرح الرضي على كافية ابن الحاجب (٣/١٩١-١٩٢)، وانظر ذلك في (دراسات لأسلوب القرآن الكريم) (١/١٩٢-١٩٥).

ونظائر ذلك من القرآن الكريم كثيرة[١]، وكل ذلك مبسوط في مظانه.

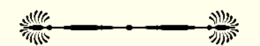
ذكر ما افترق فيه (إذ) و(إذا) و(حيث):

قال ابن هشام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (تذكرته): "اعلم أن (إذ) و(إذا) و(حيث) اشتركن في أمور، وافترقن في أمور: فاشتركن في الظرفية ولزومها، والإضافة ولزومها، وكونها للجمل، والبناء ولزومه، وأنها لمعنى، وقد تخرج عنه، فهذه ثمانية قد قيلت.

وتشترك (إذ) و(إذا) في أنهما للزمان، ولا يكونان للمكان، وأنهما يكفّان بـ: (ما) عن الإضافة مفيدين معنى: (الشرط)، جازمين، قياسًا مطّردًا، وأنهما يضافان للجملة الفعلية.

وانفردت (إذا) بإفادتها معنى: (الشرط) دون (ما)، وأنها لا تضاف إلا إلى الجمل الفعلية، وانفردت (حيث) بأنها تكون للمكان والزمان، والغالب كونها للمكان" [٢].

لدن ومع:



قال في (العين): "(لَدُن) بمعنى: عند، وتقول: (وقفوا له من لَدُن كذا إلى المسجد)، ونحو ذلك: إذا اتّصَلَ ما بين الشّيئين، وكذلك في الزَّمان: من لَدُن طُلوع الشمس إلى غُروبها" [٣].

(١) انظر: دراسات لأسلوب القرآن (١/١٩٠-١٩٢).
(٢) الأشباه والنظائر في النحو، للسيوطي (٢/٤٣٤).
(٣) العين، مادة: (لدن) (٨/٤٠).

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لدن: الموضع الذي هو الغاية، وهو ظرف غير متمكن بمنزلة: (عند)، وقد أدخلوا عليها: (من) وحدها من بين حروف الجر. قال جَلَّوَعَلَا: ﴿مِّن لَّدُنَّآ﴾ [النساء:٦٧]. وجاءت مضافة تَخْفِضُ ما بعدها. وفي (لدن) ثلاث لغات: لَدُنْ، ولَدَى، ولَدُ. وقالوا: لَدُنْ غُدْوَةً. ولم يَنْصِبُوا بها إلَّا غُدْوَةً خَاصَّةً" [١].

قال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقرىء من (لدني) بتخفيف النون[٢]، ويجوز من (لدني) بتسكين الدال، وأجودها بتشديد النون؛ لأن أصل (لدن) الإسكان، فإذا أضفتها إلى نفسك زدت نونًا؛ ليسلم سكون النون الأولى، تقول: (من لدن زيد) فتسكن النون، ثم تضيف إلى نفسك، فتقول: (لدني)، كما تقول عن زيد: وعني، ومن حذف النون فلأن

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (لدن) (٦/٢١٩٤).

(٢) "العامة على ضم الدال، وتشديد النون. وذلك أنهم أدخلوا نون الوقاية على (لَدُن)؛ لتَقِيَها من الكسر؛ محافظةً على سكونها، كما حُوْفِظَ على سكون نون (مِنْ) و(عَنْ)، فأُلْحِقَتْ بهما نونُ الوقايةِ فيقولون: (مِنّي) و(عَنّي) بالتشديد. ونافع بتخفيف النون. والوجه فيه: أنه لم يُلْحِقْ نونَ الوقاية لـ: (لَدُن). إلا أن سيبويه منع من ذلك وقال: لا يجوزُ أَنْ تأتِيَ بـ: (لَدُنْ) مع ياء المتكلم دون نونِ وقاية اهـ. وهذه القراءةُ حجةٌ عليه. فإنْ قيل: لِمَ لا يُقال: إن هذه النونَ نونُ الوقايةِ، وإنما اتصلَتْ بـ: (لَدُ) لغةً في (لَدُن) حتى يتوافَقَ قولُ سيبويه مع هذه القراءة؟ قيل: لا يَصِحُّ ذلك من وجهين: أحدهما: أنَّ نونَ الوقايةِ إنما جِيءَ بها؛ لتقيَ الكلمةَ الكسر؛ محافظةً على سكونها. ودون النون لا يُسَكَّنون؛ لأنَّ الدالَ مضمومة، فلا حاجةَ إلى النون. والثاني: أنَّ سيبويهِ يمنع أَنْ يُقال: (لَدُني) بالتخفيف، وقد حُذِفَتِ النونُ مِنْ «عَنْ» و «مِنْ» في قوله: (أيُّها السَّائِلُ عنهم وعنِيْ***لستُ من قيسٍ ولا قيسٌ مِنِيْ). ولكن تحتمل هذه القراءة أن تكون النون فيها أصلية، وأن تكون للوقاية على أنها دخلت على (لَدْ) الساكنة الدال، لغة في (لدن)، فالتقى ساكنان فكسرت نون الوقاية على أصلها. وإذا قلنا بأنَّ النونَ أصلية فالسكونُ تخفيف، كتسكين ضاد (عَضْد) وبابه. وقرأ أبو بكرٍ بسكون الدال وتخفيف النون أيضًا، ولكنه أَشَمَّ الدَّالَ الضَّمَّ؛ مَنْبَهة على الأصل...الخ" الدر المصون (٧/٥٣٠-٥٣٢)، وانظر: الحجة للقراء السبعة (٥/١٦٠-١٦٢).

لدن اسم غير متمكن، والدليل على أن الأسماء يجوز فيها حذف النون قولهم: قدني في معنى حسبي، ويجوز قدي بحذف النون لأن قد اسم غير متمكن"(١).

و(لدى) لغة في (لدن)، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِۚ﴾ [يوسف:٢٥]، واتصاله بالمضمرات كاتصال (عليك).

قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان لزوم (لدن) للإضافة:

وألزموا إضافة (لدن) فجر ... ونصب غدوة بها عنهم ندر

ومع (مع) فيها قليل ونقل ... فتح وكسر لسكون يتصل (٢)

من الأسماء الملازمة للإضافة (لدن) و(مع).

فأما (لدن) فلابتداء غاية زمان أو مكان، وهي مبنية عند أكثر العرب؛ لشبهها بالحرف في لزوم استعمال واحد، وهو الظرفية، وابتداء الغاية، وعدم جواز الإخبار بها.

ولا تخرج عن الظرفية إلا بجرها بـ: (من)، وهو الكثير فيها؛ ولذلك لم ترد في القرآن إلا بـ: (من)، كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ۝٦٥﴾ [الكهف:٦٥]، وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ [الكهف:٢]. وقيس تعربها (٣)، ومنه: قراءة أبي بكر عن عاصم رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لدنْهُ﴾، لكنه أسكن الدال، وأشمها الضم (٤).

---

(١) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٣/٣٠٣-٣٠٤)، تهذيب اللغة (١٤/٨٧)، وانظر: تفسير الطبري (١٨/٧٦)، التفسير البسيط (١٤/٩٤)، الحجة للقراء السبعة (٥/١٦٠-١٦٢)، الحجة في القراءات السبع (ص:٢٢٨).

(٢) ألفية ابن مالك (ص:٣٧).

(٣) أي: تشبهها بـ: عند، وإعرابها عندهم مخصوص بلغتها المشهورة، وهي كـ: (عضد)، فتحرك النون بالإعراب كما في (التسهيل) و(الهمع). حاشية الخضري على شرح ابن عقيل (٢/٥١).

(٤) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (٣/٦٧).

وفي (التذييل والتكميل): "(لدن) مبنية؛ لشبهها بالحرف في لزومها استعمالًا واحدًا، وهو كونها مبدأ غاية، وامتناع الإخبار بها وعنها، فلا يبنى عليها المبتدأ، بخلاف (عند) و(لدى)، فإنهما لا يلزمان استعمالًا واحدًا، بل يكونان لابتداء الغاية وغيرها، ويبنى عليهما المبتدأ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ [الأنعام:٥٩]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾ [المؤمنون:٦٢]، وقال: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۝٣٥﴾ [ق:٣٥].

قال في (التسهيل): و(لدن) لأول غاية زمان، أو مكان.

فقوله: لأول غاية زمان مثاله: (لدن غدوة)، و(ما رأيته من لدن ظهر الخميس).

وقوله: أو مكان مثله: ﴿ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا﴾ [طه:٩٩]، أي: من جهتنا ونحونا.

وفي (البسيط): هي بمعنى: (عند)، لكنها أشد منها إبهامًا، يدل على ذلك أنها لا تقع جوابًا عن (أين) كما تقع فيه (عند)؛ ولذلك بنيت، بخلاف (عند). وقيل: إن (عند) تكون لما هو حاصل أو في تقدير الحاصل، فتقول: هذا عندي، وإن لم يكن حاصلًا، ولا كذلك لدنك، إنما هي للحاصل المتصل" (١).

ويجز ما ولي (لدن) بالإضافة، إلا (غدوة)؛ فإنهم نصبوها بعد (لدن)، كقوله:

وما زال مُهْرِي مَزْجَرَ الكَلْب منْهُمُ ... لَدُنْ غدْوَةً حتَّى دَنَتْ لِغُرُوب (٢)

---

(١) التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل (٨/٧٠)، وانظر: شرح تسهيل الفوائد (٢/٢٢٩).

(٢) قال البدر العيني: "لم أقف على اسم قائله" المقاصد النحوية (٣/١٣٤٣). والبيت من شواهد: (العين) (٨/٤٠)، وانظر: حروف المعاني، للزجاجي (ص:٢٦)، شرح ابن عقيل (٣/٦٨)، شرح الأشموني (٢/١٦١)، شرح التصريح على التوضيح (١/٧١٣)، همع الهوامع (٢/٢٢١)، شرح تسهيل الفوائد (٢/٢٣٨).والبيت ينسب لأبي سفيان بن حرب كما في (الحيوان) (١/٢٠٩)، واللمحة (١/٢٨٢-٢٨٣)، وثمار القلوب، للثعالبي (ص:٣٩٥)، وربيع الأبرار، للزمخشري (٢/٣٤١). والشاهد فيه: قوله: (لدن غدوة) حيث نصب (غدوة) على التمييز.

وهي منصوبة على التمييز، وهو اختيار المصنف؛ ولهذا قال: (***ونصب غدوة بها عنهم ندر).

وقيل: هي خبر لكان المحذوفة، والتقدير: لدن كانت الساعة غدوة.

ويجوز في (غدوة) الجر، وهو القياس، ونصبها نادر في القياس، فلو عطفت على غدوة المنصوبة بعد (لدن) جاز النصب عطفًا على اللفظ، والجر مراعاة للأصل، فتقول: (لدن غدوة وعشيةً وعشيةٍ)، ذكر ذلك الأخفش. وحكى الكوفيون الرفع في (غدوة) بعد (لدن) وهو مرفوع بكان المحذوفة، والتقدير: لدن كانت غدوة، وكان تامة.

وذكر ابن هشام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن (لدن) بمعنى: (عند)، إلا أنها تختص بستة أمور:

أحدها: أنها ملازمة لمبدأ الغايات، فمن ثم يتعاقبان في نحو: (جئت من عنده، ومن لدنه)، وفي التنزيل: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ۝٦٥﴾ [الكهف:٦٥]، بخلاف نحو: (جلست عنده)؛ فلا يجوز فيه: (جلست لدنه)؛ لعدم معنى الابتداء هنا.

الثاني: أن الغالب استعمالها مجرورة بـ: (من) (١).

الثالث: أنها مبنية إلا في لغة قيس، وبلغتهم قرئ: ﴿مِن لَدْنه﴾ [النساء:٤٠] -بإسكان الدال- (٢).

---

(١) فتكون مبنية على السكون في محل جر، ولم ترد في القرآن الكريم إلا كذلك.

(٢) قرأ أبو بكر عن عاصم: ﴿مِن لَدْنه﴾ [النساء:٤٠] بإسكان الدال وإشمامها الضم، وكسر النون والهاء، ووصلها بياء في الوصل. وفي (شرح التصريح) (٧١٢/١): "الغالب في (لدن) استعمالها مجرورة بـ: (من)، ونصبها قليل، حتى إنها لم تأت في التنزيل منصوبة. وجر (عند) بـ: (من) دون جر (لدن) في الكثرة. و(لدن) مبنية على السكون، وعلة بنائها: شبهها بالحرف في لزوم استعمال واحد، وهو الظرفية، وعدم التصرف، إلا في لغة قيس؛ فإنها معربة عندهم؛ تشبيهًا بـ: (عند)، و"بلغتهم قرئ: ﴿مِن لَدْنه﴾ [النساء:٤٠] بإسكان الدال وإشمامها الضم، وكسر النون والهاء، ووصلها بياء في الوصل، وهي قراءة أبي بكر بن عاصم". في (أمالي=

الرابع: جواز إضافتها إلى الجمل؛ كقوله:

*** لدن شب حتى شاب سود الذوائب [(١)].

الخامس: جواز إفرادها قبل: (غدوة)[(٢)]، فتنصبها: إما على التمييز، أو على التشبيه بالمفعول به، أو على إضمار (كان) واسمها. وحكى الكوفيون رفعها على إضمار (كان) تامة. والجر القياس ،والغالب في الاستعمال.

السادس: أنها لا تقع إلا فضلة، تقول: (السفر من عند البصرة)، ولا تقول: (من لدن البصرة)" [(٣)].

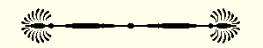
=ابن الشجري) (١/٣٤٠-٣٤١): "فأما ما روي عن عاصم من قراءته: ﴿مِن لَدْنه﴾ [النساء:٤٠] بكسر النون، فالكسرة فيه ليست كسرة جرٍّ، وإنما هى كسرة التقاء الساكنين، وذلك أن الدال أسكنت كما أسكنت الباء، من سبع، والنون ساكنة، فلما التقيا كسر الثاني منهما اهـ". فظهر بهذا أن (لدن) مبنية دائمًا، بخلاف (عند)؛ فإنها معربة دائمًا.

(١) قائله: هو القطامي، واسمه: عمير بن شييم.وصدره: (صريعُ غَوَانٍ راقَهُنَّ ورُقْنَهُ***)، وهو في (ديوانه) (ص:٤٤)، انظر: المقاصد النحوية (شرح الشواهد الكبرى)، للعيني (١٣٤١/٣)، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص (١٨١/١)، شرح شواهد المغني، للسيوطي (٤٥٥/١). أمالي ابن الشجري (٣٤٠/١). والشاهد من شواهد: مغني اللبيب (ص:٢٠٨)، وأوضح المسالك (١٢٤/٣)، وشرح تسهيل الفوائد (٢٣٧/٢)، وشرح الرضي على كافية ابن الحاجب (٢٠٣/٣)، وشرح التصريح (٧١٢/١)، وشرح الأشموني (١٦٠/٢)، وهمع الهوامع (٢٢٠/٢). والشاهد: (لدن شب). حيث أضاف (لدن) إلى جملة: (شب..)؛ وقد دلت على بداية الغاية الزمانية. وحكم إضافتها إلى الجمل الجواز.

(٢) أي: قطعها عن الإضافة لفظا ومعنى، من غير أن يفصل بينهما فاصل؛ ومن ذلك ما تقدم من قول أبي سفيان: (وما زال مُهْرِي مَزْجَرَ الكَلْب منْهُمُ***لَدُنْ غدْوَةً حتَّى دَنَتْ لِغُرُوب).

(٣) أوضح المسالك (١٢٢/٣-١٢٦)، وانظر: شرح الأشموني (١٦١/٢-١٦٢).

معنى (مع) وبيان حالاتها:



قال في (الصحاح): "(مع) كلمة تدل على المصاحبة، والذي يدل على أن (مع) اسم: حركة آخره مع تحرك ما قبله، وقد يسكن وينون، تقول: (جاءوا معًا)" (١). والمصاحبة: الموافقة والمشاركة في الشيء.

وقيل: (مع) حرف خفض، قال في (العين): "وأما (مع) فهو حرف يضمُّ الشيءَ إلى الشَّيءِ: تقول: (هذا مع ذاك)" (٢).

وقيل: (مع) كلمة تضم الشيء إلى الشيء، وأصلها: معًا، وهو قول الأزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣).

قال ابن عقيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأما (مع) فاسم لمكان الاصطحاب، أو وقته، نحو: (جلس زيد مع عمرو)، و(جاء زيد مع بكر)، والمشهور فيها: فتح العين، وهي معربة، وفتحتها فتحة إعراب، ومن العرب من يسكنها. وزعم سيبويه رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن تسكينها ضرورة، وليس كذلك، بل هو لغة ربيعه، وهي عندهم مبنية على السكون. وزعم بعضهم أن الساكنة العين حرف، وادعى النحاس رَحِمَهُ ٱللَّهُ الإجماع على ذلك، وهو فاسد؛ فإن سيبويه رَحِمَهُ ٱللَّهُ زعم أن ساكنة العين اسم. هذا حكمها إن وليها متحرك، أعني: أنها تفتح، وهو المشهور، وتسكن، وهي لغة ربيعة، فإن وليها ساكن فالذي ينصبها على الظرفية يبقي فتحها،

---

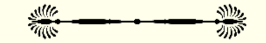
(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (مع) (١٢٨٦/٣).

(٢) العين، مادة: (مع) (٩٥/١).

(٣) انظر: تهذيب اللغة (١٥٨/٣)، وانظر: الكليات (ص:٨٣٨).

فيقول: معَ ابنك، والذي يبنيها على السكون يكسر؛ لالتقاء الساكنين، فيقول: معِ ابنك" [(١)].

عند ولدى:



(عند) ظرف مكان، ويكون ظرف زمان إذا أضيف إلى الزمان، نحو: عند الصبح، وعند طلوع الشمس، ويدخل عليه من حروف الجر (من) لا غير.

قال في (العين): "عند: حرف صفة، يكون موضعًا لغيره، ولفظه نصب، لأنّه ظرفٌ لغيره، وهو في التّقريب شِبْهُ اللِّزْق، ولا يكاد يجيء في الكلام إلا منصوبًا؛ لأنه لا يكون إلا صفة معمولًا فيها، أو مضمرًا فيها فعل، إلا في حرف واحد. وذلك أن يقول القائل لشيء بلا علم: (هذا عندي كذا وكذا)، فيقال: (أولك عند؟) فيرفع" [(٢)].

وأما (عند) فحضور الشيء ودنوه. وفيها ثلاث لغات: كسر العين، وفتحها وضمُّها. وهي ظرف في المكان والزمان، تقول: عند الليل، وعند الحائط، إلا أنها ظرف غير متمكن، لا تقول: (عِنْدُكَ وَاسْعٌ) بالرفع. وقد أدخلوا عليه من حروف الجر (من) وحدها، كما أدخلوها على (لدن). قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ [الكهف:٦٥]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿مِّن لَّدُنَّآ﴾ [النساء:٦٧]. ولا يقال: (مضيت إلى عندك)، ولا (إلى لدنك). وقد يُغْرَى بها، تقول: عِنْدَكَ زَيْدًا، أي: خُذْه" [(٣)].

---

(١) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (٣/٦٧-٧١)، وانظر: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك (٣/١٢٦-١٢٩).

(٢) العين، مادة: (عند) (٢/٤٣)، وانظر: تهذيب اللغة (٢/١٣٢).

(٣) الصحاح، للجوهري، مادة: (عند) (٢/٥١٣)، وانظر: المصباح المنير (٢/٤٣١).

قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومن الظروف العادمة التصرف: (عند)، ولا تستعمل إلا مضافة، ولا يفارقها النصب على الظرفية إلا مجرورًا بـ: (من)، وهي لبيانِ كون مظروفها حاضرً حِسًّا أو معنى، وقد اجتمع الحضور الحسّي والمعنوي في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾ [النمل:٤٠].

ومثال القرب الحسّيِّ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾ [النجم:١٣-١٥].

ومثال القرب المعنوي: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ [ص:٤٧]، و﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ [التحريم:١١].

ومن القرب المعنوي قول الرجل: (عندي مائة)، يريد: أنه مالكها وإن كان موضعها بعيدًا، ومنه قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ﴾ [النحل:٩٦].

وقد يكون مظروفها معنى فيراد بها الزمان، كقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنما الصبر عند الصَّدمةِ الأولى**»[1].

وكسر عينها هو المشهور، ومن العرب من يفتحها، ومنهم من يضمها.

ويُرادِفُها: (لدَى) في قول سيبويه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو الصحيح، لا قول مَن زعم أنها بمعنى: (لَدن)؛ لأن (لدُنْ) مخصوصة بما هو مبتدأ غاية، بخلاف: (لدى)؛ فإنها يراد بها ما يراد بـ: (عند)، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران:٤٤]، فهذا موضع صالح لـ: (عند) ولـ: (لدى)، وغير صالح لـ: (لدن). و(لدُنْ) لا تَصلح من مواضعها إلا فيما هو مبتدأ غاية؛ ولذلك

(١) صحيح البخاري [١٢٨٣، ١٣٠٢]، مسلم [٩٢٦].

اجتمعت (عند) و(لدُن) في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف:٦٥]..." [١].

قبل وبعد :

(قبل): نقيض: بعد. و(الْقُبْلُ) و(الْقُبُلُ) نقيض: الدُّبْر والدُّبُر.

و(أَقْبَلَ) نقيض: أَدْبَرَ. يقال: أَقْبَلَ مُقْبَلًا، مثْلُ: ﴿أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء:٨٠].

و(أَقْبَلَ عليه بوجهه)، و(الْمُقَابلة): الْمُواجهة. و(التَّقَابُل) مثلُهُ. و(الاستقبالُ) نقيض: الاستدبار. و(مقابلة الكتاب): معارضتُه [٢].

و(البعد): ضد القرب. وقد بَعُدَ -بالضم- بُعْدًا فهو بعيد، أي: تباعد. وأبعده غيره، وباعده، وبعده تبعيدًا [٣].

والأصل في (قبل)، و(بعد) ملازمتهما الإضافة لما بعدهما، لكنهما قد ينقطعان عن الإضافة.

قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

واضمم بناء (غيرا) أن عدمت ما ... له أضيف ناويًا ما عدما

قبل كـ: (غير) بعد حسب أول ... ودون والجهات أيضًا وعل

---

(١) شرح تسهيل الفوائد (٢/٢٣٤-٢٣٦)، وانظر: همع الهوامع في شرح جمع الجوامع (٢/١٦٥).

(٢) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (قبل) (٥/١٧٩٥-١٧٩٧)

(٣) انظر: المصدر السابق، مادة: (بعد) (٢/٤٤٨).

وأعـــربوا نـصـبًا إذا مـــا نـكـرا   قبـلًا ومـا مـن بعده قد ذكرا[١]

أي: من الكلمات الملازمة للإضافة: غير، وقبل، وبعد، وحسب، وأول، ودون، والجهات الست، وهي: أمامك: وخلفك: وفوقك: وتحتك: وبمينك: وشمالك: وعل، لها أربعة أحوال تبنى في حالة منها، وتعرب في بقيتها، ومن هذه الكلمات: (قبل) و(بعد).

صور الإعراب:

و(قبل) و(بعد) يجب إعرابها في ثلاث صور:

إحداها: أن يصرح بالمضاف إليه، كـ: (جئتك بعد الظهر، وقبل العصر)، و(من قبله، ومن بعده). ففي المثال الأول نُصِبَا على الظَّرفية الزَّمانية، وفي الثاني جُرَّا بـ: (من).

ومن الجر بـ: (من): قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ﴾ [النور:٥٨].

وتكون معرفة إذا أضيفت إلى معرفة، كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران:١٤٤]، ونكرة إذا أضيفت إلى نكرة، نحو: (جئت بعد سفر).

الثانية: أن يحذف المضاف إليه، وينوى لفظه، فيبقى الإعراب، وترك التنوين، كما لو ذكر المضاف إليه، وهو قليل، ومن ذلك قول الشاعر:

ومن قبل نادى كل مولى قرابة *** [٢]

أي: ومن قبل ذلك.

---

(١) ألفية ابن مالك (ص:٣٧).

(٢) صدر بيت، عجزه: (***فما عطفت مولى عليه العواطف). لم يعرف قائله، والشاهد فيه: (ومن قبلِ)، حيث جر (قبل) بدون تنوين؛ لحذف المضاف إليه ونية لفظه، وترك التنوين؛ للإضافة المذكورة؛ لأن المنوي ثبوت لفظه كالثابت؛ والتقدير: من قبل ذلك؛ وحكم إعراب (قبل) في هذه الحال الوجوب.

وقرئ: ﴿لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلِ وَمِنْ بَعْدِ﴾ [الروم:٤] بالجر من غير تنوين؛ أي: من قبل الغلب، ومن بعده.

الثالثة: أن يحذف ما تضاف إليه، ولا ينوى شيء (لا لفظه ولا معناه)، فيبقى الإعراب، ولكن يرجع التنوين؛ لزوال ما يعارضه في اللفظ والتقدير، كقراءة بعضهم: ﴿مِنْ قَبْلٍ وَمِنْ بَعْدٍ﴾ [الروم:٤] بالجر والتنوين.

ومن ذلك قول الشاعر:

فساغ لي الشراب وكنت قبلًا *** (١)

وتكونان حينئذ نكرة.

---

(١) صدر بيت، عجزه: (***أكاد أغص بالماء الفرات)، والرواية في البيت: (بالماء الفرات)، ورواه أبو منصور الثعالبي عن أبي عمرو: (بالماء الحميم)، وهو البارد، والهو المحفوظ"، انظر: (التخمير)، للقاسم بن الحسين (٢٦٨/٢)، فقه اللغة وسر العربية، للثعالبي (ص:٢٦٢)، الزاهر، لأبي بكر الأنباري (٣٥٠/٢)، تهذيب اللغة (١١/٤)، شرح الكافية الشافية (٩٦٥/٢)، شرح التصريح (٧١٩/١)، شرح تسهيل الفوائد (٢٤٧/٣)، شرح الرضي (٢٥٣/١). والبيت ليزيد بن الصعق، وقيل: هو لعبد الله بن يعرب بن معاوية. فـ: (قبلًا): ظرف زمان منصوب، وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة، وهو متعلق بـ: (كان). والشاهد: مجيء (قبلًا) مقطوعًا عن الإضافة لفظًا ومعنى؛ ولهذا، جاء معربًا منونًا. انظر: أوضح المسالك (١٣٠/٣)، شرح الكافية الشافية (٩٦٢/٢)، المفصل في صنعة الإعراب (ص:٢١٠)، شرح المفصل (١٠٧/٣)، شرح ابن عقيل (٧١/٣-٧٥)، شرح الأشموني (١٦٤/٢-١٧٢)، همع الهوامع (١٩٦/٢)، توضيح المقاصد (٨١٧/٢)، أمالي ابن الشجري (٢٠٣/٣)، معاني القرآن، للفراء (٣٢٠/٢)، شرح التصريح على التوضيح (٧١٧/١)، شرح الرضي على كافية ابن الحاجب (١٦٨/٣)، حاشية ابن التمجيد (١٠٠/١٥)، حاشية الشهاب الخفاجي (١٩٩/٥)، تهذيب اللغة (١١/٤)، وانظر أوجه الإعراب كذلك في (الدر المصون) (٣١/٩).

حالة البناء:

أن يحذف المضاف إليه وينوي معناه دون لفظه، وتكون عند ذاك مبنية على الضم، نحو قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾ [الروم:٤] في قراءة الجماعة.

وتكون في هذه الحالة معرفة.

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ﴾ [البقرة:٢٥]، أي: من قبل ذلك، يعني: في الدنيا.

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [البقرة:٨٩]، من قبل ذلك، فبنيت ههنا؛ لقطعها عن الإضافة.

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ﴾ [البقرة:٢٣٠]، أي: من بعد ذلك الطلاق، يعني: بعد الطلقة الثالثة.

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ﴾ [المائدة:١١٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ﴾ [الأنفال:٧٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود:٧٨]، ومن قبل ذلك الوقت كانوا يعملون الفواحش.

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ﴾ [يوسف:٨٠]، أي: ومن قبل ذلك، يعني: من قبل هذا قصرتم في شأن يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ولم تحفظوا عهد أبيكم.

وتحتمل ﴿مَا﴾ وجوهًا: الأول: أن تكون زائدة. والثاني: أن تكون مصدرية ومحلها الرفع بالابتداء، تقديره: وقع من قبل تفريطكم في يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ. والثالث: أن تكون موصولة ومحلها أيضًا الرفع كذلك، والأول أظهر.

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج:٧٨].

فقبل ظرف زمان مبني على الضم في محل جر، والتقدير: من قبل نزول القرآن.

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ١٢٠﴾ [الشعراء:١٢٠].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ [الأحزاب:٥٢].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد:٤].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْۚ﴾ [الحديد:١٠].

فـ: (بعد) ظرف زمان مبني على الضم في محل جر، والتقدير: من بعد الفتح.

وهذا القسم الأخير هو الذي يسميه النحويون: (الغايات).

وقد تقدم قول الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حديث: «**والتَّوبَة معروضةٌ بَعْدُ**»، حيث قال: "(بَعدُ): ظرفٌ مبنيٌّ على الضمِّ؛ لقطعِهِ عن الإضافة لفظًا، وإرادةِ المضافِ ضِمنًا، ويقابلها (قَبلُ)، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُۚ﴾ [الروم:٤]" (١).

إيجاز الحالات في (قبل) و(بعد):

الحاصل أن الأصل في (قبل)، و(بعد) ملازمتهما الإضافة لما بعدهما، وقد ينقطعان عنها.

وهما في حالة الإضافة قسمان:

الأول: بلا حرف جر قبلهما:

ومن ذلك: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ﴾ [الأعراف:١٢٣].

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١/٢٤٨).

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ [يوسف:٣٧].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ٣٨﴾ [النمل:٣٨].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ [النمل:٣٩].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل:٤٠].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [البقرة:١٢٠].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة:١٦٤].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة:١٧٨].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران:٨].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ٨٠﴾ [آل عمران:٨٠].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ٨٢﴾ [آل عمران:٨٢].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [آل عمران:٨٦].

إلى غير ذلك من الآيات، وهي كثيرة. وتكون (قبل) و(بعد) في هذه الحال ظرف زمان أو مكان.

الثاني: ما كان مسبوقًا بحرف جر:

وهو كثير، ويكون (قبل) و(بعد) في هذه الحال مجرورًا بحرف الجر.

الحالة الثانية: القطع عن الإضافة:

وهي قسمان:

الأول: البناء على الضم -كما تقدم-.

والثاني: النصب على الظرفية بلا إضافة:

وله حالتان: تقدير المضاف لفظًا ومعنى، كقولنا: (دخل الطلاب ثم دخل المعلم بعدَ)، والتقدير: بعدهم.

الثانية: تنوين الظرف، كما تقدم في قول الشاعر:

فساغ لي الشراب وكنت قبلًا***

فهو مقطوع عن الإضافة لفظًا ومعنى؛ ولهذا، جاء معربًا منونًا.

وقال الرضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (شرح الكافية): "اعلم أن المسموع من الظروف المقطوعة عن الإضافة: قبل، وبعد، وتحت، وفوق، وأمام، وقدام، ووراء، وخلف، وأسفل، ودون، وأول، ومن عل، ومن علو، ولا يقاس عليها ما هو بمعناها نحو: يمين وشمال وآخر وغير ذلك" [١].

وفي (الأشباه والنظائر): "ما يلزم الإضافة من الظروف: فوق، وتحت، وأمام وقدَّام، وخلف، ووراء، وتلقاء، وتجاه، وحذاء، وحذة، وعند، ولدن، ولدى، وبين، ووسط، وسوى، ومع، ودون، وإذ، وإذا، وحيث" [٢].

وتنفرد (من) بجر ظروف لا تتصرف، كـ: (قبل، وبعد، وعند، ولدى، ولدن، ومع)" [٣].

---

(١) شرح الرضي على كافية ابن الحاجب (٣/١٦٧).

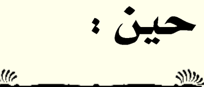
(٢) الأشباه والنظائر في النحو (٢/٢١٢)، وانظر: شرح الرضي على كافية ابن الحاجب (١/٤٨٩).

(٣) شرح تسهيل الفوائد (٣/١٣٠)، وانظر: التذييل والتكميل (١١/١١٤).

و"إذا دخلت (من) على (قبل، وبعد، ولدن، وعن) فهي زائدة؛ لأن المعنى بثبوتها أو سقوطها واحد. وإذا دخلت على (عند، ولدى، ومع، وعلى) فهي لابتداء الغاية" (١).

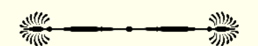
قال الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الظروف التي لا يدخل عليها من حروف الجر سوى (من) خمسة: عند، ولدى، ومع، وقبل، وبعد اهـ". وكذلك: حيث (٢).

حين :



تقدم أن الحين: ظرف مبهم يتخصص بالإضافة.

ساعة :



تقدم قول الإمام أبي العباس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن "الساعة في عرف اللغة: القطعة من الزمان غير محدود بمقدار؛ كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ﴾ [الروم:٥٥]، وتقول العرب: (جئتك ساعة كذا)، فتتعين بحسب ما تضاف إليه، وليست محدودة" (٣).

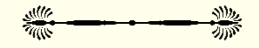
---

(١) شرح تسهيل الفوائد (٣/١٤٠)، وانظر: التذييل والتكميل (١١/١٥١).

(٢) دراسات لأسلوب القرآن الكريم (٩/٦٣٣)، (٩/٦٥٣)، وانظر: الأشباه والنظائر (٢/٧٥)، الدماميني على المغني (١/٣٠٧).

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٢/٤٨٦).

بين وبينا وبينما:



(بينا) و(بينما) ظرفا زمان بمعنى المفاجأة، يضافان إلى الجمل الاسمية والفعلية، وخفض المفرد بهما قليل، وهما في الأصل: (بين) التي هي ظرف مكان، وتستعار للزمان، كما في حديث: عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «**بينما نحن عند رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **ذات يوم، إذ طلع علينا رجل..** » الحديث(١). فقد استعيرت هنا للزمان، وأشبعت فيها الحركة، فصارت: (بينا)، وزيدت عليها الميم فصارت بينما، ولما فيهما من معنى الشرط يفتقران إلى جواب يتم به المعنى، وتصحب الجواب: (إذ) أو (إذا) الفجائيتان، وقد يتجرد الجواب عنهما، والعامل فيهما جوابهما.

قال العلامة المظهري رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله: «**بينما**»...إلى آخره، (بين): كلمة معناه: الوسط، يقال: (جلس بين القوم)، أي: في وسطهم، وتُشبَع فتحة النون حتى يتولَّدَ منها ألفٌ، فيقال: (بينا)، ويزاد عليه (ما)، فيقال: (بينما)، ومعنى ثلاثتها واحد، وثلاثتُها ظرفٌ، فقد يكون ظرفَ مكان كقولك: (جلس بين القوم، وبين الدار)، وقد يكون ظرفَ زمان كما ها هنا. وحقيقته: بين الزمان الذي نحن كنا جالسين عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، «**طلع**»، أي: ظهر ودخل، «**علينا رجلٌ**»" (٢).

(١) صحيح مسلم [٨].

(٢) المفاتيح في شرح المصابيح (١/٣٨).

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "و(بين) بمعنى: وسط، تقول: (جلست بين القوم) كما تقول: وسط القوم -بالتخفيف-. وهو ظرف، وإن جعلته اسمًا أعربته. تقول: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنُكُمْ﴾ [الأنعام:٩٤] برفع النون" (١).

فأصل (بين) أن تكون ظرفًا للمكان، وقد تكون للزمان، وقال الزنجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بحسب ما تضاف إليه (٢).

فمن ورودها ظرفًا للمكان: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۝٩٥﴾ [الكهف:٩٥].

فقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿بَيْنَكُمْ﴾ ظرف منصوب، وهو متعلِّق بمفعول به ثان لـ: ﴿أَجْعَلْ﴾، و﴿رَدْمًا﴾ مفعول به أول.

ومن ورودها للزمان: قولهم: (بين المغرب والعشاء يفعل الله ما يشاء).

وقال الرضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (شرح الكافية): "أصل (بين) أن يكون مصدرًا بمعنى: الفراق، فتقدير: (جلست بينكما)، أي: مكان فراقكما. وتقدير: (فعلت بين خروجك ودخولك) أي: زمان فراق خروجك ودخولك، فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه، فـ: (بين)، كما تبين، مستعمل في الزمان، والمكان.

وأما إذا كف بـ: (ما)، أو (الألف) وأضيف إلى الجمل، فلا يكون إلا للزمان، لما تقدم من أنه لا يضاف من المكان إلى الجمل إلا (حيث). و(بين) في الحقيقة، مضاف إلى زمان مضاف إلى الجملة، فحذف الزمان المضاف، والتقدير: (بين أوقات زيد قائم)، أي: بين أوقات قيام زيد، فحذف الوقت؛ لقيام القرينة عليه، وهي غلبة إضافة الأزمنة إلى الجمل، دون الأمكنة وغيرها، فيتبادر الفهم في كل مضاف إليها، إلى الزمان، فصار (بين) المضاف إلى الزمان زمانًا؛ لأن (بين) إن أضيف إلى الأمكنة أو جثث غيرها، فهو

---

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (بين) (٥/٢٠٨٤).

(٢) انظر: همع الهوامع (٢/٢٠٣-٢٠٨).

للمكان، نحو: (بين الدار، وبين زيد وعمرو)، وإن أضيف إلى الأزمنة فهو للزمان، نحو: (بين يومي الجمعة والأحد)، وكذا إن أضيف إلى الأحداث، نحو: (بين قيام زيد وقعوده)، إلا أن يراد به مجازًا: المكان، نحو قولك: (زيد بين الخوف والرجاء)، استعرت لما بين الحدثين مكانًا؛ فلهذا وقع (بين) خبرًا عن الجثة. فبينما المضاف تقديرًا إلى زمان محذوف، وظاهرًا إلى جملة مقدرة بحدث، لا بدَّ أن يكون بمعنى: الزَّمان؛ فلهذا جاز إضافته إلى الجمل" (١).

بضع:

من الأسماء التي لا دلالة لها على الزمن إلا باعتبار ما أضيف إليها مما يدل عليه: (بضع). تقول: بِضْعٌ في العدد -بكسر الباء-، وبعض العرب يفتحها، وهو ما بين الثلاث إلى التسع. تقول: بضع سنين، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [يوسف:٤٢]. فقوله: ﴿بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾ منصوبٌ على الظرف الزماني.

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "تقول بضع سنين، وبضعة عشر رجلًا، فإذا جاوزت لفظ العشر لا تقول: بضع وعشرون" (٢).

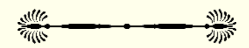
وقوله: "فإذا جاوزت لفظ العشر لا تقول: بضع وعشرون" يخالف ما جاء في الحديث من قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**صلاة الجماعة تفضل صلاة الواحد ببضع وعشرين**

(١) شرح الرضي على كافية ابن الحاجب (٣/١٩٦-١٩٧)، وانظر: همع الهوامع (٢/٢٠٣-٢٠٨)، حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك (٢/٣٨٢).

(٢) الصحاح، للجوهري، مادة: (بضع) (٣/١١٨٦).

درجة» قاله ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ [(١)]. وقال: "البضع في العدد -بالكسر-، وقد يفتح، ما بين الثلاث إلى التسع. وقيل: ما بين الواحد إلى العشرة؛ لأنه قطعة من العدد اهـ"، ولأهل اللغة أقوال في (البضع): فقيل: ما بين الثلاث إلى التسع، أو إلى الخمس، أو ما لم يبلغ العقد ولا نصفه، يعني: ما بين الواحد إلى الأربعة. وقيل: غير ذلك [(٢)].

كل وبعض :



من الأسماء التي لا دلالة لها على الزمن إلا باعتبار ما أضيف إليها مما يدل عليه: (كل) و(بعض). تقول: (مشيت كل النهار، وبعض الليل). فلفظ: (كل) دل على كلية الظرف، و(بعض) على جزئيته.

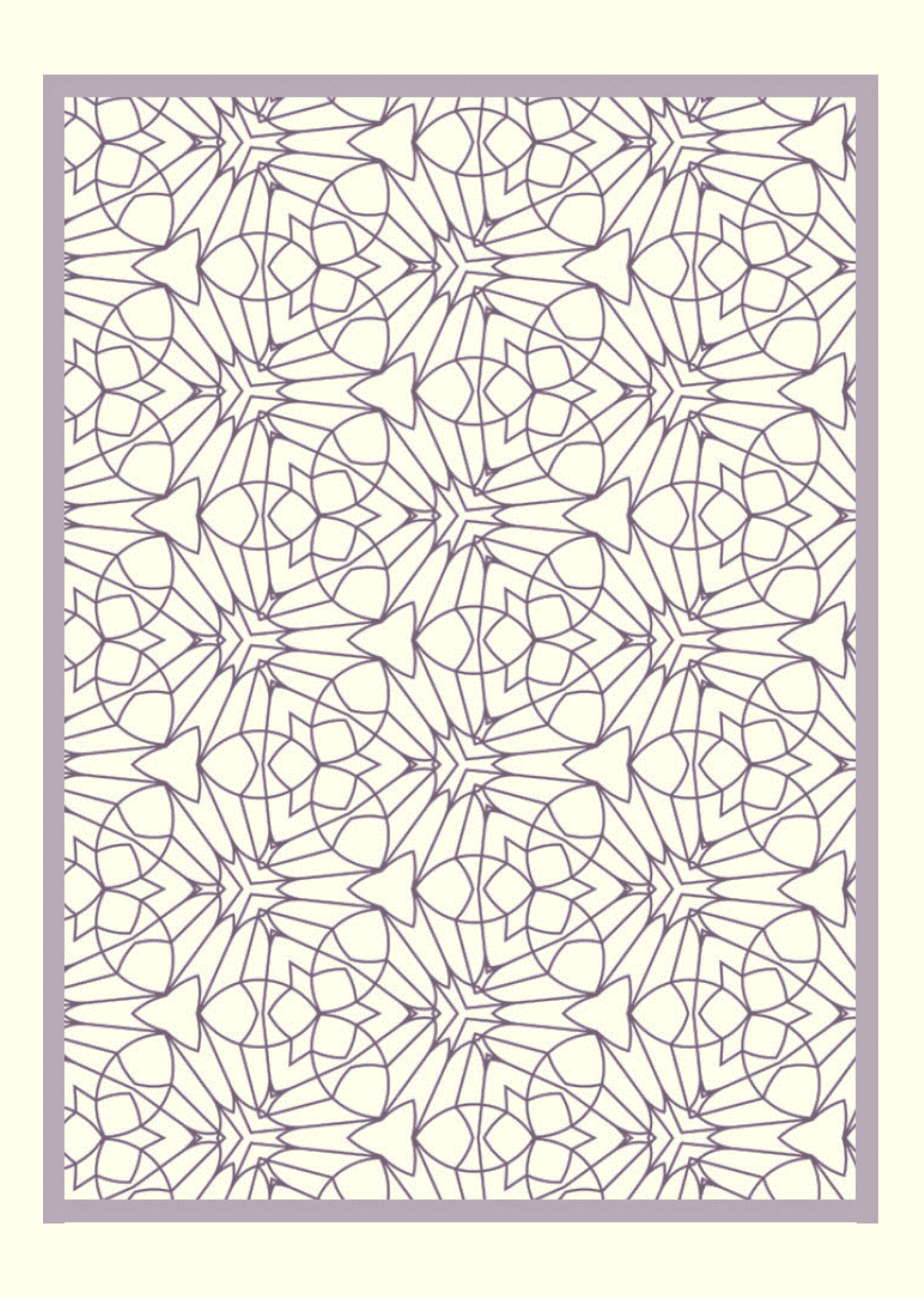
و(كل) لفظه واحد ومعناه جمع. فعلى هذا تقول: كُلٌّ حضر، وكُلٌّ حضروا، على اللفظ مرة، وعلى المعنى أخرى. و(كل) و(بعض) معرفتان، ولم يَجِئْ عن العرب بالألف واللام، وهو جائز؛ لأن فيهما معنى: (الإضافة) أَضَفْتَ أو لم تُضِفْ [(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم [٦٥٠]: عن ابن عمر. وابن خزيمة [١٤٧٢، ١٤٩٠]: عن أبي هريرة. وقال ابن خزيمة: "«بضع» كلمة مجملة؛ إذ البضع يقع على ما بين الثلاث إلى العشر من العدد، وبين عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في خبر ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنها تفضل بخمس وعشرين، ولم يقل: لا تفضل إلا بخمس وعشرين، وأعلم في خبر ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنها تفضل بسبع وعشرين درجة".

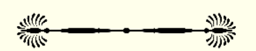
(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (بضع) (١/١٣٣-١٣٤)، وانظر ما قيل في (البضع) في (مجاز القرآن)، لأبي عبيدة (٢/١١٩)، معاني القرآن، للفراء (٢/٤٦)، تهذيب اللغة (١/٣٠٩)، غريب القرآن، لابن قتيبة (ص:٢١٧)، الدر المصون (٦/٥٠٠).

(٣) الصحاح، للجوهري، مادة: (كلل) (٥/١٨١٢)، معجم ديوان الأدب (٣/٢٢).



المبحث الحادي والعشرون
الدلالة على الزمان
باعتبار الشرط والاستفهام

متى وأيان:



جاء في (شرح المفصل): "وأما (متى)، فسؤال عن زمان مبهم، يتضمن جميع الأزمنة، فإذا قيل: (متى الخروج؟)، فتقول: (اليوم، أو الساعة، أو غدًا). والمراد بها الاختصار، وذلك أنك لو سألت إنسانًا عن زمن خروجه، لكان القياس: (اليوم تخرج، أم غدًا، أم الساعة؟)، والأزمنة أكثر من أن يحاط بها، فإذا قلت: (متى) أغنى عن ذكر ذلك كله. وهي مبنية على السكون؛ لأنها وقعت موقع حرف الاستفهام، وهو الألف، وأصل الاستفهام بحروف المعاني [(١)]، وبنيت على السكون على أصل البناء، ولم يلتق في آخرها ساكنان، فيجب التحريك لذلك" [(٢)].

ولم ترد (متى) في القرآن إلا للمستقبل، ولم تأت إلا خبرًا للمبتدأ. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٨﴾ [يونس:٤٨].

---

(١) "أصل الاستفهام بحروف المعاني؛ لأنها آلة، إذا دخلت في الكلام أعلمت أن الخبر استخبار.." الأصول في النحو، لابن السراج (١٣٥/٢).

(٢) شرح المفصل، لابن يعيش (١٣٣/٣).

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢١٤].

قال أبو العباس المبرد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "(متى) سؤال عن زمان" [١]. قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (متى) ظرف غير متمكن، وهو سؤال عن زمان، ويجازى به.

الأصمعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (متى) في لغة هذيل قد تكون بمعنى: (مِنْ).

وأنشد لأبي ذؤيب:

شَـرِبْـنَ بـمـاء الـبـحـر ثُمَّ تَرَفَّعَتْ   متى لُجَـجٍ خُـضْـرٍ لَهُـنَّ نَئيجُ [٢]

أي: من لجج. وقد تكون بمعنى: وسط. وسمع أبو عبيد بعضهم يقول: وضعته متى كمي، أي: وسط كمي[٣]، أي: وسط كمي، أو في كمي. وإذا كانت بمعنى: (وسط) فهي اسم، أو (من) فحرف، جزم به ابن هشام رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره. ولا يجوز: متى زيد؛ لأن الزمان لا يكون خبرًا عن الجثة [٤].

---

(١) المقتضب (٣/٢٨٩)، وانظر: اللمع في العربية (ص:٢٢٨)، الإنصاف في مسائل الخلاف (٢/٥٢٩).

(٢) أي: من لجج في لغة هذيل، و(اللجج): جمع لجة -بضم اللام-، وهي معظم الماء، و(النئيج) -بفتح النون وكسر الهمزة وسكون الياء آخر الحروف وبالجيم-: المر السريع مع الصوت. يقال: إن السحاب في بعض الأماكن يدنو من البحر الملح، فيمتد منها خراطيم عظيمة تشرب من مائه، فيكون لها صوت عظيم مزعج، ثم تذهب صاعدة إلى الجو، فيلطف ذلك الماء ويعذب بإذن الله عَزَّوَجَلَّ في زمن صعودها وترفعها، ثم يمطر حيث يشاء الله جَلَّ وَعَلَا" شرح التصريح (١/٦٣٠-٦٣١). والشاهد فيه قوله: (بماء) فالباء زائدة، وقيل: هي بمعنى: (من) أي: شربن من ماء البحر. انظر: الصاحبي في فقه اللغة العربية (ص:١٢٨)، تهذيب اللغة (١٤/٢٤٥)، مقاييس اللغة (٥/٢٩٦)، المخصص (٤/٢٤٢)، شرح الكافية الشافية (٢/٧٨٤)، أوضح المسالك (٣/٥)، شرح ابن عقيل (٣/٦)، شرح الأشموني (٢/٦٢)، همع الهوامع (٢/٤٦٠)، شرح تسهيل الفوائد (٣/١٨٦)، أدب الكاتب (ص:٥١٥).

(٣) الصحاح، للجوهري، مادة: (متى) (٦/٢٥٥٦).

(٤) انظر: شرح الرضي على كافية ابن الحاجب (٣/٢٠٤)، مغني اللبيب (ص:٤٤١)، المخصص (٤/٢٤٠). همع الهوامع (٢/٤٦٠).

قال ابن فارس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "(مَتَى) سؤالٌ عن وقت، تقول: (متى يخرجُ زيد).

و(متى) يكون شرطًا يقتضي التكرار. تقول: (متى كلمتُ زيدًا فعلى كذا) سمعت عليًّا يقول: سمعت ثعلبًا يقول ذلك.

فأما (متى) التي في لغة هُذَيْل فليست من هذا؛ لأنهم يقولون: (وضعتُه متى كُمِّي)، يريدون: الوسَط" [١].

وقال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "و(متى) و(أين) يتضمنان معنى الاستفهام ومعنى الشرط، تقول: متى كان ذاك؟ ومتى يكون؟ ومتى تأتني أكرمك؟ وأين كنت؟ وأين تجلس أجلس؟ ويتصل بهما (ما) المزيدة، فتزيدهما إبهامًا. والفصل بين (متى) و(إذا): أن (متى) للوقت المبهم، و(إذا) للمعين" [٢].

و(أيان) بمعنى: (متى) إذا استفهم بها.

و(أيان) معناه: أَيُّ حِينٍ، وهو سؤال عن زمان، مثل: (متى). قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ [الأعراف:١٨٧]. و(إيان)، بكسر الهمزة: لغة سليم، حكاها الفراء رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]. وبه قرأ السُّلَمِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿إِيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ [النحل:٢١]" [٤]. و﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ أي: متى إرساؤها، يعني: إقامتها وإثباتها، أو منتهاها، ومستقرها [٥].

---

(١) الصاحبي في فقه اللغة العربية (ص:١٢٨).

(٢) المفصل في صنعة الإعراب (ص:٢١٦).

(٣) انظر: معاني القرآن، للفراء (٩٩/٢)، المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، لابن جني (٢٦٨/١)، إعراب القرآن، لأبي جعفر النحاس (٢٤٩/٢)، البحر المحيط في التفسير (٥١٨/٦)، غريب القرآن، للسجستاني (ص:٦٠)، روح المعاني (٣٦٢/٧).

(٤) الصحاح، للجوهري، مادة: (أين) (٢٠٧٦/٥).

(٥) انظر: تفسير البيضاوي (٢٨٥/٥)، الكليات (ص:٢٢٥).

و(أيان): اسم استفهام للزمان المستقبل، أو يقال: هو اسم زمان مبني على الفتح، وهو بفتح الهمزة، و(سليم) تكسرها.

قال ابن فارس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "(أيَّانَ) بمعنى: (متى) و(أي حين). قال بعض العلماء: نُرى أصلها: (أيَّ أوان)، فحذفت الهمزة، وجعلت الكلمتان واحدة" (١).

قال الرضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "و(أيان) للزمان، استفهاما كـ: (متى) الاستفهامية، إلا أن (متى) أكثر استعمالًا.

وأيضًا (أيان) مختص بالأمور العظام، نحو قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ﴾ [الأعراف:١٨٧]، و﴿أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٢﴾ [الذاريات:١٢]، ولا يقال: (أيان نمت).

وتختص (أيان) في الاستفهام بالمستقبل،

بخلاف (متى)؛ فإنه يستعمل في الماضي والمستقبل.

ولفظها يوحي بالاستبطاء، فقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ﴾ يوحي أنهم يستبطئون يومها، ونحوه: ﴿يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ٦﴾ [القيامة:٦]" (٢).

وفي (التخمير): "الفرق بين (متى) و(أيان) من وجهين:

أحدهما: كثرة استعمال (متى)؛ لخفته، حتى صار أظهر من (أيان)، فصلح أن يفسر (أيان) بـ: (متى)، ولا ينعكس.

---

(١) الصاحبي في فقه اللغة العربية (ص:١٠١)، وانظر: شرح المفصل في صنعة الإعراب الموسوم بالتخمير، للقاسم بن الحسين (٢/٢٨٥)، فقه اللغة، للثعالبي (ص:٢٥٠).

(٢) انظر: شرح الرضي على كافية ابن الحاجب (٣/٢٠٤- ٢٠٥).

والآخر: أن في (أيان) تفخيم الشأن؛ لأنها تستعمل في مواطن التفخيم، كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝٦﴾ [القيامة:٦]" (١).

وفي (الهمع): "(متى) و(أيان) ظرفا زمان للعموم، نحو: متى تقم أقم، وأيان تقم أقم.." (٢).

و(أيان) اسم زمان يستفهم به عن المستقبل.

*- وقد جاءت خبرًا للمبتدأ، كما في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ﴾ [الأعراف:١٨٧].

فقوله: ﴿مُرۡسَىٰهَاۖ﴾ مبتدأ مؤخر، و﴿أَيَّانَ﴾ الخبر، وهو ظرف مبني على الفتح بمعنى: (متى) متعلق بمحذوف خبر مقدم، وإنما بني؛ لتضمنه معنى: الاستفهام الذي هو للحرف، فلما قام مقام الحرف، واستفهم به بني كما يبنى الحرف، وبني على حركة؛ لسكون ما قبل الآخر (٣).

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَسۡـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٢﴾ [الذاريات:١٢].

فـ: ﴿أَيَّانَ﴾ اسم استفهام في محل نصب ظرف زمان، وهو متعلق بمحذوف خبر مقدَّم. و﴿يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٢﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة في محل نصب مفعول ﴿يَسۡـَٔلُونَ﴾.

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝٦﴾ [القيامة:٦]. فـ: ﴿أَيَّانَ﴾ اسم استفهام في محل نصب على الظرفية الزمانية، وهو متعلق بمحذوف في محل رفع خبر مقدَّم، و﴿يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝٦﴾ مبتدأ مؤخر.

---

(١) شرح المفصل في صنعة الإعراب الموسوم بالتخمير، للقاسم بن الحسين (٢/٢٨٥)، وانظر: شرح المفصل، لابن يعيش (٣/١٣٥-١٣٦).

(٢) انظر: همع الهوامع (٢/٥٤٦).

(٣) انظر: مشكل إعراب القرآن، لمكي (١/٣٠٦)، (٢/٧٩٩-٨٠٠).

*- ويأتي (أيان) في محل نصب على الظرفية، كما في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [النمل:٦٥]. فـ: ﴿أَيَّانَ﴾ لـ: ﴿يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ فهو متعلق به.

قال أبو البقاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "﴿أَيَّانَ﴾: منصوب بـ: ﴿يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾، لا بـ: ﴿يَشْعُرُونَ﴾" (١).

لم ولما والأدوات الجازمة:

حروف الجزم خمسة: (لم، ولما، ولام الأمر، ولا في النهي، وحرف الشرط)، تقول: (لم يقم زيد، ولما يقم زيد)، وفي الأمر: (ليقم زيد)، وفي النهي: (لا يقم عمرو) (٢).

قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بـ: (لا) و(لام) طالبًا ضع جزمًا ... في الفعل هكذا بـ: (لم) و(لما)

واجزم بـ: (إن) و(من) و(ما) و(مهما) ... (أي) (متى) (أيان) (أين) (إذما)

و(حيثما) (أنى) وحرف (إذما) ... كـ: (إن) وباقي الأدوات أسما(٣)

الأدوات الجازمة للمضارع على قسمين:

أحدهما: ما يجزم فعلا واحدًا:

وهو (اللام) الدالة على الأمر، نحو: ليقم زيد، أو على الدعاء، نحو: ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف:٧٧].

---

(١) التبيان في إعراب القرآن (٢/٧٩٢).

(٢) انظر: اللمع في العربية (ص:١٣٢).

(٣) ألفية ابن مالك (ص:٨٥).

و(لا) الدالة على النهي، نحو: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة:٤٠]، أو على الدعاء، نحو: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ﴾ [البقرة:٢٨٦].

و(لم) و(لما)، وهما للنفي، ويختصان بالمضارع، ويقلبان معناه إلى المضي، نحو: (لم يقم زيد)، و(لما يقم عمرو)، ولا يكون النفي بـ: (لما) إلا متصلًا بالحال.

والثاني: ما يجزم فعلين:

وهو (إن)، و(من)، و(ما)، و(مهما)، و(أي)، و(متى)، و(أيان)، و(أينما)، و(إذ ما)، و(حيثما)، و(أنى).

وهذه الأدوات التي تجزم فعلين كلها أسماء إلا (إن) و(إذ ما)؛ فإنهما حرفان، وكذلك الأدوات التي تجزم فعلًا واحدًا كلها حروف [(١)].

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "و(لم) حرف نفي لما مضى. تقول: لم يفعل ذاك، تريد: أنه لم يكن ذلك الفعل منه فيما مضى من الزمان. وهي جازمة. وحروف الجزم: (لَمْ، ولَمَّا، وأَلَمْ، وأَلَمَّا)..." [(٢)].

وفي (شرح المفصل)، لابن يعيش رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأما (لما) فظرف زمان إذا وقع بعده الماضي، نحو قولك: (جئت لما جئت). ومعناه معنى: (حين)، وهو الزمان المبهم. وهو مبني؛ لإبهامه، واحتياجه إلى جملة بعده، كبناء (إذ) و(إذا). وهو مركب من (لم) النافية، و(ما)، فحصل فيها بالتركيب معنى لم يكن لها، وهو الظرفية. وخرجت بذلك إلى حيز

---

(١) انظر: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (٤/٢٦-٣١)، توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك (٣/١٢٦٥-١٢٦٧).

(٢) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (لمم) (٥/٢٠٣٣).

الأسماء، فاستحالت بالتركيب من الحرفية إلى الاسمية، كما استحالت (إذ) بدخول (ما) عليها من الاسمية إلى الحرفية، وتغير معناها بالتركيب من المضي إلى الاستقبال" (١).

وأدوات الجزم ثلاثة أقسام:

الأول: ما يقلب زمن المضارع إلى ماض، وهي: (لم) و(لما).

الثاني: ما يقلبه إلى الأمر، وهي (لام الأمر)، و(لا الناهية)؛ إذ إن لا الناهية أمر بالترك.

الثالث: أدوات الشرط، وهي أدوات تقوم بربط الجمل، لغرض تعليق حصول شيء بحصول شيء آخر.

قال أبو العباس المبرد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومعنى الشرط وقوع الشيء؛ لوقوع غيره، فمن عواملها من الظروف: (أين، ومتى، وأنى، وحيثما).

ومن الأسماء: (من، وما، وأي، ومهما).

ومن الحروف التي جاءت لمعنى: (إن، وإذما).

وإنما اشتركت فيها الحروف والظروف والأسماء؛ لاشتمال هذا المعنى على جميعها فحرفها في الأصل (إن)، وهذه كلها دواخل عليها؛ لاجتماعها، وكل باب فاصله شيء واحد، ثم تدخل عليه دواخل؛ لاجتماعها في المعنى.." (٢).

قال أبو الفتح ابن جني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وحرف الشرط المستولي عليه: (إن)، وتشبه به أسماء وظروف، فالأسماء: (من، وما، وأي، ومهما)، والظروف: (أين، ومتى، وأي حين، وأنى، وحيثما، وإذما)" (٣).

---

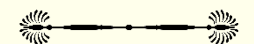
(١) شرح المفصل، لابن يعيش (٣/١٣٥-١٣٦).

(٢) المقتضب (٢/٤٦).

(٣) اللمع في العربية (ص:١٣٣).

وفي (علل النحو): "اعلم أن أصل حروف المجازاة (إن) ، وإنما وجب أن تكون الأصل، لأنها لا تخرج عن الجزاء، ولا تختص بالاستعمال في بعض الاشياء دون بعض، وسائر ما يجازى به سواها قد يخرج من باب الجزاء إلى غيره" [١].

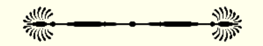
إذا :



ظرف لما يستقبل من الزمان متضمن معنى الشرط مبني على السكون، وتختص بالدخول على الجملة الفعلية -كما تقدم-.

وتأتي ظرفية محضصة غير متمخضة معنى الشرط، ويتنوع استعمالها في القرآن الكريم باعتبار ما وليها، وقد تقدم بيان ذلك.

كلما :



(كلما) أداة شرط غير جازمة، وهي تفيد التكرار، وتُستخدم للدلالة على ظرف زمان، وهي مركبة من (كل)، و(ما) المصدرية، أو النكرة التي بمعنى: (وقت)، ومن هنا جاءتها الظرفية، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ [البقرة:٢٥]، فإما أن يكون الأصل: كل رزق، ثم عبر عن معنى المصدر بـ: (ما) والفعل، ثم أنبأ عن الزمان، أي: كل وقت رزق، كما أنيب عنه المصدر الصريح في (جئتك

---

(١) انظر: علل النحو، لابن الوراق (ص:٤٣٥).

خفوق النجم)[١]، أو يكون التقدير: كل وقت رزقوا فيه، فحذف العائد، ولا يحتاج في هذا إلى تقدير: (وقت). (وناصبة) الفعل الذي هو جوابه في المعنى، مثل: ﴿قَالُواْ﴾ في الآية. قال أبو حيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولا يكون تاليه وجوابه إلا فعلًا ماضيًا" [٢].

وفي (المغني): "﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ﴾ منصوبة على الظرفية باتفاق، وناصبها الفعل الذي هو جواب في المعنى، مثل: ﴿قَالُواْ﴾ في الآية وجاءتها الظرفية من جهة (ما).." [٣].

و(ما) اسم بمعنى: الحين عند ابن الشجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا ٩٧﴾ [الإسراء:٩٧]، ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا﴾ [النساء:٥٦]، ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ﴾ [البقرة:٢٠] [٤]، أي: في كلِّ حين خبت، وفى كل حين نضجت جلودهم، وفى كلِّ حين أضاء لهم.." [٥].

وفي (شرح الرضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ): "وكل ما قلناه في (بينما) يطرد في (كلما)، من مجيء (ما) الكافة؛ لتكفه عن طلب مضاف إليه مفرد، ومن تقدير زمان مضاف إلى الجمل،

---

(١) تقول: (كان ذلك خفوق النجم، وطلوع الثريا)، أي: وقت خفوق النجم، ووقت طلوع الثريا، وكثرته تقتضي القياس عليه، وقد تقدم بيانه.

(٢) همع الهوامع (٢/٦٠٠-٦٠١)، وانظر: البحر المحيط في التفسير (١/١٨٤).

(٣) انظر ذلك في (مغني اللبيب)، لابن هشام (ص:٢٦٦).

(٤) قال الشيخ شهاب الدين: "(كل) نصب على الظرفية؛ لأنها أضيفت إلى (ما) الظرفية، والعامل فيها جوابها، وهو ﴿مَّشَوۡاْ﴾. وقيل: (ما) نكرة موصوفة، ومعناها: الوقت أيضًا، والعائد محذوف، تقديره: كل وقت أضاء لهم فيه، فأضاء على الأول لا محل له؛ لكونه صلة، ومحله الجر على الثاني. قال: واعلم أن (كلًّا) من ألفاظ العموم، وهو اسم جمع لازم للإضافة، وقد يحذف ما يضاف إليه" انظر ذلك في (الدر المصون) (١/١٧٩-١٨٠).

(٥) أمالي ابن الشجري (٢/٥٥٤-٥٥٥).

فـ: (كلما) إذن زمان مضاف إلى الجملة؛ لأن كلًّا وبعضًا، من جنس ما يضافان إليه، زمانًا كان أو مكانًا، أو غيرهما؛ ولما في (كلما) من معنى العموم والاستغراق، الذي يكون في كلمات الشرط، نحو: (من، وما، ومتى)، شابهها أكثر من مشابهة (بينما)، فلم يدخل إلا على الفعلية بخلاف: (بينا، وبينما).." [١].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ٨﴾ [الملك:٨].

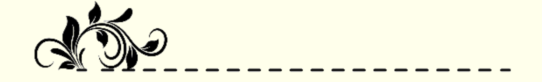
فقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿كُلَّمَآ﴾ أداة شرط غير جازمة، و﴿أُلْقِيَ﴾ ماض مبني للمجهول، و﴿فِيهَا﴾ جار ومجرور متعلقان بالفعل. و﴿فَوْجٌ﴾ نائب فاعل، والجملة في محل جر بالإضافة، و﴿سَأَلَهُمْ﴾ ماض ومفعوله، و﴿خَزَنَتُهَآ﴾ فاعله، والجملة جواب الشرط لا محل لها، ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ الهمزة للاستفهام التوبيخي، ومضارع مجزوم بـ: (لم)، والكاف مفعول به، و﴿نَذِيرٌ ٨﴾ فاعل، والجملة مفعول به ثان لـ: (سأل).

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ٧﴾ [نوح:٧].

فقوله: ﴿كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾ أداة شرط غير جازمة، وماض وفاعله ومفعوله، والجملة في محل جر بالإضافة. ﴿لِتَغْفِرَ﴾ مضارع منصوب بـ: (أن) مضمرة بعد لام التعليل، والمصدر المؤول من (أن) المضمرة والفعل في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بالفعل ﴿لَهُمْ﴾ متعلقان بالفعل (تغفر). و﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ﴾ ماض وفاعله ومفعوله، و﴿فِيٓ

(١) انظر ذلك في (شرح الرضي على كافية ابن الحاجب) (٣/١٩٧)، وانظر: دراسة (كلما) في القرآن الكريم، في (دراسات لأسلوب القرآن الكريم)، للشيخ محمد عبد الخالق عضيمة (٢/٣٧٦-٣٧٩).

ﵟءَاذَانِهِمْﵞ متعلقان بالفعل، وهما في موضع المفعول الثاني، والجملة الفعلية جواب الشرط لا محل لها، ونظائر ذلك في القرآن الكريم كثيرة.



خاتمة:

قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: يا ابن آدم إنما أنت أيام، فإذا ذهب يومك ذهب بعضك [1]. وإنك تستشعر هذه الحقيقة منذ أن خرجت إلى الدنيا وأنت في نقصان، يوم يهدم يومًا، وشهر يهدم شهرًا، وسنة تهدم سنوات، وأنت إلى الأجل تسير.

ترحَّل عن الدُّنيا بزادٍ من التُّقى فعمرك أيام وهنَّ قلائل

وقال آخر: الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما.

قال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**ابن آدم طأ الأرض بقدمك؛ فإنها عن قليل تكون قبرك، ابن آدم إنما أنت أيام فكلما ذهب يوم ذهب بعضك، ابن آدم إنك لم تزل في هرم عمرك منذ يوم ولدتك أمك**» [2].

وقال الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: "ويحك يا نفس، لا ينبغى أن تغرك الحياة الدنيا، ولا يغرنك بالله الغرور، فلا تضيعي أوقاتك؛ فالأنفاس معدودة، فإذا مضى منك نفس فقد ذهب

(١) الزهد، لأحمد [١٥٨٦]، حلية الأولياء (٢/١٤٨).

(٢) كلام الليالي والأيام، لابن أبي الدنيا [٢٤]، الزهد، لابن أبي الدنيا [٤٢٦]، شعب الإيمان [١٠١٨٠]، الزهد الكبير، للبيهقي [٥١١]، صفة الصفوة (١/٢٤٤).

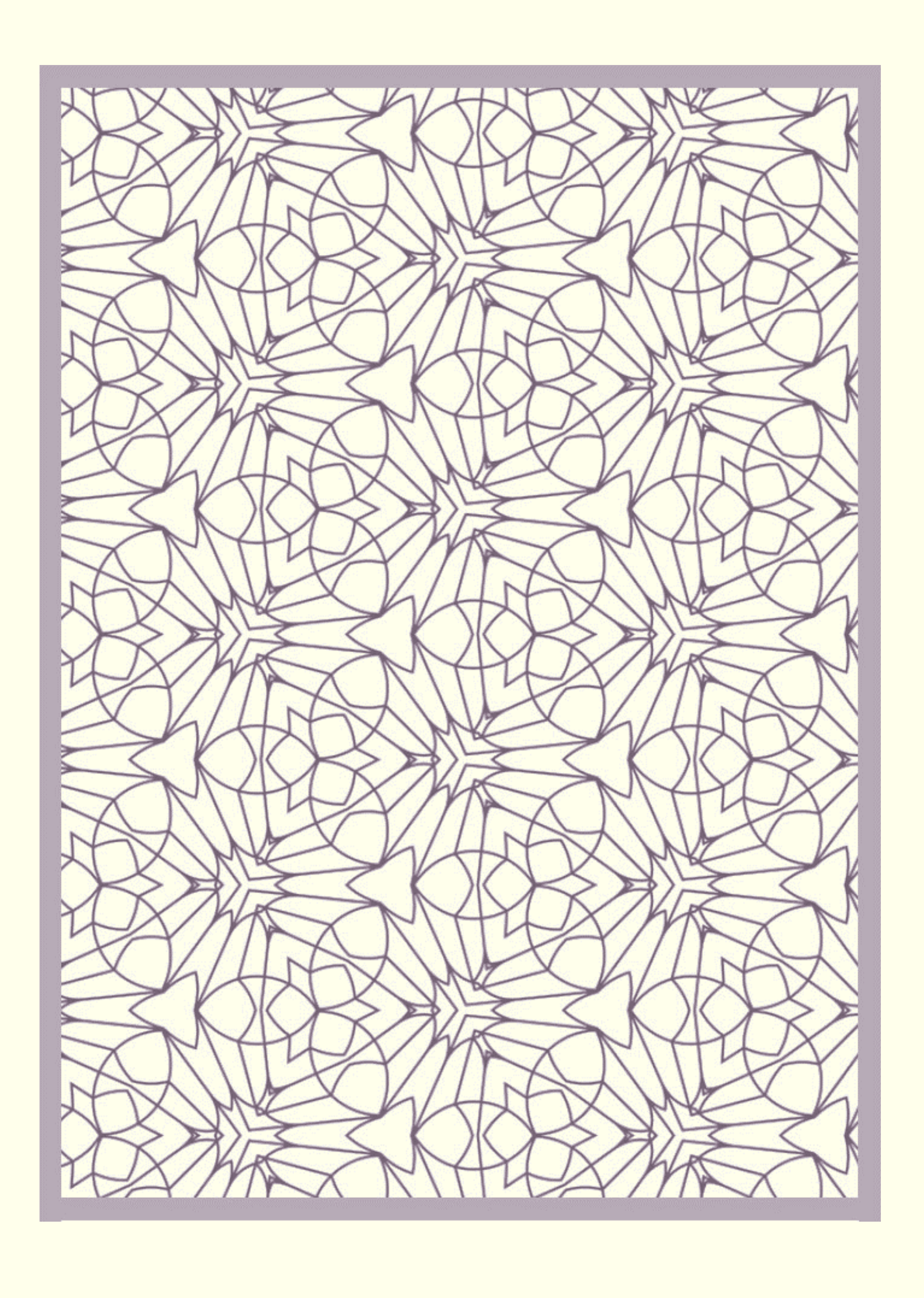
بعضك، فاغتنمي الصحة قبل السقم، والفراغ قبل الشغل، والغنى قبل الفقر، والشباب قبل الهرم والحياة قبل الموت، واستعدي للآخرة على قدر بقائك فيها" [(١)].

الليل والنهار خزانتان، فما أودعتهما ادتاه، وإنهما يعملان فيك، فاعمل فيهما، جعلني الله عَزَّوَجَلَّ وإياكم من المراقبين للأوقات، وصلى الله وسلم وبارك على أشرف المخلوقات، والحمد لله أولًا وآخرًا.

وأكتفي بهذا القدر الذي يوضح لكل باحث في هذا الباب: طرق ومناهج البحث، فليُقَسْ ما لم أذكره على ما ذكرته، وفيما ذكر مقنع وإرشاد لمن تدبر.



(١) إحياء علوم الدين (٤/٤١٩).



جدول توضيحي لألفاظ الزمن الأكثر تداولًا في مصادر التشريع (على الترتيب المثبت في الكتاب):

الزمان الممتد والمحدود والمبهم وغير المبهم								
أبد	أجل	أزل	إقامة	أمة	أمد	تاريخ	تربص	ثوى
حقبة	حَوْل	حياة	حين	خلد وأخلد	دأب	دهر	سرمد	سكن
سِنٌّ وسَنَة	شهر	طبقة	عام	عدة	عكف	عمر	عَيْش	فترة
قرن	لبث	ليل ونهار	مدة وبرهة	مكث	وعد وموعد وميعاد	وقت وميقات	–	–
اليوم وأجزاء الوقت فيه								
اليوم (مقداره وبيان المراد منه)								
أجزاء الوقت في اليوم								
ساعة	دقيقة	لحظة	ثانية					
أسماء اليوم باعتبار الماضي والحاضر والمستقبل								
أمس	يوم	غد						
أجزاء اليوم وساعات الليل والنهار								
ألفاظ يحتاجها المفسر والفقيه مع بيان دلالاتها وما يتصل بها من أعمال								
إبكار وبكرة وتبكير	إسفار	آصال	آناء الليل	رواح وإدلاج	زلفة	سجو	السَّحَرُ وثلث الليل الآخر	سرح وأراح
سرى	شروق وغروب	شفق ووسق	صبح	صريم	ضحى	ظهر وبيان	عشاء وعشي	عصر

	وإشراق وبُلوج					المراد من الإبراد		
غدو وغدوة	غسق ووقب	غَلَس	فجر	فلق	مبيت وتبييت	مساء	ناشئة الليل	هجد
هجع	هَجِيرُ وهَاجِرَة							
أسماء وأفعال الزمن الحال والمقارب								
ارتداد الطرف	آنفًا	أوان وآن	لمح البصر					
دلالة أفعال المقاربة والشروع على الزمن المقارب								
أسماء الزمن المتجدد أو ما يغلب استعماله فى التجدد								
تارة	طوْر وأطوار وأخياف	فين	الْمَرُّ والمَرَّة					
الزمن الخاص بالمرأة								
قرء								
ما يغلب إطلاقه فى الاصطلاح الشرعى على ما يخص المرأة								
عدة	تربص							
أسماء السنة وبيان أجزائها								
أسماء السنة								
سنة	حول	عام						
أجزاء السنة								
يوم	أسبوع	شهر						
فصول السنة								
الربيع	الصيف	الخريف	الشتاء					
أيام الأسبوع								
السبت	الأحد	الاثنين	الثلاثاء	الأربعاء	الخميس	الجمعة		
ما جاء في الخميس والاثنين	تخصيص يوم الجمعة بالفضل							
دلالة الفعل وأقسامه								
دلالته على معنى مقترن بحدث وزمن								
أقسام الفعل ودلالة كل منها على الزمن								

الماضي			المضارع		الأمر		
المطلق	المنقطع	القريب	- التعريف -حروف المضارعة - معنى المضارعة		- الأمر مستَقْبَلٌ أبدًا - قد يراد به دوام ما حصل - يتوسع في دلالته على الزمن إلى معان أخرى		
					الاستقبال المطلق	الحال	الحاصل في الماضي
الاستقبال	احتمال المضي والاستقبال	الاستمرار	**الدلالة على الزمن:** (الحال أو الاستقبال)		المستمر	غير مقيد بزمن	- التعريف - الحكم - الصيغ - الخروج عن المعنى الأصلي
			خروجه إلى الإنشاء (الدعاء- الأمر -النهي)				
			مشارفة وقوع الفعل	إرادة الفعل			

دلالة النواسخ الفعلية على الزمان
دلالة الحال في اللغة على الزمان
أقسام الحال

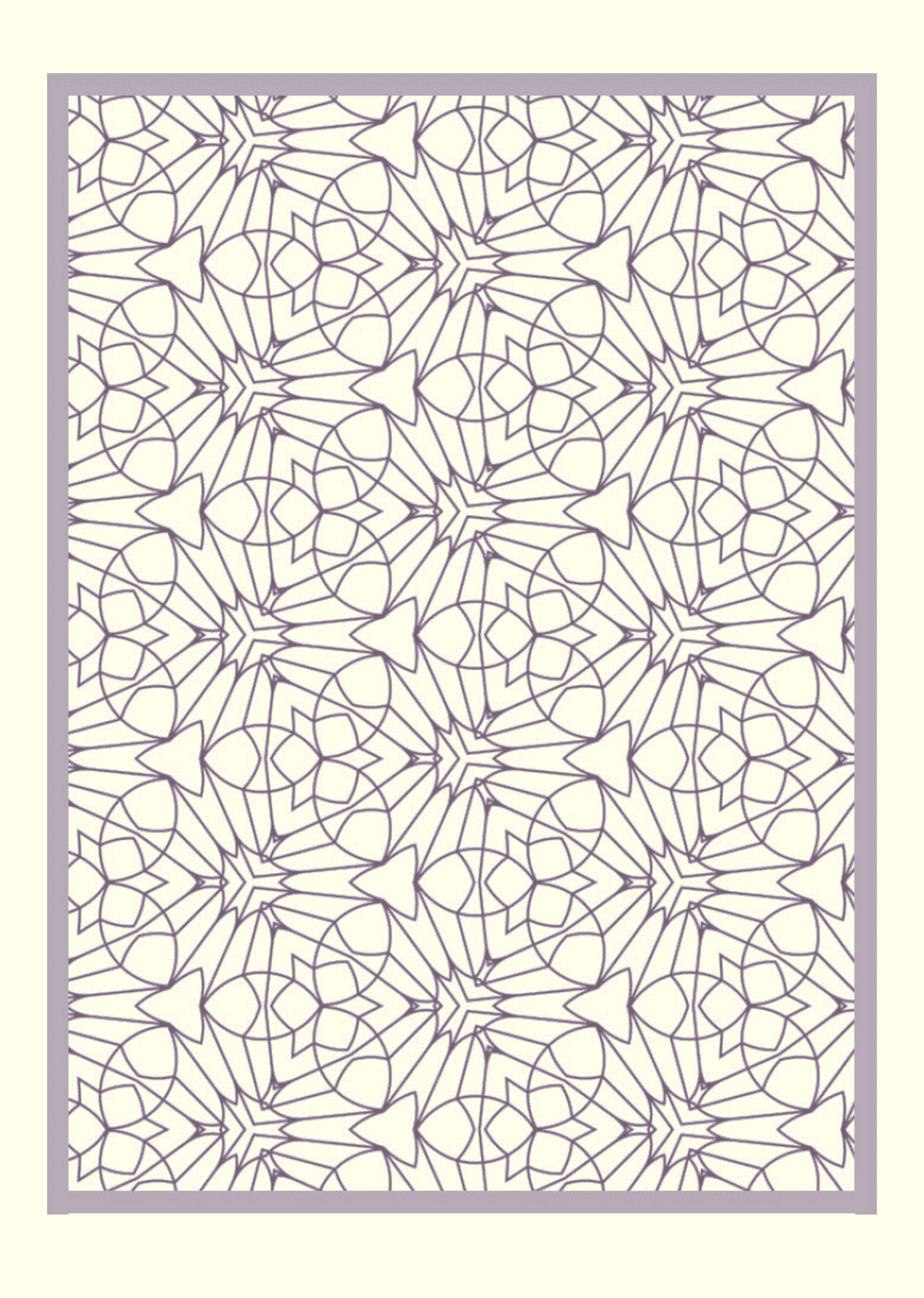
مؤكده	غير مؤكده

أقسام الحال بالنسبة للزمان		
المقارنة	المقدرة	المحكية

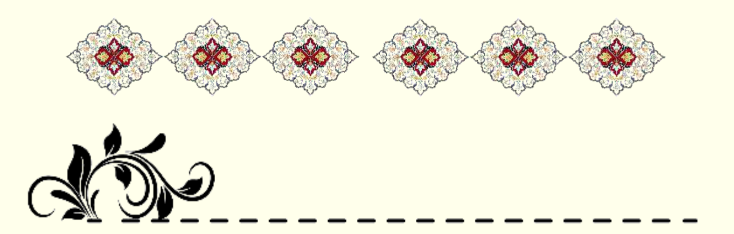
دلالة اسم الزمان والظرف في اللغة
الدلالة على الزمن باعتبار الإضافة والقطع عنها

حيث وإذ وإذا	لدن ومع	عند ولدى	قبل وبعد	حين	ساعة	بين وبينا وبينما	بضع	كل وبعض

الدلالة على الزمان باعتبار الشرط والاستفهام			
متى وأيان	لم ولما والأدوات الجازمة	إذا	كلما



فهرس المـوضـوعـات



فهرس المصادر والمراجع

١) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، ط١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة [١٣٩٤هـ].

٢) إتمام الدراية لقراء النقاية، للسيوطي، تحقيق: د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان، د. عبد الرقيب صالح الشامي، وفضيلة الشيخ مصطفى محمود سليخ، دار الضياء، الكويت [١٤٣٧هـ].

٣) إحكام الإحكام شرح عمدة الأحكام، لابن دقيق العيد، مطبعة السنة المحمدية، بدون تاريخ.

٤) الأحكام الشرعية الكبرى، لابن الخراط عبد الحق الإشبيلي، ط: ١، دار الرشد، الرياض [١٤٢٢هـ].

٥) أحكام القرآن، لأبي بكر بن العربي، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٤هـ].

٦) أحكام القرآن، للإمام الشافعي، جمع البيهقي، ط:٢، مكتبة الخانجي، القاهرة [١٤١٤هـ].

٧) أحكام القرآن، للكيا الهراسي الشافعي، ط:٢، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٥هـ].

٨) إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، دار المعرفة، بيروت.

٩) الاختيارين، للأخفش الأصغر، دار الفكر المعاصر، بيروت [١٤٢٠هـ].

١٠) أدب الكاتب، لابن قتيبة، مؤسسة الرسالة، بيروت.

١١) الأذكار، للإمام النووي، دار الفكر، بيروت [١٤١٤هـ].

١٢) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، لأحمد بن محمد القسطلاني، المطبعة الأميرية، مصر [١٣٢٣هـ].

١٣) إرشاد الفحول، لمحمد بن علي الشوكاني، دار الكتاب العربي [١٤١٩هـ].

١٤) الإرشاد إلى أسباب النَّجاة، والوسائل النَّاجعة لحياةٍ طيبّة نافعة، للدكتور عبد القادر محمد المعتصم دهمان، ط:١، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤٥هـ].

١٥) الإرشاد الى قواطع الادلة في أصول الاعتقاد، لإمام الحرمين الجويني، دار السعادة، مصر [١٣٦٩هـ].

١٦) الإرشادات المنهجية إلى تفسير الآيات الكونية، للدكتور عبد القادر محمد المعتصم دهمان، ط:١، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤١هـ].

١٧) الأزمنة والأمكنة، لأبي علي أحمد بن محمد المرزوقي الأصفهاني، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٧هـ].

١٨) الأزمنة وتلبية الجاهلية، لأبي علي محمد بن المستنير، الشهير بقُطْرُب، ط:٢، مؤسسة الرسالة [١٤٠٥هـ].

١٩) أساس البلاغة، لمحمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان [١٤١٩هـ].

٢٠) أساليب الخطاب في القرآن لكريم، للدكتور عبد القادر محمد المعتصم دهمان، وزارة الأوقاف، الوعي الإسلامي، الإصدار مائة وأحد عشر، غراس للنشر والتوزيع، الكويت [١٤٣٦هـ].

٢١) أساليب النداء في القرآن الكريم، دراسة تحليلية لآيات النداء تتناول (الأداة، والمنادَى، والمنادِي، وما ولي الأداة والمنادَى)، للدكتور عبد القادر محمد المعتصم دهمان، ط:١، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤١هـ]

٢٢) الاستذكار، لابن عبد البر، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢١هـ].

٢٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر، ط:١، دار الجيل، بيروت [١٤١٢هـ].

٢٤) أسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٥هـ].

٢٥) أسرار البلاغة، لعبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، من غير تاريخ.

٢٦) أسرار العربية، لأبي البركات الأنباري، دار الجيل، بيروت [١٩٩٥م].

٢٧) الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة المعروف بالموضوعات الكبرى، لعلي بن سلطان الملا الهروي القاري، دار الأمانة/مؤسسة الرسالة، بيروت.

٢٨) إسفار الفصيح، لأبي سهل محمد بن الهروي، ط:١، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة [١٤٢٠هـ].

٢٩) أسنى المطالب في شرح روض الطالب، لزكريا الأنصاري، دار الكتاب الإسلامي، بدون طبعة وبدون تاريخ.

٣٠) الإشارة والإيجاز في بعض أنواع المجاز، لعز الدين بن عبد السلام، دار الطباعة العامرة، القاهرة [١٣١٢هـ].

٣١) الأشباه والنظائر في النحو، للسيوطي، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٣٢) الاشتقاق، لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد، ط:٣، مكتبة الخانجي، القاهرة.

٣٣) الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٥هـ].

٣٤) الأصل المعروف بالمبسوط، لمحمد بن الحسن الشيباني، إدارة القرآن والعلوم الإسلامية، كراتشي.

٣٥) إصلاح المنطق، لابن السِّكِّيت، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت [١٤٢٣هـ].

٣٦) أصول البزدوي (كنز الوصول إلى معرفة الأصول)، لعلي بن محمد البزدوي الحنفي، مطبعة جاويد بريس، كراتشي.
٣٧) أصول السرخسي، لمحمد بن أحمد بن أبي سهل السرخسي أبو بكر، دار المعرفة، بيروت [١٣٧٢].
٣٨) أصول الشاشي، لأحمد بن محمد بن إسحاق الشاشي، دار الكتاب العربي، بيروت [١٤٠٢].
٣٩) الأصول في النحو، لابن السراج النحوي البغدادي، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٩٨٨].
٤٠) الأضداد، لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري، المكتبة العصرية، بيروت [١٤٠٧هـ].
٤١) أضواء البيان، لمحمد الأمين الشنقيطي، دار الفكر، بيروت [١٤١٥هـ].
٤٢) الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، لإبراهيم بن محمد بن عربشاه عصام الدين الحنفي، دار الكتب العلمية، بيروت.
٤٣) إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين، للدمياطي، دار الفكر [١٤١٨هـ].
٤٤) اعتراض الشرط على الشرط، لابن هشام، ط:، دار عمار، الأردن [١٤٠٦هـ].
٤٥) الاعتقاد، للبيهقي، ط:١، دار الآفاق الجديدة، بيروت [١٤٠١هـ].
٤٦) إعجاز القرآن، للباقلاني، دار المعارف، القاهرة.
٤٧) إعراب القرآن، لأبي جعفر النحاس، طبع عالم الكتب، بيروت [١٤٠٩هـ].
٤٨) أعلام الحديث، لأبي سليمان الخطابي، ط:١، جامعة أم القرى، مركز البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي [١٤٠٩هـ].
٤٩) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم الجوزية، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١١هـ].
٥٠) أعلام النبوة، لأبي الحسن الماوردي، دار ومكتبة الهلال، بيروت [١٤٠٩هـ].

٥١) الإعلام بفوائد عمدة الأحكام، لابن الملقن، ط:١، دار العاصمة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية [١٤١٧هـ].
٥٢) الأعلام، للزركلي، دار العلم للملايين [٢٠٠٢م].
٥٣) الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده، للأستاذ الدكتور محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة [١٩٦٨م].
٥٤) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لابن القيم، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية.
٥٥) الإفساد في الأرض، (صوره وأسبابه وسبل الوقاية منه في ضوء الكتاب والسنة)، للدكتور عبد القادر محمد المعتصم دهمان، ط:١، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤١هـ].
٥٦) الاقتصاد في الاعتقاد، للإمام الغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٤هـ].
٥٧) الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع، لشمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني، مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر، بيروت، من غير تاريخ.
٥٨) الإقناع في فقه الإمام أحمد بن حنبل، لموسى بن أحمد بن موسى بن سالم بن عيسى بن سالم الحجاوي المقدسي، ثم الصالحي، شرف الدين، أبو النجا، دار المعرفة بيروت، لبنان، بدون تاريخ.
٥٩) الإكسير في علم التفسير، للطوفي سليمان بن عبد القوي الطوفي الصرصري، مكتبة الآداب، القاهرة [١٣٩٧هـ].
٦٠) الإكليل على مدارك التنزيل وحقائق التأويل، لمحمد عبد الحق بن شاه الهندي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٣٣هـ].
٦١) الإكليل في استنباط التنزيل، للسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠١هـ].
٦٢) إكمال المعلم في شرح صحيح مسلم، للقاضي عياض، طبع دار الوفاء، المنصورة، مصر [١٤١٩هـ].

٦٣) ألفية ابن مالك في النحو والصرف، محمد بن عبد الله بن مالك، طبع دار القلم، بيروت، لبنان، بلا تاريخ.

٦٤) ألفية العراقي، ط:٢، دار المنهاج، الرياض [١٤٢٨هـ].

٦٥) الأم، للإمام الشافعي، دار المعرفة، بيروت [١٤١٠هـ].

٦٦) أمالي ابن الشجري، لأبي السعادات المعروف بابن الشجري، ط:١، مكتبة الخانجي، القاهرة [١٤١٣هـ].

٦٧) أمالي القالي، لإسماعيل بن القاسم القالي، ط:٢، دار الكتب المصرية [١٣٤٤هـ].

٦٨) الأمثال، لأبي عبيد القاسم بن سلام، ط١، دار المأمون للتراث [١٤٠٠هـ].

٦٩) الأمثال، للهاشمي، ط:١، دار سعد الدين، دمشق [١٤٢٣هـ].

٧٠) الإنصاف في التنبيه على المعاني والأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين في آرائهم، لابن السيد البطليوسي، ط:٣، دار الفكر، دمشق [١٤٠٧هـ].

٧١) الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين (البصريين والكوفيين)، لأبي البركات كمال الدين الأنباري، ط:١، المكتبة العصرية، بيروت [١٤٢٤هـ].

٧٢) الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، لعلاء الدين أبو الحسن علي بن سليمان المرداوي الدمشقي الصالحي الحنبلي، الطبعة الثانية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.

٧٣) أنوار البروق في أنواء الفروق، لأبي العباس شهاب الدين القرافي المالكي، عالم الكتب، بيروت، بدون طبعة وبدون تاريخ.

٧٤) أنوار الربيع في أنواع البديع، لابن معصوم، ط:١، مطبعة النعمان، النجف [١٣٨٨هـ].

٧٥) أنيس الفقهاء في تعريفات الألفاظ المتداولة بين الفقهاء، لقاسم بن عبد الله القونوي الرومي الحنفي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٤هـ].

٧٦) أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، لابن هشام الأنصاري، دار الجيل، بيروت [١٩٧٩].
٧٧) إيضاح المبهم من معاني السلم، للشيخ أحمد بن عبد المنعم الدمنهوري، الطبعة الثالثة، دار البصائر، القاهرة [١٤٣٤هـ].
٧٨) إيضاح المحصول من برهان الأصول، لأبي عبد الله محمد بن علي المازري ط:١، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
٧٩) الإيضاح شرح المفصل، لابن الحاجب، طبع وزارة الأوقاف العراقية [١٩٨٢م].
٨٠) إيضاح شواهد الإيضاح، لأبي علي الحسن القيسي، ط:١، دار الغرب الإسلامي، بيروت [١٤٠٨هـ].
٨١) الإيضاح في علوم البلاغة، لأبي المعالي، محمد بن عبد الرحمن القزويني، المعروف بخطيب دمشق، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٤هـ]. وطبعة دار الجيل، ط:٣، بيروت.
٨٢) البارع في اللغة، لأبي علي القالي، ط:١، مكتبة النهضة، بغداد، ودار الحضارة العربية، بيروت [١٩٧٥م].
٨٣) البحر الرائق شرح كنز الدقائق، لابن نجيم، ط:٢، دار الكتاب الإسلامي، بدون تاريخ.
٨٤) بحر الكلام، لميمون بن محمد النسفي، ط:٢، مكتبة دار الفرفور، دمشق [١٤٢١هـ].
٨٥) البحر المحيط في أصول الفقه، للزركشي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت [١٤١٣هـ].
٨٦) البداية والنهاية، لابن كثير، دار إحياء التراث العربي [١٤٠٨هـ].
٨٧) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، لأبي بكر بعلاء الدين بن مسعود بن أحمد الكاساني الحنفي، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٦هـ].

٨٨) بدائع الفوائد، لابن القيم، دار الكتاب العربي، بيروت.
٨٩) البدر المنير، لابن الملقن، ط:١، دار الهجرة، الرياض [١٤٢٥هـ].
٩٠) البديع في البديع، لأبي العباس عبد الله بن محمد المعتز، ط:١، دار الجيل [١٤١٠هـ].
٩١) البرهان في علوم القرآن، لأبي عبد الله الزركشي، ط١، عيسى البابي الحلبي وشركائه، القاهرة [١٣٧٦هـ].
٩٢) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، للفيروزآبادي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة [١٣٩٣هـ].
٩٣) البصائر والذخائر، لأبي حيان التوحيدي، ط:١، دار صادر، بيروت [١٤٠٨هـ].
٩٤) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، لعبد المتعال الصعيدي، ط١٧، مكتبة الآداب، القاهرة [١٤٢٦هـ].
٩٥) البلاغة الصافية في المعاني والبيان والبديع، لحسن بن إسماعيل بن حسن بن عبد الرازق الجناجي، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة [٢٠٠٦م].
٩٦) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، للأستاذ الدكتور محمد أبو موسى، ط:٢، مكتبة وهبة، القاهرة [١٤٠٨هـ].
٩٧) البناية شرح الهداية، لبدر الدين العيني، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان [١٤٢٠هـ].
٩٨) البهجة في شرح التُّحفة، لأبي الحسن التُّسُولي، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٨هـ].
٩٩) البيان في مباحث من علوم القرآن، للأستاذ الدكتور عبد الوهاب غزلان، كلية أصول الدين، جامعة الأزهر، القاهرة، مطبعة دار التأليف ٨ شارع يعقوب بالمالية.
١٠٠) البيان في مذهب الإمام الشافعي، لأبي الحسين يحيى بن أبي الخير العمراني اليمني، ط:١، دار المنهاج، جدة [١٤٢١هـ].

١٠١) البيان والتبيين، للجاحظ، ط:١، دار صعب، بيروت [١٩٦٨م].
١٠٢) التاج والإكليل لمختصر خليل، لمحمد بن يوسف بن أبي القاسم بن يوسف العبدري الغرناطي، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٦هـ].
١٠٣) تاريخ أبي زرعة الدمشقي، مجمع اللغة العربية، دمشق.
١٠٤) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، للذهبي، ط:٢، دار الكتاب العربي، بيروت [١٤١٣هـ]..
١٠٥) تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، دار الغرب الإسلامي، بيروت [١٤٢٢هـ].
١٠٦) تاريخ دمشق، لابن عساكر، ط:١، دار الفكر [١٤١٥هـ].
١٠٧) تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان [١٤٠١هـ].
١٠٨) التبصرة، لابن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٦هـ].
١٠٩) التبيان في آداب حملة القرآن، للإمام النووي، ط:٣، دار ابن حزم، بيروت [١٤١٤هـ].
١١٠) التبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء العكبري، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة.
١١١) التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم، طبعة دار المعرفة، بيروت.
١١٢) التبيان في المعاني والبيان، لشرف الدين، حسين بن محمد الطيبي، رسالة دكتوراه في كلية اللغة العربية (جامعة الأزهر)، إعداد: عبد الستار حسين مبروك زموط [١٣٩٧هـ].
١١٣) التبيان في أيمان القرآن، لابن القيم، ط١، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة [١٤٢٩هـ].
١١٤) التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن، لابن الزملكاني، ط:١، مطبعة العاني، بغداد [١٣٨٣هـ].
١١٥) تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، للزيلعي الحنفي، الطبعة الأولى، المطبعة الكبرى الأميرية بولاق، القاهرة [١٣١٣هـ].

١١٦) التحبير شرح التحرير في أصول الفقه، للمرداوي الحنبلي، ط:١، مكتبة الرشد، السعودية، الرياض [١٤٢١هـ].

١١٧) تحرير التحبير، لابن أبي الإصبع، الجمهورية العربية المتحدة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، لجنة إحياء التراث الإسلامي.

١١٨) تحرير ألفاظ التنبيه، للإمام النووي، ط:١، دار القلم، دمشق [١٤٠٨هـ].

١١٩) التحرير في أصول الفقه، لابن الهمام، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة [١٣٥١هـ].

١٢٠) التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية [١٩٨٤هـ].

١٢١) تحفة المحتاج في شرح المنهاج، لابن حجر الهيتمي، المكتبة التجارية الكبرى بمصر [١٣٥٧هـ].

١٢٢) تحقيق الفوائد الغياثية، لمحمد بن يوسف شمس الدين الكرماني، ط:١، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة [١٤٢٤هـ].

١٢٣) تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، لجلال الدين السيوطي، ط:١، دار طيبة، الرياض [١٤٢٧هـ].

١٢٤) التذكرة الحمدونية، لمحمد بن الحسن بن حمدون، ط:١، دار صادر، بيروت [١٤١٧هـ].

١٢٥) التذكرة الفخرية، للصاحب بهاء الدين الإربلي، ط١، دار البشائر، دمشق [١٤٢٥هـ].

١٢٦) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، لأبي عبد الله القرطبي، ط:١، دار المنهاج، الرياض [١٤٢٥هـ].

١٢٧) التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، لأبي حيان الأندلسي، ط:١، دار القلم، دمشق، ودار كنوز إشبيليا.

١٢٨) تراث أبي الحسن الْحَرَالِّي المراكشي في التفسير، ط:١، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط [١٤١٨هـ].

١٢٩) الترغيب والترهيب، للمنذري، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٧هـ].
١٣٠) التسهيل، لابن مالك، لمحمد بن عبد الله بن عبد الله الطائي الجياني الأندلسي، دار هجر [١٩٩٠م].
١٣١) تشنيف المسامع بجمع الجوامع، لأبي عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، ط:١، مكتبة قرطبة للبحث العلمي وإحياء التراث، توزيع المكتبة المكية [١٤١٨هـ].
١٣٢) تصحيح التصحيف، للصفدي، ط:١، مكتبة الخانجي، القاهرة [١٤٠٧هـ].
١٣٣) التصريح بمضمون التوضيح، لخالد الأزهري، طبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، وط:١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢١هـ].
١٣٤) التعريف والإعلام بما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام، لعبد الرحمن السهيلي، ط:١، مكتبة الأزهر الكبرى، القاهرة، الدراسة [١٣٥٦هـ].
١٣٥) التعريفات، للجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٣هـ].
١٣٦) التعليقة على كتاب سيبويه، لأبي علي الفارسي، ط:١، مطبعة الأمانة، مصر [١٤١٠هـ].
١٣٧) التعليقة على مقرب ابن عصفور في علم النحو، لابن النحاس، ط:١، وزارة الثقافة، الأردن، عمان [٢٠٠٤].
١٣٨) تفسير ابن عطية (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)، طبع دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٣هـ].
١٣٩) تفسير ابن فورك، من أول سورة المؤمنون آخر سورة السجدة، ومن أول سورة الأحزاب آخر سورة غافر، ومن من أول سورة نوح إلى آخر سورة الناس، ط:١، رسائل جامعية في (جامعة أم القرى)، مكة المكرمة [١٤٣٠هـ].
١٤٠) تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم)، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٤١) تفسير الإمام ابن عرفة، ط:١، مركز البحوث بالكلية الزيتونية، تونس [١٩٨٦م].
١٤٢) تفسير البحر المحيط، لأبي حيان، ط١، دار الفكر، بيروت [١٤٢٠هـ].
١٤٣) التفسير البسيط، لأبي الحسن الواحدي، النيسابوري، الشافعي، ط:١، عمادة البحث العلمي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية [١٤٣٠هـ].
١٤٤) تفسير البقاعي (نظم الدرر)، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٥هـ].
١٤٥) تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)، لناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر البيضاوي، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت [١٤١٨هـ].
١٤٦) التفسير التحليلي لسورة النساء، الأستاذ الدكتور إبراهيم عبد الرحمن خليفة، أستاذ ورئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر بالقاهرة، مطبعة الفجر الجديد [٤٤] شارع الكبارى منشية ناصر بالدراسة، القاهرة [١٤١٤هـ].
١٤٧) تفسير الثعالبي (الجواهر الحسان في تفسير القرآن)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.
١٤٨) تفسير الراغب الأصفهاني، ط:١، كلية الآداب، جامعة طنطا [١٤٢٠هـ].
١٤٩) تفسير الزمخشري (الكشاف)، ط٣، دار الكتاب العربي، بيروت [١٤٠٧هـ].
١٥٠) تفسير السمعاني، دار الوطن، الرياض [١٤١٨هـ].
١٥١) تفسير السيوطي (الدر المنثور)، جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت [١٩٩٣].
١٥٢) تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل القرآن)، لمحمد بن جرير الطبري، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤٢٠هـ].
١٥٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ط٢، دار طيبة للنشر والتوزيع [١٤٢٠هـ].
١٥٤) تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، دار الشعب، القاهرة [١٣٧٢].
١٥٥) تفسير القشيري (لطائف الإشارات)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر.

١٥٦) التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، لفخر الدين الرازي، ط٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت، مصورة عن النسخة الأصلية من المطبعة البهية المصرية [١٣٠٢هـ].
١٥٧) تفسير الماوردي (النكت والعيون)، لأبي الحسن الماوردي، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٥٨) تفسير النسفي، لأبي البركات عبد الله بن أحمد حافظ الدين النسفي، ط١، دار الكلم الطيب، بيروت [١٤١٩هـ].
١٥٩) تفسير النيسابوري (غرائب القرآن ورغائب الفرقان)، لنظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري، ط١، دار الكتب العلميه، بيروت [١٤١٦هـ].
١٦٠) تفسير سفيان الثوري، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٣هـ].
١٦١) تفسير عبد الرزاق، لأبي بكر عبد الرزاق بن همام الحميري اليماني الصنعاني، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٩هـ].
١٦٢) تفسير غريب ما في الصحيحين، لأبي عبد الله الحَمِيدي، ط:١، مكتبة السنة، القاهرة [١٤١٥هـ].
١٦٣) تفسير مقاتل بن سليمان، ط:١، دار إحياء التراث، بيروت [١٤٢٣هـ].
١٦٤) التفسير من سنن سعيد بن منصور، لأبي عثمان سعيد بن منصور الخراساني الجوزجاني، ط:١، دار الصميعي، الرياض [١٤١٧هـ].
١٦٥) تفسير يحي بن سلام، ليحيى بن سلام بن أبي ثعلبة، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٥هـ].
١٦٦) التفكير فريضة إسلامية، لعباس العقاد، دار نهضة مصر، الفجالة، القاهرة [٢٠٠٧م].
١٦٧) تقريب التهذيب، لابن حجر، ط:١، دار الرشيد، سوريا [١٤٠٦هـ].
١٦٨) التقرير والتحبير، لأبي عبد الله، المعروف بابن أمير حاج، ط:٢، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٣هـ].

١٦٩) تلخيص البيان في مجازات القرآن، للشريف الرضى، دار الأضواء، بيروت [١٩٨٦م].

١٧٠) التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير؛ لابن حجر، الطبعة الأولى، مؤسسة قرطبة، مصر [١٤١٦هـ].

١٧١) تلخيص المفتاح، للخطيب القزويني، ط:١، دار الفكر العربي، القاهرة [١٩٠٤].

١٧٢) التلخيص في أصول الفقه، لأبي المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني، دار البشائر الإسلامية، بيروت [١٤١٧هـ].

١٧٣) التلويح على التوضيح، لسعد الدين بن عمر التفتازاني، ط:١، المطبعة الخيرية للخشاب بمصر [١٣٢٢هـ]، وطبعة محمد علي صبيح، القاهرة [١٣٧٧هـ].

١٧٤) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، لابن عبد البر، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب [١٣٨٧هـ].

١٧٥) تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة، لابن عراق الكناني، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٣٩٩هـ].

١٧٦) تهذيب الأسماء، للنووي، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٧٧) تهذيب التهذيب، لابن حجر، دار الفكر، بيروت [١٤٠٤].

١٧٨) تهذيب الكمال في أسماء الرجال، للمزي، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤٠٠هـ].

١٧٩) تهذيب اللغة، لمحمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت [٢٠٠١م].

١٨٠) توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك، لبدر الدين حسن بن قاسم المرادي المصري المالكي، ط:١، دار الفكر العربي، القاهرة [١٤٢٨هـ].

١٨١) التوضيح لشرح الجامع الصحيح، لابن الملقن، ط:١، دار الفلاح ودار النوادر، دمشق [١٤٢٩هـ].

١٨٢) التوقيف على مهمات التعاريف، للعلامة المناوي، عالم الكتب، القاهرة [١٤١٠هـ].

١٨٣) تيسير التحرير، لمحمد أمين بن محمود البخاري المعروف بأمير بادشاه الحنفي، دار الفكر، بيروت.

١٨٤) التيسير بشرح الجامع الصغير، للمناوي، مكتبة الإمام الشافعي، الرياض [١٤٠٨هـ].

١٨٥) جامع الدروس العربية، لمصطفى الغلاييني، ط:٢٨، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت [١٤١٤هـ].

١٨٦) جامع العلوم والحكم، لابن رجب، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤٢٢هـ].

١٨٧) الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، لضياء الدين ابن الأثير، مطبعة المجمع العلمي [١٣٧٥هـ].

١٨٨) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية [١٤١٤هـ].

١٨٩) الجليس الصالح، لأبي الفرج النهرواني، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٦هـ].

١٩٠) الجمل في النحو، ينسب للخليل بن أحمد الفراهيدي، ط:٥، موسسة الرسالة، بيروت [١٤١٦هـ].

١٩١) جمهرة أشعار العرب، لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي، نهضة مصر، القاهرة.

١٩٢) جمهرة الأمثال، لأبي هلال العسكري، دار الفكر، بيروت.

١٩٣) جمهرة اللغة، لابن دريد، ط:١، دار العلم للملايين، بيروت [١٩٨٧م].

١٩٤) الجنى الداني في حروف المعاني، لأبي محمد بدر الدين حسن بن قاسم المرادي، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٣هـ].

١٩٥) الجواب الكافي، لابن قيم الجوزية، دار المعرفة، المغرب [١٤١٨هـ].

١٩٦) جواهر الألفاظ، لقدامة بن جعفر، مطبعة السعادة بمصر [١٩٣٢].
١٩٧) جواهر القرآن، لأبي حامد الغزالي، دار إحياء العلوم، بيروت [١٤٠٦هـ].
١٩٨) الجوهرة النيرة، لأبي بكر بن علي الحدادي العبادي الزَّبِيدِي، ط:١، المطبعة الخيرية [١٣٢٢هـ].
١٩٩) حاشية ابن كمال باشا على التلويح، مخطوط من وقف شيخ الإسلام فيض الله أفندي بالقسطنطينة، السلطنة العثمانية.
٢٠٠) حاشية البجيرمي على الخطيب، لسليمان بن محمد بن عمر البجيرمي المصري الشافعي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٧هـ].
٢٠١) حاشية الدسوقي على مختصر المعاني، لمحمد بن عرفة الدسوقي، المكتبة العصرية، بيروت.
٢٠٢) حاشية الدسوقي على مغني اللبيب، لمصطفى محمد عرفة الدسوقي، مكتبة لسان العرب، ودار الكتب العلمية، من غير تاريخ.
٢٠٣) حاشية السندي على سنن ابن ماجه، دار الجيل، بيروت، بدون طبعة.
٢٠٤) حاشية السندي على سنن النسائي، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب [١٤٠٦هـ].
٢٠٥) حاشية السيالكوتي على كتاب المطول، لعبد الحكيم السيالكوتي، الشركة الصحافية العثمانية، إستانبول [١٣١١هـ].
٢٠٦) حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي (نواهد الأبكار وشوارد الأفكار)، جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، المملكة العربية السعودية [١٤٢٤هـ].
٢٠٧) حاشية الشمني على مغني ابن هشام، الطبعة القديمة، بمطبعة محمد أفندي مصطفى.
٢٠٨) حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي، دار صادر، بيروت، من غير تاريخ.

٢٠٩) حاشية الشيخ ياسين بن زين الدين العليمي الحمصي على التصريح، على هامش التصريح على التوضيح، دار الفكر للطباعة والنشر، مصورة عن الطبعة القديمة.
٢١٠) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، لأحمد بن محمد الصاوي المالكي، دار الجيل، بيروت.
٢١١) حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك، لأبي العرفان محمد بن علي الصبان، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٧هـ].
٢١٢) حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح شرح نور الإيضاح، ط:١، دار الكتب العلمية بيروت [١٤١٨هـ].
٢١٣) حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع، دار الكتب العلمية، بدون طبعة وبدون تاريخ.
٢١٤) حاشية العلامة السعد وحاشية المحقق السيد الشريف الجرجاني على شرح القاضي عضد الملة والدين لمختصر المنتهى الأصولي، لابن الحاجب، مع حاشية المحقق الهروي على حاشية السيد الجرجاني، ط:١، المطبعة الأميرية الكبرى، ببولاق مصر [١٣١٦هـ].
٢١٥) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على البيضاوي، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٢هـ].
٢١٦) حاشيتا قليوبي وعميرة، دار الفكر، بيروت [١٤١٥هـ].
٢١٧) الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي، وهو شرح مختصر المزني، لأبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٩هـ].
٢١٨) الحاوي للفتاوي، للسيوطي، دار الفكر، بيروت [١٤٢٤هـ].
٢١٩) حجة القراءات، لأبي زرعة ابن زنجلة، ط:٢، دار الرسالة، بيروت [١٤٠٢هـ].
٢٢٠) الحجة على أهل المدينة، لأبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني، ط:٣، عالم الكتب، بيروت [١٤٠٣هـ].

٢٢١) الحجة في القراءات السبع، لابن خالويه، ط:٤، دار الشروق، بيروت [١٤٠١هـ].
٢٢٢) الحجة للقراء السبعة، لأبي علي الفارسي، ط:٢، دمشق، بيروت [١٤١٣هـ].
٢٢٣) الحدود في علم النحو، لشهاب الدين الأندلسي، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد: [١١٢]، [١٤٢١هـ].
٢٢٤) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم الأصبهاني، دار السعادة، مصر [١٣٩٤هـ].
٢٢٥) الحماسة البصرية، لعلي بن أبي الفرج، عالم الكتب، بيروت.
٢٢٦) الحوادث والبدع، لأبي شامة، مطبعة النهضة الحديثة بمكة [١٤٠١هـ].
٢٢٧) الحور العين، لنشوان بن سعيد الحميري اليمني، مكتبة الخانجي، القاهرة [١٩٤٨م].
٢٢٨) حياة الحيوان الكبرى، للدميري، ط:٢، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٤هـ].
٢٢٩) الحيوان، للجاحظ، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٤هـ].
٢٣٠) خزانة الأدب، لعبد القادر بن عمر البغدادي، ط٤، مكتبة الخانجي، القاهرة [١٤١٨هـ].
٢٣١) الخصائص، لأبي الفتح ابن جني، ط:٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
٢٣٢) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي، دار القلم، دمشق، من غير تاريخ.
٢٣٣) دراسات لأسلوب القرآن الكريم، للشيخ محمد عبد الخالق عضيمة، دار الحديث، القاهرة [١٤٢٥هـ].
٢٣٤) الدراية في تخريج أحاديث الهداية، لابن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت.
٢٣٥) الدرة الألفية في علم العربية (ألفية ابن معطي)، ليحيى بن عبد المعطي الزواوي المغربي، ط:١، دار الفضيلة، القاهرة [٢٠١٠].
٢٣٦) درر الحكام شرح غرر الأحكام، لملا خسرو، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، بدون طبعة، وبدون تاريخ

٢٣٧) الدرر اللوامع في شرح جمع الجوامع، لأحمد بن إسماعيل الكوراني، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية [١٤٢٩هـ].
٢٣٨) درر المعرفة من تفسير الإمام ابن عرفة، دار الإمام ابن عرفة، تونس، ودار الضياء في الكويت [١٤٣٤هـ].
٢٣٩) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، لمحمد الأمين الشنقيطي، ط:١، مكتبة ابن تيمية، القاهرة [١٤١٧هـ].
٢٤٠) دقائق أولي النهى لشرح المنتهى المعروف بشرح منتهى الإرادات، لمنصور بن يونس البهوتي، ط:١، عالم الكتب، بيروت [١٤١٤هـ].
٢٤١) دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجرجاني، ط:٣، مطبعة المدني بالقاهرة، ودار المدني بجدة [١٤١٣هـ].
٢٤٢) دلائل النبوة، للبيهقي، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٥هـ].
٢٤٣) الدلائل في غريب الحديث، لقاسم بن ثابت العوفي السرقسطي، ط:١، مكتبة العبيكان، الرياض [١٤٢٢هـ].
٢٤٤) ديوان أبي الطيب المتنبي مع العرف الطيب، لليازجي، دار الأرقم، بيروت.
٢٤٥) ديوان أبي العلاء المعري (سقط الزند)، ط:١، دار بيروت، ودار صادر [١٣٧٦هـ].
٢٤٦) ديوان أبي النجم العجلي (الفضل بن قدامة)، ط:١، مجمع اللغة العربية، دمشق [١٤٢٧هـ].
٢٤٧) ديوان أبي تمام الطائي، الطبعة القديمة، طبع بمناظرة والتزام محمد جمال، مرخصا من نظارة المعارف العمومية الجليلة [٤١٣].
٢٤٨) ديوان أبي ذؤيب الهذلي، ط:١، دار صادر بيروت [١٤٢٤هـ].
٢٤٩) ديوان أحمد شوقي، دار صادر، بيروت.
٢٥٠) ديوان الأعشى الكبير (ميمون بن قيس)، مكتبة الآداب، المطبعة النموذجية بالحلمية الجديدة، القاهرة، من غير تاريخ.

٢٥١) ديوان الطرماح بن حكيم الطائي، ط:٢، دار الشرق العربي، حلب [١٤١٤هـ].
٢٥٢) ديوان العجاج، رواية عبد الملك بن قريب الأصمعي وشرحه، ط:١، دار الشرق العربي، بيروت [١٤١٦هـ].
٢٥٣) ديوان المتنبي، ط١، دار بيروت للطباعة [١٤٠٣هـ].
٢٥٤) ديوان النابغة الذبياني، دار المعارف، القاهرة.
٢٥٥) ديوان الهذليين، الدار القومية للطباعة، القاهرة [١٣٨٥هـ].
٢٥٦) ديوان امرئ القيس، ط:٢، دار المعرفة، بيروت [١٤٢٥هـ].
٢٥٧) ديوان أمية بن أبي الصلت، بتحقيق: عبد الحفيظ السطلي، المطبعة التعاونية بدمشق [١٩٧٤م].
٢٥٨) ديوان أمية بن أبي الصلت، ط:١، دار صادر، بيروت [١٩٩٨].
٢٥٩) ديوان تميم بن مقبل، وزارة الثقافة، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، دمشق [١٣٨١هـ].
٢٦٠) ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب، ط:٣، دار المعارف، القاهرة.
٢٦١) ديوان حميد بن ثور الهلالي، ط:١، دار الكتب المصرية [١٣٧١هـ].
٢٦٢) ديوان ذي الرمة شرح أبي نصر الباهلي رواية ثعلب، لأبي نصر أحمد بن حاتم الباهلي، ط:١، مؤسسة الإيمان، جدة [١٤٠٢هـ].
٢٦٣) ديوان رؤبة بن العجاج، اعتنى بتصحيحه وترتيبه: وليم بن الورد البروسي، طبع ليبسج، ودار ابن قتيبة للطباعة والنشر، الكويت.
٢٦٤) ديوان عامر بن الطفيل، برواية أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري، ط: دار صادر، بيروت [١٣٩٩هـ].
٢٦٥) ديوان لبيد بن ربيعة العامري، ط:١، دار المعرفة، بيروت [١٤٢٥هـ].
٢٦٦) الذخيرة، للقرافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت [١٩٩٤م].

٢٦٧) الذريعة إلى مكارم الشريعة، لأبي القاسم الراغب الأصفهاني، دار السلام، القاهرة [١٤٢٨هـ].

٢٦٨) ذم الهوى، لابن الجوزي، نسخة مصطفى عبد الواحد.

٢٦٩) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، للزمخشري، مؤسسة الأعلمي، بيروت [١٤١٢هـ].

٢٧٠) رجال صحيح مسلم، لأحمد بن علي بن مَنْجُويَه، ط:١، دار المعرفة، بيروت [١٤٠٧هـ].

٢٧١) رد المحتار على الدر المختار، لابن عابدين، محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقي الحنفي، الطبعة الثانية، دار الفكر، بيروت [١٤١٢هـ].

٢٧٢) الرد على قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية، د. فضل حسن عباس، جمعية عمال المطابع التعاونية، الأردن [١٤١٠هـ].

٢٧٣) الرسالة، للإمام الشافعي، مكتبه الحلبي، القاهرة [١٣٥٨هـ].

٢٧٤) رصف المباني في شرح حروف المعاني، أحمد بن عبد النور المالقي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق [١٣٩٤].

٢٧٥) رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب، لتاج الدين السبكي، عالم الكتب، بيروت [١٤١٩هـ].

٢٧٦) روح المعاني، لشهاب الدين محمود بن عبد الله الألوسي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٥هـ].

٢٧٧) الروض الأنف، لأبي القاسم عبد الرحمن السهيلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت [١٤٢١هـ].

٢٧٨) روضة الطالبين وعمدة المفتين، لأبي زكريا يحي بن شرف النووي، ط:٣، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، عمان [١٤١٢هـ].

٢٧٩) زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن قيم الجوزية، ط:٢٧، مؤسسة الرسالة، بيروت، ومكتبة المنار الإسلامية، الكويت [١٤١٥هـ].

٢٨٠) الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي، لأبي منصور الأزهري الهروي، أبو منصور، دار الطلائع، القاهرة.

٢٨١) الزاهر في معاني كلمات الناس، لأبي بكر الأنباري، ط:١، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤١٢هـ].

٢٨٢) الزهد والرقائق، لابن المبارك، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٨٣) الزهد، لأبي عبد الله أحمد بن حنبل، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٠هـ].

٢٨٤) زهر الأكم في الأمثال والحكم، لليوسي الشركة الجديدة، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب [١٤٠١هـ].

٢٨٥) سبل الهدى والرشاد، لمحمد بن يوسف الصالحي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٤هـ].

٢٨٦) سبيل الوصول إلى عنوان الأصول (في الأصول)، وهو شرح وتحقيق ودراسة لعنوان الأصول في أصول الفقه، لأبي حامد المطرزي. د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان، ومصطفى محمود سليخ، ط:١، دار الضياء، الكويت [١٤٣٦هـ].

٢٨٧) السجلماسي ونظرة جديدة إلى بلاغة التكرير، د. عبد الله علي محمد حسن، جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية، مركز فجر لخدمات الطباعة، القاهرة.

٢٨٨) سحر البلاغة وسر البراعة، لأبي منصور الثعالبي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٨٩) سر الفصاحة، لأبي محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٢هـ].

٢٩٠) سر صناعة الإعراب، لأبي الفتح ابن جني، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢١هـ].

٢٩١) السلم المنورق، لعبد الرحمن الأخضري، ط:٢، المكتبة الهاشمية، إستنبول [٢٠١٤].

٢٩٢) سمط اللآلي في شرح أمالي القالي، لأبي عبيد البكري، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٩٣) سير أعلام النبلاء، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، ط:٣، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤٠٥هـ].

٢٩٤) سير السلف الصالحين، لإسماعيل بن محمد الأصبهاني، دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض.

٢٩٥) شرح ابن عباد على الحكم، مركز الأهرام، القاهرة [١٤٠٨هـ].

٢٩٦) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، لابن عقيل، عبد الله بن عبد الرحمن العقيلي الهمداني المصري، ط:٢٠، دار التراث، القاهرة، ودار مصر للطباعة، سعيد جودة السحار وشركاه [١٤٠٠هـ].

٢٩٧) شرح أدب الكاتب، لأبي منصور ابن الجواليقي، دار الكتاب العربي، بيروت.

٢٩٨) شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٩هـ].

٢٩٩) شرح البوري على منظومة ابن كيران، ط: أفريقيا الشرق، المغرب.

٣٠٠) شرح التبصرة والتذكرة (ألفية العراقي)، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٣هـ].

٣٠١) شرح الترمذي (النفح الشذي)، لابن سيد الناس اليعمري، ط:١، دار العاصمة، الرياض [١٤٠٩هـ].

٣٠٢) شرح التسهيل، لابن مالك، ط:١، هجر للطباعة والنشر، القاهرة [١٤١٠هـ].

٣٠٣) شرح التصريح على التوضيح، لخالد الأزهري، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢١هـ].

٣٠٤) شرح الحديث المقتفى في مبعث النبي المصطفى، لأبي شامة، ط:١، مكتبة العمرين العلمية، الشارقة، الإمارات [١٤٢٠هـ].

٣٠٥) شرح الرضي على كافية ابن الحاجب، رضي الدين الأستراباذي، جامعة قاريونس [١٣٩٨هـ].

٣٠٦) شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، لمحمد بن عبد الباقي الزرقاني، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة [١٤٢٤هـ].

٣٠٧) شرح السلم مع شرحه (إيضاح المبهم) للأخضري عبد الرحمن بن محمد النيطوسي المغربي المالكي، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة [١٣٦٧هـ].

٣٠٨) شرح السنة، للبغوي، المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت [١٤٠٣هـ].

٣٠٩) شرح الشيخ درويش القويسني على متن السلم في علم المنطق، للشيخ عبد الرحمن الأخضري، وعليها بعض تقارير لحضرة الشيخ عمر الدوري الشافعي، النسخة الأصلية، وقد بيع الكتاب في مكتبة دار الأمان [٤] زنقة المامونية، الرباط، المغرب.

٣١٠) شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور، لجلال الدين السيوطي، ط:١، دار المعرفة، بيروت [١٤١٧هـ].

٣١١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (الكاشف عن حقائق السنن)، مكتبة نزار مصطفى الباز (مكة، الرياض) [١٤١٧هـ].

٣١٢) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري، ط:٥، دار القاهرة.

٣١٣) شرح الكافية الشافية، لابن مالك الطائي الجياني، ط:١، جامعة أم القرى مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، مكة المكرمة.

٣١٤) الشرح الكبير على متن المقنع، لابن قدامة، دار الكتاب العربي.

٣١٥) شرح المختصر، لسعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني في المعاني والبديع والبيان، المطبعة المحمودية التجارية بالأزهر، مع تعليق الشيخ عبد المتعال الصعيدي، طبع سنة [١٣٥٦هـ].

٣١٦) شرح المعلقات السبع، للزوزني، مكتبة المتنبي، القاهرة.

٣١٧) شرح المفصل في صنعة الإعراب الموسوم بالتخمير، لصدر الأفاضل القاسم بن الحسين الخوارزمي، ط:١، دار الغرب الإسلامي، لبنان، بيروت [١٩٩٠].
٣١٨) شرح المفصل، لابن يعيش، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٢هـ].
٣١٩) شرح النووي على صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت [١٣٩٢هـ].
٣٢٠) شرح تسهيل الفوائد، لابن مالك، ط:١، هجر للطباعة والنشر، القاهرة [١٤١٠هـ].
٣٢١) شرح ديوان الحماسة، ليحيى بن علي التبريزي، دار القلم، بيروت.
٣٢٢) شرح ديوان المتنبي، لأبي البقاء العكبري، دار المعرفة، بيروت.
٣٢٣) شرح شافية ابن الحاجب مع شرح شواهده، لعبد القادر البغدادي، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٣٩٥هـ].
٣٢٤) شرح شذور الذهب، لابن هشام، الشركة المتحدة للتوزيع، سوريا.
٣٢٥) شرح شذور الذهب، لشمس الدين محمد بن عبد المنعم الجوجري، ط:١، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية [١٤٢٣هـ].
٣٢٦) شرح شعر المتنبي، لابن الإفليلي، ط:١، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤١٢هـ].
٣٢٧) شرح شواهد المغني، للسيوطي، منشورات دار الحياة، بيروت، بلا تاريخ..
٣٢٨) شرح صحيح البخاري، لابن بطال، مكتبة الرشد، السعودية، الرياض [١٤٢٣هـ].
٣٢٩) شرح قطر الندى وبل الصدى، لابن هشام الأنصاري، ط:١١، المكتبة التجارية، القاهرة [١٣٨٣].
٣٣٠) شرح مختصر خليل، للخرشي، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.
٣٣١) شرح نخبة الفكر في مصطلحات أهل الأثر، لعلي بن سلطان القاري، دار الأرقم، بيروت، بدون تاريخ.

٣٣٢) شروح تلخيص المفتاح، وهي مختصر العلامة سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني، ومواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي، وعروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، لبهاء الدين السبكي، طبع دار السرور، بيروت، مصورة عن الطبعة القديمة.

٣٣٣) الشريعة، لأبي بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجري، دار الوطن، الرياض [١٤٢٠هـ].

٣٣٤) الشعر والشعراء، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، دار الحديث، القاهرة [١٤٢٣هـ].

٣٣٥) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي عياض، دار الفيحاء، عمان [١٤٠٧هـ].

٣٣٦) الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها، لابن فارس، ط:١، إحياء الكتب العلمية، بيروت [١٤١٨هـ].

٣٣٧) الصحاح، لإسماعيل بن حماد الجوهري، ط٤، دار العلم للملايين، بيروت [١٤٠٧هـ].

٣٣٨) صفة الصفوة، لابن الجوزي، دار الحديث، القاهرة [١٤٢١هـ].

٣٣٩) الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، لابن بشكوال، ط:٢، مكتبة الخانجي، القاهرة [١٣٧٤هـ].

٣٤٠) الصمة بن عبد الله القشيري، حياته وشعره، جمع وتحقيق د. خالد الجبر، جامعة البترا الأردنية، عمان، دار المناهج [٢٠٠٣م]

٣٤١) الصناعتين الكتابة والشعر، لأبي هلال العسكري، المكتبة العنصرية، بيروت [١٤١٩هـ].

٣٤٢) صيد الخاطر، لابن الجوزي، دار القلم، دمشق [١٤٢٥هـ].

٣٤٣) ضرائر الشعر، لابن عصفور، ط:١، دار الأندلس، القاهرة [١٩٨٠م].

٣٤٤) الطبقات الكبرى، لابن سعد، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٠هـ].
٣٤٥) طراز المجالس، لأحمد بن محمد الخفاجي شهاب الدين، المطبعة الوهبية، القاهرة [١٢٨٤هـ].
٣٤٦) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ليحيى بن حمزة، ط:١، المكتبة العصرية، بيروت [١٤٢٣هـ].
٣٤٧) طرح التثريب في شرح التقريب، لأبي الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي، وأكمله ابنه، الطبعة المصرية القديمة.
٣٤٨) طريق الهجرتين، لابن القيم، ط:٢، دار السلفية، القاهرة [١٣٩٤هـ].
٣٤٩) طلبة الطلبة، لأبي حفص، نجم الدين النسفي، المطبعة العامرة، القاهرة، ومكتبة المثنى ببغداد [١٣١١هـ].
٣٥٠) عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي، لابن العربي المالكي، ودار الكتب العلمية، بيروت، من غير تاريخ.
٣٥١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، لابن قيم الجوزية، دار ابن كثير، دمشق [١٤٠٩هـ].
٣٥٢) العدة شرح العمدة، لبهاء الدين المقدسي، دار الحديث، القاهرة [١٤٢٤هـ].
٣٥٣) العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، لناصيف اليازجي، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، من غير تاريخ.
٣٥٤) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، لبهاء الدين السبكي، ط:١، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت [١٤٢٣هـ].
٣٥٥) العقد الفريد، لأبي عمر، لابن عبد ربه الأندلسي، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٤هـ].
٣٥٦) علل النحو، لابن الوراق، ط:١، مكتبة الرشد، السعودية، الرياض [١٤٢٠هـ].
٣٥٧) علوم القرآن الكريم، لنور الدين العتر، مطبعة الصباح، دمشق [١٤١٤هـ].

٣٥٨) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، لبدر الدين العيني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣٥٩) عمدة الكتاب، لأبي جعفر النحاس، ط:١، دار ابن حزم [١٤٢٥هـ].

٣٦٠) العمدة في محاسن الشعر وآدابه، لابن رشيق القيرواني، ط:٥، دار الجيل، بيروت [١٤٠١هـ].

٣٦١) العناية شرح الهداية، لأكمل الدين البابرتي، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٨هـ]، ودار الفكر، من غير تاريخ.

٣٦٢) غرائب التفسير وعجائب التأويل، لمحمود بن حمزة الكرماني دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، ومؤسسة علوم القرآن، بيروت.

٣٦٣) الغرر البهية في شرح البهجة الوردية، لزكريا الأنصاري، المطبعة الميمنية، القاهرة، بدون تاريخ.

٣٦٤) غرر الخصائص الواضحة، وعرر النقائض الفاضحة، لأبي إسحق المعروف بالوطواط، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٩هـ].

٣٦٥) غريب الحديث، لإبراهيم بن إسحاق الحربي جامعة أم القرى، ط:١، مكة المكرمة [١٤٠٥هـ].

٣٦٦) غريب الحديث، لأبي سليمان الخطابي، دار الفكر [١٤٠٢هـ].

٣٦٧) غريب الحديث، لأبي عبيد القاسم بن سلام، ط:١، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن [١٣٨٤هـ].

٣٦٨) غريب القرآن، لابن قتيبة دار الكتب العلمية، بيروت [١٣٩٨هـ].

٣٦٩) غمز عيون البصائر في شرح الأشباه والنظائر، لشهاب الدين أحمد بن محمد الحنفي، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٥هـ].

٣٧٠) الفاضل، للمبرد، ط:٣، دار الكتب المصرية، القاهرة [١٤٢١هـ].

٣٧١) الفائق في غريب الحديث والأثر، لجار الله الزمخشري، ط:٢، دار المعرفة، لبنان.

٣٧٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر، دار المعرفة، بيروت [١٣٧٩هـ].
٣٧٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن رجب، ط:١، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة النبوية [١٤١٧هـ].
٣٧٤) فتح القدير، لكمال الدين بن الهمام، دار الفكر، بيروت، بدون طبعة وبدون تاريخ.
٣٧٥) فتح القدير، لمحمد بن علي الشوكاني، ط١، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت [١٤١٤هـ].
٣٧٦) فتح المغيث بشرح الفية الحديث للعراقي، لشمس الدين السخاوي، ط:١، مكتبة السنة، مصر [١٤٢٤هـ].
٣٧٧) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف)، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم [١٤٣٤هـ].
٣٧٨) الفتوحات الربانية على الأذكار النواوية، لابن علان، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٤هـ].
٣٧٩) فتوحات الوهاب بتوضيح شرح منهج الطلاب المعروف بحاشية الجمل، دار الفكر، بدون تاريخ.
٣٨٠) الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري، طبعة دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة.
٣٨١) الفريد في إعراب القرآن المجيد، للمنتجب حسين بن أبي العز الهمداني، طبع دار الثقافة، الدوحة، قطر [١٤١١هـ].
٣٨٢) فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، لأبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي، ط:١، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٩٧١م].
٣٨٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم الأندلسي، مكتبة الخانجي، القاهرة.

٣٨٤) فضائل القرآن، للقاسم بن سلام، ط:١، دار ابن كثير، (دمشق/بيروت) [١٤١٥هـ].

٣٨٥) فقه اللغة وسر العربية، لأبي منصور الثعالبي، ط:١، إحياء التراث العربي، بيروت [١٤٢٢هـ].

٣٨٦) فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت، لعبد العلي بن محمد بن نظام الدين، السهالوي الأنصاري اللكنوي الهندي، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٣هـ].

٣٨٧) الفوائد السنية في شرح الألفية، للبرماوي شمس الدين محمد بن عبد الدايم، ط:١، مكتبة دار النصيحة، المملكة العربية السعودية، أمام الباب الجنوبي للجامعة الإسلامية [١٤٣٦هـ].

٣٨٨) الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة، لمحمد بن علي الشوكاني، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٨٩) فيض القدير شرح الجامع الصغير، لعبد الرؤوف المناوي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر [١٣٥٦].

٣٩٠) القاموس المحيط، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، ط:٨، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤٢٦هـ].

٣٩١) قانون التَّأويل، لأبي بكر بن العربي، ط:١، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، مؤسسة علوم القرآن، بيروت [١٤٠٦هـ].

٣٩٢) قُس بن ساعدة الإيادي، (حياته، خطبه، شعره)، لأحمد الربيعي، مطبعة البيان، بغداد، مطبعة النعمان، النجف، [١٣٩٤هـ].

٣٩٣) قصر الأمل، لابن أبي الدنيا، ط:٢، دار ابن حزم، بيروت [١٤١٧هـ].

٣٩٤) قواعد الأحكام في مصالح الأنام، لأبي محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٩٥) قوت المغتذي على جامع الترمذي، لجلال الدين السيوطي، رسالة الدكتوراة في جامعة أم القرى، مكة المكرمة، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم الكتاب والسنة [١٤٢٤هـ].
٣٩٦) القول بالتضمين وأثره في الفروع الفقهية، بحث للدكتور عمر عبد الفتاح محمد إبراهيم، مدرس أصول الفقه بكلية الشريعة والقانون، دقهلية.
٣٩٧) الكافي شرح البزدوي، لحسين بن علي بن حجاج السغناقي، ط:١، مكتبة الرشد، الرياض [١٤٢٢هـ].
٣٩٨) الكافي في شرح الوافي، عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، مخطوط في المكتبة الظاهرية بدمشق.
٣٩٩) الكافي في فقه الإمام أحمد، لابن قدامة، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٤هـ].
٤٠٠) الكافية في علم النحو، لابن الحاجب، ط:١، مكتبة الآداب، القاهرة [٢٠١٠م].
٤٠١) الكامل في اللغة والأدب، للمبرد، ط:٣، دار الفكر العربي، القاهرة [١٤١٧هـ].
٤٠٢) كتاب أحكمت آياته، لأحمد محمد جمال، إدارة الصحافة والنشر، مكة المكرمة.
٤٠٣) كتاب الأفعال، لابن القطاع، ط:١، عالم الكتب [١٤٠٣هـ].
٤٠٤) كتاب العين، ينسب لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري، دار ومكتبة الهلال، من غير تاريخ.
٤٠٥) الكتاب، لسيبويه، ط٣، مكتبة الخانجي، القاهرة [١٤٠٨هـ].
٤٠٦) كشاف القناع عن متن الإقناع، لمنصور بن يونس البهوتي الحنبلي، دار الكتب العلمية، بيروت.
٤٠٧) الكشاف مع حاشية الجرجاني والإنصاف لابن المنير، ط:١، دار الفكر [١٣٩٧هـ].

٤٠٨) كشف الأسرار شرح أصول البزدوي، لعبد العزيز بن أحمد البخاري الحنفي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، بدون طبعة وبدون تاريخ.

٤٠٩) كشف الخفاء ومزيل الإلباس، لإسماعيل العجلوني، ط:١، المكتبة العصرية [١٤٢٠هـ].

٤١٠) كشف الظنون، لحاجي خليفة، مكتبة المثنى، بغداد [١٩٤١م].

٤١١) كشف المخدرات والرياض المزهرات لشرح أخصر المختصرات، لعبد الرحمن الخلوتي الحنبلي، دار البشائر الإسلامية، لبنان [١٤٢٣هـ].

٤١٢) كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي دار الوطن، الرياض.

٤١٣) كفاية الأخيار في حل غاية الاختصار، لأبي بكر بن محمد الحسيني الحصني، تقي الدين الشافعي، ط:١، دار الخير، دمشق [١٩٩٤م].

٤١٤) الكليات، لأبي البقاء الكفوي، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٤١٥) كنايات الأدباء وإشارات البلغاء، لأبي العباس الجرجاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب [٢٠٠٣].

٤١٦) الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، لمحمد بن يوسف الكرماني، دار إحياء التراث العربي، بيروت [١٤٠١هـ].

٤١٧) اللآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة، لجلال الدين السيوطي، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٧هـ].

٤١٨) لباب الآداب، لأبي منصور الثعالبي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٧هـ].

٤١٩) اللباب في شرح الكتاب، لعبد الغني الغنيمي الدمشقي الميداني، المكتبة العلمية، بيروت.

٤٢٠) لسان الحكام في معرفة الأحكام، لأبي الوليد، لسان الدين بن الشِّحْنَة، ط:٢، البابي الحلبي، القاهرة [١٣٩٣].

٤٢١) لطائف المعارف، لابن رجب، ط:١، دار ابن حزم، بيروت [١٤٢٤هـ].

٤٢٢) اللمحة في شرح الملحة، لابن الصائغ، ط:١، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية [١٤٢٤هـ].

٤٢٣) اللمع في العربية، لأبي الفتح بن جني دار الكتب الثقافية، الكويت [١٩٧٢].

٤٢٤) لمعات التنقيح في شرح مشكاة المصابيح، لعبد الحق الدهلوي، دار النوادر، دمشق [١٤٣٥هـ].

٤٢٥) اللمعة في خصائص الجمعة، للسيوطي، ط:٢، دار الكتب العلمية [١٤٠٧هـ].

٤٢٦) المبدع في شرح المقنع، لابن مفلح، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٨هـ].

٤٢٧) المبسوط، لشمس الأئمة السرخسي، دار المعرفة، بيروت [١٤١٤هـ].

٤٢٨) متن الشاطبية (حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع)، للقاسم بن فيره الشاطبي، ط:٤، مكتبة دار الهدى ودار الغوثاني للدراسات القرآنية [١٤٢٦هـ].

٤٢٩) متن الطحاوية، لأبي جعفر الطحاوي الحنفي، ط:١، دار ابن حزم، بيروت [١٤١٦هـ].

٤٣٠) متن القصيدة النونية، لابن القيم، مكتبة ابن تيمية، القاهرة [١٤١٧هـ].

٤٣١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لضياء الدين ابن الأثير، دار نهضة مصر، الفجالة، القاهرة.

٤٣٢) مجارِي الكناية في اللغة وعلم البيان والتَّفسير والفقه وأصوله، للدكتور عبد القادر محمد المعتصم دهمان، ط:١، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤٥هـ].

٤٣٣) مجاز القرآن، لأبي عبيدة معمر بن المثنى، مكتبة الخانجي، القاهرة [١٣٨١هـ].

٤٣٤) مجاز القرآن، لعز الدين بن عبد السلام، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن [١٤١٩هـ].

٤٣٥) المجاز في اللغة والقرآن الكريم بين الإجازة والمنع، عرض وتحليل ونقد، للدكتور عبد العظيم المطعني، ط:٢، مكتبة وهبة، القاهرة [١٤١٤هـ].

٤٣٦) مجالس ثعلب، لأبي العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب، دار المعارف بمصر، النشرة الثانية، بتحقيق: عبد السلام هارون.

٤٣٧) المجالسة وجواهر العلم، لأبي بكر أحمد بن مروان الدينوري المالكي، دار ابن حزم، بيروت [١٤١٩هـ].

٤٣٨) مجمع الأمثال، لأبي الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري، ط١، دار المعرفة، بيروت، من غير تاريخ.

٤٣٩) مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون طبعة وبدون تاريخ، وطبعة دار الكتب العلمية، ومعه الدر المنتقى في شرح الملتقى، للعلاء الحصكفي، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٩هـ].

٤٤٠) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، لأبي الحسن نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، مكتبة القدسي، القاهرة [١٤١٤هـ].

٤٤١) مجمل اللغة، لابن فارس، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤٠٦هـ].

٤٤٢) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب، دار الفاروق الحديثة للطباعة والنشر [١٤٢٥هـ].

٤٤٣) المجموع شرح المهذب، للإمام النووي، دار الفكر.

٤٤٤) محاضرات الأدباء، للراغب الأصفهاني، دار الأرقم، بيروت [١٤٢٠هـ].

٤٤٥) المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، لأبي الفتح بن جني، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة [١٤٢٠هـ].

٤٤٦) المحصول، لفخر الدين الرازي، ط:٣، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤١٨هـ].

٤٤٧) المحكم والمحيط الأعظم، لأبي الحسن بن سيده المرسي، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢١هـ].

٤٤٨) المحلى بالآثار، لابن حزم، دار الفكر، بيروت، بدون طبعة وبدون تاريخ.

٤٤٩) المحيط البرهاني في الفقه النعماني فقه الإمام أبي حنيفة، لأبي المعالي برهان الدين محمود بن أحمد بن عبد العزيز بن عمر بن مَازَةَ البخاري الحنفي، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٤هـ].
٤٥٠) المحيط في اللغة، للصاحب ابن عباد، ط:١، عالم الكتب، بيروت [١٤١٤هـ].
٤٥١) مختارات شعراء العرب، لابن الشجري، ط:١، مطبعة الاعتماد، مصر [١٣٤٤هـ].
٤٥٢) مختصر ابن الحاجب، ط:١، دار ابن حزم، بيروت [١٤٢٧هـ].
٤٥٣) مختصر العلامة خليل، لخليل بن إسحاق بن موسى، ضياء الدين الجندي المالكي المصري، ط:١، دار الحديث، القاهرة [١٤٢٦هـ].
٤٥٤) مختصر المعاني (مختصر لشرح تلخيص المفتاح)، لسعد الدين التفتازاني، ط:١، دار الفكر، قم [١٤١١هـ].
٤٥٥) مختصر قيام الليل، لأبي عبد الله محمد بن نصر المرْوَزِي، ط:١، حديث أكاديمي، فيصل آباد، باكستان [١٤٠٨هـ].
٤٥٦) المخصص، لابن سيده، دار إحياء التراث العربي، بيروت [١٤١٧هـ].
٤٥٧) مدارج السالكين، لابن القيم، ط:٣، دار الكتاب العربي [١٤١٦هـ].
٤٥٨) المدهش، لابن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٥هـ].
٤٥٩) المدونة، للإمام مالك بن أنس، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٥هـ].
٤٦٠) مراتب الإجماع، لابن حزم الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت.
٤٦١) مراتب الدلالة، لمحمد الحسن بن الددو الشنقيطي، ط:١، إصدار مكتب الشؤون الفنية، الكويت [١٤٣٢هـ].
٤٦٢) مراقي السعود لمبتغي الرقيِّ والصُّعود، لعبد الله بن الحاج إبراهيم الشنقيطي،ط:١، دار المنارة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية [١٤١٦هـ].
٤٦٣) المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز، لأبي شامة، دار صادر، بيروت [١٣٩٥هـ].

٤٦٤) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لعلي بن سلطان القاري، دار الفكر، بيروت [١٤٢٢هـ].

٤٦٥) المزهر في علوم اللغة وأنواعها، لجلال الدين السيوطي، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٨هـ].

٤٦٦) المسالِك في شرح مُوَطَّأ مالك، لأبي بكر بن العربي، ط:١، دار الغرب الإسلامي [١٤٢٨هـ].

٤٦٧) المستصفى، لأبي حامد الغزالي، دار الكتب العلمية [١٤١٣هـ].

٤٦٨) المستطرف في كل فن مستطرف، لشهاب الدين الأبشيهي، عالم الكتب، بيروت [١٤١٩هـ].

٤٦٩) المستقصى في أمثال العرب، لأبي القاسم محمود بن عمرو الزمخشري جار الله، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت [١٩٨٧م].

٤٧٠) مسلم الثبوت، لمحب الله بن عبد الشكور البهاري مع منهواته، المطبعة الحسينية المصرية.

٤٧١) مشارق الأنوار على صحاح الآثار، للقاضي عياض، الطبعة القديمة، المكتبة العتيقة ودار التراث، تونس، القاهرة [١٣٣٣هـ].

٤٧٢) مشاهير علماء الأمصار لأبي حاتم الدارمي البُستي، ط:١، دار الوفاء، المنصورة [١٤١١هـ].

٤٧٣) مصابيح الجامع، لمحمد بن أبي بكر، بدر الدين الدماميني، ط:١، دار النوادر، دمشق [١٤٣٠هـ].

٤٧٤) مصابيح المعاني، لابن نور الدين الموزعي، ط:١، دار المنار، القاهرة [١٤١٤هـ].

٤٧٥) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، لأحمد بن محمد الفيومي، المكتبة العلمية، بيروت.

٤٧٦) المصباح في المعاني والبيان والبديع، لبدر الدين بن مالك، الشهير بابن الناظم، مكتبة الآداب بالحلمية الجديدة.

٤٧٧) مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، مصطفى بن سعد بن عبده السيوطي شهرة، الرحيباني مولدا، المكتب الإسلامي [١٤١٥هـ].

٤٧٨) المطول في شرح تلخيص المفتاح، لسعد الدبن التفتازاني، وبهامشه حاشية المير سيد شريف، ط١، المكتبة الأزهرية للتراث [١٣٣٠هـ].

٤٧٩) معالم السنن، لأبي سليمان الخطابي، المطبعة العلمية، حلب [١٣٥١هـ].

٤٨٠) معاني القراءات، لأبي منصور الأزهري الهروي، ط:١، مركز البحوث في كلية الآداب، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية [١٤١٢هـ].

٤٨١) معاني القرآن وإعرابه، لأبي إسحاق الزجاج، ط:١، عالم الكتب، بيروت [١٤٠٨هـ].

٤٨٢) معاني القرآن، لأبي جعفر النحاس، ط:١، جامعة أم القرى، مكة المكرمة [١٤٠٩هـ].

٤٨٣) معاني القرآن، لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء، ط:١، دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر.

٤٨٤) معاني القرآن، للأخفش، ط:١، مكتبة الخانجي، القاهرة [١٤١١هـ].

٤٨٥) المعاني الكبير في أبيات المعاني، لابن قتيبة، ط:١، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن [١٣٦٨هـ].

٤٨٦) معاني النحو، للدكتور فاضل صالح السامرائي، ط:١، دار الفكر للطباعة، الأردن [١٤٢٠هـ].

٤٨٧) معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، لعبد الرحيم بن أحمد العباسي، ط١، عالم الكتب، بيروت [١٣٦٧هـ].

٤٨٨) معترك الأقران، لجلال الدين السيوطي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٨هـ].

٤٨٩) معجم ديوان الأدب، لأبي إبراهيم إسحاق بن إبراهيم الفارابي، مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر، القاهرة [١٤٢٤هـ].

٤٩٠) معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، مكتبة الآداب، القاهرة [١٤٢٤هـ].

٤٩١) معرفة الصحابة، لأبي نعيم مطبوعات، ط:١، جامعة الإمارات العربية المتحدة [١٤٢٦هـ].

٤٩٢) معرفة علوم الحديث، لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري، ط:٢، دار الكتب العلمية، بيروت [١٣٩٧هـ].

٤٩٣) المعلم بفوائد مسلم، لأبي عبد الله المازري، ط:٢، الدار التونسية للنشر، والمؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر، [١٩٩١م].

٤٩٤) المغرب في ترتيب المعرب، لأبي الفتح ناصر الدين المطرزي الحنفي، مكتبة أسامة بن زيد، حلب [١٩٧٩].

٤٩٥) مغني الطلاب، لمحمود حسن المغنيسي شرح متن إيساغوجي، لأثير الدين الأبهري، ط:١، دار البيروتي، دمشق [١٤٣٠هـ].

٤٩٦) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام، بتحقيق د. مازن المبارك، ط:٦، دار الفكر، دمشق [١٩٨٥م].

٤٩٧) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام، بتحقيق وشرح: الدكتور عبد اللطيف محمد الخطيب، ط:١، المجلس الوطني للثقافة والفنون الكويت [١٤٢١هـ].

٤٩٨) مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، لشمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٥هـ].

٤٩٩) المغني، لابن قدامة، لأبي محمد موفق الدين ابن قدامة المقدسي، مكتبة القاهرة، بدون طبعة [١٣٨٨هـ]، والطبعة الثالثة من عالم الكتب، الرياض، [١٤١٧هـ].

٥٠٠) المفاتيح في شرح المصابيح، للحسين بن محمود مظهر الدين بالمظهري، ط:١، دار النوادر، وهو من إصدارات إدارة الثقافة الإسلامية، وزارة الأوقاف الكويتية [١٤٣٣هـ].

٥٠١) مفتاح السعادة، طاش كبرى زاده، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٥هـ].

٥٠٢) مفتاح العلوم، ليوسف السكاكي، ط:٢، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٧هـ].

٥٠٣) المفتاح في الصرف، لعبد القاهر الجرجاني، ط:١، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤٠٧هـ].

٥٠٤) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت [١٤١٢هـ].

٥٠٥) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، لأبي العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي، دار ابن كثير، ودار الكلم الطيب، دمشق، بيروت [١٤١٧هـ].

٥٠٦) المقاصد الحسنة، للسخاوي، ط:١، دار الكتاب العربي، بيروت [١٤٠٥هـ].

٥٠٧) المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية (شرح الشواهد الكبرى)، لبدر الدين العيني، ط:١، دار السلام، القاهرة [١٤٣١هـ].

٥٠٨) مقاييس اللغة، لابن فارس، طبع دار الفكر، [١٣٩٩هـ].

٥٠٩) المقتضب، للمبرد، عالم الكتب، بيروت [١٩٣٦].

٥١٠) مقدمة ابن الصلاح (معرفة أنواع علوم الحديث)، دار الفكر، سوريا، دار الفكر المعاصر، بيروت [١٤٠٦هـ].

٥١١) المقدمة الجزولية في النحو، لأبي موسى الجزولي المراكشي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٥١٢) مقدمة تفسير ابن النقيب، ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة [١٤١٥هـ].

٥١٣) المكتفى في الوقف والابتدا، لأبي عمرو الداني، ط:١، دار عمار، عمَّان، الأردن [١٤٢٢هـ].

٥١٤) مكفرات الذنوب وموجبات الجنة، لعبد الرحمن بن علي الشيباني المعروف بابن الديبع، دار الاعتصام.
٥١٥) الملل والنحل، لأبي الفتح الشهرستاني، مؤسسة الحلبي وشركاه، القاهرة [١٣٨٧هـ].
٥١٦) الممتع الكبير في التصريف، لابن عصفور، ط:١، مكتبة لبنان [١٩٩٦م].
٥١٧) منار السبيل منار السبيل في شرح الدليل، لابن ضويان، إبراهيم بن محمد بن سالم، ط:٧، المكتب الإسلامي، بيروت [١٤٠٩هـ].
٥١٨) مناهل العرفان في علوم القرآن، لمحمد عبد العظيم الزرقاني، ط:٣، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة.
٥١٩) منة المنان في علوم القرآن، للأستاذ الدكتور إبراهيم عبد الرحمن خليفة، كلية أصول الدين، جامعة الأزهر، القاهرة، ط:١، مطبعة الفجر الجديد، ٤٤ شارع الكبارى بمنشية ناصر، الدراسة [١٤١٥هـ]، كلية أصول الدين، جامعة الأزهر، القاهرة [١٤١٩هـ].
٥٢٠) منحة الباري بشرح صحيح البخاري، المسمى، (تحفة الباري)، لزكريا الأنصاري، ط:١، مكتبة الرشد، الرياض [١٤٢٦هـ].
٥٢١) المنصف، لابن جني، ط:١، دار إحياء التراث القديم، القاهرة [١٣٧٣هـ].
٥٢٢) منهاج العابدين، لأبي حامد الغزالي، دار الطباعة الباهرة، القاهرة.
٥٢٣) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للإمام النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت [١٣٩٢هـ].
٥٢٤) الموافقات، لإبراهيم بن موسى الشاطبي، ط:١، دار ابن عفان، السعودية [١٤١٧هـ].
٥٢٥) مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، لشمس الدينا الحطاب الرُّعيني المالكي، دار الفكر [١٤١٢هـ].
٥٢٦) مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، لأبي العباس أحمد بن محمد بن يعقوب المغربي، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٤هـ].

٥٢٧) الموجز في أصول الفقه، لنخبة من علماء كلية الشريعة والقانون بجامعة الأزهر في القاهرة، عبد الجليل القرنشاوي، ومحمد فرج سليم، ومحمود شوكت العدوي، والحسيني يوسف الشيخ، الأخوة الأشقاء في القاهرة [١٩٦٥م].

٥٢٨) الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت [١٤٢٧هـ].

٥٢٩) الموضوعات، لابن الجوزي، ط:١، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة [١٣٨٦هـ].

٥٣٠) الميسر في شرح مصابيح السنة، لشهاب الدين التُّورِبِشتي، ط:٢، مكتبة نزار مصطفى الباز [١٤٢٩هـ].

٥٣١) النبأ العظيم، لمحمد بن عبد الله دراز، دار القلم للنشر والتوزيع [١٤٢٦هـ]

٥٣٢) نتائج الفكر في النحو، للسُّهَيلي، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٢هـ].

٥٣٣) نثر الورود على مراقي السعود، للشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، تحقيق وإكمال تلميذه: محمد ولد سيدي ولد حبيب الشنقيطي، ط:١، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة، المملكة العربية السعودية [١٤١٥هـ].

٥٣٤) نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر، لابن حجر العسقلاني، ط:٣، مطبعة الصباح، دمشق [١٤٢١هـ].

٥٣٥) نشر البنود على مراقي السعود، لعبد الله بن إبراهيم العلوي الشنقيطي، طبع تحت إشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين حكومة المملكة المغربية، وحكومة دولة الإمارات العربية المتحدة. بلا تاريخ.

٥٣٦) نصب الراية لأحاديث الهداية مع حاشيته بغية الألمعي في تخريج الزيلعي، لجمال الدين الزيلعي، ط:١، مؤسسة الريان، بيروت، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة [١٤١٨هـ].

٥٣٧) نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، للرملي، دار الفكر، بيروت [١٤٠٤هـ].

٥٣٨) نهاية الوصول في دراية الأصول، لصفي الدين محمد بن عبد الرحيم الأرموي الهندي، رسالتا دكتوراة بجامعة الإمام بالرياض، ط:١، المكتبة التجارية بمكة المكرمة [١٤١٦هـ].
٥٣٩) النهاية في الفتن والملاحم، لابن كثير، دار الجيل، بيروت [١٤٠٨هـ].
٥٤٠) النهاية في غريب الحديث والأثر، لمجد الدين ابن الأثير الجزري، ط١، المكتبة العلمية، بيروت [١٣٩٩هـ].
٥٤١) نهج الأبرار في اجتناب ما توعد عليه بالنار، للدكتور عبد القادر محمد المعتصم دهمان، ط:١، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤١هـ].
٥٤٢) نوادر الأصول في أحاديث الرسول، لأبي عبد الله، الحكيم الترمذي، دار الجيل، بيروت.
٥٤٣) نيل الأوطار، للشوكاني، ط:١، دار الحديث، القاهرة [١٤١٣هـ].
٥٤٤) الهداية في شرح بداية المبتدي، لبرهان الدين المرغيناني، دار احياء التراث العربي، لبنان، بيروت، من غير تاريخ.
٥٤٥) همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، للسيوطي، المكتبة التوفيقية، مصر.
٥٤٦) الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي الحسن الواحدي، ط:١، دار القلم، والدار الشامية، دمشق، بيروت [١٤١٥هـ].
٥٤٧) الوساطة بين المتنبي وخصومه، لأبي الحسن الجرجاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، من غير تاريخ.
٥٤٨) الوسيط في المذهب، للإمام الغزالي، ط:١، دار السلام، القاهرة [١٤١٧هـ].
٥٤٩) الوسيط في تفسير القرآن المجيد، لأبي الحسن الواحدي، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٥هـ].
٥٥٠) اليواقيت والدرر في شرح نخبة ابن حجر، لعبد الرؤوف المناوي، مكتبة الرشد الرياض [١٩٩٩م].



المؤلف في سطور:

الاسم: عبد القادر محمد المعتصم دهمان.

الميلاد: من مواليد مدينة حمص في سوريا.

محل الإقامة: الكويت، محافظة الفروانية، ضاحية عبد الله المبارك الصباح.

المؤهل والخبرات:

١ - حاصل على شهادة المعهد العلمي الشَّرعي التابع لجمعيَّة العلماء في مدينة (حمص) بتاريخ (١٥/١٢/١٤١٣هـ)، بتقدير: (امتياز). وعلى شهادة الثَّانوية الأزهريَّة (القسم الأدبي) من (القاهرة).

٢ - حاصل على درجة الإجازة العالية (الليسانس) من كليَّة أصول الدين بجامعة الأزهر في (القاهرة)، بتاريخ (٢) من ربيع الآخر [١٤١٨هـ]، (٦/أغسطس/١٩٩٧م) بتقدير: جيد جدًّا، قسم التفسير وعلوم القرآن.

٣ - حاصل على درجة دبلوم الدِّراسات العليا (الماجستير) في التَّفسير وعلوم القرآن، وذلك بعد مناقشة رسالة بعنوان: (الإقناع بين طريقة القرآن وعرض المفسِّر)، وذلك يوم الأربعاء الواقع في (٧/ذي الحجة/١٤٢٤هـ)، الموافق (٢٩/١/٢٠٠٤م). وقد طبعت رسالة الماجستير مع تحقيقات وزيادات وتعديلات جديدة بعنوان (وسائل الإقناع في القرآن) في دار الفتح للدراسات والنشر، عمان، الأردن [٢٠١٦م].

٤ - حاصل على درجة الدكتوراه في التفسير وعلوم القرآن، بعد مناقشة رسالة بعنوان: (أساليب الخطاب في القرآن الكريم). دراسة تحليلية شاملة لأساليب الخطاب والطلب في القرآن

الكريم. وذلك يوم السبت الواقع في (٣٠/٧/٢٠١١)، الموافق (٢٩/شعبان/١٤٣٢هـ). وقد طبعت رسالة الدكتوراه في مجلدين مع تحقيقات وزيادات وتعديلات جديدة في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة الكويت، قطاع الشؤون الثقافية، مجلة الوعي الإسلامي، الإصدار مائة وأحد عشر، غراس للنشر والتوزيع، الكويت [١٤٣٦هـ].

عمل إمامًا وخطيبًا ومدرِّسًا في (سوريا)، وكذلك في (الكويت) ولا يزال. وعمل مُوَجِّهًا فنيًّا في المراقبة الثَّقافية في وزارة الأوقاف إدارة مساجد محافظة (الفروانيَّة)، ثمَّ باحثًا شرعيًّا ومُوَجِّهًا [٢١] عامًا في (المراقبة الثقافية في إدارة مساجد محافظة الفروانية)، وإمامًا وخطيبًا في محافظة (الفروانيَّة) [٢٢] عامًا، ولا يزال.

ومدرسًا في كلية التربية الأساسية في الهيئة العامة للتعليم التطبيقي، قسم الدراسات الإسلامية (الكويت - العارضية).

بعض المشايخ الذين عاصرهم وانتفع بهم:

في مدينة حمص:

١ - الشيخ محمود جنيد كعكة رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٢ - الشيخ أبو السعود بسمار رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٣ - الشيخ أحمد الكعكة رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٤ - الشيخ محمد جندل الرفاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٥ - الشيخ عزت عبيد الدعاس رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٦ - الشيخ عبد الوكيل صافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٧ - الشيخ إسماعيل المجذوب حفظه الله.

٨ - الشيخ وحيد بحلاق رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

في مصر:

١ - الأستاذ الدكتور العلامة إبراهيم عبد الرحمن خليفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ شيخ المفسرين في (عصره).

٢ - الأستاذ الدكتور عبد الغفور محمود مصطفى جعفر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٣ – الأستاذ الدكتور عبد المهدي عبد القادر عبد الهادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٤ – الأستاذ الدكتور سعد رزق جاويش رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٥ – الأستاذ الدكتور إسماعيل الدفتار رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٦ – الأستاذ الدكتور محمد محمد الشريف حفظه الله.

٧ – الأستاذ الدكتور محمود حمدي زقزوق رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٨ – الأستاذ الدكتور عبد المعطي بيومي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٩ – الأستاذ الدكتور محمد سالم أبو عاصي حفظه الله.

الكتب والمؤلفات:

١ – الجزء الأول من كتاب: **(تذكرة وبيان من علوم القرآن)**، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر، الطبعة الأولى: [١٤٤٣هـ، ٢٠٢١م].

٢ – **(مَجَارِي الكِنَايَة في اللُّغَة وعِلْمِ البَيَان والتَّفْسِيْر والفِقْه وأُصُوْلِه)**.

جاء في مقدمة الكتاب: "وقد كنتُ قد بحثتُ من مقاصدِ علم البيان كلًّا من: (التشبيه، والاستعارة، والمجاز المرسل)، في كتاب: (تذكرة وبيان من علوم القرآن)، ووعدتُّ بأن يكون مبحث الكناية في صدر الجزء الثاني من كتابي: (تذكرة وبيان من علوم القرآن).

ولما رأيت ما للكناية من تشعبات في علوم متنوعة رأيتُ إفرادها البحث؛ لحاجة طالب العلم، والباحث في علوم: (اللغة، والبلاغة، والتفسير، والفقه، وأصوله) لمعرفة مجاري الكناية في هذه العلوم".

الطبعة الأولى، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤٥هـ]، الموافق [٢٠٢٣م].

٣ – **(الإرشادات المنهجية إلى تفسير الآيات الكونية)** (إضاءات على تعريف التفسير العلمي وضوابطه، ومبادئه العشرة)، العبيكان، [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م]، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤١هـ]، الموافق [٢٠٢٠م].

وقد طبع قسم منه في (جامعة النيلين)، السودان. بعنوان: (مبادئ التفسير العلمي لنصوص القرآن الكريم وضوابط التعريف)، كبحث (محكم).

٤ – **(وسائل الإقناع في القرآن الكريم)**، دار الفتح للدراسات والنشر، عمان، الأردن [٢٠١٦م].

٥ – **(أساليب الخطاب في القرآن الكريم)**، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة الكويت، قطاع الشؤون الثقافية، مجلة الوعي الإسلامي، الإصدار مائة وأحد عشر، غراس للنشر والتوزيع، الكويت [١٤٣٦هـ].

٦ – **(التربية الوقائية من آفات التفكك الأسري)**، وقد كان طبع في وزارة الأوقاف، في إدارة مساجد محافظة الفروانية، في دولة الكويت سنة [١٤٣٥هـ]، الموافق [٢٠١٤م]، رقم الإيداع ٢٠١٤/٤١م. WWW.islam.gov.kw. بعنوان: (أخطار تهدد الأسرة). وأعيد طبعه في (دار اللؤلؤة)، مع إضافات وبعض التعديلات.

وقد اعتمد جزء منه كبحث محكم، في كلية الدراسات الإسلامية، مدينة: (نوفي بازار)، جمهوريا صربيا، وطبع في كتاب: (المؤتمر العالمي: العلوم الإنسانية والشرعية قضايا ومناهج وآفاق) في (٢٨-٢٩ يوليو/تموز ٢٠٢١م، كلية الدراسات الإسلامية، مدينة نوفي بازار، جمهوريا صربيا، (ص:٥٤٤-٥٦٦).

٧ – **(المحبة صورها وأحكامها، وزارة الأوقاف)**، دولة الكويت، إدارة مساجد محافظة الفروانية، مطبعة النظائر [١٤٣٧هـ]. أعيد طبع الكتاب بإصلاحات وإضافات وتحقيقات جديدة في (دار اللؤلؤة)، المنصورة، مصر [١٤٣٩هـ، الموافق ٢٠١٨م]، الإصدار الثالث بإصلاحات جديدة، العبيكان [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م].

٨ – **(عقبات في طريق الهداية، وسبل الوقاية منها)**، والكتاب يتناول خمسة وخمسين موضوعًا من حيث التعريف وبيان الخطر والتربية الوقائية. طبع في (دار اللؤلؤة)، المنصورة، مصر [١٤٣٩هـ]، الموافق [٢٠١٨م]، الإصدار الثاني، العبيكان، الرياض [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م].

٩ – (**دروس وعبر من رحلة سيد البشر** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ). كتيب. وزارة الأوقاف، دولة الكويت، إدارة مساجد محافظة الفروانية، الطبعة الأولى [١٤٣٩هـ]، [٢٠١٨م]، الإصدار الثاني، العبيكان، الرياض [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م].

١٠ – (**نهج الأبرار في اجتناب ما توعد عليه بالنار**). والكتاب يتناول موضوعات كثيرة من حيث التعريف وبيان الخطر والتربية الوقائية. العبيكان، [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م]، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤١هـ]، الموافق [٢٠٢٠م].

١١ – (**سبيل الوصول إلى عنوان الأصول**) (في الأصول)، وهو شرح وتحقيق ودراسة لعنوان الأصول في أصول الفقه، لأبي حامد المطرزي. مطبوع في دار الضياء، الكويت، الطبعة الأولى [١٤٣٦هـ].

١٢ – (**الْإِرْشَادُ إِلى أَسْبَابِ النَّجَاة، والوَسَائِلُ النَّاجِعَةُ لِحَيَاةٍ طَيْبَةٍ نَافِعَة**)، الطبعة الأولى، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤٥هـ]، الموافق [٢٠٢٣م].

١٣ – (**أساليب النداء في القرآن الكريم**)، دراسة تحليلية لآيات النداء تتناول (الأداة، والمنادَى، والمنادِي، وما ولي الأداة والمنادَى)، العبيكان، الرياض [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م]، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤١هـ]، الموافق [٢٠٢٠م].

١٤ – (**تنوير المستبصر الفائز ببيان أحكام الجنائز**)، شرح وتحقيق كتاب الجنائز للفقير إلى رحمة ربِّه العلي إبراهيم بن يوسف البولوي، توفي سنه [١٠٤١هـ]. مطبوع في دار الضياء، الكويت، الطبعة الأولى [١٤٣٥هـ].

١٥ – (**آفات اللسان وسبل الوقاية والعلاج منها**)، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة الكويت [١٤٤٠هـ، ٢٠١٩م]، العبيكان، الرياض [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م].

١٦ – (**كتب عليكم الصيام**)، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة الكويت [١٤٤٠هـ، ٢٠١٩م].

١٧ – (**ثلاث رسائل في الفقه**)، للعلامة حسن الشرنبلالي المتوفى سنة [١٠٦٩هـ]، وهي على النحو التالي:

أ. (**دُرُّ الكُنوز فمن عمل بها بالسعادة يفوز**). وهي منظومة في أحكام الصلاة.

ب. (**سعادة الماجد بعمارة المساجد**).

ج. (**إتحاف ذوي الإتقان بحكم الرهان**). مطبوع في دار الضياء، الكويت، الطبعة الأولى [١٤٣٦هـ].

١٨ – (**عنوان الأصول**)، لأبي حامد المطرزي. مع شرحنا له، مطبوع في دار الضياء، الكويت، الطبعة الأولى [١٤٣٦هـ].

١٩ – (**أحكام الجنائز**)، لإبراهيم بن يوسف البولوي، توفي سنه [١٠٤١هـ]. مطبوع في دار الضياء، الكويت، الطبعة الأولى [١٤٣٥هـ].

٢٠ – (**إتحاف المهتدين بمناقب أئمَّة الدِّين**) مختصر (تنوير بصائر المقلدين في مناقب الأئمَّة المجتهدين) للشيخ مرعي الحنبلي، اختصار الشيخ أحمد الدمنهوري المتوفى سنة [١١٠١هـ]، الطبعة الأولى، دار الضياء، الكويت [١٤٣٥هـ].

٢١ – تحقيق ودراسة وشرح منظومتي الشهداء:

أ. (**داعي الهدى بشرح منظومة الشهدا**)، للإمام أحمد بن عبد الرَّزاق المغربي الرَّشيدي.

ب. (**شرح منظومة الشهداء**)، للإمام علي بن محمَّد الأجهوري، الطبعة الأولى، دار الضياء، الكويت [١٤٣٤هـ].

٢٢ – (**تحقيق ودراسة رسالتان في الأصول**)، لإسماعيل بن غنيم الجوهري المتوفى سنة [١١٦٥ هـ]:

أ. (**رسالة في جواز النسخ**).

ب. (**الكلم الجوامع في مسألة الأصولي لجمع الجوامع**)، الطبعة الأولى، دار الضياء، الكويت [١٤٣٤هـ].

٢٣ – دراسة وتحقيق (**سورة الفاتحة**) من التيسير في التفسير المسمى ببحر علوم التفسير، لنجم الدين عمر بن محمد النسفي [٥٣٧ هـ]، لم يطبع.

٢٤ — تحقيق ودراسة وشرح لكتاب: (**إتمام الدراية شرح نقاية العلوم**)، وهي خلاصة مختارة من أربعة عشر علمًا، للإمام جلال الدين السيوطي، المتوفى سنة [٩١١هـ]، دار الضياء، الكويت، طبع في مجلدين، وقد شارك في تحقيق (إتمام الدراية) الدكتور عبد الرقيب صالح الشامي، وفضيلة الشيخ مصطفى محمود سليخ.

٢٥ — (**الإفساد في الأرض صوره وأسبابه وسبل الوقاية منه في ضوء الكتاب والسنة**)، العبيكان [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م]، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤١هـ]، الموافق [٢٠٢٠م].

٢٦ — (**الخيانة صورها وأحكامها وآثارها في ضوء الكتاب والسنة**)، العبيكان [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م]، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤١هـ]، الموافق [٢٠٢٠م].

٢٧ — تحقيق ودراسة لكتاب: (**تبيين المحارم**)، للإمام سنان الدين يوسف بن عبد الله الأماسي الحنفي، نزيل مكة، والمتوفى بها في حدود سنة ألف للهجرة، مقابل على سبع مخطوطات، بالاشتراك مع الدكتور عبد الرقيب صالح الشامي، وأ.د إقبال عبد العزيز المطوع،، لم يطبع بعد. وفي الكتاب ما يقرب من مائة باب من المحرمات، مرتبة على ترتيب ما وقع في القرآن من الآيات، والكتاب في طور الإعداد للطبع.

٢٨ — (**مختارات من خطب الدكتور عبد القادر محمد المعتصم دهمان**)، لم يطبع.

٢٩ — الجزء الثاني من (**تذكرة وبيان من علوم القرآن**)، لم يطبع.

٣٠ — **الزَّمان والهداية والاعتبار في قصص القرآن والأحاديث والأخبار**:

وقد جاء فيه: بيان مفهوم الزمان في الاصطلاح واعتبار الشارع، والألفاظ ذات الصلة، ثم التجوز في الأفعال في قصص القرآن، ثم بيان دلالات ومقاصد القسم بالزمن في القرآن الكريم، ثم بيان مقاصد القصص والأخبار، ثم بيان الأزمنة الفاضلة، ثم ذكر الألفاظ يحتاجها المفسر والفقيه مع بيان دلالاتها وما يتصل بها من أعمال، وذكر أسماء وأفعال الزمن الحال والمقارب، وأفعال المقاربة والشروع، وأسماء الزمن المتجدد أو ما يغلب استعماله في التجدد، والزمن الخاص بالمرأة، وما يغلب إطلاقه في الاصطلاح الشرعي على ما يخص المرأة، وأسماء السنة وبيان أجزائها، ودلالة الفعل وأقسامه على

الزمن، دلالة النواسخ الفعلية على الزمان، ودلالة الحال، ودلالة اسم الزمان والظرف في اللغة، والدلالة على الزمن باعتبار الإضافة والقطع عنها، والدلالة على الزمان باعتبار الشرط والاستفهام، وغير ذلك.



إنَّ القرآن الكريم هو كلام الله تعالى المنزل على خير خلقه صلى الله عليه وسلم، فهو الهادي إلى صراط مستقيم، وهو حبل الله عز وجل المتين، وإن القصص فيه هي أصدق القصص، وأنفعها للمكلف، وهي من أعظم أسباب الهداية، وقد وقع الإخبار فيها عن أحوال الأمم، والنبوَّات السَّالِفَة، بأسلوب مشوق، باعث على التأمل والتفكر فيما تتضمَّنه من حقائقَ وعِبَرٍ؛ يقصد منها: الهداية والإرشاد إلى طريق الحقِ، والاعتبار بالعواقب لكلِّ عملٍ يقدم عليه الإنسان في حياته الدنيا، فهو ينظر بعين البصيرة إلى عاقبة من عمل صالحًا فأثمر ذلك العمل استقامة وصلاحًا، وراحة واطمئنانًا، وحياة طيبة، وحسن جزاء في الآخرة، وإلى مآل من ضلَّ وانحرف، فبغى وظلم، فنزل به عقاب الله عز وجل، وهو في الآخرة من الخاسرين. وذكرت في العنوان: ركيزتي القصد من القصص والأحاديث والأخبار في الكتاب والسنة، وهما: الهداية والاعتبار، فهما المقصد الأساس الذي ينبغي أن يلتفت إليه، دون التفات في الغالب إلى الزمان والأشخاص والمسافات. وإن كان في النصوص اعتبار للزمن فلنكتة ظاهرة، لا تخفى على متأمل من أولي البصائر. وقد مهدت لذلك بذكر مصطلحات البحث، والألفاظ ذات الصلة والمقاصد والدلالات. ثم بسطت القول في بيان مفهوم الزمان في الاصطلاح واعتبار الشارع، ثم التجوز في الأفعال في قصص القرآن، ثم بيان دلالات ومقاصد القسم بالزمن في القرآن الكريم، ثم بيان مقاصد القصص والأخبار، ثم بيان الأزمنة الفاضلة، وقد ذكرت في خاتمة الكتاب بعض ألفاظ الزمان الأكثر تداولًا في الكتاب والسنة ودلالالتها في اللغة والتفسير والفقه.

د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان



دار اللؤلؤة للنشر والتوزيع

@DarElollaa

Dar_Elollaa@hotmail.com

الأزهر : شارع محمد عبده خلف الجامع الأزهر .

01050144505 - 0225117747

المنصورة : عزبة عقل - بجوار جامعة الأزهر .

01007868983 -0502357979